عمر "محمد فؤاد" أبو الرُّب

سياسات الأمم ولعبة الأقدار

نظرات منهجية في العمل الاستراتيجي والتحليل السياسي

يتضمن وصفاً للقوى الديناميكية في تركيا وإيران وحزب الله وانجلترا وأمريكا



دار الفكر العربي
شركة مساهمة مصرية
للطباعة والنشر والتوزيع

سياسات الأمم ولعبة الأقدار

نظرات منهجية في العمل الاستراتيجي والتحليل السياسي

يتضمن وصفا للقوى الديناميكية في إيران وتركيا وحزب الله وإنجلترا وأمريكا.

كما يتضمن ملحقا إضافيا عن انتفاضات تونس ومصر

عمر "محمد فؤاد" أبو الرُّب

الطبعة الأولى

١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م

ملتزم الطبع والنشر

دار الفكر العربي

٩٤ شارع عباس العقاد - مدينة نصر - القاهرة
ت: ٢٢٧٥٢٧٩٤ - فاكس: ٢٢٧٥٢٧٣٥
٦ أشارع جواد حسني - ت: ٢٣٩٣٠١٦٧
www.darelfikrelarabi.com
info@darelfikrelarabi.com

٣٢٧,١١	عمر محمد فؤاد أبو الرب.
ع م س ى	سياسة الأمم ولعبة الأقدار: نظرات منهجية فى العمل الاستراتيجى والتحليل السياسى/ عمر محمد فؤاد أبو الرب..- القاهرة: دار الفكر العربى، ١٤٣٢هـ = ٢٠١١م.
	٦١٩ص؛ ٢٤ سم.
	بيليوجرافية: ص٦١٧-٦١٩.
	يشتمل على ملاحق
	تدمك: ×-٠٠٢٧٠٠-١٠-٩٧٧.
	١- السياسة الدولية. ٢- إيران - الأحوال السياسية. ٣- تركيا - الأحوال السياسية. ٤- إنجلترا - الأحوال السياسية. ٥- الولايات المتحدة الأمريكية - الأحوال السياسية. ٦- الأحداث فى تونس ومصر. ٧- المسلمون والمستقبل. أ- العنوان.

جمع إلكترونى وطباعة



التنفيذ الفنى

حسن الشريف



محتويات الكتاب

المقدمة ١٣

١- أساسيات في الفهم السياسي والاستراتيجي ١٥

* اليونان والرومان ١٥
* مفهوم سلق الضفدعة وتكتيكات سلامي ٢٧
* المكائد الثلاث ٣٧
* مجالات التحليل السياسي ٤٢
* الذكاء الجماعي ٤٤
* عقل الديناميكية ٤٧
* عقدة المماطلة وعقدة نتنياهو ٥١
* كيف تقرأ هذا الكتاب ٥٢

٢- الفلتات العالمية الثلاث والفلتة المحتملة الرابعة ٨٧

* الفلتة الأولى - روما ٨٧
* الفلتة الثانية - إنجلترا ٩٥
* الفلتة الثالثة - أمريكا ٩٧
* الفلتة المحتملة الرابعة - إيران ٩٩

٣- الصراع الغربي الإيراني في العراق ١٠٧

٤- مستقبل العلاقات بين إيران وأمريكا ١١٥

٥- أزمة البحارة الإنجليز عام ٢٠٠٧ ١١٩

٦- إنجلترا بعد أزمة العراق ١٢١

٧- إيران ومظاهرات عام ٢٠٠٩ ١٢٣

٨- العراق وصَدَّام وانفراط المسبحة ١٢٧

٩- التفجيرات الانتحارية الأولى في العراق... من خلفها؟؟ ١٢٩

١٠- مستقبل العراق ١٣١

١١- طالبان والقاعدة...ذكاء وحماقة أمريكا ١٣٣
١٢- الصين وروسيا وإيران... التحالف الظاهر والحلم الممكن ١٣٩
١٣- الجدار الصاروخي في بولندا ١٤٥
١٤- أزمة جورجيا ١٤٧
١٥- حزب الله في لبنان ١٥١
١٦- تركيا وأردوغان ١٦٥
١٧- البطش... أسباب وعواقب ١٧٧
١٨- القوى الدافعة المبدئية ١٨٥
* تكتيكات الانتخاب غير المباشر ٢٠٣
* تكتيكات سلامي وسلق الضفدعة ٢٠٤
* نشر الشائعات والاتهامات والشتائم ٢٠٤
* الإشغال واستنزاف الجهد والوقت ٢٠٩
* تكتيكات هوفر ٢١٠
١٩- النظرة إلى أردوغان وحسن نصر الله وغيرهم ٢١٩
٢٠- التفكير الطفولي والمنهج الاستراتيجي ٢٢٧
٢١- حماس والانقلاب على فتح في ٢٠٠٧ ٢٤١
٢٢- حماس والجدار الفولاذي ٢٠١٠ ٢٥٧
٢٣- الأخلاق في أوروبا وأمريكا ٢٥٩
* الثقافة والمجتمع ٢٥٩
* القواعد الأخلاقية في العلاقات الدولية ٢٦١
* مجال الأخلاق ٢٦٢
* الديانة والمجتمع ٢٦٤
* العلمانية والإلحاد في أوروبا ٢٦٥
٢٣- حكاية المساواة والعدالة بين الطبقات في أوروبا ٢٧١
٢٤- الإنجليز... قوى السياسة وصفات المجتمع ٢٧٥

* المؤسسة الملكية ٢٧٥
* حزب المحافظين ٢٧٧
* الأجهزة الإدارية العليا ٢٧٩
* البعد عن تمجيد الذات ٢٨١
* تحديد المسئولية ٢٨٢
* اعتدالية المدح والذم ٢٨٦
* الأدب ومراعاة الحضور ٢٨٧
* الرسمية ٢٨٧
* لغة الوجه والجسم (Body Language) ٢٩٠
* الدردشة ٢٩١
* المداراة ٢٩١
* المواساة وامتصاص الغضب (مداراة المشاعر) ٢٩٢
* المناداة بالأسماء الأولى ٢٩٥
* القــراءة ٢٩٦
* نظرة الاحتراف ٢٩٦
* مهارات التأثير (Charming) ٢٩٩
* سطحية العلاقات الدافئة ٣٠١
* المصافحة ٣٠٣
* تناقض العلاقات الشخصية ٣٠٣
٢٦- إنجلترا وفلسفات الدولة ٣٠٩
* خلق وحماية وإدارة المعارضة ٣٠٩
* توازن القوى والوجود في المركز ٣١٠
* ضم الشرفاء (ودون أن يعلموا) ٣١٢
* مهارات امتصاص الغضب والتوتر ٣١٢
* مهارات التملص ٣١٦

* مهارات تقوية العلاقات وإرجاع الود ٣٢١
* سبق العاصفة و الإحاطة بالأضرار ٣٢٣
* الحكم غير المباشر ٣٢٥
* توجيه الموجة ٣٢٥
* فن صياغة الأعذار ٣٢٦
* مهارات التعامل مع الصحافة والإعلام ٣٢٧
* قوة الديناميكية ٣٣١
* المخابرات في إنجلترا ٣٣٢
* المهارة في خلق الأحلاف والمهارة في التملص منها ٣٣٣
* أخطاء إنجلترا في المكائد السياسية ٣٣٤
* إنجلترا ودولة الخلافة ٣٣٥
٢٧- أمريكا... تحليل صفات ٣٣٩
* ثقافة النجاح بأسرع طريقة وبأي وسيلة ٣٤٠
* ثقافة الاستمتاع الرخيص ورفاهية الإسراف ٣٤٠
* أحادية الخطاب السياسي ٣٤٢
* الصراع في المؤسسات الرأسمالية ٣٤٣
* الصراع في المجتمع ٣٤٤
* الصراع في الأجهزة الإدارية ٣٤٤
* نظرية المؤامرة ٣٤٦
* أمريكا ودولة الخلافة ٣٤٧
٢٨- المسلمون والمستقبل ٣٤٩
* ١٩٦٧ - ١٩٧٧ ٣٤٩
* ١٩٧٧ - ١٩٨٧ ٣٥٠
* ١٩٨٧ - ١٩٩٧ ٣٥٠
* ١٩٩٧ - ٢٠٠٧ ٣٥١

* ٢٠٠٧ – ٢٠١٧ ٣٥٢
٢٩- إيران والمستقبل ٣٥٥
٣٠- الشيعة والسنة ... كفاية ٣٥٩
* احترام الأنصار ٣٦٠
* الكارت الأخضر ٣٦٧
* تحري الصدق ٣٦٨
* فارس والوقت الناقص ٣٧٣
* النظرة الشمولية وأخطاء الادارة ٣٧٦
* نظرات واقعية ٣٨٨
* لماذا لم يقم الرسول عليه السلام بوضع نظام استخلاف؟ ٣٩٧
* مفهوم أهل البيت ٤٠٧
* العمامة الزرقاء ٤١٩
* تقبيل الأيادي ٤٢١
* الأسماء ٤٢١
* الكف عن رفع صور الزعماء ٤٢٢
* الناس تبع لقريش ٤٢٥
* جدال المشككين والمتشددين ٤٣٦
* نظرة إلى الاستنكارات ٤٤٠
٣١- فلسفات في دولة الخلافة ٤٤٧
* نظام الانتخاب والشورى ٤٤٧
* القاعدة الفكرية السلوكية ٤٥٣
* اسم الدولة ٤٥٧
* البهائيون والخلافة ٤٥٨
* الدرجات في أنظمة الحكم ٤٦٤
* مسك العصا من المنتصف ٤٧١

* اللغة العربية وأطراف الخلافة ٤٨٠
* الراية هي قطعة قماش ٤٨٢
* الخلافة ضرورية الآن لإنقاذ البشرية وهذا بمعناه الحرفي ٤٨٥
٣٢- المنهج العلمي والإسلام ٤٨٩
* المنهج العلمي وإثبات وجود الخالق ٤٨٩
* المنهج العلمي وإثبات الرسالة المحمدية ٤٩٤
* المسافة بين المنهج العلمي والقرآن ٤٩٧
* نظرية داروين .. ذكاء واعتراض ٤٩٩
* علاج الشك ٥٠٥
* مدائن صالح ... أم هي مدائن شعيب؟ ٥١١
الخاتمة ٥٢٧
الملحق الأول – تحليلات سياسية ٢٠٠٦ ٥٢٩
* الأزمة الإيرانية – الغربية ٥٢٩
* ما هي أهداف روسيا من تقوية إيران؟ ٥٣٢
* تنبؤات المستقبل لإيران ٥٣٤
* مؤسسة الحكم في إيران ٥٣٦
* الموقف المطلوب من المسلمين تجاه إيران ٥٣٧
* القصة السياسية لأحداث الخليج ٥٤٠
* حماس وتولي الحكومة الفلسطينية ٥٤٨
* اغتيال رفيق الحريري ٥٥٤
* قناة الجزيرة والضربة الأمريكية ٥٥٧
الملحق الثاني – منهج التحليل السياسي ٥٦٠
الملحق الثالث – إضافة لمنهج التحليل السياسي ٥٦٧
الملحق الرابع – تحليلات سياسية ٢٠١١ ٥٧٣
* الأحداث في تونس ومصر ٥٧٣

* الجيش في تونس ومصر ٥٧٨
* قناة الجزيرة وأحداث تونس ومصر ٥٧٩
* إيران وأمريكا ٥٨٥
* إيران وخطر الانتفاضة ٥٨٧
* إسرائيل وأمريكا ٥٨٩
* أمريكا وأوروبا وكيد الإنجليز ٥٩٢
* ثورة ليبيا.. هنا دعوة إلى الاحتراف في العمل الاستراتيجي ٥٩٦
* إيران وأحداث مصر والمستقبل ٦٠٤
* مواقف إيران وحزب الله من الانتفاضة السورية ٦٠٨
المراجع الرئيسية ٦١٥
* المراجع العربية ٦١٥
* مراكز البحث في الإنترنت ٦١٦
* برامج بحث ٦١٦
* المراجع الأجنبية ٦١٦
* مؤلفات سابقة للمؤلف ٦١٧

المقدمة

هذا الكتاب هو فلسفي عملي: فلسفي بمعنى أنه ليس رواية بوليسية ولا هو قطعة أدبية ولا هو خيال علمي. وعملي بمعنى أنه ليس قصة تاريخية ولا هو كتاب أكاديمي ولا هو مرجع علمي وإنما هو كتاب يهدف إلى خلق وترسيخ مهارة. والمهارة هنا هي مهارة التحليل السياسي والعمل الاستراتيجي.

وكما سيتم تفصيله في مقالة لاحقة (كيف تقرأ هذا الكتاب) فإن الأهمية ليست في اقتناع القارئ بجميع أفكار هذا الكتاب بقدر أهمية الانتباه لهذه الأفكار؛ وذلك لأن القارئ إذا لم يقتنع بأفكار هذا الكتاب فهذا معناه أنه قد توصل إلى أفكار أخرى واضحة بديلة. وضمن فلسفة المؤلف (والتي سيتم شرحها لاحقا) فإن الزمن كفيل بتعديل الأفكار الواضحة في الدماغ نحو الصحيح أيا كان هذا الصحيح. ولهذا السبب فليس المطلوب من القارئ أن يقتنع بأفكار الكتاب وإنما أن ينتبه لهذه الأفكار وأن يأخذ منها الموقف.

وكذلك فإن هذا الكتاب يعتمد على صيغ تحديد المسئولية لإبعاد شبهة فرض الفكر ونفي الآخرين. ومثال لهذه الصيغة هو : "ضمن غلبة ظن المؤلف فإن التحليل لكذا هو كذا". والهدف من هذه الصيغة هو التأكيد أن التحليل والفكرة هما ما يقتنع به المؤلف، والقارئ والآخرون لهم كل الحق في أن يقتنعوا أو لا يقتنعوا بها.

عمر محمد

١٥-٢-٢٠١٠

omr.mhmd@ymail.com

http://omr-mhmd.yolasite.com/

ملاحظات:

* كان اسم الكتاب عند تأليفه هو "بذور الحكمة - قصص وحكايات وتحليلات وطريقة تفكير سياسية" وتم تغييره إلى الاسم الحالي أثناء الطباعة.

الفصل الأول

أساسيات في الفهم السياسي والاستراتيجي

قبل الدخول إلى تحليل الوقائع السياسية فإنه من المناسب شرح بعض الأساسيات في الفهم الاستراتيجي. هذه الأساسيات تم ترتيبها في الأبواب التالية:

- اليونان والرومان.
- سلق الضفدعة وتكتيكات سلامي.
- المكائد الثلاث.
- مجالات التحليل السياسي.
- الذكاء الجماعي.
- عقل الديناميكية.
- كيف تقرأ هذا الكتاب.

❖ اليونان والرومان

يستخف كثيرون بدراسة تاريخ اليونان والرومان ويستخف كثيرون بمقارنة السياسات والصراعات الحالية مع السياسات والصراعات عند اليونان والرومان. وهذا الاستخفاف مؤسف؛ لأن هذا التاريخ (تاريخ اليونان والرومان) هو بوابة حقيقية لكل من يريد دراسة وإتقان المهارات السياسية والاستراتيجية:

إذا نظر القارئ بعمق إلى ثنايا التاريخ فسيجد أن انتصار الدول كان يعتمد وما زال يعتمد على ثلاث أعمدة رئيسية وهي الذكاء والانضباط والإرادة:

والذكاء هنا هو ذكاء القيادة وذكاء الخطط.

والانضباط هو قدرة القيادة والجنود على عدم الانجرار وراء المشاعر والعواطف الآنية.

والإرادة هي الاستعداد الحقيقي من قبل الجنود للتضحية في سبيل الانتصار.

والجيش الذي يتفوق على خصمه في جميع الأعمدة السابقة هو المنتصر، حتى وإن خسر بعض المعارك الأولى. وأما العتاد والتكنولوجيا فهي تحدد سرعة وسهولة أو بطء وصعوبة الانتصار. بمعنى آخر فإن الجيش الذي يتفوق على خصمه في الأعمدة الثلاثة لكنه أقل عتادا وذخيرة فإنه هو المنتصر ولكن انتصاره سيأخذ بعض الوقت وكثيراً من التضحية.

وأما إذا كانت الإمكانيات في الأعمدة الثلاثة هي خلطة كأن يكون الجيش، على سبيل المثال، متفوقاً على خصمه في الذكاء ولكن خصمه يتفوق عليه في الانضباط، فإن الانتصار يكون للجيش الذي توافقت إمكانياته مع الظروف وقت المعركة. وفي بعض الظروف فإن الذكاء قد يقوم بتعويض ضعف الانضباط وفي ظروف أخرى فإن شدة الانضباط قد تقوم بالتعويض عن حماقة القيادة.

دعونا نضرب الأمثلة:

جميع المعارك التي خاضها الإسكندر المقدوني بما فيها المعارك التي خاضها مع والده كانت تعتمد على خطة واحدة تكررت عدة مرات. وهناك من يتغنى بعبقرية الإسكندر ولكن في ذلك مبالغة. فمن المؤكد أن الإسكندر كان شديد الذكاء ولكن الدافع في اتساع مملكته هو طموحه الذي لا نهاية له. ولكن العبقرية الحقيقية كانت لوالده فيليب.

لقد قضى فيليب مدة عشرين سنة يقوم بتدريب جيشه، واستطاع خلال هذه المدة أن يجمع بين صلابة سبارطة وتكتيكات ثيبة واستراتيجيات فارس. وبهذا استطاع أن يخلق جيشا في غاية الانضباط مع تكتيكات عسكرية معقدة لم تكن معروفة من

قبل. ومع هذا فإن التكتيك الرئيسي الذي اعتمد عليه فيليب (والإسكندر من بعده) لم يتغير وهو كما يلي:

تتركز قوة الجيش المقدوني في الجناحين في حين يكون الوسط من القوات الخفيفة نسبيا. وعندما يتشابك الجيش مع العدو ويختلط الحابل بالنابل وتبلغ القلوب إلى الحناجر فإن الجناح الأيسر وبحركة مفاجئة يبدأ بالتراجع متظاهرا بالفرار. وعلى إثرها يقوم جناح العدو المقابل بالاندفاع نحوه ومطاردته. وهذا الأمر يؤدي إلى حدوث ثغرة غير متوقعة في جبهة العدو وعندها يقوم سلاح الخيالة المدرع (والذي كان بقيادة الإسكندر) والمتمركز في الجناح الأيمن باختراق هذه الثغرة وشق جبهة العدو.

دعونا نشرح ما سبق بتفصيل أكبر:

يتطلب الانتصار الحاسم من الجيش على العدو حدوث أحد الأمرين التاليين:

١. أن تحدث حالة ارتباك شديدة لدى قادة كتائب العدو إلى الدرجة التي تتحطم معها عمليات التنسيق بينهم ولمدة كافية من الزمن.

٢. أن تحدث حالة فزع شديدة لدى جنود العدو بالقدر الكافي كي تتحطم ميزة الانضباط عندهم ويبدءون بالتصرف بمقتضى غريزتهم البحتة.

وإذا تحقق أحد هذين الأمرين (أو كلاهما) فإن العدو سيكون متجمدا أو منهزما وتكون وظيفة الجيش هي تفتيت العدو وملاحقته واحداً تلو الآخر.

قد يكون من السهل جدا فهم المنطقية في الأمرين السابقين ولكن هل بوسع القارئ أن يدرك مفهومهما؟؟

لقد قيل صدقا إن أكثر الناس إدراكا لمفهوم لسعات النحل هو من خبرها، وإن أكثر الناس إدراكا لمفهوم حرارة النار هم من اكتووا بها. وعليه فإن أكثر الناس إدراكا

لما سبق هو من خاض المعارك وشهد الوقت الذي تبلغ فيه القلوب الحناجر. وأما من لم يشهد هذه المعارك فإن الطريقة الوحيدة له لإدراك مفهوم ما سبق هو استعراض الأمثلة. وأفضل الأمثلة هو غزوة حنين:

قام مالك بن عوف بوضع فخ للمسلمين في حنين، وقد دخل المسلمون إلى هذا الفخ ودون انتباه وكانت صدمتهم حقيقية.

انتبه الآن .... إن انضباط الصحابة كان مرتفعا جدا، وكان هذا الانضباط مبنياً على العقيدة والمبدأ. ولكن لكل إنسان حدوده، وكان هول الصدمة كافيًا لتحطيم ميزة الانضباط في الصفوف وأن يتصرف كل منهم بغريزته البحتة. والذي حدث هو أن الجبهة قد تشققت وتراجع الناس وبقي الرسول وحده في المقدمة مع أفراد على عدد الأصابع. ولكن قوة العقيدة قد ساعدت على كسر هول الصدمة وبشكل أسرع من المعتاد مما أدى في النهاية إلى انعطاف المسلمين إلى الجبهة وإنقاذ الموقف.

وهذه هي النقطة هنا .... مهما كانت قوة الانضباط في الجيش فإن الانضباط له حدوده، وفي اللحظة التي تتخطى الظروف حدود الانضباط فإن الانضباط سينهار ويتحول الجيش إلى مجموعة تشبه القطيع كل واحد فيه يطلب النجاة بمقتضى الغريزة البحتة.

وأحد التكتيكات العسكرية لتحقيق الارتباك والفزع هو أن يكتشف الجيش فجأة أن عدوه قد أطبق عليه من ورائه (بالضبط كما حدث في غزوة أحد). وهذا هو الهدف من خطة الإسكندر، فالخطة بالضبط هي هندسة ثغرة في جبهة العدو ثم تقوم فرقة مدرعة باختراقها وضرب العدو من الخلف.

دعونا نتحدث عن أمر آخر في خطة الإسكندر:

أحد أقدم التكتيكات العسكرية في تاريخ البشرية هو أن يتظاهر الجيش بالهزيمة ويسحب العدو وراءه إلى فخ. هذه المكيدة تكررت وتكررت مرات ومرات عدة. والسؤال الآن هو كيف يمكن لقائد قرأ التاريخ وحفظ ما فيه ثم تنطلي عليه

هذه المكيدة ويذوق وبال أمرها؟ كيف يمكن لمكيدة في غاية القدم أن تبقى مؤثرة وفاعلة حتى هذه اللحظة؟

الجواب هنا هو نفس الجواب السابق: الغريزة البحتة.

فعندما يشتبك الطرفان ويختلط الحابل بالنابل وتبلغ القلوب الحناجر ثم ينهزم طرف فإن المنتصر، ودون وعي وبمقتضى الغريزة البحتة، سيقوم بمطاردة المنهزم. وحتى وإن شعر قائد الكتيبة أن هناك فخاً فإنه لن يكون قادرا على منع جنوده من الإقدام والزحف نحو العدو إلا إذا كانت الكتيبة قد تدربت وبشكل حقيقي على الانضباط.

وأفضل مثال لما سبق هو موقف الرماة في غزوة أحد. وإذا لاحظت فإن تعريف المؤلف للانضباط هو القدرة على عدم الانجرار وراء العواطف والمشاعر الآنية. وهنا تكمن عبقرية فيليب (والد الإسكندر) إذ استطاع أن ينشئ جيشا عالي الانضباط، وكان هذا ضروريا؛ إذ يتطلب الجناح الأيسر أن يتظاهر بالهزيمة دون أن ينهار ودون أن تتشقق الصفوف، وهذا لم يكن بالإمكان تحقيقه لولا وجود تدريبات عالية ساهمت في رفع درجة الانضباط في الجيش.

وهذه هي الخطة الرئيسية للإسكندر والتي تكررت خمس مرات في خمس معارك رئيسية. ولكن إذا نظرت إلى التاريخ فستجد أن خطة الإسكندر قد تكررت مرات ومرات عدة عبر التاريخ. فمعركة أوسترليتز (Battle of Austerlitz) بين نابليون والروس تكاد تكون صورة طبق الأصل لخطة الإسكندر. وكذلك اجتياح هتلر لفرنسا وثغرة أردنيس (Ardennes) تكاد تكون طبق الأصل لخطة الإسكندر. والفرق بين الحربين أن الإسكندر قد استخدم السيف والخيل في حين استخدم هتلر الدبابة والطائرة، وجبهة المعركة عند الإسكندر لا تزيد عن ٥ كم في حين أن جبهة المعركة لاحتلال فرنسا كانت تزيد على ٥٠٠ كم.

وهذه هي النقطة هنا .... إن تكتيكات الاشتباك تختلف باختلاف الأسلحة عبر الزمن ولكن تكتيكات المعركة واستراتيجيات الحرب والسياسة تبقى خالدة وفاعلة ومؤثرة. وهنا نرجع إلى الكلمة الأولى في هذا الباب: الحرب يتم حسمها للأكثر ذكاءً وانضباطا وإرادة، وأما العتاد والتكنولوجيا فهي عوامل مساعدة تؤثر في سرعة أو بطء الانتصار.

الآن ... إن التمعن في التاريخ العسكري والسياسي للبشرية ضروري لتنمية مهارات التحليل والإدارة الاستراتيجية. ولكن لماذا هو أمر أساسي القيام بدراسة تاريخ اليونان والرومان؟

الجواب بسيط: إن المؤرخين اليونانيين والرومان كانوا على إلمام كبير بمفاهيم ومصطلحات الاستراتيجية والتكتيك، وكذلك فإن مهاراتهم في تزويرأحداث التاريخ كانت ساذجة. ولهذا السبب فإن كتابات المؤرخين اليونان والرومان لتاريخهم السياسي والعسكري كانت شفافة ودقيقة وبلغة استراتيجية. في حين أن التاريخ الإسلامي وتاريخ أوروبا في العصور الوسطى قد تمت كتابته بالأسلوب الأدبي مع الكثير من المجاز والبلاغة. وأما التاريخ الحديث فإن الكلمة الصادقة في طياته قد أحيطت بكثير من الأكاذيب والتدليس وذلك لأن مهارات التزوير في العصر الحديث قد وصلت إلى مراحل متقدمة من الإتقان.

ولهذا السبب فإن الاستنارة من تاريخ الخلافة وتاريخ أوروبا بحاجة إلى جهد إضافي للفلترة واستبيان المواقف الاستراتيجية والتكتيكية فيه وأما تاريخ اليونان والرومان فهو مكتوب بشكل واضح وشفاف ومحترف مما يجعله منبعاً لكل من يريد أن يتعلم مهارات التحليل والإدارة الاستراتيجية.

وهنا ثلاث دعوات من المؤلف لكل من يهتم بأمور السياسة والاستراتيجية:

الدعوة الأولى هى قراءة التاريخ بأسلوب استراتيجي. وهذا الأسلوب الذي يهتم بشكل خاص بإدراك الكيفية التي استطاع بها القادة أن ينتبهوا إلى ثغرات العدو،

والكيفية التي استطاع بها القادة أن ينجحوا فى صناعة الخطط. والانتباه إلى المكائد التي قام بها كل طرف للآخر والانتباه كيف نجحت هذه المكائد وكيف فشلت. والانتباه لمستوى الانضباط والإرادة عند كل طرف وتأثير هذا المستوى على نتيجة الصراع. وأهم شيء هو الانتباه لديناميكية الدولة والمجتمع وتأثير هذه الديناميكية على نتيجة الصراع.

والدعوة الثانية هنا هى دراسة تاريخ الخلافة، لأن في تاريخ الخلافة سرداً لمنجزاتنا وآلامنا ونقاط قوتنا ومسببات هفواتنا.

والدعوة الثالثة هى دراسة تاريخ اليونان والرومان لأن هذا التاريخ قد تمت كتابته بشكل واضح وشفاف مما يجعله منبعا لدراسة الاستراتيجية والتكتيك.

وهناك فصل في تاريخ الرومان له تشابه مع الصراع الأمريكي الإيراني في العراق وهو معركة كان (Battle of Cannae) ومعركة جرينويم (Battle of Geronium) بين هانيبال (Hannibal) والرومان.

وعندما تنظر إلى تاريخ هانيبال فيجب ألا تنظر إليه كقائد عسكري بقدر ما تنظر إليه كمخرج مسرحي. وعندما تنظر إلى مقاتلي هانيبال فيجب ألا تنظر إليهم كجنود بقدر ما تنظر إليهم كممثلين. وعندما تنظر إلى معارك هانيبال فيجب أن تنظر إليها كعمل مسرحي شديد الإتقان. فعبقرية هانيبال الأساسية كانت في قدرته على ترتيب حركات مسرحية معقدة كانت قادرة على خداع الجيش الروماني واستدراجه إلى فخاخ محكمة. وسأترك للقارئ النظر في صفحات التاريخ لهاتين المعركتين واستنباط المسرحيات منهما، وإنما أريد أن أناقش موضوع الحركات المسرحية في الصراع:

الحركات المسرحية في المعركة هي الحركات التي يقوم بها الجيش كجزء من الخطة التكتيكية العامة. فقيام الجناح الأيسر في جيش الإسكندر بالتظاهر بالهزيمة هو عمل مسرحي.

ومن الضروري الانتباه هنا إلى أن الحركات المسرحية في المعارك والصراع ليست بالأمر السهل وفيها الخطورة الحقيقية، ومن قام بها دون إتقان لها وانضباط فإنها ستكون السبب في هلاكه هو قبل عدوه.

لنضع تشبيها يساعدنا في توضيح الادعاء السابق، وهو تشبيه من لعبة كرة القدم:

لاحظ أن لاعبي كرة القدم في الأندية العالمية هم محترفون وقادرون على ترقيص (من رَقَّصَ) خصومهم.

دعونا نتوقف لشرح مفهوم ترقيص: عندما يقوم مجموعة من المحترفين بمباراة ودية غير رسمية من أجل المتعة والتسلية فستلاحظ أنهم يتنافسون بمهاراتهم الفردية وكل منهم يجتهد في مراوغة ومجاراة خصمه. وهذا هو المقصود بكلمة ترقيص. ولكن إذا انتبهت إلى المباريات الرسمية فستجد أن القلة منهم فقط هم الذين يتعمدون ترقيص خصومهم. مثال ذلك هو زين الدين زيدان. وأما معظم اللاعبين فستجدهم قدر الإمكان يتحاشون استخدام هذه المهارات.

ولكن لماذا؟

يمكن وضع الجواب في نقطتين:

- الترقيص مجهد لأنه يتطلب استخدام طاقة أكبر.
- الترقيص يزيد من احتمالية الوقوع في الخطأ.

لهذا السبب فإن الذي يستخدم الترقيص في المباريات الرسمية هم فقط من أتقنها وأتقن تفادي عواقبها (الإجهاد والخطأ).

وكذلك الحركات المسرحية في المعارك والصراع السياسي، فهذه الحركات تتطلب جهدا وأموالا أكثر، كما أنها قد تسبب الارتباك والشعور بالفوضى والضياع

لقادة الكتائب والجنود. وهذا كله سيزيد من احتمالية الوقوع في الأخطاء والتشقق في الصفوف والجبهة.

وهذا هو السبب في أن الكثير من القادة العسكريين يتحاشون، قدر الإمكان، استخدام الحركات المسرحية المعقدة في الحرب والسياسة ويفضلون استخدام تكتيكات مباشرة وواضحة.

وهذا هو السبب في أن الحركات المسرحية المعقدة لا يمكن أن تنجح من غير وجود ذكاء حقيقي لدى القيادة العليا وبرودة أعصاب لدى قادة الكتائب وانضباط مرتفع لدى الجنود.

وهذا ما يجعل معركتي (كان وجرينيوم) مصدري إلهام ومادتي دراسة لقادة الاستراتيجية لأنهما تضمنتا حركات مسرحية معقدة ضد عدو (الرومان) كان ذا ذكاء مرتفع وانضباط شديد.

لنرجع إلى الواقع الحالي. إن غلبة ظن المؤلف (كما سيتم شرحها بتفصيل أكبر لاحقا) أن العراق كان فخا إيرانيا محكما للحلفاء (أمريكا وإنجلترا) وأن ما قامت به إيران تضمن مسرحيات معقدة شارك في تمثيلها كل من خامنئي ونجاد ورفسنجاني وخاتمي وتوزعت الأدوار على كافة الممثلين، فمنهم من كان يمسك بغصن الزيتون، ومنهم من كان يضغط على الزناد، ومنهم من حاول ترطيب الأجواء، وآخرون يثيرون الاستفزاز. وكانت نهاية المسرحية استنزاف حقيقي لأمريكا وإنجلترا في العراق وإفلاس حضاري وأخلاقي وفكري لهما وأزمة مالية عالمية وتغير حقيقي في معادلات القوى في خارطة السياسة العالمية.

وتوجد هنا نقطة في موضوع الذكاء من المناسب التعمق فيها:

الذكاء في صناعة الخطط يحتاج إلى أمور أهمها اثنان: الإدراك والاستغلال. فهانيبال كان يدرك تماما طباع خصومه ويعلم قوى التنافر والتجاذب عندهم ويدرك

تماما ردات أفعالهم، وكان كذلك منتبها لجغرافية الأرض وطبيعتها. وقد قام باستغلال كل هذا في صناعة الخطط.

ولهذا فهناك مهارتان منفصلتان تماما. أولاهما هي مهارة الإدراك والثانية هي مهارة الاستغلال (أي استغلال هذا الإدراك). وهذا ما جعل هانيبال متميزا؛ إذ كان يمتلك المهارتين معا.

لنتمعن قليلا في موضوع الإدراك:

الطريقة التي يستطيع بها الذكي قليل العتاد أن ينتصر على قوي العتاد هو أن يقوم الذكي باستغلال نقاط ضعف خصمه أو أن يقوم الذكي باستغلال قوى الطبيعة معه.

فكثير من الجيوش من قام باستغلال الرياح لمصلحته وآخرون وضعوا الجيش بحيث تكون الشمس وراءهم تضرب أعين أعدائهم.

ولهذا فعملية الإدراك ليست متعلقة فقط بمعرفة طبائع العدو وقوى التجاذب والتنافر عنده وإنما محاولة إدراك جميع الظروف المحيطة بالعدو.

وهذا الأمر أدركه الإنجليز وكانت الدراسات والأبحاث المتعلقة بالشرق الأوسط شاملة تتضمن الدراسات التاريخية والاجتماعية والسياسية والجغرافية. بل عندما أعلن أحد الرحالة في أواخر القرن التاسع عشر أنه قد عثر على البتراء فإن الجيش الإنجليزي في مصر قام، وعلى الفور، بإرسال ضابطين متنكرين إلى البتراء لمعاينتها.

فبالنسبة لإنجلترا فإن الدراسة الشاملة كانت مفيدة لأنه لا أحد يعلم بالضبط أين تكمن الثغرات الحقيقية عند الخصم.

وهذه هي النقطة هنا......الإدراك يتطلب الإحاطة بطباع الخصم وبالظروف المحيطة به. وهذا يتضمن دراسة لقوى التجاذب والتنافر، ودراسة الهيكل الاقتصادي

والاجتماعي والسياسي، ودراسة شرايين التموين، ودراسة المناخ وحركة الرياح واحتماليات الزلازل والأعاصير.. إلخ.

وهذا الأمر لا يتعلق فقط بالصراع العسكري أو السياسي وإنما يتعلق بأي صراع. وأفضل الأمثلة هو مثال الإضرابات في إنجلترا. فإضرابات رجال المطافئ قد أخذتها الحكومة باستخفاف واستغرق الأمر أسابيع طويلة حتى تم فض الموضوع. في حين قامت الحكومة بالنظر إلى إضرابات سائقي شاحنات الوقود بجدية حقيقية؛ وذلك لأن سائقي الشاحنات قاموا بالتجمع في الأوتوسترادات (Motorways) الرئيسية في البلاد ثم ساقوا شاحناتهم فيها وبكل بطء. والأوتوسترادات هي شريان حيوي في اقتصاد إنجلترا.

وهنا النقطة....فما قام به رجال المطافئ وسائقو الشاحنات هو العمل نفسه وهو الإضراب. ولكن تنفيذ الإضراب عند سائقي الشاحنات كان أشد أثرا من تنفيذ الإضراب عند رجال المطافئ. وبعبارة أخرى نقول إن سائقي الشاحنات كانوا أكثر مهارة في توجيه طاقتهم وجهدهم باتجاه النقاط والمفاصل الأكثر تأثيرا. ولكي تستطيع الدولة أن تقوم بتوجيه جهدها وطاقتها نحو النقاط والمفاصل الأكثر تأثيرا فيجب أن يكون لديها الإدراك المسبق لهذه النقاط والمفاصل.

توجد هنا الآن مشكلة:

إنجلترا كانت وما زالت تمتلك الإمكانيات المادية والبشرية والإدارية لعمل دراسات شاملة عن خصومها. ولكن هذه الإمكانيات تكون أقل لدى الدول الصغيرة. والسؤال هنا هو كيف يمكن للدول الصغيرة أن تقوم بالتوفيق بين إمكانياتها المحدودة وبين دراستها لخصومها؟

والجواب هو المقامرة ولكن بذكاء ووعي. وهو أن تقوم الدولة باختيار الجوانب التي ترى دراستها مهمة واستبعاد الجوانب التي تراها غير مهمة. وهذه مقامرة لأنه لا أحد يدري عن يقين أين تكمن ثغرات الخصم الحقيقية. ولهذا السبب فعمليات الاختيار والاستبعاد يجب أن تكون مبنية على ذكاء ووعي.

وهناك نقطة فرعية أخرى في موضوع الذكاء:

كثير من المشاكل قد يراها البعض مستحيلة الحل، وهذا قد يكون صحيحا، ولكن بنظرة إلى التاريخ فإنه من الممكن الاستنتاج أن هناك الكثير من المشاكل التي كانت مستحيلة أتتها الحلول فجأة ودون إنذار. أفضل الأمثلة هو ما فعله وليام ولاس (William Wallace) في سعيه لاستقلال اسكتلندا. فقد كانت النظرة العامة ذلك الوقت أنه من المستحيل لمجموعة من المشاة من الوقوف في وجه سلاح الخيالة المدرع. ولكن جاءت إليه الفكرة وقتها بإحياء نظام الفالنكس الأسبارطي (أي عمل سد عريض من الرماح الطويلة في وجه الخيالة) وكان حلاً ناجحاً.

وهذه هي النقطة هنا.... أنت لا تستطيع أن تتيقن أن المشكلة التي تواجهها لا حل لها؛ ولهذا السبب فإنه من الحكمة عمل لجان تفكير تقوم (وبشكل دوري) باستعراض المشكلة..... فلعل وعسى. وعندما تكون مدة الصراع هي عشرات السنين فإنه لا يهم حقيقة أن تجد الحلول خلال أيام أو خلال سنوات.

النقطة هنا أن الشخص إذا قام بالتفكير في الأمور المستعصية وبشكل دوري دون أن يجد لها الحل فهو معذور. ولكن إن كان هناك حل للمشكلة ولم يجده ذلك الشخص لأنه لم يقم بالتفكير فهو ملوم ولن ينظر له التاريخ إلا بانتقاد.

نقطة أخيرة في هذا الباب:

قلنا في البداية إن الانتصار يتحقق للأكثر ذكاءً وانضباطًا وإرادة. وقد يظن البعض أن الانضباط والإرادة هما أمر واحد وهذا ليس دقيقا. فالتدريبات التي تقوم بها معظم الجيوش النظامية في العالم ترفع مستوى الانضباط في الجيش، ولكنها في الوقت نفسه تقوم بقتل الإرادة، فالعبيد ليس لهم إرادة. وأغلب التدريبات في الجيش النظامي تقوم بقتل الشخصية الفردية للجندي وتحويله إلى جهاز ميكانيكي يعمل بالروموت كونترول، وهذا هو قمة الانضباط، ولكن في الوقت نفسه فإن الإرادة والاستعداد للتضحية تكون قد وصلت إلى درجتها الدنيا. وهذا هو السبب الذي يجعل كتائب الميليشيا أشد صلابة من الجيوش النظامية. وهنا دعوة من المؤلف إلى

الجيوش النظامية الإسلامية بضرورة البحث عن فلسفة تدريبية أخرى للجيش النظامي تصقل في الجيش الانضباط دون أن تحطم معه الإرادة.

وأفضل مثال يقوم بالتفريق بين الانضباط والإرادة هو قصة طالوت:

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩)﴾ [البقرة]، وغلبة الظن هنا أن طالوت أراد أن يستخلص المنضبطين في الجيش فخرج في مسيرة شاقة ثم عبر بهم النهر ومنعهم من شرب الماء. وأخذ الذين لم يشربوا من الماء وترك الباقي. ولكن قبل المعركة استرهب ضعاف الإرادة من قوة العدو فقال ذوو الإرادة العالية "كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله".

❖ مفهوم سلق الضفدعة وتكتيكات سلامي

هناك فرضية تقول إن الضفدعة إذا سقطت في الماء الحار فإنها تقفز خارجه ولكن إذا تم وضع الضفدعة في ماء بارد وتم تسخين الماء ببطء فإن الضفدعة ستبقى في الماء حتى الموت. أي أن الضفدعة لا تستطيع تمييز خطورة الحرارة إن ارتفعت الحرارة ببطء.

وبغض النظر عن المصداقية العلمية لهذه الفرضية إلا أنها تضع تشبيها صادقا لسلوك حدث وما زال يحدث في التاريخ. كما أن هذه الفرضية هي الأساس الذي تستخدمه لعبة الأقدار في تغيير القوى السياسية في العالم.

لنقم بضرب الأمثلة:

المثال الأول:

استراتيجية حزب الله من بداياته وحتى ٢٠٠٦ كانت تقوم على ضربات عسكرية متكررة بحيث لا تشكل أي ضربة تبريرا لإسرائيل للقيام بالحرب الشاملة.

دعونا ندرس المواقف الاستراتيجية والنفسية لما سبق:

عندما يقوم حزب الله باغتيال جندي إسرائيلي فإن هذا يسبب ضربة حقيقية لإسرائيل. ولكن على القادة في إسرائيل بعد هذه الضربة أن يتخذوا قرارا لطريقة الرد. وطريقة الرد يمكن أن تكون عمليات جوية أو حربًا شاملة. ولكن الحرب الشاملة لها ميزانيتها وكلفتها كما أن لها عواقب شخصية (كالإحالة للتقاعد وإنهاء الخدمة) وعواقب حزبية (كشعبية أو انتكاس الحزب) وعواقب سياسية (كتأييد أو شجب عالمي) وعواقب اقتصادية.. إلخ.

وبالنسبة لإسرائيل فإن عواقب الحرب الشاملة تجاه حزب الله (بالنسبة لوجهة النظر التي رآها العدو وقتها وبالنسبة لمصالحهم الشخصية والحزبية ومصلحة الدولة) لا تبررها ضربة واحدة من حزب الله.

وهذا هو أسلوب سلق الضفدعة: فكل عملية من حزب الله لم تشكل تبريرا كافيًا لإسرائيل للقيام بحرب شاملة، ولكن في الوقت نفسه فإنها كانت تزيد من قوة حزب الله وتزيد من ضعف وارتباك العدو الإسرائيلي حتى جاءت النهاية وقام العدو بالحرب الشاملة ولكن بعد فوات الوقت وبعد أن تضاعفت مهارات وقوة حزب الله عدة مرات.

هذه هي النقطة هنا ... قيام حزب الله بقتل جنديين كل أسبوع فإنهم بالحساب يكونون قد قضوا على حوالي مئة جندي من العدو في السنة. وبالطبع فإن مئة جندي هو عدد قليل ولكن التأثير النفسي على العدو كان ضخما وذلك لمهارة حزب الله في استخدام الوسائل الإعلامية في صراعه مع العدو.

انتبه الآن ...... مقتل مئة جندي في السنة لا يشكل داعيًا لإسرائيل للقيام بحرب شاملة ولكن إذا حدث أن قتل حزب الله ١٠٠ جندي في يوم واحد فإن تداعيات هذا الحدث ستدفع إسرائيل للقيام بحرب شاملة. وكان حزب الله قبل ٢٠٠٦ ضعيفا ولم يكن يحبذ الحرب الشاملة ولهذا فقد استخدم أسلوب الاستنزاف البطيء واستنزاف الخطوة-خطوة وهو ما نسميه هنا بسلق الضفدعة.

مقابل أسلوب سلق الضفدعة فإن هناك أسلوبا آخر وهو الضربة الحازمة. مثال ذلك ما حدث في انفجار السفارة الأمريكية في بيروت ومقتل ٢٨٠ من المارينز هناك. وكان هناك اختياران عند الإدارة الأمريكية: الاختيار الأول وهو الدخول إلى حرب مستنقعات في لبنان، والاختيار الثاني هو الخروج من لبنان مع ما فيه من مذلة. وكان أفضل الحلول وأقلها كلفة ذلك الوقت هو الخروج من لبنان. وبالطبع فإن الدول في صراعها مع بعضها البعض تستخدم الأسلوبين معا، والذكاء عند الدولة هو في معرفة الكيفية والوقت والمدى والترتيب في استخدام هذين الأسلوبين.

المثال الثاني:

كان أحد أحلام شارل ديجول هو استبدال الدولار بعملة عالمية أخرى، حيث كان واضحا لديه أن فرنسا والعالم يدفعون ضرائب باهظة وغير عادلة وبشكل غير مباشر جراء استخدام الدولار كعملة أساسية. وكان أحد الأهداف الأساسية عند الاتحاد الأوروبي هو عمل عملة موحدة بينهم. ولكن هذا المشروع ما كان يمكن أن يتم في ليلة واحدة دون صراع حقيقي مع أمريكا. ولهذا السبب فإن مشروع إقامة العملة الواحدة قد تم على عدة مراحل بحيث لم تسبب أية مرحلة العداء بينها وبين أمريكا. وإذا حدث أن انزعجت أمريكا من إحدى المراحل فإن الذي يحدث هو مجموعة من المفاوضات وبعض التنازلات والزيارات الودية والمدح والمجاملة والطمأنة وشرب الأنخاب وتوزيع الأوسمة، فتهدأ النفوس ثم يبدأ العمل في المرحلة التالية.

انتبه ... أمريكا لم تكن غبية وكانت قيادتها على علم بتداعيات العملة الأوروبية عليهم ولكن كان لأمريكا أولويات ملحة فى ذلك الوقت، وأوروبا لم تتصرف خارج الإطار المقبول وكانت الخطوات الأوروبية بطيئة فلم تستدع تصرفاً أمريكياً حازماً تجاهها، وكانت النتيجة هي ظهور العملة الأوروبية الموحدة إلى العالم دون مشاكل جوهرية.

المثال الثالث:

إخـراج الاتحـاد السـوفييتي من شرق أوروبا اسـتغرق فترة مـن الزمن (من ١٩٦٩إلى١٩٨٥م) وتطلب عمليات اسـتنزاف اقتصادي واسـتخباراتي وإعلامي وفكـري متكـرر. وكانـت كل عمليـة في هذا الاسـتنزاف تقضـم قليلا مـن الهيبة السـوفييتية ولكـن في الوقـت نفسـه فـإن كل عمليـة من هـذه العمليـات لم تكن تـبرر التكاليـف والعواقب للحـرب المكشـوفة أو العداء الصريح مـن وجهة نظر السـوفييت.

انتبه... استنزاف الاتحاد السوفييتي لم يكن دمويا؛ فلم يكن هناك حرب عصابات تجاه الاتحاد ولا اغتيالات ولا حرب شوارع. وإنما كان الاستنزاف باردا، وتركز على إشغال الاتحاد في مشاريع مكلفة وغير جوهرية، وعمل نزيف في خزينة الاتحاد حتى الإفلاس، وضرب هيبة النظام الشيوعي عند شعوب الاتحاد، ونشر الفوضى والارتباك في الأجهزة الإدارية في الاتحاد السوفييتي.

كأمثلة على ما سبق فإن سباق التسلح والسباق نحو الفضاء قد كان مكلفا لطرفي النزاع (أمريكا وروسيا) ولكن تأثير الكلفة على روسيا كان أضعاف أضعاف تأثيره على أمريكا. وكان خروتشوف يدرك هذه اللعبة من الأمريكان. وهناك نكتة منسوبة لخروتشوف:

صحفي: أمريكا تملك من الأسلحة ما يمكنها من تدمير الاتحاد السوفييتي مرتين، فماذا تملك روسيا؟

خروتشوف: روسيا تملك من الأسلحة ما يسمح لها بتدمير أمريكا مرة واحدة فقط. ولسنا بحاجة للمرة الثانية.

على أية حال فإن خروتشوف لم تُعط له الفرصة كي يُترجم أفكاره إلى الواقع العملي وهذا موضوع سيتم تفصيله لاحقا.

مثال آخر لعمليات الاستنزاف لخزينة الاتحاد هو عمليات الهجرة السرية، فلم يكن من المكلف للغرب قيامهم باستقبال واستضافة المهاجرين الذي تمكنوا من التسلل نحو الغرب. في حين أنه كانت عملية مكلفة جدا من قبل الاتحاد السوفييتي بحراسة الحدود لمنع التسلل نحو الغرب.

والنقطة السابقة تستدعي التوقف... إن من الأساليب الاستراتيجية في قراءة التاريخ هو البحث والانتباه إلى موضوع "لو". أي ماذا كان يمكن أن يحدث لو أن هذا فعل كذا بدلا من كذا. و"لو" هنا هي ليست للحسرة وإنما هي للتعلم. وأفضل مثال لـ "لو" الانتباه والتعلم هي ملاحظة ذكرها المأمون بن هارون الرشيد (القصة هنا بتصرف):

قام هارون الرشيد بفرض بيعة ولديه (الأمين والمأمون) على الناس. وعندما مات الرشيد فإن الخلافة ذهبت للأمين وأخذ المأمون ولاية خراسان. ثم ظهر الخلاف بينهما وبدأ القتال واستطاع المأمون أن يفرض أمره ويأخذ الخلافة. وذكر المأمون لأحد وزرائه أنه كان للأمين فرصة حقيقية أن ينتصر ودون أي جهد. وكانت هذه الفرصة هي أن يعلن الأمين لأهل خراسان عن تقديره ومحبته لهم وأنه احتفالا بتوليه الخلافة وتقديرا لولاء أهل خراسان له فإنه قرر أن يعفيهم من الضرائب. الآن لو أن هذا حدث فإن المأمون سيكون في ورطة حقيقية، فهو إن رفض الأمر ستكون ثورة ضده لأن الإعفاء جاء بأمر الخليفة، وإن هو رضي بالأمر فلن يجد في خزينته الأموال الكافية لتمويل الثورة ضد الأمين.

دعونا نستخدم "لو" الانتباه في موضوع المتسللين من الاتحاد السوفييتي: ماذا كان يمكن أن يحدث لو أن الاتحاد السوفييتي تقاعس قليلا عن منع الناس من التسلل نحو الغرب؟

نعم ستكون هناك مشاكل إعلامية للاتحاد السوفييتي، وقد يقوم بعض كبار الموظفين بالهرب نحو الغرب، ولكن لكل أمر حدوده، والغرب في استقباله للمتسللين إنما يستقبل الغث والسمين منهم وسيأتي الحد الذي يكتشف فيه الغرب أنه غير قادر على تكاليف الاستضافة وسيبدأ هو بنفسه بحماية حدوده من التسلل. بالإضافة إلى ذلك فإن المتسللين أنفسهم سيبدأون الانتباه لهفوات ونقائص النظام الغربي ويبدأون بالحنين إلى أوطانهم بالضبط كما ظهر الحنين لكثير من الناس في روسيا لميزات النظام الشيوعي بعد انهيار الاتحاد السوفييتي. ولهذا فإن تخمين المؤلف هو أنه لو تقاعس الاتحاد عن منع التسلل نحو الغرب فإن هذا كان سيشكل مضرة آنية له ولكن سيسبب كذلك مضرة حقيقية آجلة للغرب.

مثال آخر لما سبق وهو ما حدث في الحرب العراقية الأمريكية الأولى:

فقد أغارت القوات الجوية الأمريكية على إحدى المحطات العراقية لضخ النفط في الخليج. وكان الهدف التكتيكي للأمريكيين هو إشغال العراقيين بإصلاح المحطة ودفع القوات لحماية المحطات الأخرى. ولكن العراقيين لم يقوموا بعمل أي شيء وإنما جلسوا ساقا فوق ساق ينظرون إلى النفط ينزف نحو الخليج. وهذا ما لم يتوقعه الحلفاء وتسبب بعمل بقعة نفطية ضخمة في الخليج وكانت مشكلة حقيقية للحلفاء.

المثال الرابع في سلق الضفدعة:

العراق في عام ١٩٩٠ كان ممتلئا بالأسلحة وتحت قيادة حمقاء. ولم يكن بالإمكان عمل انقلاب عسكري إذ أصبحت الأنظمة الحاكمة على قدر عالٍ من التنظيم وأصبحت الانقلابات العسكرية قصة من الماضي. ولم يكن بالإمكان احتلال العراق وقتها إذ إن هذا سيؤدي إلى خسائر ضخمة للحلفاء. فكان الحل عندهم هو القيام بحرب محدودة

مع العراق ثم على إثرها القيام "بتشليح" العراق من أسلحته المؤثرة خطوة- خطوة. بمعنى آخر القيام باستخدام مفهوم سلق الضفدعة مع العراق.

وعملية تشليح الأسلحة من صدام استغرق عشر سنوات، وكان صدّام على الأمل أن يستطيع الوصول إلى نهاية مقبولة بينه وبين الغرب. وعندما قرر الغرب في النهاية القيام باحتلال العراق (ولأسباب تم شرحها في الملحق الأول من هذا الكتاب) فإنه قام بعملية الاحتلال وبكل سهولة ويسر. فقد كان احتلال العراق للحلفاء أشبه ما يكون بنزهة، وهذا كله نتيجة لعمليات التشليح والتجسس التي حدثت قبل الاحتلال بسنوات.

وهذا الموضوع يستحق التوقف... إن كثيرا من الخطط الذكية والعبقرية ما تتحطم وتنهار وينعكس مفعولها وذلك بسبب تصرفات ارتجالية وحمقاء من قبل القيادة التنفيذية. وأفضل الأمثلة هو التصرفات الأمريكية الحمقاء في العراق.

وأحد الأمثلة هو إعدام صدّام. وقد استمع المؤلف لتعليقات الأمريكيين في هذا الأمر، وكان في مجملها أن إعدام صدام سيعطي درسا لقيادات العالم لكل من يتجرأ على أمريكا. ولكن هذه هي الحماقة، فأمريكا الآن ليست أمريكا الماضي وإعدام صدّام اليوم قد أعطى درسا مختلفا تماما عما يظنه الأمريكيون:

كان في استطاعة صدام القتال حتى الموت عام ١٩٩١ وكان قادرا وقتها أن يجعل خسائر الحلفاء أضعاف أضعاف ما خسروه، ولكن الحلفاء قد قرروا حربا محدودة وقد أمّلوه بالوعود والاتفاقيات فآثر صدّام السلامة. ولكن هذا قد أعطى لصدّام حياة لمدة عشر سنوات فقط ولم تكن حياة عزيزة وكانت نهايته مهينة. وبمعنى آخر فإنه لو أدرك صدّام أن نهايته ستكون حبلا حول عنق لكان الأشرف له ألف مرة أن يقاتل ويقاتل حتى الموت. فهو ميت في الحالتين ولكن موته في المعركة كان يُمكن أن يؤدي إلى خسائر ضخمة للحلفاء في حين أن موته بعد "سلق الضفدعة" كان مهينا.

وهذا هو الدرس الذي سيتعلمه العالم من إعدام صدّام. فعندما تحدث المعركة بين أمريكا وغيرها وتبدأ أمريكا بعرض الوعود والاتفاقيات فإن المَثل سيكون "الموت في المعركة أشرف ألف مرة من السلام على وعود الأمريكان والإنجليز" ومثل آخر أقوى منه: "الموت في المعركة أشرف ألف مرة من الموت كصدّام".

وهذا الدرس تعلمه الإيرانيون تماما وهو إذا وصلت الأمور إلى حد الحرب مع أمريكا فيجب أن تكون حربا حتى الموت، لأنه لا سلامة ولا أمان مع وعود الأمريكان والإنجليز. وقد استطاع الإيرانيون أن يرسلوا إلى العالم رسالة في غاية الوضوح أن أية ضربة للبرامج النووية في إيران هي حرب شاملة لا تستثني أية مصلحة.

ولم تكن حماقة الحلفاء في إعدام صدّام فقط. فتصرفاتهم في أبو غريب وغوانتانامو أصبحت مضرب السخرية والمثل، وعندما يأتي أي أمريكي وإنجليزي ويقوم بإعطاء النصائح والدروس في الإنسانية وحقوق الإنسان فستجد من يقهقه عاليا ويقول: كإنسانية الأمريكان والإنجليز في أبو غريب والبصرة وغوانتانامو. وبمعنى آخر فإنه لم يعد هناك أية مصداقية لإنجلترا أو أمريكا لإعطاء النصائح والدروس حول الإنسانية.

وكذلك فإن مصداقية التقارير السرية لاستخباراتهم قد أصبحت مضرب المثل. فكلما يصدر تقرير استخباراتي لم تتحدد مصادره (بدعوى حماية المصادر) فإن السخرية ستكون: مثل التقارير الصادقة للإنجليز والأمريكان عن الأسلحة النووية المتكدسة عند صدام حسين.

المثال الخامس:

هناك كلمة قالها أحد السياسيين أن أمريكا كالدب لكي يسقط فلا بد من إثخانه بالجراح. ولإثخان الدب بالجراح فهذا عمل يتطلب بعض الساعات ولكن لإثخان الإمبراطورية بالجراح فهذا عمل يتطلب العشرات من السنين. وهذا هو بالضبط مفهوم سلق الضفدعة. وإذا انتبه القارئ فإن الحروب المختلفة والكثيرة (الساخنة والباردة) والتي خاضتها أمريكا في العالم بعد ١٩٤٥ قد أستنزفت قواها وشتتت اتجاهاتها.

ومفهوم سلق الضفدعة، كما تم توضيحه في الأمثلة السابقة، يتعلق بعمليات تغيير الواقع بثبات ولكن بأسلوب الخطوة- خطوة. وجميع عمليات الاستنزاف (الدموية أو الباردة) التي حدثت في التاريخ هي أمثلة لمفهوم سلق الضفدعة.

ولكن هناك مجالات أخرى لمفهوم سلق الضفدعة غير عمليات الاستنزاف، فلعبة الأقدار تستخدم مفهوم سلق الضفدعة في عمليات تغيير وجهة التاريخ. وأحد الأمثلة هو إسرائيل:

الصراع الشخصي في غاية الشدة في المجتمع السياسي عند العدو الإسرائيلي وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿...بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الحشر].

وضمن هذا النوع من الطبيعة السياسية فإنه ما من أمر جلل يحدث ويكون بحاجة إلى اتخاذ قرارات صعبة، فإن أفضل ما يتمكن القادة الإسرائيليون أن يتفقوا عليه هو تأجيل اتخاذ هذا القرار. وكمثال على ذلك موضوع سمير القنطار، فقد ذكر حسن نصر الله في إحدى خطبه في ٢٠٠٨ أن عملية إطلاق سمير القنطار كان يجب أن تتم في ٢٠٠٤ ولكن المزايدة بين نتنياهو وشارون قامت بتعطيل هذا الموضوع.

الآن..... ما الذي يمكن أن يحدث في مجتمع أصبحت العادة فيه أن تقوم القيادة بتأجيل القرارات الحيوية؟؟

الجواب هو تراكم المشاكل وزيادة في التعقيد حتى إذا جاء العزم لحل الأمور يكون الوقت قد فات. والذي يحدث هنا في الحقيقة هو قيام الأقدار بلعبة سلق الضفدعة مع المجتمع وتكون النتيجة في النهاية هو ضعف المجتمع حتى الانهيار.

مثال آخر هو ما يحدث الآن في إنجلترا:

ميزة الانضباط في المجتمع الإنجليزي كانت مساوية لميزة الانضباط في المجتمع الألماني عام ١٩٤٠. وما زال الانضباط على درجة عالية في ألمانيا ولكن

الانضباط في إنجلترا قد بدأ بالتراجع. والقادة الإنجليز على علم وإدراك لما يحدث في بلادهم، ولكن في كل مرة يتم فيها بحث هذا الموضوع فإنه أسهل عليهم ألف مرة أن يضعوا علاجات موضعية (على أمل وتمني) من أن يشمروا عن أيديهم ويعالجوا جذور المشكلة. ولا يبدو أن هذه المشكلة خطيرة الآن ولكن عندما تظهر خطورتها ويبدأ القادة بعلاج جذور المشكلة فعلى أغلب الظن يكون الوقت قد فات وتذهب جهودهم أدراج الرياح.

وهناك مصطلح شبيه بـ "سلق الضفدعة" في الأدبيات الإدارية وهو تكتيك سلامي (salami technique). والسلامي هي قطعة كبيرة من اللحم المجفف. وعندما تقوم بعمل ساندويتش من السلامي فأنت تقطع شريحة رقيقة من السلامي في كل ساندويتش. ومع أن الشريحة تكون رقيقة فإنك تعلم تماما أن قطعة اللحم ستنتهي بعد عدد من الساندويتشات. وهذا العلم بديهي ولكنه هو الأساس في كثير من المكائد.

وتكتيكات سلامي واضحة في كثير من المفاوضات. فعندما يتفاوض المحترف مع الساذج فإن المحترف سيطلب من الساذج تنازلاً بسيطاً وتافهاً، ثم يتبع ذلك بالمطالبة بتنازل بسيط وتافه آخر، ثم يتبعه بمطالبة أخرى وأخرى. وليكتشف الساذج متأخرا أنه، ودون انتباه، قد تنازل عن الكثير.

وكذلك فإن الحكومات تستخدم تكتيكات سلامي لتمرير مشاريع غير مقبولة شعبيا. والتكتيك هو أن تقوم الحكومة باتخاذ خطوة صغيرة وغير مثيرة باتجاه هدفها، وبعد ذلك بقليل تقوم بخطوة أخرى ثم أخرى حتى تصل إلى هذا الهدف.

وكذلك فإن تكتيكات سلامي تستخدمها أجهزة الاستخبارات في تحويل المخلص الساذج إلى مجرم وخائن. والأسلوب كما في السابق وهو تشجيع التنازل البسيط ثم تنازل بسيط آخر وآخر حتى يكتشف هذا الساذج أنه قد دخل إلى دائرة الخيانة والإجرام وأنه لم يعد قادرا على الخروج منها. وضمن غلبة ظن المؤلف فإن طارق الهاشمي (والحزب الإسلامي في العراق) هو أحد الأمثلة لهؤلاء.

✤ المكائد الثلاث

هناك ثلاثة أنواع رئيسية من المكائد والخداع يمكن تصنيفها كما يلي: خداع الحواس، وخداع الطباع، وخداع الديناميكية.

خداع الحواس:

مثال ذلك هو قيامك بالاختباء خلف الباب ثم تقوم بمباغتة صاحبك. والذي يحدث هنا هو أنك خدعت حواسه. ولكن إذا انتبه صاحبك أنك مختبئ خلف الباب (ربما مثلا كان هناك مرآة وراءك) فإن تأثير هذه الخدعة يتلاشى تماما.

خداع الطباع:

أفضل مثال هو أحد التكتيكات التي تقوم بها بعض الأسود لصيد الثيران: تقوم مجموعة من الأسود بالانتشار على مسافة من قطيع الثيران. ثم تقوم لبؤة بالاقتراب من القطيع وعندها يتصدى لها فحل من الثيران دون أن يبتعد عن جماعته. فتهرب اللبؤة. ثم تقترب اللبؤة مرة أخرى فيتصدى لها ذلك الفحل مرة أخرى فتهرب اللبؤة. ثم يتكرر هذا السيناريو أكثر من مرة وفي كل مرة تتراجع اللبؤة بانكسار. الذي يحدث الآن هو الشعور بالفخر والغرور عند ذلك الفحل ويكون هذا الغرور سببا في تشويه إحساسه بالواقع وهذا يجعله أكثر جرأة على اللبؤة دون أن يشعر أنه في الحقيقة قد بدأ يبتعد قليلا عن القطيع. وهنا تكون المفاجأة وهي هجوم الأسود كلها عليه والإمساك به.

والذي حدث هنا هو خديعة للطباع. فقيام اللبؤة بالانهزام يؤدي وبشكل طبيعي لشعور الفحل بالفخر وربما الغرور. وهناك احتمالية عالية أن يسبب هذا الشعور تشويه الإحساس بالواقع. ولهذا السبب فإن احتمالية نجاح هذه الخطة تكون دائما مرتفعة.

وهذا هو السبب في أن خديعة الطباع تبقى مؤثرة حتى وإن انكشف سرها. وإثبات ذلك أن هناك الكثير من الرجال ذوي الذكاء المرتفع ولكنهم دائما يقعون في الأخطاء نفسها. والسبب هو أن الإنسان في ظروف الحرج أو الضرورة لا يقوده عقله وإنما تقوده طباعه. وتستطيع أن تلاحظ هذا الأمر عند أناس شديدي الذكاء ولكنهم ربما تجدهم شديدي الغضب أو سريعي التوتر أو شديدي التردد أو شديدي الحياء.. ..إلخ.ولهذا السبب فإنه إن لم يقم الرجل بترويض طباعه فإن طبعه (سرعة التوتر مثلا) ستبقى أقوى وأسرع من فطنته.

دعونا نضرب مثالا قد ذكرناه سابقا:

معارك الإسكندر المقدوني تضمنت الكثير من المسرحيات وتكتيكات الاشتباك، ولكن المسرحية الأساسية فيها هي قيام الجناح الأيسر بالانسحاب فجأة مع ثبات الصفوف الأخرى.

الآن.... عندما يختلط الحابل بالنابل وتبلغ القلوب الحناجر فإن قيام العدو بالانسحاب (وهو ما يمكن ترجمته آنيا بالانهزام) سوف يدفع جيش العدو إلى ملاحقته. وخدعة الإسكندر هنا موجهة لطباع العدو. بمعنى آخر فإنه مهما كان ذكاء قيادة العدو فإنهم لن يستطيعوا كبح طباع جنودهم وخصوصا بعد أن بلغت القلوب الحناجر إلا إذا كان الجنود على درجة عالية من الانضباط. ومعنى أن يكون الجيش على درجة عالية من الانضباط هو أن الجيش قد استطاع ترويض طباع الجنود نحو الانضباط.

ولهذا السبب فإن أي جيش ذي انضباط ضعيف أو متوسط ويقوم بمواجهة جيش الإسكندر المقدوني فإن خدعة الإسكندر سوف تكون دائما ناجحة.

وهناك ثلاث نقاط هنا يجب التوقف عندها:

في جميع المعارك التي خاضها الفرس مع اليونان فقد أثبت الفرس عبقرية استراتيجية هائلة. لكنهم كانوا دائما يخسرون في المعركة. وحتي في صراع دارا مع

الإسكندر فإن دارا استطاع خديعة الإسكندر وتمكن دارا من قطع خطوط التموين لجيش الإسكندر، ولكن دارا خسر المعركة.

والسبب في هذا أن الإمبراطورية الفارسية كانت أول إمبراطورية عالمية في تاريخ البشرية كما كانت هي أول مرة تتعامل فيها حكومة مركزية مع ثقافات وشعوب وديانات شتى. وخلال ١٥٠ سنة من عمر الإمبراطورية فإن الجيش الفارسي قد أصبح عبارة عن قطيع من المرتزقة تم تجميعه من جميع أنحاء الإمبراطورية دون أن يكون لهذا القطيع أية إرادة حقيقية أو انضباط مرتفع. وإذا نظرت بعمق إلى الحملات الفارسية نحو اليونان ستلاحظ أن تخطيطهم الاستراتيجي كان في غاية الذكاء وكانت جميع هزائمهم مردها هو ضعف الانضباط في الجيش.

النقطة الثانية أن اليونانيين وبعد خبرة ١٠٠ عام من الصراع قد أدركوا نقطة الضعف القاتلة عند الفرس، وهي ضعف الانضباط. وكانت مسرحيات فيليب تعتمد تماما على ضعف الانضباط لدى الجيش الفارسي. وهنا يجب استرجاع فصل من التاريخ له مغزى:

استطاع فيليب أن يفرض إرادته على جميع مدن وإمارات اليونان إلا سبارطة. وأرسل فيليب إلى سبارطة رسالة ما معناها: إن أنا أتيت إلى سبارطة فلأجعلن عاليها سافلها. فأرسلت سبارطة رسالة تحتوى على كلمة واحدة فقط: "إن". ولم يتوجه فيليب نحو سبارطة بل بدأ يتجهز نحو فارس. وعندما اغتيل فيليب وتسلم الأمور الإسكندر ونجح بقمع التمرد في اليونان فإنه كذلك لم يتوجه نحو سبارطة بل أخذ الجيش نحو فارس. بمعنى آخر فإنه كان أسهل لفيليب والإسكندر أن يخوضا المعارك نحو فارس من أن يتوجهوا نحو سبارطة!!.

وأغلب الظن هنا أن تكتيكات الجيش المقدوني كانت تعتمد بشكل كبير على خداع الانضباط وكانت سبارطة مضرب المثل في شدة الانضباط وقوة الإرادة، ولهذا السبب فإن تكتيكات الإسكندر لها احتمالات فشل عالية مع سبارطة.

وهذا الأمر يتطلب مجددا التذكير بمسرحيات هانيبال. فالرومان في عهد هانيبال كانوا في غاية الذكاء وكان انضباطهم في غاية الارتفاع. وكان هذا نتيجة لمعارك خاضوها وانتصروا فيها منذ ما يزيد على ٢٠٠ سنة سابقة. ولهذا فإن هانيبال لم يكن يواجه جيشا مرتزقا خليطا، بل كان يواجه جيشا متمرسا وقديرا. وهذا ما تطلب أن تكون مسرحيات وتكتيكات هانيبال معقدة، وهذا ما يجعلها جديرة بالدراسة والتمحيص.

المكيدة الثالثة: خداع الديناميكية

الديناميكية هي لفظة اختارها المؤلف للتعبير عن واقع واضح التأثير ولكنه غامض الحدود، وهي كلمة بديلة لعدد من المصطلحات الفلسفية والإدارية التالية: سنة الكون، سنة الله في الكون والحياة، الأقدار، لعبة الأقدار، حركة التاريخ، حركة الحياة، Cultural Systems, Culture, System.. إلخ.

والديناميكية هنا هي عبارة عن تقاطعات وتجاذبات وتنافرات القوى الداخلية في الدولة والأمة والتي تتشكل نتيجة لمجموعة من العادات والتقاليد والقوانين والاعتبارات والأعراف والقصص والأساطير والتاريخ والتي تتخذها الأمة وتكون السبب في نمو هذه الأمة أو جمودها أو انهيارها.

ولتبسيط الأمر فإن المكيدة السابقة (خداع الطباع) تتعلق بالمكائد التي تستغل طباع قادة العدو وجنودهم. وأما المكيدة الحالية فهي تتعلق بالمكائد التي تقوم باستغلال طباع الأمة عند العدو ونظام دولتهم.

وأفضل الأمثلة لخديعة الديناميكية هي مكيدة آيزنهاور- كينيدى ضد الاتحاد السوفييتي. فقد أدرك الأمريكيون أن النظام الشيوعي صلب جدا وقت المواجهة لكنه ضعيف في وقت الهدنة والسلام؛ وذلك لأن النظام الشيوعي لا يملك الأدوات والآليات التي تفصل النزاع بين أطراف النظام. وهذا الضعف سيؤدي إلى بذور

النقمة والشقاق في داخل النظام نفسه. فكان هذا هو الأساس في خطة آيزنهاور– كينيدى ، وهي تتكون من ثلاث مراحل:

١. مرحلة التوافق والسلام (مرحلة الاحتواء).

٢. مرحلة الاختراق.

٣. مرحلة التفتيت.

وهذا الموضوع مشروح بتفصيل في الملحق الأول من هذا الكتاب فارجع إليه.

وكما تم ذكره سابقا فإن خدعة الإحساس تفقد تأثيرها في اللحظة التي تنكشف فيها الخدعة. وأما خدعة الطباع فإن تأثيرها يبقى ذا فعالية حتى وإن انكشف أمرها. والطريقة الوحيدة للجيش (أو أجهزة الدولة) لتتدارك خدعة الطباع هو تدريب الجنود والأجهزة الإدارية على الانضباط وبرودة الأعصاب.

وأما خدعة الديناميكية فهي لا تكاد تفقد أي شيء من تأثيرها بانكشاف أمرها.

وإن أي نظام ديناميكي (كنظام الدولة) يحتوى على دوائر الانهيار في طياته. والمهارة هي أن تجد دوائر الانهيار عند العدو ثم تستحثها. وفي اللحظة التي يمكن وبنجاح حث عدد كاف من دوائر الانهيار فإن دولة العدو هي في طريق حتمي نحو الانهيار. ومن مراجعة صفحات التاريخ فإنه من النادر جدا أن استطاع قائد أن يوقف دوائر الانهيار بعد أن بدأت تحيط بدولته.

وأفضل الأمثلة هما السلطان عبد الحميد وجورباتشوف فكلاهما كانا ذوي ذكاء شديد وبصيرة نافذة. ولكن دولتيهما قد أحيطت بدوائر انهيار متعددة ولم يكن في قدرتيهما سوى إطالة عمر النظام.

وخطة آيزنهاور- كينيدى لم تكن سرا. وأول مرة انتبه المؤلف لهذه الخطة كان في عام ١٩٨٢م. وكان ذلك في جلسة عابرة، وتحدث أحدهم عن كتاب قديم قرأه يذكر فيه استراتيجية أمريكا تجاه الاتحاد السوفييتي. وذكر المتحدث وقتها الخطوات الثلاث: الاحتواء، والاختراق، والتفتيت.

ولم يكن خروتشوف بالرجل الغبي، بل كان شديد الذكاء وعلى الأغلب أنه كان متنبها لمكيدة كينيدي، ويبدو أنه بدأ في عملية إصلاح النظام الشيوعي.

وهنا النقطة الأساسية: إصلاح أو تطوير النظام والمجتمع لا يتطلب فقط عبقرية القائد وإنما عبقرية القيادة كلها والذكاء الجماعي من الأمة. وهذا لم يكن متحققا في روسيا. ولهذا لم تثمر جهود خروتشوف بل على العكس فقد قام النظام الحاكم في روسيا بالإطاحة به ولفظه خارج جهاز القيادة.

وموضوع الديناميكية قد تم شرحه بتفصيل أكبر في باب "منهج التحليل الديناميكي" في كتاب سابق للمؤلف (أفكار منهجية في البحث والتحليل والإدارة) فارجع إليه.

❖ مجالات التحليل السياسي

مجالات التحليل السياسي تشبه في مضمونها مجالات المكائد الثلاث. ويمكن تلخيص مجالات التحليل السياسي كما يلي:

التحليل الصحفي:

وفي هذا المجال فإن المحلل يقوم بالانتباه للأخبار والتقارير الصحفية للأحداث. وهذا المحلل تكون لديه القدرة على استنتاج ما يمكن أن يحدث بعد يوم أو أسبوع أو شهر. ولكنه غير قادر على استنتاج الأحداث الممكنة بعد سنة أو سنتين

تحليل القيادة:

في هذا المجال فإن المحلل يحاول الانتباه لطباع القيادة والشخصيات المؤثرة في صناعة القرار: ما هي خلفياتهم، ما هي طريقة تفكيرهم، ما هي نقاط قوتهم وضعفهم، ما هي طباعهم.. إلخ.

الآن... إذا كان المحلل السياسي ضعيفًا في التحليل الصحفي لكنه قوي جدا في تحليل القيادة فإنه على الأغلب لن يستطيع استنتاج الأحداث الممكنة بعد يوم أو أسبوع أو شهر لكنه قادر على الاستنتاج وبدرجة عالية من الدقة للأحداث الممكنة بعد سنة أو سنتين.

تحليل الديناميكية:

في هذا المجال فإن المحلل يحاول الانتباه لطباع الدولة والمجتمع والأمة ككل. وفي هذا المجال فإن المحلل يرتفع عاليا جدا إلى السماء ثم ينظر إلى مسار التاريخ للأمة من الماضي وحتى الحاضر، ومن هذا المسار فإن المحلل قادر على استنتاج (وبقدر عال من الدقة) اتجاه المستقبل للأمة.

انتبه هنا... تحليل الديناميكية لا ينتبه للتفاصيل الدقيقية. والتحليل الديناميكي لا يستطيع أن يقدم لك تحليلاً لما يمكن أن يحدث غدا أو بعد غد. لكن التحليل الديناميكي قادر على إعطائك تحليلات واحتمالات دقيقة للممكن من الأحداث بعد ثلاثين أو خمسين سنة.

الآن... التحليل السياسي الكامل يتطلب كافة المجالات السابقة. ولكنه، وللأسف، من النادر جدا أن تجد شخصا يمتلك المهارات في كافة المجالات السابقة. والذي تجده في العادة هو شخص يمتلك المهارات في مجال واحد من المجالات السابقة وبعض الإلمام في المجالات الأخرى. على أية حال فإن هذه المشكلة يمكن حلها بسهولة إذا استطاع الأشخاص مختلفو المهارات الجلوس معا ومناقشة الأمور بهدوء أعصاب وحسن استماع.

والسؤال الآن: ما هو أفضل المجالات السابقة؟؟

والجواب: حسب الظروف والمواقف. فالمحلل في وزارة الخارجية عليه أن يكون متمكنا وبالدرجة الأولى من التحليل الصحفي مع إلمام حقيقي بتحليل القيادة. وبالنسبة للمدير فعليه أن يكون متمكنا وبالدرجة الأولى من تحليل القيادة مع إلمام حقيقي بالتحليل الصحفي. أما القائد السياسي فعليه أن يكون متمكنا وبالدرجة الأولى من تحليل الديناميكية مع إلمام حقيقي بتحليل القيادة. ولهذا فلا يوجد جواب واضح للأفضل بين هذه المجالات وإنما الأفضل هو من يتلاءم مع الظرف والموقف الذي يواجهه.

❖ الذكاء الجماعي

الذكاء الجماعي هو موضوع في غاية الأهمية لنهضة أية أمة، وقد تم تفصيله وبشكل كبير في كتاب سابق للمؤلف (أفكار منهجية في البحث والتحليل والإدارة). وهذه المقالة هنا هي نبذة ملخصة عن هذا الموضوع.

يقاس الذكاء الجماعي للجماعة (أو الفريق أو الأجهزة الإدارية أو المجتمع) بقدرة الجماعة على الحوار والنقاش وتقليب الأفكار والاختلاف في الآراء دون أن يتسبب هذا التقليب في الأفكار وهذا الاختلاف في الآراء في حدوث شقاقات شخصية أو فوضى.

وبعد الملاحظة والتدقيق فقد تبين للمؤلف أن الذكاء الجماعي يعتمد على ثلاث صفات رئيسية في الجماعة (والأمة) وهي: سعة الصدر (الحلم وطول البال)، وحسن الاستماع، والجدية (Seriousness).

وقد يكون من الصعب قياس الصفات السابقة بشكل مباشر إلا أن الصفات السابقة ينتج عنها أربع صفات فرعية سهلة القياس. وهذه الصفات الأربع هي: الأدب والدبلوماسية، وبرودة الأعصاب، والنظرة العملية للأمور، وخطوط التفكير المتوازية.

والمؤلف هنا وضع الدبلوماسية والأدب معا كصفة واحدة وذلك لأنهما صفتان متلازمتان معا، فالدبلوماسي دائما يكون مؤدبا، والمؤدب دائما يتحدث بأسلوب دبلوماسي.

والنظرة العملية هنا هي القدرة على التفريق بين ما هو مبدأ وقانون وبين ما هو تقليد وأعراف.

والأعراف والتقاليد ليست مقدسة، ومن الخطأ أن تكون مقدسة؛ وذلك لأنها قرارات اتخذها آباؤنا الأولون لمصلحة وجدوها آنذاك. وأما المبادئ والقوانين فهي أمر مختلف.

وخطوط التفكير المتوازية هي القدرة على التعامل مع المتناقضات. مثال ذلك هو بريطانيا فقد كانت في صراع حقيقي وشرس مع أمريكا على المصالح في الشرق الأوسط لكنها في الوقت نفسه كانت في تعاون وتوافق وانسجام مع أمريكا في محاربة المبدأ الشيوعي والاتحاد السوفييتي.

انتبه هنا... أعمدة الانتصار هي: ذكاء القيادة والانضباط والإرادة وأما أعمدة النهضة فهي: سعة الصدر وحسن الاستماع والجدية. وانتصار الدولة لا يعني أبدا نهضة الأمة. وأفضل مثال على ذلك هو أتيلا فقد استطاع أن يؤسس مملكة ضخمة في وسط أوروبا واستطاعت أن تهدد روما نفسها. ولكنه ما إن مات حتى انهارت دولته وتلاشت أمته.

وفي المقابل فإن نهضة الأمة ستؤدي (عاجلا أو آجلا) إلى انتصار الدولة؛ إذ إن وعي الأمة سيؤدي إلى الانتباه إلى نقاط ضعفها وقوتها مما سيؤدي إلى استغلال نقاط القوة وعلاج نقاط الضعف. وهذا كله سيؤدي (عاجلا أو آجلا) إلى خلق أعمدة الانتصار فيها.

وأفضل مثال هو الرومان، فقد انهزمت روما مع هانيبال وبشكل متواصل مدة ١٦ سنة ولكن الذكاء الجماعي المرتفع عند روما ساعد في صمودها وجعلها هي المنتصرة في النهاية.

وضمن وجهة نظر المؤلف فإن صفات الذكاء الجماعي هي الصفات الأساسية لنهضة أية أمة. ومن الممكن عمل الاختبار لإثبات صحة أو خطأ هذا الادعاء: ليقم القارئ باستعراض الدول والمجتمعات في الوقت الحاضر، وليقم القارئ بتقييم هذه المجتمعات من حيث سعة الصدر (طول البال) وحسن الاستماع والجدية. وسيجد القارئ أن جميع المجتمعات التي تمتلك قيمة مرتفعة في الصفات السابقة لها ثقل وقوة ورفعة واسم عال. وأما المجتمعات التي تمتلك اثنتين من الصفات السابقة فقط فإن رفعتها واسمها يعتمد على الظروف حولها. وأما المجتمعات التي تمتلك صفة واحدة فقط أو لا تملك شيئا من هذه الصفات فسيجد القارئ أن الحياة في تلك المجتمعات لا تطاق.

وتوجد هناك إشارات وقرائن تسمح بالتخمين الجيد لمستوى الذكاء الجماعي في المجتمع:

١ - آداب السواقة (قيادة السيارات). فإذا كانت طبيعة الناس أنهم ذوو آداب عالية في السواقة وكان هناك درجة عالية من المراعاة والتسامح فيها فهذا دلالة على قوة الذكاء الجماعي في المجتمع.

٢- تعاملات الشرطة. فإذا كانت العلاقة بين الشرطة والجمهور هي علاقة رعاية وخدمة وتنظيم فهذا دلالة على قوة الذكاء الجماعي في المجتمع. وأما إذا كانت العلاقة هي علاقة تنظيم وسيطرة وتعالٍ فهذه دلالة على ضعف الذكاء الجماعي في المجتمع.

٣- تعاملات الموظفين الرسميين (موظفي الإدارات الحكومية والصحة العامة والبلديات والمواصلات.. إلخ). فإذا كانت العلاقة بينهم وبين الجمهور هي علاقة بشاشة وخدمات وتسهيل فهذا دلالة على قوة الذكاء الجماعي في المجتمع، أما إذا كانت العلاقة هي جكارة وسخرية ونرفزة وتصعيب حياة فهذا دلالة على ضعف الذكاء الجماعي في المجتمع.

❖ عقل الديناميكية

من الضروري فهم ديناميكية الدولة (وديناميكية المجتمع وديناميكية الأجهزة الإدارية) لأن هذه الديناميكية هي العامل الرئيسي الذي يحدد المستقبل لهذا المجتمع. وفي كثير من الأحيان يقوم القادة بتنفيذ خطط ذكية ليكتشفوا لاحقا أن خططهم كانت وبالا عليهم وأن مكرهم قد ارتد عليهم. والغالب أن السبب هو اللعب دون وعي في ديناميكية الدولة. وكأي نظام ديناميكي فإن اللعب فيه يؤدي إلى ردات فعل عكسية. وهذه الردات تكون بطيئة في الظهور ولكنها (وفي كثير من الأحيان) تكون قاسية.

وديناميكية الدولة هي عبارة عن التقاطعات والتشابكات والتجاذبات والتنافرات بين القوى السياسية وغير السياسية في الدولة والتي تؤدي إلى تحديد مسار الدولة ومستقبلها.

وديناميكية الجهاز الإداري هي عبارة عن التقاطعات والتشابكات والتجاذبات والتنافرات بين القوى الداخلية في الجهاز وعلاقاته مع القوى المحيطة به والتي تؤدي إلى تحديد نفوذ الجهاز وخط مساره.

وديناميكية الجماعة هي عبارة عن التقاطعات والتشابكات والتجاذبات والتنافرات بين القوى الداخلية في الجماعة وعلاقاتها مع القوى المحيطة بها والتي تؤدي إلى تحديد هوية الجماعة وخط مسارها.

ومبادئ الديناميكية موجودة في كثير من المقالات في الإنترنت تحت مصطلح System Theory. وكذلك فقد تم شرح هذه المبادئ في كتاب سابق للمؤلف (أفكار منهجية في البحث والتحليل والإدارة) فارجع إليه. وأما هذه المقالة فهي تقوم بالتركيز في موضوع عقل الديناميكية وهو أمر سيكون مفيدا عند دراسة فلسفات الدولة في إنجلترا.

انتبه لهذه الملاحظات:

هناك الكثير من الناس في الشرق الأوسط يشعرون بوجود أشخاص يخططون ليل نهار لنشر الانحلال في العالم الإسلامي. وهناك الكثير من غير المسلمين في العالم يشعرون بوجود أشخاص يخططون ليل نهار لتحويل العالم العلماني إلى الإسلام .

وفي واقع الحال فإنه يوجد تخطيط ولكن لا يوجد أشخاص محددون وإنما الجهة المخططة هي عقل الديناميكية:

عندما تصل الجماعة (أو الجهاز الإداري) إلى درجة كافية من النمو فإنها تصل إلى درجة من الاستقلالية وتكون سلوكياتها متأثرة بديناميكيتها (أي بالفلسفات الأساسية لهذه الجماعة). ومن الناحية الفلسفية فمن الممكن النظر إلى هذه الجماعة كوحدة واحدة وذات عقل مستقل وهو ما نسميه هنا بعقل (أو قوة) الديناميكية.

وإذا نظرنا إلى سلوكيات الجماعة وقراراتها فهي في الواقع نتاج التشابكات والتقاطعات والتجاذبات والتنافرات بين أفراد الجماعة بعضهم مع بعض، ولكن بالنسبة إلى المحيط الخارجي فإن الذي يظهر لها هو أن الجماعة تتصرف كوحدة واحدة. وتعتمد سلوكيات الجماعة وقراراتها على مستوى فلسفات الجماعة وعلى مستوى الذكاء الجماعي فيها (سعة الصدر وحسن الاستماع وبرودة الأعصاب والجدية.. إلخ).

وإذا نظرنا إلى الجماعة كوحدة واحدة فستجد أن هناك جماعات ذات سلوكيات ذكية وهناك جماعات ذات سلوكيات حمقاء. وهنا نضع الأصبع على المصطلح الفلسفي "عقل الديناميكية": وهو عبارة عن مهارات الجماعة وسلوكياتها الناتجة عن ديناميكية هذه الجماعة.

وهنا نرجع إلى الملاحظات السابقة:

فهناك جهات وأفراد ذوو أفكار متحررة (أو منحلة). وهؤلاء الأفراد والجهات يشكلون قوة ذات ديناميكية واضحة. ومن الطبيعي لهذه القوة أن تسعى للنمو وإثبات الوجود في أية فرصة سانحة. ونتيجة لإثبات الوجود ومحاولات

النمو فإن الناس تشعر أن هناك من يقوم بالتخطيط المتعمد لنشر الفجور في العالم الإسلامي. وهذا ليس بالضرورة دقيقا وإنما الذي يحدث هو حركة ديناميكية لهذه القوة.

وكذلك بالنسبة للقوى الإسلامية في العالم. فهذه القوى لها ديناميكية واضحة وعندها الرغبة في النمو وإثبات الوجود. ولهذا السبب فهناك الكثير من غير المسلمين ممن يظن بوجود أشخاص يخططون ليل نهار لتحويل العالم إلى الإسلام . وهذا ليس بالضرورة دقيقا وإنما هي ديناميكية الإسلام .

دعونا نضع مثالاً آخر:

إن مجتمع بريطانيا (إنجلترا واسكتلندا وإيرلندا وويلز) وكذلك كثير من مستعمرات إنجلترا السابقة عندهم إدمان مرتفع للخمر وبدرجة أعلى بكثير من أوروبا. ومن الطبيعي التخمين أن هذا الإدمان هو تخطيط متعمد من النظام الحاكم في إنجلترا لإشغال الناس.

والسؤال هنا: هل هناك أشخاص محددون قاموا بالتخطيط لهذا الأمر؟؟؟

الجواب هو: ممكن، ولكن ليس بالضروري. فالأجهزة الإدارية في إنجلترا ذات آليات واستراتيجيات ذكية والكثير من السلوكيات والقرارات في الأجهزة الإدارية لا تكون ثمرة عقل واحد، وإنما تكون نتاجا لديناميكية الأجهزة. ولهذا السبب فليس من الضروري أن يكون هناك شخص محدد قد قام بالتخطيط لهذا الأمر من الألف إلى الياء، وإنما أحد الاستراتيجيات الواضحة عند الإنجليز هو ضرورة إشغال الناس، وجاء هذا الأمر نتيجة لهذه الاستراتيجية وبقوة الديناميكية في الأجهزة الإدارية.

وأول مرة انتبه فيها المؤلف لقوة الديناميكية كان في كتاب اللعبة واللاعب (The Game Player) لمايلز كوبلاند (Miles Copeland). وفيه يشرح الكيفية التي يكون فيها الجهاز الإداري (وزارة الخارجية والاستخبارات) في غاية المهارة مع أن

إدارة هذا الجهاز قد يكونون ذوي مهارات محدودة. وكان أن استشهد ببيت النمل: "النملة الواحدة خالية من الذكاء ولكن لبيت النمل كمجموعة ذكاءً جماعيًا مذهلًا" (ترجمة دار الحمراء).

Professor Greenglass ... used to tell us that the individual ant is virtually brainless, but that the ant colony, as a colony, possesses an amazingly effective intelligence.

وهذه هي النقطة هنا... وهي أن الجماعة إذا وصلت إلى درجة كافية من النمو فإنه قد يكون من الأسهل في بعض المواقف النظر إليها وكأنها تمتلك عقلا خاصا بها. وهذا العقل يقوم بتحديد سلوكيات واتجاهات هذه الجماعة.

وقوة هذا العقل تعتمد على أمرين اثنين:

الآليات والاستراتيجيات المتبناة من الجماعة.

والذكاء الجماعي لها (أي مستوى طول البال وسعة الصدر وحسن الاستماع والجدية).

وهذا معناه أنه إذا كانت الاستراتيجيات ذكية والذكاء الجماعي مرتفعا فإن قوة عقل الديناميكية ستكون مرتفعة. وأما إذا كانت الاستراتيجيات سطحية وكان الذكاء الجماعي متدنيا فإن قوة العقل تكون منخفضة.

وأهم عامل فيما سبق هو الذكاء الجماعي. وذلك لأن الذكاء الجماعي ليس أمرا طبيعيا في المجتمع وإنما هو بذرة توضع في المجتمع ويتم رعايتها والمحافظة عليها. أما الآليات والاستراتيجيات فهي تأتي بالتجربة والخطأ ودراسة التاريخ ودراسة نجاحات وأخطاء الآخرين.

وهنا يتم تكرار التنبيه بضرورة رفع مستوى الذكاء الجماعي في الأمة لأنه الأساس في قوة الأجهزة الإدارية والمجتمع والدولة.

❖ عقدة المماطلة وعقدة نتنياهو

عندما يكون الذكاء الجماعي في المجتمع مرتفعا فإن قوة الديناميكية عندهم تكون مرتفعة ولكن إذا كان الذكاء الجماعي عندهم منخفضا فإن قوة الديناميكية تكون منخفضة.

وعندما تكون قوة الديناميكية في المجتمع منخفضة فإن هذا يؤدي إلى ظهور عقدتين واضحتين في المجتمع وهما عقدة المماطلة وعقدة نتنياهو:

وعقدة المماطلة تظهر عندما لا يستطيع رجالات الدولة أن يتفقوا على القرارات الحيوية فيصبح أفضل الحلول عندهم هو تأجيل اتخاذ هذه القرارات.

وبالطبع فإن عقدة المماطلة تختلف عن تكتيك المماطلة. فتكتيك المماطلة يكون أحد الأساليب في كسب الوقت. وأما عقدة المماطلة فهو عندما تصبح الاستراتيجية الأساسية في الدولة هي المماطلة وهذا ما يحدث الآن في إسرائيل.

وأما عقدة نتنياهو فهي نسبة إلى كلمة قالها حسن نصر الله في ٢٠٠٨ في موضوع تحرير سمير القنطار وهو أن تحرير سمير القنطار كان يجب أن يتم في ٢٠٠٤ ولكن المزايدة بين نتنياهو وشارون قد أدت إلى تعطيل هذا الأمر مما تسبب بقيام حزب الله في النهاية بأسر الجنديين وإدخال إسرائيل في دوامة كبيرة.

وعقدة نتنياهو هو عندما تكون المكابرة والمزايدة (وليس الاستراتيجية أو المصلحة) هي الأساس الذي تقوم فيه الإدارة باتخاذ قراراتها. وهذا معناه أن الإدارة تقوم باتخاذ القرار والذي لو كان كل فرد في هذه الإدارة حرا وحيدا لقام باتخاذ قرار مختلف.

وللأمانة فإن عقدة نتنياهو قد أخذها المؤلف من عقدة أبيليني (Abilene Paradox). وعقدة أبيليني تتحدث عن نفس الفكرة (أي قيام الجماعة باتخاذ القرار والذي لو كان كل فرد في هذه الجماعة حرا وحيدا لاتخذ قرارا مختلفا). ولكن المجال في عقدة نتنياهو يختلف عن المجال في عقدة أبيليني:

عقدة أبيليني جاءت من جيري هارفي (Jerry Harvey) وهي تتحدث عن قصة عائلة وأصدقاء قد اقترح أحدهم (وليكن اسمه جورج) بزيارة جبل أبيليني وتناول العشاء هناك. فقامت زوجته بالثناء على هذه الفكرة وقام آخر بمساندة هذه الفكرة كذلك وعندها بدأ العزم للذهاب إلى ذلك الجبل. وقد كانت الرحلة إلى الجبل متعبة ولكن الجميع قاموا بالثناء على هذه الرحلة. ولكن تبين لاحقا أن.لا أحد في هذه المجموعة قد استمتع بالرحلة وأن كل واحد منهم كان يجامل الآخر لظنه أن الجميع راغب في هذه الرحلة. وحتى جورج نفسه لم يكن راغبا بالرحلة وإنما جاء اقتراحه ارتجاليا ولم يكن يتوقع موافقة الجميع. ولهذا السبب فعقدة أبيليني تتحدث عن اتخاذ القرار عند الجماعة بناءً على رغبة الأفراد بمجاملة الآخرين ومداراة مشاعرهم. وإذا نظرت بعمق إلى عقدة أبيليني فهي جاءت بسبب عدم الصدق في المجاملة. ومن الممكن جدا القيام بالمجاملة دون انتهاك لقواعد الصدق.

وأما عقدة نتنياهو فمجالها مختلف فهي تتعلق بقيام الأفراد في الجماعة بالمزايدة والمكابرة والتعالي ضد الآخرين. وهنا جاءت الضرورة في وضع مصطلح جديد لهذه العقدة.

❖ كيف تقرأ هذا الكتاب

كما تم تبيانه في المقدمة فإن هذا الكتاب هو فلسفي عملي. والمقصود بفلسفي هو أن هذا الكتاب ليس رواية بوليسية ولا هو قطعة أدبية ولا هو خيال علمي. وأما عملي فمعناه أن الكتاب ليس مرجعا أكاديميا ولا هو قصة تاريخية وإنما هدف الكتاب هو بناء المهارة وتحويل الفهم إلى مفهوم. والمهارة التي يحاول هذا الكتاب بناءها هي مهارة التحليل السياسي والعمل الاستراتيجي.

وأفضل طريقة لقراءة الكتب الفلسفية العملية هو القراءة الجماعية. والجماعة ليست بحاجة لأن تكون كبيرة وإنما يكفي اثنان: أب وابنه أو شخص وأخوه أو زوج وزوجته.. إلخ.

والهدف من القراءة الجماعية هو الإبطاء من سرعة تجاوز الأفكار. وإذا لاحظت في القراءة الفردية فإن الشخص يقوم بتجاوز الكثير من الأفكار في الكتاب ويقوم بالانتباه فقط إلى الأفكار التي له فيها بعض الخبرة. وهذا هو السبب في أن البعض يقرأ أحد الكتب ثم بعد سنوات يقوم بقراءته مرة أخرى ليتفاجأ بأفكار لم يكن قد انتبه لها أول مرة. ولهذا السبب فإن القراءة الجماعية تساعد على تقوية الانتباه للأفكار والتخفيف من سرعة تجاوزها.

وطريقة القراءة الجماعية لهذا الكتاب تكون بقراءة الفقرة (أو الصفحة) ومناقشتها وضرب الأمثال لأفكارها.

وهنا نقطة انتباه:

ليس من الضروري أبدا أن يقتنع القارئ بأفكار المؤلف. وللقارئ كامل الحق في أن يرفض بعض أو جميع الأفكار في هذا الكتاب. والهدف من مناقشة الفقرة ليس الدفاع أو الهجوم على أفكار الكتاب وإنما الانتباه لأفكار الكتاب وتحديد الموقف منها.

وهدف المؤلف حقيقة هو تنبيه القارئ إلى مجموعة من الأفكار والمفاهيم. وهذه هي النقطة الجوهرية في أي عملية تعليم وهو الانتباه.

دعونا نشرح هذه النقطة وبشكل أكثر عمقا:

كان المؤلف يستغرب كثيرا من قول الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾﴾ [الملك].

ونقطة الاستغراب أن العلماء الآن على إدراك دقيق لقوانين الطيران وللقواعد الفيزيائية التي تسمح للطير بالسباحة في الهواء. وهذه القواعد ليست معقدة وليست معجزة. وأما قوله تعالى: "ما يمسكهن إلا الرحمن" فهي شبيهة بقوله تعالى: ﴿... وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ... ﴿١٧﴾﴾ [الأنفال]. فكل فعل هو بأمر الله تعالى، وهذه ليست نقطة التساؤل هنا، وإنما نقطة التساؤل هي: ما هو الأمر المثير

والجوهري في قيام الطيور بفرد وقبض أجنحتهم؟ وما هو السبب في قيام القرآن بتوجيه انتباه الناس لهذه النقطة؟؟

هذا التساؤل أدى إلى نقطة انتباه:

عندما يعيش الناس قرب المطارات فإنهم لا يعودون يشعرون بضجيج الطائرات وعندما يعيش الناس قرب محطات تجميع النفايات فإنهم لا يشعرون بالروائح غير الطيبة. وهذا معناه أن للناس القدرة العالية للتأقلم مع الظروف المألوفة لديهم. ومن الطبيعي جدا عندما يأتي شخص بأفكار مخالفة تماما للمألوف أن يقوموا بمقاومته.

وإحدى الطرق لتخفيف هذه المقاومة هي دعوة العقل للانتباه إلى المألوف والتساؤل عنه. و آية الطير هي إحدى الآيات التي تدعو إلى الانتباه إلى المألوف والتساؤل عنه. فالأعراب عاشوا في الصحراء وهم يرون الطير يسبحن في الهواء. وهذا هو الأمر المألوف لديهم وأخذوه دون تساؤل. ولكن عندما يأتي من يدعوهم إلى الانتباه إلى سباحة الطير وكيف يفرد أجنحته ويقبضها في الهواء، فإن هذه هو في الواقع دعوة إلى تحريك الدولاب في العقل.

والأعرابي مهما نظر إلى الطيور وانتبه إلى حركتها فإنه لن يكون بمقدوره أن يستنتج قوانين الطيران ولا علاقة سرعة الطيران بضغط الهواء؛ وذلك لقلة المعلومات الفيزيائية فى ذلك الوقت. ولكن هذا الانتباه كفيل بتحريك الدولاب في العقل، وهذا التحريك يؤدي إلى الانتباه وتغيير النظرة إلى الأمور المألوفة الأخرى.

وهذا هو هدف المؤلف وهو تنبيه القارئ إلى مجموعة من الأفكار والمفاهيم على أمل أن يؤدي هذا الانتباه إلى تحريك الدولاب في العقل.

ولهذا السبب فإنه ليس من الضروري أن تكون جميع أفكار هذا الكتاب صحيحة، فالمؤلف ليس نبيا. ولكن فلسفة المؤلف أنه إذا تحرك الدولاب في العقل وكان عند القارئ طريقة تفكير صحيحة فإن القارئ مع الزمن سيصل إلى الصحيح أياً كان هذا الصحيح.

ولهذا السبب فإن المرحلة الأولى في قراءة الكتاب هو الانتباه.

الآن... الانتباه إلى أفكار الكتاب (أي كتاب) يتطلب أمرين:

١. الانتباه إلى المعنى اللغوى في العبارات.

٢. الانتباه إلى ما يكون المؤلفون قد قصدوه.

وهذا الموضوع يتطلب شرحا: فمؤلفو الكتب ليسوا أنبياء، ولهذا فمن الممكن جدا أن يخطئوا في اختيار الكلمات.

ومن جهة أخرى فإن الأمثال وعبارات البلاغة تتضمن الكثير من المعاني. ويتحدد المعنى المقصود في هذه العبارات من السياق.

ولهذا السبب فمن الحكمة النظر إلى عبارات البلاغة من زاويتين: الأولى وهي المعنى الظاهر من الكلمات، والثانية هي المعنى الظاهر في السياق والذي ربما يكون المؤلفون قد قصدوه.

وبمقارنة المعاني الظاهرة من الكلمات مع المعاني المفهومة من السياق نستطيع أن نصل إلى إدراك لمقصد المؤلفين بغض النظر إذا كان هذا المقصد صحيحا أو خاطئا.

وهناك أمر آخر جدير بالانتباه وهو أن المؤلفين ربما قد اختاروا كلماتهم بدقة (وإن ظهرت خاطئة) وأن هناك معانٍ أخرى دفينة بين السطور.

وأفضل الأمثلة هو القصة التالية:

غضب أحد الملوك من أحد الولاة وأراد به الشر. وطلب من وزيره أن يستدعيه برسالة أمان. وكتب الوزير الرسالة ولكنه أورد في نهايتها "إنّ شاء الله". وفي هذه العبارة خطأ لوجود الشَدّة فوق النون. ولكن الملاحظة كانت أن الرسالة كلها لم يكن فيها تشكيل إلا في هذه العبارة. فلماذا؟؟

وقام الوزير بإطلاع الملك على الرسالة وأقرّها الملك وأرسلها إلى الوالي. وأجاب الوالي على الرسالة بالشكر والعرفان ووعد بسرعة الحضور إلى الملك ولكنه أورد في نهاية الرسالة: إنّا الخادم المقر بالإنعام. وفي هذه العبارة خطأ وذلك لوجود الهمزة والشدّة. ولكن لم يكن هناك تشكيل في هذه الرسالة غير هذه. فلماذا؟؟

الجواب هو أن رسالة الوزير كانت تعني: ﴿...إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ ...﴿٢٠﴾﴾ [القصص]. وكان جواب الوالي هو: ﴿...إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ...﴿٢٤﴾﴾ [المائدة].

وهذا هو المقصود بالانتباه إلى مقصد المؤلفين. وأحد الأساليب التي تسمح لنا بالانتباه لهذا المقصد هو مقارنة المعاني الظاهرة من الكلمات مع المعاني المفهومة من السياق.

دعونا نرجع إلى موضوع القراءة:

الهدف الأساسي من القراءة الجماعية هو الانتباه إلى الأفكار ومحاولة تبيان الغامض فيها وليس الهدف أبدا أن تتحول القراءة والنقاش إلى الجدال. وهذه نقطة جوهرية هنا وهي أنه ليس المطلوب أبدا أن يقوم شخص بإثبات أو إفحام الآخرين لأفكاره، إذ إن هذا هو بالضبط عكس الهدف من هذا الكتاب:

إن معظم أفكار هذا الكتاب تخمينية ولا يمكن إثباتها قطعا كما لا يمكن نفيها قطعا. وبالتالي فإن موضوع الجدال ومحاولة الإثبات أو الإفحام هو مضيعة للجهد والوقت. والنقطة الرئيسية المطلوبة من القراءة الجماعية هو الانتباه لأفكار الكتاب وليس الاتفاق بين الجماعة على الموقف منها. فلكل شخص الحق باختيار قناعاته وله كامل الحق بعدم الدخول في جدال فيها. والنصيحة ألا تزيد مناقشة الموضوع عن ١٠ دقائق وأي نقاش زائد عن هذه المدة فالأفضل أن يكون خارج وقت القراءة.

وللتأكيد والتكرار فإن الهدف من القراءة الجماعية هو الانتباه وليس الإقناع.

دعونا الآن نسأل التالي: لنفترض أن القارئ قد قرأ الكتاب ولم يقتنع بأفكاره فأين هي الفائدة؟؟

إذا لم يقتنع القارئ بأفكار الكتاب فهذا معناه أن عنده أفكارًا أخرى بديلة. وهذا معناه أن عملية المقارنة بين أفكار القارئ والكتاب ستؤدي إلى وضوح شديد في هذه الأفكار البديلة.

فالفائدة من قراءة هذا الكتاب (ومعظم الكتب الفلسفية العملية) هي أنها تقوم بتوضيح الأفكار عند القارئ بغض النظر إذا كانت هذه الأفكار موافقة للكتاب أو مخالفة.

وهذه هي الخطوة الثالثة في عملية التعلم. فالخطوة الأولى هى الانتباه، والخطوة الثالثة هى اتخاذ الموقف. فالقارئ بعد قراءة الكتاب سيكون عنده موقف من أفكار هذا الكتاب بغض النظر إذا كان موقفه موافقا للكتاب أو مخالفا له.

ولكن ما هي الخطوة الثانية في عملية التعلم؟؟؟

عمليات التعلم وطرق التفكير ومناهج التحليل لها خطوات كثيرة، وتختلف هذه الخطوات باختلاف الموضوع. ولكن هناك خطوتان أساسيتان فيها وهما الانتباه والتساؤل. وأما باقي الخطوات فهي ثانوية وتكاد تكون تلقائية. فالخطوة الثالثة في عملية التعلم (اتخاذ الموقف) هي عملية تلقائية وتكاد تأتي بشكل طبيعي بعد التساؤل.

وإذا أردنا اختصار عمليات التعلم في نموذج فلسفي بسيط فإننا نستطيع أن نقول إن عملية التعلم وطريقة التفكير تتطلب حركة مستمرة من الانتباه والتساؤل في ثلاثة محاور:

أ - الانتباه والتساؤل للموضوع.

ب- الانتباه والتساؤل للأخطاء والنجاحات.

جـ- الانتباه والتساؤل للكيفية بيتا.

دعونا ندخل إلى التفاصيل:

الانتباه والتساؤل للموضوع:

الأسئلة في هذا المحور متعددة وتكون مركزة على الموضوع. ومثال على طبيعة الأسئلة: أين حدث هذا الأمر، ومتى حدث، ومن هم المشاركون فيه، وكيف نجحوا في تنفيذ هذا الأمر، ولماذا أخطئوا، وما هي العبر والفوائد....إلخ.

وفي موضوع التحليل السياسي فهناك سؤالان رئيسيان، وباقي الأسئلة تكاد تكون تلقائية (أي أن الشخص سيسألها دون حاجة لتذكرها). وهذه الأسئلة هي:

لماذا حدث هذا؟

لنفترض أن .....ماذا كان سيحدث؟

دعونا نضرب المثال في غزوة الحديبية:

هل هناك هدف استراتيجي من غزوة الحديبية؟

الجواب هو نعم. وهو أن الرسول عليه السلام أراد أن يتفرغ لخيبر وهم قوة حقيقية في أطراف المدينة ولكنه لم يكن قادرا أن يفعل ذلك دون تحييد قوة قريش. ولهذا السبب فإن الهدف من غزوة الحديبية هو عمل هدنة مع قريش ليتفرغ لخيبر. وأول من انتبه لهذا الأمر هو تقي الدين النبهاني في كتابه: الدولة الإسلامية.

دعونا نضع الأحداث على خط الزمن:

* خرج الرسول عليه السلام في أحد الأشهر الحرم معتمرا نحو مكة مع ١٤٠٠ من المسلمين.

* تصدى لهم خالد بن الوليد.

* سلك الرسول عليه السلام والمسلمون طريقا وعرا غير مطروق. وعندما انتبه خالد لهذا الأمر قام بالتراجع والوقوف في وجه المسلمين في الحديبية.

* وضع الرسول عليه السلام الأنعام في المقدمة كي يعلم الجميع أنه جاء معتمرا وليس مقاتلا.

* لم يكن هناك اتحاد في قريش في موضوع مواجهة المسلمين، إذ كانت هناك قوة كبيرة في قريش (الأحابيش بقيادة الحليس بن علقمة) ترى الشرعية في رغبة المسلمين في العمرة. ولهذا السبب فقد فضلت قريش القيام بسياسة "عدم التصرف" وتجميد الأمور كما هي.

* أراد الرسول عليه السلام إرسال عمر بن الخطاب مفاوضا ولكن عمر أشار على الرسول أن يرسل عثمان بن عفان وذلك لأن عشيرة عثمان كبيرة وأما عشيرته فقليلة وربما يقتلونه.

* أرسل الرسول عليه السلام عثمان بن عفان إلى مكة.

* بسبب اتخاذ قريش لسياسة "عدم التصرف" فقد قاموا بسجن عثمان بن عفان في أحد البيوت.

* بعد أيام من إرسال عثمان وبعد عدم ظهور أي أنباء عنه فقد ظهرت إشاعة أن قريشًا قد قتلت عثمان. وعندها قام المسلمون ببيعة الرضوان تحت الشجرة للقتال.

* لم تكن قريش تريد حربا فأرسلت إلى الرسول تخبره أن عثمان على قيد الحياة.

* بدأت المفاوضات بين قريش والرسول عليه السلام.

* كانت شروط قريش غير لائقة ولكن الرسول عليه السلام وافق عليها. ولكنه وضع في آخر المفاوضات شرط المعاهدة (وهو من أراد أن يدخل في عقد الرسول وعهده فليدخل فيه ومن أراد أن يدخل في عقد قريش وعهدها فليدخل) ووافقت قريش

على هذا الشرط ودخلت خزاعة في عهد الرسول عليه السلام ودخلت بنو بكر في عهد قريش.

* امتعض الكثير من المسلمين لشروط قريش ولكن كان هناك من الانضباط ما يكفي للإحاطة بهذا الامتعاض. وروي في الحديث عن حوار بين الرسول عليه السلام وعمر بن الخطاب: "فقال يا رسول الله أولسنا بالمسلمين أوليسوا بالمشركين قال بلى قال فعلام نعطي الذلة في ديننا فقال أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيعني" (رواه أحمد في أول مسند الكوفيين).

* رجع الرسول عليه السلام إلى المدينة وتفرغ لخيبر.

وعلى غلبة الظن فإن تصرفات الرسول عليه السلام لم تكن ضمن اجتهاداته الإدارية كقائد سياسي وإنما كانت ضمن توجيه من الله تعالى . وهذا دليله قول الرسول عليه السلام لعمر بن الخطاب. وفي الوقت نفسه فإن إنجازات الرسول عليه السلام في غزوة الحديبية لم يكن فيها معجزات ولهذا فإنها درس سماوي في الاستراتيجية.

دعونا الآن نبدأ التساؤل والتحليل:

لماذا لم يكن الرسول عليه السلام يريد الحرب ولماذا لم تكن قريشا تريد الحرب؟؟

ضمن النظرة إلى موازين القوى فإن الرسول عليه السلام وقريشًا لم يكونا يريدان الحرب للأسباب التالية:

* هدف الرسول عليه السلام كان خيبر. وإذا حارب المسلمون قريشا ولم ينتصروا فإن هذا سيمنعهم من تحقيق الهدف. وأما إذا انتصروا فإن خسائر المسلمين قد تكون كبيرة وهذا سيمنعهم كذلك من تحقيق الهدف.

* الأيام كانت من الأشهر الحرم ومن يبدأ بالقتال فإنه سيكون عرضة حقيقية لانتقاد جميع العرب.

* بالنسبة لقريش فإنها إن حاربت المسلمين وانتصرت فإنها لا تستطيع أن تضمن حجم خسائرها. وكذلك فإن انتصارها غير مضمون بسبب قوة انضباط المسلمين. ولقريش خبرة سابقة في هذا الأمر.

* وهناك نقطة في موازين القوى لصالح قريش وهي أن المهارات التكتيكية عند قريش أعلى بكثير من المهارات التكتيكية عند المسلمين فى ذلك الوقت بسبب وجود خالد بن الوليد. وبالتالي فاحتمالية عدم انتصار المسلمين في الحرب أو احتمالية الانتصار بخسائر عالية هي احتمالية عالية.

ولهذه الأسباب فلم يكن أي طرف يريد الحرب ذلك الوقت.

لماذا أذعنت قريش للمفاوضات بعد بيعة الرضوان؟؟

إذا فرضنا أن قريشا قد قتلت عثمان فهذا معناه أن قريشا قد انتهكت الأشهر الحرم وهذا معناه هو انشقاق قوة قريش عن بعضها، وهنا تكون الظروف مختلفة. ولكن حيث إن قريشا لم تقتل عثمان وهي في حقيقة الأمر لا تريد حربا فهي كانت مضطرة إلى إرسال رسول إلى المسلمين يخبرهم أن عثمان على قيد الحياة.

لماذا كان الرسول عليه السلام يريد إرسال عمر بن الخطاب؟

قريش لم تكن تريد حربا ولكنها كذلك لم تكن تريد أن يدخل المسلمون إلى مكة فكانت سياستها هي "عدم التصرف". وأراد الرسول عليه السلام إجبار قريش على فتح باب المفاوضات بقوة الإحراج. وكان عمر بن الخطاب هو الاختيار المثالي فلن يستطيع أحد من قريش الاعتداء عليه أو منعه من التوجه إلى مكة إلا إذا أشهروا سيوفهم في وجهه. وهنا فإن قريشا ستكون في خطر إشعال الحرب إن رضي عمر بن الخطاب بهذا التحدي. أما إذا أرسل الرسول عليه السلام شخصا غير عمر فربما تقف قريش في وجهه وترغمه على الرجوع أو ربما تسجنه في أحد بيوتها كما فعلت مع عثمان.

على أية حال فإن عمر بن الخطاب قد استحذر قيام قريش بالانفراد به فأشار على الرسول عليه السلام بإرسال عثمان.

هل انتبهت خيبر لمناورة المسلمين؟؟

على غلبة الظن فإن خيبر لم تنتبه إلى مناورة المسلمين. ولكن حتى وإن انتبهوا فإن اليهود كانت "قلوبهم شتى" ولهذا السبب فلم يكن عند اليهود القدرة على الاتفاق السريع للمناورة المضادة.

وهذه نقطة جوهرية. فالذكاء الجماعي عند قريش كان أعلى بكثير من الذكاء الجماعي عند خيبر. وهذا معناه أن سرعة التصرف عند قريش هي أعلى من سرعة التصرف عند خيبر. ولهذا السبب كان من الضروري تحييد قريش.

❋ لنفترض أن اليهود كان عندهم الذكاء الكافي للانتباه لمناورة المسلمين وكان عندهم سرعة التصرف فما هي المناورة المضادة التي كان يجب عليهم أن يقوموا بها؟

بالطبع لم يكن من السهل على اليهود تهديد المدينة إذ لا يوجد أي عذر لذلك كما لم يكن عندها الوقت الكافي لحشد التأييد من القبائل الأخرى. ولهذا فإن أفضل مناورة عندهم هي إرسال وفد رفيع المستوى إلى قريش كي يراقب الوضع هناك. وبالطبع فإنه إذا حدث هذا فإن الوفد سيكون قادرا على تمرير بعض الشروط لمصلحتهم كعدم التعرض لخيبر.

بالطبع فإنه لا يمكن الإجابة على جميع التساؤلات ولكن لا ضير من التساؤل، ومن يدري فربما يأتي لها الجواب فجأة ودون جهد.

إن نظرة المؤلف هى أن غزوة الحديبية هي درس من السماء في فن الاستراتيجية، ومن المناسب التعرض لبعض العبر والفوائد في هذه الغزوة:

أ. الذكاء في نصوص المعاهدة:

إن معاهدة الحديبية هي أفضل مثال للكيفية التي يقوم فيها القائد بالتخطيط الذكي ضد عدو من دون انتهاك لقواعد الصدق والأمانة. فقد كانت شروط قريش غير لائقة وقد وافق عليها الرسول عليه السلام دون جدال، لكنه استطاع تمرير شرط المحالفة ووافقت قريش عليه. وعلى غلبة الظن فإن الرسول عليه السلام كان يعلم تماما أن قريشًا لن تفي بهذا الشرط. وهذا ما جعل المعاهدة قصيرة الأجل إذ بعد سنتين قامت قريش بانتهاك فاضح للمعاهدة دون تقصير من المسلمين.

ب. مهارات التلميح:

كانت من شروط المعاهدة قيام الرسول عليه السلام بإرجاع المسلمين الجدد إلى قريش. وأسلم رجل (أبو بصير) وهاجر إلى المدينة ولكن وفدا قد جاء إلى الرسول وطالب به وقام الرسول عليه السلام بتسليمه لهم. وفي الطريق غافل أبو بصير الوفد وقتلهم. ورجع إلى الرسول عليه السلام وقال له: "يا نبي الله قد والله قد أوفى الله ذمتك قد رددتني إليهم وقد أنجاني الله منهم. فقال الرسول عليه السلام: ويل امه مسعر حرب لو كان له أحد (رواه البخاري). وفهمها أبو بصير والمسلمون الجدد وأخذوا يتربصون بقوافل قريش التجارية ويغيرون عليها وجاء وفد من قريش إلى الرسول عليه السلام يطلب منه إلغاء هذا الشرط في المعاهدة

انتبه الآن... قول الرسول عليه السلام لم يكن دعوة إلى القتال ضد قريش ولكنه كان تلميحا. وهو بهذا التلميح لم يقم أبدا بانتهاك قواعد المعاهدة بينه وبين قريش.

ج. موضوع الانضباط:

لقد حدث امتعاض حقيقي عند المسلمين لشروط المعاهدة. ولكن كون القائد هو رسول الله عليه السلام وكون الانضباط كان مرتفعا عند المسلمين فقد أحاط الرسول عليه السلام بهذا الامتعاض.

ولكن دعونا ننقل هذه الحادثة إلى ظروف أخرى ولنفترض أن مثل هذه المعاهدة قد تمت مع قائد غير الرسول عليه السلام. والسؤال هو: كيف سيكون رد الفعل عند المسلمين؟

على غلبة التخمين فإن امتعاض المسلمين ذلك الوقت كان كافيًا لعمل التمرد في الجيش. وبالطبع فإن الامتعاض والتمرد ليس بسبب مخالفة لأحكام الشرع والقانون وإنما جاء الامتعاض للشعور بالهزيمة والمهانة من هذه الشروط.

وهذه هي إحدى المعضلات الكبرى في تاريخ الحضارات:

* كيف تستطيع أن تضع انضباطا حقيقيا في المجتمع تجاه القيادة وفي الوقت نفسه تستطيع أن تضع صمامات أمان تضمن أن القيادة لا تتسلط في الحكم كما أنها لا تتخذ القرارات بعشوائية وارتجال.

* كيف تستطيع أن تضع انضباطًا وإرادة حقيقية في الجيش وفي الوقت نفسه تستطيع أن تضع صمامات أمان تضمن أن قيادة الجيش لا تتصرف بعباطة وارتجال.

* كيف تستطيع أن تضع ثقة حقيقية فى الجيش تجاه القيادة وفي الوقت نفسه يكون عند القيادة حرية عالية لعمليات الكر والفر والإقدام والانسحاب دون الخوف من تمرد وامتعاض الجيش.

والنقطة الأولى ما زالت حتى هذه اللحظة هي المعضلة الكبرى في الحضارة البشرية. وأما النقطة الثانية والثالثة فقد تم وضع العلاج لها وفي كثير من الحضارات. فالجيش يجب أن يتم ترويضه وتدريبه وبشكل مستمر ومدروس على الانضباط ضمن أكثر الظروف امتعاضا ما دامت القيادة لم تخالف أحكام القانون. بمعنى أنه إذا كان الانسحاب لا يمثل مخالفة لأحكام الشرع والقانون فإن على أفراد الجيش الالتزام بالانضباط.

في المقابل فإنه يجب على أعضاء القيادة العليا في الجيش القيام وبكل أدب (ولكن بكل صراحة ووضوح) بمداولة ومحاورة ومناقشة تصرفات القائد، وهذا هو نظام

الشورى في اتخاذ القرار. بمعنى أنه داخل غرفة الحوار فإن الأمر مطروح على الطاولة وأما خارج غرفة الحوار فإن الجميع من القائد إلى الحرس ملتزمون بالانضباط في الخطة المتبناة. وهذه إحدى نتائج الذكاء الجماعي وهى أن الجماعة قد تختلف في الآراء ولكنها متحدة تماما في الطريق.

دعونا نعكس هذه الأفكار إلى معركة بلاط الشهداء بين المسلمين والفرنسيين عام ٧٣٢م. وكان الجيش الإسلامي قد استحوذ على الكثير من الغنائم قبل المعركة. وقد انتبه عبد الرحمن الغافقي إلى خطورة هذا الأمر.

والسؤال: ماذا كان الحل الأفضل لعبد الرحمن الغافقي لعلاج هذه المشكلة؟

الحل الأفضل هو القيام بحرق هذه الغنائم وإخبار الجيش أن غنائمهم موجودة خلف العدو وليس خلفهم. وهذا شبيه بحرق طارق بن زياد للسفن بعد العبور.

وبالطبع فإن قيام عبد الرحمن الغافقي بحرق الغنائم ليس مخالفا لأحكام الشرع والقانون. ولكن هذه الحركة كانت ستسبب امتعاضا حقيقيا للجيش. وربما كان هذا هو السبب في عدم قيام عبد الرحمن الغافقي بهذه الخطوة.

والذي حدث في معركة بلاط الشهداء هو أن فرقة خفيفة من العدو تمكنت من التوجه نحو خيمة الغنائم؛ لتنشق صفوف المسلمين (ودون وعي) من أجل حماية هذه الغنائم مما تسبب بالهزيمة وموت عبد الرحمن الغافقي وضياع كل هذه الغنائم.

وهذا يعطي المثال لضرورة تدريب الجيش والمجتمع على الانضباط ولكن من الضروري كذلك قيام القيادة بالالتزام بنظام الشورى لضمان أن تصرفاتها لا تتم على عباطة وارتجال.

وهناك نقطة فرعية أخرى جديرة بالذكر: فالقرآن يُقدم فرصة رائعة لتقوية حركة الانتباه والتساؤل. فعندما تقوم بقراءة أي كتاب وتنتبه إلى نقطة وتتسائل عنها فإن أحد الأجوبة قد تكون أن المؤلف أخطأ التعبير. ولكن هذا غير متحقق في القرآن

حيث إن القرآن (للمسلمين) هو كلمة الله تعالى وهي معصومة عن الخطأ. وهنا الفرصة لتقوية مهارات الانتباه والتساؤل عن طريق قراءة القرآن.

دعونا نضرب الأمثال:

لماذا استخدم الله تعالى لفظة "مطلع الشمس" بدلا من "مشرق الشمس" في قصة ذي القرنين؟

لماذا استخدم الله تعالى أسلوب "قل" في قوله: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٥٩) ﴾ [الأحزاب]، ولكنه قام باستخدام الأسلوب المباشر في قوله: ﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا (٣٢) ﴾ [الأحزاب]؟

لماذا استخدم الله تعالى كلمة "شرقيا" في قوله: ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (١٦) ﴾ [مريم]؟

ما المعنى في اختلافات أقوال صاحب موسي: ففي أمر السفينة قال: ﴿ ... فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا ... (٧٩) ﴾ (أي أن الإرادة كانت منه) وفي قتل الغلام قال: ﴿ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا ... (٨١) ﴾ (أي أن الإرادة كانت لجماعة) وفي بناء الحائط قال: ﴿ ...فَأَرَادَ رَبُّكَ ... (٨٢) ﴾ [الكهف]؟

كان السبب في اعتراض موسى على السفينة أنه نسي وهذا صريح في النص. وأما السبب في اعتراض موسى على قتل الغلام فهو الغضب وهذا من السهل استنتاجه من النص. ولكن ما هو السبب في اعتراض موسى على بناء الحائط؟

لقد كان سؤال زكريا عليه السلام ومريم عليها السلام متشابها وهو كيف يكون لهما ولد ولكن الجواب كان مختلفا، ففي حالة زكريا كان الجواب: ﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا (٩) ﴾ [مريم].

وفي حالة مريم كان الجواب: ﴿ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ﴾ [مريم]. فلماذا الاختلاف؟

لماذا طلب يعقوب عليه السلام من أولاده أن يدخلوا من أبواب متفرقة في الرحلة الثانية إلى مصر مع أنه لم يطلبها منهم في الرحلة الأولى؟

بالطبع فإن الأسئلة السابقة جوهرية ولكن انتبه هنا:

المؤلف لا يطلب من القارئ أن يقوم بقراءة آيات القرآن (ولكن مثلا سورة الإخلاص) ويقوم بالتساؤل: لماذا قال الله تعالى "قل" ولماذا قال "هو" ولماذا اختار الله تعالى لفظة "الله أحد" ولماذا اختار لفظة "الصمد؟

فهذا الأسلوب من التساؤل هو التساؤل الآلي دون انتباه. وضمن وجهة نظر المؤلف فإن التساؤل الآلي في الكثير من الأحيان يكون مضيعة للوقت والجهد.

والأمر الطبيعي هو أن يكون التساؤل بعد الانتباه وليس قبله. والانتباه له أكثر من زاوية ولكن أهمها أربعة:

* الانتباه لنقاط التشابه والاختلاف.

* الانتباه للأمور خارج السياق.

* الانتباه للأمور غير الموجودة في السياق.

* الانتباه للأمور الخارجة عن المألوف.

ورجوعا إلى الأمثلة السابقة فقد استخدم الله لفظة "مشارق" في بعض الآيات ولكن في آيات ذي القرنين فقد استخدم لفظة "مطلع الشمس" وهنا كان الانتباه وهو الانتباه إلى أمر خارج السياق.

وأما بالنسبة إلى لفظة "قل" فالموضوع يتحدث عن حكم شرعي ولكن في الكثير من الأحيان فإن الأحكام الشرعية جاءت بخطاب مباشر وفي بعض

الأحيان جاء الخطاب بأسلوب "قل" وهنا كان الانتباه وهو الانتباه إلى نقاط التشابه والاختلاف.

بالنسبة إلى لفظة "شرقيا" فإن القصة القرآنية لم تتحدث عن مكان ولادة عيسى عليه السلام ولم يكن هناك أي إشارة في النصوص عن مكان ولادة عيسى عليه السلام ولكن كلمة شرقيا هي كلمة تتعلق بالاتجاهات. وهنا جاء الانتباه وهو الانتباه لأمر خارج عن السياق.

بالنسبة إلى آيات صاحب موسى في قول الله تعالى "فأردت" و"فأردنا" و"فأراد ربك" فإن نقطة الانتباه هو التشابه والاختلاف في الفعل "يريد". ففي الأولى كانت "أردت" والثانية كانت "أردنا" والثالثة كانت "أراد ربك" وهنا جاء الانتباه.

بالنسبة إلى سبب تعليقات موسى عليه السلام للخضر فإن السبب الأول كان واضحا في النص ولكن لم يرد في النصوص اللاحقة أية إشارات للسبب وهنا كان الانتباه.

بالنسبة إلى الجواب في تساؤل زكريا ومريم عليهما السلام فإن الانتباه جاء نتيجة لتشابه الأسئلة واختلاف الأجوبة.

بالنسبة إلى طلب يعقوب عليه السلام فقد جاء الانتباه بسبب أن هذا الطلب خارج عن المألوف ولأن يعقوب لم يطلب هذا الأمر في الرحلة السابقة.

وهنا النقطة وهي أن التساؤلات السابقة لم تكن تساؤلات آلية وإنما جاءت نتيجة للانتباه.

وهنا نقطة أخرى وهو أنه ليس من الضروري أن تكون قادرا على الإجابة على جميع التساؤلات. فالمؤلف ليس لديه تصور واضح لسبب اختيار الله تعالى لكلمة "مطلع الشمس" بدلا من "مشرق الشمس"، وكذلك لا يوجد في ذهن المؤلف أي تصور أو احتمال لسبب اختيار لفظة "شرقيا" في آية مريم.

ولكن مجرد قيامك بحركة الانتباه والتساؤل هو أمر في غاية الفائدة؛ لأنه سيساعد على تحريك الدولاب في الدماغ بالضبط كما تحرك الدولاب عند الأعرابي عندما ينتبه ويتساءل عن سباحة الطير في الهواء. وأما الأجوبة فربما تجدها عاجلا أو آجلا أو ربما لا يجدها الناس إلا بعد قرون. وهنا النقطة الجوهرية وهي أن حركة الانتباه والتساؤل مفيدة لذاتها وأما الأجوبة فستأتي عاجلا أو آجلا.

وهنا نقطة ثالثة: وهي أنه من الطبيعي أن يأتي التساؤل بعد الانتباه ولكن عملية التساؤل ليست أمرا تلقائيا وإنما هي مرحلة جوهرية بالضبط كما أن عملية الانتباه هي مرحلة جوهرية. وفي كثير من الأحيان فإن طريقة صياغة السؤال تكون هي السبب في الانتباه. كما أن إحدى النصائح في الأدبيات الأكاديمية في حل المشكلات المستعصية هي إعادة تعريف المشكلة. وإعادة تعريف المشكلة هو نفسه عملية إعادة صياغة السؤال.

رجوعا إلى الأمثلة القرآنية السابقة فقد استطاع المؤلف أن يستنتج بعض الأجوبة لها:

فبالنسبة إلى سبب اعتراض موسى عليه السلام على بناء الحائط فإن غلبة ظن المؤلف أنه "زهق". فشخصية موسى عليه السلام وطول عمره ذلك الوقت لم تكن تسمح له بالصبر طويلا بوضعية "صبي المعلم".

وبالنسبة إلى اختلاف الجواب لزكريا ومريم عليهما السلام فإن زكريا كان نبيا شيخا فسؤاله غريب على شخص يعلم تماما قدرة الله تعالى، فكان هناك بعض الحزم في جواب الملائكة له. وأما مريم فقد كانت صغيرة بلا خبرة في الحياة فكان جواب الرسول لها رقيقا ذا طمأنينة.

وبالنسبة إلى طلب يعقوب عليه السلام من أبنائه الدخول من أبواب متفرقة فالأمر يتعلق بحياة البادية:

فالعلاقات الاجتماعية في البادية محدودة ومباشرة ولهذا السبب فمهارات المداراة غير مرتفعة في البادية مقارنة في حياة المدينة، وذلك لعدم الحاجة إليها في

البادية. ولكن عدم وجود مهارات المداراة معناها أن ما هو موجود في القلب سيظهر وبشكل واضح على الوجه، وهنا كانت المشكلة (على غلبة الظن) عند يعقوب عليه السلام. فأولاد يعقوب كانوا قد ذهبوا في المرة الأولى إلى مصر وبشكل عادي ليتعرفوا هناك على وزير الاقتصاد (يوسف عليه السلام) وقد وصلت العلاقة بين أولاد يعقوب والوزير أنه أعطاهم البضاعة مجانا دون مقابل. وهذا شجعهم للقيام بالرحلة الثانية.

ولكن هل يستطيع القارئ أن يتخيل مشاعرهم عند ذهابهم إلى مصر في الرحلة الثانية؟

إن أولاد يعقوب عليه السلام كان عندهم الشعور اليقيني أن "عندهم واسطة قوية في الحكومة". ولهذا فمن الطبيعي أن يبدؤوا بالتصرف وبشكل غريزي (وبسبب عدم وجود مهارات المداراة) بأسلوب "يا أرض انهدي ما عليك قدي".

وعلى غلبة التخمين فإن يعقوب عليه السلام قد رآهم وأنوفهم مرفوعة وصدورهم منفوخة وأراد يعقوب أن يُبعد عن أولاده بُغض الناظرين إذا دخلوا جميعا في موكب واحد إلى المدينة فطلب منهم أن يدخلوها من أبواب متفرقة. فكما أن الشجاعة تكون مع الجماعة فإن الافتراق يخفف مشاعر الغرور.

رجوعا إلى موضوع المحاور في حركة الانتباه والتساؤل:

كان ما سبق هو شرح للمحور الأول فيه وهو الانتباه والتساؤل للموضوع. وأما المحور الثاني فهو الانتباه والتساؤل للأخطاء. وبالطبع فإن أهم مجال في هذه النقطة هو الانتباه إلى أخطائك أنت وذلك لأنك إذا لم تستطع أن تتعلم من أخطائك فإنك لن تستطيع أن تتعلم من أخطاء الآخرين.

وهناك الكثير من الأسئلة في هذا المجال ولكن أهمها التالي:

١ - لماذا أخطأت؟

٢- وما هي الآليات والمقاييس التي كنت بحاجة لها كي تمنع (أو تخفف) من حدوث هذا الخطأ؟

دعونا نضرب الأمثال من أخطاء المؤلف:

أحد أخطاء المؤلف كانت في موضوع حرب الخليج الثانية (عام١٩٩٠م). فالمؤلف (وكثير غيره) كان مقتنعا تماما أن تهديدات الحلفاء للعراق كانت مسرحية وأنه لن تكون هناك حرب. وكانت صدمة حقيقية ذلك اليوم الذي سمع فيه المؤلف أن طائرات الحلفاء بدأت تضرب بغداد.

هذا الخطأ غير بسيط. فلماذا حدث؟

الخطأ جاء نتيجة لاستخدام فلسفات تحليل لم تعد مناسبة. فنظرة المؤلف أن صدّام حسين كان مرتبطا بالغرب ولهذا السبب فإنه من المستبعد أن يقوموا هم بضربه.

والنقطة البديهية التي لم ينتبه لها المؤلف هو عندما تجد جريرا يهدد بضرب زيد، ثم تجد جريرا يمسك العصا ويهدد بضرب زيد، ثم تجد جريرا يركض باتجاه زيد وهو يهدد بضربه، فيجب عندها أخذ تهديد جرير على محمل الجد.

والنقطة التي وقع فيها المؤلف هي نفسها معضلة الفلاسفة. فالفلسفة جاءت للتعبير عن الواقع والنظر في أعماقه. ولكن في كثير من الأحيان فإن الفلاسفة يغوصون في الفلسفة إلى الدرجة التي يفقدون فيها الصلة مع الواقع. وهذا بالضبط ما حدث مع المؤلف في حرب الخليج الثانية.

وهنا يأتي السؤال الثاني: ما هي الآليات التي كان المؤلف بحاجة لها كي يضمن (قدر الإمكان) أن فلسفات التحليل التي عنده ما زالت مناسبة؟

وكانت نتيجة الإجابة على هذا التساؤل هي النقاط الثلاث الأولى في منهج التحليل السياسي (في الملحق الثاني من هذا الكتاب). فالنقاط الثلاث جاءت لعمل آلية تلقائية تقوم بعمل المؤشر لفعالية أو عدم فعالية فلسفات التحليل.

ومثال آخر هو طالبان. فقد كان المؤلف قبل حرب أفغانستان الثانية (٢٠٠٠م) على قناعة تامة أن طالبان تقوم بالمتاجرة بالأفيون. وكانت هذه القناعة بسبب ظهور هذه المعلومة في الكثير من الصحف العربية وغير العربية ودون أي نفي من طالبان. وكذلك لوجود نظرة شرعية عند بعض المسلمين في أفغانستان وباكستان تسمح بالمتاجرة بالأفيون إلى غير المسلمين.

ولكن ظهر وبشكل واضح أن طالبان كادت أن تقضي تماما على زراعة الأفيون في أفغانستان وأن المتاجرة بالأفيون إنما ازدهرت بعد دخول الحلفاء.

والسؤال الآن: لماذا أخطأ المؤلف؟

وفي واقع الحال فإن خطأ المؤلف كان أمراً لا مفر منه. فأنت لا تستطيع أن تأخذ من الصحف ما تحبه وترفض ما تكرهه دون مقاييس وقواعد وإلا فأنت تستخدم الهوى والترقيع في التحليل.

وهنا كان انتباه المؤلف للفلسفة التي تقول: من الأفضل أن تكون مخطئا في الرأي ولكن في الطريق الصحيح بدلا من أن تكون مصيبا في الرأي ولكن في الطريق الخطأ؛ وذلك لأن الطريق الصحيح سيقوم مع الزمن بتعديل الرأي نحو الصحيح أيا كان ذلك الصحيح.

وكذلك كان انتباه المؤلف لنظرة الاحتمالات وهي النقطة الرابعة في منهج التحليل السياسي. فخطأ المؤلف الحقيقي لم يكن في الاقتناع وإنما كان في الاقتناع التام بأن طالبان تتاجر بالأفيون.

وكان نتيجة هذه التساؤلات هو تغير كامل في لغة التفكير والتعبير عند المؤلف. فتعبيرات المؤلف قبل تحليل الخطأ كانت:

- قناعتي في الموضوع هو كذا.
- الدولة الفلانية هدفها كذا.
- الرئيس الفلاني قام بكذا.

أما بعد تحليل الخطأ السابق فقد أصبحت:

- غلبة الظن هو كذا.
- غلبة التخمين هو كذا.
- هناك أقوال أن كذا هو كذا.
- هناك إشاعات أن كذا هو كذا.

وضمن وجهة نظر المؤلف فإن استخدام نظرة الاحتمالات في عملية التحليل السياسي ستقوم بالكشف عن مكر الصحافة أو على الأقل التخفيف من حدة الأخطاء الناتجة عنها.

المحور الثالث في حركة الانتباه والتساؤل هو الكيفية بيتا:

الكيفية ألفا هي مجموعة من الأسئلة المتعلقة بالموضوع مثل: كيف تقوم بهذا الشيء (How to do)، مثال ذلك هو السؤال عن الكيفية والخطوات التي تجعل الشخص متقنا للعبة الشطرنج.

وأما الكيفية بيتا فهي مجموعة مختلفة من الأسئلة تتعلق بالكيفية التي استطاع بها فلان من الانتباه أول مرة إلى الفكرة. مثال ذلك هو السؤال: كيف استطاع هانيبال من الانتباه إلى الخطة في معركة "كان"؟ وما هي خطوات التفكير في دماغه والتي أنتجت هذه الخطة؟

انتبه هنا... الكيفية ألفا تساعد على خلق المحترفين أما الكيفية بيتا فهي تساعد على خلق المبدعين، وذلك لأن الكيفية بيتا تبحث عن الطريقة في التفكير والتي استخدمها المبدعون في الانتباه إلى أفكارهم أول مرة.

وهذه المجموعة من الأسئلة في الكيفية بيتا ليست مقتصرة على التحليل السياسي وإنما هي مفيدة جدا في كل مجال وفن. فمن المفيد جدا التساؤل عن الطريقة التي انتبه بها أرشميدس أول مرة إلى قانون حجم الكرة. ومن المفيد جدا التساؤل عن الطريقة التي انتبه بها نيوتن أول مرة إلى قانون الجاذبية.

دعونا نضرب الأمثلة:

كيف استطاع هانيبال أن ينتبه لهذه الخطة العبقرية في معركة كان (Cannae)؟

دعونا أولا ندرس معركة كان:

كان جيش قرطاجة ٤٠ ألفا في حين كان جيش روما ٨٠ ألفا. ولكن كان هانيبال متفوقا في سلاح الخيالة.

وهنا سؤال اعتراضي:

قـوة روما إلى قرطاجة كانـت ٢ إلى ١ وقد حدثت معارك كثيرة قبل هذه المعركة وكانت قوة العدو أكبر من الجيش بنسبة ٥ إلى ١ كمعركة جاوجاميلا (Gau gamela) بين الإسكندر والفرس. فما هو الأمر المميز في معركة كان والذي جعلها الأكثر شهرة؟

هناك ميزتان في معركة كان وهي أن الجيش الروماني في ذلك الوقت كان في غاية الانضباط وهذا ما يجعل تكتيكات هانيبال في غاية التميز. والأمر الثاني هو أن هذه المعركة كانت المعركة الأولى في التاريخ والذي استطاع فيها جيش أن يحيط بكامل عدوه ويدمره تماما دون مطاردة. فقد كانت خسائر الرومان حوالي ٧٠ ألفا.

وكان هانيبال متفوقا بسلاح الخيالة ولهذا فمن الطبيعي الاستنتاج أن هانيبال قد قرر استخدام هذا السلاح للإحاطة بالعدو. ولكنه بحاجة إلى أمرين:

١. بحاجة إلى وقت كاف كي تستطيع الخيالة عند هانيبال من أن تناوش وتشتبك وتحطم الخيالة عند العدو.

٢. بحاجة إلى فصل خيالة العدو عن المشاة.

هذه الفكرة بسيطة ومنطقية. الآن دعونا ندرس الخطة:

قام الرومان حسب عادتهم بتقسيم الجيش إلى وسط مشاة وجناحين من الخيالة واحتياط. أما هانيبال فقد وضع من سلاح الخيالة العدد الكافي في جناحه الأيمن

كي يقوم بتثبيت جناح العدو المقابل. ووضع الباقي في جناحه الأيسر. ثم قام بفرد المشاة عنده على شكل قوس عميق ممتد باتجاه الرومان. ووضع على طرفي القوس من الخلف وحدتين من المشاة الثقيلة.

ما هو الهدف من شكل القوس؟؟؟

لم يكن عند الرومان أي خبرة سابقة في هذا التشكيل. وقد نظر الرومان باستغراب وسخرية إلى تشكيل هانيبال، فقد كان القوس في غاية النحافة إلى درجة أنهم لم يصدقوا ما يرونه. وتقدم وسط الرومان باتجاه القوس.

ولكن هناك نقطة: وهي أنه إذا اندفع الرومان باتجاه القوس فإن صفوفهم ستنشق إذ إنهم إذا اندفعوا نحو القوس فإن هذا سيؤدي إلى أن يكون طرفا صفوفهم في نقطة أعمق من وسط الصف، وهذا قد يؤدي إلى انشقاق الصف نفسه عند الاندفاع. وحيث إن هذه هي أول مرة يرون فيها هذا التشكيل ولم يتدربوا على تكتيكات مضادة له فقد قرروا التقدم ببطء. وهذا ما أراده هانيبال، فقد أراد وقتا كافيًا.

وكلما تلامس الصف الروماني مع القوس فإن القوس كان يناوش ثم يتراجع. وهذا أعطى للرومان الإحساس بالانتصار (خديعة طباع). وازداد التقدم حتى انعكس القوس من شكله المحدب إلى المقعر. وتكدس الرومان داخله. وهنا انقضت وحدة المشاة الثقيلة باتجاه طرفي القوس مما أدى إلى فصل خيالة العدو عن الوسط و إلى إشغال وحدات الاحتياط. وهذه كانت الخطوة الثانية التي أرادها هانيبال. والمعركة بعد ذلك أصبحت تلقائية فقد استطاعت الخيالة تحطيم الجناح الأيمن للعدو لينقض بعدها على الخطوط الخلفية للوسط الروماني.

وبالطبع فإن هناك عبقرية أخرى لهانيبال. فإن جيش هانيبال كان خليطا من قرطاج وأسبان وفرنسيين وطليان وكانت المهارة الحقيقية لهانيبال هى خلق الانضباط والإرادة في هذا الخليط، وخصوصا في القوس لأن القوس كانت نقطة الضعف عند هانيبال، فقد كان من الضروري أن يتراجع القوس دون أن ينشق

ودون أن ينهار الانضباط ودون أن يشعر الرومان بالريبة. وهنا كانت عبقرية هانيبال القيادية.

والسؤال التالي الآن: كيف جاءت فكرة القوس إلى هانيبال؟

بالطبع لا يوجد جواب صريح لهذا السؤال ولكن من النظر إلى التاريخ فإنه من الممكن التخمين. وضمن تخمين المؤلف فإن فكرة القوس كانت تطويرا لتكتيك استخدمه والده (هاملكار بركة) في إحدى معاركه مع الأسبان. ففي إحدى المعارك كانت قوة هاملكار صغيرة جدا لقوة العدو فقام بالمبادأة بالهجوم على شكل قوس مقعر (أي أن اندفاع الوسط كان متخلفا عن اندفاع الجناحين). وكان هذا التكتيك جديدا جدا على الأسبان وترددوا بالهجوم خوفا من انشقاق الصفوف وارتبكت قيادة العدو لوقت كان كافيًا لهملكار للاستدارة بجناحيه لضرب الخطوط الخلفية للعدو.

وضمن معلومات المؤلف فإن تكتيك هانيبال (إرباك قيادة العدو بتشكيل هندسي) قد تم استخدامه في التاريخ عدة مرات:

استخدمه هاملكار بركة ضد الأسبان. ثم استخدمه هانيبال ضد الرومان في معركة كان. ثم قام سيبون الأفريقي (قائد روماني نجا من معركة كان) بتطوير تكتيك القوس إلى حركة الأجنحة المائلة واستخدمه في معركة ليبا (Llipa) ضد القرطاجيين في أسبانيا.

وهذه الفكرة قريبة جدا لتكتيك هاملكار، فقد هجم سيبون بأجنحة مائلة (وتكتيكات أخرى). وهذا أربك العدو إلى الدرجة الكافية لقيام سيبون بالوصول إلى طرفي الجيش والاستدارة لضرب الخطوط الخلفية. وقد قام فريدريك الأكبر (Frederick The Great) بدراسة فعالية الأجنحة المائلة في خطة سيبون وطبقها في حروبه.

وفي معركة العلمين بين الألمان والإنجليز عام ١٩٤٢. استطاع الإنجليز شق ثغرة في قوة الألمان واضطر الألمان إلى الانسحاب. وقد حاول الإنجليز الاندفاع

للإحاطة بالألمان ولكن استطاع الألمان التخفيف من سرعة اندفاع الإنجليز بتكتيكات كان منها ألاعيب الألغام. فقد قام الألمان بوضع الخردة في الصفوف الأمامية في حقول الألغام ثم وضعوا بعض الألغام في صفوف تالية ثم الخردة وهكذا. وكان هذا التكتيك جديدا على الساحة وقتها.

وقام سلاح الهندسة الإنجليزي باستخراج الألغام ليكتشفوا أنها خردة وعندما تكرر هذا الأمر فقد ظن الإنجليز أن الحقل كله خردة فاستعجل الإنجليز أمرهم وقاموا بالاندفاع لتتعطل مدرعاتهم. وعندها يأتي سلاح الهندسة لاستخراج الألغام ليكتشفوا أنها خردة وليتكرر خطأ الإنجليز بالاستعجال ليقعوا في صف ألغام آخر. فكانت حركة الإنجليز هي استعجال ثم تعطل وارتباك. وهذا قد أعطى الألمان الوقت الكافي للإفلات.

والسؤال الآن: هل هذا بالضبط ما حدث في دماغ هانيبال؟

بالطبع لا يوجد يقين وإنما ما سبق هو أفضل الاحتمالات المتوفرة ضمن نظرة المؤلف إلى التاريخ. ولكن حتى وإن ثبت لاحقا أن هذا التحليل كان خاطئا إلا أنه مفيد. فمحاولة البحث عن الكيفية التي فكر فيها هانيبال معناها هو محاولة التعمق بشكل حقيقي في التاريخ والتعمق بشكل حقيقي في دراسة التكتيك. وهذه محاولة مفيدة.

وهنا هي الفائدة الحقيقية من الكيفية بيتا. وهي أنك تبحث عن الكيفية التي قام بها القادة المبدعون بالتفكير. وهذا سيؤدي وبشكل غريزي إلى تطوير طريقة التفكير عندك. وهذه هي الجائزة الكبرى من الكيفية بيتا.

دعونا نضرب مثلا آخر عن الكيفية بيتا وليكن في موضوع الفيزياء: كيف استطاع نيوتن أن ينتبه إلى قانون الجاذبية؟

الشائعة تقول إن نيوتن قد سأله أحدهم عن الكيفية التي استطاع بها أن ينتبه إلى قانون الجاذبية فأجابه: من سقوط التفاحة.

وقد أصبحت النظرة لاحقا أن نيوتن كان سائرا في الريف فسقطت عليه تفاحة فانتبه إلى قانون الجاذبية. وهذا مستبعد تماما حيث إنه لا توجد علاقة مباشرة تربط سقوط التفاحة مع قانون الجاذبية. وضمن غلبة تخمين المؤلف فإن التحليل التالي هو الأقرب إلى المنطق:

وضع كوبرنيكوس (١٥٤٣م) نظريته أن الكواكب لا تدور حول الأرض وإنما تدور حول الشمس. ومن ذلك الوقت وحتى ظهور نيوتن فقد كانت هناك معضلة حقيقية للعلماء وهي لماذا الشمس؟ لماذا تدور الكواكب حول الشمس وما هو الشيء المميز في الشمس كي تدور الكواكب حوله. ولتعقيد هذه المعضلة فإنه كان هناك سؤال آخر وهو لماذا القمر؟ لماذا تدور الكواكب حول الشمس في حين يدور القمر حول الأرض؟؟؟

هذه كـانت المعضلة الحقيقية للعلماء منذ أن وضع كوبرنيكوس نظريته.

وضمن غلبة التخمين فقد كان نيوتن في الريف وبيده تفاحة يأكلها وبعد أن انتهى منها رمى باقيها (وبشكل اعتيادي) نحو الأفق وسقطت إلى الأرض. وهنا كانت نقطة الانتباه:

لقد رمى التفاحة وسقطت بعد مسافة ولكنه لو رماها بقوة أكبر فسوف تسقط على مسافة أبعد. ولو رماها بقوة أكبر وأكبر فإن التفاحة ستسقط على مسافة أبعد وأبعد. ولكن إلى متى؟؟

وهذا كان مفتاح الحل. وقد قام نيوتن برسم مخطط في أحد المقالات على شكل كرة الأرض وعلى أحد أطرافها جبل كبير. وفي هذا الرسم قام نيوتن بالتوضيح أنه إذا تم رمي الحجر من على رأس الجبل وبقوة كافية فإن المنطق يقول إن الحجر يجب أن يرجع إلى يدك من الجهة الأخرى.

وهنا انتبه نيوتن إلى حل المعضلة وهو أن القمر يقوم في الواقع بالسقوط إلى الأرض ولكنه سقوط خاص حيث إن له السرعة الكافية كي يعود إلى نفس النقطة

التي بدأ منها. وكذلك الكواكب فإنهم يسقطون إلى الشمس ولكن بسبب سرعتهم فإنهم يعودون إلى نفس النقطة التي بدءوا منها.

وقبل انتباه نيوتن لقانون الجاذبية فقد كانت العلاقة بين قوة الجذب والمسافة والكتلة معروفة في ظاهرة الجذب المغناطيسي. ولهذا السبب فقد كان يسيرا أن يقوم نيوتن بالإجابة على المعضلة الكبرى ذلك الوقت. لماذا الشمس: لأنه الأضخم كتلة. ولماذا القمر: لأنه الأقرب إلى الأرض. وقد كان هذا كافيًا لنيوتن، وباستخدام حساب المثلثات وقوانين كبلر في حركة القمر، كي يستنتج قانون الجاذبية وهو الذي فتح بابا عريضا في علم الفيزياء.

وهنا دعوة من المؤلف إلى تغيير طريقة دراسة وتدريس الرياضيات والفيزياء. فالطريقة الحالية في دراسة الرياضيات والفيزياء تكون بالتركيز على الموضوع. وهذا الأسلوب في الدراسة غير مريح وباعث للضجر. وحتى المؤلفات في تاريخ الرياضيات الحالية فإنها لا تقوم بالتركيز على الكيفية بيتا وإنما تقوم بسرد القصة التاريخية وهو أمر ليس شديد الفائدة. ودعوة المؤلف هنا هي دراسة الرياضيات وتدريسها باستخدام الكيفية بيتا. وفي دراسة الكيفية بيتا فأنت تقوم وبشكل أساسي بدراسة طريقة التفكير التي أدت إلى التوصل إلى الفكرة أول مرة. وهذا ما يجعل دراسة الرياضيات أكثر متعة، وهذا ما يدفع إلى خلق المبدعين فيها.

ما سبق كان تحليلا للمحاور الثلاث في حركة الانتباه والتساؤل. وللتذكير فهذه المحاور هي:

١. الانتباه والتساؤل عن الموضوع.

٢. الانتباه والتساؤل عن الأخطاء.

٣. الانتباه والتساؤل عن الكيفية بيتا.

وهناك ثلاث نقاط فرعية في موضوع حركة الانتباه والتساؤل من الضروري التعرض لها:

* الصدق والأمانة مع النفس.
* وثقافة الاستهزاء.
* وعضلة الانتباه.

الصدق والأمانة مع النفس:

هناك الكثير من الناس من لا يكون صادقا مع نفسه. وهؤلاء من يقومون بترقيع القواعد والمقاييس وفلسفة الأمور كي تتفق مع مصالحهم وأهوائهم. كمثال لنفترض أن شخصا كان يكره جريرًا. ولنفترض أن جريرا قد قام بعمل خاطئ، وعندها من الطبيعي أن يقوم هذا الشخص بانتقاد جرير. ولكن لنفترض الآن أن هذا الشخص يحب زيدا وأن زيدا قد قام بنفس العمل الخاطئ.

في هذه الحالة فإن البعض من الناس من سيقوم بخلق التبريرات لزيد وانتقاد جرير في الوقت نفسه. وهذا العمل هو مثال لعدم الصدق والأمانة مع النفس ومحاولة فلسفة الأمور لتتفق مع الهوى.

انتبه أن هذا الأمر في كثير من الأحيان لا يكون متعمدا وإنما هو جزء من السلوكيات غير الواعية.

المشكلة في عملية الترقيع المزاجي للمقاييس أنها تقوم بإعاقة تطوير المهارات. وهذا بالضبط ما يحدث عندما تكون المساطر وأدوات القياس في المصنع متغيرة حسب المزاج فإن هذا سيؤدي إلى انهيار الكفاءة والجودة في منتجات هذا المصنع.

ثقافة الاستهزاء وسرعة الاتهام والشتيمة:

توجد نظرة عند المؤلف وهو أن هناك علاقة واضحة بين الحماقة وثقافة الاستهزاء.

لنرجع إلى المثال السابق المتعلق برسالة الوزير والخطأ في "إنّ وإنّا".

الآن... إذا كان الوالي سريع الاستهزاء والشتيمة فإن أغلب الظن أنه سينتبه إلى الخطأ في التشكيل ولكن ربما سيكون تعليقه (بالعامي): "شوف هالـ ... مش عارف يحط التشكيل صح".

وبالطبع فإنه في اللحظة التي يقوم فيها بالشتيمة فإن مرحلة التساؤل قد تم تجاوزها. وهذا ما تفعله ثقافة الاستهزاء فإنها تقوم بتجاوز مرحلة التساؤل وتصبح الحركة هي حركة انتباه وشتيمة. ولهذا السبب فإن المؤلف لا يثق بحكمة الشخص سريع الاستهزاء والشتيمة. ومهما كان هذا الشخص ذكيا في غرفة الامتحانات فإنه لن يتصرف بحكمة خارجها. والسبب هو أن دماغ هذا الشخص سيكون مستعدا وجاهزا في غرفة الامتحانات، أما في الحياة فإن الاستهزاء والشتيمة سيبقيان أسرع من مرحلة التساؤل ولهذا فمواقفه ستبقى في الحياة غير حكيمة.

عضلة الانتباه:

عضلة الانتباه ليست كعضلة اليد. فأنت تستطيع أن تقوم بإرخاء اليد أو شدها. ولكنك لا تستطيع شد عضلة الانتباه أو إرخاءها. فعضلة الانتباه هي عضلة غير إرادية. فأنت لا تستطيع أن تفتح الكتاب أو القرآن وتقرر أنك ستنتبه إلى المعاني بين السطور. وإنما الانتباه يأتي فجأة ودون استئذان أو ميعاد.

وهنا السؤال: كيف نستطيع أن نقوي عضلة الانتباه؟؟

والجواب هو بالتوقف والتمعن في الأمثلة والتاريخ:

عندما يقرأ الشخص أن المفسرين قد استنبطوا معنى كلمة "أبّا" في قول الله تعالى: ﴿ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾ ﴾ [عبس]، بأن الفاكهة لنا والأب هي للأنعام. وعندما يتوقف ويتمعن هذا الشخص بهذا المثال فسيتنبه أن الطريقة التي قام بها المفسرون بهذا الاستنباط هي المقارنة. وعندما يقوم هذا الشخص بالتوقف والتمعن في الأمثلة الأخرى والانتباه لها فهو في الواقع يقوم بتقوية عضلة الانتباه عنده.

وهنا يأتي السؤال التالي: ما المقصود بالتوقف والتمعن؟

المقصود هو استخدام أسئلة الكيفية بيتا السابق شرحها. فأنت في حقيقة الأمر تريد أن تعرف كيف انتبه الآخرون إلى المشاكل والحلول. وعندما تستخدم الكيفية بيتا في الكثير من الأمثلة فأنت في حقيقة الأمر تقوم بترويض العقل على نفس الكيفية. وهذا هو المقصود بتقوية عضلة الانتباه.

بالطبع فإنه بالإمكان تصميم ألعاب ذهنية وإدارية واستراتيجية لتقوية عضلة الانتباه وكثير من هذه الألعاب في غاية الفائدة. ولكن مجال الألعاب يبقى محدودا ومجال التاريخ غير محدود. ولهذا السبب فإن الأساس في تقوية عضلة الانتباه يبقى هو التوقف والتمعن في الأمثلة والتاريخ.

دعونا نرجع الآن إلى البداية. فقد قال المؤلف إن طريقة القراءة الجماعية لهذا الكتاب يكون بقراءة الفقرة (أو الصفحة) ومناقشتها وضرب الأمثال لأفكارها.

والهدف من القراءة الجماعية هو التخفيف من سرعة تجاوز الأفكار. وأما الهدف من المناقشة فهو الانتباه والتساؤل للأفكار. وهنا يأتي السؤال التالي : ما هو الهدف من ضرب الأمثال؟

إن الفهم لقواعد السباحة لا يعني القدرة على السباحة. فالشخص بحاجة إلى الممارسة كي يستطيع تحويل القواعد والأفكار إلى مهارة وتحويل الفهم إلى مفهوم. وهذه هي النقطة: فكي يقوم الشخص بتحويل الفكرة إلى مهارة فهو بحاجة إلى الممارسة والتطبيق.

ولكن ليس من السهل ممارسة وتطبيق الأفكار السياسية والاستراتيجية. فكان أفضل الحلول المتوفرة لمحاولة تحويل الأفكار السياسية والاستراتيجية إلى مهارة ومفاهيم هو ضرب الأمثلة.

والمطلوب هو أن تحاول (قدر الإمكان) أن تجد الأمثلة للفكرة من معلوماتك

الخاصة وخبراتك ومعرفتك بخبرة الآخرين. وكلما استطعت أن تضرب أمثلة أكثر كلما ازداد وضوح الفكرة في الذهن.

ولكن انتبه...ليس المثال هو الذي يقوم بترسيخ الفكرة وإنما تترسخ الفكرة بمحاولة استخراج الأمثلة من الدماغ. وإذا كانت هناك فكرة وحاولت عصر الذهن لاستخراج المثال ولم تستطع فلا بأس، فلم يذهب هذا الجهد سدى. فإن محاولاتك باستعراض الأمثلة في الذهن هى فى حد ذاتها الوسيلة لترسيخ الفكرة في الذهن. فالهدف من استخراج الأمثلة ليس الأمثلة نفسها وإنما الهدف هو عملية الاستخراج. أي أن الفائدة من التمرين ليست النتيجة وإنما الفائدة من التمرين هى التمرين نفسه.

وهناك نقطة أخرى ضرورية وهي الأمثلة المضادة. وهذا الموضوع قد انتبه له المؤلف في أحد كتب البرمجة العصبية لأندرياس (Steve Andreas):

معظم الأفكار في عالم السياسة والاستراتيجية والإدارة هي أفكار ظنية وليست يقينية. وإنه لمن الخطأ الشديد الاعتقاد (بشكل واع أو غير واع) بهذه الأفكار الظنية؛ لأن هذا معناه أنه لن يكون هناك الانتباه الكافي للقصور والاستثناءات في هذه الأفكار.

لنضرب المثال: لنفترض أنك اقتنعت أن برودة الأعصاب ضرورية لنهضة المجتمع.

الآن ... هذه الفكرة صحيحة ولكنها ليست دائما صحيحة، فإن الرسول عليه السلام كان هادئ الأعصاب في معظم تصرفاته ولكنه في بعض المواقف كان شديد الغضب. ولهذا السبب فإن هدوء الأعصاب هو الأفضل في معظم المواقف ولكن ليس في جميعها.

وكذلك في وقت المعركة. فأنت تريد من قادة الجيش أن يكونوا باردي الأعصاب ولكنك لا تريد من الجنود في الصف الأول في المعركة أن يكونوا باردي الأعصاب وإنما العكس تماما.

وهذه هي النقطة. فإن معظم الأفكار في الفلسفة والسياسة هي أفكار غلب عليها الظن. ويجب أن تبقى داخل دائرة الأفكار الظنية ومن الخطأ أن تنتقل هذه الأفكار إلى دائرة الاعتقاد واليقين.

وهنا يأتي موضوع الأمثال المضادة. فإنه من المناسب أن تقوم بوضع بعض الأمثلة المضادة للأفكار التي تقتنع بها. إذ إن هذا سيكون تنبيها للعقل الباطن أن هذه الفكرة هي غلبة ظن وليست يقينًا. وهذا هو المطلوب.

كان ما سبق هو شرح لمنهج قراءة الكتب الفلسفية العملية. وبالطبع فإن الكثير من المناهج هي خطوط عريضة. وكذلك هذا المنهج، فالقواعد التي تم ذكرها في هذه المقالة هي خطوط عريضة. ومن الناحية الواقعية فإن قراءة جميع فصول هذا الكتاب بشكل جماعي قد لا يكون عمليا حيث إن هذا الأمر قد يستغرق شهورًا طويلة. كما أنه ليس من السهل على القارئ أن يستخرج الأمثلة والأمثلة المضادة لجميع الأفكار في هذا الكتاب. كما أنه ليس من السهل مناقشة كل فقرة في هذا الكتاب.

ولهذا السبب فإن هذا المنهج هو خطوط عريضة. وقد يكون من الحكمة قراءة بعض الفصول جماعيا لتقوية الانتباه. ومن المفيد بين الفينة والأخرى القيام باستخراج الأمثلة للأفكار الأساسية. ولكن هذا كله يبقى مقيدا ضمن حدود الوقت والظرف والإمكانيات .

ويأمل المؤلف الآن في أن يكون القارئ قد أدرك أهداف هذه المقالة. فالمؤلف يهدف إلى تحقيق ثلاثة أمور:

١. أن يقوم القارئ بتكوين أفكار واضحة عن الموقف السياسي والنظرات الاستراتيجية، بغض النظر إن كانت هذه الأفكار موافقة لمحتوى هذا الكتاب أو مخالفة له.

٢. أن يقوم القارئ وبشكل غريزي ومستمر باستخدام حركة الانتباه والتساؤل.

٣. أن ينتبه القارئ إلى أهمية الصدق والأمانة في التعامل مع القواعد والمقاييس.

وإذا تحققت هذه الأمور فإن الزمن كفيل بتعديل أفكار القارئ (مهما كانت) نحو الصحيح أيا كان هذا الصحيح. وهذا هو الهدف الحقيقي من هذا الكتاب.

الفصل الثاني

الفلتات العالمية الثلاث والفلتة المحتملة الرابعة

هناك في التاريخ المسطور ثلاث فلتات عالمية (روما وإنجلترا وأمريكا) والقرائن الحالية توحي بأن إيران هي الفلتة العالمية الرابعة.

❖ الفلتة الأولى - روما

حسب الأساطير فقد قام الملك الأول لروما (روميولوس-Romulus، حوالي ٧٧١-٧١٧ ق.م) بإنشاء مجلس للكبار (مجلس الشيوخ) للاستشارة والمساعدة في إدارة الدولة. ولم يكن لمجلس الشيوخ أية سلطة رسمية ولكن مع مرور السنوات فقد أصبح لدى المجلس قيمة معنوية ونفوذ حقيقي في الدولة.

وقام الملك السادس لروما (توليوس- Servius Tullius، ٥٧٨-٥٣٥ ق.م) باستحداث نظام فريد في أجهزة الحكم. فقد أنشأ مجلسًا للشعب (Tribal Assembly) يكون منتخبا من الشعب ومجلسًا للجيش (Century Assembly) يكون منتخبا من المؤهلين للجندية.

ومن الممكن استنتاج الأسباب وراء هذا الترتيب في أجهزة الدولة: فعلى غلبة التخمين فإن الملك أراد أن يوازن قوة مجلس الشيوخ، حيث إن مجلس الشيوخ هو مجلس الأرستقراطية في البلاد. وبهذه الموازنة في القوى يصبح الملك في نقطة التوازن فلا تستطيع الطبقة الأرستقراطية التمرد خوفا من الشعب كما لا يستطيع الشعب التمرد خوفا من الطبقة الأرستقراطية. كما أن مجلس الشعب ومجلس الجيش هما قنوات آمنة تسمح للشعب بالتنفيس عن توتراتهم والتعبير عن شكاويهم ومشاكلهم.

وهناك نقطة جديرة بالذكر عن المؤهلين للجندية: ولأسباب غير واضحة للمؤلف فقد كان المؤهلون للجندية هم فقط أصحاب الأراضي والأملاك

القادرون على تلبية احتياجاتهم من عتاد وسلاح. وحسب تخمين المؤلف فلم يكن للجنود رواتب. ربما مكافآت أو حصص من الغنائم ولكن ليس رواتب. وقد استمر هذا العرف في الجندية حتى عام ١٠٧ ق.م عندما تم فتح باب الجندية للمرتزقة.

سقط النظام الملكي في عهد الملك السابع (سابيربوس Superbus–Tarquinius) عام ٥١٠ ق.م. فقد كان هذا الملك على قدر عال من الحماقة مما جعل الناس في المدينة (نبلاء وعامة) يتّحدون في بغضه وكانت القشة التي قصمت ظهر الملكية هي قيام أحد الحاشية باغتصاب إحدى الحرائر في روما وانتحارها. وأدت هذه الجريمة إلى ثورة شعبية ضد الملك وحاشيته وانتهت بطردهم من روما. واتفقت القيادات في روما على إلغاء الملكية واستبدالها بنظام جمهوري يقوم على مجلس الشيوخ كجهاز إشراف والمجالس الشعبية كجهاز تشريعي وقنصلين يتم انتخابهم لمدة سنة يمثلان الجهاز التنفيذي للدولة.

كان هناك انسجام حقيقي في المجتمع الروماني كما كانت قوى الدولة في حالة توازن إيجابي يمنع تسلط إحداها على الأخرى كما كانت الأمور تتم بالشورى بينهم. وهذه النقطة الأخيرة هي القوة الدافعة الحقيقية لروما في العصر الجمهوري. فقوة روما الحقيقية كانت في مجلس شيوخها، فالشورى والمحاورة والنقاش وتقليب الأفكار في المجلس أدى إلى قوة ذكاء حقيقية وسرعة تعلم هائلة لم تقتصر فقط على مجلس الشيوخ ولكن تعدته إلى جميع مرافق الدولة.

قد لا يستطيع القارئ أن يصدق هذا الادعاء بوجود علاقة بين مجلس الشيوخ الروماني وبين سرعة التعلم في روما ولهذا فأنا أدعو القارئ للقيام بالتجارب التالية:

١. فليقم القارئ بالتفكير في مشروع مستقبلي له.

لاحظ أن عمليات التفكير، مهما كانت عميقة، فإنها عمليات رمزية (Abstract). وبشكل عام فإن عمليات التفكير الرمزية هي عمليات قفز من فكرة إلى أخرى. ولهذا السبب فإن من يقوم بعمليات التفكير الرمزية لا ينتبه إلى الثغرات والنواقص في الأفكار المطروحة.

٢. ليقم القارئ بالتحدث مع غيره في مشروع مستقبلي له، أو ليقم القارئ بالاستماع إلى شخص آخر يتحدث عن مشروع مستقبلي. لاحظ أنه بمجرد قيامك بالحديث فإن انتباهك يزداد للثغرات والنواقص في أفكارك. فقيامك بالحديث عن أفكارك لشخص آخر يتطلب منك أن تعبر عن أفكارك بعبارات كاملة كما أنك تتعرض إلى الأسئلة من المستمع مما يجعل انتباهك للموضوع المطروح أشد حدة.

٣. المرحلة الثالثة في عملية التعلم تكون بالكتابة.

انتبه..... المرحلة الأولى كانت مجرد التفكير في الموضوع والمرحلة الثانية كانت الحديث عن هذا الموضوع وهو ما يمكن أن تسميه بـ "التفكير بصوت مرتفع". أما المرحلة الثالثة فهى كتابة الموضوع.

وميزة الكتابة هي أنها تقوم بإجبار الشخص على ترتيب أفكاره بشكل منطقي ودون استخدام الطرق المختصرة (الشورتكات Short Cuts) .

دعونا نشرح هذا الموضوع بتفصيل أعمق: تم الاستنتاج نتيجة لمجموعة من الملاحظات أن العقل الواعي لا يستطيع أن يربط أو يجمع أكثر من سبعة أفكار فى وقت واحد ضمن حدوده القصوى.

الآن....أي موضوع معقد فإنه يحوى الكثير من الأفكار. والطريقة التي يتعامل فيها العقل الواعي مع هذه الأفكار هي ربطها على مراحل. والملاحظة هنا أن العقل الواعي عندما يبدأ بتحليل مجموعة كبيرة من الأفكار وعلى مراحل فإنه لا يقوم بربط كامل ولا ثابت بقدر ما يقوم بعمليات لصق. بمعنى آخر فإن العقل الواعي يقوم بعمليات شورتكات. هذه العمليات تفيد في جعل التفكير أكثر سرعة. ولكن دقة هذه الشورتكات تعتمد بشكل كبير على خبرة الشخص ومهاراته. أشبه مثال لما سبق هو الشوارع في المدينة، فعندما يكون هناك ازدحام فإن الشخص قادر على اختصار الوقت باستخدام الطرق المختصرة (الشورتكات)، وهذه الطرق عرفها الشخص بالتجربة والخبرة.

الآن... عمليات الشورتكات تقوم بالتضحية بالدقة مقابل السرعة وبالتالي فمن الممكن جدا أن يخطئ الشخص بالاستنتاج وذلك نتيجة لاستخدامه الشورتكات الخاطئ. وهذا هو السبب في أن كثيرًا من الناس من يقوم بالتفكير في موضوع ويرتاح للنتيجة ثم يبدأ بالكتابة ليكتشف متحسرا أن كل استنتاجاته كانت خاطئة. والسبب هو أنه في عملية الكتابة فأنت تقوم بمحاولة ربط الأفكار بشكل كامل ودون شورتكات. وهذا ما يفسر لماذا تكون كتابة الأفكار أصعب بكثير من التفكير فيها والحديث عنها.

هناك نقطة أخرى جديرة بالملاحظة: فعندما تقوم بالتفكير بمجموعة من الأفكار فأنت تقوم بربط الأفكار على عدة مراحل وقد يكون من الصعب أن تقوم بالانتباه لعلاقة المراحل الأولى مع المراحل الأخيرة. أما عند الكتابة فإنه من السهل جدا أن تقوم بربط المراحل المختلفة بعضها ببعض. فأنا مثلا أستطيع أن أرى العلاقة وبسهولة بين الأبواب المختلفة في هذا الكتاب. وهذا الذي يجعل عمليات التفكير غاية في الوضوح عند استخدام الكتابة. وهنا فإنه من المناسب ذكر قول الله تعالى في سورة [العلق]: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾. وفي الحقيقة فإن عمليات التعلم والكتابة متلاصقة تماما.

٤. المرحلة الرابعة في عملية التعلم تكون بالمحاورة والنقاش (Debate). وعندما يقوم الشخص بعرض أفكاره على لجنة رسمية وظيفتها قبول أو رفض هذه الأفكار فإن موقف هذا الشخص ليس بالسهل. فالمطلوب من هذا الشخص ليس فقط أن يعبر عن أفكاره بعبارات واضحة وكاملة وليس عليه فقط أن ينتبه ويحيط ويستدرك الثغرات والنواقص في أفكاره، وإنما عليه كذلك أن يقوم بتبرير أفكاره ونتائجه وتوصياته وعليه أن يكون جاهزًا للإجابة بشكل مرض عن أية استفسارات تضعها اللجنة. وهذا الأمر يلزم الشخص أن يبذل الجهد الحقيقي

للإحاطة بالموضوع من كافة جوانبه. وهذا كله يؤدي في النهاية إلى قوة ذكاء حقيقية وسرعة تعلم هائلة. هذا بالضبط ما قدمه مجلس الشيوخ الروماني إلى روما.

انتبه أنه في الأنظمة الفردية (كالأنظمة الملكية أو الديكتاتورية) فإن صناعة القرار تكون ضمن دائرة ضيقة وتكون القرارات متأثرة بالأمزجة الآنية لأصحاب القرار، كما أن أصحاب القرار غير ملتزمين بتقديم التبريرات الكافية لهذه القرارات. في حين أنه في الأنظمة المؤسسية (كنظام روما الجمهوري) فإن صناعة القرار تكون ضمن دائرة أكبر كما أن تأثير الأمزجة الآنية على القرارات يكون أقل، كما أن أصحاب القرار في الأنظمة المؤسسية ملتزمون بتقديم التبريرات الكافية لهذه القرارات أمام المجلس. وهذا هو أهم مميزات الأنظمة المؤسسية وهو حاجة أصحاب القرار أنفسهم إلى بذل الجهد الحقيقي في الدراسة و الإحاطة بالمشاكل التي يواجهونها وكيفية معالجتها. وهذا ما أدى في النهاية إلى قوة ذكاء حقيقية لم تقتصر على أصحاب القرار فقط في روما ولا على مجلس شيوخها وإنما تعدتها إلى جميع مرافق الدولة في روما.

هناك أمر آخر جدير بالانتباه في مجلس الشيوخ الروماني وهو أن الشعور القومي والوطني كان ظاهرًا في أعضائه وكانت الفلسفة الغالبة أن مصلحة الدولة فوق المصلحة الشخصية لأعضاء المجلس. وكذلك فقد كان هناك الحد الكافي من الانسجام بين أعضاء المجلس وهذا ما أدى ألا تتحول خلافات الرأي وتقليب الأفكار إلى شقاق ونزاعات شخصية. بمعنى آخر فإن الذكاء الجماعي لمجلس الشيوخ الروماني كان مرتفعا.

وتفوق الرومان على جيرانهم في القانون والسياسة والإدارة والدبلوماسية والمخابرات والجيش. وفي جميع ما سبق فإن قوة الرومان الحقيقية كانت في الانضباط ومهارة التنسيق بين الأطراف والقدرة على الإحاطة بالموضوع من معظم جوانبه.

لنضع مثالا على ما سبق وليكن في موضوع الجيش:

لقد تم وصف الجيش الروماني صدقا أنه ماكينة قتل (Killing Machine). وكان للجيش الروماني القدرة على مواجهة وتحطيم جيوش أضخم منه، وكان الفزع من الجيش الروماني عند الناس فى ذلك الوقت أشد من فزع الناس الآن من القنابل النووية. والعجيب أن تفوق الجيش الروماني لم يكن بسبب تكنولوجيا متفوقة وإنما بسبب مهارات متفوقة.

وكان أحد ابتكارات الرومان في عالم الحرب هو الليجون الروماني. والليجون هو جيش يتكون من جيوش صغيرة كل واحد منها له استقلالية كبيرة. وكانت هناك مسافة معتبرة بين هذه الجيوش الصغيرة. ولهذا فقد كان الجيش الروماني قادرا على الانتشار على جبهة أعرض من مثيله من الجيوش الأخرى.

وكان هذا التشكيل يُعتبر انتحارا عسكريا عند غير الرومان. إذ إنه من الغريزي عند خط القتال واختلاط الحابل بالنابل أن يتجمع المقاتلون معا، حيث إن التجمع ينتج عنه شجاعة إضافية ويهدئ الأنفس الفزعة. في حين أن التشكيل الروماني يتطلب توزيع الجنود على جبهة أعرض ونقاط الضعف فيه أن أي فزع للجنود أو ارتباك لقادة الفرق سيؤدي إلى انشقاق الجبهة.

وعالج الرومان هذه النقاط بقوة الانضباط ومهارة التنسيق. وهذا أدى إلى ميزة حقيقية للجيش الروماني وهي المرونة الضخمة وسرعة الحركة لاستغلال أية ثغرة أو خطأ من العدو.

نقطة الانتباه هنا أن مهارات التنسيق بين قادة الفرق كانت في غاية التعقيد إلى الدرجة التي لم تستطع الجيوش الأخرى تقليدها. وهذا ما جعل الجيش الروماني ماكينة قتل مرعبة. فإذا قام العدو بتقليد الرومان في التشكيل العسكري فإن أي ارتباك بسبب ضعف التنسيق سيؤدي إلى انشقاق الجبهة، وإذا اعتمد العدو على التشكيل التقليدي فإن الجيش الروماني قادر على الإحاطة به وتفتيته.

انتبه أنه عندما يتحارب طرفان دون أن يقضي أحدهما على الآخر فإنه لمن الطبيعي أن يتعلم الطرف الضعيف من الطرف القوي ويزيد من مهاراته، ولكن هذا الأمر استغرق بالألمان والفرنسيين والمجر ٦٠٠ سنة حتى استطاعوا أن يطوروا تكتيكات ومهارات قادرة على مواجهة الجيش الروماني.

وهذه هي النقطة هنا: قوة الذكاء وسرعة التعلم في الدولة الرومانية مكنت الرومان على مدى الأيام من خلق وصقل مهارات معقدة عجزت الدول المجاورة لها عن تقليدها ولفترة طويلة من الزمن.

ولكن بدأ الضعف يدب في مجلس الشيوخ الروماني منذ حوالي ١٥٠ ق.م. وبدأ الضعف بسبب دخول أعضاء من ثقافات وفلسفات شتى لا يغلب عليها الفلسفة القديمة أن "مصلحة الدولة فوق المصلحة الشخصية لأعضاء المجلس". كما أن الترف والإسراف والبحث عن الغنى السريع وجمع الثروة بأي شكل أو وسيلة قد دخل إلى أفكار وأهداف الرومان بشكل عام وأعضاء مجلس الشيوخ بشكل خاص. أي أن النظرة أصبحت أن مجلس الشيوخ هو جواز السفر نحو الغنى والثروة. وهذا أدى في النهاية إلى تشقق مجلس الشيوخ الروماني إلى تيارات متناحرة ذات أسباب وجذور شخصية. وكذلك فقد بدأ الاختلاف والصراع الحقيقي يزداد بين الطبقة الأرستقراطية والمحافظين (The Optimates) ويمثلهم مجلس الشيوخ، وبين الأغنياء من الطبقة العامة (The Populares) ويمثلهم مجالس الشعب. ولهذا فإنه يمكن القول إن الذكاء الجماعي للمجتمع الروماني قد بدأ بالتناقص منذ عام ١٥٠ق.م.

وهناك تعليق جميل لجوغارثا (Jugurtha، ١٦٠-١٠٤ق.م) وهو أحد خصوم روما في الجزائر (بتصرف ومعنى): روما للبيع لمن يستطيع أن يشتريها. (A city for sale and doomed to quick destruction, if it should ever find a buyer). وقد تحقق هذا القول إلى درجة قريبة فقد قام أكتافيوس (Octavius) وبقوة الجيش من شراء روما لحسابه.

وهذه نقطة جديرة بالبحث:

في جميع الاختلافات والصراعات التي حدثت في الجمهورية الرومانية فإن الجيش لم يكن عنصرا فيها. ولكن في عام ١٠٧ ق.م ظهر تهديد حقيقي لروما من قبل القبائل الألمانية في الشمال. وبسبب الحاجة إلى مزيد من الجنود فقد قرر ماريوس (القنصل الروماني – Gaius Marius) فتح باب الجندية للمرتزقة. وكان هذا القرار هو السبب في قلب الأوضاع السياسية في روما رأسا على عقب.

وليست المشكلة أن يتم فتح باب الجندية للمرتزقة وإنما المشكلة كانت في عدم الانتباه و الإحاطة بعواقب هذا الأمر. فقد كانت الأعراف وقتها أن قائد الجيش هو الحاكم المطلق للجنود وكان بيده القضاء والثواب والعقاب. ولم تكن هذه الأعراف تشكل مشكلة للنظام السياسي حيث إن الجنود هم من أصحاب الأراضي والأملاك الذين ليسوا بحاجة إلى الجيش كمصدر للرزق. وبالتالي فإن حاول أحد القادة أن يقوم باستخدام الجيش لضرب النظام السياسي فإن للجنود الجرأة والدافع للرفض.

ولكن هذا الأمر اختلف بعد فتح الجندية للمرتزقة، فقد أصبح ولاء الجنود للقائد القادر على دفع رواتبهم وتدبير أرزاقهم. وهذه هي النقطة التي غابت عن ذهن ماريوس، إذ كان عليه أن يقوم بتغييرات جذرية في أعراف قيادة الجيش بحيث لا يستطيع القادة العسكريون من استغلال المرتزقة ضد النظام السياسي.

ولهذا السبب فقد ظهرت قوة جديدة في الصراع السياسي لم تكن بالحسبان وهى الجيش. وكان عام ٨٧ ق.م هو بداية النهاية للجمهورية الرومانية، إذ في هذا العام قام الجيش ولأول مرة في تاريخ روما بالانقلاب على النظام السياسي وأخذ مقاليد السلطة في البلاد. وكان هذا هو البداية لسلسلة من الانقلابات العسكرية والحروب الأهلية والتي انتهت عام ٢٧ ق.م بانتهاء الجمهورية وقيام أكتافيوس بأخذ الحكم المطلق في البلاد.

❖ **الفلتة الثانية- إنجلترا**

الحكاية في إنجلترا بدأت عام ١٢١٥م عندما وقف جميع النبلاء في وجه الملك جون (King John) وأجبروه على الالتزام بما سمي بالعهد الأعظم (ماجنا كارتا- Magna Carta) وكان من شروط هذا العهد قيام مجلس استشاري يقوم الملك فيه باستشارته في أمور الحكم.

وفي عهد الملك إدوارد الأول (١٢٧٢-١٣٠٧) تم تطوير المجلس الاستشاري إلى برلمان من مجلسين، أحدهما للنبلاء (مجلس اللوردات) والآخر للأغنياء من الطبقة المتوسطة (مجلس العموم). وقيام هذا التشكيل الإداري كان لحاجة في نفس الملك، فقد انتبه لتعاظم قوة النبلاء فكان لا بد من خلق قوة أخرى توازن قوة النبلاء. فكانت الفكرة هي خلق مجلسين كل منهما يمثل طبقة من المجتمع، وقام الملك بفرض هذا التشكيل الإداري من خلال نافذة أخلاقية تمثلت بمقولته المشهورة: ما يخص الجميع يجب أن يوافق عليه الجميع.

وكان هذا التشكيل الإداري في غاية العبقرية من إدوارد، وهو بقوة هذا التشكيل قد استطاع أن يجعل الملكية حكما في النزاعات وليس طرفا فيها، كما أنه يجعل وجود الملكية ضروريا لتوازن المجتمع فلا يستطيع النبلاء التمرد خوفا من الطبقة المتوسطة كما لا تستطيع الطبقة المتوسطة التمرد خوفا من النبلاء، والملك جالس على نقطة التوازن بينهما فأصبح وجود الملك ضروريا للتوازن وليس جبريا.

على أية حال فإن البرلمان لم يكن مالكا لصلاحيات حقيقية بقدر ما كان واجهة للملكية. وفي الفترة بين ١٣٠٧ إلى ١٦٤٠ قامت نزاعات بين البرلمان والملكية توجت بالحرب الأهلية بينهما والتي انتهت بتولي كرمويل (Oliver Cromwell) الحكم وإعدام الملك تشارل الأول (King Charles I) في ١٦٤٩م وسيطرة البرلمان على كافة أمور الدولة.

وبعد وفاة كروميل عام ١٦٥٨م قام البرلمان بإرجاع النظام الملكي إلى البلاد ولكنه (البرلمان) لم يفقد صلاحياته. والذي حدث هو ظهور فلسفة وقاعدة ثقافية واضحة (cultural foundation) تضع وبوضوح صلاحيات البرلمان في صناعة قرارات الدولة. ومن الممكن القول إن القوة الحقيقية لإنجلترا قد بدأت منذ ذلك الوقت. وكما ساهم مجلس الشيوخ الروماني في قوة الذكاء وسرعة التعلم في روما فإن هذا ما قدمه بالضبط البرلمان الإنجليزي لإنجلترا.

ولكن من بداية القرن العشرين فإن البرلمان الإنجليزي لم يعد المصدر الرئيسي لصناعة القرار السياسي بقدر ما أصبح الواجهة لاستخراج القرار السياسي. والسبب في ذلك هو دخول أعضاء من ثقافات وأفكار شتى إلى البرلمان. على أية حال فإن الذكاء الجماعي في إنجلترا بشكل عام وفي البرلمان بشكل خاص ما زال مرتفعا. وأحد الأدلة على هذا الادعاء هو الصفة القديمة والتي ما زالت ظاهرة في الأجهزة الإدارية للدولة وهي صفة برودة الأعصاب عند مواجهة المشاكل والنظر للأمور واتخاذ القرار.

هناك أمر جدير بالملاحظة وهو أن تطور إنجلترا كان أسرع من تطور الدول الأوروبية المجاورة، للأسباب السابق ذكرها، ولكنه كان أبطأ بكثير من سرعة التطور الذي حدث للولايات المتحدة الأمريكية. وعلى غلبة الظن فإن السبب في ذلك هو أن إنجلترا كانت (وبشكل واضح) وما زالت (وبشكل خفي) تحاول حماية النظام الطبقي في البلاد.

ويوجد في إنجلترا ثلاث طبقات اجتماعية واضحة المعالم: الطبقة الأرستقراطية (طبقة النبلاء) والطبقة المتوسطة (وهم أصحاب الأملاك والمصانع والمرتبة العالية من المحترفين كالأطباء والمهندسين والمحامين) والطبقة العامة (وهم طبقة العمال). وكل طبقة من هذه الطبقات لها حدود اجتماعية واضحة، فطريقة اللبس والتصرف وعضوية النوادي وحتى اللهجة في إنجلترا تختلف من طبقة إلى أخرى.

وفي هذا النظام الاجتماعي فإن اغتناء شخص من طبقة لا يجعله -في نظر النظام الاجتماعي- يرتقي إلى طبقة أعلى كما أن افتقار شخص لا يجعله - في نظرة المجتمع- يهبط إلى طبقة أدنى.

والوضع يختلف قليلا في المجتمع الأمريكي. فالمجتمع هناك ينقسم كذلك إلى ثلاث طبقات: الطبقة الغنية والطبقة المتوسطة (وهم طبقة الميسورين) والطبقة الفقيرة. ولكن لا يوجد في المجتمع الأمريكي أية قيود اجتماعية أو ثقافية من ارتقاء أو هبوط شخص من طبقة إلى أخرى. وإذا نظرت إلى المجتمع الأمريكي ستجد أنه كان هناك الكثير من العائلات الغنية المتحكمة في أمور الدولة وليس لهم الآن أي أثر، وكان هناك الكثير من العائلات الفقيرة في الماضي والتي وصلت الآن إلى مواقع الغنى والنفوذ.

وهذا هو السبب (في نظر المؤلف) الذي جعل سرعة التطور في أمريكا أسرع بكثير مما كان في إنجلترا وهو عدم وجود قيود ثقافية أو اجتماعية لاجتهاد الناس في سعيهم نحو النجاح.

على أية حال فإن هناك بوادر ضعف حقيقية بدأت تظهر في الأجهزة الإدارية الإنجليزية سيتم الحديث عنها فيما بعد.

❖ الفلتة الثالثة- أمريكا

كانت أمريكا بعد الاستقلال تتكون من ١٣ ولاية منها الكبير والصغير ومنها الغني والفقير، وكانت العقدة هي في كيفية وضع دستور عملي يحظى بموافقة جميع هذه الولايات. وكان أن اجتمع ممثلو هذه الولايات على مدى أربعين يوما واتفقوا في النهاية على استخراج هذا الدستور الأمريكي الفريد.

وكانت هناك فلسفة فرنسية رائجة في ذلك الوقت عن نظام الحكم وهو ضرورة فصل السلطات الرئيسية الثلاث (التشريعية والقضائية والتنفيذية) عن بعضها

البعض لمنع الدكتاتورية من الظهور. وكان الجميع متفقًا على هذه الفلسفة وكان الخلاف متركزًا على بعض التفصيلات أهمها كيف يمكن حماية الولايات الصغيرة من نفوذ الولايات الكبيرة وفي الوقت نفسه كيف يمكن للولايات الكبيرة أن يكون لها الأولوية نظرا لكثرة عدد سكانها. فكان الحل هو فصل البرلمان إلى مجلسين: مجلس الشيوخ ويمثله عضوان من كل ولاية مهما كان حجم هذه الولاية، ومجلس الشعب (الكونجرس) وتمثله الولايات بحجم عدد سكانها.

والفلسفة الأمريكية في الحكم كانت في واقعها تطويرا للفلسفة الفرنسية ، فلم تكن السلطات الرئيسية منفصلة عن بعضها وحسب، وإنما تم بناء نظام الحكم بشكل يجعل كل سلطة رقيبًا على السلطة الأخرى، وهكذا لا تستطيع أي سلطة أن تفرض إرادتها منفردة.

والطريقة لتحقيق هذا الشكل من النظام كانت بسيطة: فصل ومداخلة. فالسلطات الرئيسية كانت منفصلة عن بعضها البعض وفي الوقت نفسه كان هناك تداخل في الصلاحيات. فالسلطة التشريعية لها صلاحيات تنفيذية واضحة وكذلك السلطة التنفيذية لها صلاحيات تشريعية واضحة.

وكما كان مجلس الشيوخ الروماني القوة الدافعة للذكاء وسرعة التعلم في روما، فإن مجلس الشيوخ ومجلس الشعب الأمريكي كانا قوة دفع حقيقية للذكاء وسرعة التعلم في أمريكا. وتضاعفت سرعة التعلم في أمريكا مقارنة بكل الحضارات السابقة بسبب عدم وجود أية قيود اجتماعية أو ثقافية أو طبقية تؤثر في سعي الناس نحو النجاح.

على أية حال، فإن القرائن الحالية توحي بأن أمريكا هي الآن الرجل المريض في العالم وأن العملاق الأمريكي آيل إلى السقوط، وهو أمر سيتم الحديث عنه لاحقا.

* **الفلتة المحتملة الرابعة - إيران**

كان الحديث السابق عن الفلتات العالمية التي حدثت في الماضي. وهناك بعض القرائن الحالية والتي تجعل المؤلف ينظر باهتمام لإمكانية أن تكون إيران هي الفلتة العالمية الرابعة.

هناك صفات مشتركة بين الخميني وجمال عبد الناصر، وهناك صفات متناقضة. وإحدى الصفات المتناقضة بينهما (حسب الظاهر المحسوس للمؤلف) أن عبد الناصر لم يكن متدينا ولم يكن الإسلام جزءا من تفكيره في حين أن الخميني كان متدينا وكانت نظرة الدين جزءا من تفكيره. وأما الصفات المشتركة فكلاهما كانا في غاية الذكاء، وكلاهما كانا نظيفي اليد، وكلاهما كانا لهما الحلم في وضع بصماتهما في التاريخ. ولكن أهم صفة مشتركة بينهما أنهما كانا معتدِّي الرأي وذوي رغبة حقيقية جارفة للسيطرة المطلقة على الأمور.

ولكن هناك فرق جوهري وأساسي بين الاثنين وهو أن عبد الناصر بدأ حكمه في أول عمره شابا يافعا في حين أن الخميني قد بدأ حكمه آخر عمره شيخا عجوزا. وهذه هي النقطة الجوهرية والزاوية الرئيسية للحكاية التي نحكيها هنا.

كان للخميني مشكلتان رئيسيتان أولاها أنه لم يكن يثق بالجيش النظامي، ولكن في الوقت نفسه لم يكن من الحكمة القيام بتطهير شامل له؛ إذ سيؤدي هذا إلى ضعف حقيقي في الجيش. وكان علاج الخميني لهذه المسألة ذكيا، فقد أنشأ جيشا آخر موازيا للجيش النظامي سماه الحرس الثوري. وأصبح الجيش النظامي لا يستطيع التمرد خوفاً من الحرس الثوري، كما أصبح الحرس الثوري لا يستطيع الامتعاض خوفا من الجيش النظامي، مما جعل هناك توازنا في القوة العسكرية لمصلحة الخميني.

وأما المشكلة الثانية التي واجهت الخميني فهى كيفية السيطرة على الحكم مع الاعتبار أنه في السبعين من العمر. فكان الحل أن يقوم بإنشاء جهاز حكومي

كامل لإدارة المشاكل اليومية للدولة مع احتفاظ الخميني بالسلطة الحقيقية فيما يتعلق بالخطوط الاستراتيجية. وهذا الترتيب يتطلب القيام بخلق توازن حقيقي في القوى السياسية في الدولة يكون لمصلحة الخميني. فكان الترتيب هو القيام بخلق البرلمان ورئاسة الجمهورية كل منهما يراقب الآخر، وخلق منصب المرشد الأعلى يحكم بينهما إن اختلفا. وفيما بعد قام بخلق مجلس الخبراء والذي يساعد المرشد الأعلى في متابعة الإدارة الاستراتيجية للدولة. ولكن الظاهر الملموس (في نظر المؤلف) أن كل الخيوط كانت بيد الخميني وكانت قرارات الخميني ذات صبغة معتدة بالرأي.

وبعد وفاة الخميني تم الاتفاق على خامنئي وكانت له خبرة إدارية كبيرة ولكن (وحسب الظاهر) فإن خامنئي ليس معتد الرأي وليست عنده الرغبة المطلقة للسيطرة على أمور الدولة. ويبدو أن هذه الصفات هي ما جعلت الأجهزة الإدارية في إيران تنضج وتصل إلى درجة الاحتراف والإتقان.

ومن الطبيعي جدا في حالات الطوارئ أن تقوم الدولة بتعيين رجل يقودها بإدارة مطلقة. بل إن النظام الجمهوري الروماني قد وضع آلية يقوم فيها مجلس الشيوخ باختيار "ديكتاتور" ذي سلطة مطلقة مدة ستة أشهر لمواجهة حالات الطوارئ. ولكن (ومن دراسة التاريخ) فإن القيادة المطلقة المستمرة لها خطورة حقيقية على كفاءة الأجهزة الإدارية في الدولة.

ومع عدم الإنكار على الإطلاق لفضل الخميني في عملية التشكيل الفريد لشكل السلطة والأجهزة الإدارية في إيران، إلا أن قوة إيران الحقيقية (ضمن وجهة نظر المؤلف) قد بدأت في عهد خامنئي. وكما كان لمجلس الشيوخ الروماني الفضل في قوة الذكاء والتعلم في روما، فإن البرلمان ومجلس الخبراء يشكلان الدافع الحقيقي لقوة الذكاء وسرعة التعلم في إيران.

وهناك آراء سياسية تقول إن هناك علاقة تعاون تاريخية بين أمريكا وإيران. وأساس هذه الآراء أن سيطرة الخميني على إيران تمت بتواطؤ فرنسي وأمريكي.

. وهذه الفرضية منطقية، فعندما كان الخميني منفيا في فرنسا فإنه (وعلى غلبة الظن) كان تحت حماية المخابرات الفرنسية وربما كذلك الأمريكية. و كذلك فقد ظهر جليا وجود اتصالات سرية وعلى مستوى مرتفع بين الإدارة الإيرانية والأمريكية في أوائل الحرب العراقية الإيرانية مما تسبب بقضية "إيران- جيت".

ولكن هناك أربع نقاط من الضروري الانتباه لهن في هذا الموضوع:

١. أحد أهم تكتيكات أمريكا هو "تعكير البركة على الآخرين والاستئثار بالغنيمة وحدها". وضمن دراسة التدخلات الأمريكية في العالم فإنها تقوم بخلط الأوراق وفرض الفوضى ثم تقوم وبهدوء "ولوحدها" بإعادة ترتيب الأوراق ضمن مصلحتها. وحدث هذا في مصر وسوريا ولبنان والصين وغيرها. وهذا تكتيك ذكي لكنه غير مضمون العواقب. وأفضل الأمثلة الفاشلة لهذا التكتيك هو الصين وإيران.

لتوضيح هذه النقطة فإن هناك فرضية سياسية تقول إن الحزب الشيوعي قد استطاع السيطرة على الصين بتواطؤ أمريكي. وكان هدف أمريكا هو شق الشيوعية نصفين كل منهما يحارب الآخر. وكان هذا التكتيك غاية في الذكاء، ولكن الغطرسة والتكبر الأمريكي جعلت الصين الآن إحدى أسباب الصداع لأمريكا في المنطقة.

٢. ليست هذه هي المرة الأولى التي يخطئ فيها الأنجلو-ساكسون الحساب ويرتد إليهم مكرهم أضعاف ما حسبوه. فإنجلترا قد حشدت ونظمت ودربت رعاياها الأمريكيين لطرد الفرنسيين من كندا في القرن الثامن عشر. وبعدها بسنوات قليلة قام أولئك الأمريكيون بطرد إنجلترا من أمريكا.

وقد استطاع الحزب النازي السيطرة على مقاليد الحكم في ألمانيا وبتواطؤ إنجليزي. وقد ضغطت إنجلترا على فرنسا آنذاك ومنعتها من التدخل ضد ألمانيا النازية في أول ظهور هتلر. وكذلك فإن إنجلترا تساهلت كثيرا مع طلبات هتلر

"غير العادية". وكان الهدف الإنجليزي هو عمل قوة ردع حقيقية في ألمانيا تجاه روسيا الشيوعية. ولكن الذي حدث أن ألمانيا النازية كانت السبب في انحدار إنجلترا من موقع الدرجة الأولى في العالم.

وكما تم ذكره فإن الصين الشيوعية قد ظهرت وبمباركة أمريكية بهدف تمزيق المبدأ الشيوعي، ولكن قوة وسرعة نمو الصين هي مشكلة حقيقية لأمريكا في الوقت الحاضر.

اعتمادا على ما سبق فإن المؤلف يدرك تماما مدى مصداقية الفرضية المتعلقة بتواطؤ أمريكا في موضوع ثورة الخميني في إيران، إلا أنه في الوقت نفسه فإن المؤلف يدرك تماما (وضمن الظاهر المحسوس له) أن هناك صراعا حقيقيا ودمويا بين إيران وأمريكا في العراق و أفغانستان.

انتبه هنا الآن.... القول إن هناك صراعا حقيقيا بين أمريكا وإيران في العراق قد يكون إدعاءً خاطئاً، ولكنه بالتأكيد ليس توهما ولا هو مبني على الخيال والأمنيات. فأنا عندما أرى طرفين يتصايحان ويشتم كل منهما الآخر ولا أرى دماءً أو تورّما فإني قد أضع بعض إشارات الاستفهام على صدق صياحهما. ولكن عندما أرى طرفين محترفين يتصايحان وأرى الدماء والأموال تنزف من أحدهما فإني أضع مصداقية عالية لصدق الصياح بينهما. وإنجلترا وأمريكا قد نزفت الدماء والأموال منهما في العراق وتسببت أزمة العراق إلى إفلاس حضاري وأخلاقي وفكري حقيقي في أمريكا. ويغلب على ظن المؤلف أن نزيف الأموال من خزينة الأنجلو-ساكسون (إنجلترا وأمريكا) كانت السبب الرئيسي للأزمة المالية العالمية الحالية.

وهذا كله يعطي الدلالة أن الصراع بين إيران من جهة وأمريكا وإنجلترا من جهة أخرى كان حقيقيا وشرسا.

وكل ما سبق قد يراه البعض بديهيا إلى الدرجة التي قد يتساءلون عن السبب في إضاعة السطور لشرح أمر في غاية الوضوح. ولكن الفقرات السابقة في غاية الضرورة؛

لأن العلاقة بين إيران وأمريكا (على غلبة الظن) من الآن وحتى العشر سنوات المقبلة (على الأكثر) ستكون غزلاً وعتابًا، ورقصًا وممانعة، وكلٌّ لأهدافه، وهو موضوع سيتم تفصيله لاحقا.

عودة إلى البداية. كان مجلس الشيوخ الروماني فلتة من التاريخ وتأسس صدفة ولسد حاجة. وكذلك كان البرلمان الإنجليزي ونظام الحكم في أمريكا. فكل من هذه الأنظمة جاء فجأة وصدفة ولسد حاجة. ولكن نتائج هذا التشكيل في أنظمة الحكم جاء ضخما وغير متوقع.

وكذلك الحال في نظام الحكم الإيراني. فلا يوجد لنظام الحكم في إيران أية أساسات أو سوابق في الثقافة الفارسية ولا في الثقافة العربية ولا في الثقافة الإسلامية ولا حتى في أية ثقافة أو حضارة سابقة، وإنما هو تشكيل فريد جاء صدفة لسد حاجة. ولكن نتائج هذا التشكيل (وحسب غلبة الظن) قد أدت إلى قوة ذكاء وسرعة تعلم حقيقية في إيران.

إن التحليل السياسي للشرق الأوسط الآن يتطلب النظر إلى إيران كقوة سياسية ذات مرونة ودهاء حقيقي. والغاية من هذه المقالة هو محاولة إدراك الكيفية التي تملكت فيها إيران هذا الدهاء.

بالطبع فإن النظام الحاكم في إيران (وكأي نظام حكم آخر) يحوي الألغام في طياته. وهذه الألغام لم تتسبب حتى الآن بمشاكل حقيقية، ولكن إذا لم يتم استدراكها خلال السنوات القادمة فإنها ستكون مصدرا في صداع حقيقي لها. وأهم هذه المشاكل هو غموض الحدود في صلاحيات منصب المرشد الأعلى ومنصب رئيس الجمهورية.

وقبل أن أنتهي من هذا الفصل فإنني ملزم بوضع بعض النقاط على الحروف درءا لأي جدل قد يحدث بسبب هذه المقالة:

قد يستنكر البعض ويقول: أليست دولة النبوة والخلافة فلتة من فلتات التاريخ؟ والجواب (ضمن وجهة نظر المؤلف) هو لا وبكل ثقة.

دولة النبوة والخلافة لم تأت صدفة وإنما جاءت بترتيب مباشر من السماء. في حين أن مجلس الشيوخ الروماني جاء صدفة ودون أية مساعدة من أية ملاك أو رسول أو نبي.

وبالتأكيد فإن انتصار المسلمين في معركة اليرموك والقادسية كان بسبب قوة الذكاء وقوة الانضباط. ولكن ما حدث في معركة اليرموك ومعركة القادسية لم يكن شيئا عجيبا أو فريدا، فهذه ليست المرة الأولى في التاريخ التي يتمكن فيها الجيش من التغلب على خمسة أضعاف حجمه. فما حدث في معركة اليرموك لم يكن معجزة، وإنما المعجزة قد حدثت قبلها بسنوات قليلة وهي تمكن رجل في عشر سنوات فقط من تحويل أناس مشققين مذبذبين متنافرين إلى قوة صلبة تكون في وسعها التمدد إلى مشارق الأرض ومغاربها وتبقى عزيمتها حية وصلبة مئات السنين وحتى الآن.

والفترة التي قضاها الرسول عليه السلام في مكة (١٣ سنة) كانت عادية ضمن مقارنتها بدعوات شبيهة، فنوح عليه السلام قد امتدت دعوته حوالي الألف سنة. ولكن الشيء الفريد في تاريخ البشرية كله هي السنوات التي قضاها الرسول في المدينة (عشر سنوات) والتي لم يؤسس فيها الديانة فحسب، وإنما أسس كذلك الدولة والحضارة وأثمر هذا كله في حياته. وهذه ليست فلتة ولا هي صدفة وإنما معجزة.

والأمر الثاني اللازم توضيحه وهو مفهوم كلمة صدفة. فبعض الناس يرفض استخدام كلمة صدفة لأنه لا توجد صدفة في الإسلام. وهذا رأي لا يوافقه المؤلف:

يقوم الإنسان بالتعبير عن الواقع الذي يحسه بمفردات لغوية. وأحد هذه المفردات هي كلمة صدفة، ومفهومها هو حدوث أمر دون أى تعمد أو ترتيب من أي إنسان. فعندما يتقابل صديقان دون أية ترتيب منهما فنحن نقول إنهما تقابلا صدفة.

الآن ... إذا كان هناك ملاك جالس على أطراف السماء الدنيا وينظر إلى الأرض فربما تكون كلمة صدفة غير موجودة بتاتا في قاموس مفرداته. وهذه هي النقطة هنا..... اللغة الإنسانية يستخدمها الإنسان للتعبير عن الوقائع التي يراها هو ويعيشها هو، وبالتأكيد فإن هذه اللغة تكون مختلفة تماما عن لغة الملائكة لأن الملائكة ترى الأشياء بصورة مختلفة. ولهذا فاستخدامي لكلمة صدفة هنا جاء للتعبير عن واقع واضح نراه نحن البشر في حياتنا وهو حدوث الأمر دون أى ترتيب أو تعمد من أي إنسان.

الفصل الثالث

الصراع الغربي الإيراني في العراق

هناك فصل عن تاريخ الصراع بين الغرب وإيران في الملحق الأول من هذا الكتاب فارجع إليه. هذا الفصل هنا يبحث في الأمور التي لم يتعرض لها ذلك الملحق.

لنبدأ بسؤال فلسفي وبديهي:

كيف ينتبه الإنسان إلى أن الأحداث السياسية فيها "إنَّ" وأن الظاهر من أحداثها يناقض الحقيقة؟

الجواب بسيط: عندما لا يتوافق الظاهر من الأحداث مع منطق الأمور وعندما تظهر أحداث ومواقف نشاز عن الخط العام للأحداث السياسية.

أقرب تشبيه لما سبق هو الكيفية التي استطاع بها علماء الفلك استنتاج وجود كوكب بلوتو. فالذي لاحظه العلماء أن المدار الظاهر لكوكب أورانوس لا يتفق مع المعادلات الرياضية، وهذا أدى إلى التخمين بوجود كوكب آخر غير منظور يقوم بالتأثير على مدار أورانوس. وثبت صحة هذا التخمين.

وهكذا تفعل عند مراقبة الأحداث السياسية. فعندما ترى ظاهر الأحداث السياسية لا يتفق مع منطق الأمور فهذه اشارة إلى أن ظاهر الأحداث متناقض. وهذه فرصة ثمينة، إذ في كثير من المواقف أنت قادر على استنتاج باطن الأمور من دراسة ومقارنة التناقضات في الأحداث الظاهرة.

وعندما تقوم بتحليل تصرفات أمريكا وإنجلترا فيجب أن تضع في بالك أنهم ليسوا هواة وليسوا أغبياء وإنما هم محترفون في السياسة ومتمكنون في مهارة التخطيط. ولهذا السبب فتقييمك لأعمالهم لا يكون كتقييمك لدويلات يحكمها شلة من الهواة.

وهناك بعض الأحداث التي يجب التوقف عندها:

* عندما قررت أمريكا القيام باحتلال العراق فإنها قامت بحشد حوالي ٢٠٠ ألف جندي ولكن الذي ظهر أن القيادة العسكرية كانت تطالب بأضعاف هذا العدد. فقد تبين الآن وجود حدة نقاش وتباين أثناء التخطيط لاحتلال العراق بين رامزفيلد (Donald Rumsfeld) وزير الدفاع وبين شينسكي (Eric Shinseki) رئيس الأركان. وكان شينسكي يرى أن ٢٠٠ ألف جندي غير كافية أبدا للسيطرة على العراق. وقد ثبت لاحقا أن تخمينات شينسكي كانت صادقة.

* كشفت البي بي سي في أحد برامجها أن الإدارة الأمريكية في عام ٢٠٠٣ وقبل احتلال العراق قد استلمت رسالة غير موقعة من الإيرانيين عبر السفارة السويسرية تقوم بعرض صفقة مع الأمريكيين تتضمن إنهاء البرامج النووية في إيران، وحل مشكلة الشرق الأوسط، والمساعدة في الحرب ضد الإرهاب.. إلخ.

وكان رد تشيني (Dick Cheney) هو الرفض وكان تعليقه: نحن لا نتفاوض مع الشر بل نتغلب عليه. ثم قام بإرسال رسالة تأنيب شديدة إلى الحكومة السويسرية لتدخلها في السياسة الخارجية الأمريكية.

* كان هناك وجهة إعلامية واضحة ومنذ بداية استلام الجمهوريين سدة الحكم بضرورة قلب نظام الحكم في إيران. وازداد هذا الأمر شدة بعد احتلال العراق وكثر استعمال العبارة: إن الشعب الإيراني يستحق نظاما أفضل وأن العالم سيكون أفضل من غير النظام الحاكم في إيران.

* ظهرت على السطح الآن انتقادات قوية تجاه الإدارة الأمريكية السابقة أنها لم تقم بأية تخطيطات واضحة للعراق لما بعد فترة الحرب. وأنها لم تنتبه لردة فعل العراقيين تجاه الاحتلال. ومن ملاحظة سير الأحداث فإنه يمكن الادعاء أن

الاحتـلال لم يتوقـع عنـف المقاومة العراقية تجاهـه ولم يكن لديـه الوقت الكافي لمعالجتها بروية، بل على العكس تماما، فإن قيادة الاحتلال كانت تتوقع أن يكون العراق نزهة وتسلية وراحة بال.

وضمن الأحداث السابقة وغيرها فإننا أمام احتمالين وهو أن نقول إن رامزفيلد وتشيني والإدارة الأمريكية والإنجليزية كانوا شديدي الغباء أو أن نقول إن هناك في الأمر "إنّ". والغالب على الظن أن في الأمر "إنّ".

والغالـب على الظـن أن الأمريـكان والإنجليز كانـوا على اقتنـاع حقيقي أن النظـام الإيـراني يتجه نحـو الانهيار. وضمن هـذه الفرضية فإن الأحداث السـابقة يمكن تفسـيرها بشـكل مقبـول. فـإذا كان الهدف مـن الاحتلال (كما تـم تحليله في الملحـق الأول من هذا الكتاب) هـو احتواء إيران وكانت إيران على وشـك الانهيار فإن الإدارة الأمريكية ليسـت بحاجة إلى قوات ضخمة في العراق وإنما كل ما تحتاجه هو قوات كافية لمتابعة أمر إيران ثم الخروج من العراق. وهذا كذلك يفسر "الجكارة" والاسـتفزازات الأمريكية تجاه إيران ويفسر كذلك انتشـار التقارير الصحفية بأنه لا مكان للنظام الإيراني في العالم.

والغالب على الظن أن كل هذا هو نتيجة لمسرحية إيرانية قد بدأت منذ استلام خاتمي رئاسة الجمهورية عام ١٩٩٧م.

دعونا نروي الحكاية من خلال قصة رمزية:

عندما ترى أعداء لك ذوى وطنية عالية ولكنهم حمقى وتراهم يتعاركون فإنه لمن المصلحة الحقيقية لك أن لا تتعرض لهم. إذ إنك إذا فعلت فسينسوا عراكاتهم ويتحدوا (لوطنيتهم) ضدك. ولهذا فإن أفضل السياسات لك هو أن تتركهم يتعاركون وتراقبهم حتى إذا ضعفوا أتيت إليهم وأنهيت أمرهم. وهذه الخطة في غاية الذكاء ولكنها ستكون صدمة حقيقية عندما تعلم متأخرا أن هؤلاء الأعداء لم يكونوا حمقى ولم تكن معاركهم بينهم سوى مسرحيات لكسب الوقت.

وهذا هو الغالب على ظن المؤلف وهو أن إيران استطاعت خديعة الإنجليز والأمريكان واستطاعت كسب الوقت وتأجيل المواجهة، وذلك لأن الغرب اقتنع أواسط التسعينيات أن المواجهة مع إيران ستؤثر على الجناح الإصلاحي وتعيد توحيد إيران تحت جناح المتشددين، ثم استطاعت إيران وبنفس الأسلوب عمل فخ حقيقي ومحكم للحلفاء (الإنجليز والأمريكان) في العراق.

وبالطبع ليس من السهولة أبدا أن تقوم دولة بخداع الإنجليز والأمريكان ولكن منطق الأحداث (ضمن وجهة نظر المؤلف) يتطلب هذه الفرضية.

والقصة بدأت منذ أواسط التسعينيات عندما ظهر ما يسمى بالجناح الإصلاحي. ومنذ أن استلم هذا الجناح الحكم وحتى عام ٢٠٠٥ فإن معظم التقارير كانت تتحدث عن شدة الخلاف والشقاق بين الجناح المتشدد والجناح الإصلاحي. وهذه التقارير لم تصدر فقط من الغرب بل كانت تصدر كذلك من إيران نفسها ومن كل الجهات. وكان يظهر على إيران بين عام ١٩٩٧ إلى عام ٢٠٠٥ أنها الرجل المريض في الخليج.

الآن... عندما يكون هناك صراع حقيقي بين جناحين وينتصر أحدهما على الآخر فإن المتوقع هو أن تتم عمليات تطهير للأجهزة الإدارية ومراكز الدولة لمصلحة المنتصر. وعمليات التطهير ليست بالضرورة أن تكون دموية وإنما هي في الغالب سلمية وهدفها هو إنهاء النفوذ الإعلامي والاقتصادي والاجتماعي للجناح الخصم. ولكن هذا لم يحدث في إيران. وإنما الذي حدث هو أنه خرج خاتمي وجاء نجاد وتغير شكل النظام تماما دون أية عمليات تطهير. فما حدث في إيران هو تغيير الواجهة فقط .... تغيير الستارة.

وهذا هو الأمر الذي يجعل المؤلف يرجح وبشكل كبير أن العراق كان فخا إيرانيا محكما للحلفاء. وبالطبع فعندما انتبه الحلفاء للفخ فإن الوقت قد فات ولم يكن بقدرتهم التراجع. وإذا استطاع القارئ أن يستعرض وبسرعة الصحف القديمة ومنذ ٢٠٠٣ وحتى الآن وينظر إلى العناوين العريضة فيها سيتنبه إلى مستوى التحول في

الخطاب من حالة كبيرة من التكبر والصلف والعنجهية الأمريكية عام ٢٠٠٣ إلى مستوى التودد بل والترجي في الوقت الحاضر. وقد كانت ابتسامة لي عندما انتبهت لأحد تعليقات كونداليزا رايس في أواخر حكم بوش تقول فيه إنه إذا وافقت إيران على تعليق التخصيب فإنها مستعدة للقاء الإيرانيين في أي مكان وفي أي وقت ومناقشة أي قضية. وكلمة "أي مكان" لها مغزى سابق، فهي الكلمة التي استخدمها أنور السادات قبل مباحثات السلام بينه وبين إسرائيل، فقد ذكر في خطاب حكومي أنه مستعد لبحث السلام في أي مكان وفي أي وقت فكان أن قام بيجن بعدها بدعوة السادات إلى القدس من أجل مناقشة هذا السلام. وهكذا تنازلت أهداف أمريكا من الإطاحة بالنظام الإيراني وإنهاء البرامج النووية إلى مجرد تعليق التخصيب وكان هذا الأمر الأخير ضروريا لحكومة بوش من أجل ماء الوجه.

وبعد أن وصل الحلفاء إلى هذا المستوى واقتنعوا أن العراق هو مستنقع مكلف جدا لهم ووجدوا أنه لا مناص لهم من الخروج من هذا المستنقع إلا بمساعدة إيرانية، عندها بدأت التنازلات الأمريكية وبدأت جولة مفاوضات إيرانية أمريكية رسمية تتعلق بأمن ومستقبل العراق. وعلى إثر هذه المباحثات فقد خفت شدة المقاومة وبشكل واضح وملموس في العراق وهذا معناه أن الطرفين قد توصلا إلى عقد بعض الصفقات بينهم.

والصفقة الرئيسية بالطبع هي خروج الأمريكان من العراق، وكان هذا مطلبًا إيرانيًا رئيسيًا. وقد بدأ الأمريكيون منذ أوائل الـ٢٠٠٧ بالاقتناع بضرورة الخروج من العراق، وأصبح الهدف الأمريكي هنا هو الخروج دون سواد الوجه. وهذا بالضبط ما عرضه عليهم الإيرانيون قبل بدء المحادثات الرسمية بينهم، ففي أحد خطب الجمعة لرفسنجاني فقد ذكر أنه يمكن لإيران أن تساعد أمريكا على الخروج من المستنقع العراقي بماء الوجه.

وهناك بالطبع مواضيع أخرى تم بحثها ضمن هذه الصفقة منها مستقبل العراق ومنها إنهاء الأزمة اللبنانية لمصلحة حزب الله. ولكن أهم صفقة كانت تقرير

المخابرات الأمريكية الذي أقر فيه بعدم وجود أية أدلة لبرامج نووية عسكرية في إيران.

وهناك نقطة تستحق البحث...... عندما يجتمع السفير الإيراني و السفير الأمريكي في جلسة رسمية ومدونة بمحاضر... ماذا يحدث في هذا الاجتماع وكيف يتم نقاش الموضوع والأهم هو كيف يتم عرض وهندسة الصفقات؟

لا يوجد عند المؤلف علم واضح في هذا الموضوع ولكن من الممكن تقديم نموذج منطقي لما يمكن أن يحدث في مثل هذه الاجتماعات الرسمية:

[انتبه... النموذج التالي تم الاستدلال عليه من منطق الأمور وبالتالي فمن الممكن أن يكون خاطئا. ولكن قوة النموذج ليست في الصحة أو الخطأ، وإنما في قدرة النموذج على أن يكون بداية بحث وانتباه. وإذا أصبح النموذج (أي نموذج) بداية بحث وانتباه فإن الزمن كفيل بتعديل وتطوير النموذج نحو الصحيح.]

طبعا فإن السيناريو التالي للاجتماع بين السفير الإيراني والأمريكي هو سيناريو غير معقول:

السفير الإيراني : يجب أن تطلع من العراق.

السفير الأمريكي: لن أطلع من العراق.

السفير الإيراني : بدك تطلع غصبن عنك، ورجلك فوق راسك.

السفير الأمريكي: بديش أطلع من العراق وأعلى ما في خيلك اركبه.

أما السيناريو التالي فهو غير منطقي:

السفير الإيراني : إحنا ممكن نخفف الوضع في البصرة بس لازم تساعدونا في لبنان.

السفير الأمريكي: شو رأيكم اتخففوا إنتو الوضع في البصرة وتوقفوا إدخال الأسلحة وبدالها إحنا بنحكي للحريري إنه يسكت.

السفير الإيراني : لأ. إحنا ما بنقدر نوقف إدخال كل الاسلحة بس بنقدر نخفف من القنابل الانصهارية. شو رأيكم؟.

وبالطبع ليس من المنطق أن يتم مناقشة تفاصيل دقيقة ومحرجة في جلسة رسمية مدونة بمحاضر. وعلى الأغلب فإن التفاصيل الدقيقة أو المحرجة أو القذرة لا تناقش أبدا بين الموظفين الرسميين .

والذي يغلب على الظن أن الذي يحدث هو قيام ضباط وموظفين غير رسميين من كلا الجانبين بالمناقشة والاتفاق على التفاصيل الدقيقة والمحرجة وفي وقت ومكان مختلف عن الاجتماع الرسمي. والسبب أنه إذا ظهرت هذه الاتفاقيات إلى السطح فإنه من الممكن جدا نفيها. وهنا المشكلة وهي أن اتفاق الضباط غير الرسميين لا يعني التزام الدولتين. وهنا تأتي ضرورة الاجتماعات الرسمية بينهما. فالاجتماعات الرسمية تكون سهلة أو صعبة بقدر مستوى الاتفاقيات الجانبية التي تحدث بعيدا بين الضباط غير الرسميين. وهنا تكون استراتيجيات الاجتماعات الرسمية بين الدول. فالاجتماعات الرسمية يوازيها اجتماعات أخرى غير رسمية وبموظفين غير رسميين. ويكون البحث في الاجتماع الرسمي بالخطوط العريضة، أما البحث في الاجتماعات غير الرسمية فيكون بالتفاصيل الدقيقة أو المحرجة أو القذرة.

ولهذا السبب فالاجتماعات الرسمية بين السفراء الإيرانيين والأمريكان كانت تتعلق بالخطوط العريضة، ونجاحها تم بعد عمل صفقات من خلال اجتماعات غير رسمية.

نهاية هذا الباب هو أن المؤلف على اقتناع أن العراق كان فخا إيرانيا للحلفاء وأن الإيرانيين، في هذه المرحلة من الصراع، قد انتصروا وسببوا للحلفاء (أمريكا وإنجلترا) مشاكل داخلية حقيقية وإفلاسا حضاريا وأخلاقيا وفكريا وإسرافا ماليا كبيرا أدى إلى أزمة مالية عالمية، فضلا عن الأعداد الكبيرة من الجرحى والقتلى.

انتبه... الإسراف المالي الذي حدث لم يتم صرفه كله في العراق، ولكن أمريكا قد دخلت إلى العراق بشكل مريب فكان لابد لها من دفع الرشاوي داخل أمريكا وخارجها لتسهيل المهمة. وبعد أن وجدت أمريكا أن خياراتها في العراق مريرة فقد زادت في دفع الرشاوي. ولكن هناك شيء آخر إضافي قد حدث هو أن أمريكا لم تكن مستعدة للمقاومة، وجاءت خطط أمريكا لمقاومة المقاومة على عجل ودون استنارة. وهنا الطامة الكبرى للحلفاء، فالخطط ذات الكلفة والتي تأتي على عجل يكون للكثير من المتورطين فيها الفرصة للسرقة والاختلاس. فالإسراف المالي الذي حدث جاء نتيجة الاستنزاف والقتلى والجرحى والتدمير والرشاوي والسرقات والاختلاسات والتي قام بها موظفو الحلفاء أنفسهم.

يقول الله تعالى: ﴿...وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال].

الفصل الرابع

مستقبل العلاقات بين إيران وأمريكا

خرجت أمريكا من أزمتها مثخنة بالجراح، وكذلك إيران فقد وصلت إليها الخدوش. وكلاهما بحاجة إلى فسحة من الوقت للعق الجروح. وبالنسبة لأمريكا فهناك الأزمة المالية وهناك مشكلة حقيقية في موضوع موقع أمريكا في العالم. فأزمة العراق وبكل وضوح قد أسقطت الهيبة العسكرية الأمريكية كما قامت الأزمة كذلك بإسقاط أمريكا من موقع القيادة الفكرية للعالم.

أما بالنسبة لإيران فهناك أزمة اقتصادية خانقة كما أن هناك أزمة دستورية وسياسية. وهذا متوقع حيث إن لمسرحيات إيران عواقبها وما كان يُمكن للحلفاء أن ينخدعوا من إيران لولا وجود مجموعة قوية في الأجهزة الإدارية والمجتمع الإيراني تسعى وبصدق لقلب النظام.

ولأسباب سيتم عرضها لاحقا فإن هناك خلافات فلسفية حقيقية بين وزارة الخارجية والمخابرات الأمريكية من جهة والجيش من جهة أخرى. وهذا الخلاف يظهر صداه في الحياة السياسية والاقتصادية. فوزارة الخارجية يحتضنها الحزب الديموقراطي والجناح اليساري وقطاع الخدمات في حين أن الجيش يحتضنه الحزب الجمهوري واللوبي الإنجليزي واللوبي الصهيوني والجناح اليميني وصناعات النفط وصناعات الأسلحة.

وكما تم تبيانه في الملحق الأول في هذا الكتاب فإن وزارة الخارجية لا تهتم حقا بوجود برامج نووية عسكرية في إيران. وهذا مرده أن تأثير هذه البرامج على أرض أمريكا يكاد يكون منعدما، وبالتالي فبالنسبة لوزارة الخارجية فإن كلفة ردع إيران ستبقى أرخص وأجدى من كلفة الصراع العسكري والسياسي بينهما.

لاحظ أن رجالات الخارجية بشكل خاص والليبراليين بشكل عام لا يخافون الإسلام ولا يرونه خطرا على نفوذهم (وهذا أمر سيتم بحثه لاحقا). وزيادة على

ما سبق فإنهم يرون شيعة إيران أقلية في العالم الإسلامي وبالتالي فإن قدرة إيران على قيادة العالم الإسلامي (حسب نظرتهم) ضئيلة. ولهذا السبب فإنه لمن المنطقي لرجالات الخارجية الأمريكية أن يخففوا من الأزمة بينهم وبين إيران وأن يحاولوا أن يجعلوا من إيران صديقا لهم.

وهناك أمور أخرى حيوية تهدف إليها أمريكا من السياسة السابقة ويمكن تلخيصها كما يلي:

* وقف الحلف الآسيوي أو إبطاؤه. إذ يوجد الآن حلف على طريق التكوين يجمع على الأقل بين روسيا والصين وإيران. وبالتالي فمن المنطق لأمريكا الآن عمل علاقات جيدة مع إيران فلعل وعسى أن تأتي الفرصة لعمل المشاكل في طريق هذا الحلف.

* الخروج من أفغانستان بماء الوجه. ويبدو أن هذا الأمر لا تستعجل فيه إيران ولا تبدي تجاهه أية إشارة. ولتفصيل هذا الموضوع فإن إيران متهمة بتدريب وتهريب الأسلحة نحو المقاومة في أفغانستان، وكذلك فإنه منذ أوائل الـ ٢٠٠٨ أصبحت إيران وحزب الله يتحدثون بشكل إيجابي عن المقاومة وعن عدم شرعية الاحتلال في أفغانستان. في المقابل فإن إيران على علاقة اقتصادية مرتفعة مع نظام كرزاي وهذا ما جعل كرزاي يقوم بتفنيد اتهامات الحلفاء بخصوص دعم إيران للمقاومة.

* وقف تصدير فكر الثورة الإسلامية وفكر المقاومة وأفكار التمرد على الأنظمة الحاكمة.

ما سبق كان نظرة أمريكا تجاه إيران وما تريده أمريكا من إيران. وأما بالنسبة إلى إيران فإن الظاهر أن العلاقة بين إيران وبين كل من روسيا والصين هي علاقة استراتيجية. فقد ثبت أن العلاقة بين الشرق الأوسط والغرب ليس لها أي مستقبل في حين أن هناك دلائل على أن العلاقة بين الشرق الأوسط والشرق الأدنى لها إمكانيات النجاح (وهذا أمر سيتم الحديث عنه لاحقا).

وبالنسبة لأفغانستان فإنه من الممكن التخمين أن خروج الحلفاء منها هو مطلب استراتيجي لكل من روسيا والصين وإيران. ولكن لا يوجد عجلة لديهم في هذا الأمر خصوصا وأن الحلفاء في موقف استنزاف حقيقي في أفغانستان.

وأما بالنسبة لأفكار الثورة الإسلامية وأفكار المقاومة فهذا الأمر لا يتعلق بقرار من القيادة الإيرانية بقدر ما يتعلق بمبدأ الدولة الإيرانية. فالدولة الإيرانية قامت على أفكار الإسلام وأفكار الثورة ضد الجبروت وأفكار تحرير الأقصى. وأي انتصار أو إنجاز لإيران سيعزز هذه الأفكار خارج إيران. فتصدير أفكار الثورة هو أمر طبيعي بسبب ديناميكية الإسلام .

وعلى أية حال فإن كلا الطرفين بحاجة الآن إلى وقفة للعق الجراح واستعراض الخيارات؛ ولهذا فإن الدعوة إلى المسالمة والتعقل وفتح صفحة جديدة ستكون ظاهرة في طيات الأحاديث بينهما. ولهذا فإن العلاقة بينهما من الآن وحتى عشر سنوات على الأكثر ستكون (على غلبة ظن المؤلف) عتابًا وغزلاً ورقصًا وممانعة.

الفصل الخامس

أزمة البحارة الإنجليز عام ٢٠٠٧

في ٢٣-٣-٢٠٠٧ قامت البحرية الإيرانية باحتجاز ١٥ من البحارة الإنجليز. وهنا قامت قيامة الإنجليز ولجأت بريطانيا لمجلس الأمن وبدأت بالزوبعة الدبلوماسية.

ولكن كان هناك حادثة مثلها قبلها وتم علاجها بهدوء بين إيران وإنجلترا. فلماذا قامت قيامة إنجلترا الآن؟

بالإضافة إلى ذلك فقد أوضحت الأخبار لاحقا أن البحارة كانوا في المنطقة المتنازع عليها ولم يكونوا (كما تم الادعاء وقتها) في المجال الإقليمي للعراق.

دعونا نضع الاحتمالات:

١. تم احتجاز البحارة الإنجليز صدفة.

٢. تعمد الإيرانيون التربص بالبحارة الإنجليز.

٣. تعمد الإنجليز أن يرسلوا البحارة إلى المنطقة المتنازع عليها كي يقبض عليهم الإيرانيون.

وضمن النظر إلى هذه الاحتمالات والظروف فإن غلبة ظن المؤلف هو للاحتمال الثالث:

اقتنعت إنجلترا ومنذ نهاية الـ ٢٠٠٦ أن أزمة العراق هي أزمة خاسرة وأرادت عقد صفقة مع الإيرانيين لتسهيل وجودها وخروجها من العراق. ولكن لم يكن عند الإنجليز قنوات اتصال مع الشخصيات العليا في النظام الإيراني . وبالطبع فإنه توجد سفارة إنجليزية في طهران وتوجد سفارة إيرانية في لندن ولكن قنوات الاتصال من خلال السفارة كانت رسمية وغير فعالة للهدف الذي تريده إنجلترا. وساعدت

أزمة البحارة والزوبعة الدبلوماسية التي قامت بها إنجلترا من تدبير قنوات اتصال عالية بين الإنجليز و الإيرانيين. ويبدو أن هذه الاتصالات ساعدت على تحقيق صفقة بين الإنجليز والمقاومة الشيعية في البصرة. وهذا ما ظهر جليا عندما ترددت القوات الإنجليزية خارج البصرة من مساندة القوات الحكومية في ضرب المقاومة واضطر المالكي إلى طلب المساندة من القوات الأمريكية في بغداد. وهذا تسبب بفضيحة محرجة جدا للإنجليز.

وبالتأكيد لم تكن الصفقة ضخمة بين الإنجليز وإيران ولكنها كانت أفضل الموجود لها.

وهناك أمر آخر يثير الانتباه ويبدو أنه ضمن سياسة إنجلترا وقتها للخروج من أزمة العراق:

عندما رفضت إيران الانصياع لإرادة الغرب في موضوع البرامج النووية فإن إنجلترا (وقبل أمريكا) تصدرت الهجمات الإعلامية وتوزيع التهديدات والتلميح بإمكانية القيام بضرب إيران بقنابل نووية تكتيكية.

ولكن إذا قام القارئ بمراجعة الجرائد الإنجليزية قبل ثلاثة أشهر من أزمة البحارة الإنجليز وثلاثة أشهر بعدها فسينتبه إلى أمر مثير. فقد كانت النشاطات الإعلامية الإنجليزية ضد إيران مكثفة ولكنها انخفضت وبشكل ملحوظ بعد أسبوع واحد من انتهاء أزمة البحارة. وبالطبع فقد استمرت الصحافة الإنجليزية بانتقاداتها ولكن اللهجة العدائية الحكومية لإيران قد انخفضت وبشكل كبير.

الفصل السادس

إنجلترا بعد أزمة العراق

قوة إنجلترا هي في دبلوماسيتها. وأهم دعائم الدبلوماسية هي المصداقية. وقد انخفضت مصداقية إنجلترا في العالم بشكل عام وعند الشعب الإنجليزي بشكل خاص. وكذلك فهناك نفور واضح بين القيادات الدولية (مثل الإدارة الأمريكية والروسية) وبين الإنجليز.

ولهذا السبب فإن سياسة إنجلترا في الوقت الحاضر هي الابتعاد عن دائرة الضوء (قدر الإمكان) ومحاولة ترميم العلاقات والمصداقية بهدوء دون تذلل أو اعتذار.

وبالنسبة لإنجلترا وأمريكا فإن لإنجلترا السوابق والنجاحات في ترميم العلاقات معها؛ ولهذا السبب فإن إنجلترا ليست مكترثة كثيرا للنفور بينها وبين الإدارة الأمريكية. وإنما الملاحظ هو المناكفات وقرصات الأذن بينها وبين أمريكا.

وهناك ملاحظة أخرى في سياسة إنجلترا بعد أزمة العراق. فإن هناك محاولات جادة لترميم علاقاتها مع الأصوليين الإسلاميين. فقد كان هناك توافق ضمني غير مكتوب وغير منطوق بين إنجلترا والحركات الأصولية قبل عام ٢٠٠٠ يتضمن أن يقوم الأصوليون بنشاطاتهم الدينية والثقافية والفكرية بحرية مقابل ألا يقوموا بأي أعمال جهادية في إنجلترا. وقد أعطى هذا التوافق لإنجلترا القدرة على اختراق الجماعات الأصولية والتجسس عليها في إنجلترا وخارجها.

وأما بعد حرب أفغانستان والعراق فإن الوضع تغير وانتهى ذلك التوافق. وقد تضاعفت تكاليف الأمن في إنجلترا إلى حدود مقلقة.

وأما بعد الأزمة فإن الوضع أصبح ذا خطورة. فهناك احتمالية كبيرة أن تخرج أمريكا وإنجلترا من أفغانستان بخفي حنين. وفي هذه الحالة فإن معنويات طالبان

والقاعدة ستصل إلى عنان السماء. وهذا يتضمن الضرورة إلى وضع الاحتمالية لأن تقوم القاعدة بتصفية حساباتها مع الإنجليز والأمريكان والانتقام منهما. والظاهر أن إنجلترا قد حاولت التفاوض مع طالبان وتم التلميح إلى أن هناك دورًا لطالبان في أفغانستان. ويبدو أن هذه المفاوضات قد فشلت. وعلى غلبة تخمين المؤلف فإن السبب الرئيسي لهذا الفشل هو عدم قبول طالبان بتقييد القاعدة.

وحيث إن هناك احتمالية عالية لقيام القاعدة بتصفية الحسابات مع الحلفاء فإن هناك الحاجة الملحة الآن للإنجليز لإرجاع ذلك التوافق القديم بينها وبين الأصوليين. وهذا ما قد يفسر كثرة النشاطات الأصولية الآن في إنجلترا.

الفصل السابع

إيران ومظاهرات عام ٢٠٠٩

قامت مظاهرات عنيفة بعد إعادة انتخاب أحمدي نجاد عام ٢٠٠٩. وهذه المظاهرات فيها أمور خارجة تماما عن المألوف. والنظام في إيران ليس مهددا أو مترنحا من الداخل. كما أن المظاهرات والدعوة لها قد خرجت عن حدود المعقول. ولهذا فيوجد العذر الشرعي والقانوني والعرفي لمحاكمة خاتمي وموسوي وكروبي. ولكن هذا لم يحدث. لماذا؟

في التاريخ الحديث هناك الكثير من الأنظمة التي كانت أقل استقرارا من إيران ولكنها كانت أكثر حزما وشدة مع المظاهرات ودعوات التمرد المكشوف. ولهذا السبب فإن وجهة نظر المؤلف أن صبر إيران على هذه المظاهرات ليس خوفا منها وإنما لأمر قد تم تدبيره.

وهناك إشارات تدل على ما سبق وهو أن خاتمي ورفسنجاني هم من أعمدة النظام. وربما يكون موسوي بعيد العهد عن النظام ولكن ليس خاتمي ولا رفسنجاني. ولهذا السبب فتصرفات خاتمي ورفسنجاني خارجة عن الطبيعي والمألوف.

دعونا نقطع مسار هذا الموضوع ونتحدث عن أمر آخر سيكون مفيدا في تحليل هذا الموضوع وهو ثغرات الفخ وثغرات ماء الوجه:

كان أحد التكتيكات التي يفضلها المغول في الحروب هو ثغرات الفخ. والفكرة بسيطة، فعندما يقوم الجيش بالإحاطة بالعدو فإن صلابة العدو وقتها قد ترتفع حيث إن الموقف هو حياة أو موت. وعندها يقوم الجيش بخلق ثغرة في صفوفه. وهنا ينتبه العدو إلى هذه الثغرة ويقوم بالاندفاع لها دون وعي طلبا للنجاة، وعندها ينهار الترابط في صفوف العدو. وهذا ما كان يفعله المغول، فقد كانوا يحيطون بالعدو ثم يخلقون الثغرة فيهرب جزء كبير من العدو من خلالها ليكتشف أنه قد وقع في فخ آخر. ثم يتم خلق ثغرة أخرى وهكذا. وحقيقة الأمر أن المعركة تكون مطاردة من فخ إلى آخر. وهكذا كانت خطة صلاح الدين الأيوبي في معركة حطين بينه وبين الصليبيين.

أما ثغرة ماء الوجه فهو السماح للعدو بالنجاة من المأزق بماء الوجه مقابل بعض التنازلات. وهذا ما حدث بين العثمانيين والإنجليز في موضوع الكويت. فقد تنازلت الخلافة العثمانية عن مصالحها في الكويت مقابل أن تعترف الكويت بسيادة الخلافة على المنطقة وأن يتم رفع علم الخلافة فيها.

وهنا نرجع إلى المظاهرات في إيران. فعلى غلبة ظن المؤلف فإن خاتمي في فترة رئاسته قد استطاع خداع الغرب كما تم شرحه سابقا. وكانت أحد نتائج هذا الخداع هو ظهور الفكرة بعدم الحكمة من الضغط الشديد على إيران لأن هذا سيقوض نفوذ الحركة الإصلاحية هناك. ولكن الذي ثبت في عام ٢٠٠٦ أن النفوذ الإصلاحي لم يكن أبدا ضد النظام وإنما (ضمن غلبة الظن) مكيدة.

وضمن وجهة نظر المؤلف فإن تصرفات خاتمي ورفسنجاني وموسوي هي في الواقع امتداد للخطة السابقة. فالمظاهرات الآن هي ثغرة فخ وثغرة ماء وجه في الوقت نفسه.

بالنسبة لماء الوجه فإن المظاهرات فى إيران تعطي العذر الكافي لأوباما (والقيادات الغربية) أمام قوى الضغط المختلفة بعدم استخدام القوة مع إيران لأن هذا سيؤدي إلى إضعاف الحركة الإصلاحية فى إيران.

وأما ثغرة الفخ فإن صناعة القرار في الغرب لا تتعلق فقط بالرئيس وإنما بمجموعة متشابكة من الخبراء والقوى السياسية. وربما تكون نظرة أوباما وكلنتون أن المظاهرات في إيران هي تمثيل. ولكن ليس من الضروري أن يكون جميع الخبراء متفقين في هذه النظرة.

ولهذا السبب فلا يوجد ما يمنع من نجاح مكيدة خاتمي مرة أخرى. فمكيدة خاتمي هي خديعة طباع. وخديعة الطباع يمكن تكرارها وبنجاح أكثر من مرة.

وبالطبع فهناك حوادث لا يستطيع المؤلف تفسيرها بمنطقية. فمستوى الاتهامات والشتائم التي حدثت بين رفسنجاني ونجاد كانت شديدة. والظاهر أن الضغينة بينهما حقيقية وليست تمثيلاً. وهذا يخالف وجهة النظر السابقة.

ولكن المؤلف لا يقوم بتحليل شخصيات النظام ولا التفاصيل الدقيقة. وإنما يقوم بتحليل المسار الذي يسلكه النظام ككل. وعندما ترى أن بعض الحوادث الشخصية تتعارض مع المسار الذي يسلكه النظام فغلبة الظن في التحليل يجب أن تكون مع المسار وليس مع الحوادث الشخصية. فأنت لا تعلم بالضبط جميع التفاصيل في الحوادث الشخصية. ولكنك قادر أن تنتبه وبقدر كبير من الدقة للمسار الذي يسلكه النظام.

ولهذا السبب فإن المؤلف لا يستطيع تفسير الشتائم التي حدثت بين رفسنجاني ونجاد ويستبعد المؤلف أن تكون هذه الشتائم تمثيلا بينهما. ولكن الملاحظات عن تصرفات النظام مع الحركة الإصلاحية توحي أن هذه الحركة هي ليست خارجة عن النظام وإنما هي في الواقع أداة عند النظام يستخدمها لبث الغبار على العيون.

انتبه هنا... المؤلف لا يقول إن المظاهرات في إيران لم تكن حقيقية. ولا يقول إن جميع قيادات الحركة الإصلاحية هم من رجال النظام. والواقع أن المظاهرات حقيقية والكثير من قياداتها هم ضد النظام. ولكن ما كان يمكن لخاتمي أن يخدع الغرب مدة ثماني سنوات دون أن يقوم بتغليف الخدعة ببعض المصداقية والإقناع. وهذا يتطلب أن يكون الكثير من قيادات الحركة ضد النظام قلبا وقالبا. ولكن الحركة نفسها هي من صنع النظام وتحت إدارة النظام غير المباشرة ويستخدمها النظام لأهداف تكتيكية.

الفصل الثامن

العراق وصَدَّام وانفراط المسبحة

قد يتعجب البعض كيف كانت الأمور منضبطة في عهد صدام مع ما فيه من جبروت وقسوة وظلم ثم تأتي قوة الاحتلال فإذا الأمور تنفجر في وجهها.

والبعض يقوم بتفسير ما حدث بأن الناس قد ترضى بالظلم ولكنها لن ترضى بالاحتلال. وهذا التفسير معتبر لكنه (على غلبة الظن) ليس السبب الرئيسي لانفجار العراق ضد الاحتلال.

والسبب يمكن تشبيهه بالمسبحة. فالمسبحة تبقى متماسكة ما دامت قوة حبلها كافية. ولكن إن حدث أن انقطع الحبل فإن خرزات المسبحة ستتناثر على الأرض وستكون هناك ضرورة للبحث عن هذه الخرزات والتقاطها ثم سيكون هناك جهد أكبر في إدخال الخرزات، خرزة خرزة، إلى الحبل. وهذا الذي حدث في العراق. فقد كان هناك غضب حقيقي داخلي ضد صدّام ولكن ليس إلى الدرجة التي تنفرط فيها الأمور. ولكن ما أن دخلت قوة الاحتلال حتى انفرطت المسبحة وأصبح هناك ضرورة لبذل جهود إضافية من قوة الاحتلال لضبط الأمور.

دعونا ندخل بعمق إلى هذا الموضوع:

عندما طارد فرعون موسى عليه السلام نحو البحر ثم انشق البحر كالجبال العظيمة ونفذ موسى وأصحابه نحو الضفة المقابلة فإن فرعون عندها أمر الجيش بملاحقتهم.

السؤال هنا: ألم يعلم جنود فرعون أن اللحاق بموسى هو الانتحار وهم يرون بأم أعينهم الماء كالجبال على جانبي الطريق. ومع هذا فقد أطاعوا فرعون ودخلوا إلى البحر. لماذا؟

مثال آخر:

في أحد المعارك في أوروبا في العصور الوسطى قام أحد الجنرالات بإرسال ورقة إلى أحد الكتائب للمناورة حول نقطة شديدة التحصين في الجبهة. ولكن قائد الكتيبة قد فهمها خطأ فقام هو وجنوده بمهاجمة هذه النقطة حتى هلك أكثرهم. وكانت كلمة مشهورة لأحد الحاضرين لها: عمل في غاية الشجاعة لكنه في غاية العبث.

السؤال الآن هو: ألم يعلم الجنود أن هجومهم على هذه النقطة هو انتحار. ومع هذا فقد هجموا. لماذا؟؟

الجواب هو: تماسك المسبحة.

لنحاول قليلا الوقوف في مكان الجندي الفرعوني ولنحاول أن نسبر أفكاره، فما الذي تراه؟

سترى أن البحر قد انشق نصفين وظهر طريق من خلاله وعلى جانبي الطريق ترى الماء مرتفعا عاليا كالجبال. ثم تسمع أمر القائد (فرعون) بملاحقة هؤلاء الخارجين عن القانون. وتبدأ التفكير أن هذا العمل هو انتحار ثم تنظر إلى زملائك ولا تجد على وجوههم الاعتراض. وعندها تخاف أن يظهر في وجهك أي اعتراض وتقوم من فورك بتنفيذ الأمر وبكل حيوية وحال أمرك يقول: الموت مع الجماعة رحمة.

وبالطبع فإن هذا الانضباط سوف يبقى متماسكا حتى يحدث الارتباك الشديد وعندها تنفرط المسبحة ويقوم كل جندي بالتصرف بمقتضى غريزته البحتة.

هذه هي النقطة في استمرارية الأنظمة في محيط الغضب الشعبي. فلكي يستطيع الشعب أن يتمرد على النظام فعلى قوى الشعب المختلفة أن تقوم بالتنسيق فيما بينهم. ويبقى النظام حيا ما دام قادرا على مراقبة قوى الشعب ومنع حدوث هذا التنسيق فيما بينهم. ولكن في اللحظة التي تنفرط فيها المسبحة فإنه من الصعب على النظام إرجاع الأمور كما كانت.

الفصل التاسع

التفجيرات الانتحارية الأولى في العراق... من خلفها؟؟

الكثير من يتهم إيران أنها وراء التفجيرات الأولى في العراق (الانتحارية وغير الانتحارية)، وهذا ممكن. فوجود إيران نفسه كان على المحك وكانت إيران تقاتل في معركة حياة أو موت.

وكذلك هناك اتهام للقاعدة وهو كذلك أمر غير مستبعد. فالقاعدة كانت تعتبر الجيش العراقي الموالي للحلفاء أنه عدو يجب مواجهته.

ولكن التفجيرات الأولى قد طالت المساجد والأسواق والشوارع العامة، ويستبعد المؤلف أن يكون لإيران أو القاعدة يد في هذه التفجيرات.

وهذا يتطلب النظر إلى الأمر بصورة أشمل:

العمليات القذرة (ترجمة غير حرفية لـ Black Operations) هي اختراع روماني قد أتقنته أمريكا وإنجلترا في صراعهما مع الشيوعية، واستخدمه الجيش الجزائري (على غلبة تخمين المؤلف) ضد الإسلاميين في الجزائر. والمختصر في هذه العمليات هو عمل الفظائع وإلقاء اللوم على العدو. والمثال الكلاسيكي هو إرسال الوحدات الخاصة نحو بعض القرى المتعاطفة مع العدو بزي العدو وأعلامه وارتكاب الفظائع فيها. وهذا يؤدي إلى شق صفوف المتعاطفين مع العدو وشحن قلوب الناس ضد المتعاطفين وضد العدو. وقد كان الشعار الأساسي عند الرومان هو "فرق ثم اغز" (Divide and Con-quer) وهو شعار ما زال دارجا في الأدبيات الإدارية والسياسية في إنجلترا. والعمليات القذرة هي إحدى التكتيكات في هذا الشعار. وقد كانت والدتي تخبرني كيف كان الإنجليز في فلسطين يثيرون العائلات بعضها ببعض. فكانوا يحرقون شيئا في أملاك إحدى العائلات ويتم إلقاء اللوم على عائلة ثانية ثم يقومون بإحراق شيء آخر للعائلة الثانية وعندها تتوجه الأنظار نحو العائلة الأولى وعندها يبدأ العراك بين العائلات. وهذا الأسلوب شديد الفعالية عند الشعوب ذوي التفكير الطفولي.

ولهذا السبب فلا يمكن استبعاد قوة الاحتلال من دائرة الاتهام في هذه التفجيرات. واستخدام العمليات الانتحارية ليس دليلا على أن منفذيها من القاعدة، وذلك لأن ٢٥٪ من البشر لهم قابلية عالية للتنويم المتوسط. والتنويم المتوسط ليس التنويم الذي قد تراه في الأفلام فذلك هو التنويم المتقدم وهو ليس سهلا ولا يتأثر به إلا القليل. وأما التنويم المتوسط فهو غسل الدماغ وشحن النفس في اتجاه الهدف. والسيناريو المحتمل هو اختيار أحد الشخصيات التي لها القابلية ثم بمعونة رجل دين "عميل" يتم غسل دماغ هذا الشخص وشحن صدره للتوجه نحو الهدف. ويكون التفجير إما ذاتيًا أو عن طريق جهاز التحكم عن بعد. وإذا انتبهت للأخبار فإنه تم القبض على سيدة كانت تحمل متفجرة مرتبطة بجهاز التحكم عن بعد. ولهذا السبب فليس كل عملية انتحارية تعني أنها من القاعدة. وقد قام أحد علماء الشيعة (جواد الخالصي في برنامج بلا حدود، قناة الجزيرة، (٦-٥-٢٠٠٧) باتهام الاحتلال صراحة بهذه التفجيرات ودليله هو ضباط إنجليز تم القبض عليهم متنكرين بأزياء عربية ومعهم أسلاك تفجير. وقد قام الجيش الإنجليزي بالإفراج عنهم بالقوة. ولم يحدث (على علم المؤلف) أية متابعة صحفية لهذا الأمر.

وهناك طرف أخير يجب الانتباه له في موضوع التفجيرات في العراق وهو الحقد الأعمى. فعندما يختلط الحابل بالنابل ويزداد القتل فإنه من الطبيعي أن يقوم بعض الناس بالعمليات الانتحارية بهدف الانتقام الشخصي وكأن حاله يقول: علي وعلى أعدائي.

على أية حال فإن وجهة نظر المؤلف أن قوة الاحتلال هي المتهم والمسئول الأول والأخير لكل عمليات القتل في العراق. فاحتلالهم للعراق قام على أكاذيب وتعاملوا مع أهلها بالغطرسة والتكبر.

الفصل العاشر

مستقبل العراق

العراق (وضمن غلبة ظن المؤلف) على كف عفريت:

أمريكا وإنجلترا وإن فشلت مخططاتهما مع إيران فإن هذا لا يعني أن تقوما بتسليم العراق إلى إيران على طبق من ذهب. وإذا خرجت أمريكا من العراق وبالشكل المكتوب في المعاهدات فإن لإيران القدرة الحقيقية للنفوذ إلى العراق وهذا ما لن ترضاه أوروبا وأمريكا.

ولا يوجد أية مؤشرات تساعد المؤلف على تخمين ما يمكن حدوثه؛ ولهذا فإن أفضل ما يمكن عمله هو أن تتخيل نفسك في واشنطن وتحاول أن تنظر من أعين رجالات أمريكا وتحاول أن تتخيل ما يمكن أن يفكروا فيه.

ومن خلال هذا التمرين فإن المؤلف لم يجد هناك إلا اثنين من السيناريوهات شبه الساذجة ولكنها ممكنة:

١- عمل اتفاق بين السنة العرب والأكراد ليقوما بضرب الشيعة في الجنوب وإخراجهم من السلطة. وطبعا هناك مشكلة لأمريكا في هذا السيناريو وهو إيران. والحل لأمريكا ربما يكون بإخراج الجيش الأمريكي إلى الكويت والبقاء هناك بهدف تهديد إيران من الدخول إلى العراق، ثم عمل الحرب الأهلية في العراق بين الشيعة والسنة. وضمن هذا السيناريو يضمن الحلفاء انشقاق جبهة المسلمين في العراق والعالم الإسلامي.

٢- السيناريو الثاني هو ضرب الشيعة بالشيعة. فهناك أحزاب متعارضة بين الشيعة ويمكن (نظريا على الأقل) أن يتمكن الحلفاء من إشعال الحرب بين هذه الأحزاب كما حدث في السابق بين حركة أمل وحزب الله في لبنان.

وهذه السيناريوهات ليست محكمة البناء، ولكن الشيء المؤكد عند المؤلف هو أن الجيش الأمريكي لن يبقى في العراق، كما أن أمريكا وأوروبا لن ترضى بتسليم العراق إلى إيران على طبق من ذهب. وعليه فمن المؤكد (ضمن وجهة نظر المؤلف) أن الغرب يدرس ويعد المكائد للعراق وعليه يجب النظر وبدقة متناهية لما يجري في العراق.

وهناك أمر آخر له دلالة كبيرة على إمكانية حدوث حرب أهلية في العراق. ففي أثناء كتابة هذه السطور ظهر تقرير في جريدة الشرق الأوسط (١٢-١٢-٢٠٠٩) أنه ثبت وجود "مكامن هائلة للنفط والغاز" في الأهواز في جنوب العراق. وأن هذه الثروات تم اكتشافها بعد عمليات التنشيف لهذه المنطقة.

وقد قال رسول الله عليه السلام: "يوشك الفرات أن يحسر عن جبل من ذهب فإذا سمع به الناس ساروا إليه فيقول من عنده لئن تركنا الناس يأخذون منه ليذهبن به كله قال فيقتتلون عليه فيقتل من كل مائة تسعة وتسعون". رواه مسلم في الفتن وأشراط الساعة.

الفصل الحادي عشر

طالبان والقاعدة...ذكاء وحماقة أمريكا

موضوع طالبان والقاعدة هو أحد أفضل الأمثلة التي تبين كيف يمكن لخمس دقائق من الجنون أن تبعثرعشرات السنين من التخطيط الذكي.

وللاختصار فلقد تمكنت طالبان من أفغانستان وتحت مباركة من المخابرات الباكستانية والسعودية. وهذا دلالة أنه ما كان لطالبان أن تأخذ أفغانستان دون وجود ضوء أخضر أمريكي.

وأما القاعدة فقد كان أسامة بن لادن مغضوبا عليه من جميع الأنظمة ولكن الملاحظة هنا أن أمريكا لم تطلب من السودان تسليمها بن لادن ولا تسليمه إلى السعودية ولا إلقاء القبض عليه ولا تقييد حركاته. وإنما كل ما طلبته أمريكا من السودان هو إخراج بن لادن من أراضيها عام ١٩٩٦ وكانت الوجهة الطبيعية والوحيدة لبن لادن بعد السودان هي أفغانستان. وهنا السؤال: لماذا؟. لماذا تريد أمريكا من بن لادن التوجه نحو أفغانستان؟؟؟؟.

ويمكن استنتاج السبب بالنظر إلى الخارطة السياسية، فقوة الصين كانت تتصاعد في التسعينيات وبدأت روسيا بالتعافي من صدمة التغيير في الهوية وبدأت العلاقة بين الصين وروسيا تتطور. وكل هذا كان مقلقا لأمريكا وكان من الضروري البحث عن التكتيكات اللازمة لاستنزافهما. وكانت طالبان والقاعدة إحدى هذه التكتيكات.

ويوجد في الصين دولة إسلامية محتلة وشعب إسلامي يتوق إلى الحرية وهم الأويغوريون في تركستان الشرقية وأما في روسيا فهناك الشيشان وهناك الجمهوريات الإسلامية والتي ما زالت تحت النفوذ الروسي وهي تشكل ميدانا خصبا لكل ثائر للإسلام يريد الجهاد.

وبالطبع لا يوجد تنسيق بين القاعدة وأمريكا. وكانت أمريكا تعلم أنها قد ينالها بعض الأذى من القاعدة ولكن ضمن الحسابات المنطقية للمسافات والإمكانيات فإنه من الطبيعي الاستنتاج أن الجهد الأساسي للقاعدة سيكون باتجاه روسيا والصين لقرب المسافة وسهولة التسلل.

وهناك أمر آخر كان ضمن حسابات أمريكا وهو أن القاعدة في مجموعهم هم هواة. وقد تبين من البرامج الوثائقية التي ظهرت عن أعضاء القاعدة الذين تم القبض عليهم في إنجلترا وأمريكا أنهم (القاعدة) كانوا يفتقدون إلى الانضباط والمهارة في صناعة الخطط وإنما كانت قوتهم في سعة خيالهم وقوة إرادتهم. وهذا معناه أن كثيرا من خلايا القاعدة كانت مخترقة من المخابرات الغربية إما بشكل مباشر أو غير مباشر. وقد ساعد هذا في احتواء الكثير من عمليات القاعدة ضد الغرب.

وهذا المخطط (استخدام القاعدة وطالبان في استنزاف الصين وروسيا) كان في غاية الذكاء ولو أنه استمر احتضانه فإنه سيؤدي إلى موقف صعب واستنزاف حقيقي لكل من روسيا والصين، فالإرادة متوفرة والرغبة في التحرير عالية جدا في كل من الأويغور والجمهوريات الإسلامية السوفييتية السابقة والشيشان.

ولكن ما الذي حدث؟

الذي حدث هو أن ضربة الـ ١١/ ٩ في نيويورك كانت غير متوقعة ومهينة وكان غضب الإدارة الأمريكية بشكل خاص والشعب بشكل عام في غاية الشدة. وكان هذا الغضب كافيًا للإدارة الأمريكية وبجرة قلم منها أن تنسف سنوات طويلة من التخطيط.

وهناك عامل آخر في المعادلة وهو إنجلترا. فإنجلترا عندها موقف واضح ونهائي من الإسلام وهو أن التلاعب مع ديناميكية الإسلام خطير ومحفوف بالهلاك. وفي الوقت نفسه فإن إنجلترا في الـ ٢٠٠٠م قد وصلت إلى قمة مجدها فقد كانت

ويحق في مركز العالم ولم يكن هناك أمر سياسي إلا وتجد فيه بصمات إنجلترا، ولم تكن هناك صفقة إلا وتجد فيها حصة لإنجلترا. وهذا هو جزء أساسي في الاستراتيجية الإنجليزية وهو عمل توازن في العالم تكون هي في مركزه.

وليس من الصعب الاستنتاج أن الإنجليز وجدوا أن استقرار العالم بما هو عليه وقتها هو أفضل وسيلة لإدامة وجودهم في مركزه. وعلى غلبة ظن المؤلف فإن أهداف إنجلترا الاستراتيجية في أواخر التسعينيات كانت كما يلي:

١- قلب نظام الحكم في إيران بنظام علماني. لأن وجود النظام الإسلامي سيكون مصدرا مستمرا لتصدير أفكار التمرد والانتفاض.

٢- إنهاء القضية الفلسطينية بما يضمن تخدير العالم الإسلامي. وهذا يتطلب حزما تجاه إسرائيل.

٣- إنهاء محفزات التوتر الإسلامي وهذا يتطلب بشكل رئيسي القضاء على طالبان والقاعدة.

٤- إدخال روسيا في حظيرة الاتحاد الأوروبي وبهذا تضمن إنجلترا نقطة المركز فيه. فالوضع في كثير من الأحيان هو موقف متحد بين فرنسا وألمانيا من جهة وإنجلترا من جهة أخرى. وبدخول روسيا إلى الحظيرة الأوروبية فإن إنجلترا تستطيع إعادة تشكيل التوازن لمصلحتها. وكذلك فإن دخول روسيا إلى الحظيرة الأوروبية يجعلها تبتعد عن الصين.

ولهذا فإنه لمن المصلحة الإنجليزية إنهاء وجود طالبان والقاعدة. وليس من المستغرب أن يكون الإنجليز هم أول من دقوا طبول الحرب تجاه أفغانستان. وفي الوقت الذي كانت فيه أمريكا تحاول أن تفهم ما يجري فإن توني بلير وفي الساعات الأولى قد أعلن أن بريطانيا ستقاتل كتفا إلى كتف مع أمريكا في ضرب الإرهاب وقام من فوره بعمل الحلف والدافع لغزو أفغانستان.

وضمن ما كان يراه المؤلف فقد حاولت وزارة الخارجية الأمريكية قدر الاستطاعة أن تمنع الغزو ولكن غضب الجيش والإدارة الأمريكية وطبول الحرب الإنجليزية أنهى الأمر بغزو أفغانستان.

وهذا هو المثال الحي لبيان كيف يمكن لخمس دقائق جنون أن تنسف سنوات طويلة من التخطيط.

ولكن هذه لم تكن أول مرة يحدث فيها مثل هذا الجنون:

فقد قام هتلر بعمل مخططات في غاية الذكاء لغزو روسيا ولكن وقبل الغزو بأسابيع قامت مظاهرة في صربيا أهانت الألمان والسفارة الألمانية، فاشتاط هتلر غضبا وقام بتأجيل الغزو لروسيا خمسة أسابيع وأمر الجيش بالتوجه نحو صربيا لتأديبها. وهذه الخمسة أسابيع كانت هي القاتلة، وذلك لأن هتلر لم يستطع أن ينهي مخططاته في روسيا قبل فصل الشتاء وأصبحت مصفحاته منغرزة في الوحل والطين في روسيا بسبب الأمطار.

وكذلك فقد قام القادة اليابانيون بوضع خطط مرحلية بعيدة النظر في صراعهم مع الحلفاء. وقام الحلفاء بعد بيرل هاربر بإرسال طائرة واحدة استطاعت التسلل نحو طوكيو وألقت بعض القنابل. وكانت هذه الطائرة عبارة عن رسالة "جكارة" من الحلفاء ولم تقم هذه الغارة بأية أضرار جسيمة، ولكن الشعور بالإهانة وسواد الوجه كان عاليا لدى القادة العسكريين اليابانيين. وتسبب هذا بشطب جميع مخططاتهم المرحلية ووضعوا خطط مواجهة مباشرة. وكان هذا السلوك هو أحد الأسباب الرئيسية لهزيمتهم.

لنرجع الآن إلى موضوع أفغانستان.

لم يستطع الحلفاء القضاء تماما على القاعدة. وهذه مشكلة حقيقية لهم: فعندما تقوم بمصارعة العدو ولا تستطيع القضاء عليه نهائيا فالذي سيحدث عندها هو أنك قد قمت بتنبيهه إلى نقاط ضعفه ونقاط ضعفك أنت. وهناك المثل الذي يقول:

الضربة التي لا تقص العظام فإنها تزيد في القوة. ويبدو أن كل ما استطاع الحلفاء إنجازه هو تقليم أطراف القاعدة، وإنه لمن المبكر جدا تقييم هذا التقليم فهو إما أن ينجح في إضعاف القاعدة أو أن يكون سببا في زيادة مهاراتها.

ولكن الأمر المؤكد أن ضربة الحلفاء لطالبان قد زادت من قوة وذكاء ومهارة طالبان. وأن ما يحدث من استنزاف حقيقي للحلفاء في أفغانستان هو نتيجة لهذه القوة والذكاء والمهارة. ومن الواضح جدا محاولات إنجلترا البحث عن خيارات مشرفة للخروج من أفغانستان ولكن من الواضح كذلك أن خياراتها هناك مُرّة.

لنحاول الآن قراءة المستقبل في أفغانستان بعد خروج الحلفاء منها. هل يمكن لطالبان والقاعدة أن تستمرا في تنفيذ مخططات أمريكا لها؟

على غلبة الظن فإن هذا الأمر مستبعد. إذ بعد أزمة العراق وأزمة أفغانستان فمن الممكن التخمين أن الصين وروسيا لهما القدرة على عمل هدنة طويلة الأمد مع طالبان. فموقف روسيا والصين من إيران ولبنان وفلسطين كان إيجابيا ومن الممكن جدا للصين وروسيا أن تجادلا في أن العدو الحقيقي لأفغانستان هم الحلفاء وأن روسيا والصين هما عدوان ثانويان.

وعلى أية حال فإنه إن حدثت مثل هذه الهدنة فإنها ستبقى مؤقتة وما لم تقم الصين وروسيا بإنهاء قضية الإيغور والشيشان بما يتلاءم مع المبادئ الإسلامية فإن قضيتيهما سيتم طرحهما على ميدان المواجهة إن عاجلا أو آجلا.

الفصل الثاني عشر

الصين وروسيا وإيران... التحالف الظاهر والحلم الممكن

عندما تكون هناك قوة ضخمة وطاغية في أحد أطراف الأرض فإن هذا هو أشد الدوافع لبقية الدويلات للتنسيق فيما بينها ودمج ثقافاتها المختلفة لمواجهة هذه القوة.

الآن..... الصين وروسيا لا توجد بينهم ثقافة مشتركة ولكن قوة وطغيان وغطرسة أمريكا قد دفعت الاثنين للتقارب وبشكل ظاهر. والطريقة التي تتبادل فيها روسيا والصين الأدوار في الدفاع عن إيران يدل على أن التنسيق بينهما يتم وعلى مستويات عالية.

وضمن غلبة ظن المؤلف فإن التفاهم بين روسيا والصين قد بدأ منذ عهد جورباتشوف. فالقيادة الروسية قد علمت تماما أنه لا توجد نجاة أبدا من أمريكا إلا بصناعة الأحلاف بين القوى المحيطة بها. ومن هذا المنطلق فقد بدأت العلاقات الدافئة تتعزز بينها وبين الهند والصين وإيران والعراق.

وأما العراق قد كان تحت قيادة حمقاء ولم يكن في قدرة روسيا المخاطرة إلى آخر الطريق في علاقتها مع العراق. وأما الهند فكانت العلاقة بينها وبين روسيا هي علاقة اقتصادية متميزة ولكن الهند تأخذ الحياد فيما يتعلق بالسياسات الدولية.

ولكن العلاقات بين روسيا من جهة وإيران والصين من جهة أخرى قد أثمرت. وعندما انهار الاتحاد السوفييتي واستقلت الجمهوريات الإسلامية فيه، بادرت الصين لخلق تحالف شنغهاي والذي يجمع هذه الجمهوريات الإسلامية وروسيا والصين في مظلة استراتيجية واحدة.

وهناك القرائن التي تدل على جدية روسيا والصين لترسيخ هذا التحالف وتمديده. وقام هذا التحالف بضم كل من إيران وباكستان والهند إليه بصفة مراقب.

وهناك مشكلة جوهرية في هذا التحالف وهو أنه لا يقوم على قواعد فكرية. فحلف الناتو قام على أساس حماية ما تم تسميته بالعالم الحر من الدكتاتورية الشيوعية. وهذه القاعدة الفكرية تكون مفيدة جدا في لصق وربط أعضاء الحلف معا.

وكذلك فإن الاتحاد الأوروبي قد قام على قواعد فكرية أساسها العلمانية وحقوق الإنسان. وهذه القواعد الفكرية ضرورية لجعل رباط الحلف متماسكا وصلبا. ولا توجد قواعد فكرية لتحالف شنغهاي وبالتالي فهذا التحالف هو أقرب ما يكون لشلة أصدقاء في نادي سياسي. وهذه نقطة ضعف حقيقية.

انتبه... أهداف الحلف تختلف عن قواعده الفكرية. فالأهداف الأساسية للاتحاد الأوربي كانت منع الحروب في أوروبا والوقوف صفا واحدا تجاه الغطرسة الأمريكية (أو هكذا كانت أهداف شارل ديجول) ولكن القواعد الفكرية للاتحاد هي الأفكار والفلسفات التي تهدف إلى ربط ودمج شعوب الاتحاد فيما بينهم.

وعلى أية حال فإن هناك قاعدة أخرى غير فكرية وإنما تاريخية تربط الدول الثلاث (إيران وروسيا والصين) وهي أن ثلاثتهم قد احترقت أصابعهم وجلودهم من الغرب بشكل عام ومن أمريكا بشكل خاص. وهذا وحده كافٍ لتفاهم أنظمة الحكم في هذه الدول، ولكنه، كما تبين سابقا، غير كافٍ لربط شعوب المنطقة ببعضها.

وهناك مشكلة أخرى مرتبطة في هذا الموضوع وهي أن الصين ليس لها الآن هوية واضحة. فالصينيون لا يعلمون بالضبط ماهية هويتهم. هل هم شيوعيون أم رأسماليون أم اشتراكيون. وهذا معناه أن العلاقة بين الشعب والنظام الحاكم غير واضحة.

وحتى هذه اللحظة وعلى مدى المستقبل المنظور (عشر سنوات على الأقل) فإن نظام الحكم في الصين ما زال متماسكا. ولكن هذا الأمر لا يمكن أن يستمر إلى ما لا

نهاية ، وعليه فإن هذا الأمر سيتم طرحه على أرض الميدان إن عاجلا أو آجلا وبإرادة من نظام الحكم أو فرضا عليهم.

الآن... عملية تغيير الهوية هي عملية مربكة وتكون الدولة وقتها في أضعف لحظاتها. وأفضل الأمثلة هي روسيا فقد كانت عملية تغيير الهوية من الشيوعية إلى الرأسمالية أشبه ما تكون بمخاض عسير.

وهنا النقطة... فالصين بحاجة ماسة إلى مجموعة من الأصدقاء حولها ذوي رؤية استراتيجية واضحة تستطيع أن تستند إليهم في حال حكمت الظروف بتغيير الهوية الصينية، وإلا فإن الصين ستكون مرتعا للكثير من أجهزة الاستخبارات الأجنبية كل منهم يريد أن يأخذ من الصين حصة.

الآن... التحالف الظاهر بين الصين وروسيا وإيران مبني على تفاهمات استراتيجية. وهناك تحالف آخر ممكن الحدوث مبني على تفاهمات اقتصادية في آسيا يجمع بين تركيا وإيران وباكستان والهند والصين وروسيا. وإمكانية هذا الحلف مبنية على أن جميع الدول السابقة لها مواقف وأهداف اقتصادية مشتركة تخالف أهداف ومواقف العالم الغربي (أوروبا وأمريكا). بالإضافة إلى ذلك فإن التحالف الاقتصادي بين الدول السابقة يجعل لها اكتفاء ذاتيًا ويحولها إلى قوة ضخمة أساسية في اللعبة العالمية.

ولكن هناك مشكلة واحدة تمنع تشكيل هذا الحلف وهو كشمير:

هناك علاقة استراتيجية واضحة بين الصين وباكستان وكذلك فهناك علاقة استراتيجية واضحة بين روسيا والهند. وعند حدوث أية مشكلة بين الهند وباكستان فإن هذا يتطلب، من الناحية الأدبية على الأقل، عتاب بين الصين وروسيا. وضمن ما لاحظه المؤلف فإن هناك مخططًا من الإنجليز يقوم على تحمية مشكلة كشمير إلى الدرجة التي تتوتر فيها العلاقات ولكن ليس إلى الدرجة التي تؤدي إلى الحرب. وفي كل مرة تتوتر فيها العلاقات بين الباكستان والهند يأتي الإنجليز إلى المنطقة بدعوى تخفيف التوتر.

وهناك مشكلة في الهند وهي أن نظام وفلسفات الحكم عندهم تمنعهم من مهارة التوازي في التفكير. وللتذكير فإن التوازي في التفكير هو القدرة على عزل المشكلات ومهارة التعامل مع المتناقضات. والهند لا تستطيع أن تعزل مشكلة كشمير عن موضوع الأهداف الاستراتيجية. فهي ترضى بكل شيء أو تغضب على كل شيء. ولهذا فمن الصعب عليها أن تعزل المشكلة بينها وبين باكستان عن موضوع التحالف الاقتصادي بينها وبين باكستان. وهذه الصفة في الهند تدركها إنجلترا تماما وتقوم باستغلالها.

وضمن وجهة نظر المؤلف فإن موضوع كشمير أساسي لمستقبل آسيا. ولا يستبعد المؤلف بعد خروج الحلفاء من أفغانستان أن تتجه رماح طالبان والقاعدة نحو كشمير وبتواطؤ باكستاني وإيراني وروسي وصيني.

ومهما بلغ الغضب والتوتر بين الهند وآسيا فإنه لا توجد هناك أية جهة مثمرة للهند إلا باتجاه آسيا.

وهنا نأتي الآن إلى موضوع الحلم الممكن، وهو تخمين للمؤلف لأحداث قد تتحقق في مدة لا تقل عن ١٠٠ سنة:

انتبه هنا ... الأحلام دائما تكون ساذجة ولكن إذا قام القارئ بالنظر إلى الحقائق السياسية على أرض الواقع الآن فستجد أنها قد بدأت بأحلام ساذجة.

هناك ملاحظة في موضوع إيران وروسيا والصين وهي أن المسلمين، بشكل عام، ليس لديهم حساسيات وطنية. في حين أن الروس والصينيين ليس لديهم حساسيات دينية (وربما يرجع هذا الأمر إلى الأفكار الشيوعية السابقة).

مختصر الكلام أن المسلمين لا يهمهم أن يحكمهم روسي أو صيني ما دام مسلما عدلا. وأما الروس فلا يهمهم أن يحكمهم مسلم ما دام روسيًّا. وأن الصينيين لا يهمهم أن يحكمهم مسلم ما دام صينيًّا.

وعلى هذه الملاحظة فإن المؤلف يرى الفرصة. وهي بحاجة إلى الجهد والمتابعة لكنها فرصة ممكنة، وهي خلق كيان، ولك أن تسمي هذا الكيان ما تشاء فتستطيع أن تسميه خلافة أو كنفدرالية أو اتحاد. وتستطيع أن تسمي هذا الكيان بأحد هذه الأسماء أو جميع هذه الأسماء. وإنما هو كيان سياسي يجمع بين ثقافات شتى وديانات شتى ضمن بوتقة واحدة.

وإذا حدث مثل هذا الكيان فإنه لمن الممكن جدا وبجهد بسيط أن تمتد حدود هذا الكيان من أقاصي روسيا شمالا وحتى أقاصي أفريقيا جنوبا.

كما تم تبيانه سابقا فإن ما سبق قد يتم اعتباره من الأحلام الساذجة. وهو كي يتحقق بحاجة إلى ١٠٠ سنة على الأقل. ولكن ١٠٠ سنة ليست بالطويلة في حياة الحضارات.

وهناك ملاحظة تدعم الرأي السابق وهو قيام بوتين بالطلب من المؤتمر الإسلامي بقبول عضوية روسيا فيه بدعوى وجود ٢٠ مليون مسلم في روسيا. ونستطيع أن نضرب الأخماس و الأسداس في تحليل أبعاد هذا الموقف. ومهما كانت أهداف بوتين منه فإن المؤلف يجد فيه القرينة أنه لا يوجد عداء روسي حقيقي تجاه ديناميكية الإسلام .

انتبه هنا... هناك عداء روسي حقيقي بينها وبين المجاهدين في الشيشان والجمهوريات الإسلامية. وهذا العداء مبني على المصلحة، فهدف المجاهدين يتعارض مع مصلحة روسيا. وعداء المصلحة يختلف تماما عن عداء المبدأ. فعداء إنجلترا وفرنسا لديناميكية الإسلام هو عداء مبدئي قبل أن يكون عداء مصلحة. ولهذا فالادعاء السابق كان دقيقا: فهناك عداء بين روسيا والمجاهدين ولكن (على غلبة الظن) لا يوجد في فلسفات الحكم في روسيا عداء مبدئي للإسلام.

الفصل الثالث عشر

الجدار الصاروخي في بولندا

قامت أمريكا وبشكل رسمي في ٨-٢-٢٠٠٧ بالإعلان عن خططها لإقامة درع صاروخي في بولندا ومحطة رادار في التشيك بهدف حماية أوروبا من صواريخ إيران. وهنا قامت قيامة الروس إلى الدرجة التي تفاجأ منها الجميع. فما الذي حدث؟؟

كانت هناك اتفاقية بين إيران والروس لشراء مضادات جوية متطورة ولكن روسيا كانت تماطل في التسليم. ولكن في النهاية قامت روسيا بتسليم هذه المضادات في ٢٧-١-٢٠٠٧ بحجة أن الصفقة قد تم عقدها سابقا وأنه لا بد من الوفاء بها. وبعدها بأسبوعين قامت أمريكا بالإعلان عن مخطط الجدار الصاروخي. وعلى غلبة الظن فإن هذه المناورة الأمريكية قد جاءت على إثر التصرف الروسي.

انتبه هنا...فكرة الجدار الصاروخي في بولندا هي فكرة قديمة قد بدأ البحث فيها منذ ٢٠٠٢. ولكن يوجد أمر طبيعي في البحث والتحليل في المجال الاستراتيجي وهو أن الأجهزة السياسية لا تستطيع أن تقوم بخلق الخطة السياسية وذلك لشدة تعقيدات الأمور ولكن الذي يحدث هو وجود حجم كبير من مؤسسات البحث والتحليل (Think Tanks) والجامعات المتخصصة ولجان التخطيط. وهؤلاء يقومون بالنظر والبحث في جميع الخيارات الموجودة وتنبيه الأجهزة السياسية لوجود هذه الخيارات. والكثير من هذه الأبحاث هي أبحاث جامعية وتقاريرها هي رسالات بهدف الحصول على شهادات جامعية. وعندما تحتاج الأجهزة السياسية إلى مقترحات فستجد أجوبة ومخططات جاهزة عند مؤسسات البحث والتحليل وعندها تقوم القيادة السياسية بتعديل هذه المخططات لتتلاءم مع الأهداف المطلوبة.

وهكذا (على غلبة الظن) جاء مشروع الدرع الصاروخي، فقد أرادت أمريكا أن ترد الصاع صاعا لروسيا فكانت أن وجدت المخططات جاهزة لمشروع الدرع الصاروخي في بولندا فتم تبنّيه.

وبالطبع فإن وجود صواريخ اعتراضية في بولندا هو أمر مزعج للروس ولكن (وعلى غلبة الظن) لا يشكل تهديدا حقيقيا لروسيا. وعلى غلبة الظن أن أمريكا لم تصل إلى هذه الدرجة من الحماقة وفي هذا الوقت العصيب كي تقوم بتهديد الوجود الروسي. وإنما كانت مناورات بينهم، وقامت أمريكا برفع درجة المناورة إلى المستوى المباشر بينهما. فبالنسبة إلى أمريكا فإن تسليم المضادات الجوية هو مناورة مباشرة من روسيا باتجاه أمريكا فقامت أمريكا بالمثل.

ولكن يبدو أن أمريكا قد تفاجأت تماما بردة الفعل الروسية. فقد تصرف الروس كما لو أن وجودهم قد أصبح مهددا من الغرب. ولم يكن عند أمريكا مهارة الانسحاب بماء الوجه فوقعت في هذا المأزق. وغلبة الظن أن روسيا وجدت في مشروع الدرع الصاروخي الفرصة الكاملة داخليا وخارجيا لإعادة تحديث جيشها وإعادة توزيع قواتها وفرد عضلاتها. وهي فرصة من الصعب أن تتكرر مرة أخرى.

وإذا انتبه القارئ إلى تصريحات كونداليزا رايس فقد كانت تحاول بشكل حقيقي إقناع الروس أن الجدار الصاروخي لا يشكل تهديدًا أمنيا لروسيا. وعلى غلبة الظن فإن الإدارة الأمريكية كانت تهدف إلى بعض الوقت كي يستطيعوا الانسحاب من هذا المأزق بهدوء. وهذا ما حدث في عهد أوباما فقد تم التخلي عن مشروع الجدار الصاروخي ولكن استطاعت روسيا أخذ كامل التبرير من هذا المشروع لتحديث جيشها.

الفصل الرابع عشر

أزمة جورجيا

أحد الأمور التي ما زالت تثير الحيرة الشديدة عند المؤلف هي أحداث جورجيا ٢٠٠٨ إذ إن هذه الأزمة لا تدخل في دائرة المنطق العام.

لتلخيص الأحداث فإنه في ليلة افتتاح ألعاب الأولمبياد في الصين (٨-٨-٢٠٠٨) قام الجيش الجورجي بالدخول إلى أوسيتيا الجنوبية (منطقة جورجية متنازع عليها) وضرب القوات الروسية هناك. وعندها قام الجيش الروسي بضرب الجيش الجورجي ضربة جامدة وقام بالاندفاع نحو جورجيا وحتى مسافة بسيطة من العاصمة تبليسي.

واستغلت أمريكا هذه الحادثة وقامت بالتوقيع على مشروع الجدار الصاروخي مع بولندا والتشيك. ولكن في غير هذا فإن موقف أمريكا من أزمة جورجيا كان في غاية الخزي. فقد كان الشعور العام أن أمريكا هي التي شجعت جورجيا للقيام بهذه المغامرة الفاشلة ولكنها لم تستطع أن تفعل أي شيء لهذا الحليف سوى التفرج وإطلاق التصريحات. وعندما تصل التصريحات الأمريكية إلى مستوى: "لقد تعهد الروس بالانسحاب من جورجيا ويبدو أن الروس لا يحترمون تعهداتهم"، فإن هذا هو مستوى عالٍ من الإفلاس.

وقد أخذ الفرنسيون المبادرة واستطاعوا الإحاطة بالأزمة. وكانت نتائج هذه الأزمة هو وجود التبرير والدافع لقيام روسيا بالاعتراف باستقلال أوسيتا وأبخازيا من جورجيا وهو أمر لم يكن من السهل فعله قبل الأزمة.

وهنا يأتي السؤال: من كان وراء أزمة جورجيا؟؟

ضمن وجهة نظر المؤلف فإن أمريكا قد خسرت الكثير في هذه الأزمة من الناحية الإعلامية وناحية المصداقية واتسعت الفجوة بين أوروبا وأمريكا، وقد ظهر

هذا جليا في انتقادات فرنسا وأوروبا لأمريكا. وأما موضوع الجدار الصاروخي فإن هذا الجدار لم يكن مصلحة حيوية لأمريكا بدليل أن الإدارة الحالية لأمريكا (إدارة أوباما) قد ألغت هذا المشروع. بالإضافة إلى ذلك فإن التوقيع على هذا المشروع قد أعطى لروسيا العذر الكامل لتجميد الاتفاقيات العسكرية مع أوروبا وهذا ما أدى إلى امتعاض أوروبي حقيقي من إدارة بوش. ولهذا السبب فإنه من المستبعد عند المؤلف أن تكون أمريكا وراء هذه الأزمة.

ولكن في الوقت نفسه فإنه من المستبعد تماما أن يقوم ميخائيل شاكاسفيلي (رئيس جورجيا) بهذه الحماقة بغير وجود ضوء أخضر من أمريكا.

وهنا الحيرة في الموضوع، وهو وجود تناقض في التحليل السياسي للأمور. وعندما تقوم بتحليل الواقع السياسي وتستطيع أن تقوم بنفي جميع الخيارات المعقولة فيها فعندها عليك أن تفتح صندوق الخيال وترى ما فيه من احتمالات.

وهناك احتمالان في صندوق الخيال لهما بعض الإمكانية:

* أن تكون أزمة جورجيا من تخطيط الروس حيث إن روسيا في الحقيقة هي أكثر من استفاد من هذه الأزمة. ولكن هذا يتطلب أن يكون هناك عملاء لروسيا في قلب إدارة شاكاسفيلي بحيث يكونون قادرين على شحن وإخراج شاكاسفيلي من دائرة المنطق إلى دائرة الوهم وإقناعه بالتنفيذ دون استشارة أمريكا على أساس أن أمريكا لا يمكنها أن تتخلى عنه.

* أن تكون أزمة جورجيا هي من تخطيط المخابرات الأمريكية لإحراج إدارة بوش. وهذا معناه أن أزمة جورجيا هي تصفية حسابات بين الأجهزة الأمريكية المتصارعة.

بالطبع فإن هذه الاحتمالات هي أقرب إلى الخيال من المنطق ولكنها أقرب إلى المنطق من الاحتمال الذي يقول إن أمريكا هي وراء هذه الأزمة.

وتوجد هنا نقطة فرعية من المناسب التعرض لها: فقد ظهرت بوضوح حماقة جورج بوش الابن في قيادة البلاد. فهل حماقته جاءت صدفة أم جاءت ضمن مخطط؟

وغلبة الظن عند المؤلف أن اختيار جورج بوش للرئاسة كان ضمن تخطيط. فالتحالف العسكري (الحزب الجمهوري والجيش واللوبي الإنجليزي) قد عقدوا العزم على الضغط على النظام الإيراني ودفعه نحو الانهيار وهذا يتطلب قرارات صعبة وغير شعبية وغير منطقية. فكان التحالف بحاجة إلى رئيس غير منطقي وأحمق بحيث يكون سهلا على قيادات التحالف تمرير القرارات التي يريدونها دون اعتراض من الرئيس. ولكن وقع الساحر (التحالف العسكري) في سحره وارتد المكر إليهم.

الفصل الخامس عشر

حزب الله في لبنان

حزب الله هو أحد الأمثلة الناجحة لتكتيكات سلامي وسلق الضفدعة.

إن بحث موضوع حزب الله يتطلب تبيان بعض الفروق بين أوروبا وأمريكا في نظرتهم إلى الإسلام . ولكن لنبدأ أولا بالنظر إلى التاريخ القديم ولندرس بعض الاختلافات بين اليونان و الرومان:

في حين كان اليونانيون على اهتمام وهوس لعلوم الفلسفة والرياضيات، فإن الرومان لم يكن لديهم أي اهتمام بهذه العلوم، وإنما كان جل اهتماماتهم تجاه المجالات العملية كالقانون وفنون الحرب وعلوم الإنشاءات. بل قد قال أحد مؤرخيهم إن روما محظوظة بابتعادها عن الوهم والخيال. وكانت نكتة صادقة أن أثر الرومان الوحيد في علوم الرياضيات هو قتلهم لأرشميدس.

ومن المفيد التنبيه هنا أن نظرة الرومان كانت خاطئة. فالوقائع اليوم كانت في الماضي فلسفات، وإنجازات اليوم كانت في الماضي خيالاً وأحلامًا.

الآن... إن ما يلاحظه المؤلف أن الفرق بين أوروبا وأمريكا يكاد يشبه الفرق بين اليونان والرومان. فالأمريكيون يهتمون بالنظرة العملية فوق النظرة الفلسفية، ومجال إدارتهم يعتمد بشكل شبه كامل على الإحصائيات والسوابق التاريخية. وهذا على النقيض من الأوروبيين فعندهم اهتمام أكبر للنظرة الفلسفية للأمور.

ونظرة أوروبا للإسلام مبنية على خبرات سابقة كما أنها مبنية على إدراك حقيقي لخطورة اللعب مع ديناميكيته. وأما أمريكا، فنظرتها للإسلام أن الإسلام لا يشكل خطرا عليها. وأنه يمكنها أن تستغل الإسلام لمصالحها. وعلى تخمين المؤلف فإن هذه النظرة جاءت من تحليل تاريخي للمسلمين في الـ٥٠٠ سنة الماضية وهو تاريخ طويل من التمزق والحروب. كما أن ثقة الأمريكيين بأنفسهم قد ازدادت بعد أن

استطاعوا استغلال الشيوعية وتحطيمها. ويبدو أن نظرة أمريكا للإسلام شبيهة بنظرتها للشيوعية.

انتبه... هناك البعض من رجالات أمريكا من يدرك قوة الديناميكية في الإسلام . ولكن فلسفات الدولة تتعلق بالفلسفات العامة في الأجهزة الإدارية وليس لفلسفات البعض من رجالاتها.

وهناك القرائن لنظرة أمريكا للإسلام. فالغطرسة الأمريكية منذ البداية وتماديها في التواطؤ مع جرائم إسرائيل، وجرائمها في العراق وأفغانستان تدل وبوضوح (ضمن وجهة نظر المؤلف) على مدى استهانتها بديناميكية الإسلام .

وهناك كذلك أمران يجب ذكرهما قبل الحديث عن حزب الله وهما تكتيكات أمريكا وأهدافها في الشرق الأوسط:

لقد نجحت أمريكا في مخططاتها في القارة الأمريكية الجنوبية وفي أفريقيا وفي آسيا، ونجحت بتشقيق واستمالة الكثير من الجماعات الوطنية والقومية والشيوعية في العالم. وضمن النظرة لهذه النجاحات فإنه يمكن الاستنتاج للكثير من تكتيكاتها. وأهمها اثنان: الأول هو تعكير البركة على الآخرين، ثم استخدام العصا والجزرة والقوة والمال لترويض الأمور لمصلحتها. والثاني هو البحث عن الأقليات واستغلالهم.

وأما أهدافها في الشرق الأوسط فقد ثبت لأمريكا (وإنجلترا) أن الإسرائيليين هم أبناء عاقون، وانتبهت أمريكا أن اليهود في الشرق الأوسط يجب أن يكونوا جنود حراسة وليسوا شركاء لها، حيث ثبت بالسوابق أن اليهود في فلسطين لا يتصرفون إلا بمقتضى مصالحهم الآنية دون اعتبار لأحد. وكانت النظرة التي اتفقت فيها أمريكا وإنجلترا أنه يجب تقليم أظافر اليهود في فلسطين واحتوائهم وإلا سيكونون السبب في اشتعال الشرق الأوسط بأكمله.

ولأسباب تم شرحها في الملحق الأول من هذا الكتاب، فإن أمريكا تستخدم أسلوب الخطوة- خطوة لتحقيق هذه الأهداف.

لنرجع الآن إلى حزب الله:

مع إعلان الدولة اليهودية عام ١٩٤٨م فإنه كان من الطبيعي قيام الحركات التحريرية لفلسطين. وإحدى أهم سياسات إنجلترا العريقة هي خلق المعارضة وبقيادات مقبولة. والحكمة واضحة: فهي بخلقها للمعارضة بقيادة مقبولة فإنها قادرة على متابعتها والتأثير عليها واحتوائها. ولكن إذا تشكلت هذه المعارضة بحكم الظروف فإن إنجلترا لا تستطيع ضمان القيادات في هذه المعارضة. فكانت الحكمة هي قيام إنجلترا نفسها بخلق هذه المعارضة، ومن ثم توجيه طاقات الناس واستنفاذها نحو هذه المعارضة المأمونة الجانب.

وهناك إشاعات ليست مستبعدة أن إنجلترا هي من خلقت حركة فتح. وبالطبع فإن إنجلترا ورجالاتها لم يخلقوا فقط حركة فتح وإنما قاموا بخلق قائمة متكاملة من الحركات التحريرية الفلسطينية المسلحة تتسع لكل فكر ومذهب.

وجاءت سنة ١٩٦٧م وتم احتلال الجزء الآخر من فلسطين. وكان المتوقع هو قيام مفاوضات تنتهي بتبادل الأرض مقابل السلام. ولكن هذا المخطط قد تأجل لأسباب أهمها:

١. العرب كشعب وأنظمة لم يكونوا مهيئين لمعاهدة سلام مع إسرائيل.

٢. الانتصار السريع لإسرائيل قد أعمى بصائرهم ودفع بغطرستهم إلى عنان السماء. ولم يكن من السهل عليهم أن ينسحبوا من يهوذا والسامرة والقدس.

ولهذا فقد كانت نظرة الغرب هى الانتظار قليلا حتى يتم ترويض الجانبين.

ولكن حدث أمر قد زاد في تعقيد القضية الفلسطينية وهي عدم قدرة الحكومة الإسرائيلية ذلك الوقت على منع اليهود من الاستيطان في أراضي الـ٦٧. ولكن هذا الأمر لم يقلق الغرب كثيرا، إذ لم يكن هناك أية بوادر أو إشارات على أن الإسلام قد استيقظ في النفوس. ولم تكن هناك أية إشارات أن ما حدث في فلسطين قد وضع بذور الوحدة عند المسلمين.

وهناك سبب آخر لتأجيل حل القضية الفلسطينية ذلك الوقت، وهو وجود صراع أمريكي إنجليزي شرس وعنيف في منطقة الشرق الأوسط. وامتد هذا الصراع منذ أوائل الخمسينيات وحتى الثمانينيات من القرن العشرين.

وأسباب هذا الصراع واضحة ومنطقية، فإنجلترا خرجت من الحرب العالمية ضعيفة، وأمريكا وروسيا كانتا في حالة وفاق مؤقت، والمخابرات الأمريكية كانت "فاضية شغل"، وكانت نظرة أمريكا أنها "الوارث الشرعي والوحيد للإمبراطورية الإنجليزية".

هذه الأسباب كلها (الصراع الأمريكي الإنجليزي، ديناميكية المجتمعات، ديناميكية الإسلام ، صراع أنظمة الحكم في المنطقة، صراع الأحزاب السياسية) قد جعلت مسار التاريخ في منطقة الشرق الأوسط في غاية التعاريج وكانت أمزجة المجتمعات والأنظمة تتغير وتتقلب عدة مرات في الشهر الواحد.

وساعدت تجاذبات وتنافرات القوى والمصالح على تكوين الحركة الفدائية في الأردن كوسيلة لاحتواء الغضب العربي والإسلامي لحرب الـ٦٧. ونتيجة لتجاذبات وتنافرات أخرى فقد تم ترحيل الفدائيين من الأردن إلى جنوب لبنان. ثم بسبب حماقة القيادات في المنظمة الفلسطينية وضعف انضباط رجالاتها فقد استفحل التشنج بين المنظمة والقوى اللبنانية التي كانت (القوى اللبنانية) متشنجة من الأصل.

كل هذا قد ساعد على إشعال الحرب الأهلية في لبنان. وقامت إسرائيل باستغلال هذه الظروف ودخلت إلى جنوب لبنان بهدف القضاء على القوة الفلسطينية.

وفي هذا الخضم من الفوضى، فإن الشيعة كانوا في موقف شبه محايد. فالشيعة كانوا في المنطقة أقلية مهضومة الحق ولا يعبأ بهم أحد من القوى المتجذرة في لبنان.

وهذا كان الوضع المثالي لأمريكا كي تلعب لعبتها والتي نجحت مرات عدة في أماكن كثيرة. فالمنطقة تعيش في الفوضى وهناك أقلية لا يهتم بها أحد.

وهذه هي بدايات الحكاية. فأقلية مهضومة الحقوق، ووضع قد اختلط فيه الحابل بالنابل ودولة عظمى (أمريكا) لا تهتم بديناميكية الإسلام . ولهذا فمن الطبيعي التخمين أن أمريكا ساهمت في بناء القوة الشيعية في لبنان.

وكان بداية هذا الكيان هو حركة أمل ذات التوجهات العلمانية. ومن حركة أمل خرج حزب الله. وفي إحدى المنعطفات من التاريخ فإن سوريا وحركة أمل وفلول من حركة فتح قد اتحدوا في ضرب حزب الله ومحاولة إنهاء وجوده. ولكن ثبات حزب الله ودبلوماسية إيران مكنتا الحزب من النجاة من ذلك الموقف. وضمن غلبة ظن المؤلف فإن ذلك الموقف هو الموقف الوحيد الذي واجهه حزب الله والذي كان يهدد وبشكل حقيقي وجوده.

انتبه... تكتيكات أمريكا ليست ساذجة، فقد كانت لها نجاحات حقيقية في العالم. ولكن مشكلتها أنها لم تدرك ديناميكية الإسلام ، وهذا ما جعل تكتيكاتها ترتد إليها فيما يتعلق بإيران وحزب الله.

في المقابل فإن حزب الله قد فهم تماما موقعه في اللعبة الدولية ولم يقم أبدا باختراق الحدود الحمراء الموضوعة أمامه... ولكن الحزب (وبأسلوب الخطوة-خطوة) استطاع أن يزيح هذه الخطوط إلى الإمام. فعمليات الحزب ضد الإسرائيليين كانت مزعجة ولكنها لم تؤدِّ إلى تبرير حرب شاملة بين حزب الله وإسرائيل. وأدت هذه العمليات إلى استنزاف حقيقي للموارد الإسرائيلية والذي أدى في النهاية إلى انسحاب مهين لإسرائيل من جنوب لبنان.

والآن فإن حزب الله يقوم بجهود إعلامية حثيثة لنشر فكر المقاومة في الأمة وتقديم نموذج ناجح في المقاومة والإنجاز ، ويقوم بتهريب الأسلحة وإرسال الخبراء إلى فلسطين. وهذا أمر لا يرضاه الغرب. فالغرب قد استطاع ترويض الأنظمة والمجتمعات للقبول بحق إسرائيل في الوجود، ثم يأتي حزب الله ويصيح بأفكار المقاومة، ومثبتا للجميع أن المقاومة مثمرة إذا أعطيت حقها!!!.

ومع هذا فإن كل ما يفعله حزب الله الآن لا يعطي تبريرا للغرب للقيام بضربه. بمعنى آخر فإن كل الإزعاج الذي يسببه حزب الله للغرب لا يصل إلى الدرجة التي تضعه على رأس الأجندة عند الغرب. وهذا لا يعني أبدا أن أعمال حزب الله لا قيمة لها، وإنما يعني أن هناك معضلات وأولويات عند الغرب هي أهم عندهم، من مشكلة حزب الله.

وهذه هي المهارة التي أتقنها حزب الله وهي تكتيكات سلامي وسلق الضفدعة مع الغرب واستغلال الثغرات في اللعبة المحلية والدولية.

ولكن دعونا نفترض جدلا أن حزب الله الآن قد تم وضعه على رأس الأجندة.. ما هي خيارات الغرب تجاه حزب الله؟

ليس من السهل على إسرائيل بمفردها أن تجتاح جنوب لبنان. وذلك لأن مغامراتها السابقة في جنوب لبنان في الثمانينيات قد نجحت في إنهاء القوة الفلسطينية، ولكن ذلك قد استنزف الكثير من مواردها. وقوة حزب الله الآن وانضباطه ومهاراته هي أضعاف أضعاف القوة الفلسطينية ذلك الوقت.

هل تستطيع أن تقوم إنجلترا وأمريكا وإسرائيل معا باحتلال لبنان وإنهاء وجود حزب الله ؟

نعم، هذا ممكن جدا. ولكن ما هي الكلفة؟ وهل تستطيع القوى السياسية في كل من هذه الدول من تبرير هذه الكلفة لشعوبها؟

وماذا سيكون رد الفعل من إيران؟ فإيران قد لا تقوم بالتدخل المباشر مع حزب الله ولكن لإيران القدرة الحقيقية للضرب تحت الحزام.

وهل قام حزب الله بما يبرر للدول الثلاث إلغاء جميع أولوياتهم والتوجه نحو لبنان؟

والسؤال الأهم: ما هو البديل لحزب الله في المنطقة؟

فالغرب في حاجة ملحة لتقليم أظافر إسرائيل وتقييد غطرستها وإلا فإنها ستكون سببا في اشتعال الشرق الأوسط بأكمله. وحزب الله قد نجح بعمل سد حقيقي بين إسرائيل والعلمانية في لبنان. وكذلك نجح في عمل سد معنوي واضح بين إسرائيل والمجتمعات العربية. والسؤال هو: إذا تم إنهاء وجود حزب الله فكيف يمكن احتواء إسرائيل؟

انتبه... كانت القوى والمجتمعات العربية في غاية الضعف في أوائل القرن العشرين. وهذا ما جعل لإنجلترا وأمريكا القدرة على خلق ما يريدون من أنظمة وتيارات وأفكار. ولكن الوضع الآن قد اختلف والمهارات قد زادت. وأمريكا وإنجلترا لا تستطيعان الآن إلا استغلال الموجود قدر الإمكان للوصول إلى أهدافهما. ولهذا السبب فإن حزب الله كالعلقم في حلق أمريكا ولكن وجوده ضروري لسياساتها.

وهذا هو المقصود من القول أن حزب الله قد أتقن استغلال الثغرات في اللعبة الدولية.

وهناك الملاحظات التالية لأهداف واستراتيجيات حزب الله:

* الهدف الرئيسي والأساسي لحزب الله هو العيش بكرامة في جنوب لبنان. وأما جميع الأهداف الأخرى فهي ثانوية.

هذا لا يعني أن الشعارات والتصريحات فيما يتعلق بتحرير فلسطين هي مسرحية، بل هي شعارات وتصريحات جادة، ولكن حزب الله يعلم تماما أنه ليس بقدرته تحرير فلسطين. وعليه فإن حزب الله يعتمد استراتيجية الخطوة- خطوة لتحقيق هذا الهدف. وتتمثل هذه الاستراتيجية بنشر أفكار المقاومة وإعطاء النموذج الناجح لإنجازات المقاومة في لبنان. وهذه الاستراتيجية كانت واضحة في خطاب حسن نصرالله (يوم القدس - ١٨-٩-٢٠٠٩) بقوله إن العجز أو الضعف لا يعني

ضرورة الاستسلام والتوقيع وأنه "ليست المسألة أننا موضوعون أمام خيارين: إما أن نحارب أو نستسلم، هناك خيار ثالث وهو خيار الصمود والممانعة والمقاومة ونعمل على امتلاك القدرة وننتظر المتغيرات".

* تعمد حزب الله على بناء مصداقية عالية فيما يتعلق بالوعود، فهو لا يَعِد إلا بعد دراسة ولكنه إذا وعد أوفى. وهذا ذكاء استراتيجي حقيقي.

وإذا نظرت إلى التجار في السوق فستجد أن أحدهم بحاجة إلى رهن ممتلكاته لأخذ البضاعة، وآخرين يأخذون البضاعة بكلمة منهم. والفرق بينهما أن الأول قد فقد المصداقية والآخر قد بناها. والصورة التي استطاع الحزب أن يبنيها عن نفسه هو أنه يعد ويفي وأنه صادق وأمين وأنه ملتزم (قدر الاستطاعة) بصفات الفروسية في القتال. هذه المصداقية قد ساعدته كثيرا في المناورة مع الجميع. ففرنسا لا ترتاح لحزب الله ولا إلى نشاطاته ولكنها (على غلبة تخمين المؤلف) تثق في وعوده أكثر من ثقتها بوعود رجالاتها في لبنان. كما أن هذه المصداقية هي التي ساعدت على تشكيل حلف متماسك من المعارضة ذوي أفكار وثقافات متعددة. وفي المقابل فإن حلف الأكثرية كان وما يزال هشا.

وهنا بعض النقاط من المفيد ذكرها:

١. الكذب ليس شرطا من شروط نجاح الخطط كما قد يظن البعض. فأنت تستطيع أن لا تقول الحقيقة أو أن تقول من الحقيقة نصفها دون الحاجة لأن تكذب. وهذا يتطلب مهارة حقيقية، وهي مهارة مجزية فهي تُمَكن الدولة من أن تصل إلى أهدافها وتنتصر في معاركها وتنجح في مكائدها وفخاخها دون أن تفقد المصداقية. أما من يستخدم الكذب أساسا في خططه فإنه سيكسب الكثير من المعارك ولكنه (ودون أن يدري) سيفقد ثقة الكثير حتى يكتشف فجأة أنه قد خسر الحرب. وهذا بالضبط ما يحدث في أمريكا الآن، فإن التوسع السريع للنفوذ الأمريكي في العالم بعد الحرب العالمية الثانية وكونهم القوة الأكبر جعلهم (ودون وعي) يبحثون عن أسهل الانتصارات. وأسهل الطرق للانتصار على الضعيف

هو الكذب عليه. فكانت سياساتهم مع العالم مبنية على الوعود الكاذبة. ولكن العالم اليوم ليس ضعيفا كما كان في الخمسينيات ومصداقية أمريكا قد وصلت إلى الحضيض، وليس من السهل أن تبني المصداقية بعد سقوطها. وباختصار فإن أمريكا الآن في هذا القرن تقوم بابتلاع الشوك الذي زرعته في القرن الماضي.

٢. حزب الله اهتم ببناء المصداقية ولم يهتم (ضمن ملاحظة المؤلف) بالدفاع عنها. وهناك فرق شاسع بين بناء المصداقية والدفاع عنها. فبناء المصداقية يحتاج إلى ثبات في التصرف يستمر على مدى سنوات طويلة، في حين الدفاع عن المصداقية يحتاج إلى الرد على الاتهامات والشائعات والأكاذيب التي يطلقها الخصوم. والدفاع عن المصداقية هي أحد أكثر الأمور استنزافا للموارد والجهود، ولهذا فالدفاع عن المصداقية يجب أن يكون ضمن حدود واستراتيجيات واضحة.

هذا هو السبب (ضمن غلبة الظن) في عدم قيام حزب الله بالرد الكامل على الاتهامات والإشاعات والأكاذيب التي أطلقها عليه خصومه في حرب ٢٠٠٦ وفي حرب غزة.

وفي هذا الموضوع نقطة فرعية أخرى: إذا استطاعت الجماعة (أو الدولة) الصمود في وجه الإشاعات والأكاذيب وخرجت سالمة من الصراع فإن الناس الذين صدقوا هذه الأكاذيب سيحدث عندهم ردة فعل عكسية باتجاه هذه الجماعة. وهذا معناه أن مصداقية هذه الجماعة قد تضاعفت وأن مصداقية الخصوم قد اضمحلت. وبالطبع فإن هذا التضاعف في المصداقية لن يكون له أثر في المدى القصير ولكن على المدى الطويل فإنه سيكون له كل الأثر.

وهذا كان واضحا في حرب ٢٠٠٦. فلم يقم حزب الله بالرد على الاتهامات والشتائم والأكاذيب التي أطلقها عليه خصومه، وربما تأثر الكثير بهذه الشتائم والأكاذيب. ولكن بعد انتصار الحزب في هذه الحرب فإن أقلام الشتائم قد سقطت وفقدت مصداقيتها وساعدت ردة الفعل العكسية للأمة لإعطائها

المناعة ضد هذه الأقلام. وهذا ما جعل هذه الأقلام تصل إلى درجة الإفلاس في حرب غزة.

٣. هناك استراتيجية واضحة وذكية عند حزب الله وقد اتخذها منذ مدة طويلة وهي عدم الاهتمام بتغيير الرأي العام العالمي وإنما التركيز على الرأي العام العربي والإسلامي. وفي حرب ٢٠٠٦ قال أندرسون كوبر(Anderson Cooper) مراسل الـ CNN أنهم لا يتعمدون استبعاد وجهة نظر حزب الله ولكن حزب الله يرفض عمل لقاءات صحفية معهم.

وقد يظن البعض أن هذه الاستراتيجية هي سذاجة لأن الرأي العربي ليس له قيمة أمام قرارات الأنظمة في حين أن الرأي العام الغربي له قيمة واضحة في قرارات أوروبا وأمريكا، ولكن هذا الرأي ليس دقيقا. فالرأي العام الغربي ذو طبيعة مزاجية ويوجد عند الأنظمة الغربية المقدرة على تغيير اتجاه هذا المزاج في الوقت الذي تريده.

وهذا ما اكتشفه السلطان عبد الحميد الثاني. فقد حاول السلطان شراء الأقلام في الصحافة الإنجليزية ليكتشف لاحقا أن هذا كان مضيعة للوقت والمال والجهد. وهذا كذلك ما اكتشفه هتلر، فقد قام بشراء الكثير من الأقلام في الصحافة الأمريكية ولكن عندما جد الجد فقد استطاعت الحكومة الأمريكية من تغيير المزاج العام إلى الوجهة التي تريدها.

وأما بالنسبة إلى الرأي العام العربي فإنه لا قيمة له على المدى القصير ولكن إذا استمر الصراع عبر السنوات فإن الرأي العام العربي والإسلامي هو الفيصل.

دعونا نتعمق قليلا في هذه النقطة:

إذا كانت الدولة أو الجماعة أو الحزب ذوي موارد وإمكانيات محدودة وضعيفة فإنه لمن الحماقة تبديد هذه الموارد على جميع الفرص المتاحة. والتخطيط الاستراتيجي كان منذ الأزل وحتى الآن يبحث في توزيع الموارد والإمكانيات بحيث يتم اختراق

جبهة العدو في النقاط الأكثر ضعفا. وعندما تكون مواردك محدودة وضعيفة فإن أكثر الأمور بعدا عن الحكمة هو توجيه الموارد والإمكانيات نحو النقاط غير المؤثرة، لأن هذا هو الاستنزاف بالضبط.

وكذلك قيام دولة أو جماعة محدودة الموارد والإمكانيات بالاهتمام بالرأي العام الغربي هو تصرف غير حكيم للأسباب التالية:

* التأثير على الإعلام الغربي يتطلب ميزانية لشراء الأقلام الغربية وإدارة العلاقات العامة وإدارة الحملات الدعائية وعمل وإدارة الحفلات. وهذا يتطلب المال والجهد والوقت وهذا ليس بالأمر البسيط.

* عندما تقوم الدولة أو الحزب بالتوجه نحو صحافة العدو فإن صحافة العدو ستقوم ببحث الأمور الحساسة وهذا ما قد يؤدي (ودون وعي) إلى تقديم الالتزامات أو التنازلات. وإذا تم خرق هذه الالتزامات فإن صحافة العدو قادرة على ضرب مصداقية الجماعة.

انتبه... المؤلف لا يقول إن المصلحة في إلغاء الحديث مع الصحافة الغربية وإنما إذا كانت الدولة ذات موارد وإمكانيات عالية فهي قادرة على توجيه بعض الموارد نحو صحافة العدو. أما إذا كانت الموارد ضعيفة فليس من الحكمة استنزافها في مشاريع مكلفة.

آخر نقطة في هذه المقالة هو وجهة نظر ظنية للمؤلف عن حزب الله:

قال رسول الله ﷺ: "لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لعدوهم قاهرين لا يضرهم من خالفهم إلا ما أصابهم من لأواء حتى يأتيهم أمر الله وهم كذلك قالوا يا رسول الله وأين هم قال ببيت المقدس وأكناف بيت المقدس". رواه أحمد في باقي مسند الأنصار.

وجهة نظر المؤلف أن هذا الحديث ينطبق وبشكل جيد على حزب الله. وهناك نقاط يجب توضيحها:

❋ "على الحق ظاهرين":

المؤلف ليس على المذهب الجعفري، بل إن المؤلف يرى أن هناك أخطاء حقيقية في المذهب الجعفري. ولكن هناك احتمالين لمعنى الحق في النص السابق:

- أن يكون المقصود بالحق هو صحة الاجتهادات الفقهية وبالتالي يكون المعنى من النص هو "منتصرين لاجتهاداتهم".

- أن يكون المقصود بالحق هو قضية المقاومة والجهاد.

والاحتمال الثاني هو ما يغلب على ظن المؤلف لأن حزب الله هم أول الجماعات التي قاتلت بحق وانتصرت على العدو الإسرائيلي كما أنها ما زالت الدافع الأساسي في المقاومة ضد العدو إعلاميا وفكريا. وفي هذه النقطة يجب التنويه لمساهمات حزب الله في حرب غزة من حيث الدعم المادي وتهريب الأسلحة والتدريب.

❋ "لعدوهم قاهرين":

ضمن غلبة ظن المؤلف وفي الوقت الحاضر على الأقل فإن هذا النص لا ينطبق إلا على حزب الله. وإذا نظرت إلى مشاعر الإسرائيليين من حزب الله فلا تجد فيها إلا كل القهر.

وعندما يحدث نقاش في هذه النقطة فإن بعض الناس يقول إن هذا كله تمثيل في تمثيل وأن هناك اتفاقًا بين حزب الله وإسرائيل لتمرير أجندة خبيثة. ونقاش المؤلف يكون كما في الحوار التالي:

شخص: هذا كله تمثيل في تمثيل بين حسن نصر الله وإسرائيل.

عمر: لنترك جانبا حسن نصرالله وقادة إسرائيل. ولنتساءل: هل التصرفات الإعلامية والعسكرية لحزب الله وإنجازاته في الميدان تثير القهر في العامة من الإسرائيليين؟

وفي كثير من الأحيان فإن الجواب هو نعم. فالنقطة هنا هو أن حالة القهر من حزب الله عند العامة والجنود الإسرائيليين حقيقية، وهي أكثر بكثير من الشعور بالقهر من حماس أو الجهاد في غزة.

انتبه...المؤلف لا يقلل من إنجازات حماس والجهاد، ولكن حزب الله قد سبقهم إلى الميدان وهم يتعلمون منه ويمشون معه.

* "لا يضرهم من خالفهم":

ضمن غلبة ظن المؤلف فإن هذه النقطة تنطبق وبشكل كبير على حزب الله. فمنذ نشأة حزب الله وحتى الآن فإنه تحاك ضده المؤامرات. وإذا نظرت بعمق إلى كل هذه المؤامرات فإنها لم تقم بإضعاف الحزب، بل على العكس فإن الحزب كان يزداد قوة ويزداد خصومه ضعفا.

* "ببيت المقدس وأكناف بيت المقدس":

ضمن وجهة نظر المؤلف فإن جنوب لبنان هو من أكناف بيت المقدس.

وبسبب النقاط السابقة فإن المؤلف على قناعة أن الحديث الشريف ينطبق وبشكل جيد على حزب الله في لبنان.

الفصل السادس عشر

تركيا وأردوغان

بدأت تركيا الحديثة مع سقوط دولة الخلافة العثمانية عام ١٩٢٣م وكانت نشأتها برعاية إنجلترا. ولم يكن هناك اهتمامات حقيقية من إنجلترا لإقامة نظام حكم ديكتاتوري في تركيا فبالنسبة لإنجلترا في ذلك الوقت فإن الإسلام قد مات. ولهذا السبب ولرغبة القيادات التركية بالانتماء إلى الحضارة الأوروبية فقد تحولت تركيا بعد وفاة أتاتورك عام ١٩٣٨م نحو نظام ديمقراطي علماني حقيقي.

هذه نقطة مهمة عند النظر إلى تركيا، فالنظام في تركيا غير ديكتاتوري. بمعنى أنه لا يوجد شخص أو فئة أو حزب يقوم بالسيطرة المطلقة لأمور الدولة في تركيا. وإنما يوجد مبدأ مسيطر وهو المبدأ العلماني.

وفي عام ١٩٥٠م استلم عدنان مندريس رئاسة مجلس الوزراء. وكان في غاية الذكاء والحيوية واستطاع أن يفرض احترامه على الجميع وهو الوحيد في تاريخ الانتخابات التركية الذي استطاع الفوز بثلاث فترات متتالية في الانتخابات العامة. وفي عهده بدأت بعض الملامح من الإسلام بالعودة إلى البلاد فقد قام بفتح المساجد التي أغلقها أتاتورك كما أعاد الأذان من التركية إلى العربية. وباختصار فإن نظرته للإسلام لم تكن عدائية. ولكن في عام ١٩٦٠م قام الجيش بقيادة ضباط صغار بالانقلاب على الحكومة والقبض على أعضائها وإعدام عدنان مندريس واثنين من أعضاء حكومته. والذي يغلب على تخمين المؤلف أن عملية الانقلاب لم تكن بسبب نظرته للإسلام وإنما هناك أمور أخرى غير واضحة للمؤلف.

وقام الضباط باختيار الجنرال جمال جورسيل لرئاسة الجمهورية ورئاسة مجلس الوزراء. والظاهر أن جمال لم يكن من مدبري الانقلاب والظاهر أن قادة الانقلاب قد أجبروا لاختياره خوفا من اتفاق القادة الكبار في الجيش التركي في المناطق الأخرى في تركيا عليهم.

وبعد ١٧ شهرا من الانقلاب وتحت إصرار جمال جورسيل فقد عاد الحكم المدني إلى البلاد.

وهنا يجب التوقف في نقطة:

ما هي عواقب حكم الجيش للدولة؟؟؟

أفضل تشبيه للدولة هو الكرة المملوءة بالطين. وإذا تم الإمساك بالكرة من طرف واحد فإن الذي يحدث بعد فترة هو تجمع الطين في الطرف المقابل وعندها يحدث الاستقطاب وتفقد الكرة مرونة الحركة. أما إذا تم ترك الكرة في حالها وتحركت بديناميكيتها فإن الكرة تبقى في حالة اتزان.

والمهارة في إدارة الدولة نحو الاستقرار تتطلب الانسجام في المجتمع والتوازن في القوى. وهذا ليس بقدرة الجيش تحقيقه، وإنما يتطلب الأمر نظام حكم مدني. فقيام الجيش بحكم المجتمع سيؤدي إلى عملية استقطاب في الدولة ويصبح فيها الجيش خصما وليس الطرف المحايد، وهذا سيؤدي إلى صراعات مكلفة جدا بين المجتمع والجيش.

والأمر الثاني وهو أن الدول الذكية (الديمقراطية أو الديكتاتورية) لها اهتمام واضح بضمان نظافة اليد للجيش. لأنه في اللحظة التي يدب فيها الفساد المالي للجيش فإن الدولة ستسقط في حمامات دم من الانقلابات؛ وذلك لأن كل جهة في الجيش ستنحاز للذي يدفع أكثر. وهذا بالضبط ما حدث في الإمبراطورية الرومانية.

ولهذا السبب فأنت قد تلاحظ أن هناك اهتماما واضحا من جميع الدول الذكية يتركز على إبعاد الجيش تماما عن النشاطات السياسية، وذلك لأن النشاطات السياسية في الدول الديمقراطية والديكتاتورية تتضمن الرشاوى والمساعدات المالية والمصالح الاقتصادية. وانغماس الجيش في هذه النشاطات سيؤدي عاجلا أو آجلا إلى انغماسه في الفساد المالي.

ويبدو أن الجيش التركي يفهم تماما هذه النظرة. ويقال إن جمال جورسيل بعد تقاعده وقبل الانقلاب قد كتب رسالة إلى قادة الجيش يحذرهم من الدخول والانغماس في السياسة.

وعلى النقيض من ذلك هو حكم جمال عبد الناصر في مصر. فقد كان الجيش هو الجهة المسيطرة على الحكم. وقد تحول الجيش المصري بعد ١٥ سنة من حكم عبد الناصر إلى جذع نخلة قد تسوس. وكانت ضربة واحدة من العدو الإسرائيلي كافية لتهشيم هذا الجذع. وبعد حرب الـ٦٧ قام عبد الناصر بفصل الجيش تماما عن السياسة، ولكنه لم يقم بإرجاع الحكم المدني وإنما استبدل الجيش (كجهة حاكمة) بالجهاز البوليسي (المخابرات والشرطة). وهذا قد يفسر حالة الاستقطاب الشديد الآن في مصر. [هذه السطور تمت كتابتها قبل الانتفاضة المصرية بأشهر]

لنرجع إلى حكاية تركيا:

من عام ١٩٦٠م وحتى عام ١٩٨٠م كانت الدولة في حالة من الفوضى السياسية. والسبب هو في هيكلية نظام الحكم:

هناك مميزات (وعواقب) في النظام الجمهوري (كنظام الحكم في أمريكا) عن النظام البرلماني (كنظام الحكم في بريطانيا وتركيا وعند العدو الإسرائيلي). وأحد هذه المميزات هو أن وجود السلطة التنفيذية ليس عرضة لتقلبات المزاج في مجلس الشعب (الكونجرس)، حيث إن انتخاب رئيس السلطة التنفيذية لا يتم من خلال هذا المجلس. في حين أن السلطة التنفيذية في النظام البرلماني تبقى دائما رهينة لتقلبات المزاج في البرلمان. وهذا واضح تماما عند العدو الإسرائيلي، ففي الموقف الذي لا يستطيع فيها الحزب تحقيق أغلبية كافية فإنه مضطر إلى عمل التحالفات مع الأحزاب الصغيرة الأخرى وهذا يضطره إلى عمل التنازلات والقبول بالحلول الوسط. وفي كثير من الأحيان فإن الحلول الوسط تكون مكلفة جدا. وإذا لم يكن الانسجام صفة عند المجتمع والأحزاب فإن الذي يحدث هو انهيار الحكومة وإعادة الانتخابات وتكون الدولة في دوامة من الفوضى السياسية.

وفي نهاية الستينيات كان هناك تضخم اقتصادى في البلاد كما أن الأفكار الشيوعية واليسار كانت في أوجها في تركيا (والعالم)، وبدأت المناوشات والمظاهرات والاغتيالات تظهر بين اليسار (الشيوعيين والاشتراكيين) وبين اليمين (الوطنيين) وكانت السلطة التنفيذية في البلاد في دوامة من الفوضى السياسية نتيجة لكثرة الأحزاب واختلافاتها. وهذا كله أدى إلى حالة حقيقية من الجمود والارتباك في الدولة وكان تدخل الجيش متوقعا. وقام قائد الجيش بتقديم تحذير واضح وصريح للسلطة التنفيذية أنه إذا لم تستطع الحكومة الإمساك بزمام الأمور فإن الجيش سيمسك سدة الحكم. وقام رئيس الوزراء (سليمان ديميريل) بالاستقالة بعد ثلاث ساعات من الإنذار وقام الجيش باستلام الحكم.

على أية حال فإن الجيش لم يكن يريد سيطرة مباشرة على الدولة ولهذا فإنه فرض السيطرة من خلال مجلس مدني يتم تعيين أعضائه من الجيش.

ولم يكن هذا الحل كافيًا لحل مشاكل البلاد وانزلقت تركيا إلى حرب شوارع واغتيالات بين اليمين واليسار. وهناك إشاعة أن الجيش نفسه قد قرر زيادة الوتيرة في حرب الشوارع كي يكون له العذر الكافي في حكم البلاد بشكل مباشر وبالحديد والنار. وكان هذا الذي حدث، وقام كنعان إيفيرين (قائد الجيش) بالانقلاب على الحكومة عام ١٩٨٠م. وكانت الثلاث سنوات التالية هي من أحلك السنوات في تاريخ تركيا، فالاعتقالات والتعذيب والعمليات القذرة تجاه اليسار وتجاه الأكراد كانت شرسة وغير مشرفة وغير أخلاقية .

وفي خلال هذه السنوات الثلاث قام الجيش بإعادة صياغة الدستور وفرض مجلس الأمن التركي كمرجعية في إدارة الدولة. ثم عادت إدارة الدولة إلى الحكم المدني عام ١٩٨٣م وتم انتخاب كنعان لرئاسة الجمهورية وأخذ تورجوت أوزال رئاسة الوزراء لمدة خمس سنوات كاملة. وكانت تلك فترة هادئة في التاريخ التركي.

وفي خلال هذه المرحلة من الفوضى (في الستينيات والسبعينيات) بدأت الحركات الإسلامية بالظهور والنمو. ولسخريات القدر فإن هذه الحركات قد ظهرت

وبمباركة (أو غض الطرف) من النظام نفسه. فقد كان النظام بحاجة إلى أي حليف تجاه الشيوعية وأفكارهم، وكان من المنطقي استخدام الإسلام من قبل النظام التركي (ومن قبل الكثير من الأنظمة في الشرق الأوسط) للوقوف في وجه الشيوعية.

وكان أول حزب رسمي ذي توجهات إسلامية هو حزب النظام الوطني والذي أسسه نجم الدين أربكان وغيره في عام ١٩٧٠م. وتم حل هذا الحزب من قبل السلطات عام ١٩٧١م، ولكن تم إعادته إلى الحياة السياسية باسم جديد هو حزب السلامة الوطني عام ١٩٧٢م. وقد استطاع هذا الحزب الفوز بخمسين مقعدا في الحكومة مما مكنه من الاشتراك مع حزب الأغلبية في حكومة ائتلافية. وكان أربكان أول رجل ذي توجهات إسلامية واضحة يدخل إلى مجلس الوزراء في تاريخ تركيا الحديثة.

وفي عام ١٩٨٠م قام الجيش بالانقلاب وتم حظر جميع الأحزاب وتم سجن أربكان مع غيره. ولكن أعين قادة الجيش لم تكن موجهة نحو الإسلاميين بقدر ما كانت موجهة نحو اليسار، فالإسلاميون لم يكن ينظر إليهم أنهم يشكلون خطرا على النظام ذلك الوقت.

ورجع النظام المدني إلى حكم البلاد عام ١٩٨٣م وخرج أربكان من السجن وقام وغيره بتأسيس حزب جديد وهو حزب الرفاه الوطني. وفي عام ١٩٩٦م فاز الحزب بالانتخابات ولكنه لم يفز بأغلبية المقاعد فكان عليه أن يقوم بعمل ائتلاف مع حزب الطريق القويم وتشكيل الحكومة. وبهذا يكون أربكان أول رجل ذي توجهات إسلامية واضحة يقوم بأخذ رئاسة الحكومة في تاريخ تركيا الحديثة.

ولم يستطع الجيش (والعلمانية) الصبر طويلا على أربكان وتوجهاته الإسلامية فكان أن قام بإعطاء أربكان الإنذار الصريح بضرورة خروجه من الحكومة أو سيقوم الجيش بتولي سدة الحكم. وكان أن اختار أربكان الاستقالة.

وفي عام ١٩٩٨م تم حل حزب الرفاه الوطني من قبل المحكمة الدستورية. ولكن هذا لم يوقف الحركة الإسلامية إذ قامت بإنشاء حزب آخر جديد هو حزب الفضيلة. وتم حظر هذا الحزب عام ٢٠٠١م.

وللتنبيه فإن معظم المؤسسين للأحزاب السابقة هم في الواقع الأصدقاء الذين أسسوا الحزب الأول عام ١٩٧٠م (حزب النظام الوطني). ولكن بعد حظر حزب الفضيلة ظهر انشقاق واختلاف جذري في صفوف هؤلاء إلى جماعتين. الجماعة الأولى أصرت على أخذ نفس المبادئ القديمة وهؤلاء قاموا بتأسيس حزب جديد وهو حزب السعادة. والجماعة الأخرى قررت مسايرة العلمانية وقامت بتأسيس حزب العدالة والتنمية.

وفي عام ٢٠٠٢م استطاع حزب العدالة الفوز بأغلبية المقاعد في البرلمان وكان عبد الله غول ثاني رجل ذي توجهات إسلامية واضحة يتولى رئاسة الحكومة في تركيا الحديثة. وفي عام ٢٠٠٧م تم انتخاب عبد الله غول لرئاسة الجمهورية وليكون أول رجل ذي توجهات إسلامية واضحة يقوم بأخذ هذا المنصب.

انتبه... حزب النظام الوطني لم يكن الحركة الإسلامية الوحيدة في تركيا ولكنه كان أكثرها ظهورا. والسبب أن الحزب لم يكن ذا أفكار متطرفة ضد النظام كما كان متحدا مع النظام (ذلك الوقت) في مواجهة الشيوعية.

كما أن حزب السعادة وحزب الفضيلة وحزب العدالة جميعهم كانوا متهادنين مع النظام العلماني، ولكن كانت أفكار حزب الفضيلة وحزب السعادة أقرب إلى المبدئية من أفكار حزب العدالة.

كان هذا سردا مختصرا لتاريخ تركيا الحديثة.

دعونا الآن ننظر إلى مراحل نمو الحركة الإسلامية في تركيا بعمق أكبر. هناك خمسة عوامل رئيسية ساعدت على هذا النمو: الشيوعية، وطبيعة النظام التركي، والقوى الدافعة المبدئية، وإيران، وتناقضات النظرة العلمانية في تركيا.

أما الشيوعية فقد تم تبيانها في السرد السابق، فقد احتاج النظام إلى كل حليف لمواجهة الشيوعية وأفكارها، ولم يكن يظهر من الإسلام الخطر ذلك الوقت. فكان من الطبيعي للنظام أن يستخدم الإسلام سلاحا في وجه الشيوعية. وكانت هذه نافذة كافية لكي تترعرع الحركات الإسلامية بعيدا عن بطش النظام.

أما بالنسبة لطبيعة النظام فإن أتاتورك قد حكم البلاد بالحديد والنار واستطاع أن يبطش بكل الرموز الإسلامية. ولكن اليد المشدودة لا يمكنها أن تبقى مشدودة. وعندما يزيد الشعب عن ١٠ ملايين نسمة فإنه من الصعب جدا السيطرة على توازنات القوى في المجتمع بصورة مركزية. وهناك خياران اثنان لحكم مثل هذه الدولة:

* استخدام البطش والحديد والنار. وهذا سيؤدي إلى صراعات داخلية حقيقية بين النظام والمجتمع وسينتهي الأمر إلى إفلاس حضاري واقتصادي في الدولة.

* استخدام أنظمة الانتخاب والشورى بحيث ينبني الدستور لمصلحة القوى المهيمنة في المجتمع. وهذا الأمر يتطلب أمرين هما احترام حقيقي للدستور ومداراة المشاعر والرغبات في المجتمع.

الآن... الاحترام الحقيقي للدستور معناه أن الدستور والقانون يجب تطبيقه على الجميع. وأن أي مناورات يجب أن تكون من خلال القانون وليس فوقه. وهذا الموضوع في غاية الأهمية. فأي دولة تتبنى أنظمة الانتخاب والشورى فإن عليها نشر ثقافة احترام القانون لأن هذه الثقافة هي الأساسية لتنظيم توازنات القوى في المجتمع. ولكن إذا قامت القوى المهيمنة بامتهان القانون والاستخفاف به فإن هيبة القانون ستسقط من المجتمع وهذا سيدفع القوى الأخرى كذلك إلى امتهان القانون. وهذا نهايته فوضى حقيقية في الدولة.

وهذه هي الخيارات: إما دولة بطش لا تحترم القانون وإما دولة قانون لا تستخدم البطش.

وبالطبع فإن أذكى الخيارات هو الخيار الثاني. ولكن لهذا الخيار متطلبات أهمها المداراة. وكان هذا نافذة للحركات الإسلامية ومن هذه النافذة استطاعت أن تضرب لها جذورا حقيقية في المجتمع التركي. فقد استطاعت الحركات الإسلامية من استغلال القانون في الدولة لإثبات وجودها.

وأما بالنسبة للقوة الدافعة المبدئية فإن شرحها بسيط:

القوة الدافعة المبدئية هم أفراد وجماعات تتمسك وبعناد شديد ومطلق بالمبادئ التي يحملونها، ولكنهم لا يستخدمون العنف والسلاح في فرض هذه المبادئ. والقوة الحقيقية لهذه الجماعات هى عنادهم الشديد وعدم استخدامهم للسلاح وبالتالي لا يوجد أي مبرر لإنهاء وجودهم بالبطش.

الآن...ما الذي حدث في تركيا؟

هناك الكثير من الأفراد والجماعات الذين يرغبون بشكل حقيقي في إنهاء العلمانية في البلاد. وحيث إن هؤلاء لا يستخدمون السلاح فإن النظام لا يستطيع البطش بهم دون عواقب. وبالتالي فإن الذي يحدث أن هذه القوى الدافعة تؤثر في الحركات الإسلامية المتهادنة، فتقوم الحركات المتهادنة بالتأثير على النظام، ليقوم النظام بتنازل بسيط يؤدي إلى تخفيف الضغط، وتستمر اللعبة.

إن لعبة الأقدار تستخدم تكتيكات سلامي وسلق الضفدعة مع النظام الحاكم في تركيا. وأدوات الأقدار في هذه اللعبة هي القوى الدافعة المبدئية. وهذا ما حدث، فإن أردوغان له طعم شديد المرارة في حلق العلمانية، ولكن العلمانية قد رضيت به اتقاءً لمن هو أكثر مرارة منه (القوى المبدئية).

انتبه... أنت لا تستطيع أن تضع الحركات الإسلامية في تركيا في قائمة وتضع خطا وتقول فوق هذا الخط هم الحركات المتهادنة مع النظام وتحت هذا الخط هم القوى الدافعة المبدئية. فالقوى الدافعة المبدئية متمازجة ومتشابكة مع الحركات الإسلامية الأخرى. فهناك بالتأكيد جماعات وأفراد ذوو نظرة مبدئية مطلقة، ولكن

كذلك هناك جماعات وأفراد ذوو نظرات مبدئية وأخرى متهادنة وبنسب مختلفة. فنجم الدين أربكان كانت له أفكار متهادنة مع النظام وكذلك كانت له أفكار أخرى مبدئية. وهناك أفراد مبدئيون أكثر من أربكان وهناك أفراد أقل مبدئية منه. ولهذا السبب فعندما تنظر إلى القوى الدافعة المبدئية فأنت لا تنظر فقط إلى الجماعات ذات النظرة المبدئية المطلقة، وإنما تنظر كذلك إلى القوى المبدئية المختلفة في الحركات الإسلامية جميعها.

انتبه... ليس الهدف من هذه المقالة النظر إلى الأحكام الشرعية المتعلقة بحرمة أو جواز المهادنة مع النظام العلماني. وإنما الهدف من هذه المقالة هو النظرة الموضوعية البحتة للقوى المختلفة في تركيا وتقاطعاتها. ومن النظرة الموضوعية فإنه لا يوجد أي شك عند المؤلف في فضل أعمال نجم الدين أربكان وأردوغان وعبد الله غول للإسلام والمسلمين. فأعمالهم وصبرهم وجهودهم واضحة التأثير في نمو الحركة الإسلامية وانتشارها في تركيا. وبهذه الجهود استطاعوا أن يجبروا النظام العلماني على التنازل خطوة- خطوة.

ولكن في الوقت نفسه فإنه لا يوجد كذلك أي شك عند المؤلف أن الفضل الحقيقي لجميع هذه الإنجازات يرجع في النهاية إلى القوى الدافعة المبدئية، فهذه القوى هي التي فرضت على النظام الحاكم أن يقبل بأردوغان وعبد الله غول ويرضى بالتنازلات.

وهناك عامل آخر ساعد في نمو الحركة الإسلامية وهو إيران. فمن الناحية النظرية فإنه من الممكن أن يقوم الجيش (والعلمانية) بعمليات جراحية لاقتلاع الحركات الإسلامية كما فعل الجيش الجزائري (على غلبة الظن) في الجزائر.

ولكن الذي يغلب على الظن أن الجيش التركي لن يجازف بهذا العمل وذلك لوجود إيران في جواره. ففي حالة قيام صراع دموي بين العلمانية والإسلام في تركيا فإن إيران لا تستطيع إلا أن تدلو بدلوها هناك حتى وإن كان على عكس رغبة القيادة الإيرانية.

هذه نقطة مهمة... فمهما كانت رغبات وأهداف القيادة الإيرانية فإن الإسلام وأفكار الثورة الإسلامية هي الرابط واللاصق التي تستخدمها القيادة الإيرانية في ربط الأجهزة الإدارية والشعب معا، كما أن هذه الأفكار هي القواعد التي تستند إليها القيادة في تبرير مشروعية وجودها (أي وجود القيادة نفسها). ولهذا السبب ففي أي صراع دموي في الجوار بين علمانية وإسلام فإن إيران لا تستطيع الوقوف مكتوفة الأيدي.

وحتى وإن لم يتدخل الإيرانيون في الصراع فإن قيام الجيش التركي بتصرف دموي تجاه الإسلاميين فإنه سيدفع الحركة الإسلامية بكافة تياراتها للتفكير جديا بتطبيق النموذج الإيراني (الثورة الإسلامية) في تركيا، وهذا إن حدث فهو طريق غير مضمون العواقب. ويبدو أن الجيش التركي يدرك تماما الموقف الذي هو فيه ولا يحبذ أي تصرفات دموية تجاه الحركة الإسلامية. وهذا ما قد يفسر حزم الجيش ضد مؤامرات الانقلاب على الحكومة.

أما العامل الأخير في هذه المقالة فهو تناقضات النظرة العلمانية في تركيا. فقد رضي الأتراك بالعلمانية أول الأمر لأن أتاتورك استطاع إيهام الناس أن سبب التخلف هو الإسلام. على أية حال فإن الأتراك لم يتخلوا أو ينسوا تاريخهم. فهم لا يزالون ينظرون إلى أنفسهم أنهم أبناء دولة عظمى. وينظرون بفخر إلى منجزات أجدادهم وتاريخ حضارتهم. والأتراك في أوج علمانيتهم لم يرضوا أبدا أن تقوم السعودية بردم أو تعديل أو تطوير الأبنية العثمانية في الحرم المكي أو الحرم المدني.

ولهذا السبب فإن هناك فرضية لدى المؤلف وهي أن الجيش التركي لن يرضى أبدا بقيام دولة الخلافة الإسلامية. ولكن ... إذا كان لا بد للخلافة أن تعود فلن يرضى الجيش التركي إلا أن تعود إلى تركيا.

هذه نقطة مشاعرية حساسة للأتراك. فالأتراك لا يرضون أن تقوم الخلافة في إيران. وهذا ليس خوفا على العلمانية وإنما لأن الخلافة (في نظرهم) هي حق لهم.

وهم قاموا بإلغائها، ولكن إذا كان يجب لها أن تعود فعليها أن تعود إليهم. وهذا تناقض ولكن العلمانية نفسها في تركيا متناقضة.

وهذا قد يفسر ليونة الجيش مع الحركة الإسلامية. فالأتراك (علمانيون وغير علمانيين) لا يرضون أن تقوم جارة لهم (فارس) بالامتداد إلى مناطق نفوذهم السابقة وكذلك لن يرضوا تماما أن تقوم جارة لهم (فارس) بتمثيل مصالح المسلمين بعد أن كان العثمانيون هم الممثلون للمصالح الإسلامية.

ولهذا السبب (وعلى غلبة الظن) فإن هناك تنافسا إيجابيا وغير شرس وغير دموي بين إيران وتركيا فيما يتعلق بتمثيل مصالح المسلمين.

وكل هذه العوامل السابقة قد ساعدت على نمو الحركة الإسلامية في تركيا. وكذلك فقد قامت بالتأثير على نظرة الأتراك نحو العالم. ويبدو أن إحدى النظرات التي تأثرت هو موضوع الانضمام إلى الاتحاد الأوروبي:

والظاهر أن حماس الأتراك للانضمام إلى الاتحاد الأوروبي قد انخفض. والذي يبدو أن تركيا بدأت تتصرف في أمور كثيرة بعزة نفس عالية، ويبدو أنها أدركت أنها إذا انضمت إلى الاتحاد الأوروبي فإنهم سيكونون العضو المنبوذ فيه.

بالإضافة إلى ذلك فهناك انتباه واضح من قبل تركيا تجاه آسيا. وإذا كان هناك أية فرصة لقيام تحالف للقوى الأساسية في آسيا فإن المصلحة الاستراتيجية لتركيا هي في هذا الحلف وليس في الاتحاد الأوروبي، فعلى الأقل فإن تركيا ستكون هناك عضوا أساسيا وليس العضو المنبوذ.

وفي الوقت الحاضر فإن تركيا تضع قدما في المحيط الآسيوي وقدما أخرى في المحيط الأوروبي وتنتظر بهدوء إلى تطور المتغيرات. ولكن سيأتي الوقت الذي سيتم تحديد الوجهة لتركيا. وأغلب الظن أن أوروبا هي من سيقوم بهذا، وذلك برفضها ضم تركيا للاتحاد. وسيكون حال تركيا وقتها هو "جاءت منكم وليست

منا". بمعنى آخر فإنه من المتوقع تماما قيام الاتحاد الأوروبي برفض ضم تركيا وهذا عذر كافٍ لتركيا للمشاركة وبقوة لإقامة حلف آخر في آسيا.

وهناك نقطة أخرى جديرة بالانتباه وهي أن الحركة الإسلامية استطاعت (على غلبة تخمين المؤلف) من تحييد الجيش. فالجيش ما زال علماني النظرة ولكنه لا ينظر بعداء نحو الإسلاميين. ولهذا فالعقبة الآن أمام الإسلاميين هو الجهاز القضائي في البلاد. ويبدو أن الحركة الإسلامية الآن تقوم باستغلال مشروع الانضمام إلى الاتحاد الأوروبي لتمرير إصلاحات دستورية وقضائية في سبيل تحييد الجهاز القضائي في البلاد.

الفصل السابع عشر

البطش... أسباب وعواقب

البطش هو فصل واضح في جميع الصراعات البشرية منذ الأزل وحتى الآن. وهو كذلك واضح في الإسلام .

فقد قال الله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ ﴾ [الأنفال].

وكان هذا عتابًا قرآنيًا للرسول لتركه الأولى في التصرف فيما يتعلق بأسرى بدر. وعندما جاءت مأساة أحد فقد قال الله تعالى : ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ ﴾ [آل عمران]. وتفسير الآية هو أن المسلمين ملومون في هذه المأساة ولأكثر من سبب أحدها هو تركهم الأولى في التصرف في غزوة بدر.

وكذلك من شواهد البطش عند المسلمين الأوائل ما قام به خالد بن الوليد في معركة "أليس" عندما جمع الأسرى وقتلهم في النهر للوفاء بنذره.

وموضوع البطش بحاجة إلى تفصيل لأنه شديد الحساسية من الناحية الاستراتيجية. فاستعمال البطش خارج الحدود سيؤدي إلى سلبيات استراتيجية في الدولة.

إن أول رجل قام بتحليل موضوع البطش وبأسلوب استراتيجي هو ميكيافللي في كتابه "الأمير". وقد قام بتصنيف البطش إلى نوعين: نوع سريع وحاسم، ونوع آخر بطيء ومستمر. والنموذج التالي هو تطوير لنموذج ميكيافيللي.

هدف البطش ومنذ العصور الأولى هو فرض الهيبة وبث الخوف في صفوف الخصوم. ويمكن تصنيف البطش إلى الأنواع التالية:

١- بطش ألفا: وهو البطش السريع والحاسم. وهذا البطش يبدأ مع بداية المعركة وينتهي مع نهاية المعركة. وهذا هو بطش خالد بن الوليد وهو كذلك بطش الجمهورية الرومانية القديمة. وهذا هو بطش الفرسان إذ لا يوجد فيه تعذيب أو إهانة إنما هو مصادرة أو قتل. فخالد بن الوليد قام بجمع الأسرى وقتلهم في معركة أليس وقام محمد الفاتح عند دخوله القسطنطينية بمصادرة كنيسة أياصوفيا. ولكن في كلتا القصتين لم يكن هناك تعذيب أو إهانة أو قتل للأطفال أو النساء أو المدنيين.

٢- بطش بيتا: وهو البطش البطيء والمستمر. وهو بطش أمريكا في العراق وأفغانستان وفيتنام. وهو إعطاء الحرية للجنود كي يفعلوا ما يريدون دون قيود واضحة وضمن مدة غير محددة. فبطش أمريكا في فيتنام كان بطش قتل وتعذيب وإهانة. وبطش أمريكا في العراق كان بطش قتل وتعذيب وإهانة واستمر مدة طويلة حتى اضطر إلى تجميده بسبب الضغط العالمي. وللمقارنة فقد قام الصليبيون الكاثوليك باحتلال القسطنطينية (التي تدين بالمذهب الأرثوذكسي ذلك الوقت) وقام الصليبيون وقتها باستباحة المدينة ولم ينج منهم حتى الراهبات في كنيسة أياصوفيا. وهذا البطش يختلف تماما عن بطش محمد الفاتح وقت فتحه للقسطنطينية.

٣- بطش جاما: وهو بطش الانتقام. وهو قيام الطرف المستضعف بعد أن جاءت له الكرة على عدوه بالانتقام من عدوه وبنفس البطش الذي استخدمه العدو ضده. وهذا النوع من البطش هو طبيعي في جميع الثقافات البشرية بما فيها الإسلام. فقد قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [النحل]، وقال تعالى: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [البقرة]. وكذلك قال الله تعالى: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [الانفال].

وكذلك فقد قام المسلمون في حروب الردة بحرق من حرق وصلب من صلب وقطع من قطع.

وكذلك عندما قامت ألمانيا في الحرب العالمية الثانية بقصف المدن الإنجليزية دون أي رحمة للمدنيين ثم جاءت الكرة للإنجليز فإن الإنجليز قاموا بنسف المدن الألمانية بالطائرات والقنابل ولم يرحموا هم كذلك المدنيين.

وهذا يفرض تساؤلاً: ما هو الفرق بين بطش بيتا وبطش جاما؟

الفرق هو في المدة (الزمن). فبطش بيتا هو عادة يقوم به الجيش دون قواعد ودون انضباط وضمن مدة طويلة. أما بطش جاما فهو سريع التنفيذ وقصير المدة.

٤- بطش دلتا: وهو بطش القانون. وهو وجود قوانين حازمة وحاسمة ذات طبيعة استثنائية تستخدمها الدولة ضد التمرد. والفرق بين بطش دلتا وبطش بيتا هو أن التعذيب والإهانة هو جزء أساسي في بطش بيتا في حين أن التعذيب غير موجود في بطش دلتا.

دعونا نقوم بتفصيل هذا الأمر:

عندما تقوم دولة باحتلال دولة أخرى وتكون هناك حرب العصابات فإن بطش دلتا يتطلب انضباطًا حقيقيًا من الجنود. والذي يحدث هنا هو أن من يتم القبض عليه فإنه يكون للقضاء سلطات واسعة للحزم والحسم تجاهه. وهذا معناه أنه لا توجد هناك حفلات تعذيب أو إهانة للسجناء، وإنما عقوبات قضائية واضحة وحازمة. وهذا بخلاف بطش بيتا الذي يتضمن قيام الجيش بالخروج من مبادئ الفروسية وإرهاب السجناء بالتعذيب والإهانة.

وقام الإنجليز باستخدام بطش بيتا لدحر تمرد الماوماو في كينيا ودحر تمرد الملايان (Malayan) في جنوب آسيا. ولكنهم استخدموا بطش دلتا في تعاملهم مع

ثورة الجيش الجمهوري في شمال إيرلندا، وذلك لأنه لم يكن للإنجليز القدرة على استخدام بطش بيتا في أحد أطراف أوروبا في وقت العولمة وسرعة انتقال الأخبار.

الآن... إن أسهل أنواع البطش هو بطش بيتا (البطش المستمر) ولكنه يحوي الكثير من العواقب غير مضمونة النتائج. وإذا تعرض شعب ذو قوة وحيوية لبطش بيتا فإن هذا سيؤدي إلى تجميع قوى الشعب المختلفة للتمرد.

ومن الضروري التذكير أن تصرفات الإنسان في بعض الأحيان لا تتفق مع التحليل المنطقي. وأفضل مثال لذلك هم سكان المناطق المحاذية للجبهة. ففي أول الحرب يكون الناس في خوف وهلع من صوت الطلقات والقنابل. ولكن بعد فترة فإن الجهاز العصبي يبدأ بالتأقلم مع هذا الظرف والتعود عليه.

وهذا كذلك ما يحدث لشعب حي يتعرض لبطش بيتا. ففي الوهلة الأولى يكون في غاية الهلع والخوف ثم شيئا فشيئا يبدأ بالتأقلم مع هذا الواقع ويبدأ بتجميع القوى لمواجهته. وهذا ما شهدته أمريكا ولكنها لم تتعلمه حتى الآن، فهذا ما حدث معها في فيتنام والعراق وأفغانستان. وهذا ما خبرته اليهود في فلسطين.

وفي اللحظة التي يبدأ فيها الشعب بالتمرد فإن جيش الاحتلال قد دخل إلى دوامة مكلفة من الاستنزاف والإسراف. وفي اللحظة التي يقتنع فيها جيش الاحتلال بضرورة عمل الصفقات مع الشعب فإن آلام وإهانات الماضي تكون حجر عثرة في وجه هذه الصفقات.

وقد كان خروج أمريكا من فيتنام مهينا، وكان حقد فيتنام على أمريكا شديدا. ولو كان للفيتناميين القدرة على عبور البحر للحقوا بأمريكا لتصفية الحسابات معها.

وهذا بالضبط ما يجعل بطش بيتا غير مضمون العواقب وهذا ما حذر منه ميكيافللي في كتابه.

وكذلك هناك عواقب حقيقية لاستخدام بطش بيتا من النظام ضد المجتمع. وبالنظر إلى جميع الأنظمة التي تستخدم بطش بيتا ضد شعوبها فإنه من الممكن ملاحظة وجود علاقة واضحة بين بطش بيتا ومستوى الأداء الإداري عند النظام.

وتفسير هذه العلاقة بسيط: فإن بطش بيتا في المجتمع سيؤدي إلى قيام طبقة تتميز بالرياء والنفاق للنظام في حين أن باقي القوى في المجتمع ستكون على حذر وخوف من التعبير عن الرأي أو الانتقاد. وهذا التشكيل في المجتمع سيؤدي وبشكل طبيعي إلى اختيار الموظفين في الأجهزة الإدارية للأكثر رياءً ونفاقا للوضع القائم في المجتمع. وعلى مدى جيلين (٢٠ سنة) فإن النظام يبدأ بالتسوس من الداخل بسبب عدم وجود كفاءات حقيقية في أجهزته الإدارية سوى مهارة المدح والتغني بالنظام. وهذا معناه أن النظام سيكون عالة على الخارج ومغضوبا عليه من الداخل.

وفي اللحظة التي يبدأ فيها النظام بالترنح من سوء الإدارة فإن الطريقة الوحيدة له للامساك بزمام الأمور هو مزيد من بطش بيتا. وهذا ما سيجعل الأمور تتسارع سوءا باتجاه انهيار النظام. وهذا ما حدث في روسيا الشيوعية ورومانيا الشيوعية وهذا ما يحدث الآن في مصر. [هذه السطور تمت كتابتها قبل الانتفاضة المصرية بأشهر].

أما بطش جاما فهو من طبيعة البشر. فقيام عدو بالتعذيب والإهانة والقتل العشوائي لشعب ثم جاءت لعبة الأقدار برجحان كفة هذا الشعب فإنه لمن المتوقع قيام الشعب بتصفية الحسابات. وإذا حكمت الأقدار مثلا بتفوق فيتنام على أمريكا فإنه من الطبيعي التخمين أن تفعل فيتنام في أمريكا ما فعلته أمريكا في فيتنام.

وهذا الموضوع له نقطة فرعية وهي المأساة التي سببها صلاح الدين الأيوبي للمسلمين. وقبل الشرح يجب التنبيه أن لصلاح الدين الأيوبي فضلاً حقيقيًا على المسلمين في موضوع تحرير القدس، ولكن هذا لا يعني أبدا عدم الانتباه لأخطائه خصوصا عندما تكون هذه الأخطاء خطيرة ومهلكة. وهناك ثلاث خطيئات استراتيجية خطيرة قام بها صلاح الدين الأيوبي:

١. عندما احتل الصليبيون القدس فإنهم لم يتركوا فيها رجلا أو شيخا أو امرأة أو ولدا أو بنتا أو طفلا إلا وذبحوه. وعندما استرجع صلاح الدين القدس فإنه قام وبكل كرم بمسامحة الصليبيين، بل إنه قد قام بمساعدة من لا يملك المال الكافي للخروج من القدس.

ما هي الرسالة التي قدمها صلاح الدين الأيوبي للعالم الغربي؟.

الرسالة كانت في غاية الوضوح. فأنت تستطيع أن تحتل أراضي المسلمين وتقوم بتعذيبهم وقتل رجالهم ونسائهم واللعب بجماجم أطفالهم. وعندما تأتي الكرة للمسلمين فما عليك إلا التباكي والاعتذار وإنزال الدموع وعندها سيقوم المسلمون بمسامحتك وبطيب خاطر لما في الإسلام من محبة وسماحة وكرم.

وهذه بالضبط الرسالة التي قدمها صلاح الدين الأيوبي للعالم الغربي. وللتذكير فإن صلاح الدين عندما استرجع القدس كانت عكا معه. وبعدها قام الصليبيون باحتلال عكا وقتل من فيها من المسلمين.

وقد فهم الإنجليز هذه الرسالة تماما. وكان أحد أكثر مهاراتهم هو فن المجاملة (Charming Effects) وكان مفعول هذه المهارة مع العرب والمسلمين كمفعول السحر. فقد قامت إنجلترا وبمجهود سفير دبلوماسي واحد بإقناع إمبراطور الدولة الإسلامية في الهند بإعطائها موقع قدم في القارة الهندية عام ١٦١٥م. ثم قامت إنجلترا باستغلال تسامح وكرم المسلمين والتغلغل إلى قلب العائلات والقبائل الهندية وشق صفوفهم. واستطاعت إنجلترا السيطرة على الهند تماما عام ١٧٥٧م بعد معركة بلاسي (Battle of Plassey). وكذلك فقد استطاع الإنجليز استغلال واستثمار "سماحة المسلمين وكرمهم" في التغلغل في المجتمعات العربية وشق صفوف الناس في الأردن وفلسطين والجزيرة ومصر.

٢. الخطأ الثاني لصلاح الدين هو علاقة الود والاحترام بينه وبين ريتشارد قلب الأسد. وريتشارد هو من احتل عكا وقتل المسلمين فيها. فقيام صلاح الدين بالتودد مع ريتشارد وتبادل الهدايا هو في نظر المؤلف يعد خطيئة وليس خطأ.

وتصرف صلاح الدين هنا يقدم نفس الرسالة السابقة ويرسخها، وهي أنك تستطيع أن تفعل ما تشاء بالمسلمين، وإن جاءت لهم الكرة فأنت تستطيع أن تستعطفهم وسيسامحوك.

وهذا يتناقض تماما مع ما فعله الرومان مع هانيبال . فبعد معركة "كان" أراد هانيبال أن يرى إمكانية التفاهم مع روما. فأرسل الهدايا وأرسل بعض كبار الأسرى إليهم. ولكن روما رفضت أخذ الهدايا، ورفضت فتح الأبواب للأسرى وأرجعتهم (الأسرى) إلى هانيبال، وكأن حالهم يقول: "بالطول بالعرض، بالطويل والقصير بدنا نكسر راسك". هذه "الجكارة" كانت رسالة إلى هانيبال، كما كانت في الوقت نفسه رسالة إلى العالم. وهي رسالة صمود وتحدٍّ. وهي رسالة تتناقض تماما مع رسالة صلاح الدين إلى العالم.

٣. أما الخطأ الثالث فهو قيام صلاح الدين الأيوبي بتمزيق دولته بعد وفاته وإعطاء كل جزء منها لأحد أولاده. وكان هذا خطيئة استراتيجية حقيقية إذ إنه منذ وفاة صلاح الدين وحتى استلام المماليك سدة الحكم فإن الدولة الأيوبية كانت في حالة حرب أهلية مستمرة.

وضمن وجهة نظر المؤلف فإن رسالة صلاح الدين الأيوبي للعالم الغربي هي أحد الأسباب الرئيسية لمآسي المسلمين اليوم.

وهناك كذلك مسألة فرعية أخرى متعلقة ببطش ألفا وبطش جاما:

لنفترض جدلا أن أحد الأسرى في معركة أليس قد قام وتشهد وأعلن إسلامه. ماذا سيكون موقف خالد بن الوليد منه؟؟

الذي يغلب على الظن أن خالدا لن يستطيع قتله. فهناك حدود واضحة لبطش ألفا.

لنفترض الآن أن دولة الخلافة تعرضت إلى هجمة شرسة من دولة العدو. وقام هذا العدو بالقتل والتعذيب والإهانة . ثم بعدها استطاعت دولة الخلافة أن تحيط بهم

وأن تمسكهم وقررت إعدامهم. وعندها قام أحدهم بالتشهد وإعلان إسلامه. فماذا سيكون موقف دولة الخلافة منه؟

الغالب على الظن أن إسلامه أو عدم إسلامه لن ينجيه من العقاب لأن الموضوع لا يتعلق بالحرب وإنما يتعلق بردة الفعل تجاه الجريمة. والجريمة إن قام بها المسلم أو غير المسلم فإن عقابها واحد.

الفصل الثامن عشر

القوى الدافعة المبدئية

القوى الدافعة المبدئية هي الأداة التي تستخدمها الأقدار في تغيير المجتمعات. وموضوع القوى الدافعة المبدئية هى أحد الأمثلة على تأثير تكتيكات سلامي وسلق الضفدعة.

والقوى الدافعة المبدئية تتمثل بالأفراد والجماعات الذين ينادون وبعناد شديد ومطلق للمبادئ التي يحملونها، ولكنهم لا يستخدمون السلاح أو العنف لتطبيق هذه المبادئ. ونجاح أو فشل هذه القوى يعتمد تماما على قابلية المجتمع للاستماع إليهم.

وهناك أمثلة كثيرة للجماعات الدافعة المبدئية منهم حزب التحرير الإسلامي، والحزب الشيوعي (قبل استلامه السلطة في روسيا)، وشهود يهوه النصراني والحركة الجمهورية (قبل الثورة الفرنسية) وحزب الخضر، وغيرهم الكثير.

وقوة هذه الجماعات يعتمد تماما على أمرين وهما العناد الشديد وعدم استخدامهم للسلاح.

وأما عدم استخدام السلاح فهذا يعني أنه لا يوجد عند النظام أي مبرر أخلاقي للقيام بإنهاء وجود هذه الجماعات بالبطش. وأما العناد فهذا معناه أن النظام غير قادر على خداعهم.

هذه النقطة الأخيرة بحاجة إلى النظر بعمق أكبر.

انتبه للحوار التالي:

الأول: ما هو أضعف مكان عند الإنسان؟

الثاني: أضعف مكان هو الظهر ومنه يتمكن العدو من الإنسان.

الأول: هناك مكان هو أضعف من الظهر.

الثاني: ما هو؟؟

الأول: الأذن. فإذا كان الشخص قليل الخبرة وكان عدوه ذا حلاوة في اللسان فإن العدو قادر على خداع هذا الشخص عن طريق أذنه. وإن استطاع العدو خداع القيادة فإن هذا هو في الواقع خداع للجماعة كلها.

وهذا صحيح تماما. وإذا كانت الجماعة ذات نظرة متهادنة وكان العدو ذا ذكاء مرتفع فإن العدو قادر (وباستخدام تكتيكات سلامي) على أخذ التنازلات البسيطة الواحدة تلو الأخرى، ولتكتشف الجماعة متأخرا أنها قد انحرفت عن وجهتها ١٨٠ درجة. وهذا ما حدث مع طارق الهاشمي وجماعته المسماة بالحزب الإسلامي. وعلى تخمين المؤلف فإن طارق ربما كان ذا نية طيبة ولكن العدو تمكن من خداعه ليصبح طارق الهاشمي (ضمن وجهة نظر المؤلف) من بين أكثر الناس إجراما في حق الإسلام والمسلمين.

والطريقة الوحيدة التي تستطيع بها الجماعة الصمود في وجه النظام هى العناد الشديد والمطلق للمبدأ. وحتى وإن كان هناك عملاء للنظام في داخل هذه الجماعة فإن عناد الجماعة الشديد للمبادئ سيمنع هؤلاء العملاء من تغيير وجهة الجماعة.

انتبه... في كثير من الأحيان فإن نقاط القوة في اتجاه هي نفسها نقاط الضعف في اتجاه آخر. وفي كثير من الأحيان فإن المميزات في جهة يكون لها كذلك العواقب في جهة أخرى. وهذا تراه وبوضوح في موضوع العناد الشديد. فالعناد الشديد ضروري للتمكن من الثبات أمام ذكاء ومهارة النظام. ولكن شدة العناد ستؤدي إلى ضعف شديد في المرونة وهذا سيؤدي إلى قيام الآخرين باتهام الجماعة بالفشل. ولكن بالنسبة إلى القوى الدافعة المبدئية فإن الصمود هو أهم بكثير من المرونة.

وأحد أفضل الأمثلة على فعالية القوى الدافعة المبدئية هو نمو الاتجاه الإسلامي في تركيا ومن الممكن تلخيص هذا النمو بالنموذج التالي:

عندما سقطت دولة الخلافة الإسلامية وقامت العلمانية واندثرت رموز الإسلام بقوة السيف والقانون فإن الأفكار الإسلامية قد خبت. ولكن اليد المشدودة لا يمكن أن تبقى مشدودة وإلا فإنها ستسبب إرباكا للأجهزة الإدارية واستنزافا للموارد. ومن هنا تبدأ الأقدار في لعبتها وتكون البداية قيام أفراد وجماعات محلية وجماعات عامة بالدعوة وبعناد إلى المبدأ. وهذا المبدأ له قابلية حقيقية في المجتمع التركي.

وهنا تظهر المعضلة لرجالات الحكم في تركيا: كيف يواجهون هذه الدعوة؟

وأفضل حل لاحتواء القوة الدافعة المبدئية هي اللعبة الإنجليزية مع المعارضة. وهذه اللعبة بسيطة:

سؤال: كيف تستطيع أن ترد على شخص يصيح في السوق بفكرة لا تقبلها؟

الجواب: أن ترسل إلى السوق أشخاصا آخرين يصيحون بصوت أعلى وبفكرة قريبة ولكنها مقبولة لك. فإن كان الشخص يصيح بالخلافة فإن هؤلاء يصيحون بالوحدة بين المسلمين. وإن كان الشخص يصيح بالمبدأ فإن هؤلاء يصيحون بالعبادات.. إلخ.

وهذا الذي كان. فقد فتح النظام في تركيا بعض الفجوات وعندها قام المتعطشون للإسلام بالاندفاع لهذه الفجوات وتفريغ طاقتهم فيها. وهذا أدى إلى انفضاض الناس وابتعادهم عن القوى الدافعة المبدئية.

ولكن هذا يستمر لفترة وجيزة فقط، إذ إن ديناميكية الإسلام ليست كديناميكية المبادئ الأخرى. والعبادات والشعائر الإسلامية ليست فارغة، كما أن القرآن لا يحتوي فقط على الوعظ والإرشاد وإنما فيه التعاليم والأحكام.

وبفضل ديناميكية الإسلام وعناد ومثابرة القوى الدافعة المبدئية فإن الناس ستبدأ في الشعور بأن هناك شيئا ناقصا وهنا تبدأ المطالبة بالمزيد. وهنا ترجع المعضلة مرة أخرى إلى رجالات النظام وسيقومون بتنازل بسيط آخر. وهكذا تستمر اللعبة في عالم الأقدار.

وللاختصار فإن أطراف اللعبة هي القوى الدافعة المبدئية والحركات الإسلامية المتهادنة والنظام العلماني. وهناك شرط واحد كي تنجح الأقدار في هذه اللعبة وهو العناد الشديد للقوى الدافعة المبدئية. وتكون اللعبة كما يلي:

١- تقوم القوى الدافعة المبدئية بتنبيه وتذكير وحض وانتقاد وتوبيخ ووخز أعضاء الحركات الإسلامية المتهادنة على سكوتهم عن المبادئ الواضحة والصريحة.

٢- بعد فترة من الزمن ونتيجة لصحة المبادئ يقوم أعضاء الحركات الإسلامية بالضغط على قياداتهم.

٣- قيادات الحركات الإسلامية يبدءون بالضغط على النظام.

٤- النظام يبدأ بالموازنة بين الحسم أو التنازل. والحسم سيؤدي إلى الكبت وحشد المجتمع مع القوى الدافعة ولهذا وفي كثير من الأحيان فإن النظام يقوم بعمل تنازل بسيط.

٥- تفرح الحركات الإسلامية بهذا التنازل البسيط وتنفض عن القوى الدافعة المبدئية.

٦- وتعود اللعبة إلى الخطوة رقم واحد.

وكل ما سبق يبدو رائعا وجميلا وسهل المنال، ولكن الأمور هي أكثر تعقيدا مما سبق شرحه. فهناك نقطة ضعف حقيقية عند الجماعات الدافعة المبدئية وهي أن المهارات الإدارية عند القوى الدافعة ستنهار وسوف يغلب عليها الجمود بعد حوالي عشرين سنة (عقدين) من انتشارها. والسبب هو مهارة النظام في لعبة الانتخاب غير المباشر:

قبل الدخول في هذا الموضوع فإننا بحاجة لدراسة فلسفية للمهارات المختلفة عند الجماعة. ومن الممكن تصنيف المهارات إلى التالي: المهارات الاجتماعية والمهارات الإدارية ومهارات الزعامة والمهارات السياسية والمهارات الاستراتيجية.

١. المهارات الاجتماعية هي القدرة على التعامل مع الناس باختلاف شخصياتهم والقدرة على عمل الصداقات والمحافظة عليها.

٢. المهارات الإدارية هي مهارات الترتيب والتنظيم والتنسيق.

٣. مهارات الزعامة هي الخطابة وحضور الجواب ومهارة التعامل مع الإعلام والجرأة على تصدر الصفوف ومهارات اجتماعية عالية. باختصار فإن مهارات الزعامة هي مهارات زعيم الشلة وهي الصوت العالي والجواب الحاضر والحضور المستمر.

انتبه...هناك فرق بين مهارات الزعامة ومهارات القيادة. فمهارات القيادة هي مهارات إدارية عالية بالإضافة إلى القدرة على فرض الثقة والهيبة والقدرة على إعطاء التعليمات وتوزيع المهمات والإشراف عليها. وإذا كانت الجماعة ذات تفكير طفولي (مثل شلة أصدقاء) فإن الرئيس فيها هو الشخص الذي يمتلك المستوى الأعلى من مهارات الزعامة. ولكن كلما ازداد وعي الجماعة كلما انتقلت الرئاسة إلى الشخص الذي يمتلك مستوى أعلى من مهارات القيادة. وإذا نظرت إلى القادة الكبار في التاريخ فستجد الكثير منهم من لم يكن مشهورا بقوة الخطابات أو بقوة فرضه للشخصية وإنما كان على درجة عالية من مهارات القيادة مثل خالد بن الوليد وطارق بن زياد وصلاح الدين الأيوبي.

ولتسهيل عملية التحليل في هذه المقالة فقد فضّل المؤلف أن يعتبر مهارات القيادة نوعا متقدما من المهارات الإدارية.

٤. أما المهارات السياسية فهذا موضوع يحتاج إلى وقفة:

هناك لغط حقيقي في مصطلح "سياسة". والكثير من الناس من يظن أن سياسة جاءت من كلمة ساس ويسوس ولكن الصحيح أن كلمة سياسة قد تم اختيارها كترجمة لمصطلح Politics، ثم استخدمت كلمة سياسة للتعبير كذلك عن مصطلح Policy. وهذان المصطلحان يختلفان تماما في المعنى:

ويوجد في الأدبيات الإدارية العبارة التالية: The Policies in the Organisation، والترجمة الحقيقية لهذه العبارة هي "سياسات المؤسسة". ويوجد كذلك عبارة أخرى وهي: The Politics in the Organisation، ولا يوجد ترجمة (على غلبة العلم عند المؤلف) لهذه العبارة. وإنما أقرب ترجمة لهذه العبارة هي: الشللية (من شلة وهي الجماعة أو العصابة) في المؤسسة.

والذي يغلب على علم المؤلف أن تعريف مصطلح Politics هو: حالات التجاذب والتنافر والتشابك بين الجماعات والأقسام في المؤسسة (أو الدولة).

وأما تعريف Policy فهو: الخطوط العريضة المتعلقة بتنفيذ الأعمال.

وأما تعريف Politician فهو: شخص قيادي في الأحزاب العاملة في الدولة. ولهذا السبب فإن وزير الخارجية في أمريكا هو رجل إداري وليس سياسيا. أما في إنجلترا فوزير الخارجية هناك هو رجل إداري لرئاسته للوزارة، وهو كذلك رجل سياسي لعضويته في الحزب الحاكم.

وأما المهارة السياسية فهي بمعناها الأكاديمي القدرة على تشكيل وإدارة التحالفات والشلليات، وبمعناها السوقي فهي القدرة على عمل المؤامرات.

والعمل السياسي هو بالضبط كالسكين، فالسكين في يد الجراح نعمة لكنه في يد اللص نقمة. وكذلك العمل السياسي فهو أداة خير للصالح وأداة شر للخبيث.

كمثال لذلك لنفترض أن رئيس دولة الخلافة قد أصابه بعض الخرف. فماذا تتوقع أن يحدث؟؟

الذي سيحدث هو أن أحد الوزراء سينتبه للأمر وسيقوم بمحادثة أحد زملائه ويتفقوا على مراقبة الوضع. وعندما تظهر الدلائل الأقوى فربما يقوم الوزير بعمل اجتماع سري يضم بعض الأطباء والقضاة للتباحث في كيفية التصرف في هذا الأمر.

الآن... ما قام به هذا الوزير هو عمل سياسي. فالوزير وجد مشكلة لها حساسية كبيرة فكان لا بد من عمل "شلة" تقوم بالمداولة في أفضل الطرق للتصرف لعلاج هذه المشكلة.

وهذه الأعمال السياسية موجودة في كل المؤسسات والأقسام، وهذه الأعمال هي المسئولة عن تخفيف حدة المشاكل التي تحدث في المؤسسات كما أنها هي المسئولة عن إدارة المؤسسة بأكبر قدر ممكن من الانسجام خصوصا عندما تكون قيادات المؤسسة على درجة عالية من الحماقة. والشر في العمل السياسي يحدث عندما يقترن العمل السياسي بالكذب والنفاق وعندما يكون الهدف من العمل السياسي هو تحقيق مصالح فردية آنية أنانية.

وأما النظرة للعمل السياسي في إنجلترا وأمريكا فلها حكاية:

كانت نظرة الناس إيجابية للسياسة والسياسيين في أواسط القرن العشرين، ولكن بعد سيطرة الرأسمالية الجشعة على مراكز القوى في المجتمع فإن السياسيين قد انغمسوا في الفساد. كما أن السياسيين واقعون بين نارين، فقد تم انتخابهم من الشعب لتمثيله ولكنهم في الوقت نفسه لا يستطيعون مصارعة الرأسمالية. ولهذا السبب أصبحت لغة الرجل السياسي في إنجلترا وأمريكا فضفاضة ومنمقة وذات رياء وحشو. وهذا ما جعل نظرة الناس إلى السياسة والسياسيين الآن أنها "شر لا بد منه".

٥. المهارات الاستراتيجية وهي المهارات المتعلقة بتحليل الماضي والحاضر لاستنتاج المستقبل. وتتطلب هذه المهارات الإدراك العميق للتاريخ، والديناميكية المتعلقة بالمجتمعات والأمم، ومهارة المقارنة بين السيناريوهات المختلفة للمستقبل. كما تتطلب القدرة على الصبر في التفكير، والقدرة على التفكير بخطوات متعددة وبعيدة المدى. والنقطة الأخيرة هي الأصعب في المهارات الاستراتيجية لأن التفكير بخطوات بعيدة المدى هو تمرين مثير للضجر والتوتر.

وبالطبع هناك الكثير من المهارات الإنسانية الأخرى ولكن ما سبق هو الكافي لهذه المقالة.

ومن النادر أن يحوز الشخص على جميع المهارات السابقة وإنما الشائع أن يكون للشخص مهارتان عاليتان من المهارات السابقة. ولهذا كانت الحكمة في عمل فريق قيادي في المؤسسات بحيث تكون جميع المهارات السابقة متوفرة في هذا الفريق. وهذا هو السبب في التذكير المستمر بضرورة رفع الذكاء الجماعي في المؤسسات وفي الدولة وفي الأمة إذ بغير هذا الذكاء فإن الفريق لن يكون قادرا على الإنجاز .

والمهارات الاجتماعية والسياسية ومهارات الزعامة هي مهارات غريزية (أي يمكن أن يولد بها الإنسان) ويمكن كذلك شحذها وتعليمها للآخرين. وأما المهارات الاستراتيجية والإدارية فمن النادر أن تأتي بالغريزة ويتطلب التمكن من هذه المهارات الكثير من الخبرة والدراسة.

والمهارات الخمسة السابقة يمكن ملاحظتها في كثير من الشخصيات ويمكن بدراسة علم الشخصيات، تحديد درجتها لأي شخص.

وهنا تكون لعبة الانتخاب غير المباشر. وهي لعبة أتقنتها إنجلترا خلال تاريخها الطويل من العمل البرلماني والتعامل مع القوى المعارضة. واللعبة تكون بالنظر إلى جميع القيادات الحالية والقيادات المحتملة للحزب المعارض وتصنيف مهاراتهم.

وبالنسبة للنظام فإن المصلحة تكون بمنع وصول الأشخاص ذوي المهارات العالية في الإدارة والاستراتيجية، لأن أولئك الأشخاص قادرون على جمع المهارات المطلوبة في فريق إداري متجانس.

وتكون لعبة النظام هى تحديد أولئك الأشخاص ثم العمل على إشغالهم، إما بالرزق أو بالضيق أو بالملاحقة أو بالفضائح أو بالإشاعات .

وهذا الذي يحدث للجماعات الدافعة المبدئية خلال عشرين سنة من الصراع مع نظام ذكي. وستجد أن البعض من الناس كان الطريق له مفتوحًا لتولي القيادة في الجماعة، وأن البعض الآخر كان طريقهم شاقًا ومغلقًا.

وهذه هي اللعبة: فالنظام غير قادر على اختراق الجماعة الدافعة ولا هو قادر على خداعها بسبب العناد الشديد للجماعة، ولكنه قادر على مدى العشرين سنة، على الأقل، على التأثير على المهارات الإدارية عند الجماعة بأسلوب الانتخاب غير المباشر.

دعونا نتعمق أكثر في هذه اللعبة ودعونا ننظر من خلال النظام كيف يمكن أن نكيد لجماعة نريد لها أن تتشقق خلال العشرين سنة الأولى؟؟

الجواب بسيط. تقوم خلال العشرين سنة وبأسلوب الخطوة- خطوة بإشغال الأشخاص ذوي المهارات الإدارية والاستراتيجية وتقوم بتسهيل حياة الأشخاص ذوي مهارات الزعامة والمهارات السياسية. وبعد أن تتشبع قيادات الجماعة بمهارات الزعامة والسياسة فقط فإن الانشقاق سيكون حتميًا.

سؤال آخر: كيف تستطيع تحويل جماعة إلى نادٍ فكري خلال عشرين سنة؟؟

الجواب كذلك بسيط. تقوم بإشغال القيادات ذوي المهارات الاستراتيجية والسياسية وتسهيل حياة الأشخاص ذوي المهارات الإدارية.

وتستطيع أن تستنتج الكثير من هذه التكتيكات من متابعة حزب العمال في إنجلترا. وإذا انتبهت إلى القيادات العمالية السابقة فستجد أن مهاراتهم الاستراتيجية كانت ساذجة. وأفضل مثال على ذلك هو رون هيوورد (Ron Hayward) السكرتير العام لحزب العمال إذ تم تبليغه عام ١٩٧٤م بأن مكاتب الحزب مُتَصَنَّت عليها (أي أن هناك من زرع أجهزة تصنت فيها) فكان جوابه (بتصرف ومعنى): هراء. هذا لا يحدث في بريطانيا (Nonsense. We don't have Watergate politics in Britain.).

وأما القيادات الذين قاموا بتحريف فلسفات حزب العمال وتغيير اتجاهه (مثل توني بلير) فستجد أن مهاراتهم الاستراتيجية كانت مرتفعة جدا.

إن هذا الأمر يدفعنا للقيام بمحاولة تحليل شخصية جورج جالاوي. فجورج رجل في غاية الذكاء وله حضور وله قدرة الجواب السريع وله مهارة متفوقة في الخطابة كما أنه ذو أخلاق عالية. ولكن (ضمن وجهة نظر المؤلف) فإن مهاراته الاستراتيجية ليست عالية. وهذا النوع من الشخصيات هي من يبحث عنها النظام الحاكم في إنجلترا. فجورج جالاوي قد يقوم بإزعاج الحكومة والنظام بتصرفاته وتعليقاته ولكن خدماته للنظام (ودون أن يدري) جوهرية: فهو قائد ذكي وحيوي وذو مصداقية للمعارضة. ولهذا فإن الكثير من الناس لن يفكر بتشكيل المعارضة وإنما يقوم بالانضمام إلى تحالف جورج جالاوي. ولكن حيث إن المهارات الاستراتيجية لهذا التحالف ليست مرتفعة فإن هذا التحالف لن يسبب خطرا مباشرا على النظام. وهذه هى أولى فلسفات الحكم عند الإنجليز وهى تفريغ طاقات ونشاطات المعارضة في اتجاهات غير خطرة. وهذا هو فن احتواء المعارضة.

والخدمة الثانية التي يقدمها جورج جالاوي للنظام هي أنه دائما يمثل الوجه الحسن في النظام ودائما يقوم بالإثبات أن هناك "ديموقراطية حية وحرية رأي" في إنجلترا. ولهذا السبب فإن تعليقات المعارضة في إنجلترا إنما هي وخزات تقوم بتلميع وجه النظام الحاكم في بريطانيا للعالم.

والخدمة الثالثة هى أن جورج جالاوي ليس معارضا للنظام وإنما هو معارضٌ للحكومة. ولكن علاقة جورج جالاوي بالأجهزة الإدارية في الدولة ليست سيئة. وهذا ما يجعل جورج جالاوي (ودون أن يدري) رجل رسائل ووسيلة اتصال غير مباشرة بين النظام والأنظمة الأخرى. وهذا ما يحدث الآن بين إنجلترا وحماس وهذا ما حدث بين إنجلترا والعراق بعد الحرب العراقية عام ١٩٩٠.

وهذه نقطة جديرة للبحث: إن القوة الحقيقية لإنجلترا هي دبلوماسيتها وقدرتها على خداع وترويض الآذان (جمع أُذن) وقدرتها على تجميع وتشقيق الأحلاف.

وإحدى فلسفات النظام المتعلقة بالدبلوماسية هي محاولة مسك العصا من المتصف. ولهذا السبب فإنه إذا حدثت قطيعة بين النظام والأنظمة الأخرى فإن النظام يحاول دائما فتح قنوات اتصال غير مباشرة مع هذه الأنظمة بحيث تتمكن الدبلوماسية من النفاذ إلى الداخل. وهذا ما يفعله جورج جالاوي في حماس فهو (ودون أن يدري) رجل الدبلوماسية الإنجليزية غير المباشرة في غزة.

وهناك شخصية أخرى جديرة بالدراسة وهي شخصية محمد حسنين هيكل، فقدرة هذا الرجل للنفوذ إلى الدوائر الحاكمة ليس لها مثيل. ولكن تحليل هذه القدرة بسيط:

فهيكل رجل في غاية الذكاء وله مهارة عالية في الحديث وذو قلم محترف ومتمكن من أساليب السهل الممتنع. كما أنه دمث الأخلاق وذو سلوكيات أرستقراطية مرتفعة، وقد سمعت أنه لا يقبل الهدايا من الأنظمة وحكامها. كما أن هيكل هو بنك حقيقي من المعلومات، كما أنه رجل يحترم الأسرار فهو لا ينشر الأسرار إلا عندما تصبح بلا قيمة سياسية. ولكن (وحسب وجهة نظر المؤلف) فإن مهاراته السياسية (أي القدرة على تشكيل التحالفات وإدارة الشلليات) ضعيفة، كما أن مهاراته الاستراتيجية (أي استنتاج الباطن من الظاهر واستنتاج المستقبل من الماضي) ليست عالية.

وهذه التشكيلة من الشخصية هي ما تبحث عنه الأنظمة. وعندما يكون هناك لقاء بين هيكل وأحد حكام الأنظمة ولعدة ساعات فإن هذا اللقاء لا يكون أسئلة صحفية وأجوبة وإنما دردشة. وفي هذه الدردشة فإن الحاكم يقوم بالاستفادة من بنك المعلومات عند هيكل. والحاكم مهما كان متغطرسا إلا أنه بحاجة ماسة من وقت لآخر لمراجعة الأمور والتفكير بصوت مرتفع، ولكي تنجح هذه العملية فلا بد من شخصية ذكية ذات معلومات وفيرة ولكن دون أن تكون لها قابلية الغوص إلى باطن الأمور. وكذلك فإن الحاكم يستغل بنك المعلومات عند هيكل للاستعلام عن أخبار العالم (وبشكل غير مباشر وعن طريق الدردشة والحوار). بالإضافة إلى ذلك فإن الحاكم يقوم (عن طريق هيكل) بتسجيل نظراته وفلسفاته إلى التاريخ. وكذلك يستطيع

الحاكم أن يستخدم هيكل في نقل رسائل غير مباشرة إلى الحكام الآخرين. وفي المقابل فإن هيكل يستفيد من هذه الدردشات بمعلومات أخرى لمقالاته.

دعونا نرجع إلى موضوع القوى الدافعة المبدئية:

كما تم الحديث عنه فإن نقطة الضعف عند القوى الدافعة أنها بعد عشرين سنة من الصراع مع الأنظمة فإن الغالب والطبيعي أن تضمحل المهارات الإدارية فيها.

ولكن هذا الأمر لا يسبب الكثير من الضيق للعبة الأقدار. وإذا نظرت وبعمق إلى لعبة الأقدار فإنها لا تهدف بالضرورة إلى قيام القوى الدافعة بقيادة الأمة. وإنما النجاح في هذه اللعبة يتطلب جهة تقوم بالوخز المستمر لتذكير الأمة بالمبدأ ولدفع الأمة نحو هذا المبدأ. وأما قيادة الأمة فإن ديناميكية الأمة ستفرز لها القيادات وقت الحاجة.

ولهذا السبب فإن المهارات الإدارية للقوى الدافعة مفيدة ولكنها ليست ضرورية وإنما الضروري هو العناد الشديد والمطلق للمبدأ.

وبالنسبة للعبة الأقدار فإنه ما دامت القوى الدافعة والقوى المنشقة عنها متمسكة بالعناد الشديد فإن اللعبة ما زالت على الخط وباتجاه الهدف.

وعلى أية حال فإن الانهيار الإداري (ضمن وجهة نظر المؤلف) هو أمر لا يمكن الهروب منه. فقوة النظام حقيقية في عمليات الانتخاب غير المباشر، وإنما يمكن التخفيف من حدة هذا الانهيار وذلك بنشر فلسفات الذكاء الجماعي (طول البال وسعة الصدر وحسن الاستماع وبرودة الأعصاب والجدية..إلخ). كما يمكن تخفيف الانهيار بالانتشار عبر الأنظمة، أي أن تكون الجماعة منتشرة في أكثر من دولة واحدة.

وهناك نقطة أخرى وهي نقطة قوة للجماعة من جهة ونقطة ضعف لها من جهة أخرى وهذه النقطة هي القاعدة الفكرية للجماعة:

هناك فرق بين الأهداف والقاعدة الفكرية. وهناك أكثر من جماعة تدعو إلى دولة الخلافة الإسلامية ولكن كل جماعة لها قاعدتها الفكرية المختلفة.

دعونا نضع بعض التعريفات:

هناك ثلاث دوائر متتالية تحكم الجماعات (كل الجماعات):

الدائرة الخاصة في المركز. وهذه الدائرة تجمع الأفكار والفلسفات التي تأخذها الجماعة مأخذ التصديق الكامل. وهذه الفلسفات قد تكون مكتوبة وواضحة وقد تكون عرفية. مثال ذلك الأحزاب الرأسمالية في أمريكا فهي عندها أفكار عرفية على ضرورة سيطرة أمريكا على العالم الحر. وهذه الأفكار ليس لها علاقة بالمبدأ الرأسمالي. كما أن السبب الحقيقي وراء انشقاق الحزب الشيوعي إلى روسي وصيني هو الاختلاف الحقيقي بين الثقافة الروسية والثقافة الصينية.

الدائرة التي تليها هي القاعدة الفكرية (الفلسفية) وهي الفلسفات والاجتهادات التي تبنتها الجماعة والتي تحدد نظرة الجماعة إلى الواقع وتحدد أساليب وأهداف الجماعة.

الدائرة الثالثة هي المجال الفكري، وهي الآراء والفلسفات والاجتهادات التي تغلب على ظن أفراد الجماعة دون أن تتبناها الجماعة رسميا.

هذه الدوائر موجودة عند جميع الجماعات الإسلامية وغير الإسلامية وتحدد هذه الدوائر ديناميكية الجماعة ونموها.

دعونا ندرس مميزات وعواقب القاعدة الفكرية عند الجماعات ولتكن الدراسة عملية مقارنة بين الحزب الشيوعي وحركة اللا- رأسمالية:

كلما تقوم منظمة التجارة العالمية (WTO) باجتماع عام فإنه تقوم هناك المظاهرات ضد الرأسمالية وهؤلاء تم تسميتهم في الصحافة بـ اللا- رأسماليين (Anti-Capitalism).

هؤلاء الناس هم أشخاص متفقون أن "الرأسمالية شر"، وعندهم الرغبة الحقيقية في إظهار رأيهم للعالم. ولكن لا يوجد حزب أو جماعة تقودهم وإنما هم

أفراد يتواصلون بالإيميلات (emails) والتكسات (Text Messages) والفيسبوك (FaceBook).

وهؤلاء هم قوة دافعة ولكنها فردية الجهود. ولأنها فردية فإن تأثيرها يبقى ضعيفا. ولهذا السبب فأنت لا تجد لهؤلاء الناس أي تأثير في الحياة السياسية والاجتماعية سوى بعض المظاهرات هنا وهناك والتي تثبت وجودهم.

وأما الحزب الشيوعي فالأمر مختلف. فالشيوعية انبثقت عن فكرة وحلم قديم لأوربا منذ أيام الجمهورية الرومانية. ومعناها الرسمي هو توزيع الثروة إلى العامة ومن هنا مصطلح "شيوعية" (Communisms from the word Common). وأما الحلم الأساسي القديم فهو إلغاء امتيازات النبلاء. فقد كان النبلاء (ومن ثم الرأسماليين) يمتلكون المعظم الأكبر من العقارات والأملاك والأراضي في حين أن العامة (وهم الغالبية) لا يملكون إلا النزر اليسير. وكان هذا أحد الأمور المهيجة للتوتر في أوروبا ومنذ الجمهورية الرومانية القديمة.

فالهدف الذي يدعو إليه الحزب الشيوعي انبثق من تلك الفكرة. ولكن القاعدة الفكرية للحزب (أي ما تتبناه الجماعة من فلسفات عن الكون والحياة والإنسان) كان الفكر الماركسي.

ما الذي قدمته القاعدة الفكرية للهدف؟ ما الذي حدث؟

الذي حدث هو أن الفكر الماركسي تحول إلى صمغ شديد استطاع أن يربط الحزب معا ويحوله إلى كتلة صلبة. وهذا هو الفرق بين حركة اللا- رأسمالية الآن وبين الحزب الشيوعي سابقا. فالحزب كان كتلة صلبة متينة قادرة على تحمل الصدمات وتجاوز العقبات في حين أن الحركة اللا- رأسمالية هي تجمع هش وذو مزاج متقلب وغير صلب.

وهذه هي النقطة هنا. فكي تكون الجماعة صلبة ومتينة وقادرة على تحمل الصدمات فهي بحاجة إلى قاعدة فكرية واضحة بحيث تقوم هذه القاعدة بعمل الصمغ الذي يربط أفراد هذه الجماعة بعضهم ببعض.

بالطبع هناك أصباغ أخرى غير الصمغ الفلسفي (الفكري). فالصمغ في الجمعيات الثقافية هو المصلحة العامة والرغبة في الجَمْعَة والرغبة في قضاء الوقت في عمل مفيد والرغبة في عمل الخير. وهذا الصمغ قوي ولكنه ليس بقوة الصمغ الفلسفي. ومن مراجعة التاريخ فإن أقوى الأصباغ (حسب وجهة نظر المؤلف) هو الصمغ الفلسفي.

وهذه هي نقطة القوة في القاعدة الفكرية (الفلسفية) وهي أنها تقوم بربط الحزب برباط شديد المتانة. ونقطة القوة هذه هي نفسها نقطة الضعف في الجماعة. فكلما ازدادت صلابة الجماعة كلما ازداد النفور بين الجماعة والمجتمع.

فالقاعدة الفكرية هي تبنيات الجماعة وليس بالضرورة أن يقتنع جميع أفراد المجتمع بهذه التبنيات. فهناك كثير من الناس في أوروبا اقتنعوا بالفكرة الشيوعية ولكنهم رفضوا الاقتناع بالفكر الماركسي. وكلما ازدادت الصلابة في الحزب الشيوعي كلما ازداد النفور بينه وبين المجتمع نتيجة لهذه الصلابة.

وهذا هو أحد الأمثلة في التناقضات في عالم الديناميكية، فنقاط القوة في اتجاه هي نفسها نقاط الضعف في الاتجاه الآخر.

وهذا هو الفخ التي تقع فيه القوى الدافعة المبدئية. وهو عدم التفريق بين الهدف وبين القاعدة الفكرية وعدم التفريق بين الدعوة والدعاية. فالدعوة تكون دائما للهدف والدعاية تكون للجماعة. والفرق شاسع بين الدعوة والدعاية.

وبالطبع فإن الدعاية ضرورية للجماعة. فالجماعة بحاجة (على الأقل) لأن تقوم بتعويض الأعضاء الذين خرجوا منها أو ماتوا عنها. وكذلك فإن الجماعة بحاجة إلى استراتيجية نمو وهذا بدوره يحتاج إلى الدعاية. ولكن الفخ يحدث عندما تصبح الدعاية للجماعة أهم بكثير من الدعوة إلى الهدف.

وإذا نظرت بعمق إلى التاريخ وانتبهت إلى لعبة الأقدار فإن الأقدار غير مهتمة أبدا أن تكون القوى الدافعة محبوبة أو غير محبوبة من المجتمع. وبالنسبة للأقدار فإن

المهم هو وجود جماعة مبدئية تقوم بتذكير المجتمع بالمبدأ ووخز المجتمع لتقاعسه عن هذا المبدأ. ولهذا فوجود قاعدة فكرية غير مستساغة من المجتمع لن يؤثر على لعبة الأقدار لأن الذي سيحدث هو أن من يقتنعون بالمبدأ ولكنهم لم يقتنعوا بالقاعدة الفكرية فإنهم سيؤسسون جماعة أخرى بنفس المبدأ ولكن بقاعدة فكرية مختلفة. وهنا لعبة الأقدار: نفس الهدف ونفس المبدأ ولكن قواعد فكرية مختلفة. وأفضل مثال على ذلك هو الحزب الشيوعي فقد استطاع إفراز عدد كبير من الحركات الاشتراكية المختلفة في أوروبا.

وهذه هي النقطة هنا: الدعوة إلى الهدف يجب أن يكون أهم من الدعاية إلى الجماعة وأهم من الدعاية إلى القاعدة الفكرية.

وهناك قصة منسوبة إلى أحمد الداعور، أحد قيادات حزب التحرير الإسلامي وهي كما في الحوار التالي (بتصرف ومعنى):

شخص: الإخوان المسلمون يتهمونكم بآراء واجتهادات مخالفة تماما للإسلام.

أحمد الداعور: طيب...هل الدعوة إلى دولة الخلافة حق وفرض؟

الشخص: نعم. الدعوة إلى دولة الخلافة حق وفرض.

أحمد الداعور: خلاص...اطلب من الإخوان أن يلتزموا بهذا الحق وخليهم يسبُّونا للصبح (بمعنى: دعهم ينتقدوننا كما يريدون ولكن على الأقل أن يلتزموا بالدعوة إلى الخلافة).

وهذا هو بالضبط الفرق بين الدعوة والدعاية.

ومن الضروري الانتباه أن التوجه من الدعوة إلى الدعاية في الجماعة (أي جماعة) هو أمر غريزي تفرضه ديناميكيات الجماعة. بمعنى أنه من الطبيعي، إذا لم يكن هناك وعي وانتباه، أن تتعدل استراتيجيات الجماعة من استراتيجيات الدعوة

إلى استراتيجيات الدعاية وذلك خلال العشرين سنة الأولى من حياتها. وهذا هو الخطأ الذي وقع فيه الحزب الشيوعي كما أنه الخطأ الذي يقع فيه الآن الحزب الوطني الأسكتلندي. وهذا الحزب قد نشأ على ضرورة استقلال أسكتلندا عن إنجلترا وإعلان الجمهورية الأسكتلندية ولكن (وعلى غلبة تخمين المؤلف) فإن الإنجليز قد استطاعوا أن يوجهوا طاقات الحزب من الدعوة إلى الدعاية، وهذا أدى إلى تشتيت القوى والطاقات في الحزب نحو نشاطات وصراعات أخرى.

وهنا يأتي سؤال: ما الذي يحدث حقيقة عندما تصبح الدعاية أهم من الدعوة؟

تستطيع بالملاحظة استنتاج الجواب:

١. تصبح لدى الجماعة (وبشكل غريزي) الرغبة والاتجاه للدفاع عن نفسها وأفكارها. وهذا معناه أن تتشتت طاقات الجماعة في التصدي للشتائم والاتهامات التي يكيلها الخصوم نحوهم. وهذا يؤدي إلى حساسية الجماعة للانتقاد. وهذه الحساسية تكون السبب في توجه الجماعة نحو التصلب المطلق.

٢. الحساسية من الانتقاد والشتائم سيدفع الجماعة للحذر في التعبير عن آرائها خوفا من الانتقادات والشتائم الأخرى. فالدعاية حقيقة تتطلب المراعاة لشعور الزبائن. والزبائن للجماعة السياسية هم أفراد المجتمع.

وإذا انتبهت للجماعات الدافعة المبدئية في العالم والتي زاد عمرها عن عشرين سنة ستجد وبوضوح التحول في استراتيجياتها من الدعوة إلى الدعاية.

وهناك قصة أخرى لأحمد الداعور في موضوع استراتيجيات الدعوة. فقد انتشر في فترة الستينيات أن حزب التحرير هو أداة أمريكية في المنطقة وأن أحمد الداعور يأخذ الأموال والمساعدات من السفارة الأمريكية. ولم يقم حزب التحرير أو أحمد الداعور بإصدار أي نفي رسمي لهذه الاتهامات ولم يقوموا بأي جهد للدفاع عن أنفسهم وإنما تركوا هذه الاتهامات والشائعات تموت لوحدها. وكان التعليق

الوحيد في هذا الموضوع هو الحوار التالي بين أحمد الداعور والصحفيين في إحدى فترات الاستراحة في البرلمان الأردني (بتصرف ومعنى):

صحفيون: أنتم متهمون بأنكم تأخذون الأموال من السفارة الأمريكية. ما ردكم؟

أحمد الداعور: هل أخذ الأموال من السفارة الأمريكية جريمة أم هو عمل شريف؟

الصحفيون: هي جريمة وأكبر جريمة.

أحمد الداعور: تمام. اطلبوا من الحكومة إنها تلمنا بتهمة الخيانة بدل ما تلمنا بنص الليالي بتهمة التطرف الإسلامي.

وهذا هو الفرق بين استراتيجيات الدعوة واستراتيجيات الدعاية. وسيكولوجية القيادة وسلوكياتها تختلف باختلاف الاستراتيجيات المتبناة.

وهنا يتبادر سؤال مهم. هل نجح الحزب الشيوعي في وسط أوروبا (ألمانيا وفرنسا)؟

من الوهلة الأولى يمكننا القول إن الحزب الشيوعي فشل في وسط أوروبا لأنه لم يستطع أن يستلم السلطة فيها. ولكن هذا القول يصح اذا كانت النظرة متعلقة بالفكر الماركسي. ولكن إذا كانت النظرة متعلقة بالهدف (وهو المساواة والعدالة بين الطبقات) فإن الحزب الشيوعي استطاع أن يخطو بأوروبا خطوات واسعة ومتقدمة نحو هذا الهدف. وإذا قارنت بين حقوق الطبقة العامة في وسط أوروبا في بداية القرن العشرين وبين حقوق الطبقة العامة الآن ستجد الفرق شاسعًا جدا. وعندما تنتبه لأسباب هذا التقدم في الحقوق فستجد أنه بسبب الصراع بين الرأسمالية والشيوعية. وبالتالي فإن الحزب الشيوعي قد فشل في الماركسية ولكنه (حسب وجهة نظر المؤلف) قد نجح في التقدم وبخطوات واسعة نحو الهدف الأساسي وهو المساواة والعدالة بين الطبقات.

وهناك سؤال آخر: هل نجح نجم الدين أربكان في مساعيه؟

قد يقوم البعض بالجواب أنه قد فشل لأنه، ولفترة قريبة، كان تحت الإقامة الجبرية في تركيا. ولكن يستطيع نجم الدين أربكان أن يجلس على الأريكة مرتاح البال فما تحقق الآن للحركة الإسلامية هو من صنع يديه. بالطبع لم يتحقق كل ما يريده ولكن الأهرامات لم يتم بناؤها في يوم وليلة، والحركة الإسلامية قد قفزت خطوات واسعة، بجهوده وجهود غيره، باتجاه الهدف الأسمى. والفرق شاسع تماما بين ما كان يسمعه السلطان عبد الحميد على فراش الموت وما تسمعه الآن في شوارع تركيا.

لتلخيص ما سبق نقول إن الجماعات الدافعة المبدئية بحاجة إلى العناد الشديد إلى الدرجة التي قد يصفها البعض بالحماقة. وكذلك يجب عليها أن تبتعد عن السلاح والعنف لتحقيق أهدافها وذلك لمنع أي عذر للنظام لإنهاء وجود هذه الجماعة. وكذلك يجب أن يكون هناك الدرجة الأدنى من الفلسفات والأفكار الكافية لربط الجماعة وتحويلها إلى كتلة صلبة قادرة على الصمود.

وبالطبع فإن الأنظمة الحاكمة لن تقف مكتوفة الأيدي ولكنها، وحسب ظروفها، ستعمد إلى الكثير من التكتيكات المضادة. وإن أكثر الأنظمة دهاءً ومكراً في هذا المجال هم الإنجليز وذلك لممارستهم هذه التكتيكات ولمدة ٣٠٠ سنة من العمل السياسي. ومن المفيد ملاحظة وتصنيف تكتيكاتهم:

❖ تكتيكات الانتخاب غير المباشر

وهذه تم شرحها.

توجيه نشاطات الجماعة من الدعوة إلى الدعاية:

ومع أن هذا التوجه هو غريزي عند الجماعة إلا أن النظام قادر على شحذه وتقويته. والتكتيكات في هذه اللعبة تكون بتعريض الجماعة للصحافة بحيث يكون اللقاء موجها نحو موقف الجماعة من الاتهامات الموضوعة عليهم.

❖ تكتيكات سلامي وسلق الضفدعة

وهو محاولة النظام تحريف اتجاه الجماعة وذلك بالدعوة إلى بعض التنازلات "السخيفة" من الجماعة. وقد تم شرح هذه التكتيكات سابقا.

❖ نشر الشائعات والاتهامات والشتائم

وهذا هو أحد التكتيكات المشتركة لجميع الأنظمة ضد الجماعات المبدئية. وهذه الاتهامات متعددة الأوجه فقد تكون موجهة نحو الجماعة نفسها أو موجهة نحو الشخصيات القيادية فيها. كما أنها متعددة المجال فقد تكون سياسية (كالاتهام بالعمالة) أو جنائية (كالاتهام بالاختلاس والسرقة) أو أخلاقية (كالاتهام بالجبن والفجور).

من المناسب هنا ذكر قصة ما زالت تثير الكثير من اللغط في إنجلترا وإيرلندا وهي قصة المذكرات السوداء:

كان روجر كيسمينت (Roger Casement-١٨٦٤-١٩١٦م) أحد الرجال الإيرلنديين المشهورين بالعمل الإنساني في أفريقيا وكان له احترام عال في إنجلترا والعالم. ولكن مع اندلاع الحرب العالمية الأولى فإن روجر بدأ العمل على استقلال إيرلندا عن الإنجليز وبدأ مع الآخرين بالاتصال مع الألمان لهذا الغرض ولكنه تم القبض عليه وحكم عليه بالإعدام. واعترض الكثير من الشخصيات في إنجلترا على إعدامه فقامت الحكومة بتسريب مذكرات منسوبة لروجر. وكانت هذه المذكرات (والتي تم تسميتها لاحقا بالمذكرات السوداء - Black Diaries) تكشف أن روجر كان غارقا في الهوموسيكشوال (Homosexual) ومع ولع خاص بالأولاد. وكانت هذه المذكرات كافية لسكوت المعترضين وتم إعدام روجر في ٣-٨-١٩١٦م.

وعلى أية حال فقد ظهرت اتهامات حقيقية بأن المخابرات الإنجليزية قد قامت بتزوير هذه المذكرات. وقامت الحكومة الإنجليزية في البداية بإنكار وجود

هذه المذكرات ولكن نسخة من هذه المذكرات قد ظهرت إلى العلن عام ١٩٥٩م. وكانت إحدى الدلائل والتي زادت من قوة الاتهامات بعملية التزوير هو المقارنة بين المذكرات الأصلية لروجر (والتي تم تسميتها لاحقا بالمذكرات البيضاء) والمذكرات السوداء: ففي عام ١٩١٠ وفي رحلة روجر إلى الأمازون فقد كانت عنده حالة التهاب في العينين أثرت على نظره ذلك الوقت، وكان بالكاد قادرا على الكتابة وكانت أحرفه كبيرة وغير واضحة. وأما المذكرات السوداء وفي نفس هذه الفترة فكانت الأحرف فيها صغيرة وواضحة ومنمقة ولا يوجد فيها أي مشكلة.

وفي عام ٢٠٠٢م قامت أول عملية تحقيق في هذه المذكرات بتمويل من الـ BBC والتلفزيون الإيرلندي الحكومي. وقام بهذا التحقيق أحد الخبراء من الشرطة الإنجليزية. وكانت نتيجة التحقيق هو أن هذه المذكرات هي دون شك لروجر. ولكن هناك الكثير من الانتقادات والاعتراضات على طريقة عمل هذا التحقيق، كما أن التحقيق لم يتعرض أبدا لتفسير الاعتراضات في الكتابة بين المذكرات البيضاء والسوداء عندما كان روجر مصابًا بالالتهابات في عينه.

وضمن غلبة ظن المؤلف فإن هذه المذكرات مزورة لأن أدلة المقارنة بين المذكرات البيضاء والسوداء فترة مرض روجر واضحة. والمنطقي أن تتجه التحقيقات أول الأمر إلى هذه النقطة وليس إلى غيرها.

وبالطبع فإن الاتهامات المنسوبة إلى روجر كانت قاسية لحركات الاستقلال في إيرلندا وهذا هو أحد الأمثلة على الاتهامات التي قد يتم نشرها ضد الجماعات الدافعة المبدئية.

وبالطبع فإن هذه ليست أول مرة تقوم فيها عمليات تزوير بالتأثير على الحياة السياسية في إنجلترا. ففي عام ١٨٨٢م قامت جريدة التايمز (The Times) بنشر وثيقة تتهم النائب الإيرلندي بارنيل (Charles Parnell) بأنه كان مؤيدا لجريمة وقعت في إيرلندا. وقام بارنيل بطلب رسمي للجنة تحقيق وبعد ١٢٨ جلسة قررت اللجنة أن الوثيقة مزورة.

وفي عام ١٩٢٤م قامت صحيفة التايمز والديلي-ميل (Daily Mail) بنشر وثيقة (Zinoviev Letter) تتهم الشيوعيين بمحاولات زعزعة البلاد. وجاء توقيت النشر قبل أربعة أيام من الانتخابات العامة وكانت هذه الوثيقة أحد الأسباب لخسارة حزب العمال لهذه الانتخابات. وقد ثبت بعد الانتخابات أن هذه الوثيقة كانت مزورة وظهرت قرائن قوية تدل على أن أحد رجال المخابرات الإنجليزية (Sidney Reilly) كان وراء تزوير هذه الوثيقة.

وفي عام ٢٠٠٣م قامت الديلي- تليغراف (Daily Telegraph) بنشر مقالة تتحدث عن وثائق ادعى أحد مراسليها أنه وجدها في خرائب مبني وزارة الخارجية العراقية في بغداد بعد الحرب. وهذه الوثائق تتهم جورج جالاوي بالكسب غير المشروع من برنامج الأمم المتحدة المتعلق بالغذاء مقابل النفط للعراق. وفي عام ٢٠٠٤ حكمت المحكمة على أن هذه المقالة كانت تشويها للسمعة وحكمت على الجريدة بدفع بدل أضرار ولكن لم تنتهِ القضية إلا في عام ٢٠٠٦م.

والهدف من هذه القصص السابقة هو التدليل على أن الاتهامات عند الأنظمة الذكية هي فن ومهارة وليست عمليات اعتباطية. والسؤال المهم هنا هو ماذا تفعل الجماعة ضد هذه الاتهامات؟

من المهم جدا الانتباه إلى أن أكثر الأمور استنزافا للطاقة والجهد والمال هي القيام بالتصدي لكل الاتهامات والشتائم. وإنه لمن السذاجة للجماعات المبدئية أن تتوقع أن تتصارع مع النظام دون أن تتعرض للكدمات والخدوش والجراح. وقد يكون من الضروري الدفاع عن الجماعة ولكن يجب أن يكون هذا الدفاع ضمن استراتيجية وميزانية واضحة، وأما خارج هذه الاستراتيجية فمن الأفضل ترك هذه الاتهامات والشائعات تموت لوحدها. فالصراع مع النظام ليس صراع أيام وإنما صراع سنوات وسنوات. وهنا نعود مرة أخرى لقصة أحمد الداعور والشائعات التي كانت تتهمه أنه يأخذ الأموال من السفارة الأمريكية. وهذه الشائعات ما زال يتحدث بها البعض إلى الآن في قلقيلية. ولكن تصرف أحمد الداعور كان حكيما

وهو ترك الشائعات تموت لوحدها. إذ سيكون استنزافا حقيقيا للطاقة والجهد التصدي لكل شتيمة أو اتهام.

دعونا نرى ماذا يحدث في العادة في إنجلترا:

لنفترض أن الحزب الجمهوري قد تأسس في إنجلترا وليكن أجندة هذا الحزب هو إنهاء الملكية وإقامة الجمهورية في البلاد. ما الذي يمكن أن يحدث؟؟؟

من المتوقع هو قيام الاتهامات والشائعات المتعلقة بالشخصيات القيادية وهذه الاتهامات هي إما اتهامات سياسية أو مالية أو أخلاقية .

ولنفترض جدلا أن إحدى الجرائد قد قامت بنشر وثائق تتهم أحد هذه الشخصيات القيادية (وليكن اسمه جون) أنه قام باختلاس بعض الأموال قبل عشر سنوات من الشركة التي كان يعمل فيها.

ما هو المتوقع أن يفعله جون الآن؟؟؟

المتوقع هو قيام جون برفع قضية على هذه الجريدة. وهنا يكمن الفخ وهنا يجب التفكير بحذر وجدية. وهذا الفخ هو الذي لم ينتبه إليه محمد الفايد إلا متأخرا. فليس من الحكمة أبدا لأي شخص الشكوى للنظام من رجالات هذا النظام، فإن هذا شبيه بالشكوى لإبليس من الشيطان. والذي سيحدث هو أن جون سيمضي وقته وجهده وماله من قضية إلى أخرى. وللمحكمة القدرة على تمييع القضية وقد يخرج منها (وبعد جهد) منتصرا أو قد يخرج منها لا غالب ولا مغلوب. وعلى أية نهاية فهو قد استنزف طاقته مع النظام في أمور ليست جوهرية. وإذا كان للقضية أن يتم رفعها فالأولى رفعها في محكمة خارجية فعلى الأقل قد يكون فيها حياد أكبر. وهذا هو الخطأ الذي وقع فيه محمد الفايد في دعوته للتحقيق في مقتل عماد وديانا. وقد دفع الفايد الكثير من المال والجهد والطاقة في سبيل هذه التحقيقات وقام الإنجليز بمداراته وأخذوا يستنزفون طاقته من جلسة إلى أخرى حتى صاح في النهاية: لقد تعبت وأفوض أمري إلى الله. وكان الأولى أن يدفع هذه الأموال والجهود في المحاكم

الفرنسية، فعلى الأقل فإن الفرنسيين أكثر شفافية وأقل مكرا من الإنجليز ولو فعل فربما أنجز بعض النجاح هناك.

وهذه هي النقطة هنا وهي أن التصدي للاتهامات والشائعات هو أكثر المجالات هدرا للطاقة والجهد بالنسبة للجماعات الدافعة المبدئية ويجب أن يكون لهذه الجماعة استراتيجيات واضحة في كيفية معالجتها لهذه الاتهامات.

على أية حال فإنه إذا كانت الدعوة عند الجماعة أهم من الدعاية فإن هذه الاتهامات والشائعات لن تؤثر كثيرا على قوة الجماعة. وذلك لأن استراتيجيات الدعوة لا تتعلق بقيادة الجماعة للمجتمع وإنما تتعلق بتذكير المجتمع بالمبدأ وتوبيخه لتقاعسه عن هذا المبدأ. وإن كان هناك نفور من المجتمع للجماعة فإن الناس الذين يقتنعون بهذا المبدأ سيقومون بإنشاء جماعات أخرى وبقيادات مختلفة لكن بنفس المبدأ. وهذا ما يجعل المجتمع يخطو خطوات أسرع باتجاه هذا المبدأ.

وهناك أمر آخر: وهو أن صراع الجماعات مع النظام هو صراع سنوات وليس أيام. وإذا استطاعت الجماعة أن تبني المصداقية فإن الناس، وبعد سنوات من هذه المصداقية، سيبدأون بالشعور بتأنيب الضمير لتصديقهم الشائعات والاتهامات السابقة. وهذا معناه أن الشائعات والاتهامات ستنقلب إلى تعاطف من المجتمع باتجاه الجماعة. وهذا ما يزيد من قوة المصداقية عند الجماعة. وهذا ما حدث بالضبط مع حزب الله في لبنان. فالشتائم والشائعات والاتهامات ضده تحولت بعد فترة إلى تعاطف حقيقي من الأمة تجاهه.

وهناك نقطة قد توحي بالتناقض في هذه المقالة وهي أن جورج جالاوي وتشارلز بارنيل قد تم اتهامهما ولكن (كما ذكرنا سابقا) قد استطاعا أن يفوزا في المحكمة وأن يأخذا حقهما. في حين أن هذه المقالة تدعو إلى النظر ضمن استراتيجيات واضحة فيما يتعلق بالتصدي للاتهامات والشتائم. هل يوجد هنا تعارض؟؟

لا يوجد أي تعارض. فبارنيل وجورج جالاوي لم يكونا أبدا ضد النظام.

وإنما كانا ضد الحكومة وقد يكونان قد أزعجا النظام. ولكنهما بالتأكيد ليسا ضد النظام وإنما جزء منه. والأنظمة (جميع الأنظمة) تقوم وبشكل واعٍ أو غريزي بقرص آذان رجالاتها إن هم أساءوا التصرف تنبيها لهم ولغيرهم. وبالتالي فما حدث لجالاوي وبارنيل كان ضمن صراعات القوى في النظام نفسه. وأما في حالة قيام الجماعة بالتصدي للنظام نفسه فإن قواعد اللعبة تختلف. وهذا بالضبط ما يقتنع به المؤلف أنه حدث مع روجر كيسمينت.

❖ الإشغال واستنزاف الجهد والوقت

الشتائم والشائعات هي أحد أساليب الإشغال، ولكن هناك أساليب إشغال أخرى مثل الرزق. فقد كان أحد أساليب الإنجليز لإشغال الحركات الجهادية في فلسطين في الخمسينيات من القرن العشرين هو فتح باب العمل للفلسطينيين في دول الخليج. وهناك إشغال أكثر مكرا هو استغلال الثغرات في الثقافة والفلسفات المحلية للمجتمع وإشغال الناس بها. وأحد أفضل الأمثلة هي قصة سمعها المؤلف عن تكتيك استخدمه الإنجليز ضد أحد رجالات فلسطين المزعجين لهم. فقد كان هذا الرجل ذا احترام عالٍ في فلسطين. فقام الإنجليز بإرسال عملائهم من العلماء والوجهاء والاستمرار بزيارته وبأي حجة. فكانوا يذهبون من الشمال إلى الجنوب ويزورونه بالطريق ثم يذهبون من الجنوب إلى الشمال ويزورونه. وكان هذا الرجل ملتزما، كعادة أهل البلاد وثقافاتهم وقتها، بتكريم الوجهاء من الضيوف والقيام بالذبح والسلخ والطبخ لهم. وعلى مدى الزيارات فقد أفلس هذا الرجل وثقلت ديونه وانهارت سمعته.

وهنا السؤال: ما الذي كان على هذا الرجل أن يفعله؟؟

والجواب واضح وبسيط. كان عليه أن يقوم بالضيافة بقدر الاستطاعة وأن يعتذر وبحزم عما هو خارج الاستطاعة. وكان هذا بالتأكيد سيؤدي إلى سلسلة من الاتهامات والشتائم من الوجهاء أقلها أن هذا الرجل بخيل وكحتوت ودقة. ولكن هذا أفضل بكثير من الدين والإفلاس والانهيار. وهذه هي النقطة تماما. عندما

تتصارع الجماعة مع نظام ذكي فعليها أن تتوقع بعض اللكمات والخدوش وعليها أن تكون على الاستعداد للتضحية.

❖ تكتيكات هوفر

وهوفر هنا هو Edgar Hoover المدير المؤسس للمباحث الفدرالية (FBI) في أمريكا. وكان أكثر الناس استعمالا لهذه التكتيكات.

والتكتيكات هي التجسس على أسرار العصابات (أو الجماعات) ثم استغلال هذه الأسرار في تشقيق العصابة. والمثال الكلاسيكي هو التنصت على اجتماع سري للعصابة (أو الجماعة) ثم إلقاء القبض على أحدهم (وليكن اسمه جورج) والتحقيق معه ولساعات طويلة (وربما يكون التحقيق دردشة عامة ليس لها أي علاقة بالجماعة) وبعدها تقوم المباحث بإلقاء القبض على باقي الأفراد والتحقيق معهم عن أحداث هذا الاجتماع. والنتيجة هي أن العصابة ستبدأ بالشك في جورج وهنا تبدأ بذور الانشقاق في العصابة.

وهناك مثال حقيقي: فقد قام أحد الناس باتهام حماس صراحة أنها عميلة لإسرائيل والسبب هو أنه كان هناك اجتماع بين حماس وأحد الجماعات يتعلق بالانتفاضة. وبعد يوم واحد قامت إسرائيل بالقبض على أحد أفراد هذه الجماعة والتحقيق معه في موضوع هذا الاجتماع.

وهذه التكتيكات ناجحة تماما مع الجماعات ذات التفكير الطفولي (أي الجماعات التي ليس لها مهارات استراتيجية والتي تتصرف بردات الفعل قبل التفكير العميق في الموضوع).

وهناك مثال آخر سمعه المؤلف وهو أنه كان يوجد خادم يشتغل في بيت أحد كبار الضباط الإنجليز في فلسطين أيام الثلاثينيات من القرن العشرين. وكان هذا الخادم مرتبطا بحركات المقاومة. وقد أدرك الضابط ارتباطات الخادم ولم يقم بطرده وإنما قام بوضع بعض الأوراق في درج الطاولة تتحدث عن علاقات عمالة

بين الإنجليز وبعض الناس. وكانت هذه المعلومات بعضها صادق وأغلبها كاذب. فيقوم الخادم بإيصالها إلى المقاومة وتقوم المقاومة باغتيال رجال هم في الحقيقة شرفاء. وكان هذا بابا للكثير من المشاكل في فلسطين.

وهذا أحد التكتيكات التي أتقنتها إنجلترا وهو توصيل المعلومات الخادعة إلى العدو وإقناعه بها. واستخدم الإنجليز هذه التكتيكات في معظم حروبهم: فقد استطاع الإنجليز توصيل خطة سرية للأتراك في فلسطين في الحرب العالمية الأولى مفادها أن الهجوم الإنجليزي سيكون على امتداد الساحل وليكتشف الأتراك أن الهجوم جاء في عمق الصحراء. وقد استعمل مونتجومري نفس هذه الخدعة مع رومل، وقد استعمل الإنجليز نفس الخدعة مع هتلر في غزوهم إلى النورماندي.

وهذه التكتيكات مشكلة حقيقية للجماعات المبدئية. فالتكنولوجيا المتعلقة بأجهزة التنصت وكاميرات المراقبة قد تقدمت وبشكل ضخم جدا. ولهذا فإنه يجب التوقع أن الكثير من أسرار الجماعة هو بيد النظام.

وهنا السؤال: كيف يمكن التصدي لتكتيكات هوفر؟ وكيف يمكن أن يتم تمييز الأخطاء الناتجة من أفراد وقيادات الجماعة وبين الشائعات والتسريبات والمكائد التي يطلقها النظام عن هؤلاء الأفراد والقيادات؟

هناك ثلاث طرق يمكن استخدامها للحد من تأثير تكتيكات هوفر: ذكاء استراتيجي مرتفع من الجماعة المبدئية، والانضباط، واستخدام فلسفات القوقعة:

أ. بالنسبة إلى الذكاء الاستراتيجي للجماعة المبدئية فقد تم الحديث سابقا أن الجماعة وعلى مدى عشرين عاما وبسبب تكتيكات الانتخاب غير المباشر فإن المهارات الاستراتيجية للجماعة المبدئية ستنخفض وبالتالي فالجماعة بحاجة إلى طرق أخرى غير هذا الطريق للتصدي لتكتيكات هوفر.

ب. الانضباط: وكما تم تبيانه سابقا فإن الانضباط في كثير من الأحيان هو الذي يرجح الكفة بين هزيمة أو انتصار. وهذا ينطبق على نجاح أو فشل الجماعات الدافعة المبدئية. وتكنولوجيا التنصت والمراقبة قد تضاعفت مرات عدة ولذا

فعلى قيادات الجماعات أن يلتزموا ببروتوكولات التصرف والحديث (Code of practise, Discussion and debate). ويجب أن يتم تصميم هذا البروتوكول بطريقة تسمح بمعالجة الأخطار الممكنة من أجهزة التنصت والمراقبة. فعلى سبيل المثال فإنه من الخطأ الشديد أن تقوم القيادة بالاجتماع بحالة استرخاء والتحدث بصوت عالٍ عن أسرار الجماعة، لأنه لا يوجد عندهم اليقين أن غرفة الاجتماع لم تخضع للتنصت ولا يوجد عندهم التكنولوجيا الكافية للكشف عن أجهزة التنصت في الغرفة. وبالتالي فأفضل الحلول هو شكل خاص وواضح من بروتوكولات التصرف والحديث. ويجب أن تلتزم الجماعة وبجدية بهذا البروتوكول. وهذا هو الانضباط.

وهنا نقطة فرعية جديرة بالذكر:

إن إحدى مهارات الإنجليز في مجتمعاتهم هو عدم إشعار الناس بأن النظام هو دولة بوليسية. فقد نظر الإنجليز إلى الثورة الفرنسية والثورة الأمريكية وأدركوا أن نظامهم سيكون هو التالي إن لم يحسنوا التصرف. فكانت النتيجة مجموعة مبتكرة من القيم والفلسفات والسياسات. وكانت إحدى هذه الفلسفات هى عدم إشعار الناس ببوليسية النظام. والطريقة التي استطاع بها النظام احتواء العواقب من هذه الفلسفة هى برودة الأعصاب الشديدة. فعندما تحدث مشكلة فإن الشرطة (والأجهزة الأمنية) لا تقوم (كأمريكا) بالاقتحام والقبض على الناس والتحقيق. وإنما تراقب الأمور ببرودة أعصاب حتى تستطيع إدراكها وعندها تقوم بالقبض على المسئولين الرئيسيين.

وهذا التوازي في التصرف بين عدم إشعار الناس ببوليسية النظام وبين مراقبة الأمور ببرودة أعصاب قد أدى إلى مهارات حقيقية للأجهزة الأمنية في إنجلترا. فدراسة علم السلوك وعلوم الديناميكية وعلم الشخصيات هي دراسات رئيسية في الأجهزة الأمنية في إنجلترا. وكدلالة على ما سبق فإن المسلمين الذين قاموا بتفجير عربات القطار وأحد الباصات في لندن كانوا في وقت مضى

تحت الرقابة الأمنية ولكن الأجهزة الأمنية استبعدت الخطر منهم وذلك لأن شخصياتهم (Personality Profiling) لا تتفق مع الصفات المستنتجة للجماعات الانتحارية.

وبالطبع فإن التفجيرات في إنجلترا لا يجوز اعتبارها فشلا في استراتيجيات الأجهزة الأمنية الإنجليزية. فكل استراتيجية لها مميزات وعواقب. ونجاح أو فشل أي استراتيجية يجب أن يتم الحكم به بالنظر إلى النتائج نظرة شمولية. وإذا نظرنا نظرة شاملة إلى الوضع في إنجلترا فإن التكاليف التي استنزفتها إنجلترا على الحالة الأمنية كانت أقل بكثير من دول أوروبية أخرى، كما أن شعور الناس بالمراقبة البوليسية في إنجلترا كان أقل بكثير من دول أوروبية أخرى.

وإنجلترا (حسب غلبة ظن المؤلف) هي أكبر دولة من حيث أجهزة التنصت والمراقبة والتجسس. فجميع الهواتف والإيميلات (Emails) والفاكسات الخارجة والقادمة إلى إنجلترا هي تحت المراقبة. كما أن إنجلترا هي أكثر دولة تحوي كاميرات مراقبة للشوارع. ولكن لا يوجد أي شعور عند الناس بالمراقبة البوليسية.

وهذه المهارة عند الإنجليز (مهارة المراقبة والمتابعة عن بعد) تحدث عنها كوبلاند (Miles Copeland) في كتابه اللعبة واللاعب (The Game Player). فقد أرسلته أمريكا إلى إنجلترا ليساعدها في ملاحقة الجواسيس الألمان في الحرب العالمية الثانية ولكن ليكتشف أن المخابرات الإنجليزية كانت على علم بجميع الجواسيس الألمان وأن وجوده في إنجلترا كان تسلية ومضيعة وقت.

وهناك نقطة أخرى وهو أن الشعور الحقيقي أن النظام ليس دولة بوليسية له فائدة أخرى للأجهزة الأمنية. حيث إن هذا الشعور يفرض على العقل الباطن الشعور بالاسترخاء. بمعنى أن هناك الكثير من أفراد العصابات من يتصرف باستهتار غير مقصود نتيجة شعوره بالأمان، ويكون هذا الاستهتار هو السبب في انكشافه. وهذا الأمر غريزي، فالعقل الباطن يتصرف بمقتضيات قد لا تتفق مع

مقتضيات الإدراك الواعي. وأفضل الأمثلة هو البرامج الواقعية كبرنامج الأخ الكبير (Big Brother). ففي هذا البرنامج يتنافس مجموعة من الأشخاص ولمدة أسابيع في بيت يمتلئ بالكاميرات التلفزيونية. وبالطبع فإن هؤلاء الأشخاص يعلمون أن تصرفاتهم يراها الملايين من الناس. وتجدهم في البداية يتصرفون بدماثة وحذر. ولكن مع الأسبوع الثالث فإنهم يهملون وجود هذه الكاميرات ويبدؤون بالتصرف بمقتضى طبيعتهم الحقيقية.

وهذا بالضبط ما يحدث عندما تشعر العصابات بأن المجتمع غير بوليسي، فإنهم يتصرفون بطبيعتهم الخاصة ودون حذر. وهذا بالضبط ما يزيد من قوة المراقبة والمتابعة عن بعد.

تلخيصا لما سبق فإن على قيادات الجماعات الدافعة المبدئية القيام بالانضباط في بروتوكول التصرف والحديث وذلك للتصدي قدر الإمكان لتكتيكات هوفر.

ج. فلسفات القوقعة:

فلسفة القوقعة هى عدم اعتماد التسريبات أو الشائعات أو الظروف التي يخلقها الخصوم في الحكم بالسوء على قيادات أو أعضاء الجماعة. وإنما يتم الحكم بالسوء على هذه القيادات أو الأفراد من تصرفاتهم الظاهرة. وبالتالي فإن الجماعة تكون كالقوقعة التي تحمي أعضاءها من الشائعات الخارجية.

ولكن هناك شرط أساسي وضروري لنجاح هذه الفلسفة للتصدي لتكتيكات هوفر. فبالإضافة إلى ضرورة العناد الشديد للمبدأ فإن الجماعة بحاجة إلى العناد الشديد لتحري الصدق والأمانة. بمعنى أن الجماعة بحاجة لفرض مبادئ الصدق والأمانة على أعضاء الجماعة وأن من يتصرف خارج هذه المبادئ فعليه أن يترك الجماعة. وفلسفة القوقعة والعناد الشديد للصدق والأمانة كفيلة بالتصدي لتكتيكات هوفر كما يظهر من السيناريو التالي:

لنفترض أن هناك جاسوسا أو مدعيا في الجماعة أو شخصا غير صادق وغير أمين. ولنفترض أن الجماعة عندها العناد الشديد للمبدأ وعندها العناد الشديد

للصدق والأمانة. والسؤال الآن هو: كم من الوقت يستطيع فيه هذا الرجل أن يستمر في تمثيله وادعائه؟

ضمن وجهة نظر المؤلف فإنه من النادر أن يستمر رجل غير صادق وغير أمين فى التمثيل في محيط يتصف بشدة العناد للمبدأ وشدة العناد للصدق والأمانة. وإذا انتبهت إلى جميع الأدعياء فستجد أن نجاحاتهم كانت (وبدرجة كبيرة) بسبب أن الظروف المحيطة بهم ليست شديدة التمسك بالصدق والأمانة.

وضمن هذه الظروف فإنه من المكن الاستنتاج أن المدعين وغير الصادقين سينكشفون وبصورة آلية من تصرفاتهم ودون الحاجة إلى الحظ في تسريبات الخصوم. وهذا معناه أن الجماعة تستطيع إهمال كافة التسريبات أو الشائعات والتي قد يطلقها الخصوم، فإذا كانت الشائعات صحيحة فإن المذنب سينكشف بتصرفاته دون الحاجة لهذه الشائعات.

انتبه... إن أي استراتيجية لها مميزات وعواقب. وفي كثير من الأحيان فأنت مضطر أن تتحمل العواقب في سبيل المميزات للاستراتيجية التي اخترتها. وهذا ينطبق على فلسفة القوقعة، فهناك بعض العواقب لها ولكن مميزاتها (ضمن وجهة نظر المؤلف) تفوق عواقبها.

وانتبه كذلك أن فلسفة القوقعة تعني عدم استخدام التسريبات أو الشائعات التي يطلقها الخصوم في الحكم بالسوء على أعضاء الجماعة. ولكن هذا لا يعني عدم الحذر. فإذا ظهرت بعض التسريبات فقد يكون من الحكمة للقيادة أن تتحلى بالحذر. ولكن الاتهام والحذر هما أمران مختلفان تماما.

وفلسفة القوقعة ليست مفيدة فقط في حالة الجماعات الدافعة المبدئية وإنما هي مفيدة كذلك في سياسات الدولة كما في المثال التالي:

ذكر رايت (Peter Wright) في كتابه صائد الجواسيس (Spycatcher) أن أحد الدبلوماسيين السوفييت كان على علاقة غرامية مع إحدى الفتيات الإنجليز.

واستطاعت المخابرات الإنجليزية التفاهم مع هذه الفتاة واستدراج هذا الدبلوماسي إلى غرفة مجهزة بالكاميرات وقاموا بتصويره مع الفتاة. وبعدها دخلت المخابرات عليه في الغرفة وحاولوا ابتزازه للتعامل معهم وكان حينها يلبس ثيابه ويردد أنه دبلوماسي ويريد الذهاب إلى السفارة. وفي اليوم التالي قامت المخابرات بإرسال الصور إلى السفارة السوفييتية. فقامت السفارة بشحن هذا الدبلوماسي إلى موسكو.

ضمن وجهة نظر المؤلف فإن تصرف السفارة كان في غاية الخطأ:

من الضروري للسفارة (والنظام) الاتصاف بالحزم لسوء التصرف من رجالاتها، ولكن ذلك عندما يكتشف النظام بنفسه هذا السوء. ولكن عندما تقوم المخابرات الأجنبية بتسريب هذا السوء ففي هذه الحالة فقواعد اللعبة مختلفة: إذ من الحكمة والضرورة أن تقوم الدولة بإظهار أنها منيعة لألعاب المخابرات الأجنبية كما أنها رحيمة لرجالاتها إن أخطأوا وقامت المخابرات الأجنبية بابتزازهم.

وضمن وجهة نظر المؤلف فقد كان الأولى للسفارة السوفييتية أن تقوم بإعطاء الدبلوماسي رسالة تأنيب ولكنها تبقيه في مكانه دون مضايقات. وكأن حالها يقول للمخابرات الإنجليزية: "بالطقاعة". "والجكارة" سلاح فعال إن أتقن استعماله.

وبالطبع فمن الممكن أن تقوم الاستخبارات بتسريب هذه الصور إلى الصحافة وعندها ستصبح الأمور زفة وهيصة وهذا بالطبع من خدوش الصراع. ومع هذا فإن رسالة السفارة للعالم ستكون أكثر وضوحا وهي أنها منيعة من ابتزازات وتلاعبات المخابرات الأجنبية لأعضائها.

وهذا بالضبط المقصود بفلسفة القوقعة، وهي أن يكون الحكم بالسوء لأعضاء الجماعة ناتجا عن التصرفات التي تنتبه لها الجماعة وليس بسبب تسريبات وإشاعات أطلقها العدو.

لتلخيص هذه المقالة نقول ما يلي:

يجب على الجماعة الدافعة المبدئية ألا تدعو أو تستخدم السلاح لمنع أية ذريعة من النظام لإنهاء الوجود لهذه الجماعة.

ويجب على الجماعة المبدئية أن تتصف بالعناد الشديد للمبدأ وذلك للتصدي لتكتيكات سلامي وتكتيكات الانتخاب غير المباشر.

ويجب أن يكون للجماعة القاعدة الفكرية الكافية لتحويل الجماعة إلى كتلة صلبة.

ويجب أن تكون استراتيجيات الدعوة أهم من استراتيجيات الدعاية وذلك للتصدي لتكتيكات التشويه والاتهامات.

ويجب أن تتصف الجماعة بالانضباط والعناد الشديد للصدق والأمانة وفلسفة القوقعة وذلك للتصدي لتكتيكات هوفر.

الفصل التاسع عشر

النظرة إلى أردوغان وحسن نصر الله وغيرهم

قبل الدخول في هذا الموضوع فإنه من المناسب التعرض إلى نقطتين في التحليل السياسي وهما "الأدوات والمقاييس السياسية" و"مراحل التحليل السياسي".

إن أسوأ شيء في عمليات التحليل السياسي أن يكون عند المحلل أدوات ومقاييس تحليل ثم يقوم بترقيعها لبعض الناس وترقيع الرقعة للبعض الآخر. وهذا معناه أن هذا الشخص ليس عنده أدوات ومقاييس واضحة وإنما يقوم بخلق المقاييس آنيا لتتفق مع هواه. وهذا معناه أيضًا أن الشخص في حقيقة الأمر ليس صادقا مع نفسه.

إن الهدف من وجود الأدوات والمقاييس في التحليل هو القدرة على مقارنة الأحداث الحالية بأحداث سابقة بهدف معرفة الخفايا الباطنة. وبالطبع فإن استخدام الأدوات والمقاييس الصحيحة لا يضمن دائما صحة التحليل؛ وذلك لأن صحة التحليل تتطلب المعلومات الكافية بالإضافة إلى صحة المقاييس. ولكن استخدام الأدوات والمقاييس الصحيحة سيضمن توجه التحليلات (مع الزمن) نحو الصحيح. وهذا هو المعنى من الفلسفة: من الأفضل أن تكون مخطئا في الرأي ولكن في الطريق الصحيح من أن تكون مصيبا في الرأي ولكن في الطريق الخطأ.

وأما بالنسبة إلى مراحل التحليل فإنه من الضروري التذكير أن هناك مرحلتين رئيسيتين في التحليل وهما النظرة العقلية المجردة واتخاذ الموقف. ويجب أن يكون هناك مسافة واضحة بين هاتين المرحلتين. وأفضل مثال على ذلك هو عندما تقوم بتحليل نقاط القوة والضعف عند العدو. وفي هذه الحالة فأنت لست في صدد اتخاذ موقف من العدو والحكم على تصرفاته وإنما تقوم بتحليل عقلي مجرد وموضوعي لنقاط قوته وضعفه وصفاته. وبعد التحليل العقلي تأتي مرحلة اتخاذ الموقف، وفي هذه المرحلة فأنت تتخذ الموقف بناءً على المشاعر أو الفلسفات أو المبادئ.

الآن...اتخاذ الموقف عند المؤلف له خطان متوازيان: الخط الأول وهو المشاعر والفلسفات والخط الثاني هو النظرة المبدئية. ومع أن الخط الثاني (النظرة المبدئية) هي المهيمنة على موقف المؤلف إلا أن المؤلف لا يقوم بإهمال الخط الأول (المشاعر والفلسفات) كما سيتم توضيحه الآن.

ويوجد عند المؤلف مقاييس يستخدمها لتحديد موقفه من القيادات السياسية كذلك يوجد عنده مقاييس أخرى لتحديد موقفه من علماء الإسلام .

وبالنسبة للمقاييس المتعلقة بالقيادات السياسية فلها ثلاثة محاور وهي الأخلاق والإسلام والأفعال:

أ. الأخلاق:

١. أخلاق عالية: أخلاق شخصية ومهنية عالية.

٢. أخلاق ساقطة: أخلاق شخصية أو مهنية ساقطة.

ب. الإسلام :

١. نظرة إسلامية.

٢. نظرة علمانية.

ج. الأفعال:

١. يتجنب الخطيئات.

٢. يرتكب الخطيئات ولكنها لم تؤد إلى الجرائم.

٣. يرتكب الخطيئات والتي أدت إلى الجرائم.

٤. يرتكب الجرائم.

دعونا نقوم بشرح المقياس السابق:

ما الفرق بين الأخلاق الشخصية والأخلاق المهنية؟

أفضل طريقة لإجابة السؤال السابق هو بوضع المثال التالي:

* محمد نجيب (أول رئيس جمهورية في مصر) كان ذا أخلاق شخصية عالية وأخلاق مهنية عالية.

* والظاهر أن جمال عبد الناصر كان ذا أخلاق شخصية عالية ولكنه كان ذا أخلاق مهنية غير عالية. والظاهر أنه كان نظيف اليد وكان دمث الحديث ولم يكن فاجر اللسان. ولكن النظام الذي كان يحكمه قام بحملات إعدام وعمليات تعذيب غير أخلاقية، كما أن هزيمة ٦٧ مربوطة في عنقه وذلك لأن هذه الهزيمة لم تكن بسبب تفوق العدو أو بسبب أخطاء تكتيكية أو أخطاء استراتيجية وإنما كانت بسبب إهمال وتسيب وإسراف وغباء من النظام. وهو مسئول وبشكل حقيقي عن هذه الأمور كمسئولية عمر بن الخطاب عن صيانة الطريق في العراق (ففي قول مشهور لعمر بن الخطاب: لو أن بغلة عثرت في العراق لخشيت أن يسألني الله لم لم تعبد لها الطريق يا عمر).

* وأما صلاح نصر (مدير جهاز المخابرات المصري في عهد عبد الناصر) فقد كان ذا أخلاق شخصية ساقطة وأخلاق مهنية ساقطة.

ما الفرق بين الخطيئة والجريمة؟

الخطيئة هي أمور مخالفة للمبدأ ولها أدلة شرعية واضحة ولكنها ليست صريحة. مثال ذلك هو قيام نجم الدين أربكان بزيارة إسرائيل وقيام حماس بمهادنة العلمانية. وأما الجريمة فهي أمور مخالفة للمبدأ ذات أدلة صريحة كالقتل والتعذيب وانتهاك الأعراض.. إلخ.

ولهذا السبب فهناك فرق بين من ارتكب الخطيئة ولم تؤدِّ إلى جريمة كزيارة نجم الدين أربكان إلى إسرائيل، وبين من ارتكب الخطيئة التي أدت إلى الجريمة كقيام

طارق الهاشمي بوضع يده مع الأمريكان وغض البصر عن جرائم الأمريكان في العراق وبين من ارتكب الجريمة كما فعل المالكي في العراق.

واعتمادا على المقياس السابق فإن المؤلف له:

١- نظرة الاحترام والتقدير الشديدين للقيادات ذات النظرة الإسلامية والأخلاق العالية والذين تجنبوا الخطيئات مثل تقي الدين النبهاني وعبد القادر حشاني وغيرهم.

٢- نظرة الاحترام وحسن النية تجاه القيادات ذات النظرة الإسلامية والأخلاق العالية الذين لم تؤد أعمالهم إلى الجرائم مثل أربكان وأردوغان وحسن نصر الله وغيرهم.

٣- نظرة احترام للقيادات ذات الأخلاق العالية من غير المسلمين والذين لم تؤد أعمالهم إلى الجرائم.

أما غير هؤلاء فهم في القائمة السوداء عند المؤلف.

بالنسبة لعلماء الإسلام فإن المقياس هو:

١- عالم إسلام يواجه الظلم دون مهادنة (علماء مبادئ).

٢- عالم إسلام منعزل عن الظالمين (علماء انعزال).

٣- عالم إسلام مهادن ومسالم للظالمين (علماء سلطان).

٤- عالم إسلام من أركان الظالمين (علماء الظلم).

والمؤلف عنده نظرة الاحترام والتقدير الشديدين لعلماء المبادئ، ونظرة الاحترام وحسن النية لعلماء الانعزال، ونظرة الاتهام لعلماء السلطان، ونظرة النفور من علماء الظلم.

وبالطبع لم يتم اعتماد مقياس الأخلاق في النظرة إلى العلماء لأنه بديهي، وذلك لأن عالم الإسلام الذي ثبتت مخالفته لقواعد الأخلاق فإنه من الطبيعي أن يتم إخراجه من دائرة العلماء.

والسبب في خلاف المقاييس بين القيادات السياسية والعلماء هو قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [آل عمران].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [البقرة].

وقول الرسول عليه السلام في تعليقه للآية ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ... ﴿٧٨﴾﴾ [المائدة]، "والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد الظالم ولتأطرنه على الحق أطرا ولتقصرنه على الحق قصرا أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض ثم يلعنكم كما لعنهم" (رواه أبو داود في الملاحم).

وقول الرسول عليه السلام: "والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا من عنده ثم لتدعنه فلا يستجيب لكم" (رواه أحمد في باقي مسند الأنصار).

وقول الرسول عليه السلام لكعب بن عجرة: أعاذك الله من إمارة السفهاء. قال: وما إمارة السفهاء؟ قال: أمراء يكونون بعدي لا يقتدون بهديي ولا يستنون بسنتي فمن صدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم فأولئك ليسوا مني ولست منهم ولا يردون على حوضي ..." (رواه أحمد في باقي مسند المكثرين).

وهناك كلمة مشهورة لجعفر الصادق: "إذا رأيتم الفقهاء قد ركنوا إلى السلاطين فاتهموهم" (وفي الحقيقية فهناك مجموعة أحاديث بهذا المعنى ولكن معظم الرواة قد ضعفوها مثل الحديث الذي رواه الهندي في كنز العمال (٢٩٠٨٣) "العلماء أمناء

الرسل ما لم يخالطوا السلطان ويداخلوا الدنيا فإذا خالطوا السلطان وداخلوا الدنيا فقد خانوا الرسل فاحذروهم واعتزلوهم").

والعلماء ليسوا كعامة الناس فقد قال الرسول عليه السلام "العلماء ورثة الأنبياء" (رواه أبو داود). ولهذا السبب فإن الرجل عندما تعطيه الأمة قيادتها في علوم الدين فإن لهذه القيادة مسئوليتها. وعليه فإما أن يقوم بحقها أو يتركها وينعزل عنها. ولا يوجد (ضمن وجهة نظر المؤلف) حل وسط لهذا الأمر.

وهذه المقاييس هي مقاييس عقلية أدت إلى مواقف الاحترام والتقدير أو الاتهام والنفور.

الآن نأتي إلى النظرة المبدئية في الموضوع:

المقاييس السابقة كانت مقاييس ظنية تتعلق بشخصية القيادات السياسية. ولكن وقت الغموض والضعف والخوف فإن الأولوية تكون التمسك بالمبدأ. ولهذا السبب فإن النظرة المبدئية لا تنظر إلى شخصية القائد ولا إلى تاريخه وإنما تنظر إلى العمل نفسه: هل هذا العمل موافق للمبدأ أم مخالف له.

وضمن وجهة نظر المؤلف فإن سياسات أردوغان ومهادنته للعلمانية هو أمر مخالف للمبدأ ولهذا وجب الانتقاد والتقريع لأردوغان.

وهنا يأتي موضوع النظر إلى الأمور بمهارات التوازي في التفكير. فمن الجهة العقلية فإن لأردوغان فضلاً حقيقيًا على الأمة. ولكن من الجهة المبدئية فإن أردوغان قد خالف المبدأ ووجب انتقاده.

وكثير من الناس لا يرتاح ولا يفضل استعمال مهارات التوازي في التفكير. وفي هذه الحالة فإن النظرة الغالبة يجب أن تكون للمبدأ وإهمال النظرات الأخرى.

ولكن دعونا ننظر إلى الأمر من ناحية واقعية:

إذا كان أردوغان رجلا ذا خطة فإن انتقادات القوى المبدئية لن تؤثر عليه كثيرا حيث إن تأثير هذه القوى يحتاج إلى الوقت. وأما إذا كان أردوغان رجلا بلا خطة فإن انتقادات القوى المبدئية سترغمه على البحث عن خطة أو سترغم جماعته لاستبداله بآخر له خطة.

وللأسف الشديد فإن طبيعة معظم الناس أنهم مع الجهة الأكثر اعتدالا ومرونة. ولو كانت طبيعة الناس مع الجهة الأكثر مبدئية لاختلف حال المسلمين منذ قرون. ولكن أكثر الناس هم مع أهل المرونة. والطريقة الوحيدة (ضمن وجهة نظر المؤلف) لدحر الظلم والوصول إلى المبدأ هو بقيام القوى الدافعة المبدئية بالعناد للمبدأ إلى درجة الحماقة والصياح بالمبدأ إلى درجة الإزعاج. وكما تم شرحه في مقالة سابقة. فإن نجاح لعبة الأقدار في تطوير الحضارات يعتمد تماما على قدرة القوى الدافعة المبدئية بالدعوة المستمرة والمتواصلة للمبدأ.

ولكن كل جماعة إسلامية في العالم لها دور في لعبة الأقدار. فالقوى الدافعة المبدئية لها دور والقوى المتهادنة لها دور آخر. وأما من سيكون ثوابه أكبر يوم الحساب ومن سيكون ثوابه أقل، ومن سيغفر الله تعالى له ومن سيحاسبه فهذا ﴿...عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٖۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ۝٥٢﴾ [طه]، وبالنسبة إلى حسن نصر الله فإن غلبة ظن المؤلف (كما تم تبيانه في مقال سابق) أن حزب الله في لبنان هم المقصودون بحديث رسول الله عليه السلام : "لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين .....". ولكن هذه النظرة ظنية. فالحديث ظني ومعانيه ظنية وربط الحديث بحزب الله هو ربط ظني. ولهذا السبب فإن الموقف الأولى وقت الغموض والضعف والارتباك هو الموقف المبدئي. ولهذا السبب فإن حزب الله (ضمن النظرة المبدئية) لم يقم بتحديد موقفه من الدعوة إلى دولة الخلافة ولم يقم بإعلان خطة في موضوع تطبيق الشريعة ولم يقم بوضع خطة واضحة في سبيل رد الظلم عن أهل المخيمات في لبنان. ولهذا وجب القيام بانتقادات مبدئية تجاه هذا الحزب.

الآن... إذا كان حسن نصر الله رجلا ذا خطة فلن يتأذى كثيرا من الانتقادات المبدئية. وأما إذا كان رجلا بلا خطة فإن شدة الانتقادات المبدئية ستدفعه إلى وضع الخطة أو سيضطر الحزب إلى استبداله بآخر له خطة. وهنا لعبة الأقدار إذ إن القوى الدافعة المبدئية تقوم خطوة خطوة بالضغط على القيادات لتغيير مواقفهم وخططهم نحو المبدأ.

وهنا نقطة أخرى في هذه المقالة وهو الموقف من طارق الهاشمي والسيستاني:

وأما طارق الهاشمي فقد ارتكب الخطيئة (وضع اليد مع أمريكا) وأدت هذه الخطيئة إلى الجرائم تجاه أهل العراق. وقد كان أمرا مخزيا بكل ما في كلمة خزي من معنى قيام طارق الهاشمي بالجلوس مع جورج بوش والإعلان عن مساندته للقوات الأمريكية. ولهذا السبب فإن طارق الهاشمي هو في القائمة الأشد سوادا عند المؤلف.

وأما السيستياني فهناك وجهة نظر سياسية تقول إن السيستياني كان في الواقع يتبع استراتيجية مع إيران لوضع القوات الأمريكية في المستنقع العراقي. ولكن هذه النظرة هي تخمينية جاءت من تحليل الوقائع وليس لها أي وثائق صريحة. ولهذا السبب فإن المؤلف لا يستطيع إلا تطبيق المقاييس التي تبناها دون استثناء. ولهذا السبب فإن السيستياني قد ارتكب الخطيئة (المهادنة مع أمريكا) والتي أدت إلى جرائم بشعة في العراق. ولهذا السبب فإن المؤلف يتهم السيستياني بالمشاركة في جرائم العراق.

الآن... إذا ثبت أن هناك استراتيجية بين إيران والسيستياني لإغراق القوات الأمريكية في المستنقع العراقي فربما تكون تصرفاته ذات ثواب. ولكن هذا الأمر هو بينه وبين منكر ونكير يوم القبر. وفي نهاية الأمر فإن لنا ظاهر الأمور. وظاهر الأمور حتى الآن أن السيستياني قد تهادن وتسالم مع أمريكا وأدى هذا إلى الجرائم في العراق.

الفصل العشرون

التفكير الطفولي والمنهج الاستراتيجي

لفظة المنهج هي لفظة عربية قديمة وهي تماثل تماما لفظة "Methodology"، والمنهج هو القواعد والآليات والمقاييس المتعلقة بتنفيذ العمل.

ولكل فن وعمل منهجه الخاص. وهذا ملاحظ في التجارة والإدارة والتسويق والسياسة والحرب. وإذا نظرت مثلا إلى النجارة فإن هناك مدارس مختلفة باختلاف الخبرات. فمنهج النجارة في اليابان يختلف عنه في تركيا ويختلف عنه في إيطاليا. وبالطبع فإن الخطوط العريضة متشابهة في مناهج النجارة ولكن هناك اختلافات واضحة في التفاصيل.

ما الفائدة من تعلم وإتقان المنهج؟

المنهج له فائدة فردية وفائدة جماعية:

أما الفائدة الفردية فإن المنهج في حقيقة الأمر يُمثل الزبدة من خبرات السابقين. فقد قام السابقون بهذا العمل وانتبهوا بالتجربة والخطأ إلى أفضل الأساليب وانتبهوا إلى العواقب والثغرات والحفر. ومن هذه التجارب تم خلق منهج العمل. فالمنهج هو في حقيقته مجموعة من التعليمات على شاكلة افعل كذا، ولا تفعل كذا، وإذا حدث هذا فقم بكذا..إلخ.

ولهذا السبب فإن الالتزام بالمنهج يتضمن استخدام أفضل الأساليب التي استنبطها السابقون، كما يتضمن تجاوز العقبات والحفر وربما دون انتباه.

وبالطبع فإن المنهج ليس قواعد معصومة عن الخطأ. وتجد الكثير من الخبراء من يختصر من خطوات المنهج أو من يضيف لها بعض الخطوات حسب الظروف. ولكن من الخطأ الشديد للمبتدئ أو الهاوي أن يقوم بالارتجال في المنهج لأنه قد يقع في ثغرة لا ينتبه لها إلا بعد فوات الوقت. مثال ذلك هو في برمجة الكومبيوتر، فعندما

يكون هناك برنامج كمبيوتر طويل ومعقد ويحتاج إلى الأسابيع من العمل فإن البعض يقوم بالخطأ في التصميم ويبني على هذا الخطأ الأسابيع من العمل ليكتشف متأخرا أنه بحاجة إلى إعادة العمل بسبب ذلك الخطأ.

ومثال آخر هو ألمانيا في الحرب العالمية الأولى. فقد قام شيلفن (Schlieffen) بخلق خطة عبقرية لاحتلال فرنسا . وتم تسمية الخطة "بفتاحة العلب". ولكن مولتكيه (Moltke the Younger) رئيس الأركان الألماني في الحرب العالمية الأولى قام بالارتجال في هذه الخطة وكانت النتيجة هي الفشل الذريع.

وهذه هي النقطة الجوهرية... فالمنهج ليس قواعد معصومة عن الخطأ ولكنها نتاج خبرة طويلة من عمل السابقين. ولهذا السبب فإن أي تغيير أو تعديل للمنهج يجب أن يتم بذكاء وعلم وليس بارتجال وعباطة. ومن الضروري أن ينتبه المبتدئون لهذه النقطة. فبعض المبتدئين من يستخف أو يستثقل القيام ببعض خطوات المنهج. وهنا الخطر الأكبر، فإن المبتدئ لا يعلم الهدف الحقيقي من هذه الخطوات وربما يؤدي ارتجاله إلى وقوعه في الثغرات والتي قد لا ينتبه لها إلا بعد فوات الوقت.

والفائدة الفردية الثانية للمنهج هي أنها تقوم بتسهيل الابتداء في العمل. فأصعب جزء في الكتاب هو الصفحة الأولى وأصعب جزء في المسير هو الخطوة الأولى وأصعب جزء في المشروع هو المرحلة الأولى. ووجود منهج واضح للعمل سيساعد المبتدئ في خوض الخطوة الأولى فيه.

وأما الفائدة الجماعية في المنهج فهى تتعلق بالعمل الجماعي. فعندما يكون هناك مشروع يتطلب الكثير من فرق العمل فإنه من الضروري أن يكون هناك فلسفات وقواعد مشتركة (منهج عمل) لتنظيم العمل فيما بينهم بحيث يستطيع كل فريق تسليم منجزاته للفريق الآخر بانسيابية وهدوء. وإذا لم يكن هناك منهج مشترك وواضح في المؤسسة فإن الذي يحدث هو استنزاف داخلي كبير في المؤسسة في محاولة كل فريق شرح منهجه الخاص للفريق الآخر.

وبالطبع فإن أحد المناهج الأساسية في عمل الدولة والجماعة هو المنهج الاستراتيجي. وهنا نأتي إلى تعريف التفكير الطفولي وهو الارتجال في تنفيذ العمل السياسي دون ضوابط ودون رؤية استراتيجية واضحة.

انتبه الآن إلى الحوار التالي الذي حدث بين المؤلف وجماعة:

عمر: لا يجوز للجماعات الإسلامية أن تأخذ أموالا وتبرعات من حكومات غير مسلمة (أي حكومات أوروبا وأمريكا).

الجماعة: ليش (لماذا). هذا حق موجود في القانون.

عمر: لأن الرسول عليه السلام قال: لا تستضيئوا بنار المشركين.

الجماعة: شو المعنى بالضبط من الحديث؟ يعني الحديث غير واضح.

عمر: طيب. هل يجوز أن يقوم المسلمون بأخذ أموال وتبرعات من حكومات غير مسلمة من أجل بناء المساجد.

الجماعة: شو المانع؟

عمر: هل يجوز للمسلمين أخذ تبرعات من حكومات غير مسلمة لتجديد بناء الكعبة؟

الجماعة: الكعبة وضعها خاص.

عمر: ...إلخ

قام المؤلف بعدها باستعراض الحوار. وتبين للمؤلف نقاط انتباه مهمة:

رأي الجماعة كان صحيحا. فحديث الاستضاءة ("لا تستضيئوا بنار المشركين" رواه النسائي). هو غير واضح. فلا يوجد في الحديث حدود واضحة تصلح أساسا لحكم شرعي. كما أن هناك شواهد مخالفة للمعنى من الحديث مثل اتفاق الرسول عليه السلام مع اليهود أن يدافعوا معا عن المدينة وقيام الرسول عليه السلام باستعارة الدروع من صفوان بن أمية بعد فتح مكة ولم يكن صفوان قد أسلم بعد.

وهذه نقطة انتباه وهي أن القرآن والسنة ليست أحكامًا شرعية فقط وإنما يوجد في القرآن والسنة الكثير من الإرشادات والحكمة. فقول الله تعالى عن العسل ﴿... شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ... ﴿٦٩﴾﴾ [النحل]، لا يتضمن أي حكم شرعي ولا يتضمن أن كل داء علاجه العسل وإنما كانت هذه الآية هي حكمة وإرشاد.

وكذلك حديث الاستضاءة، فغلبة ظن المؤلف أن هذا الحديث هو إرشاد وحكمة وليس حكما شرعيا. والمعنى المستفاد من هذا الحديث هو أنه من الأفضل (وفي كثير من الظروف) عدم الاستضاءة بنار المشركين. والمعنى المفهوم من الحديث أنه من الأفضل في وقت الليل الدامس، وكان عند المشركين نار، أن يقوم المسلمون بإغماض أعينهم كي لا يستضيئوا بنار المشركين. وبالطبع فإن في هذا الحديث بلاغة ومجازًا ولكن الفكرة في هذا الحديث واضحة.

وهناك نص إرشاد آخر وهو آية السبيل: ﴿ ...وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَـٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾﴾ [النساء]. وفي هذا النص لا يوجد طلب أو نهي واضح للفعل. كما أن كلمة سبيل هي كلمة عامة وليست محددة. ولهذا السبب فعلى غلبة الظن أن النص هنا هو كذلك للإرشاد والحكمة، وأحد التفاسير لهذه الآية هو: "﴿ ...وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَـٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾﴾ أي حجة عقلية ولا شرعية يستظهرون بها إلا أبطلها ودحضت" (تفسير القرطبي). واستنادا إلى هذا التفسير واعتمادا على عموم النص في الآية فمن الممكن الاستنتاج أنه ليس من الحكمة إعطاء الكافرين الفرصة للتمنن على المسلمين. وبالطبع فما سبق ليس حكما شرعيا وإنما هو حكمة استئناسية.

وهناك كذلك حديث الطيبة: قال الرسول عليه السلام: "إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا" (رواه مسلم). والحديث كذلك ليس فيه طلب أو نهي واضح للفعل ولا يوجد فيه زجر أو عقاب. ولهذا السبب فإن غلبة الظن أن هذا الحديث هو كذلك للإرشاد والحكمة.

ولهذا السبب فقد أخطأ المؤلف في بداية الحوار السابق في عبارة "لا يجوز". وفي وقت كتابة هذه السطور فإنه لا يوجد عند المؤلف أي دليل واضح يقوم بتحريم

قيام الجماعات الإسلامية بأخذ التبرعات من الحكومات غير المسلمة. ولكن دعونا نعيد صياغة الموضوع ونسأل: هل من الحكمة أن تقوم الجماعات الإسلامية بأخذ التبرعات من الحكومات غير المسلمة؟

دعونا نقوم بالإجابة على هذا السؤال:

هناك الكثير من الخلط والأباطيل في كتاب كفاحي لأدولف هتلر ولكن فيه فقرة في غاية الذكاء ومن المناسب التعرض لها:

"إن استمالة السواد إلى الفكرة القومية لا تتم بأنصاف التدابير والجهود المتقطعة. فلا بد من تركيز الجهود ومواصلتها بعناد إلى أن تؤتى ثمارها. فلكي نجعل من شعبنا قوميا ينبغي لنا أن نعمل قوميا ونعالج المعضلات بحزم، فالسمّ يُكافَحُ بالعقار المضاد له ولا ينفع في مكافحته الرقى والتعاويذ".

وهذه الفكرة صحيحة. فلكي تدعو الجماعة إلى تحقيق هدف قومي فعليها أن تستخدم قواعد وأدوات قومية. وذلك لأنها إن قامت باستخدام أدوات غير قومية فإنها ستخلق بذور التشقيق في الجماعة بين مؤيد ورافض.

وكذلك في موضوع الإسلام . فعندما تدعو الجماعة إلى هدف إسلامي فعليها أن تستخدم قواعد وأدوات إسلامية، وإلا فإن الجماعة نفسها مهددة بالانشقاق.

ولكن هذه الفكرة (تحقيق الأهداف الإسلامية بقواعد وأدوات إسلامية) تساندها نصوص الاستضاءة السابقة (حديث الاستضاءة والطيبة وآية السبيل). ولهذا السبب فمن الناحية العقلية فإنه من الخطأ القيام بالاستعانة بحكومات غير مسلمة لتحقيق هدف إسلامي، ومن إرشادية النصوص فإن الأولوية هي تحقيق الأهداف الإسلامية بقواعد وأدوات إسلامية.

ولكن دعونا نقوم بنظرة واقعية للأمور ونضرب الأمثلة في عدم حكمة الاستعانة بحكومات غير مسلمة لتحقيق أهداف إسلامية:

١. القيام بأخذ التبرعات من الحكومات غير المسلمة معناه أن الحكومة لها الحق القانوني لمتابعة الجماعة ومحاسبتها لأن هذه الأموال في الواقع هي أموال دافعي الضرائب.

٢. قيام الجماعات الإسلامية بأخذ التبرعات من الحكومات غير المسلمة لتحقيق أهداف إسلامية معناه أن الحكومة قادرة على الإعلان والدعاية أنهم من محبي الإسلام وأنهم يقومون بدعم المشاريع الإسلامية. وإذا انتبهت فإن هذا هو بالضبط عكس الحكمة المفهومة من آية السبيل.

٣. وضمن علم المؤلف فقد قامت مجموعة من الأفراد العرب في إحدى المدن الأوروبية يقودهم رجل اسمه محمد بمحاولة تأسيس جمعية عربية في تلك المدينة. ولكن قامت مجموعة أخرى من العرب باتهام محمد (ظلما) بأنه يريد الاستيلاء على الأموال المخصصة للجمعية من الحكومة وعندها اعتزل محمد وأصحابه هذا المشروع غضبا ونفورا. وقامت المجموعة الأخرى بتأسيس الجمعية العربية وقامت بأخذ التبرعات من الحكومة. واستمرت الجمعية بعضا من الوقت في وئام ولكن مع الأيام بدأت تظهر المشكلات. وكانت إحدى المشكلات متعلقة في كيفية صرف الأموال. وبالطبع كان الجميع نظيفي اليد ولم تكن المشاكل متعلقة بالاختلاس أو السرقة وإنما كانت المشكلة هو في خيارات صرف الأموال. ولهذا السبب وأسباب أخرى فقد انهارت الجمعية في النهاية. والعبرة هنا أن الجماعة إذا كانت ذات تفكير طفولي وكانت الأموال سهلة المنال فإن هذا سيسبب الكثير من المشاكل والتشققات.

وضمن وجهة نظر المؤلف فإن هناك طريقين لنجاة ونجاح الجماعة:

- أن يكون للجماعة ذكاء استراتيجي مرتفع وقادر على خلق منهج استراتيجي واضح وثابت.

- أن تقوم الجماعة باستنباط منهج عمل ابتدائي لها من الحكمة والإرشادات في القرآن والسنة.

وفي واقع الحال فإن نصوص الاستضاءة السابقة (حديث الاستضاءة والطيبة وآية السبيل) هي أحد النصوص الصالحة لخلق منهج عمل واضح وثابت للجماعة الإسلامية.

وهنا وجهة نظر للمؤلف. وهي أنه من الممكن استخراج منهج استراتيجي واضح عن طريق دراسة التاريخ دراسة عميقة وذكية وتطبيق مهارات استراتيجية عالية. وكذلك من الممكن استخراج منهج ابتدائي مقبول عن طريق النظرة العميقة للنصوص الإرشادية في القرآن والسنة.

دعونا نضرب الأمثلة:

لقد استطاع الرومان أن يخدعوا هانيبال ثلاث مرات وفي كل مرة كانت النتيجة قاسية:

١. ماطلت قرطاجة في إعانة هانيبال بالمال والجنود على أساس أن روما لم تعد تشكل خطرا فلماذا صرف الأموال. ولكن قام هاسدروبال (أخو هانيبال) بقيادة جيش من إسبانيا وقطع جبال الألب ليلاقي هانيبال في جنوب إيطاليا. وهنا انسحب القنصل المواجه لهانيبال بهدوء وتوجه بجيشه إلى الشمال وقام بترك كشافة في المعسكر كي لا ينتبه هانيبال لهذه المناورة. واستطاع الرومان ضرب هاسدروبال في معركة ميتاروس (Metaurus) ولم يفطن هانيبال لما حدث إلا بعد فوات الأوان.

٢. قاد سيبون الأفريقي (قائد روماني كان قد نجا من معركة كان Scipio Africanus) جيشا إلى قرطاجة نفسها. وهنا استدعت قرطاجة هانيبال من إيطاليا ليدافع عنها. وحضر هانيبال وأخذ قيادة الجيوش. ولكن كان الرومان

هذه المرة متفوقين على هانيبال بسلاح الخيالة وذلك بسبب تحالفهم مع البربر. وانسحب سيبون إلى الحديقة الخلفية لقرطاجة (جنوب تونس) يحرقها. وفي الوقت نفسه استطاع سيبون إيهام هانيبال أن البربر ما زالوا بعيدين. وعندها وجدها هانيبال فرصة لأن يقوم بضرب سيبون قبل أن يتحد مع خيالة البربر. فأسرع بمطاردة سيبون ولكن كانت الصدمة هي وصول البربر إلى أرض المعركة في زاما. ولم يكن عند هانيبال أي خيار سوى الدخول في المعركة وكانت أول هزيمة له.

٣. الخدع السابقة لا تقلل من ذكاء ومهارة هانيبال فقد استطاع التلاميذ (الرومان) أن يضاهوا الأستاذ (هانيبال) في الاستراتيجية والتكتيك والتجسس والتجسس المضاد. ولكن الخديعة الثالثة كانت خطأً حقيقيا من هانيبال نفسه ولا يلام فيها أحد سواه. فقد اختار هانيبال المنفى الاختياري وذهب إلى أنطيوخس (إمبراطور الدولة السلوقية في سوريا والأناضول– AntiochusIII). وكان واضحا وقتها أن الأمور تتجه إلى صراع مسلح بين أنطيوخس وروما. وكان لهانيبال خطة ذكية. فقد كان يريد ١٠ آلاف جندي ليتجه نحو جنوب إيطاليا ويشغل الرومان هناك وعندها يستطيع هانيبال أن يستحث أصدقاءه في قرطاجة للثورة وتكون يد أنطيوخس حرة بعدها لأخذ اليونان. وهذه الخطة كانت بسيطة وذكية وأثارت اهتمام أنطيوخس. وانتبهت روما لما يجري فأرسلت سيبون الأفريقي على رأس وفد دبلوماسي إلى أنطيوخس. وكان الهدف الرسمي هو التعارف والتباحث في أمور المستقبل. وأما الهدف الحقيقي فهو إثارة الريبة بين أنطيوخس وهانيبال. وحيث كان لهانيبال وسيبون أحداث مشتركة فقد أدى هذا إلى لقاءات متكررة بينهما. ولم تكن اللقاءات سوى دردشة في الماضي وحكايات عابرة. ولكن هذه اللقاءات قد أثارت الريبة في نفس أنطيوخس من هانيبال، وربما نجح الرومان بإثارة بعض الشائعات التي تعزز هذه الريبة. وكانت النتيجة قيام أنطيوخس بإلغاء جميع خطط هانيبال. وهذا بالضبط ما كانت تريده روما.

وما حدث هو في الواقع خطيئة حقيقية من هانيبال. فهانيبال كان يعلم تماما أن روما لن تسامحه أبدا، كما أن روما تعلم تماما أن هانيبال لن يتهاون معهم. وكان هانيبال في موقف الضعف وليس القوة. فكان من الخطأ الشديد أن يتعامل مع الوفد بالود والترحاب والدردشة. وهذا الخطأ قد دفع هانيبال ثمنه كاملا.

في مقابل القصة السابقة هناك قصة أخرى:

فقد كان يوسف اسماعيل النبهاني (أحد وجهاء فلسطين) في مجلس وجاءه رسول من القنصل الإنجليزي بمظروف. وعندها طلب يوسف من حفيده (تقي الدين النبهاني) أن يقوم بإحضار علبة الكبريت ثم قام يوسف بإحراق المظروف أمام الرسول والحضور.

نظرة يوسف كانت واضحة. فربما كان في المظروف رسالة تحذير أو مباركة ولكنه إذا قام بفتح المظروف وقراءة ما فيه فإن بعض الحضور سيظن أن يوسف يتعامل مع الإنجليز. وهذا بالضبط ما كان يهدف الإنجليز إلى الإيحاء به. وهنا كان الحزم عند يوسف في التعامل مع هذا الموقف.

الآن...هل أتت نظرة يوسف من مهارة استراتيجية أم جاءت من نظرة عميقة للإسلام ؟؟

الأمر سيان. فإن النظرة الاستراتيجية للأمور والنظرة العميقة للإرشادات الإسلامية تؤدي (في الكثير من الأحيان) إلى نفس العمل.

وكذلك قام تقي الدين النبهاني بخلق فلسفات واضحة في منهج العمل في حزب التحرير. وكان ضمن هذا المنهج عدم استخدام السلاح وعدم المهادنة وعدم الركون إلى أنظمة الحكم الوضعية وعدم السكوت عن الظلم. ولم تأت هذه الفلسفات إلى تقي الدين النبهاني بسبب النظرة الاستراتيجية للأمور ولم تأت نتيجة التعمق في دراسة التاريخ ولم تأت نتيجة لدراسة ديناميكية المجتمعات ولم تأت نتيجة لتجارب الخطأ والصواب، وإنما جاءت من نظرة عميقة للإرشادات والحكمة في

القرآن والسنة. ففقد اقتنع الرجل بضرورة الدعوة لإقامة دولة الخلافة وكان من الضروري البحث عن منهج عمل، وانتبه إلى منهج عمل الرسول عليه السلام في إقامة دولة الإسلام وانتبه لوجود المراحل فيها. فكان أن استنبط هذه الفلسفات من مراحل هذه الدعوة.

في حين أن حزب الله في لبنان لم يستنبط منهج العمل من نصوص إرشادية ولم يستخدم نصوص الاستضاءة في تحديد نظراته الاستراتيجية، وإنما جاء منهج العمل عند حزب الله نتيجة لذكاء استراتيجي مرتفع ونتيجة للاستشارة والانتباه للخطأ والصواب.

وهنا النقطة الجوهرية وهي إما أن تقوم الجماعة باختيار منهج عمل ثابت وواضح عن طريق نظرة استراتيجية ذكية ومرتفعة للأمور (وهذا يتطلب دراسة عميقة ومستفيضة للاستراتيجية والتاريخ)، وإما أن تقوم الجماعة باختيار منهج العمل لها عن طريق استنباطه من النصوص الإرشادية في الكتاب والسنة.

وأما إذا لم يكن عند الجماعة ذكاء استراتيجي أو لم يكن عند الجماعة منهج واضح وثابت من النصوص الإرشادية فإن هذه الجماعة الإسلامية ستكون دائما التابع وليس السيد، كما لن تكون نجاحاتهم ذاتية وإنما صدقة وعطية من الأنظمة الحاكمة ولأهداف هذه الأنظمة.

توجد الآن نقطة فرعية تابعة لموضوع المقالة وهو اللياقة في التصرف وهي في الواقع نقطة انتقاد لعمر بكري وأبى قتادة. ونظرة المؤلف أنه كان من غير اللائق لهما أن يأخذا المساعدات المعيشية من الإنجليز ويقودا في الوقت نفسه جماعات إسلامية تدعو إلى ضرب وقتال الإنجليز:

هناك خلاف عند الفقهاء في موضوع كشف الفخذ للرجال، فبعض العلماء من اعتبر الفخذ عورة والبعض الآخر اعتبر الفخذ ليس بعورة. ولكن ضمن وجهة نظر المؤلف فإنه من غير اللائق للعالم المسلم ذي اللحية الطويلة وطول العمر أن يذهب إلى شاطئ البحر بمايوه السباحة حتى وإن كان رأي هذا العالم أن الفخذ ليس بعورة.

وكذلك ليس من اللائق (ضمن وجهة نظر المؤلف) أن يقوم عالم الإسلام ذو اللحية الطويلة وطول العمر أن يفاصل بائع الخضرة بالفلس والفلسين. فالمفاصلة بالفلس والفلسين وأجزاء الفلس جائزة ولكنها غير لائقة للقادة والعلماء.

وهنا نأتي إلى صلب الموضوع. فقيام المسلم (كفرد) بأخذ معونة معيشية من الحكومة غير المسلمة بسبب وجود قانون واضح في المجتمع هو أمر ليس فيه مشكلة ضمن وجهة نظر المؤلف. فلم تأت هذه المعونة لتحقيق هدف إسلامي وإنما لتحقيق هدف فردي قانوني.

ولكن ليس من اللائق أن يقوم رجل مسلم بأخذ معونة معيشية من النظام وفي الوقت نفسه يقوم بقيادة جماعة تدعو إلى ضرب وتدمير هذا النظام. وهناك فرق شاسع بين الأجر والمعونة. فالأجر جاء نتيجة عمل. ولذا لا يوجد منة ولا جميل من النظام. ولكن المعونة جاءت من النظام نفسه.

وضمن وجهة نظر المؤلف فإنه كان لعمر بكري وأبى قتادة وغيرهم خياران لا ثالث لهما:

إما أن يقودوا الجماعة ويتعففوا عن المعونة المعيشية من الحكومة وأن تقوم جماعتهم بتدبير الحد الأدنى من مصاريف المعيشة. وإما أن يأخذوا المعونة المعيشية (كحق قانوني) ولكن يقومون بالامتناع عن قيادة الجماعة والاعتزال عن الحياة السياسية حتى يفتح الله عليهم باب رزق خارج المعونة الحكومية.

وبالطبع فإن المؤلف لا يقول إن ما فعله عمر بكري وأبو قتادة حرام. ولكن نظرة المؤلف أن ما فعلوه كان غير لائق بالضبط كعدم لياقة سادة القوم أن يفاصلوا بائع الخضرة بالفلس والفلسين.

آخر نقطة في هذه المقالة هو متابعة وتكملة لقصة سيبون الأفريقي و أنطيوخس ونهاية قرطاجة. وهذه النقطة هي خارج موضوع المقالة وهدفها هو الدعوة لدراسة تاريخ الرومان.

إن نجـاح سـيبون في زرع الريبـة بـين أنطيوخـس وهانيبال لم يكـن النجاح الدبلومـاسي الوحيـد له. فقد أرسـلته روما إلى قرطاجة ليقـوم بحل نزاع حدودي بـين قرطاجـة وجارتها. ولم يقم سـيبون بحل المشـكلة وإنما أصغى بهـدوء واهتمام لكلا الطرفين واسـتطاع تخديـر الموقف. فقد وجد أنه مـن المصلحة أن يكون هناك نفور بين قرطاجة وجيرانها دون أن يؤدي ذلك إلى العراك. وهذه مهارة دبلوماسية حقيقيـة.

وهناك مهارة أخرى لروما: فأحد الأمور التي كانت روما تهتم بها هو مصداقيتها. وكان هناك اهتمام بالالتزام بالمعاهدات والصدق بالعهود. وهذه النظرة جاءت بعد سنوات طويلة من الخبرة في توحيد إيطاليا. فقد وجدت روما أن المصداقية العالية هي الأساس في خلق الاحترام وردم الفجوات وتجاوز الآلام بين الولايات. وهنا كان اهتمام روما الحقيقي أن تكون الحرب التي تعلنها على أعدائها مشروعة.

انتبه هنا...المصداقية عند روما لم تأت بسبب مبادئ أخلاقية وإنما جاءت بسبب إدراك سياسي. ولهذا السبب فالقول إن روما كانت مهتمة بمصداقيتها هو وصف نسبي. أي أن روما كانت مهتمة بمصداقيتها وبدرجة أعلى بالنسبة لغيرها من الدول ذلك الوقت.

وهنا نأتي إلى الصراع بين أنطيوخس وروما. فإن كل الدلائل كانت تشير إلى حتمية الحرب بينهما. ولكن لم يكن من الحكمة الصبر حتى يستعد أنطيوخس للحرب. كما لم يكن من الحكمة لروما أن تسمح لأنطيوخس باختيار الوقت والمكان للصراع. ولهذا فقد كان لروما الخطة.

وكانت المرحلة الأولى من هذه الخطة هو إثارة الريبة بين أنطيوخس وهانيبال. وقد نجحت روما في هذه المرحلة. وأما المرحلة الثانية فقد كانت خطة سياسية أكثر دهاءً. فقد كانت وقتها في حرب مع اليونان واستطاعت احتلال اليونان والقضاء على نظام الحكم هناك. وبعدها قامت بإعطاء المدن اليونانية الحكم الذاتي ثم (وبشكل مفاجئ) قامت بالانسحاب الكامل من اليونان.

ولم يستطع أنطيوخس أن يقاوم إغراء اليونان فأرسل جنوده هناك وأخذها دون مقاومة. وهنا قامت روما بإعلان الحرب عليه وكان هذا مكيدة من روما فقد كانت الحرب مشروعة كما أن روما هي التي اختارت الزمان والمكان والظروف لهذه الحرب. وتم تحطيم الجيش الغازي في اليونان وتم ضربه في الأناضول. واضطر أنطيوخس إلى طلب الصلح وكان أحد الشروط هو تسليم هانيبال إلى روما. وهذا ما جعل هانيبال يفر مرة أخرى ولكن إلى أرمينيا.

وكذلك فإن المصداقية الرومانية كانت واضحة في التصرف مع قرطاجة. فقد كان صراع هانيبال مع روما هو صراع إنهاء وجود وكادت روما نفسها أن تنهار تماما. وهذا أمر لا يمكن لروما أن تنساه أو تغفره ولكن الزمن ليس بعيدا لمن صبر. وتم عقد معاهدة صلح بين روما وقرطاجة بعد معركة زاما والتزمت روما بها. ولكن تربصت روما بقرطاجة تنتظر منها الذريعة حتى قامت قرطاجة بإعلان الحرب على البربر عام ١٥١ ق.م بسبب خلافات حدودية وكان هذا ذريعة كافية للرومان. وبعد مناورات دبلوماسية لتشقيق قوة قرطاجة قامت روما بإعلان الحرب على قرطاجة وحاصرتها عام ١٤٩ ق.م. وهنا قامت روما بتصفية حساباتها مع قرطاجة وتدميرها بيتا بيتا وحجرا حجرا وطوبة طوبة، ثم قامت بحرث المدينة بالملح حتى لا يخرج منها أي حياة. وكانت هذه رسالة روما للآخرين أن هكذا تفعل روما بأعدائها التاريخيين.

وهنا دعوة أخرى من المؤلف لدراسة التاريخ الروماني بعمق وروية. فقد كان عند الرومان المهارة الحقيقية في الدبلوماسية والاستراتيجية والتكتيك وفي ألعاب السياسة الدولية وفي تشقيق المعارضة وفي هدوء الأعصاب وفي مهارة الصبر. وتم كتابة هذا التاريخ بقدر عال من الشفافية ولهذا السبب فإن هذا التاريخ يعد مصدرا أساسيا في تعلم مهارات الفنون الاستراتيجية.

الفصل الحادي والعشرون

حماس والانقلاب على فتح في ٢٠٠٧

الانقلاب الذي قامت به حماس على فتح في ٧-٦-٢٠٠٧ هو أحد الأمثلة على موقف يتفق فيه جميع الخصوم ولكن لكلّ أهدافه. بمعنى آخر أن هذا الانقلاب كان نقطة تقاطع لخطوط سياسية مختلفة. وضمن وجهة نظر المؤلف فإن انقلاب حماس قد باركته كل من أمريكا وأوروبا والخليج وإيران وحزب الله ومصر وإسرائيل.

دعونا ندخل إلى التفاصيل:

تم في مقالة سابقة (اليونان والرومان) التعرض لمهارات العمل المسرحي في التخطيط السياسي والاستراتيجي. وتم التنبيه على أن العمل المسرحي دون انضباط ورؤية استراتيجية واضحة سيؤدي إلى التشقق والانهيار. وهذا بالضبط ما حدث لحركة فتح ومنظمة التحرير الفلسطينية. فقد كان رجالات فتح يتباهون بأنهم رجال سياسة وأنهم رجال تكتكة (من تكتيك) ولكن هذه التكتكة كانت بلا انضباط ولا رؤية واضحة. وكانت النتيجة أن منظمة التحرير الفلسطينية (وحركة فتح) قد فقدت ثقة الصديق واحترام العدو وهيبة أنفسهم وفقدوا الاحترام فيما بينهم. وضمن وجهة نظر المؤلف فإن السبب الوحيد الذي يمنع تفتت المنظمة الآن هو تكاتف جميع الأنظمة للإبقاء عليها. إذ من الصعوبة الشديدة الآن خلق منظمة فلسطينية جديدة ذات توجه علماني بعد أن سيطرت التوجهات الإسلامية على وجدان الناس في فلسطين.

وبالنسبة لأهداف أمريكا وأوروبا من انقلاب حماس فقد تم شرحه بالتفصيل في الملحق الأول من هذا الكتاب. ولتلخيصه فإن هدف الغرب الأساسي هو الوصول إلى اتفاق يسمح بتخدير العالم الإسلامي. إذ أصبح واضحا لديهم أن مشكلة فلسطين هي المحفز الرئيسي لليقظة والوحدة والجهاد. ولكن أمريكا غير قادرة الآن على تغيير سريع وجذري ودراماتيكي لعلاقاتها مع إسرائيل. ولهذا السبب فإن التوجه عند أمريكا هو القيام بحل الموضوع وبأسلوب الخطوة-خطوة ومن خلال المفاوضات

بين الجانبين الفلسطيني والإسرائيلي. ولكي تنجح هذه المفاوضات في الوصول إلى حل كافٍ لتخدير العالم الإسلامي فإن الجانب الفلسطيني يجب أن يتصف بالحزم والمهارة. وهذه الصفات هي التي تفتقدها منظمة التحرير الفلسطينية.

وليس من السهل بناء هذه المهارات في المنظمة، كما أنه من الصعوبة استبدال منظمة التحرير الفلسطينية بجماعة أخرى علمانية. وبالتالي هناك خياران وهما رفع مستوى المهارات في المنظمة وهذا سيأخذ وقتا طويلا. والثاني هو استبدال منظمة التحرير الفلسطينية بحركة إسلامية معتدلة.وما يقوم الغرب به الآن هو التجربة والنظر لأي الخيارين أفضل له. وبالطبع فإن الحل الأخير هو كالعلقم في حلق الأنظمة الغربية ولكن هذا بالنسبة لهم هو أفضل الموجود.

والقرائن على صحة هذا التحليل هو تصرف أمريكا مع قيادات المنظمة. فأمريكا قامت (وبمهارة) بحرق وذم رجالات المنظمة بصيغة المدح والتبجيل.

وهذه مهارة واضحة عند الأمريكان وأول مرة انتبه لها المؤلف كان في عام ١٩٩٦. فبعد مقتل إسحاق رابين في فلسطين واستلام شمعون بيريز الحكم فإن الدعاية الأمريكية وتعليقات المسئولين الأمريكان كانت شبيهة لما يلي:

* يجب علينا مساعدة بيريز.

* يجب أن نعطي فرصة للسلام مع بيريز.

* يجب ألا نسمح لبيريز بالسقوط.

* علينا أن نؤمن السند لبيريز.

والمجتمع الإسرائيلي يعشق القوة والتكبر فكانت النتيجة من قيام أمريكا بضخ هذه التصريحات إلى المجتمع الإسرائيلي هو شعور المجتمع هناك بأن بيريز ضعيف ولا يستحق المساندة. وكانت هذه المناورات بالإضافة إلى بعض المغامرات الفاشلة التي قام بها بيريز في لبنان كفيلة بسقوطه في الانتخابات.

وقد كان من مصلحة أمريكا وأوروبا وقتها إسقاط بيريز حيث إن حزب العمل حاول استثمار زخم السلام الذي حدث للقيام بمحاولة تطبيع سريعة مع الأنظمة العربية المتفهّمة. وهذه المحاولة منطقية: فإذا استطاعت إسرائيل عمل علاقات تطبيع مع الدول الأساسية في المنطقة فإنها قادرة على المماطلة كيفما تريد في موضوع القدس. وقد ظهرت محاولات التسارع نحو التطبيع واضحة من خلال تنقلات رابين حول العالم العربي. كما أن رابين قد تعهد بالانسحاب من مرتفعات الجولان في محاولة منه لعمل معاهدة سلام سريعة مع سوريا. وهنا جاءت المكيدة الغربية لحزب العمل. فالغرب يريد حلا كافيًا لتخدير العالم الإسلامي وليس حلا يضع الجمر تحت الرماد. كما أن نظرة إنجلترا وأمريكا لإسرائيل أنها حرس حدود وليس شريكا لهم في الشرق الأوسط.

ونفس هذا الأسلوب (الحرق والذم بصيغة المدح والتبجيل) قد استخدمته أمريكا مع أبو مازن ورجالات المنظمة. فعبارات المدح الشديدة في موضوع السلام وموضوع التنازلات وموضوع الضرب على الإرهاب كانت حرقا حقيقيا لمصداقية أبو مازن والمنظمة عند أهل فلسطين والعرب. وكان أمرا عجيبا التسريب المستمر للصحافة عن اتفاقيات اليهود والأمريكان مع أبو مازن لإنهاء وجود حماس. وقبل عملية الانقلاب بأسابيع تم تسريب خطة عمل تفصيلية بين أبو مازن واليهود لضرب حماس. وكل هذه التسريبات كانت (ضمن وجهة نظر المؤلف) وسيلة لشحن الناس ضد المنظمة. واستمرت عمليات الشحن إلى أن قامت حماس بالانقلاب على فتح عام ٢٠٠٧. ولم يكن نجاح الانقلاب عجيبًا أو غير متوقع، فعلى كثرة أعداد فتح إلا أنهم كانوا بلا انضباط أو إرادة.

وأما بالنسبة لأهداف مصر ودول الخليج فإن منظمة التحرير الفلسطينية قد فقدت ثقة أصدقائها في الأنظمة العربية. وقد وصلت العلاقات بين المنظمة وإسرائيل إلى درجة عالية من التنسيق بينهما وكأنها أصبحت المنظمة جزءا من أجهزة الاستخبارات الإسرائيلية، وهذا أمر ما كان يمكن أن ترضاه مصر أو الأنظمة العربية. فالعلاقات مع إسرائيل أمر وطابور خامس لإسرائيل هو أمر آخر.

بالإضافة إلى ذلك فإن الأنظمة العربية قد بدأت ترى مصداقيتها تتلاشى وعروشها تنهار وهي بحاجة ماسة إلى حالة استقرار بينها وبين شعوبها. ومن الممكن تحقيق هذه الحالة إذا تم إرجاع القدس. وهنا المشكلة عند الأنظمة العربية وهي أن منظمة التحرير الفلسطينية ليست لديها المهارة الكافية لتحقيق هذا الهدف. ولهذا السبب فإن أفضل الموجود هو حركة حماس وخصوصا أن الأنظمة العربية في ذلك الوقت كانت تظن أنها قادرة على ترويض حماس وذلك نظرا لخبرتها معها. وإذا راجع القارئ الأخبار تلك الأيام فسيلاحظ أن الأنظمة العربية لم تكن متهجمة على حماس وإنما على العكس تماما فهي قامت بتثبيط جهود أبو مازن لمحاولة إعلان حماس كجماعة خارجة عن القانون.

نحن الآن بحاجة إلى دراسة تاريخ وفلسفات حماس. وحيث إن حماس هي انبثاق عن حركة الإخوان المسلمين؛ فلهذا فنحن بحاجة إلى دراسة تاريخ وفلسفات الإخوان المسلمين:

نشأت حركة الإخوان المسلمين في ١٩٢٨ بقيادة حسن البنا. وكان المسلمون إبان منعطف حاد في تاريخهم وهو إنهاء وجود الخلافة الإسلامية في تركيا عام ١٩٢٣.

ولم تنشأ حركة الإخوان كحزب سياسي ولا كقوة دافعة مبدئية وإنما نشأت أقرب إلى ناد اجتماعي. وأفضل دلالة على ذلك هو تعليق لـ د. محمد جمال حشمت (عضو الكتلة البرلمانية للإخوان المسلمين في مجلس الشعب المصري) عن وجود أربعة من النصارى مع حسن البنا في الجمعية التأسيسية للإخوان المسلمين (قناة الجزيرة - برنامج بلا حدود-المستقبل السياسي للإخوان المسلمين في مصر- ١٠-١-٢٠٠١).

ولهذا السبب فإن الإخوان المسلمين لم يكونوا أبدا ضد النظام. وبالطبع لم يكونوا مع النظام. ولهذا فإن موقف الإخوان من النظام كان موقف مهادنة. أي ليس مع أو ضد النظام.

ولكن هناك نوعين من المهادنة يجب الانتباه لهما:

١. مهادنة اعتزال: وهو ألا تكون الجماعة ضد أو مع النظام ولكن لا تكون كذلك في ود ووئام مع النظام. وهذه فلسفة بعض الحركات السلفية الآن في العالم الإسلامي. فالحركات السلفية الآن تنقسم إلى التالي:

أ. الحركة السلفية النظرية. وهم مع النظام كما هو الحال في سلفية ابن باز في السعودية.

ب. الحركة السلفية الجهادية كحركة القاعدة وطالبان.

ج. الحركة السلفية الانعزالية وهم المعظم من الحركات السلفية في العالم الإسلامي.

٢. مهادنة سلام: وهو ألا تكون الجماعة ضد أو مع النظام. ولكن هناك علاقات ود ووئام وصداقة بين رجالات الجماعة ورجالات النظام. وهذه كانت فلسفات الإخوان المسلمين في مصر والأردن والعراق والخليج وجميع العالم الإسلامي باستثناء سوريا.

وموقف الإخوان المسلمين في سوريا أمر يتطلب النظر؛ لأن ثورة الإخوان في سوريا كانت خارجة عن طبيعة وفلسفات الإخوان المسلمين. والفرق بين سوريا والعالم الإسلامي هو أن نظام الحكم في سوريا كان بعثيا علوياً (نصيرياً) في حين كان النظام في العراق بعثيا سنيا. ولكن النظام البعثي في كلتا الدولتين هو نظام غير إسلامي على الإطلاق. وعلى غلبة الظن فإن ثورة الإخوان في سوريا كانت فقط مكيدة من الأردن والعراق لإحراق مصداقية سوريا في الخليج والعالم حيث إن ثورة الإخوان المسلمين كانت ارتجالية ولم يكن لها أية فرصة للنجاح.

في عام ١٩٤٠ قام حسن البنا بإنشاء التنظيم الخاص. وهو تنظيم عسكري سري للإخوان المسلمين. والواقع فإن هذا التنظيم ما زال يثير الكثير من علامات

الاستفهام في التحليلات السياسية. وضمن ما ظهر من مقابلات وتقارير فلم يكن في ذهن حسن البنا أي أهداف لقلب نظام الحكم. كما أنه لم يكن هناك استراتيجية واضحة لضرب الإنجليز في مصر. وجميع العمليات التي قامت في مصر تجاه الإنجليز كانت غير دموية. ومعظم عمليات القتال التي قام بها التنظيم الخاص كانت في فلسطين.

وهنا نقطة انتباه: إذ كيف يستطيع التنظيم الخاص القيام بعمليات في فلسطين وفي تموين الجيش المصري دون أن ينتبه النظام الحاكم في مصر لوجود هذا التنظيم للإخوان المسلمين؟

ولهذا فمن الممكن التخمين بأن النظام في مصر كان يعلم جهادية الإخوان المسلمين في فلسطين ولكنه لم يكن يعلم تماما حجمها. ولكن يبدو أن النظام قد تفاجأ بحجم التنظيم الخاص وذلك عندما استطاع أن يستولي على أوراق تكشف أهداف وتكوين هذا التنظيم في عام ١٩٤٨ . وهنا بدأ النظام ينظر بعين الريبة تجاه حسن البنا وبدأ يحاول الحد من نفوذ جماعته. ويبدو أن المناورات السياسية للنظام لم تستطع الحد من قوة الإخوان المسلمين فتم اغتيال حسن البنا في عام ١٩٤٩ .

وتم انتخاب حسن الهضيبي زعيما للإخوان المسلمين بعد حسن البنا. وهنا علامات استفهام؟ فحسن الهضيبي كان في غاية الذكاء والتدين والأخلاق ولكنه كان من رجالات النظام، فقد كان مدير إدارة النيابات ورئيس التفتيش القضائي. وهذا لا يعني أبدا أن حسن الهضيبي كان عميلا للقصر أو الإنجليز. كما أنه ليس من الضروري لرجالات النظام أن يكونوا عملاء أو خونة. وإنما رجالات النظام هم الرجال الذين يقومون بمساندة وجود النظام. والمؤسسة القضائية هي جزء رئيسي من تشكيلة أي نظام حاكم. والظاهر أن الإخوان المسلمين أرادوا تخفيف حدة الاحتقان بينهم وبين النظام فكان اختيار الهضيبي على أساس أنه رجل موثوق لهم وهو كذلك رجل موثوق من النظام.

وفي تلك الأيام بدأ جمال عبد الناصر بالعمل. وكان لعبد الناصر أحلام كبيرة للعرب. ولكن أحلامه الشخصية كانت أكبر. وفي كتاب كوبلاند، ضابط المخابرات

الأمريكي في مصر، (The Game Player - Miles Copeland) فقد ذكر أنه كانت هناك اتصالات ومقابلات بين عبد الناصر وكيرميت روزيفلت (أحد كبار مدراء المخابرات الأمريكية) قبل قيام الثورة عام ١٩٥٢. وهذا الأمر غير مستبعد فإن الوثائق التي أوردها محمد جلال كشك في كتابه "ثورة يوليو الأمريكية" قد أظهرت وبوضوح بصمات الأمريكان في هذه الثورة.

على أية حال فقد تحدث عبد الناصر وقتها مع الجميع بمن فيهم الإخوان المسلمين. فقد ظهرت مقابلات وتقارير عن اتصالات مباشرة بين قيادات عالية من الإخوان المسلمين وعبد الناصر قبل الثورة بأيام وكانت قيادات الإخوان من القلائل الذين علموا بموعد الانقلاب عام ١٩٥٢. وبالطبع لم يكن في نية حسن الهضيبي وقيادات الإخوان المسلمين إنهاء وجود النظام القائم، فحركة الضباط الأحرار لم تكن موجهة نحو النظام القائم وإنما كانت موجهة ضد الملك فاروق. وقد كانت الأوضاع الاقتصادية والسياسية سيئة ومصداقية الملك في الحضيض وحرب الـ ١٩٤٨ ما زالت تحرق النفوس فكانت أي محاولة للتغيير ستلاقى بالترحيب.

واستطاع عبد الناصر استمالة اللواء محمد نجيب لحركة الضباط الأحرار وتم تعيينه رئيسا لهم عام ١٩٤٩. وهذه نقطة من المناسب الانتباه لها، فمحمد نجيب كان في غاية الذكاء والانضباط وتشهد له مواقفه على ذلك. ولكن يبدو أن مهاراته الاستراتيجية والسياسية لم تكن عالية. وهنا العبرة وهو أن الذكاء والانضباط لا يكفي للنجاح في العمل السياسي والاستراتيجي. ففي حين كان محمد نجيب هو الرئيس الرسمي لحركة الضباط الأحرار فإن عبد الناصر كان هو الرئيس الحقيقي لها، وكل الذي حدث هو قيام عبد الناصر باستغلال محمد نجيب لمصلحته.

أعلن عبد الناصر الثورة واستطاع الإمساك بمقاليد الحكم. وقام مجلس الثورة بخلع الملك فاروق وتعيين ابنه (أحمد فؤاد ذي الستة أشهر) وتولى محمد نجيب رئاسة الوزراء، وكان فيها عبد الناصر نائبا لرئيس الوزراء ووزيرًا للداخلية.

وفي ١٩٥٣ تم إنهاء النظام الملكي وإعلان الجمهورية وتم حل جميع الأحزاب السياسية (باستثناء الإخوان حيث تم اعتبارهم جماعة وليس حزبًا، وهذا ما جعل الإخوان يؤيدون هذا القرار). وتم الإعلان عن فترة انتقالية يقوم فيها مجلس الثورة بحكم البلاد. وأخذ محمد نجيب وقتها رئاسة الجمهورية مع منصب رئاسة الوزراء وبقي عبد الناصر نائبا لرئيس الوزراء ووزيرًا للداخلية.

على أية حال فقد بدأت الشكوك والنفور يظهر بين محمد نجيب والإخوان المسلمين من جهة وعبد الناصر ومجلس الثورة من جهة أخرى منذ عام ١٩٥٣. وبدأت الدعوات تظهر لإرجاع الحياة المدنية إلى مصر وإرجاع الجيش إلى ثكناته وإنهاء سلطته السياسية. وقد قيل إن الناس بدأت تتهكم على الثورة وقتها أنها استبدلت الملك بثلاثة عشر ملكا (مجلس الثورة).

واصطدم محمد نجيب مع مجلس الثورة في ٢٢-٢-١٩٥٤ فقدم استقالته. وعندها قام مجلس الثورة بإهمال الاستقالة واستبدلها بالإقالة في ٢٥-٢-١٩٥٤. وعندها تحرك الشارع المصري والإخوان المسلمون بمظاهرات شعبية عارمة ضد مجلس الثورة ومطالبين بعودة محمد نجيب. وأعاد مجلس الثورة محمد نجيب إلى منصبه في ٢٧-٢-١٩٥٤ ولكن هذا لم يمنع الإخوان المسلمين من القيام بأشد المظاهرات حدة في عابدين في ٢٨-٢-١٩٥٤. وهنا اتصل عبد الناصر بقيادات الإخوان المسلمين وبدماثة الحديث وجزيل الوعود قام عبد القادر عودة بإنهاء هذه المظاهرات.

وهنا نقطة انتباه أخرى. فقد كان بإمكان محمد نجيب والإخوان المسلمين ذلك اليوم أن يقوموا بإنهاء سلطة الجيش وإعادة الحياة المدنية إلى مصر ولكن لم يفعلوا. وهذه أحد الأمثلة الواضحة على سطحية وعدم نضوج التفكير الاستراتيجي عند محمد نجيب وقيادات الإخوان المسلمين.

تعلّم عبد الناصر الكثير من هذه المظاهرة وتعلم كيف يداري الناس بالدماثة من الحديث ويخفي ما في الصدر من نية. ويبدأ يرسم الخطط بهدوء، وما هي إلا ستة أشهر حتى استطاع عبد الناصر في ٢٦-١٠-١٩٥٤ وبضربة واحدة إنهاء النفوذ السياسي

للإخوان المسلمين في مصر وزج رجالاتهم في السجون وإعدام الكثير منهم وأولهم الشيخ عبد القادر عودة.

وفي ١٤-١١-١٩٥٤ تم إعفاء محمد نجيب من مناصبه ووضعه تحت الإقامة الجبرية وتولى عبد الناصر رئاسة الجمهورية في مصر.

وما فعله عبد الناصر بالإخوان المسلمين شبيه جدا بما فعله عبد الملك بن مروان بابن عمه عمرو بن سعيد (الأشدق) فقد كانت ولاية العهد لعمرو وكان لعمرو شعبية كبيرة في دمشق. ولكن حدثت المناوشات بين الرجلين ثم أجرى عبد الملك الاتصالات معه وتعاهدوا بالأمان ثم دعاه إليه وقتله ورمى رأسه للجماهير الغاضبة وفرق عليهم الأموال فأخذوها وذهبوا إلى بيوتهم. ويقال إن عبد الملك بعد أن استتبت له الأمور قام باسترجاع هذه الأموال من الذين أخذوها.

وهذا يدل على أمر جوهري: وهو أن الدولة لا تقوم على المحبة والتقدير وإنما تقوم على المبدأ أو تقوم على الخوف والطمع.

وهذه هي قصة الإخوان مع عبد الناصر. فقد استغلهم عبد الناصر لأهدافه وعندما انتهى دورهم قام بلفظهم. وهذه في الحقيقة هي قصة الإخوان المسلمين مع معظم الأنظمة العربية. ففلسفة الإخوان المسلمين والتي ترعرعت فيهم تتضمن المهادنة المسالمة لأنظمة الحكم الوضعية. وهذا ظاهر تماما في علاقتهم مع الأنظمة المختلفة كما في الأردن والعراق والخليج. وأحد أحدث الأمثلة هو الحزب الإسلامي في العراق، فهو حزب قد انبثق عن جماعة الإخوان المسلمين. وقد قاده طارق الهاشمي إلى المشاركة في البرلمان وحكومة الاحتلال والمسالمة والوئام مع جورج بوش. وفي الآونة الأخيرة قام طارق الهاشمي بالانفصال عن الحزب الإسلامي وتأسيس جماعة خاصة له. ولكن ما قام به طارق الهاشمي من جريمة المهادنة والمسالمة لقوة الاحتلال لا تقع فقط على عنق طارق الهاشمي وإنما تقع على جميع أعضاء هذا الحزب الإسلامي في العراق.

وفلسفة الإخوان في الحقيقة هي في محاولة التصرف بناءً على أخف الأضرار ومحاولة استغلال الظروف المتوفرة من أجل تقوية الناحية الإسلامية والاجتماعية في المجتمع ومحاولة إصلاح النظام من الداخل نحو الإسلام . والإخوان على اقتناع أن هذه الفلسفة ستؤدي إلى توجيه المجتمع والدولة نحو الإسلام بسلاسة وهدوء.

وبالطبع فإن هذا التفكير منطقي، ولكنه ليس مبدئيًا ولا هو ذكاءً استراتيجيًا. ومن حيث النظرة المنطقية فإن فلسفة الإخوان لها وزن حقيقي، ومن النظرة الواقعية فقد نجحوا في ذلك. فالإخوان لهم فضل واضح في نشر العبادات وتحفيظ القرآن ونشر فضائل الأخلاق وتقوية التكافل الاجتماعي وجمع وتوزيع الصدقات.

ولكن ضمن وجهة نظر المؤلف (كما تم تبيانها في مقالات سابقة) فإن الفضل الحقيقي يرجع للقوى الدافعة المبدئية؛ وذلك لأنها هي التي فرضت على النظام الحاكم التعاون والتنازل للإخوان المسلمين. فالإخوان المسلمون كانوا كالعلقم في حلق الأنظمة ولكنهم رضوا بهم خوفا من الأشد مرارة (القوى الدافعة المبدئية).

وهنا النقطة وهي أن لديناميكية الإسلام طوفانًا لا تستطيع الأنظمة أن توقفه. وقد استطاعت الأنظمة التخفيف من ضغط الديناميكية بالتنازل والتعاون مع الجماعات الإسلامية المتهادنة (المعتدلة). ولكن هذه الحالة مؤقتة؛ فالطوفان لا يمكن ايقافه بالسدود القصيرة.

وهنا نرجع إلى موضوع حماس:

حماس هو الاسم المختصر لحركة المقاومة الإسلامية. وهي حركة قد انبثقت عن الإخوان المسلمين في فلسطين وتترسخ فيها الفلسفة الأساسية عند الإخوان وهي فلسفة المهادنة. وقد تأسست في أيام الانتفاضة الأولى عام ١٩٨٧ .

وعلى غلبة التخمين فإن حماس قد تأسست برعاية ومباركة من ياسر عرفات. فقد بدأ الاتجاه الإسلامي يجرف أمامه التيارات العلمانية في المنطقة، وقد كانت الساحة الإسلامية في ذلك الوقت تحت قيادة حركة الجهاد الإسلامي (والتي تأسست في

السبعينيات). وكان أمام عرفات خياران: إما أن تكون قيادة المقاومة الإسلامية بيد جماعة معتدلة وإما أن تقوم الظروف بوضع هذه القيادة بيد جماعة جهادية مبدئية (كحركة الجهاد). وكان نفوذ حركة الجهاد ظاهرا في الساحة الفلسطينية وعلى غلبة الاحتمالات فإن حركة الجهاد هي التي أشعلت الانتفاضة في فلسطين. وبالتأكيد فإن الخيار الأول هو أفضل الموجود لياسر عرفات. وهنا النقطة... فحماس كانت علقما في حلق المنظمة والتيار العلماني ولكن كان غيرها أشد مرارة. وإذا انتبه القارئ لعلاقات حماس مع ياسر عرفات ورجالات المنظمة حتى وفاته فقد كانت علاقات قريبة من الود والصداقة.

وقد ساعدت اللعبة الدولية وتشابك المصالح وتعقيدات الظروف إلى جعل حماس هي المسيطرة على غزة عام ٢٠٠٧ كما تم شرحه سابقا.

وهنا نرجع إلى موضوع الأنظمة العربية وحماس. فقد قلنا في البداية إن الأنظمة العربية كانت على أمل القدرة على ترويض حماس لأجندتها وذلك لإدراك هذه الأنظمة للفلسفات السياسية لحماس.

ولكن المفاجأة كانت أن حماس لم تعد تتصرف تماما ضمن فلسفة المهادنة والمسالمة. وهذا يفسر شدة الانقلاب في مواقف الأنظمة العربية من مساندة شبه ظاهرة لانقلاب حماس في غزة عام ٢٠٠٧ إلى انتقادات عنيفة لحماس في حرب غزة عام ٢٠٠٩.

وهذا التغير في سلوكيات حماس له التفسير التالي:

إن المهادنة هي فلسفة الإخوان المسلمين (كمعارضة) تجاه النظام الحاكم. وكانت سيطرة حماس على غزة هي المرة الأولى التي يستلم فيها الإخوان المسلمون السلطة كاملة. وهذه حالة جديدة على الإخوان والأنظمة العربية. فقيام الأنظمة العربية بالاستنتاج بأن حماس ستبقى مهادنة كما كانت في السابق هو تخمين منهم ليس له أدلة علمية.

وكذلك فإن ظهور لاعبين جدد (إيران وحزب الله) في الساحة الفلسطينية قد أثر على نظرة حماس للواقع وأعطاها دفعة ثقة. فقد استطاع حزب الله أن يقوم بإعطاء صورة مشرقة لإمكانيات المقاومة إذا تم إعطاؤها حقها. وكذلك فقد استطاع حزب الله وإيران أن يقوما بتهريب السلاح والخبرات والمهارات إلى غزة. وكان لهذا الأثر الإيجابي في صمود وصلابة حماس أمام الأنظمة والظروف.

ولكن (ضمن وجهة نظر المؤلف) فإن المهارات والتفكير الاستراتيجي لحماس ما زال طفوليا. وليغفر لي أهل حماس ولكنه أمر مضحك ومبك عندما رفض توني بلير زيارة غزة ضمن جولته الأولى كمبعوث اللجنة الرباعية فأعلنت حماس أن بلير هو رجل غير مرحب به في غزة. وبعدها بشهور قام بلير بزيارة لأحد المشاريع في غزة دون اعتراض من حماس.

وقد كان أمرا مضحكا ومبكيا أن تقوم حماس باستقبال بعض المسئولين الأوروبيين ليقوموا بالدفاع عن إسرائيل في أرض غزة.

وإنه لأمر مضحك ومبك أن تقوم حماس باستقبال جورج جالاوي ومن معه بالترحاب والقبلات. ومع قناعة المؤلف بأن جالاوي هو رجل عالي الأخلاق إلا أنه يبقى جزءا من النظام الحاكم في إنجلترا. وهو في الحقيقة يقوم بعرض الوجه الجميل من هذا النظام.

وما حدث بين خالد مشعل وجيمي كارتر هو كذلك مضحك ومبك. فخالد مشعل هو رجل قائد ويمثل القوة المسيطرة في غزة. في المقابل فإن كارتر لا يمثل الآن إلا نفسه. فأي حديث بين مشعل وكارتر سيؤدي إلى وعود والتزامات من مشعل وتفهمات لا معنى لها من كارتر. وكان أول شيء قاله كارتر بعد الاجتماع إن مشعل قال له كذا وكذا. وهذا خطأ استراتيجي من خالد مشعل، فالاجتماع لم يكن مصيريا. والأهم من ذلك أن كارتر يمثل مصيبة كامب ديفيد فأي إشارة يريد مشعل أن يرسلها إلى العالم؟

إنه لمن الضروري جدا لحماس أن يكون لها منهج استراتيجي واضح وأن تثبت عليه وإن أدى إلى المكاره. فعندما تكون الجماعة (أو الدولة) ضعيفة فعليها أن تكون حذرة جدا من تبديد مواردها وإمكانياتها في مشاريع ليست مصيرية؛ لأن هذا سيؤدي إلى استنزاف الموارد وإشغال الأذهان عن الأمور المصيرية. والطريقة التي يمكن بها التمييز بين المصيري وغير المصيري وبين حالة الاستنزاف أو حالة الاستثمار تكون بخلق منهج استراتيجي واضح والثبات عليه.

ألم يحن الوقت لحماس أن تتعلم فنون التفكير الاستراتيجي؟؟؟؟

رجوعا إلى البداية: قلنا إن انقلاب حماس على فتح كان نقطة تقاطع لأكثر من خط سياسي وكلٌ لأهدافه. فماذا كان هدف إسرائيل؟

إسرائيل قد استحوذت عليها عقدة المماطلة السابق ذكرها في مقالة سابقة. فإسرائيل ليست قادرة على اتخاذ قرارات مصيرية بسبب اختلاف قلوبهم فكان أفضل الحلول عندهم هو مماطلة الأمور.

فانقلاب حماس قد خفف الضغط عليها في موضوع التزاماتها لخارطة الطريق كما خفف الضغط عليها لعمل مفاوضات جادة بينها وبين المنظمة وهذا أراحها. وبالطبع فهذا غباء حقيقي من إسرائيل لأن هذه الراحة مؤقتة وستؤدي إلى مشاكل أكبر لها، وما فعلته إسرائيل هو هروب من الرمضاء إلى النار. ومع أن انقلاب حماس قد ساعد على تخفيف الضغط عليها ولكن وجود قوة إسلامية جنوب العدو الإسرائيلي سيشكل مثالا وقدوة للعالم الإسلامي كما شكل حزب الله المثال والقدوة. وهذا سيؤدي إلى المزيد من شحن النفوس في العالم الإسلامي وهو أمر ليس في مصلحة إسرائيل ولكن ليس لإسرائيل عقل. وإذا انتبه القارئ إلى التاريخ فإن حماقات إسرائيل هي أحد الأسباب الرئيسية لاستيقاظ العالم الإسلامي ورغبته في الوحدة.

توجد هنا نقطة فرعية من المناسب التعرض لها: هل كان جمال عبد الناصر عميلا لأمريكا؟

كلمة عميل تم استخدامها بكثرة إلى الدرجة التي لم يعد لها معنى واضح. فهناك من يتهم أردوغان بأنه عميل أمريكي وجورباتشوف بأنه عميل أمريكي وميتران بأنه عميل أمريكي وغيرهم الكثير. وأصبحت كلمة عميل مطاطة تصلح لأي ظرف أو تعليق.

ومن الصعب جدا عمل تعريف جامع مانع للتفكير ولكن أحد عمليات التفكير الأساسية هي الاستنتاج عن طريق ربط المعاني والألفاظ ببعضها. ولهذا السبب فإن الألفاظ والمصطلحات هي لبنات التفكير. وإذا كانت لبنات التفكير غامضة ومبهمة ومطاطة فإن هذا يؤدي إلى تشويه في التفكير وتشويه في النتائج.

وهنا المشكلة في كلمة عميل. فقد أصبحت هذه الكلمة تعني معانيًا مختلفة لأناس مختلفين ولمواقف مختلفة. وهذا خطأ حقيقي لأنه يضرب الوضوح في عمليات التفكير. فالكلمات والمصطلحات قد تم وضعها لتسهيل عمليات التفكير ولتسهيل التواصل بين الناس. وأي غموض في الألفاظ هو غموض في التفكير وغموض في التواصل.

ولهذا السبب فإن المؤلف يُفضل استخدام كلمة عميل بمعناها الحرفي. وكلمة "عميل" الدارجة قد جاءت ترجمة لكلمة Agent وهو الموظف السري لجهاز المخابرات. ومن هذا التعريف فإن جمال عبد الناصر لم يكن عميلا لأمريكا.

ولكن ضمن النظرة إلى عبد الناصر فقد كان أداة سياسية بيد أمريكا وكان نظامه تابعا لأمريكا. فقد قام عبد الناصر بالثورة وهو لم يكن وقتها ذا خبرة في السياسة الدولية ولا في إدارة أجهزة الحكم ولا في إدارة الأجهزة الأمنية فقامت أمريكا بمساعدته في التنظيم والتدريب.

الآن... عندما يضع الضعيف يده في يد القوي فإن غلبة الظن أن يذوب الضعيف في جسم القوي. وكذلك إذا تماكر الهاوي مع المحترف فإن غلبة الظن أن يذوب الهاوي في جسم المحترف ويسير في فلكه.

وهذا ما حدث مع عبد الناصر ونظامه، فقد كانت أمريكا تعلم تماما مواقع الأزرار والأوتار في عبد الناصر ونظامه وتعلم تماما كيف تعزف عليها:

لنفترض جدلا أن أمريكا أرادت أن يقوم عبد الناصر بتنفيذ مشروع وليكن اسمه "مشروع ألفا". فكل ما يجب على أمريكا أن تفعله هو العزف على الأوتار الصحيحة وعندها يقوم نظام عبد الناصر بتنفيذ هذا المشروع.

ولكن من وجهة نظر عبد الناصر فإن الأمر مختلف. والذي حدث عنده أنه بعد المقارنة والاستشارات والتوصيات ومراعاة الضغوط فقد انتبه إلى أن أفضل الاختيارات الموجودة لديه هو تنفيذ مشروع ألفا. فبالنسبة لعبد الناصر فهو لم يقرر تنفيذ المشروع بسبب الارتباط بأمريكا وإنما لأن هذا المشروع هو أفضل الخيارات المتاحة له.

وبالنسبة إلى متفرج ينظر إلى أمريكا وعبد الناصر فسيجد أن عبد الناصر كان أداة سياسية لأمريكا بغض النظر عن نيات عبد الناصر. والأدوات السياسية كأدوات النجارة. فالنجار عنده أدوات مريحة وأدوات أخرى مزعجة وأدوات لا بديل لها وأدوات أخرى ينتهي منها ويرميها ويستبدلها بأخرى. وكذلك الأدوات السياسية والأنظمة التابعة.

وتركيا ليست تابعة لأمريكا وفرنسا ليست تابعة لأمريكا ولكن مصر هي تابعة لأمريكا وتونس هي تابعة لفرنسا. وبالطبع فإنه لا يوجد تعريف جامع مانع لكلمة تابع فهناك دول واضحة في تبعيتها وهناك دول واضحة في استقلاليتها ولكن هناك دول تتأرجح بين التابعية والاستقلالية منها سوريا وباكستان والجزائر. فهناك مواقف في هذه الدول يظهر فيه تابعيتها ولكن هناك مواقف يظهر فيه استقلاليتها.

ورجوعا إلى عبد الناصر فهو لم يكن عميلا ولكنه كان هو ونظامه أداة سياسية بيد أمريكا. وبالطبع فإن عبد الناصر لم يكن يعتبر نفسه عميلا أو أداة بيد أحد وإنما كانت له أحلامه ومخططاته حتى الرمق الأخير.

الفصل الثاني والعشرون

حماس والجدار الفولاذي ٢٠١٠

تقوم الآن مصر بعمل جدار فولاذي بينها وبين غزة على الشريط الحدودي بهدف إنهاء الأنفاق.

والسؤال هنا: ماذا سيكون ردة الفعل لحماس؟

إذا كانت الأنفاق هي الشريان الحيوي لغزة ونجح الجدار الفولاذي بضرب هذه الأنفاق فإن خيارات غزة ستكون محدودة:

١. الاستسلام للإرادة الدولية وهذا سيؤدي بعد سنوات إلى مصير مشابه لمصير صدام حسين وقرطاجة هانيبال .

٢. الموت على سنة عنترة بن شداد.

وهناك قوانين كثيرة في ديناميكية المجتمعات ولكنها تتغير فجأة وبشكل غير متوقع عند الظروف القصوى. وأشبه مثال على ذلك هو القط عندما تضعه في الزاوية فربما تستطيع الإمساك به وربما يتحول القط فجأة إلى أسد. وعليه فإن ما يفعله النظام الحاكم في مصر الآن هو مقامرة غير مضمونة العواقب حيث إن رد حماس قد يكون خارج التوقعات تماما.

وضمن نظرية الاحتمالات فإن هناك احتمالا بأن تقوم حماس باحتلال الشريط الحدودي بأكمله وإخراج الجيش المصري منه.

وهنا يجب النظر إلى عواقب هذا العمل:

* ليس من الصعب التخمين بأن حماس ستنتصر في الجولة الأولى على الأقل في احتلال الشريط الحدودي. ومع أن قوة حماس محدودة وقوة الجيش المصري أكبر إلا أن إرادة الجيش المصري لقتال أهل غزة غير عالية. بالطبع فإن إرادة الجيش المصري

لقتال إسرائيل ستكون عالية جدا ولكن في قتال أهل غزة فإن الأمر مختلف. وفي المقابل فإن أهل غزة سيقاتلون من أجل الحياة نفسها.

* إن النظام المصري يترنح ولكن لا يوجد أي قرينة تسمح للمؤلف بالتخمين لتأثير احتلال الشريط الحدودي لقوة النظام. وفي هذه الحالة فإن المؤلف يضع احتمالات متساوية فربما يؤدي احتلال الشريط إلى إضعاف أكثر للنظام وربما يؤدي إلى تقويته.

* مصر لا تستطيع أن ترسل قوات ضخمة إلى سيناء بحكم المعاهدة بينها وبين العدو الإسرائيلي. ولا يظن المؤلف أن إسرائيل ستقبل بوجود قوة مصرية ضخمة على الحدود بينهما.

* بالتأكيد فإن إسرائيل ستقوم بضرب غزة ولكن أصبح لغزة خبرة حقيقية في التعامل مع إسرائيل وإدراك حقيقي لحدود القوة عند العدو الإسرائيلي. كما أن العالم الآن يسعى إلى التهدئة ولا يظن المؤلف أن العالم سيسمح لإسرائيل بالقيام بما فعلته في غزة عام ٢٠٠٩.

* وخلاصة القول أن النظام المصري قد أخطأ بشكل حقيقي في موضوع الجدار الفولاذي ودفع الأمور إلى الزاوية وخصوصا أن النظام لا يحتفظ بجميع الأوراق معه ولأن ردود حماس قد تكون غير متوقعة.

[تمت كتابة هذه السطور قبل الانتفاضة المصرية بأشهر]

الفصل الثالث والعشرون

الأخلاق في أوروبا وأمريكا

هذه المقالة تنقسم إلى عدة عناوين:

* الثقافة والمجتمع.
* القواعد الأخلاقية في العلاقات الدولية.
* مجال الأخلاق.
* الديانة والمجتمع.
* العلمانية والإلحاد في أوروبا.

* الثقافة والمجتمع

لقد تأثر المستغربون (من كلمة الغرب) العرب في أوائل القرن العشرين بالأخلاق في العالم الغربي إلى درجة أن قال أحدهم: يوجد هناك إسلام ولا يوجد مسلمون. ويوجد هنا مسلمون ولا يوجد إسلام .

وكذلك فقد أثبت التاريخ أن أخلاق الدولة في العالم الغربي (أوروبا وأمريكا) ليست مرتفعة وإنما ساقطة في كثير من المواقف، و أحدث الأمثلة هو سجن أبو غريب وغوانتانامو وإجرام الحلفاء في العراق وأفغانستان وتواطؤ الغرب سياسيا وإعلاميا مع الجرائم الإسرائيلية في غزة.

وهنا توجد نقطة تعارض بين ما يظهر من أخلاق عالية في المجتمعات الغربية وبين ما يظهر من أخلاق ساقطة في الدول الغربية.

ولحل نقطة التعارض فإن الأمر يحتاج إلى دراسة لديناميكية المجتمع وأساليب الحكم:

هناك طريقتان لحكم المجتمع:

١. الحكم بالحديد والنار وتكون كلمة الحاكم هي القانون.

٢. أن يكون هناك ثقافة يلتزم بها الجميع في المجتمع وتقوم هذه الثقافة بتنظيم الحياة في هذا المجتمع.

الحل الأول شديد التكاليف كما تم تبيانه في مقالات سابقة. ولهذا فإن الحل الأكثر واقعية هو الحل الثاني. وفي هذا الحل فإن المجتمع بحاجة إلى ثقافة يتم الاتفاق عليها بحيث تكون قادرة على الحكم والفصل بين الناس.

والثقافة (Cuture) هي مصطلح واسع يتضمن مجموعة الأفكار والفلسفات والمفاهيم والمسلمات والتي تحدد سلوك (Attitude) الأجهزة الإدارية والمجتمعات.

وهناك أربعة أعمدة رئيسية في ثقافة أي مجتمع وهي القوانين والأعراف والأخلاق والديانة:

والقوانين تحدد ما هو المسموح وما هو الممنوع في المجتمع. والأعراف تحدد الطريقة المتبناة في تنفيذ الأعمال في المجتمع. والقوانين والأعراف هي الهيكلية الأساسية في المجتمع كما أن العظم هو الهيكلية الأساسية في جسم الإنسان.

ولكن القوانين والأعراف لا تكفي لجعل المجتمع منسجما في سلوكياته. ولهذا فإن المجتمع بحاجة إلى مجموعة من المفاهيم السلوكية (الأخلاق) تقوم بخلق الدافع للانسجام في المجتمع. وكثير من هذه المفاهيم غريزية وممدوحة كالمساعدة عند الحاجة والصدق والأمانة. ويتم ترسيخ هذه المفاهيم في المجتمع بالتربية والدعوة والدعاية والتذكير. ويقوم المجتمع بحماية هذه المفاهيم بقوة القانون (كمعاقبة السارق) أو بقوة الأعراف (كالنفور من الكاذب).

وهنا النقطة الجوهرية...وهي أن الدولة لا تستطيع أن تقوم بمراقبة جميع الناس ومتابعة سلوكيات جميع الأجهزة الإدارية. ولهذا السبب فإنه من الضروري لنمو

ونهضة الدولة أن يكون في المجتمع الحد الأدنى من الأخلاق العالية، فالأخلاق هي في الواقع أداة ضرورية لإدارة المجتمع. وفي اللحظة التي يتراجع مستوى الأخلاق في المجتمع عن الحد الأدنى فإن الصراعات بين القوى المختلفة في الدولة ستكون أكبر من قدرة القوانين والأعراف على الإحاطة بها. وعندها يبدأ الاستنزاف الداخلي للدولة حتى الانهيار.

وهنا الحل في نقطة التعارض وهي أن أخلاق الدولة لا تتفق بالضرورة مع أخلاق المجتمع. ومن الممكن أن تكون أخلاق المجتمع مرتفعة وأن تكون أخلاق الدولة ساقطة. ولهذا السبب فإن المجتمعات الفرنسية والإنجليزية والأمريكية ومنذ القرن التاسع عشر كانت ضمن الحد الأدنى من الأخلاق العالية ولكن أخلاق الدولة في فرنسا وإنجلترا وأمريكا كانت أخلاقاً ساقطة.

وبالطبع إذا قامت إحدى القوى الأساسية في الدولة بانتهاك فاضح للقواعد الأخلاقية في الدولة فإن هذا يضع بذور الانهيار للدولة نفسها. إذ إن قوة الالتزام للقواعد الأخلاقية في المجتمع تأتي من تقديس غريزي من المجتمع نحو الأعراف والعادات. وفي اللحظة التي تقوم فيها إحدى القوى الرئيسية بانتهاك فاضح لهذه الأعراف فإن الذي يحدث هو ضرب نظرة المجتمع لهذه الأعراف وفتح الباب والأعذار للقوى الأخرى في المجتمع لانتهاك هذه الأعراف. وهناك كلمة مشهورة في هذا الأمر: فعندما قام سولا (Sulla) بقلب نظام الحكم أول مرة في روما عام ٨٨ ق.م فإن بومبي (Pompey) أحد القادة اللاحقين قال: إذا فعلها سولا فلماذا لا أفعلها أنا!! (If Sulla could, why can't I).

❖ القواعد الأخلاقية في العلاقات الدولية

لم تكن أمريكا وإنجلترا بحاجة لانتهاك معاهدة جنيف في العراق وأفغانستان كما لم تكن أمريكا بحاجة ماسة لخلق مصطلح جديد في وصف السجناء وهو مصطلح "عدو محارب" (Enemy Combatant) وهو المصطلح الذي تم من خلاله حرمان الأسرى المسلمين في أفغانستان من الحقوق ضمن معاهدة جنيف. كما أن العالم الغربي

لم يكن بحاجة ماسة إلى التواطؤ المفضوح مع الجرائم الإسرائيلية في فلسطين. ولكن قام الإنجليز والأمريكان بانتهاك معاهدة جنيف في العراق وأفغانستان وقامت أمريكا بانتهاك معاهدة جنيف في موضوع الأسرى المسلمين وقام العالم الغربي بانتهاك القواعد الأخلاقية في تواطئهم مع الجرائم الإسرائيلية في فلسطين. وهذا الأمر (ضمن وجهة نظر المؤلف) هو عمل أحمق من الغرب؛ إذ ما الذي يمنع قيام دولة الخلافة إذا قامت بإنهاء التزاماتها بمعاهدة جنيف والمعاهدات الدولية الأخرى بسبب عدم التزام الحلفاء بهذه المعاهدات في العراق وأفغانستان؟؟؟

❖ مجال الأخلاق

كانت القوى الأساسية في المجتمع الغربي في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين هي قوة الطبقة الأرستقراطية وقوة الطبقة الوسطى. وأما الطبقة العاملة (وهي الأغلبية) فكانت مهملة. ولهذا السبب فإن مجال الأخلاق في هذه الفترة كان يتعلق بنظرة المجتمع نحو الطبقة الأرستقراطية والطبقة الوسطى فقط. وعبارة "أخلاق الجنتيلمان" (Gemtelman Manners) كانت مثال الأخلاق لرجال الطبقة الأرستقراطية والوسطى.

وأما نظرة المجتمع نحو الطبقة العاملة فقد كانت (ضمن قواعد الأخلاق الحالية) نظرة غير أخلاقية . وإذا قام القارئ بزيارة سياحية إلى إنجلترا وزار بعض القصور القديمة من القرن التاسع عشر فليقم القارئ بسؤال الدليل السياحي عن غرف الخدم. وسيجد القارئ أنه لم يكن هناك غرف خاصة للخدم وإنما كان الخدم ينامون في الممرات أو "كيفما اتفق". كما كان يتم استخدام الأطفال (لصغر حجمهم) في أعماق المناجم والأعمال الشاقة في المصانع. وهناك حادثة تم ذكرها في الصحف أثناء كتابة هذه السطور وهو قيام الحكومة الاسترالية بالاعتذار للأطفال المسروقين (Stolen Generations) والأطفال المنسيين (Forgotten Australian) ووجود حملة انتقادات على رئيس الوزراء الإنجليزي لتلكئه عن الاعتذار. والقصة هي أن استراليا قامت منذ عام ١٨٦٩ وحتى عام ١٩٦٩ بأخذ الأطفال من السكان الأصليين عنوة

وإرسالهم إلى المستوطنين ومؤسسات الدولة حيث عملوا هناك كخدم بلا أجر. وأما إنجلترا فقد أخذت الأطفال من العائلات الفقيرة في بريطانيا وأخبروهم أن أبناءهم سيتم تربيتهم في عائلات ميسورة في بريطانيا ولكنها أرسلت هؤلاء الأطفال إلى استراليا وهي سياسة استمرت منذ عام١٩٣٠إلى١٩٧٠. وتعرض هؤلاء الأطفال لألوان من الانتهاكات الجسدية والنفسية. وهذه جريمة أخلاقية بجميع المستويات وفي جميع القواميس.

وإذا انتبه القارئ إلى الظروف المحيطة باعتذار رئيس الوزراء الاسترالي فسيجد أن الكثير من رجالات السياسة في استراليا كانوا يرفضون الاعتذار ولأسباب شتى. كما أن هذا الاعتذار ليس له أي قيمة قانونية ولا يتضمن أية تعويضات عادلة. ولهذا السبب فالاعتذار (مع الدموع التي صاحبته وبلاغة العبارات والتأثيرات الصوتية وتقطيبات الوجه) كان في الحقيقة دعوة إلى نسيان الماضي وفتح صفحة جديدة فقط.

وأما تلكؤ الإنجليز عن الاعتذار فذلك للحذر من فتح باب الاعتذارات الرسمية من الدولة لأن ذلك سيؤدي إلى طوفان من مطالبات الاعتذار، فإنجلترا لها يد في الكثير من مآسي العالم. ولهذا السبب فإن الاعتذارات الرسمية التي تقوم فيها إنجلترا هي اعتذارات أجهزة الدولة للشعب الإنجليزي في أمور الإهمال أو الخطأ. وأما بالنسبة إلى العالم الخارجي فإن الدولة تقوم بتلميحات الاعتذار وانتقادات للذات وتلميحات بالشعور بالندم ولكن دون تقديم اعتذار رسمي. وإذا قام القارئ بالانتباه لأجوبة الدبلوماسيين الإنجليز للأسئلة المتعلقة بمسئوليتهم عن المآسي والجرائم في فلسطين فستجد أن أجوبتهم لا تتعدى تلميحات الاعتذار وانتقادات الذات. وهذه كذلك تعليقات المؤرخين الإنجليز للحملات الصليبية وجرائم الإمبراطورية الإنجليزية في العالم. ولكن ما حدث في أفغانستان والعراق والتواطؤ المستمر مع الجرائم الإسرائيلية في فلسطين يُثبت دون شك أن جميع تلميحات الاعتذار وانتقادات الذات هي مسرحية غير صادقة ولا أمينة، وإنما هي كلمات

وعبارات لامتصاص الغضب والتوتر. وهذا أحد الشواهد على مهارات الإنجليز في شراء الأفعال والمشاعر الطيبة بالعبارات والكلام.

ومن هذا كله يتبين (ضمن وجهة نظر المؤلف) أن مجال الأخلاق لم يكن يشمل الطبقة العاملة إلا بعد الخمسينيات من القرن العشرين وذلك بسبب شراسة الصراع بين الفكر الرأسمالي والفكر الشيوعي.

ولهذا فإن المؤلف على اقتناع كامل بأن المستغربين العرب الذين قالوا "إنه يوجد هناك إسلام ولا يوجد مسلمون" لم يعاشروا ولم يعيشوا مع الطبقة العاملة في أوروبا، وإلا لما قالوا تلك العبارة.

❖ الديانة والمجتمع

معظم الديانات الحالية والبائدة كانت تدعو إلى الأخلاق الرفيعة كالصدق والأمانة والوفاء وطاعة الوالدين. وكانت الديانة في الحقيقة هي الدافع الأساسي في ترسيخ الأخلاق في المجتمع.

وهناك أمر جوهري آخر تقوم به الديانة وهو تقوية مفهوم القناعة. فمعظم الديانات كانت تتضمن نظرة مقدسة نحو قوى خارجة عن سيطرة الإنسان وتقوم هذه القوى بتحديد مصير ورزق وحياة البشر. ولهذا فإن فقر الإنسان وسوء الحظ عنده ليس بسبب قسوة المجتمع وإنما بسبب إرادة هذه القوى. . كما أن معظم الديانات كانت لها نظرة واضحة في موضوع الأعمال الصالحة والحياة الآخرة. ولهذا السبب فإن أفضل الأعمال التي يستطيع الفقير أن يقوم بها هي القناعة والقيام بالأعمال الصالحة (حسب ديانته) وذلك كي يفوز بالحياة الآخرة.

وهذه المفاهيم الدينية تؤدي إلى أمرين: الأول هو شعور الفقير بالقناعة وعدم الحسد وعدم الشعور بالحقد تجاه الغني، كما تقوم بإقناع الغني بدفع الصدقات من أجل الفوز كذلك بالحياة الآخرة.

ومفهوم القناعة لا يمكن نشره عن طريق الأخلاق. فالأخلاق هي مفاهيم سلوكية في حين أن القناعة هي مفهوم روحاني بالدرجة الأولى. وهذا السبب في أن معظم المجتمعات الإنسانية ومنذ الأزل وحتى الآن تتضمن الديانة في حياتها ومفاهيمها. إذ إن الديانة هي أحد الأعمدة الأساسية في استقرار المجتمع.

وقد صدق كارل ماركس في قوله إن الدين هو أفيون الشعوب، ولكن هناك فرق بين أفيون وأفيون. ودماغ الإنسان يقوم بخلق أفيون طبيعي. وهو أمر ضروري للإنسان من أجل تهدئة الأعصاب. وكما أن هناك فرقاً بين أفيون وأفيون فهناك فرق بين ديانة وديانة. ولكن مفهوم الديانة نفسه ضروري جدا لانسجام المجتمع وقوة ترابطه.

❖ العلمانية والإلحاد في أوروبا

هناك علاقة غير منطقية ولكنها واضحة بين الديانة المسيحية والعنصرية في المجتمع. وهناك أمثلة كثيرة منها نظرة إنجلترا وأمريكا في القرون السابقة إلى الأفارقة ونظرة إسبانيا إلى الهنود الحمر في أمريكا الجنوبية. وكانت أوروبا في ذلك الوقت ذات نظرة تعبدية (دينية) مرتفعة، ولكنها كانت كذلك ذات نظرة عنصرية في غاية الارتفاع. ومثال آخر هو حركة الـ ك.ك.ك (Ku Klux Klan - KKK)وهي حركة عنصرية في أمريكا انتشرت في القرن التاسع عشر إلى أواسط القرن العشرين وكانت هذه الحركة كذلك في غاية التعبد. والمقصود هنا بالتعبد هو الالتزام بالعبادات والشعائر الدينية. ومثال آخر هو الحركة اليمينية الجمهورية في أمريكا الآن وهي حركة تدعو إلى التدين ولكن لها نظرة عنصرية واضحة.

وضمن تخمين المؤلف فإن شارل ديجول قد وجد أنه من الضروري نشر العلمانية وتخفيف الشعور الديني إذا كان لأوروبا أن تتوحد. وللتذكير فإن غالبية الفرنسيين هم من المذهب الكاثوليكي وغالبية الألمان من المذهب البروتستانتي.

ولكن التركيز على نشر العلمانية قد أدى إلى انتشار الإلحاد (Atheism) في أوروبا. وقد نجحت جهود ديجول في إقامة اتحاد أوروبي شديد الترابط ولكن في المقابل فقد أدى

انتشار الإلحاد وتراجع الشعور الديني إلى تفكك الأسرة وتراجع في الشعور الوطني وانتشار مفاهيم المتعة السطحية وحب المظاهر ورفاهية الإسراف. وهذا أدى إلى تراجع واضح للانضباط في أوروبا مقارنة بمستوى الانضباط في أوائل القرن العشرين.

يوجد هنا بعض النقاط الفرعية المتعلقة بهذه المقالة:

أ. لنفترض أن دولة الخلافة قد قامت وأن هناك صراعا (أو حربا) بينها وبين دولة عدو ذات أخلاق ساقطة ولكن مجتمع العدو كان ذا أخلاق مرتفعة. والمشكلة هنا هو في الكيفية التي يمكن بها التوفيق بين الصراع مع العدو مع العلم أن الكثير من أفراد مجتمع العدو هم ذوو أخلاق مرتفعة؟

والحل لهذه المشكلة يكون بالإدراك لما يلي:

المجتمع وأفراد المجتمع هم جزء من الدولة. وعند مصارعة الدولة فأنت لا تستطيع تشريحها وتمييز الجانب الحسن من الجانب السيئ. ولهذا السبب فالحرب على دولة العدو هي حرب على جميع دولة العدو حتى تضع الحرب أوزارها. وكان هذا واضحا في السياسة التي اتبعها الحلفاء مع ألمانيا في الحرب العالمية الثانية، فقد كانت الدعاية الإنجليزية تدعو الشعب الألماني للتخلي عن قيادته وفي الوقت نفسه فإن الطائرات الإنجليزية كانت تدك المدن الألمانية طوبة طوبة على رءوس أهلها. وهذه هي النقطة وهي صعوبة التفريق بين الدولة ومجتمع الدولة وقت الحرب.

وهنا حل المشكلة وهو التفريق الواضح بين العلاقات الاجتماعية التي تربط الأفراد في مجتمع الخلافة والأفراد في مجتمع العدو وبين العلاقات الدولية التي تحدد شكل الصراع مع دولة العدو. وأفضل مثال هو معركة بدر بين المسلمين والمشركين وفيها قتل الكثير من المسلمين (كأبي عبيدة عامر بن الجراح) آباءهم. وهذه هي النقطة: وقت المعركة والصراع فلا يجب أن يكون للعلاقات الاجتماعية أي تأثير على شكل الصراع بين الدولة والعدو. وهذا معناه أن وجود أخلاق مرتفعة لمجتمعات دولة العدو ليس هو العامل المؤثر في شكل الصراع

وإنما أخلاق دولة العدو هي العامل المؤثر. وإذا كانت أخلاق دولة العدو ساقطة فمن الطبيعي أن يكون شكل الصراع شرسا.

وهناك نقطة أخرى وهي أنه إذا كانت أخلاق الدولة ساقطة فإن مسئولية هذا الأمر يقع على كاهل المجتمع كله ولا يوجد للمجتمع أي عذر. ولهذا السبب فكون أخلاق المجتمع مرتفعة ليس كافيًا للتكفيرعن سقوط أخلاق الدولة. وأفضل مثال على ذلك هو حُكم سعد بن معاذ على بني قريظة:

فقد قام بنو قريظة بالغدر بالمسلمين في غزوة الخندق وأدى هذا إلى تهديد حقيقي لوجود المسلمين. وعندما انسحبت قريش قام المسلمون بمحاصرة بني قريظة واستسلمت لحُكم سعد بن معاذ.

الآن...هل جميع بنى قريظة هم ذوو أخلاق ساقطة؟

بالطبع لا. فهناك من هو عالى الأخلاق وهناك من هو ساقط الأخلاق كأي مجتمع.

هل كان جميع رجال بني قريظة راضين عن قرار قيادتهم بالغدر بالمسلمين؟

أغلب الظن أن هذا غير صحيح وأنه يوجد من رضي ويوجد من لم يرض. ولكن في النهاية فإن العدو كمجموع عليه أن يتحمل جرائم قياداته كما عليه أن يتحمل جرائمه السابقة.

وبالطبع هناك استثناءات للمنطق السابق، ففي حالة القضاء فإنه لا تزر وازرة وزر أخرى، وفي حالة البغاة من المسلمين فلهم أحكام خاصة شرحها على بن أبي طالب في حربه مع الخوارج.

ب. من الواضح أن باراك أوباما ذو أخلاق مرتفعة. وقد قام أوباما بدعوة العالم الإسلامي لنسيان الماضي وفتح صفحة جديدة. ولنأخذ هذا المثال إلى أقصى مجاله ولنفترض أنه قد جاء رئيس أمريكي ذو أخلاق مرتفعة وقد اعترف صراحة

بأن أمريكا قد ارتكبت الجرائم في فلسطين والعراق وأفغانستان وقد ارتكبت الجرائم بمساندتها الأنظمة الديكتاتورية ذات الإجرام في الشرق الأوسط وقام بالاعتذار والطلب من العالم الإسلامي نسيان الماضي وفتح صفحة جديدة.

ماهو الموقف الذي يجب على دولة الخلافة اتخاذه تجاه هذا الأمر؟؟؟

ضمن وجهة نظر المؤلف فإن الأولى أن تقوم الخلافة بإهمال هذا العرض للأسباب التالية:

١. أخلاق رئيس الجمهورية في أمريكا وأخلاق الملك أو رئيس الوزراء في إنجلترا ليس لها علاقة بأخلاق الدولة. فأخلاق الدولة تعتمد على مبدأ الدولة وتاريخها. ومبدأ الدولة في أمريكا وإنجلترا هو الرأسمالية وهو مبدأ ينظر وبشكل غريزي لتحقيق المصلحة دون اهتمام بالأخلاق. أما تاريخ أمريكا فهو سلسلة من الاعتداءات والانتهاكات من تطهير الهنود الحمر وحتى العراق وأفغانستان، وكذلك تاريخ إنجلترا. ولهذا السبب فأخلاق رئيس الدولة وأخلاق الدولة ليس لهما أي علاقة أبدا.

٢. دولة الخلافة إذا قامت فستقوم على سنوات طويلة من الآلام. وضمن هذه الحالة فمن المستبعد أن تقوم دولة الخلافة ببيع الأفعال والمشاعر بالكلام المعسول، وإلا فإن دولة الخلافة ستقترف نفس الخطأ الذي اقترفه صلاح الدين الأيوبي.

باختصار فإن أخلاق الحكومة ليس لها علاقة بأخلاق الدولة. ولهذا السبب فوجود شخصيات حكومية ذات أخلاق مرتفعة لا يعني أبدا أن أخلاق الدولة مرتفعة. وعندما يتعلق الصراع بجرائم تاريخية فإن الأولوية تكون في النظر إلى هذه الجرائم قبل الدخول في أي مشروع آخر.

ج. عند الإنجليز مهارة حقيقية في امتصاص الغضب وإرجاع الود وتقوية العلاقات. وأحد الأمثلة على ذلك هو قيام توني بلير بالقول "أنه يقرأ القرآن يوميا" وأنه

"مهتم كثيرا بالإسلام " ولكنه "لم يفكر بعد باعتناق الإسلام " (عن www. arabonline.org (٢٣-١٢-٢٠٠٨) عن صحيفة "دي تسايت" في هامبورغ).

وهذا الأمر بالطبع يدغدغ مشاعر الكثير من المسلمين. ولكن لنأخذ هذا المثال إلى أقصى حدوده ولنفترض أنه قد حدث صراع حقيقي وشرس بين دولة الخلافة وإنجلترا وقامت مجموعة من أفراد العائلة المالكة الكبار باعتناق الإسلام وقاموا بالدعوة إلى المحبة والسلام وغض الطرف عن الماضي وفتح صفحة جديدة بين العالم الإسلامي ذى السماحة والضيافة والكرم وبين الإنجليز تكون قائمة على الاحترام المتبادل وقواعد الصدق والأمانة.

هذا الأمر بالتأكيد سيدغدغ عواطف الكثير من المسلمين، ويكاد يشبه هذا الأمر مكيدة معاوية بحمل المصاحف على الرماح. وهنا السؤال: ما هو الموقف الذي يجب أن تتخذه دولة الخلافة في هذا الأمر؟؟

في كثير من الأحيان فإن العلاج يكون من جنس المشكلة. وأحد الحلول هو قيام الخليفة (بصفته أميرا للمؤمنين) بالأمر إلى هذه المجموعة بالهجرة من إنجلترا والامتناع وبشكل نهائي عن التدخل في السياسة أو العمل السياسي. فإن أطاعت هذه المجموعة فقد انتهت المشكلة وإن عصت فقد ظهر كيدهم وانكشفوا.

وبالنسبة إلى اهتمام توني بلير بالإسلام وتلميحه بإمكانية إسلامه، فإن إسلام المجرم هو أمر بينه وبين خالقه، وحسابات الخالق يوم الدين تختلف تماما عن حسابات البشر في الدنيا. وبالتالي فإن أسلم توني بلير فهذا أمر بينه وبين الخالق، أما في الدنيا فإن توني بلير والذين شاركوه وغمسوا أيديهم مع يده في دماء العراقيين، فهؤلاء جميعهم مجرمو حرب لا يجوز نسيانهم ولا تجوز مسامحتهم. فالموضوع هنا ليس "فنجان قهوة انكسر" ولا شتائم خرجت عن حدود الحكمة وإنما رجال ونساء وأطفال تم اغتصابهم وتعذيبهم وقتلهم والتمثيل بهم. وهذه جرائم لا يمحوها قيام بلير بإعلان الإسلام .

وهناك نقطة ضرورية للتنبيه...فهناك الآن الوجهة في الإعلام الإنجليزي لتحميل توني بلير وجورج بوش مسئولية ما حدث في العراق.ولكن توني بلير لم يكن ديكتاتورا في إنجلترا وإنما هو كبير الموظفين في الدولة وبالتالي فهو في الحقيقة ليس إلا موظفا للنظام الحاكم، وكذلك كان جورج بوش. ولهذا السبب فإن جرائم الاحتلال هي جرائم دولة وليست جرائم أفراد، ومسئولية هذه الجرائم هي على كاهل النظام الحاكم في إنجلترا وأمريكا معا.

النقطة الأخيرة في هذه المقالة:

في يوم كتابة هذه السطور (١-١-٢٠١٠) ذكرت قناة الجزيرة في صفحتها (عن صحيفة الإندبندنت) عن انتهاكات المحققين الإنجليز للسجناء العراقيين: "ومضت الصحيفة إلى أن المحققين السريين البريطانيين قاموا في إحدى الحالات بتركيب صورة لرأس سجين عراقي على جسد رجل يقوم بالاعتداء الجنسي على أحد الأطفال، وأنهم هددوا المتهم العراقي بنشر صورته في شتى أنحاء البصرة".

بالطبع فالانتهاكات الإنجليزية والأمريكية هي أفظع بكثير من هذه القصة وهي أحد الدلائل على مستوى أخلاق الدولة في إنجلترا وأمريكا. ولكن ما جذب انتباه المؤلف في هذه القصة هو تشابه هذه القصة مع قصة أخرى حدثت قبل ما يزيد عن ٢٥٠٠ سنة. ففي ٥١٠ ق.م قام أحد أقرباء الملك الروماني بمحاولة اغتصاب أحد الحرائر (لوكريشا-Lucretia) في روما وهددها إن هي فتحت فمها أنه سيقتلها ويقتل عبدها ثم يضعهما معا في وضع شائن وتصبح فضيحة لأهلها. وأخبرت لوكريشا إحدى قريباتها وانتحرت، وكان هذا هو السبب في اشتعال الثورة ضد الغطرسة الملكية في روما والتي انتهت بولادة الجمهورية. وهذا مثال على أن أخلاق بعض الدول تتشابه عبر العصور.

الفصل الرابع والعشرون

حكاية المساواة والعدالة بين الطبقات في أوروبا

من المناسب سرد حكاية المساواة بين الطبقات في أوروبا حيث إن هذه الحكاية تكشف الكثير من أسرار الديناميكية في المجتمعات الأوروبية.

حكاية المساواة والعدالة بين الطبقات حكاية قديمة عمرها يزيد عن ٢٥٠٠ سنة. وبدأت مع أول إضراب يشهده التاريخ للعامة عام ٤٩٤ ق.م. وفيه طالب العامة في روما بحقوق دستورية لهم بالتوازي مع حقوق الأرستقراطية . ورضخ النظام الروماني وتم تعديل الدستور. وكان الصراع بين العامة و الأرستقراطية هو أحد أسباب الحروب الأهلية والتي انتهت بقيام الإمبراطورية عام ٢٧ ق.م.

ولم يكن هناك جماعة ذات قاعدة فكرية واضحة وعناد شديد لفرض ومتابعة موضوع العدالة والمساواة بين الطبقات، وإنما كان الصراع بين العامة و الأرستقراطية يظهر في لحظات التوتر والغضب فيقوم النظام (وبشكل غريزي) بامتصاص هذا التوتر والغضب ببعض التنازلات.

وكان العهد الإمبراطوري في الواقع هو عهد الأغنياء من العامة. ولكن لم يتم إنهاء الطبقة الأرستقراطية وكل الذي حدث في العهد الإمبراطوري هو سهولة دخول الأغنياء من العامة إلى النادي الأرستقراطي. ولكن نظام الأرستقراطية نفسه لم يتم إنهاؤه وإنما على العكس تماما فقد تمت حمايته لأنه كان أحد أعمدة السيطرة على المجتمع. فالفلسفة كانت أن الإمبراطور هو الأب للأمة الرومانية وأن الأرستقراطية هم القيادات والممثلون لهذه الأمة.

واستمرت هذه الحالة حتى انتشار الديانة المسيحية. وانتشار المسيحية له إشارات استفهام. فقد انتشرت المسيحية في العالم الروماني انتشار النار في الحطب ولكن هذه الديانة لم تستطع أن تنتشر في العالم البوذي أو الهندوسي أو الإسلامي. والسؤال هنا: لماذا؟؟

والسبب الأول هو أن مفاهيم الديانة المسيحية ترتكز على المحبة والإخاء والتضحية ومفاهيم روحية ورهبانية عالية كانت غير متوفرة في الديانة الوثنية. فالديانة الوثنية الرومانية كانت ديانة مادية بحتة. وعند ظهور الديانة المسيحية فقد اكتشف الرومان وجود جوع روحاني كبير لم تستطع الديانة الوثنية إشباعه.

وهذا هو السبب في عدم انتشار الديانة المسيحية في الأقطار الأخرى. وإذا انتبهت إلى رجال الدين المسيحي عندما يدعون إلى ديانتهم فإنهم يتحدثون عن محبة المسيح وتضحيته وعطفه وتواضعه. وهذه العبارات بالنسبة إلى المسلم ليس لها أي معنى. فالمسلم لا يشعر بجوع روحاني والإسلام له مفاهيم روحية كافية لإشباع المسلمين. وكذلك الهندوسية والبوذية فهما في الأساس ديانتان صوفيتان ذات مفاهيم روحية. أما إذا انتبهت إلى نقاش المسلم مع رجال الدين المسيحي فستجده يتحدث على مصداقية الثلاثة والمعنى الحقيقي لمفهوم الابن والاستفهام عن الفرق بين علاقة الأبوة المجازية وبين علاقة الأبوة الحقيقية. وهذا الحديث فلسفي بحت. وهنا المشكلة وهي أن الطرفين يتحدثان بلغتين مختلفتين، فالأول (المسيحي) يتحدث بلغة روحية بحتة ولا يهتم بالفلسفة والعقل، والثاني (المسلم) مشبع تماما من الناحية الروحية ولهذا فحديثه يكون بلغة عقلية وفلسفية بحتة.

والسبب الثاني والذي لا يقل أهمية عن السبب الأول وهو أن المسيحية كانت تدعو إلى المساواة بين البشر. وهذا معناه أن الإمبراطور والأرستقراطية والعامة هم رجال متساوون في الحقوق والواجبات. وهذه الفكرة هي التي تسببت باضطهاد المسيحية في القرن الثاني والثالث الميلادي.

ولكن مع اعتناق الإمبراطور قسطنطين للمسيحية ومحاولاته لتنظيم الفكر المسيحي فإن الكنائس المسيحية لم تعد تنظر بجدية نحو موضوع المساواة بين الطبقات وإنما على العكس تماما فقد كانت المسيحية أحد القوى الداعمة للإقطاعية في أوروبا.

وقامت أكثر من دعوة لتصحيح هذا الأمر ولكن الكنيسة الكاثوليكية والأنظمة الإقطاعية استطاعت فضها بالمكر والقوة. ثم نجح مارتن لوثر

(Martin Louther) بنشر المذهب البروتستانتي وبتأييد من النبلاء والنظام في ألمانيا بهدف إنهاء نفوذ الكنيسة الكاثوليكية في البلاد. ولكن الطريف أن نظرة الناس إلى المذهب البروتستانتي أنه مذهب المساواة بين الطبقات وعلى أثر دعوة لوثر قامت حرب العوام (Peasants war) عام ١٥٢٤م. واضطر لوثر إلى الذهاب من مدينة إلى أخرى ليلقى المحاضرات ويكتب المذكرات لتنبيه الناس أن دعوته ليست متعلقة بالتصدى للنظام القائم وإنما للتصدى لجبروت الكنيسة الكاثوليكية وأن القيادات السياسية للأمة هم معينون من الله وأنه لا تجوز مقاومتهم (All Authorities are appointed by God and therefore should not be resisted) وعليه فقد خمدت دعوة المساواة إلى حين ولكنها عادت مع الأفكار الراديكالية في فرنسا والتي أدت إلى قيام الجمهورية الفرنسية وكانت هذه الخطوة هي الكبرى والتي قطعتها أوروبا نحو الهدف. ولكن الجمهورية الفرنسية، قامت بنقل الطبقية من واجهة إلى أخرى. فقبل قيام الجمهورية فإن الطبقة الأرستقراطية هي التي كانت تملك معظم البلاد، وأما بعد الجمهورية فإن الطبقة الرأسمالية هي التي أصبحت تمتلك معظم البلاد. وهذا أدى إلى قيام حركة أخرى في البلاد وهي الحركة الشيوعية.

بالطبع فإن الحركة الشيوعية لم تكن تدعو إلى المساواة والعدالة بين الطبقات. فالحركة الشيوعية كانت تدعو إلى ديكتاتورية العمال بدلا من ديكتاتورية الرأسمالية. ولكن هذه الفكرة (ديكتاتورية العمال) هي رد فعل لجشع النظام الرأسمالي. وإذا نظرنا وبعمق لأسباب ظهور وانتشار وتعاطف الناس مع الفكر الماركسي فإننا سنجد (حسب وجهة نظر المؤلف) أن هذه الأسباب هي نفسها التي تسببت بأول إضراب للعامة في روما قبل ٢٥٠٠ سنة.

وهنا نرجع إلى سؤال سابق: هل نجح الحزب الشيوعي؟

والجواب هو أن الحزب الشيوعي قد فشل في فرض الفكر الماركسي ولكنه نجح تماما في إجبار النظام الرأسمالي على إعطاء امتيازات حقيقية للعامة وخصوصا

في فرنسا وألمانيا. والمشكلة في أوروبا الآن هي عدم وجود أي جماعة أوروبية ذات قاعدة فكرية كافية وعناد شديد لتستمر في هذه المسيرة القديمة في المجتمع الأوروبي وعليه فمن الممكن جدا أن ترجع الطبقة الرأسمالية إلى حالة الجشع والطمع في ألمانيا وفرنسا.

الفصل الخامس والعشرون

الإنجليز... قوى السياسة وصفات المجتمع

إن إنجلترا ومنذ أوائل القرن الثامن عشر وحتى الآن هي أشد الدول مهارة في العمل السياسي والتخطيط الاستراتيجي، ومن المفيد جدا دراسة تاريخها ومجتمعها ومراقبة تصرفاتها.

والقوى الرئيسية في إنجلترا الآن ثلاثة: المؤسسة الملكية، والأجهزة الإدارية العليا، وحزب المحافظين.

❖ المؤسسة الملكية

قامت الجمهورية الإنجليزية عام ١٦٤٩م بقيادة أوليفر كروموبل وبسيطرة البرلمان الكاملة على أمور الدولة. وبعد وفاة كروموبل قام البرلمان بإرجاع الملكية ولكن بقيود واضحة تتمثل بحق البرلمان في حكم الدولة. وترسخت منذ ذلك الوقت أعراف تحدد نفوذ وصلاحيات الأغنياء من الطبقة الأرستقراطية والوسطى (يمثلهم في ذلك الوقت البرلمان) وبين المؤسسة الملكية.

والمؤسسة الملكية الآن تتمثل بالعائلة الملكية والطبقة الأرستقراطية في إنجلترا. وهذه المؤسسة كانت تسمى في بداية القرن العشرين بالمؤسسة البريطانية (British Establishment).

نفوذ المؤسسة الملكية يكمن فيما يلي:

١. توجد حقوق ملكية (Monarch>s Prerogative Powers)في إدارة الدولة، وهذه الحقوق تتضمن الآتي:

* إقالة أو تعيين رئيس الوزراء. وتم استخدام هذا الحق آخر مرة عام ١٩٦٣ بقيام الملكة بتعيين "أليك دوجلاس" (Alec Douglas) لمنصب رئاسة الوزراء.

* حل أو عدم حل البرلمان.

* عدم التصديق على العرائض والقوانين التي يرفعها البرلمان إلى المؤسسة الملكية. ومع أن آخر مرة تم فيها استخدام هذا الحق كان عام ١٧٠٨م إلا أنه لا يوجد أية موانع قانونية من قيام المؤسسة الملكية باستخدام هذا الحق مجددا.

* الموافقة أو عدم الموافقة على العرائض والقوانين التي يناقشها البرلمان فيما يتعلق بحقوق المؤسسة الملكية. وقد تم استخدام هذا الحق آخر مرة عام ١٩٩٩م. وحكايتها أن مجموعة من أعضاء مجلس العموم تقدموا بعريضة رسمية إلى مجلس العموم تطالب بنقل صلاحيات إعلان الحرب على العراق من المؤسسة الملكية إلى البرلمان. وقد رفضت المؤسسة الملكية إعطاء موافقتها لهذه العريضة وبالتالي تم سحب هذه العريضة من أجندة البرلمان.

٢. يوجد تغلغل واضح لرجالات الطبقة الأرستقراطية في المواقع الحساسة في الدولة مثل الجيش والخارجية والاستخبارات والخزانة.

٣. الجيش في إنجلترا تحت القيادة الحقيقية من العائلة المالكة. وأما رئيس الوزراء ووزير الدفاع والحكومة فهم يقومون بإدارة موارد الجيش. وتنظيمات الجيش وترقياته تتم بشكل منفصل تماما عن إدارة البرلمان أو مجلس الوزراء.

٤. القوات الإنجليزية الخاصة (SAS) تحت القيادة المباشرة من العائلة المالكة ومنفصلة تماما عن الجيش وعن إدارة مجلس الوزراء. وهذا الموضوع يتطلب انتباها خاصا، فهناك قوات خاصة تابعة للمخابرات وقوات خاصة تابعة للشرطة وكلاهما يتم تدريبهما من قبل الـSAS ولكنهما ليسا من الـSAS، وذلك لوجود اهتمام واضح لفصل الـSAS عن الأجهزة التابعة لمجلس الوزراء.

وهنا نقطة أساسية يجب الانتباه لها عند بحث نفوذ المؤسسة الملكية وهو أنه لا يوجد دستور في إنجلترا. والدستور هو عريضة واضحة تقوم بتحديد الآليات

والقوانين التي تنظم العلاقة بين الحاكم والمحكوم، والحقوق والواجبات لكل منهم. وهذا الأمر غير موجود في نظام الحكم في إنجلترا وإنما الموجود هو مجموعة من الأعراف.

وهذا معناه أن المؤسسة الملكية تستطيع قانونيا أن تقوم بقلب نظام الحكم في إنجلترا إذا استدعت الظروف ذلك. وقد تم التفكير بشكل جـدي بقلب نظام الحكم في إنجلترا وإقامة حكومة عسكرية عام ١٩٧٤م. ففي برنامج وثائقي لـ BBC (The Plot against Harold Wilson-2006) ووثائق أخرى تم الكشف عن ريبة حقيقية من المؤسسة الملكية لهارولد ويلسون (رئيس الوزراء). وتم إنشاء فرقة خاصة من الجيش هدفها السيطرة على أجهزة الدولة إذا استدعت الظروف ذلك. وقد قام الجيش فجأة ودون إعلام مجلس الوزراء بالانتشار في مطار هيثرو بحجة التدريب على مواجهة العمليات الإرهابية. ولكن الرسالة كانت واضحة وهي أنه كما أن للجيش القدرة على الانتشار فجأة في مطار هيثرو فإن له القدرة كذلك على الانتشار فجأة في داخل مجلس الوزراء نفسه. وقد تم الكشف كذلك عن أن الدافع الرئيسي وراء هذه الجهود كانت الملكة الأم. ويبدو أن الضغوط المختلفة على ويلسون هي التي أقنعته أخيرا بالاستقالة من الحكومة.

❖ حزب المحافظين

كما تم ذكره من قبل، فإن البرلمان (مجلس العموم ومجلس اللوردات) قد سيطر تماما على مقاليد الحكم في إنجلترا عام ١٦٤٩م. وبعدها قام البرلمان بإرجاع الملكية ضمن شروط واضحة.

والبرلمان في ذلك الوقت كان تحت سيطرة الأغنياء من العائلات الأرستقراطية والطبقة المتوسطة. وكان يمثل الأغنياء حزبين هما حزب التوري وحزب الهويج. وفي أوائل القرن العشرين فإن حزب الهويج قد اندثر وقام حزب التوري بتجديد نفسه وتغيير اسمه إلى حزب المحافظين.

فحزب المحافظين يمثل المؤسسات الاقتصادية الضخمة والأغنياء من الطبقة الأرستقراطية والوسطى.

وبالطبع فإن حزب المحافظين ليس على رأس السلطة الآن في إنجلترا، فقد خسر الحزب الانتخابات عام ١٩٩٧م. وهناك قرائن تدل على أن الأمر تم تدبيره بتعمد. وعلى غلبة الظن فإن رجالات الحكم في إنجلترا قد وجدوا أنه من الضروري الدخول في مجال اليورو (العملة الأوروبية الموحدة) ولكن لم يكن في قدرة حزب المحافظين تنفيذ هذا الأمر لأن النظرة الغالبة لأعضاء حزب المحافظين هي نظرة لا-أوروبية. فكان لا بد للحزب أن يخرج من السلطة وأن يخسر الانتخابات لصالح حزب العمال. وقد كان الدخول في مجال اليورو أمرا واضحا في أجندة حكومة العمال. ولكن هذا الأمر تم تأجيله بسبب الحرب في أفغانستان والعراق. وتم الآن إهمال هذا الموضوع تماما بعد أن غاصت حكومة العمال في مستنقع هذه الحروب.

وأهم القرائن الدالة على التحليل السابق هو أن القيادات التي تم اختيارها لحزب المحافظين يفتقدون وبشكل واضح للكريزما اللازمة للفوز في الانتخابات. وهذه الملاحظة تنطبق على جون ميجور(John Major) ، و جورج سميث (George Smith)، ومايكل هووارد(Michael Howard)، وديفيد كاميرون (David Cameron). أما وليام هيج (William Hague) فعنده الكيريزما للقيادة ولكنه قد أظهر نفسه (متعمدا أو سذاجة) على أنه جوكر ومهرج سياسي وهي صفة لم تكن مساعدة له للفوز في الانتخابات.

ومستقبل الحكومة القادمة ما زال يعتمد (ضمن وجهة نظر المؤلف) على موضوع اليورو. فإذا كان اليورو على رأس الأجندة لرجالات الحكم في إنجلترا فهذا يتطلب بقاء حزب العمال. وهذا أيضا يتطلب إعفاء جوردن براون من رئاسة الوزراء لعدم وجود كريزما قيادية كافية له للفوز بالانتخابات. وأما إذا لم يعد اليورو على رأس الأجندة فإن الغالب هو فوز المحافظين بقيادته الحالية. فديفيد كاميرون لا

يملك الكيريزما كـ توني بلير أو تاتشر لكنه أفضل بكثير من براون كما أن الناس قد بدأت تشعر بالإحباط من حزب العمال.

❖ الأجهزة الإدارية العليا

بدأت الأجهزة الإدارية بالنمو باضطراد منذ أواخر القرن الثامن عشر. وهذه الأجهزة تتكون من موظفين دائمين ليس لهم علاقة مباشرة مع البرلمان أو الأحزاب السياسية. وأي جهاز إداري يصل إلى الدرجة الكافية من النمو فإنه يبدأ التصرف بديناميكية شبه مستقلة.

وهناك ثلاث أجهزة إدارية في إنجلترا هي الأساسية وهي التي تحوز القوة الأكبر: وزارة الخارجية والاستخبارات ووزارة المالية (الخزانة).

وضمن مثلث القوة في إنجلترا (أي المؤسسة الملكية والأجهزة الإدارية وحزب المحافظين) فإن الضلع الأقوى في هذا المثلث هو الأجهزة الإدارية إن اتفقوا. وقوة الأجهزة الإدارية تكمن في أنهم الأعلم بالمراكز المؤثرة وهم الأعلم في ضرب الأوتار الحساسة في الدولة.

وضمن تخمين المؤلف فقد كان هناك صراع بين الأجهزة الإدارية وبين العائلة المالكة في الثمانينات من القرن العشرين. والأسباب غير واضحة عند المؤلف ولكن ربما تكون علاقة إنجلترا مع أوروبا هي أحد هذه الأسباب، والقرائن على هذا الصراع هو ظهور سلسلة متكررة من الفضائح في الإعلام الإنجليزي تمس العائلة المالكة، كما أن هناك تقارير صحفية في ذلك الوقت توحي بأن العلاقة بين مارجريت تاتشر والملكة لم تكن دافئة.

الآن....إذا لاحظت فإن حدود القوى الثلاثة غير واضحة وإنما ستجد أن هذه القوى في إنجلترا تتشابك مع بعضها. فالطبقة الأرستقراطية تربط بين المؤسسة الملكية وحزب المحافظين، كما أنها تربط بين المؤسسة الملكية والأجهزة الإدارية. كما يوجد نفوذ للأجهزة الإدارية في حزب المحافظين والعكس صحيح.

وفي كثير من الأحيان فإن مثل هذا التشابك في أنظمة الحكم قد يؤدي إلى ازدواجية المصالح وغموض الرؤية والارتباك في مراكز صنع القرار. وكذلك فإنه قد يؤدي إلى صراع عنيف وشرس. ولكن هناك صفات ترعرعت في المجتمع الإنجليزي ساعدت على تحويل نقاط الضعف في تشابكات القوى إلى نقاط قوة حقيقية. وهذه الصفات هي: برودة الأعصاب، وطول البال، وحسن الاستماع، والجدية المسيحية (Christian work ethics)، وكراهية العناد والتطرف في الآراء.

ولا يوجد وضوح عند المؤلف عن الرجل الذي خلق هذه الصفات عند الإنجليز ولا عن الزمن الذي بدأت فيه هذه الصفات بالظهور. ولكن تخمين المؤلف أن هذه الصفات قد ترسخت أكثر في المجتمع الإنجليزي بجهود ويليام بت (William Pitt) رئيس الوزراء في أواخر القرن الثامن عشر.

وفي عهد ويليام كانت الثورة الفرنسية والثورة الأمريكية. وكانت هذه الثورات زامور الخطر الذي هدد وجود النظام الأرستقراطي في البلاد. فقد كانت الثورة الفرنسية والأمريكية هي ثورة الطبقة العامة على الأرستقراطيين، وهي ثورات لم تأت من عدم وإنما سبقتها أفكار ودعوات انتشرت في أوروبا قبل الثورة بعشرات السنين. وأدرك ويليام بعد الثورة الفرنسية أن هذه الأفكار ليست موضة مؤقتة، وإنما هي مرحلة جديدة في تاريخ الحضارة البشرية. وأدرك أن عليه البحث عن أدوات خلاقة للتعامل مع هذه الأفكار بما يضمن (قدر الإمكان) بقاء الوضع القائم.

وقد أدت جهود ويليام إلى ظهور فلسفات وآليات وصفات تشكل بها المجتمع الإنجليزي وأجهزته الإدارية. والغالب على ظن المؤلف أن الصفات السابق ذكرها كانت إحدى النتائج لتلك الجهود.

فجميع الصفات السابقة (برودة الأعصاب وطول البال وحسن الاستماع والجدية المسيحية وكراهية التطرف في الآراء) تصب كلها في مصلحة عدم قلب النظام بالقوة وعدم توجيه المجتمع نحو الصدام الدموي والفوضى. وهي كذلك

تقوم بتشجيع ثقافة التسويات، وبالطبع فإنه في أي تسوية بين القوي والضعيف فإن تنازلات الضعيف ستكون أكبر من تنازلات القوي.

انتبه هنا... إن برودة الأعصاب وحسن الاستماع والجدية وطول البال هي حق وهي صفات أساسية لأي مجتمع وبغيرها فإن المجتمع لن يتمكن من القيام بنهضة حقيقية، ولكن هذه الصفات قد تم نشرها في المجتمع الإنجليزي كـ "حق أريد به باطل".

ولتوضيح المقصود بالجدية المسيحية فإن هناك فكرة انتشرت في المجتمع الإنجليزي (وتخمين المؤلف أنها أحد جهود ويليام بت) أنه لكي يكون الرجل مسيحيا مخلصا فإنه يجب أن يكون مطيعا ومثابرا. فالفكرة كانت تقوم على ربط المسيحية بالطاعة والمثابرة.

انتبه....الصفات السابقة تجدها واضحة في الطبقة الوسطى والطبقة الأرستقراطية ولكنك قد لا تجدها بنفس الوضوح في طبقة العمال.

وترسيخ الصفات السابقة في المجتمع الإنجليزي خلقت منه مجتمعا فريدا من نوعه في العالم.

ومن الممكن ملاحظة صفات أخرى نتجت عن هذه الصفات:

❖ البعد عن تمجيد الذات

الإنجليز لا يحبون تمجيد ونفخ الذات. والمقصود بتمجيد الذات هو كما يلي: أنا فعلت كذا وقمت بكذا، وبفضلي صار كذا وبذكائي تمكنت من كذا وكذا.

وهذا لا يتعلق بتصرفات الأفراد وإنما يتعلق كذلك بتصرفات الدولة والإعلام. فليس من عادة الإعلام الإنجليزي أن يقوموا بتمجيد إنجلترا وتمجيد تاريخها.

انتبه.....تمجيد الذات غريزة طبيعية في البشر. ولكن هناك من يقوم بتمجيد ذاته وعشيرته ووطنه بشكل مباشر وصريح (كالأنظمة في الوطن العربي) وهناك من يقومون بتمجيد أنفسهم بشكل غير مباشر وغير صريح كالإنجليز.

وهذه الصفة ساعدت إنجلترا كثيرا في فنون الكر والفر. فإن أي مناورة تتطلب مراحل من الهجوم والانسحاب والكر والفر. ولكن الانسحاب يبقى صعبا ومؤلما للنفس المتكبرة والمتغطرسة. وعندما تبدأ الدولة (أي دولة) بتمجيد ذاتها وتمجيد رموزها وتمجيد تاريخها وبشكل مباشر وصريح فإنه على مدى جيلين فقط (٢٠ سنة) فإن الدولة وأفرادها وأجهزتها الإدارية سيبدأون التصرف (ودون وعي) بتكبر وغطرسة. وعندها فإن مهارة الدولة في فن المناورات تبدأ بالانهيار. وأفضل الأمثلة هو موقف إنجلترا وأمريكا من ليبيا. فعندما رضخت ليبيا للشروط الغربية فإن توني بلير قام من فوره بزيارة ليبيا وعقد الصفقات معها، ولم يستنكر الإنجليز هذا التصرف. وأما أمريكا فإنها لم تستطع أن تتصرف كإنجلترا وذلك لأن صفات التكبر والغطرسة يمنعانها من ذلك. وكذلك فعندما ظهر لأمريكا أنها وقعت في مستنقع حقيقي في العراق فإن بوش لم يكن بمقدوره الانسحاب وذلك لنفس الأسباب السابقة: التكبر والغطرسة. وهذه الأسباب هي ما تمنع أمريكا من الاعتراف بالأخطاء والاعتذار. وأما إنجلترا فإن تاريخها كله هو سلسلة من الاعتداءات والخروقات تتبعها سلسلة أخرى من تلميحات الاعتذارات وانتقادات الذات ثم تتبعها سلسلة أخرى من الاعتداءات وهكذا. ولقد أتقنت إنجلترا فن شراء الأفعال والمصالح بالألفاظ والكلام.

❖ **تحديد المسئولية**

الصفة الأخرى للإنجليز المقابلة لعدم تمجيد الذات هي تحديد المسئولية. وهناك من لا يستطيع التفريق بين هاتين الصفتين ولكن الفرق بينهما في غاية الوضوح. وتحديد المسئولية هو كما يلي:

- وجهة نظري في هذا الموضوع هو كذا.
- رأيي هنا هو كذا.
- القرار الذي اتخذته هنا هو كذا.

- The way I see it is this
- I assume that it is this
- My decision here is this

فالإنجليز لا يحبون التعميمات ويفضلون تحديد المسئولية في الرأي أو القرار. وهذه الصفة ساعدت وبشكل كبير على تخفيف حدة الجدال في المجتمع الإنجليزي. والسبب أن تحديد المسئولية يقوم بإبعاد شبهة فرض الرأي، وكأن الحال يقول: هذه وجهة نظري ولك أن تحتفظ بوجهة نظر أخرى.

لتوضيح هذه الفكرة انتبه للعبارات التالية:

- زيد: القرار الذي اتخذته هو كذا وكذا.
- جرير: القرار في هذا الموضوع هو كذا وكذا.
- جرير: القرار الصحيح يجب أن يكون كذا وكذا.
- زيد: وجهة نظري في هذا الموضوع هو كذا وكذا.
- جرير: وجهة النظر الصحيحة هي كذا وكذا.

هل لاحظت أن شبهة فرض الرأي عند جرير هي أعلى بكثير من شبهة فرض الرأي عند زيد؟؟

وهذه الصفة في تحديد المسئولية لها علاقة عكسية مع صفة أخرى وهي صفة الأستذة (من أستاذ).

والأستذة هي قيام طرف دون اتفاق أو رضى بتعليم الآخر. ولهذه الصفة حكاية:

إذا قمت بالانتباه إلى المجتمعات المطلة على البحر الأبيض المتوسط فستجد أن صفة الأستذة متغلغلة فيها. هذه الصفة تجدها في إسبانيا وفرنسا وإيطاليا واليونان وتركيا وبلاد الشام ومصر وبلاد المغرب العربي. وإذا انتبهت إلى الكثير من النقاشات

في هذه المجتمعات فستجد أن كل طرف في هذا النقاش يحاول تعليم الآخر. وأن كل واحد فيهم يتصرف وكأنه الأستاذ في الجلسة والآخرين هم تلامذة. وإذا انتبهت أكثر فستجد أن أكثر العبارات استعمالا في النقاش هي: خليني(دعني) أفهمك، خليني أشرحلك، خليني أحكيلك.

هذه الصفة جاءت إلى مجتمعات البحر الأبيض المتوسط من حكم الرومان.

وهناك صفة أخرى تجدها في بلاد الشام ومصر وهو أسلوب الإفحام المنطقي في النقاش. وتستطيع أن تقوم بتمييز هذا الأسلوب في العبارات التالية:

- خليني أسألك سؤالاً واحداً فقط....
- هل هذا صحيح أو خطأ.
- فقط جاوبني على السؤال. هل هذا صحيح أو خطأ.

والنقاش في هذا الأسلوب هو عبارة عن أسئلة في أسئلة وكل سؤال يهدف إلى إفحام الآخر.

وهذه الصفة جاءت إلى بلاد الشام من الثقافة اليونانية.

وإذا انتبهت إلى إنجلترا بشكل خاص و إلى الحزام الأوروبي الشمالي (إنجلترا واسكتلندا وهولندا وألمانيا والدانمارك وبلجيكا والسويد والنرويج.. إلخ) بشكل عام فستجد أن الأستذة وأسلوب الإفحام غير موجود عندهم.

انتبه....هناك فرق بين الأستذة وتقديم النصيحة. والأستذة في مجتمعات البحر المتوسط تتنكر بالنصيحة ولكن الأستذة وتقديم النصيحة هما أمران مختلفان تماما. فالأستذة هي قيام طرف بتعليم الطرف الآخر دون اتفاق أو رضى في حين أن تقديم النصيحة هو قيام طرف بلفت انتباه الطرف الآخر. والعبارات التي يتم استخدامها في الأستذة تختلف عن العبارات التي يتم استخدامها في تقديم النصيحة.

وكذلك النتيجة تختلف، ففي حالة الأستذة فإن "الأستاذ" سيشعر بالضيق وخيبة الأمل إن لم يقم "التلميذ" بأخذ "النصيحة". أما في حالة تقديم النصيحة فإن الطرف الذي يقدمها يعلم مسبقا أن الطرف الآخر له الحق في أخذ النصيحة أو إهمالها. وأفضل إشارة تستطيع أن تفرق فيها بين الأستذة وتقديم النصيحة هي الإلحاح والتكرار، فإن "الأستاذ" إذا وجد أن "التلميذ" رأسه يابس فإنه يقوم بالتكرار والتكرار. أما في النصيحة فإنه يتم تقديمها مرة واحدة دون تكرار أو إلحاح.

وهذا هو الفرق بين تقديم النصيحة في مجتمعات الحزام الأوروبي الشمالي وبين تقديم النصيحة (الأستذة) في مجتمعات البحر الأبيض المتوسط.

وهناك صفة أخرى جديرة بالذكر قد أخذتها مجتمعات البحر الأبيض المتوسط من الرومان وهي صفة "البصبصة"، وهي قيام الرجال بالنظر إلى النساء في الأسواق والشوارع.

وهذه الصفة تراها بوضوح في فرنسا وإيطاليا واليونان ولكنك لا تراها بنفس الوضوح في الحزام الأوروبي الشمالي. وإذا أراد القارئ أن يختبر هذا الادعاء فإن أفضل الأمثلة هو سويسرا. وسويسرا تتكون من عدة ولايات ذات ثقافات ولغات مختلفة وتم توحيدها في نظام سياسي واحد عام ١٦٤٨. ويوجد في شمال سويسرا مدينة زيوريخ وهي ذات ثقافة ألمانية ويوجد في جنوب سويسرا مدينة لوكارنو وهي ذات ثقافة إيطالية. وليقم القارئ بزيارة زيوريخ ويقوم باستخدام المواصلات العامة من باصات وترامات وليقم بملاحظة الناس هناك. ثم ليقم القارئ بزيارة لوكارنو وليقم بنفس العمل هناك. ثم ليقم القارئ بالاستنتاج طبقا لملاحظاته.

وهذه الصفة ليست لها علاقة ببرودة الأعصاب أو حميتها، وليس لها علاقة بالغريزة أو الحاجات، وليس لها علاقة ببرودة المناخ أو دفئه، وليس لها علاقة بالأصول أو الديانات. وإنما هي عادات رومانية تناقلتها الأجيال في مجتمعات البحر الأبيض المتوسط جيلا بعد جيل.

في المقابل لهذه الصفة فإنك من النادر أن تجد الشاب والفتاة يتبادلون العناق والقبلات الحميمة في روما إذ سيؤدي هذا إلى زفة وهيصة وزنبليطة "وحتبقى فضيحة". وأما في إنجلترا فليس من النادر أبدا أن ترى الشاب والفتاة في تبادل حميم وترى الحضور والجمهور لا يكترثون لما يحدث.

❖ اعتدالية المدح والذم

أحد الأمور الواضحة والتي يختلف فيها الإنجليز عن مجتمعات البحر الأبيض المتوسط هو في موضوع المدح والذم:

فالمدح والذم في مجتمعات البحر المتوسط يكون للشخصية:

- أنت عبقري.
- أنت ذكي.
- إنت مفيش زيك.

والمذمات تكون عكسها.

وأما عند الإنجليز فإن المدح والمذمة تكون للأشياء أو الأفعال وليس الشخصية:

- هذا رائع.
- هذا تصرف ذكي.
- هذه سيارة جميلة.
- هذا تصرف غير مقبول.

بالطبع فإن المديح للأشياء والأفعال ساعد على إبعاد المجاملة الإنجليزية عن التملق، كما ساعدت طريقة الذم عند الإنجليز على إبعاد خلافات الرأي (قدر

الإمكان) عن النزاعات الشخصية فعندما تقول للرجل إن تصرفه خاطئ فإن هذه المذمة أخف بكثير من أن تقول له إنه أحمق. فالمذمة الأولى كانت للتصرف والثاني كانت للشخصية.

❖ الأدب ومراعاة الحضور

جميع الثقافات والديانات تدعو إلى الأدب واحترام الغير في المجتمع. ولكن إذا كان المجتمع يتصف بسرعة الاستفزاز والعصبية فإن حبل الأدب في المجتمع سيكون قصيرا. أما إذا كان المجتمع يتصف بطول البال وهدوء الأعصاب فإن الأدب في المجتمع سيكون واضحا. وهذا ما حدث في إنجلترا. فقد تشابكت صفات الهدوء وبرودة الأعصاب وطول البال مع الدعوات إلى الأدب لتخلق مجموعة من الصفات والتي قام الإنجليز بتسميتها أخلاق الجنتلمان(Gentleman) . وهناك صفة أخرى موازية لما سبق وهي مراعاة مشاعر الحضور، وإذا انتبهت إلى الإنجليز في تصرفاتهم الآنية من تجوال ومسير ودخول وخروج فتجد فيهم الاهتمام الواضح بمراعاة مشاعر الحاضرين.

❖ الرسمية

الرسمية هي أحد المصطلحات الواضحة في الوجدان ولكنها صعبة التعريف. وكتعريف غير جامع وغير مانع فإن الرسمية هي عبارة عن حدود العلاقات التي تحدث بين الناس في دائرة المجتمع والعمل. ونقيض الرسمية هو العلاقات الشخصية. فالعلاقة بين الأب والابن والأخ والأخت والزوج والزوجة هي علاقات شخصية في حين أن العلاقة بين الموظف والمدير هي علاقة رسمية مهما كانت درجة الود بينهما.

وحدود الرسمية في مجتمع البحر الأبيض المتوسط غامضة ومطاطة. وأفضل دلالة على ذلك هو عدم وجود فصل واضح بين مجال العمل ومجال الصداقة أو بين مجال العمل والمجال الشخصي. أما الرسمية في إنجلترا فهي واضحة وهناك فصل ظاهر بين مجال العمل والمجال الشخصي. وهي كلمة مشهورة عندهم: Business is Business.

وقد توحي عبارات "برودة الأعصاب" و"علاقات رسمية" للبعض أن الإنجليز متجهمو الوجه وذو كشرة وعدم اهتمام بالآخرين. وهذا الإيحاء غير صحيح أبدا. فربما تجد الناس في لندن متجهمي الوجه وذلك لسرعة الحياة هناك ولكن إذا خرجت إلى المدن المحيطة والريف فإن الواقع يختلف. فالإنجليز (بشكل عام) ذوو بشاشة ووجوههم يغلب عليها الابتسامة وعندهم حس النكتة والمرح.

وهذه الخلطة نجح الإنجليز أن يخلقوها في أنفسهم. فالعلاقات الاجتماعية في العمل هي علاقات رسمية، ولكنهم ذوو مهارات عالية في مداراة المشاعر كما يظهر على تصرفاتهم المرح.

وهناك ميزة في الرسمية في إنجلترا وفي الحزام الأوروبي الشمالي (إنجلترا والنرويج واسكتلندا والسويد وبلجيكا والدانمارك وهولندا وألمانيا) وهو عدم الحاجة إلى الصياح لتنفيذ الأعمال وعدم وجود الإلحاح في العلاقات الاجتماعية.

وهنا نقطة فرعية جديرة بالبحث:

إن من أشد الثقافات ضررا في الشرق الأوسط هي ثقافة "العين الحمراء" وثقافة "لسه بيتحَمّل" (ما زال يتحمل).

ومقتضى ثقافة "العين الحمراء" هو أن المدير إذا لم يكن عصبيا فإن الموظفين أو العمال سيأخذونها فرصة للإهمال.

والسبب في هذه الثقافة أنه لم يكن هناك فلسفات وآليات واضحة في مجتمعات الشرق الأوسط تفرض الهيبة والاحترام لهيكلية الإدارة، وإنما الهيبة والاحترام هي وظيفة كل مدير. وبالطبع فإن الأوضاع تحسنت في الشرق الأوسط ولكن ما زالت ثقافة العين الحمراء موجودة.

دعونا نتحدث قليلا عن المقصود بالفلسفات والآليات في المجتمع:

إذا قام موظف بسوء التصرف في إنجلترا وقام المدير بمحاسبته فإن المجتمع والموظفين والإدارة تقف مع المدير. والسبب هو وجود فلسفات في المجتمع تفرض

هيبة واحترام الإدارة بالإضافة إلى وجود آليات أخرى في المجتمع تحاسب الإدارة إن هي تصرفت بسوء مع الموظفين.

أما إذا قام الموظف بسوء التصرف في الشرق الأوسط فإن الذي يحدث هو وقوف الكثيرين مع الموظف ومحاولة التوسط له وإيجاد الأعذار والتبريرات. فالفلسفات في مجتمع الشرق الأوسط ليست مساعدة لفرض الاحترام لهيكلية الإدارة.

وهنا نأتي إلى موضوع الإدارة في الحزام الأوروبي الشمالي، فإن هيبة الإدارة لا تأتي بالضرورة من مهارات الإدارة بقدر ما تأتي من فلسفات المجتمع.

وأما ثقافة "لسه بيتحمل" فهي أشد ضررا من الثقافة السابقة وهي كما يلي:

لنفترض أن جريرا أراد شيئا من زيد ولكن زيدا قام بالاعتذار. الذي يحدث في كثير من الأحيان هو أن يقوم جرير بالإلحاح على زيد. وما دام زيدا لم يصل إلى درجة الغضب فإن جريرًا سيبقى يظن أنه ما زالت لديه الفرصة وأن زيد "لسه بيتحمل ضغط". ويستمر جرير في الإلحاح حتى يظهر الغضب على وجه زيد وعندها يعرف جرير أنه قد وصل إلى الحد ويسكت.

ثقافة "لسه بيتحمل" قريبة جدا من ثقافة "العين الحمراء" وهي أن على الرجل أن يُظهر الغضب والنرفزة كي يشعر الآخرون أنهم قد وصلوا إلى الحد ويتراجعوا.

وهناك مثال آخر لثقافة "لسه بيتحمل": لنفترض أن جريرا قام بانتقاد زيد، وأن زيدا قد أخذ هذا الانتقاد بروح رياضية. الذي سيحدث في كثير من الأحيان هو أن جريرًا سيرى أن زيدا "لسه بيتحمل" ويقوم بانتقاد زيد وبشكل أكبر ومتكرر وبألفاظ مختلفة. ويستمر الانتقاد حتى تظهر النرفزة على زيد وعندها يُدرك جرير أنه قد وصل إلى الحد ويتوقف.

وضمن وجهة نظر المؤلف فإن ثقافة "العين الحمراء" وثقافة "لسه بيتحمل" هي أكثر الثقافات ضررا في الشرق الأوسط وأشدها توتيرا للأعصاب.

❖ لغة الوجه والجسم (Body Language)

مهارة الإنجليز في تعبيرات الوجه والجسم والمهارات الصوتية مرتفعة جدا. ولا يوجد عند المؤلف الإدراك الكافي لتفسير الكيفية التي استطاع بها الإنجليز الإمساك بهذه المهارة، ولكن هذه المهارة واضحة تماما عند الكبار والصغار، وعندما يقوم الإنجليز (أطفالا أو كبارا) بسرد القصة فإنك ترى الوجوه ونغمات الصوت تكاد تنطق مع القصة.

والميزة في هذه المهارة أنها تساعد على سهولة الاتصال والمواصلة بين الآخرين، فالكلمات تبقى محدودة في نقل المشاعر من شخص إلى آخر في حين أن لغة الوجه والجسم ونغمات الصوت أكثر فعالية في نقل هذه المشاعر.

وهنا توجد نقطة فرعية:

ضمن ملاحظات المؤلف فإن الأطفال في إنجلترا لهم بلاغة أكبر ومهارة أكثر في التعبير من الأطفال في الوطن العربي. بالطبع فإن هذا لا يمثل مشكلة جوهرية حيث إن الأطفال العرب مع الزمن سيتمكنون من الإمساك بمهارات البلاغة والتعبير ولكن من المناسب بحث أسباب هذه الظاهرة:

في إنجلترا فإن لغة المحادثة هي نفسها لغة الكتابة. وبالطبع هناك لهجات في إنجلترا ولكن تختلف هذه اللهجات عن بعضها في طريقة نطق الأحرف والعبارات، ولكن القواعد اللغوية والكتابة في جميع هذه اللهجات هي نفسها قواعد اللغة الإنجليزية.

وهذا معناه أن الأطفال عندما يطالعون القصص أو عندما يقوم الآباء بقراءة القصص للأطفال فإن التعابير الموجودة في القصة هي نفسها تعابير المحادثة مما يكون سهلا على الطفل حفظها واستعمالها في الحديث.

وأما في الوطن العربي فإن لغة المحادثة تختلف عن لغة الكتابة. فلغة المحادثة هي اللغة العامية في كل بلد وأما لغة الكتابة فهي العربية الفصحى. واللغة العامية

ليست لهجة وإنما هي في الواقع لغة منبثقة عن الفصحى ولكنها ذات تراكيب وقواعد مختلفة. وبالطبع فإن الميزة في الكتابة بالفصحى هي ضمان وجود لغة مشتركة بين الناس في الوطن العربي من المحيط إلى الخليج، ولكن أحد العواقب هو بطء ظهور البلاغة عند الأطفال، إذ إن التعبيرات اللغوية التي يطالعها الأطفال أو يسمعونها من قصص مكتوبة هي تعابير مختلفة عن تعبيرات المحادثة العامية.

❖ **الدردشة**

الدردشة (الأحاديث الودية) في إنجلترا تختلف عن الدردشة في مجتمع بلاد الشام. وإذا انتبهت إلى الدردشة في بلاد الشام فستلاحظ أن النقاش والجدال والأستذة تأخذ حيزا ضخما من حجم الدردشة كما أن المزاح في بلاد الشام يتم وبشكل كبير بصيغة السخرية والشتيمة.

والوضع مختلف عند الإنجليز فهم لا يحبون الجدال في الأمور التي لا يجدون فيها المصلحة ولهذا فأغلب الدردشة عندهم هى مجاملات وقصص وأخبار وأحداث شخصية. فالدردشة عند الإنجليز هي وسيلة لاراحة الأعصاب.

وهناك أمر واضح في بلاد الشام وغير واضح في المجتمع الإنجليزي وهو ثقافة "الممسكة". فإذا حدثت لأحد الناس أمور غريبة، كأن وقع في بركة الماء دون قصد، فإن هذه القصة ستصبح ممسكة على هذا الشخص وسيقوم الناس بترديدها والتذكير بها ولمدة طويلة. أما في إنجلترا فإن الناس ستضحك ذلك اليوم على هذه القصة وفي اليوم التالي تنتهي.

❖ **المداراة**

الإنجليز لا يحبون الجدال في الأمور التي لا يجدون فيها منفعة أو هدفاً، ولهذا فإن كثيراً من الإنجليز من يلتزم بمهارات المداراة وهي إظهار الاهتمام والاستماع إلى الموضوع والتعليق عليه بعبارات وألفاظ لا تدل على الموافقة وإنما تدل على الاستماع.

وبالطبع فإن مهارات تعبيرات الوجه والجسم ونغمات الصوت (Body Language) تلعب دورا هامًّا في هذه المداراة.

وإذا انتبهت إلى العبارات التي يستخدمها الإنجليز في هذه المداراة فستجدها أشبه لمايلي:

- هذا مثير للاهتمام – This is Interesting
- لم أنتبه لهذا الأمر من قبل – I did not realise that before
- لم أفكر بهذه الطريقة من قبل – I did not think about it this way
- إلخ

وإذا انتبهت فإن جميع هذه العبارات ليس فيها أية إشارة بالموافقة على الموضوع المطروح وإنما هو إشارات اهتمام واستماع.

❖ المواساة وامتصاص الغضب (مداراة المشاعر)

هناك فرق شاسع بين هدوء (برودة) الأعصاب وبين برودة المشاعر. وإذا كان القارئ يتذكر برنامج يسري فودة في قناة الجزيرة عن موضوع الطائرة المصرية التي سقطت في المحيط الأطلنطي بعد إقلاعها من أمريكا، فإن فيه لقطة في مطار القاهرة وكان أحد الموجودين في انفعال شديد وكان الحوار في هذه اللقطة كما يلي (بمعنى واعتمادا على الذاكرة):

- الأول وبانفعال شديد: دا أخويا [هذا أخي]
- الثاني وببرودة مشاعر جافة: هدي نفسك شوية.
- الأول: بأولك أخويا [أقول لك هذا أخي].
- الثاني وبنفس الجفاف وبرودة المشاعر: هدي نفسك شوية.
- وعندها انخرط الأول في البكاء.

وهذه اللقطة هي مثال لبرودة المشاعر وجفافها وحماقة التصرف من الرجل الثاني. فبرودة المشاعر هي عدم التفاعل مع المشهد الحاضر بالمشاعر المناسبة. وأما برودة الأعصاب فهي الإحاطة بالمشاعر ومنعها من التأثير على العقل ومنعها من التأثير على القرارات. والفرق بين برودة المشاعر وبرودة الأعصاب كبير.

ومهارات الإنجليز مرتفعة في القدرة على المواساة والقدرة على امتصاص الغضب والتوتر. وهذا بسبب هدوء الأعصاب ومهارات المداراة ومهارات الاستماع ومهارات تعبيرات الجسم. وإذا انتبهت إلى الأخبار ونظرت للكيفية التي يقوم فيها المدراء والمسئولون بامتصاص التوتر والغضب فستجد أنها مهارات مداراة. وهذه المداراة لا تعني الموافقة على أسباب التوتر والغضب وإنما هي إشارات اهتمام واستماع.

وإذا انتبهت إلى العبارات التي يتم استخدامها في هذه المداراة فستجدها شبيهة لما يلي:

- أنا أعتذر للأضرار التي نتجت عن هذا الأمر

- I am very sorry for the things that have been caused by this
- Oh Dear.
- This is awful

- إلخ.

وإذا انتبهت إلى هذه العبارات فلا يوجد أي اعتراف بالمسئولية أو موافقة على الموضوع وإنما هي إشارات على الاهتمام والانتباه والتفهم والاستماع وتلميحات الاعتذار. وفي معظم الأحيان فإن هذه الإشارات كافية لامتصاص الغضب والتوتر عند الناس. وهذه المهارة قد أتقنها الإنجليز.

وهناك عبارة أخرى يستخدمها الساسة الإنجليز كثيرا:

فعندما تظهر الأخطاء فإن الذي يحدث هو عمليات تحقيق وتلميحات الاعتذار وانتقادات للذات وينتهي الأمر بالعبارة التالية: لقد تعلمنا الدروس Lessons have been learnt.

ولقد أثار هذا الأمر حفيظة المؤلف: ففي برنامج تلفزيوني قام بيتر هين (Peter Hain) أحد وزراء إنجلترا السابقين بالاعتراف بوجود أخطاء في موضوع أسلحة الدمار الشامل في العراق ولكنه دافع عن نيات إنجلترا في هذه الحرب ثم اختتم مقاله بالقول إن: Lessons Have been learnt. وبالنسبة لوجهة نظر المؤلف فإن هذه العبارة في هذا الموقف هي وقاحة حقيقية، فإن إنجلترا مسئولة عن احتلال العراق وتدمير بنيته الاقتصادية ومقتل مئات الألوف من الشعب العراقي. وإذا كان بيتر هين يرى أنه يحق لإنجلترا أن تتعلم بعض الدروس من دماء العراقيين فإن السؤال له إن كان يحق للعراق بعد أن يتعافى أن يتعلم دروسا مماثلة من الإنجليز؟

ومن المفيد الانتباه لمجال آخر لمهارة المداراة:

فمهارة المداراة المتأصلة في المجتمع هي التي ساعدت ضباط المخابرات الإنجليز فى سرعة التأقلم مع عادات المستعمرات. فقد كان لكلوب باشا (ضابط المخابرات في الأردن) المهارة الحقيقية في التأقلم مع عادات البدو في اللباس والأكل والمحادثة والتصرف. وكان يقوم بهذه العادات وبشكل طبيعي بخلاف ضباط المخابرات الفرنسية (وغيرهم) فإن مداراتهم كان يظهر عليها التمثيل. وهذه المهارة لم تكن خاصة بكلوب باشا فقط وإنما ظهرت هذه المهارات عند الكثير من ضباط المخابرات الإنجليز في الأردن وفلسطين وعدن والهند وباكستان وإيران وكردستان. وهذا دلالة على أن المخابرات الإنجليزية كانت تبحث عن مهارات شخصية واضحة ومحددة في تجنيدها لرجالاتها.

❖ الذكاء صفة وليست هوية

تستطيع أن تجد في مجتمع الشرق الأوسط فلانا يقول إن غيره أطول منه أو أغنى منه أو أسرع منه. ولكنك من النادر أن تجد أحدا يقول إن فلانا أذكى منه.

فالذكاء في الشرق الأوسط هو جزء من الهوية والكل هناك يظن أنه أذكى الناس لو لا أن الظروف لم تساعده.

والأمر مختلف في إنجلترا. فالذكاء صفة وليس جزءا من الهوية. ولهذا فمن الطبيعي أن تجد من يقول إن فلانا أذكى منه. فالذكاء في إنجلترا هو صفة كالطول والعرض والوزن. وكلها صفات ليست لها علاقة بالهوية.

على أية حال فإن الذكاء صفة مجازية وليس حقيقية. فصفة الذكاء ليست كصفة الطول؛ حيث إن الطول والعرض والوزن هي صفات حقيقية. وأما الذكاء فهو صفة مجازية تعبر عن مجموعة من المهارات. والمهارات تزيد وتنقص حسب الظروف والمزاج والأيام.

❖ المناداة بالأسماء الأولى

الإنجليز ينادون بعضهم بالأسماء الأولى. فالموظف ينادي ويتحدث مع المدير باسمه الأول دون ألقاب وكذلك طلاب الجامعات يتحدثون مع أساتذتهم بأسمائهم الأولى. وهذا الأمر جديد في المجتمع الإنجليزي فقبل الستينيات من القرن العشرين كان الإنجليز يتحدثون مع بعضهم بالألقاب. ولكن بتأثير من الثقافة الأمريكية ورغبة في تخفيف التوتر بين طبقات المجتمع فإن الإنجليز بدأوا بالتخفيف من ثقافة الألقاب.

بالطبع فإن كثيرا من المجتمعات يعتمد على ثقافة الألقاب لفرض الهيبة. ولكن هذا لم يكن ضروريا في المجتمع الإنجليزي؛ فإن فلسفات المجتمع ورسمية العلاقات قد فرضت على الجميع احترام هيكلية الإدارة. فهذه الرسمية هي التي تفرض على الموظف احترام المدير وتفرض على الطالب احترام الأستاذ. ولهذا السبب فإن إلغاء ثقافة الألقاب لم يؤثر على الهيبة والاحترام وحدود الأدب في المجتمع الإنجليزي.

❖ **القـــراءة**

الإنجليز شعب قارئ. ومفهوم القراءة هنا بحاجة إلى توضيح: فالقراءة قد تكون وسيلة لأخذ المعلومات أو قد تكون القراءة نفسها هواية. والقراءة عند الكثير من الإنجليز هواية، وتجد الكثير من الإنجليز يمارس هذه الهواية في الحدائق والباصات وعربات القطار.

ولكن انتبه...هواية القراءة للإنجليز ليست للكتب العلمية أو الأكاديمية وإنما الهواية هنا لقراءة الروايات. ومع أن الكثير من الروايات خيالية إلا أنها مفيدة جدا في نشر البلاغة والمهارات اللغوية. وكذلك فإن الروايات الإنجليزية والأمريكية لها دافع عالٍ في توسيع المدارك.

وهذه النقطة الأخيرة جديرة بالملاحظة:

هناك فلسفة حديثة (من بداية السبعينيات من القرن العشرين على تخمين المؤلف) في إنجلترا وأمريكا في موضوع كتابة الروايات الخيالية أو الواقعية أنها يجب أن تكون مبنية على هيكلية فلسفية أو علمية أو تاريخية. فالرواية الخيالية إن كانت فقط سردا للحوادث فهي رواية ضحلة ضمن نظرة النقاد لها. ولهذا السبب فإن كتابة الرواية في إنجلترا وأمريكا لا يمكن أن تتم في "شربة فنجان قهوة" وإنما هي بحاجة إلى أبحاث عميقة ليتم تحديد هيكلية الرواية. وفي كثير من الأحيان فإن مؤلف الرواية يعتمد على خبراته الأكاديمية أو الوظيفية في تحديد هذه الهيكلية. ولهذا السبب فإن الروايات الإنجليزية والأمريكية تكون مفيدة في التنبيه وتوسيع المدارك.

❖ **نظرة الاحتراف**

هناك دافع حقيقي للاحتراف في إنجلترا (وفي الحزام الأوروبى الشمالي). وأسباب هذا الدافع ليست واضحة تماما عند المؤلف. ولكن تخمين المؤلف أن الدافع جاء من ثنايا الثقافة في هذا الحزام.

ونظرة الاحتراف هي البذل المتواصل للجهد والوقت والمال (وبشكل غريزي) في سبيل إتقان المهارة. وهذا البذل المتواصل للجهد والوقت يؤثر (وبشكل غير مباشر) على السلوكيات ويصبح الإتقان نفسه هدفا غريزيا.

لنضع المثال التالي: لنفترض أنك شعرت بالحاجة إلى نظارات طبية ولكن الحقيقة أن عيونك مجهدة وبحاجة فقط إلى قطرات عيون وممارسة تدريبات خاصة للعين وبعض الراحة.

لنقل إن المختص الذي ذهبت إليه لفحص عيونك قد انتبه أنك لست بحاجة ماسة إلى النظارات وإنما إلى بعض التدريبات والراحة.

الآن هناك أربعة احتمالات لتصرف هذا المختص:

١. أن يقوم بتصميم نظارة طبية مناسبة لك. وبالطبع فإن المختص لم يكن كاذبا معك ولكنه كذلك لم يتحر الصدق. فالنظارة كانت مناسبة ولكنها لم تكن ضرورية. وتصرف المختص جاء بدافع تجارى وهو زيادة الأرباح له.

٢. أن يقوم المختص بإعلامك بالحقيقة ويكون الأمر لك باقتناء نظارة طبية أو الاكتفاء بتدريبات العين وبعض الراحة. ويكون الدافع لهذا المختص هو نظرة أخلاقية تجاه الصدق والأمانة.

٣. أن يقوم المختص بإعلامك بالحقيقة. ويكون الدافع هنا هو نظرة روحانية وخوفا من الخالق وطمعا في رضاه.

٤. أن يقوم المختص بإعلامك بالحقيقة. ويكون الدافع هو نظرة الاحتراف.

وهذه هي النقطة هنا: وهي أن الشخص عندما يصل إلى درجة الاحتراف فإنه يبدأ (وبشكل غريزي) بإتقان العمل من منطلق الاحتراف نفسه. وهذا معناه أن الشخص سيقوم بمتطلبات الاحتراف وبغض النظر عن أخلاقياته وروحانياته.

وهذا قد يفسر الإخلاص والأمانة عند الكثير من أساتذة الجامعات في الحزام الأوروبي الشمالي مع الطلاب المختلفين عنهم في الديانة والثقافة.

بالطبع فإن أفضل الأمور هو عندما يقوم الشخص بتحري الصدق والأمانة بدافع الأخلاق والروحانية والاحتراف، وعندها يكون هناك دوافع متضاعفة للإتقان.

وكما تم الحديث سابقا فإن نظرة الاحتراف قد جاءت من ثنايا الثقافة في مجتمعات الحزام الأوروبي الشمالي. وبالطبع فإن الدافع للاحتراف ليس له علاقة بالمكان أو الزمان أو العرق وإنما له علاقة مباشرة بالفلسفات العامة في المجتمع. وإذا نظرت إلى التاريخ فستجد أن نظرة الاحتراف موجودة في الكثير من الحضارات السابقة. فقد كانت نظرة الاحتراف واضحة في روما من ٥٠٠ ق.م إلى ١٠٠ ق.م. وكانت نظرة الاحتراف واضحة في الصين منذ قديم الزمان و إلى القرون الوسطى. كما أن نظرة الاحتراف كانت في غاية الوضوح في الحضارة المصرية الوثنية من عام ٣٠٠٠ ق.م إلى ١٠٠٠ ق.م. وهذا هو (ضمن وجهة نظر المؤلف) السبب في افتخار فرعون فيما ذكره القرآن: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾﴾ [الزخرف]. وعندما تنظر إلى مصر في الحضارة الوثنية القديمة فعليك أن تنظر إليها كما تنظر الآن إلى ألمانيا، فنظرة الاحتراف في مصر ذلك الوقت كانت في غاية الارتفاع مما جعل مصر ذلك الوقت دولة فريدة من نوعها. وهذا هو أساس الفخر عند فرعون أنه الملك في مصر.

وضمن ملاحظات ومقارنات المؤلف لنظرات الاحتراف عند مختلف الحضارات حديثا وقديما فإنه يغلب على تخمين المؤلف وجود علاقة بين الرسمية في المجتمع ونظرة الاحتراف.

بمعنى آخر فإنه من الضروري وجود الحد الأدنى من الرسمية كي تنمو نظرة الاحتراف. ومن الممكن توضيح هذا التخمين بملاحظة نظرة الاحتراف في السودان. فأهل السودان في غاية الذكاء كما أن عندهم مهارة واضحة في الشعر وكتابة القصص. ولكن نظرة الاحتراف في الأعمال الأخرى متدنية (حسب ملاحظات المؤلف). أما

السبب فهو شدة الالتزامات الاجتماعية في السودان. فالالتزامات الاجتماعية اليومية في السودان ضخمة من أفراح وأتراح ومناسبات وأعياد وزيارات....إلخ. ولهذا السبب فلا يوجد الوقت أو الطاقة عند الشعب السوداني لاستثماره في الاحتراف. وللتذكير فإن الاحتراف يتطلب البذل المستمر للوقت والطاقة في سبيل الإتقان.

والمشكلة في السودان هو أن الالتزامات الاجتماعية هي جزء من ثقافة المجتمع، وكل من ينحرف عنها فسيواجه (وبشكل غريزي وربما غير مقصود) بالانتقادات والسخرية. وبالطبع فإن الالتزامات الاجتماعية الخارجة عن الحد الطبيعي (ثقافة المناسبات) هي صفة موجودة في الشرق الأوسط بشكل عام ولكنها أكثر وضوحا في السودان وهذا هو السبب في ذكرها هنا.

❖ **مهارات التأثير** (Charming)

إن تشابكات الصفات السابقة قد أوجد عند الإنجليز مهارات التأثير الشخصي (Charming) . والـCharm هي سحر وجاذبية الشخصية وهي أحد المهارات الأساسية في الدبلوماسية والاستخبارات. وهدف هذه المهارات هو استمالة القيادات الأجنبية ورجال المجتمعات.

ومكونات وأسباب مهارات التأثير غير واضحة تماما عند المؤلف ولكن يستطيع المؤلف وضع بعض الملاحظات حولها:

* هناك انضباط حقيقي عند قيادات الإنجليز في بروتوكولات اللباس والتصرف والجلوس والمجاملة والحديث. وضمن تخمين المؤلف فإن هناك تأثيراً لبعض هذه البروتوكولات في مهارة التأثير. وأفضل مثال على ذلك هو الانضباط في الجلوس. وإذا لاحظت حافظ الأسد والملك حسين وأحمدي نجاد فستجد عندهم انضباطاً واضحاً في الجلوس وعندهم القدرة على الجلوس مدة طويلة دون أن يظهر عليهم الملل أو التوتر. وهذا بخلاف الكثير من قادة الدول الأخرى الذين لا يستطيعون الجلوس في مقاعدهم دون حركة.

وضمن تخمين المؤلف فإن الانضباط في بروتوكولات الملابس والانضباط في الجلوس وهدوء حركات الجسم والانضباط في بروتوكولات المحادثة والمجاملة له تأثير كبير على الحضور.

* دماثة وتهذيب السلوك أمر أساسي في مهارات التأثير. والدماثة لا تعني أن الرجل ذو أخلاق عالية وإنما الدماثة تتعلق بالألفاظ التي تتلفظها والتصرفات الآنية التي تقوم بها. والرجل ربما يكون مجرما ولكنه قد يكون ذا دماثة وتهذيب.

* أسلوب المجاملة عند قيادات الإنجليز لا تصل إلى درجة التملق ولا تصل إلى درجة التكبر والجفاف. وإنما هي بين بين.

* الملاحظة أن قيادات الإنجليز لا يتصرفون بتكبر وعنجهية وإنما يتصرفون برفعة. وهناك فرق بين الرفعة والتكبر. فالرفعة تتعلق بنظرة الشخص لنفسه دون مقارنة أو ازدراء للآخرين. أما التكبر فهو تصرف الازدراء من الرجل للآخرين.

كما سبق ذكره فإن المؤلف ليس لديه الإدراك الكامل لحدود وماهية هذه المهارة عند الإنجليز ولكنك تستطيع ملاحظة هذه المهارة عند الكثير من رجالات الإنجليز عبر التاريخ.

وهذا هو السبب في محاولات الإنجليز الدائمة في الإبقاء على نافذة للدبلوماسية بينهم وبين خصومهم. فهي عن طريق هذه النافذة تستطيع النفاذ إلى الداخل وتستغل مهاراتها في التأثير والإقناع للتشقيق وبذر الخلاف بين خصومها. وهنا تكمن القوة الحقيقية لإنجلترا وهي الدبلوماسية.

وهناك نقطة فرعية أخرى هنا:

نتيجة لقوة الدبلوماسية عند الإنجليز فإن مهارتهم كبيرة في جمع الأخبار والوثائق. وهذه الأخبار والوثائق تكون نافذة أخرى للسيطرة والنفوذ. مثال ذلك هو قصة عبد الكريم قاسم:

لم تكن علاقة الإنجليز جيدة مع عبد الكريم قاسم أول حكمه ولكنها تحسنت في أواخر حكمه. وكان السفير الإنجليزي في زيارات متكررة لعبد الكريم قاسم وفي كل مرة يكون في يده وثيقة سرية أو أخبار سياسية. وعلى إثر ذلك تعضدت العلاقة الشخصية بين عبد الكريم قاسم والسفير الإنجليزي. وعلى غلبة ظن المؤلف فإن الانقلاب الذي تم على عبد الكريم قاسم كان من تدبير الإنجليز. وفي النهاية فإن مصلحة العمل فوق العلاقات الشخصية ضمن وجهة النظر الإنجليزية.

❖ سطحية العلاقات الدافئة

أحد أكثر الصفات تناقضا بين مجتمعات البحر الأبيض المتوسط والإنجليز هو موضوع دفء العلاقة. فبالنسبة إلى مجتمعات البحر المتوسط فإن دفء العلاقة هو أحد مقدمات الصداقة. وأما عند الإنجليز فإن دفء العلاقة هو أحد متطلبات العمل الجيد (Good Business).

وبالنسبة إلى الإنجليز (بشكل عام) فإن الترحاب والمجاملات ودفء العلاقات ليس من أجل الصداقة وإنما هي أحد متطلبات العمل. ولهذا السبب فليس غريبا أن تذهب إلى إنجلترا في موضوع عمل وتجد الموظف هناك في غاية الترحاب والمجاملة ودفء العلاقة ولكن بعد أسبوع ربما تراه في الشارع وتجده مؤدبا معك ولكنه رسمي وجاف. ولا تستغرب إن ذهبت إلى البنك ووجدت الموظفين في غاية الترحاب والمجاملة ودفء العلاقة ولكنك ربما تراهم بعد ساعات العمل وتجدهم مؤدبين ولكنهم جافين ورسميين وكأنهم لا يعرفوك ولا تعرفهم.

وهنا النقطة: دفء العلاقة في إنجلترا هي أحد متطلبات العمل وليس مقدمات للصداقة. وهذا هو العكس تماما في مجتمعات البحر الأبيض المتوسط فإن دفء العلاقة هناك هو إحدى مقدمات الصداقة، وهذا معناه أن دفء العلاقة سيبقى حيا داخل المكتب أو خارجه وفي قضية عمل أو قضية تسلية.

وهذا هو أحد الأمور التي يتفاجأ بها المتوسطون (مجتمعات البحر المتوسط) من الإنجليز ويتهمونهم بأنهم مَصْلَحْجِيّة (أي يجرون وراء المصلحة دون اعتبار للصداقة) في حين يتهم الإنجليز المتوسطين بالسذاجة.

ولكن إذا نظرت بعمق فإن لكل مجتمع نظراته الخاصة وقد تعود الإنجليز على هذه النظرة (أي أن دفء العلاقة هو أحد متطلبات العمل) وهم يعيشون فيها بانسجام.

ولكن هذا يتطلب غاية الحذر من مجتمعات البحر المتوسط في علاقاتهم مع الإنجليز. فدفء العلاقات والترحاب والمجاملات من رجال الأعمال الإنجليز ورجالات الدبلوماسية ليس بالضرورة صادقا ولا يعبر عن المشاعر الحقيقية وإنما هو أحد متطلبات العمل الجيد. وهذا كان واضحا تماما في مراسلات الإنجليز مع الشريف حسين بن علي (شريف مكة في أوائل القرن العشرين). فقد كانت رسائلهم الأولى في غاية الدفء والترحاب والمجاملة وأما رسائلهم الأخيرة فقد كانت مؤدبة ولكنها في غاية الجفاف. وهذا بالنسبة إلى الإنجليز ليس نقيصة. فبالنسبة لهم فإن الترحاب والمجاملة كانت من ضرورات العمل مع شريف مكة أما بعد انقضاء هذا العمل فلا داعٍ لهذه المجاملات.

وقد استثمر الإنجليز مهاراتهم في المداراة والمجاملة وبشكل واضح. وعندما تكون هناك علاقة تجارية بين المتوسطي والإنجليزي فإن المتوسطي في كثير من الأحيان يقوم بالتنازل عن مطالبه وبطيب خاطر لأنه (في نظره) يتعامل مع صديق. في حين أن الإنجليز لا ينظرون إلى علاقتهم مع المتوسطين نظرة صداقة وإنما هي نظرة عمل (Business).

وهذه المهارات (مهارات المداراة والترحاب والمجاملة) هي أحد أسباب نفوذ الإنجليز في سياسات الشرق الأوسط.

❖ المصافحة

المصافحة ليست عادة عند الإنجليز إلا في مناسبات خاصة. وهذا بالنقيض من مجتمعات البحر الأبيض المتوسط. وبالإضافة إلى ذلك فإن المجتمع الإنجليزي لا ينظر بانتقاد إلى عدم إفشاء السلام وهذا كذلك على النقيض من مجتمعات البحر المتوسط. فالسلام والتحية عند أهل المتوسط هي عادة عند اللقاء وعند الفراق أما عند الإنجليز فتجد الكثير يأتي إلى مكتبه أو يخرج منه دون أن يلقي التحية، والمجتمع الإنجليزي لا ينظر إلى هذا الأمر باستغراب. وهذا قد يعطي دلالة على عمق العلاقات الاجتماعية عند مجتمعات البحر المتوسط عنه في إنجلترا.

❖ تناقض العلاقات الشخصية

كثير من الصفات السابق ذكرها كالمداراة ومراعاة الحضور والصدق هي صفات يقوم المجتمع بفرضها في مجالات العمل ومجالات العلاقات الاجتماعية العامة. ولكن ما لاحظه المؤلف هو أن هذه الصفات تكون أحيانا متناقضة مع أخلاق الشخص في المحيط الشخصي (أي مع الأصدقاء المقربين والأهل والأبناء .. إلخ).

وقد يبدو هذا متناقضا ولكن هذا ما لاحظه المؤلف. فالأخلاق في المجال الرسمي قد تكون متناقضة تماما مع الأخلاق في المجال الشخصي. وهذا لا يعني أن أخلاق جميع الإنجليز الشخصية تتناقض مع أخلاقهم الرسمية وإنما يعني أن الأخلاق الرسمية هي أخلاق فرضها المجتمع وأما الأخلاق الشخصية فهي تعتمد تماما على تربية الشخص وظروفه.

وهناك صفة واضحة عند الإنجليز وهو أن الإنجليز مزاجيون في المجال الشخصي. فالمزاج يتقلب عندهم وبصورة عجيبة وهذا قد يكون أحد أسباب ارتفاع نسبة الطلاق والانفصال عندهم.

وهذه نقطة جديرة بالانتباه:

مزاجات الإنسان تتغير من يوم إلى آخر ومن ساعة إلى أخرى. ولهذا السبب فالإنسان بحاجة إلى الحد الأدنى من الانضباط كي لا تتغير تصرفاته بتقلب مزاجه. وبالتالي فإن الانضباط يقوم بالحد من تأثير تغيرات المزاج على السلوك والتصرف. ولكنك لا تستطيع أن تشتري الانضباط من السوبرماركت أو محلات البقالة وإنما الانضباط تربية وممارسة.

ومنذ الستينيات والسبعينيات والحزم في التربية عند الأهل وفي المدارس قد أخذ بالتراجع في إنجلترا. وهذا أدى إلى ظهور أجيال يتصرفون حسب مزاجاتهم. وهذا الذي يبدو ظاهرا الآن في إنجلترا.

وليست جميع صفات الإنجليز السابقة سيئة وليست جميعها حسنة. فهدوء الأعصاب والمداراة والدردشة هي صفات حسنة. وأما سطحية العلاقات الدافئة وعدم إفشاء السلام وتناقض الأخلاق الشخصية والمزاجية فهي من الصفات السيئة وهي أحد الأسباب المؤدية إلى الشقاق. والذي حاول المؤلف القيام به في هذه المقالة هو نظرة شمولية (قدر الإمكان) لصفات المجتمع الإنجليزي تشمل الحسن والسيئ.

وهذه نقطة جوهرية:

توجد مرحلتان في التحليل: الأولى التحليل العقلي المجرد والثانية تحديد المواقف.

والمرحلة الأولى هي تحليل عقلي مجرد لا يتعلق بالعواطف أو المبادئ أو المشاعر وإنما هي نظرة بحتة للأمور. وإذا أحضرنا رجالاً مختلفي المبادئ (مسلم ونصراني وبوذي وهندوسي). وكانوا ذوي مهارات واطلاعات متشابهة وكانوا جميعهم ذوي مستوى ذكاء متساوٍ فإن المتوقع أن تكون نظرتهم العقلية للأحداث متشابهة. فالتحليل العقلي لتكتيكات هانيبال ومخططات تشرتشل وحركات روميل يجب أن تكون متشابهة عند المحللين ذوي المهارات والقدرات والاطلاعات المتشابهة. ولكن المواقف عند هؤلاء المحللين تختلف باختلاف مبادئهم ومشاعرهم.

وعندما تقوم بتحليل عقلي مجرد فيجب عليك أن تنتبه للحسن والسيئ وتنتبه إلى نقاط القوة ونقاط الضعف دون أي نظرة من نظرات الاحتقار أو الانبهار.

وهذه مشكلة حقيقية عندنا نحن المسلمين في الوقت الحاضر. فنظرة الكثير من المسلمين للغرب هي نظرة احتقار أو انبهار. ولكلتا النظرتين ضرر:

فكثير من المسلمين يظن أن المسلم هو الأذكى من الكافر وهذا الأمر غير مناسب. فلا يوجد أي علاقة بين الذكاء والإسلام . والهداية ليست مرتبطة بالقوة العقلية، فهناك الكثير من متوسطي الذكاء وقد هداهم الله إلى الإسلام وهناك الكثير من شديدي الذكاء ولم يدخلوا إلى الإسلام . فربط الإسلام بالذكاء هو ربط غير صحيح.

ولكن الذي يحدث عند كثير من المسلمين هو الاستغراب الشديد عندما يرون رجلا أوروبيا ذكيا ويقولون لماذا لا يسلم هذا الرجل. وهناك الكثير من المسلمين من يضرب الكف على الكف ويقول عن الغرب والإنجليز: كيف حكمونا هؤلاء؟

وهناك نظرة احتقار أخرى وهي قيام المسلمين بالمقارنة بينهم وبين الغرب في موضوع العبادات والوضوء والطهارة والمعاشرة والصحبة، ثم يقومون باحتقار الغرب كنتيجة لهذه المقارنة. وهذا خطأ شديد. فالعبادات والوضوء والطهارة لم نتبناها نحن بسبب ذكائنا الخارق أو بسبب نظرتنا الثاقبة للأمور وإنما ترسخت فينا هذه الأمور لأنها أوامر الله. ولهذا السبب فإن نتيجة المقارنة يجب أن تكون الشكر والحمد لله على فضله ونعمه علينا، لا أن تكون احتقارا على أقوام لم ينعم الله عليهم كما أنعم علينا.

وهذه نظرات الاحتقار. ولكن في الوقت نفسه فإن الكثير من المسلمين ينظر إلى الغرب نظرات الانبهار بسبب المنجزات العمرانية والثقافية عندهم. وضمن ما شاهده المؤلف فإن الكثير من المسلمين تتقلب نظرته بين الاحتقار والانبهار للغرب أكثر من مرة في اليوم الواحد.

وعندما تنظر إلى خصومك نظرة الاحتقار فأنت في الحقيقة لا تنظر إلا إلى نقاط القوة عندك. ولا يكون عندك الانتباه إلى نقاط القوة عند الخصوم.

وعندما تنظر إلى خصومك نظرة الانبهار فأنت في الحقيقة لا تنظر إلا إلى نقاط الضعف عندك. ولا يكون عندك الانتباه لنقاط الضعف عند الخصوم.

ولهذا السبب فإن نظرات الاحتقار أو الانبهار هي نظرات عقيمة ليس منها إلا كل الضرر.

ولكي تنتصر على العدو فعليك أن تنتبه إلى نقاط قوته وتحاول الإحاطة بها والتعلم منها، وعليك أن تنتبه إلى نقاط ضعفه وتحاول استغلالها، وعليك أن تنتبه إلى نقاط قوتك وتحاول استثمارها، وعليك أن تنتبه إلى نقاط ضعفك وتحاول معالجتها. ولكي تستطيع الانتباه إلى كل هذا فعليك أن تنظر إلى الأمور نظرة عقلية مجردة بعيدة تماما عن نظرات الاحتقار أو الانبهار.

وهذا ما حاول المؤلف عمله (قدر الإمكان) في تحليل صفات المجتمع الإنجليزي.

على أية حال فإن القرائن الحالية تفيد أن الانضباط في المجتمع الإنجليزي قد بدأ بالتراجع. وكما تم شرحه في مقالة سابقة فإن تراجع مفهوم الديانة في أوروبا قد أدى إلى تفكك الأسرة وسطحية العلاقات الاجتماعية وتراجع النظرة الوطنية. وكذلك فإن أحد الأساليب التي تم استخدامها لمواجهة الشيوعية هو تشجيع الحرية الشخصية وتشجيع التوجه نحو المتعة والإسراف. وهذا كله قد أدى إلى تراجع الانضباط في المجتمع الأوروبي.

ولكن هناك ملاحظة هامة وهي أن مستوى الانضباط في إنجلترا كان بنفس المستوى عند الألمان في بداية القرن العشرين. وكذلك كان مستوى الصناعات في إنجلترا. ومستوى الانضباط الآن في ألمانيا أقل من مستواه في بداية القرن العشرين ولكنه أعلى بكثير من مستوى الانضباط في إنجلترا. وهنا السؤال: لماذا؟؟؟

ضمن غلبة الظن فإنه لا توجد مشكلة في شرعية نظام الحكم في ألمانيا. فلا توجد مشكلة شرعية بين الحاكم والمحكوم وإنما توجد صراعات فكرية وحزبية يتم فضها بشكل دستوري وقانوني. ولهذا السبب فإن قيام النظام في ألمانيا بالحزم والحسم والصرامة في موضوع الانضباط لا يشكل مشكلة جوهرية بين المحكوم (الشعب) والحاكم.

أما في إنجلترا فإن الوضع مختلف قليلا. وقيام النظام بالحزم والحسم والصرامة في موضوع الانضباط قد يؤدي إلى أن يتساءل الشعب عن شرعية النظام نفسه. فنظام الحكم في ألمانيا ديمقراطي كامل في حين أن النظام في إنجلترا ملكي أرستقراطي ضمن واجهة ديموقراطية. وضمن غلبة ظن المؤلف فإن هذا هو السبب في إحجام النظام الحاكم في إنجلترا أن يكون بنفس المستوى الألماني من الحزم والحسم والصرامة لحماية الانضباط.

وتراجع الانضباط واضح في إنجلترا. فقبل الحرب العالمية الثانية كانت الصناعات في إنجلترا تفوق الصناعات في ألمانيا كفاءة ومجالات. أما الآن فإن قطاع الصناعات الثقيلة قد بدأ بالاضمحلال. وانتبه الإنجليز لهذا الأمر وبدأت سياساتهم تتجه نحو التركيز على قطاع الخدمات كالخدمات المصرفية والبنوك والتأمين والسياحة والمحاسبة والاستشارات والتعليم والأبحاث..إلخ. ولكن المشكلة هنا أنه كي تستمر إنجلترا في النجاح في قطاع الخدمات فعليها أن تكون علاقاتها مع العالم طيبة وعليها أن تكون دائما في مركز العالم. وأي تغيير في مركز إنجلترا في العالم سيؤثر سلبا وبشكل كبير على اقتصاد إنجلترا.

نقطة أخيرة في هذه المقالة وهي أنه ربما كان المؤلف شديدا أكثر من اللازم تجاه الشرق الأوسط. وللحق فإن ثقافة "العين الحمراء" قد بدأت بالاختفاء. وما زالت ثقافة "لسه بيتحمل" موجودة عند الجيل القديم ولكنها بدأت بالتراجع عند الأجيال الجديدة والأمل أن تختفي قريبا. كما أن طول البال وسعة الصدر قد بدأت بالتصاعد كما أن الانضباط ونظرة الاحتراف في الشرق الأوسط (وخصوصا في تركيا وإيران) قد بدأت بالتضاعف. وهذا الأمر يثير في النفس الأمل.

الفصل السادس والعشرون

إنجلترا وفلسفات الدولة

إن الصفات الموجودة في المجتمع الإنجليزي ووجود رجالات شديدي الذكاء في تاريخ إنجلترا ساعد الأجهزة الإدارية في إنجلترا على خلق مهارات وفلسفات في غاية المتانة في إدارة الدولة والتي جعلت إنجلترا وحتى هذه اللحظة في مركز العالم.

ويمكن تلخيص هذه الفلسفات كما يلي:

❖ خلق وحماية وإدارة المعارضة:

إن أفضل النقاط في مسك العصا هي المنتصف. ومن هذه النقطة فأنت تستطيع تحريك العصا في أي اتجاه وبأقل جهد ممكن. في حين أن مسك العصا من الطرف له ميزة ولكن عاقبته هو أنك قد تفقد التوازن مع حركة العصا. وهذا كذلك صحيح في إدارة الدولة. ولكي يستطيع النظام إدارة الدولة بشكل مريح فيجب أن تكون القوى السياسية في الدولة متوازنة. وتوازن القوى في الدولة يتطلب وجود المعارضة.

وبالطبع فإن وجود معارضة قد يؤدي إلى بعض المشاكل والصراع السياسي في الدولة ولكن هذه المشاكل والصراعات تكون ضمن الحد الأدنى والمقبول إذا اتصف المجتمع بذكاء جماعي مرتفع. وللتذكير فإن الذكاء الجماعي هو مجموعة صفات تنبثق من طول البال وسعة الصدر وحسن الاستماع والجدية وهدوء الأعصاب .. إلخ.

وقام الإنجليز بخطوة إضافية في هذا الموضوع كانت تتركز أولا في مستعمراتهم ثم قاموا بتطبيقها في مجتمعاتهم ذلك بخلق المعارضة بقيادة رجال مخلصين للمعارضة ولكنهم مقبولون من الدولة.

وعندما تكون الظروف مهيئة لقيام معارضة ضد النظام فإنه من الذكاء إنشاء هذه المعارضة تحت رعاية النظام نفسه. وبهذا فإن النظام قادر على التأثير في اختيار قيادة هذه المعارضة بحيث تكون هذه القيادة أفضل الموجود للنظام.

وكذلك فإن وجود معارضة في الدولة تحت قيادة رجال مخلصين للمعارضة ولكنهم مقبولون من النظام فإن هذا يمنع ظهور معارضات أخرى برجال آخرين غير مرغوبين من النظام.

وهنا الدهاء الإنجليزي وهو خلق المعارضة والانتخاب غير المباشر لقيادات هذه المعارضة بحيث تكون هذه القيادات مقبولة من جماهير المعارضة ولكنهم ليسوا ذوي خطر على النظام. وقد تم الحديث عن هذا الموضوع في مقالة "القوى الدافعة المبدئية". وجورج جالاوي (George Galloway) وتوني بن (Tony Benn) وكين ليفينجستون (Ken Livingstone) هم أحد الأمثلة عن قيادات المعارضة في إنجلترا والذين يتميزون بقوة الذكاء وقوة الخطابة ومهارة الإدارة ولكن مهارتهم في النظرة الاستراتيجية والتخطيط الاستراتيجي غير عالية ولهذا السبب فإنه من السهل على النظام أن يتواصل معهم وأن يضعهم في خدمته.

❖ توازن القوى والوجود في المركز

إنجلترا ومنذ ظهورها على الساحة الأوروبية (القرن الثامن عشر) وسياستها واضحة وهو عمل توازن في القوى في أوروبا وأن تكون هي في مركز هذا التوازن. والمقصود بتوازن القوى هو عمل قوى متعارضة في النظام الدولي بحيث إذا قامت قوة بالتسلط فإن جميع القوى الأخرى تقوم بالمواجهة.

هذه النقطة مشابهة للنقطة السابقة.

والمقصود بأن تكون إنجلترا في مركز التوازن معناه أن تكون هي الطرف الحكم في هذا التوازن. ولكي يتحقق هذا الأمر فإن إنجلترا بحاجة لأن تتصرف بدرجة عالية من المصداقية. وهذا هو السبب في محاولات إنجلترا الدائمة أن تبدو في الصدارة في الموضوعات الأخلاقية وأن تقوم بتبرير تصرفاتها وقراراتها بأعذار أخلاقية وقانونية.

ومن هذه النظرة نشأت فلسفة أخرى عند الإنجليز وهي عدم التدخل في مشاكل الآخرين إلا إذا كان لها تأثير حقيقي على المصالح الإنجليزية.

وإذا نظرت مثلا إلى سياسات إنجلترا في الخليج فستجد أن إنجلترا قلما تدخلت في المشاكل بين القبائل، بل كانت صبورة جدا مع شيوخ القبائل المشاكسين. وفي واقع الحال فإن إنجلترا قد قامت بما هو أبعد من الفلسفة السابقة فقد قامت بخلق المشاكل بين الآخرين والامتناع عن التدخل في حلها. والمناطق المحايدة في الخليج هي أحد أفضل الأمثلة.

وإحدى أكثر الفلسفات ذكرا في الأدبيات الإدارية عند الإنجليز هي الشعار الروماني القديم: "فرق ثم اغزُ" (Devide and conquer) وهو الشعار الذي تمت ترجمته بـ "فرق تسد". وإذا انتبهت فإن فلسفة توازن القوى وخلق المعارضة هي في الواقع امتداد لهذا الشعار.

وهناك نقاط فرعية أخرى من الجدير ذكرها وهي فلسفة الانتخاب الطبيعي والمواجهة غير المباشرة:

والانتخاب الطبيعي هو فلسفة ضمن نظرية التطور. وفي هذه الفلسفة فإن الأجناس تنجو أو تنقرض بحسب قوتها وقدرتها على التكيف مع الطبيعة. وهذه أحد الفلسفات التي يتبعها الإنجليز في سياساتهم. ففي أي صراع لا يؤثر بشكل جوهري على المصالح الإنجليزية فإن إنجلترا تتبع فلسفة الانتخاب الطبيعي وهي بذلك تستغل الطبيعة في اختيار أصلب الموجود لمصلحتها. مثال ذلك أن إنجلترا لم تتدخل في الصراع بين دولة آل سعود ودولة الأشراف في الحجاز بعد الحرب العالمية الأولى. وكذلك لم يظهر أي تدخل جدي من الإنجليز في حرب أيلول بين الملك حسين من جهة وبين منظمة التحرير الفلسطينية وسوريا من جهة أخرى. في حين أن إنجلترا تدخلت وبشكل مباشر في رغبات التوسع السعودي تجاه الكويت والعراق وعُمان.

وكذلك فإن إنجلترا تقوم (قدر الإمكان) بتفادي المواجهة بينها وبين رجالاتها في المنطقة وتستعيض عنها بقرصات الأذن والجكارة غير المباشرة. مثال ذلك هو قيام

إنجلترا بالتخطيط لعملية انقلاب في إحدى الأنظمة المرتبطة بها، ثم قامت بتسريب هذه العملية للنظام، وكانت الرسالة واضحة. وكذلك البرنامج الوثائقي لـ BBC عن "موت أميرة" كان مواجهة غير مباشرة بين إنجلترا والسعودية. وكذلك كانت مسرحية التحقيقات في رشاوى صفقة اليمامة.

❖ ضم الشرفاء (ودون أن يعلموا)

إنجلترا (بخلاف أمريكا) لا تفضل شراء العميل وإنما تفضل تربيته أو ضم الشرفاء. وذلك لأن العميل إذا تم شراؤه فقد يتغير ولاؤه إذا جاء الآخر بسعر أفضل.

وتملك إنجلترا المهارة الحقيقية في تمييز الشخصيات وتعلم تماما نوعية الشخصيات التي تريدها. وإذا كانت هناك شخصية ذات ذكاء مرتفع ومهارات إدارية وشرف ولكن مهاراتهم الاستراتيجية غير مرتفعة وعندهم بعض الليونة في تطبيق المبدأ فإن هذه هي النوعية من الشخصيات التي يبحث عنها الإنجليز. وباستخدام مهارات الدبلوماسية والتأثير وتكتيكات سلامي فإن الجهاز الدبلوماسي الإنجليزي قادر على ضم الكثير من هؤلاء الشرفاء إلى مجاله ودون علمهم.

❖ مهارات امتصاص الغضب والتوتر

هناك تشابه بين مهارات امتصاص الغضب عند الإنجليز وبين تكنيك "هدم الهوس" (ترجمة غير حرفية لـ Compulsion Blow-Out) في البرمجة العصبية (-Neuro linguistic programming – NLP).

و"هدم الهوس" هو تكنيك علاجي وهو كما يلي:

لنفترض أن شخصا عنده هوس أكل الشوكولاتة ويريد التخلص من هذا الهوس. فإن إحدى طرق العلاج هي قيام هذا الشخص بأكل الشوكولاتة فقط وضمن فترة طويلة (عدة ساعات) وهذا معناه أن يكون فطوره وغداؤه وعشاؤه هو الشوكولاتة. وعندها وفي نقطة ما في هذه الفترة فإنه ستحدث ردة فعل عكسية عند الشخص تجاه الشوكولاتة وتتحول الشوكولاتة إلى أمر بغيض.

والفلسفة وراء هذا التكنيك هي وجود حد أدنى (Lower Threshold) وحد أعلى (Higher Threshold) وأن ممارسة الهوس (كالرياضة أو القراءة أو أكل الشوكولاتة أو التدخين..إلخ) يبقى بقوته ما دامت الممارسة ضمن هذين الحدين. ولكن إذا نزل مستوى الممارسة تحت الحد الأدنى أو زادت الممارسة فوق الحد الأعلى فإن الهوس سينهار. والذي حدث للشخص آكل الشوكولاتة أن أكله للشوكولاتة قد زاد بكثير عن الحد الأعلى المعقول وهنا انقلبت النظرة إلى الشوكولاتة من هوس إلى بغض.

وبالطبع فإن قيام الناس بزيادة ممارسة الهوس (كأكل الحلويات أو التدخين) فوق الحد الأعلى هو أمر غير صحي، ولهذا السبب فقد قامت البرمجة العصبية بخلق ألعاب ذهنية بديلة للممارسة وقادرة على تضخيم المشاعر تجاه الهوس فوق الحد الأعلى وهنا ينهار الهوس. ونسبة نجاح هذه الألعاب الذهنية مرتفعة.

الآن...فلسفة "تخفيف الصدمة" مشابهة جدا لفلسفة "هدم الهوس" كما في المثال التالي:

لنفترض أن جريرا قد سقط في الامتحان وأنه ينظر إلى هذا الأمر على أنه مصيبة. ولنفترض أن صاحبه (زيد) قد قام وبمهارة بتضخيم هذه المصيبة كما لو أنها نهاية العالم. ما الذي سوف يحدث إذا استمر زيد بهذه اللعبة؟؟؟

السقوط في الامتحان هي مشكلة ولكنها ليست نهاية العالم، والمتوقع حدوثه أنه عندما تتخطى المشاعر عند جرير الحد الأعلى فإن عقل جرير سينتبه إلى سخافة الربط بين السقوط في الامتحان ونهاية العالم. وهذا سيؤدي إلى رجوع الهدوء إلى عقل جرير.

ويجب التنبيه هنا إلى أن هذا الأسلوب في العلاج ينجح مع ٦٠٪ من البشر ولكن هناك ٢٠٪ من البشر ستكون ردة الفعل عندهم سلبية (أي أن تضخيم المصيبة سيؤدى إلى انهيار عصبي وليس إلى الهدوء). ولهذا السبب فالمؤلف لا ينصح أبدا

باستخدام هذا الأسلوب في العلاج إلا بعد ترو ودراسة لطبيعة الشخصية وخبرة سابقة بهذا العلاج.

دعونا الآن نرجع إلى مهارات الإنجليز في امتصاص الغضب وسنستخدم تحقيقات هاتون في دراسة هذه المهارات:

ادّعى توني بلير قبل غزو العراق أن العراق يملك أسلحة دمار شامل وأنه قادر على إطلاقها خلال ٤٥ دقيقة. وبعد الغزو قامت الـ BBC Radio4 بعرض تقرير إخباري منسوب إلى أحد الخبراء يتهم الحكومة بالمبالغة (Sexed-up) في هذا الأمر. وقامت قيامة الحكومة وتم تسريب اسم هذا الخبير (د.ديفيد كيلي - Dr. David Kelly) إلى الصحافة ليقوم هذا الخبير بالانتحار في ظروف ما زالت غامضة. وعندها قامت الحكومة بالطلب من هاتون (Lord James Hutton) التحقيق في ظروف انتحار ديفيد كيلي.

وكانت جلسات التحقيق علنية للصحافة واستمرت هذه الجلسات مدة طويلة. وقامت الصحافة والتليفزيون بتغطية هذه الجلسات ودراستها من جوانبها، وقام الجميع (الذين مع الحكومة والذين ضد الحكومة) بالكتابة والتعليق على هذا الموضوع. وأصبحت تحقيقات هاتون مسلسلاً تلفزيونياً شديد الإثارة والكل يضع التخمينات والتنبؤات لقرار هاتون. وفي النهاية قام هاتون بتبرئة الحكومة من أي عمل خاطئ، وانتهى المسلسل وعادت الحياة إلى طبيعتها.

ما حدث في تحقيقات هاتون هو مثال شبيه جدا لتكنيك تخفيف الصدمة وهدم الهوس. والذي حدث هو تفريغ مشاعر الناس (بالكتابة والتعليق والمشاهدة) نحو موضوع أخطاء الحكومة في اتهاماتها للعراق. واستمرت ممارسة هذا التفريغ إلى درجة أكبر من الحد الأعلى المعقول وعندها فإنه من الطبيعي للجمهور أن يفقد الرغبة في متابعة هذا الموضوع (أخطاء الحكومة) وتتحول إلى رغبة في معرفة نهاية المسلسل التليفزيوني (قرار هاتون).

وأول مرة انتبه فيها المؤلف لهذه المهارة كان في جنازة ديانا. فقد كانت التغطية لهذه الجنازة خارج المألوف. وبعد أسبوع من الجنازة بدأت الشائعات تنتشر أن حادث ديانا ربما كان مقصودا من المخابرات الإنجليزية لمنعها من الزواج من عربي مسلم. وقد قامت إحدى القنوات التليفزيونية بسؤال أحد المارة إن كان يؤيد فتح تحقيق في هذا الأمر وكان جوابه: لا. هذا يكفي (No. This is enough). وهنا كان انتباه المؤلف لمهارات التملص وامتصاص الصدمة عن طريق التغطية الكثيفة للإعلام.وهناك ملاحظات في تحقيقات هاتون يجب الانتباه لها:

التقرير الذي وضعته الـ BBC Radio4 لم يكن قاسيا كتقارير أخرى ولكن قامت قيامة الحكومة لهذا التقرير دون سواه. لماذا؟؟

انتحار ديفيد كيلي ما زال حتى هذه اللحظة غامضا. وهذا يضع علامات استفهام حقيقية على تحقيقات هاتون. فبعد هذه التحقيقات قام فريق الإسعاف (Dave Barlett and Vanessa Hunt) والذي كان أول من عاين ديفيد كيلي بالإعلان أن ديفيد كيلي لم ينزف بما يكفي لوفاته. ولم تقم الشرطة الإنجليزية بالتعرض إلى هذا الأمر كما لم يقم هاتون بفتح هذا الموضوع في جلساته. وكذلك فقد ظهرت معلومات (عن طريق قانون حرية المعلومات) أن السكين الذي يقال إن ديفيد كيلي قد استخدمه في الانتحار ليس فيه أي بصمات (عن Wikepedia عن The Guardian – 15-Oct-2007). وفي 5-Dec-2009 ذكرت صحيفة التيليغراف (Telegraph) أن ستة أطباء استشاريين بدأوا حملة قانونية لإعادة التحقيق في ظروف وفاة ديفيد كيلي. وكل هذا يضع علامات استفهام حقيقية على مصداقية تحقيقات هاتون.

وكانت تحقيقات هاتون فريدة لكونها كانت ذات تغطية إعلامية مباشرة. وهذا أمر غير عادي. واستطاعت تحقيقات هاتون في ذلك الوقت امتصاص الغضب والتوتر في موضوع عدم شرعية غزو العراق.

والآن وأثناء كتابة هذه السطور توجد تحقيقات أخرى شبيهة وهي تحقيقات شيلكوت (John Chilcot) والهدف الرسمي من هذه التحقيقات كما تم وضعها

في www.iraqinquiry.org.uk هو بحث "الدروس" التي يمكن تعلمها من أزمة العراق:

The Prime Minister annouced on 15-June-2009 that an inquiry would be conducted to identify lessons that can be learned from the Iraq conflict.

ومن الجدير بالذكر أن شيلكوت وهاتون هما عضوان في مجلس الملكية الخاص (Privy Council) وهو مجلس شديد السرية ومرتبط بالأجهزة الإدارية العليا في الدولة. وغلبة الظن أن تحقيقات شيلكوت ستتحول إلى مسلسل تليفزيوني بالضبط كتحقيقات هاتون وهدفها الأساسي هو امتصاص الغضب والتوتر وإرجاع الثقة إلى الأجهزة الإدارية العليا وإرجاع المصداقية إلى مؤسسات الدولة.

❖ مهارات التملص

عمل التحقيقات هو أحد الأساليب التي تقوم فيها الحكومات لمحاولة معرفة الحقيقة أو التملص من الحقيقة. وكل حكومة تقع في مأزق داخلي فإنها تقوم بتعيين محقق خاص. وهذا يتضمن الطلب من الجميع الصمت كي يستطيع هذا المحقق القيام بأعماله.

بالطبع فإن هذا الأمر حق ولكن الكثير من الحكومات يستخدم هذا الحق (أي عمل لجنة تحقيق) للوصول إلى باطل (أي التملص من الحقيقة).

وقد أبدعت إنجلترا في هذا الفن، وهذا الإبداع جاء من السنوات الطويلة من العمل السياسي. بالإضافة إلى ذلك فإن طريقة تشكيل مؤسسات الدولة تجعل للحكومة القدرة على التملص من الحقيقة. كمثال على ذلك فإن هاتون (Hutton) وشيلكوت (Chilcot) هما من أعضاء مجلس الملكية الخاص وهو إحدى المؤسسات العليا في الدولة ومرتبط بشكل وثيق مع الأجهزة السيادية. وبالتالي فعندما يكون هناك تحقيق من قبل مجلس الملكية الخاص ضد أحد الأجهزة الرئيسية في الدولة فإن الأمر أشبه ما يكون بشكوى الشيطان إلى إبليس.

وهذه هي النقطة الجوهرية في إنجلترا وهي عدم وجود الشفافية الحقيقية في التحقيقات المحرجة للنظام بسبب تشابك الأجهزة الإدارية العليا. وهذا مختلف في أمريكا وأوروبا حيث إن الفلسفة الأساسية في الحكم هناك تتطلب توازن واستقلال السلطات الأساسية عن بعضها؛ ولهذا السبب فإن التحقيقات هناك لها شفافية أكبر بكثير من إنجلترا.

وإذا بحثت طريقة عمل التحقيقات المحرجة للنظام فيمكن الانتباه إلى الاستراتيجيات التالية:

أ. إطالة وقت التحقيق في متابعة تفاصيل ليست جوهرية. وهذا كله يعطي الفرصة لتخفيف الاحتقان ومحاولة حل المشكلة بعيدا عن التحقيق نفسه.

ب. استخدام نفس أساليب امتصاص الغضب والتوتر السابق ذكرها مع أطراف المشكلة. وهذا واضح تماما مع التحقيقات التي جرت لمحاولة تحديد المسئولية في قتل البرازيلي منيزيز (Jean Charles De Menezes).

ج. تمييع الأدلة وتلبيس الطواقي وتعقيد المسائل لتخفيف أضرار التحقيق قدر الإمكان. وهذا أيضًا واضح في تحقيقات مينيزيز. وفي الواقع فإن تحقيقات مينيزيز تستحق الدراسة:

* في يوم الخميس ٢١-٧-٢٠٠٥ قام أربعة رجال مسلمين بمحاولة فاشلة لتفجير عربة قطار وباص في لندن ولاذوا بالفرار.

* اشتبهت الشرطة (حسب الرواية الرسمية) بأن الرجال الأربعة مختبئون في أحد المجمعات السكنية وتم مراقبتها. وفي هذا المجمع كان يقيم مينيزيز.

* خرج مينيزيز في اليوم التالي (الجمعة، ٢٢-٧-٢٠٠٥) إلى عمله بملابس خفيفة وخلافا للأقاويل التي ذكرتها الجرائد والتي قالت إنه خرج بملابس سميكة وغير عادية. وقد ثبت هذا من الصورة التي انتشرت أثناء التحقيقات لجثة مينيزيز في عربة القطار. ومن غير المعقول أن يظن أحد أن مينيزيز كان يحمل

قنابل انتحارية.

* بعد عملية القتل قام إين بلير (Ian Blair) رئيس شرطة العاصمة بالتصريح للصحافة أن عملية القتل متعلقة بأحداث البارحة (الخميس) وأن الرجل رفض الانصياع لتعليمات الشرطة:

The Metropolitan Police Commissioner Sir Ian Blair said that the shooting at Stockwell station in south London was linked directly to the wake of yesterday's attacks across the capital. He said "This man was challenged and refused to obey police instructions". www.independent.co.uk/dayinapage

* وبالطبع فإن هذا القول كان كاذبا فلم يكن هناك أي رفض للانصياع من مينيزيز وإنما قامت الشرطة بإطلاق النار عليه وبشكل مفاجئ.

* تمت عملية قتل مينيزيز الساعة العاشرة من صباح الجمعة. واستغرق الأمر ثلاثين ساعة كي تعترف الشرطة أن الرجل لم يكن يحمل قنابل انتحارية وأنه ليس له علاقة بأحداث الخميس وأنه ليس مسلما. وهذه نقطة جوهرية، فإنه يكفي ١٠ دقائق بعد عملية القتل كي تتأكد الشرطة أن الرجل لا يحمل قنابل انتحارية، ولكن تصريح إين بلير للصحافة وسكوت الشرطة ثلاثين ساعة أمر يثير الاستهجان وعلامات الاستفهام. بعد الاعتراف قام إين بلير بالاعتذار يوم الأحد عن هذه العملية ولكنه أوضح أن عمليات قتل أخرى قد تتكرر وذلك لمحاولات الشرطة الإمساك بالانتحاريين:

Met Police Chief Sir Ian Blair has appologised to the family of the Brazilian man shot dead by police in South London on Friday. He said the death of Jean Charles De Menezes was a tragedy but admitted more people could be shot as police hunt suspected suicide bombers. (news.bbc.co.uk)

* عملية التحقيق أخذت أسلوب تلبيس الطواقي وكل جهاز يقوم باتهام الآخر.

* في يوليو ٢٠٠٦ قررت النيابة الملكية (Crown Prosecution Service) أنها لا تقوم بتحميل الضباط الذين قتلوا مينيزيز أي مسئولية إجرامية ولكنها ستقوم بتحميل شرطة العاصمة المسئولية عن عدم حماية مينيزيز وذلك تحت طائلة قانون الصحة والسلامة (Health and Safety Act).

* وظهر أن الكثير من الأقاويل التي ذكرتها الجرائد في الأيام الأولى كانت كاذبة. منها أن كاميرات المراقبة (CCTV) لم يكن فيها أفلام ذلك اليوم وبالتالي مطاردة الشرطة لمينيزيز ليست موجودة على الأشرطة، وأن مينيزيز كان يلبس معطفاً سميكاً، وأنه قفز عن حاجز التذاكر، وأنه كان يركض هربا من الشرطة وأنه كان مرعوبا، وأن أسلاك التفجير كانت متدلية من حزامه. وقد نقلت الجرائد هذه الأقاويل عن شهود عيان لتظهر الاتهامات أن هؤلاء الشهود كانوا في الواقع من رجال الشرطة.

* في فبراير ٢٠٠٦ قامت امرأة بالشكوى إلى الشرطة أن مينيزيز (أو رجلا يشبهه) قد اغتصبها في أحد فنادق لندن في ٢٠٠٢. وقد أنكرت عائلة مينيزيز هذه الشكوى واعتبرتها محاولة من الشرطة لتشويه سمعة مينيزيز (أو ربما كانت محاولة للي أيدى العائلة). وعلى أية حال فقد تم أخذ عينة من دماء مينيزيز وتمت تبرئته من هذه التهمة في أبريل.

* وفي نوفمبر ٢٠٠٩ وبعد أربعة سنوات توصلت الشرطة إلى صفقة مع عائلة مينيزيز تقوم الشرطة بتعويض العائلة بمبلغ ١٠٠ ألف جنيه مع أتعاب المحاماة مقابل تنازل العائلة عن المطالبة القانونية. وامتنعت الشرطة والعائلة عن التعليق على هذا التعويض المنخفض نسبيا. وضمن غلبة ظن المؤلف فإن هذه القصة من قتل مينيزيز ومحاولة اتهامه أنه من خلايا الإرهاب ثم التحقيقات التي تلت ثم اتهامات الاغتصاب هي كلها سلسلة من السياسات غير الشريفة من الأجهزة الإدارية في إنجلترا للتملص من الحقيقة. وإذا انتبهت فإنه لم تتم محاسبة الذين قاموا بنشر الأقاويل الكاذبة عن مينيزيز وإنما تم إهمال هذا الموضوع تماما.

والسؤال الأساسي الذي يضع نفسه هو: إذا كان مينيزيز مسلما فهل كانت الشرطة ستعترف أنه ليس من خلايا الإرهاب وأنه ليس بحوزته المتفجرات وأن قتله كان خطأ؟؟

وكذلك فإن تمييع الأدلة وتعقيد المسائل واضح في التحقيقات التي تلت اتهام كونداليزا رايس للمخابرات الإنجليزية أنها المصدر لقصة وثائق النيجر.

وقصة النيجر هي المقولة التي استخدمها جورج بوش في خطابه أمام مجلس الشيوخ الأمريكي أن النظام العراقي حاول شراء اليورانيوم من النيجر. وعندما ثبت الكذب في هذا الادعاء فإن كونداليزا رايس اتهمت المخابرات الإنجليزية أنها كانت المصدر لهذه القصة. وقامت تحقيقات إنجليزية لبحث هذا الموضوع، وإذا نظرت إلى نتائج هذه التحقيقات فكلها تعقيد في تعقيد وتمييع أدلة وتلبيس طواقي.

وأما بالنسبة إلى تحقيقات شيلكوت الحالية فإن غلبة ظن المؤلف أن هذه التحقيقات ستقوم بتحريف وإهمال الحديث (قدر الإمكان) عن عناد النظام الإنجليزي ضد الفرنسيين و الألمان والعالم في موضوع غزو العراق، وعناد النظام تجاه تحقيقات بليكس (Hans Blix) والبرادعي في موضوع الأسلحة في العراق، وعناد النظام ضد قواعد وقوانين الأمم المتحدة، والمشاركة غير المباشرة للجيش الإنجليزي في حرب الفلوجة حيث قامت فرقة بأخذ مواقع الجيش الأمريكي في بغداد حتى يتفرغ الأمريكيون لضرب الفلوجة. وسيتم كذلك إهمال البحث والتحقيق عن الوثائق المزورة والأكاذيب التي سربها النظام والدسائس التي قام بها النظام لتمرير قرار الغزو.

وقرار غزو العراق لم يكن مسئولية الحكومة وإنما كان مسئولية النظام بأجمعه. ولكن الذي يحدث الآن أن الأمور تتجه لتحميل توني بلير المسئولية وليس النظام. ويبدو أن توني بلير قد اضطر إلى القيام بتصريحه الشهير في ١٢-١٢-٢٠٠٩ أنه كان سيقوم بغزو العراق حتى وإن لم يكن فيها أسلحة دمار شامل. وهذا التصريح قد خفف الضغط على جهاز المخابرات وأخرجها من دائرة الضوء تماما. والمثير

للضحك والغضب في الوقت نفسه هو تصريح جون ميجور (رئيس الوزراء السابق وعضو حزب المحافظين) أنه ظن أن توني بلير كان صادقا في اتهاماته بامتلاك العراق لأسلحة دمار شامل. وهذا استغباء واستخفاف بالعقول.فجون ميجور ليس كأحد العوام في شوارع لندن وإنما هو رجل يعلم خبايا الأمور. ومع هذا فقد قام الملايين في أنحاء العالم بتكذيب اتهامات بلير بمن فيهم البرادعي وبليكس. فتصريح جون ميجور هو قمة الاستخفاف بالعقول.

إن تحقيقات شيلكوت شبيهة جدا بالقصة الزمزية التالية:

* يقوم الجمهور بالتظاهر ضد النظام في أمر.
* يقوم النظام بالتحقيق في هذا الأمر.
* يقوم التحقيق بتوجيه الملامة في هذا الأمر لجهة.
* يقوم النظام وأقرباء النظام وأصحاب النظام مع الجمهور بالتظاهر ضد هذه الجهة.

وعند انتهاء المظاهرة في المساء يتعانق النظام مع الجمهور وتنتهي القصة وتبدأ قصة أخرى.

* مهارات تقوية العلاقات وارجاع الود

مهارات الدبلوماسية ومهارات التأثير ومهارات التسوية وعقد الصفقات قد أعطت لإنجلترا الثقة الحقيقية في قدرتها على إرجاع الود للعلاقات المتوترة. فالعلاقات بين إنجلترا وأمريكا عام ١٧٧٥م كانت سيئة ولكن خلال ٥٠ سنة استطاعت إنجلترا خلق الود والوئام والتفاهم بينها وبين أمريكا. وكذلك كانت العلاقات سيئة بين المجتمع الهندي والإنجليز إبان الاستقلال الهندي. ولكن خلال سنوات قليلة استطاعت إنجلترا إرجاع الود والوئام إلى هذه العلاقات. وهناك

كراهية قديمة من الشعب الإيرلندي تجاه الإنجليز ولكن بعد ٥٠ سنة من استقلال إيرلندا الجنوبية فإن علاقات الود بينها وبين إنجلترا في ارتفاع.

وفي أزمة العراق فقد كانت علاقة إنجلترا من جهة وفرنسا وألمانيا من جهة أخرى في غاية التوتر. ولكن بعد أزمة العراق وخلال سنة واحدة استطاع الإنجليز إرجاع علاقات التفاهم بينهم.

ويوجد الآن توتر حقيقي بين إنجلترا ووزارة الخارجية الأمريكية ولكن لا يبدو على إنجلترا الاكتراث الحقيقي لهذا الأمر، وإنها على العكس تماما فإنه يوجد بعض المناكفات بينهما. وإنجلترا واثقة تماما (بسبب سوابقها ومهاراتها) أنها قادرة على إرجاع علاقات الود والوئام بينها وبين أمريكا وخلال بضع سنوات.

وهنا نقطة انتباه وهي أن القوة الحقيقية لإنجلترا هي الدبلوماسية. وإذا لم تكن الدولة (أي دولة) على نفس المستوى من هذه القوة فإن الأسلوب الوحيد للتغلب على قوة إنجلترا الدبلوماسية هو بتجميدها، أي تجميد العلاقات الدبلوماسية بينها وبين إنجلترا.

وكما أن لإنجلترا المهارة في إرجاع الود إلى العلاقات المتوترة فإن لها كذلك المهارة في إنهاء علاقات الود بينها وبين الآخرين إذا اقتضى الأمر ذلك. أحد الأمثلة هو العلاقة بين صدام حسين وإنجلترا. وضمن غلبة ظن المؤلف فإن العراق كان تحت نفوذ المخابرات الإنجليزية ومنذ نشأة دولة العراق بعد الحرب العالمية الأولى وحتى غزو الحلفاء للعراق عام ٢٠٠٣ باستثناء فترة عبد الكريم قاسم. وضمن غلبة ظن المؤلف فإن صدام حسين كان هو ونظامه مرتبطين بالإنجليز وحتى آخر لحظة. ولكن العراق خرج من الحرب العراقية الإيرانية وهو مدجج بالسلاح. وكان صدام حسين ونظام حكمه على درجة عالية من الحماقة ولم يكن مريحا أبدا أن يكون هذا الحجم من السلاح بيد مجموعة من الحمقى. ولهذا وجدت إنجلترا أن أفضل الحلول المتوفرة عندها هو ضرب العراق لإنهاء حجم السلاح عنده.

والطريقة التي قامت بها إنجلترا بإنهاء العلاقة الودية بينها وبين العراق كانت في استغلال مشكلة بازوفت (Farzad Bazoft) وهو بريطاني من أصول يهودية إيرانية. وقامت الحكومة العراقية بالقبض عليه بتهمة التجسس. وعندها قامت قيامة الحكومة البريطانية بدرجة استغرب منها النظام العراقي، وقام النظام العراقي بإعدام بازوفت، ولكنه بعد أسابيع قليلة قام بالإفراج وبهدوء عن صديقة (Girlfriend) بازوفت.

بالطبع تأثرت العلاقات الدبلوماسية بين العراق والحكومة الإنجليزية ولكن العلاقات الاستخباراتية لم تتأثر واستمرت تجارة السلاح بين إنجلترا والعراق حتى آخر لحظة. واعتبر العراق وقتها أن ما حدث من مشاكل دبلوماسية بين العراق وإنجلترا إنما هو حماقة من تاتشر فقط، ولم ينتبه صدام وقتها للحبل الذي بدأ يلتف حول عنقه.

وأما غزو العراق في المرة الثانية (٢٠٠٣) فهو لسبب أكثر أهمية من العراق نفسه وهو إنهاء البرامج النووية في إيران والضغط على النظام الإيراني بهدف إنهاء وجوده. وهذا الأمر تم شرحه بالتفصيل في مقالات سابقة.

❖ **سبق العاصفة والإحاطة بالأضرار**

تعلمت إنجلترا كيف تسبق العاصفة قبل حدوثها. وهذه الفلسفة ظهرت بعد الثورة الأمريكية عام ١٧٧٥م، إذ كان بإمكان إنجلترا أن تحافظ على الولايات الأمريكية وذلك ببعض الدماثة والتنازلات ولكنها فقدت السيطرة على الأمور نتيجة لسلسلة من الحماقات. وكانت التجربة الأمريكية هي أول تجربة لهم في استقلال الشعوب. ونظرة إلى التاريخ الإنجليزي فإن الإنجليز لا يبتدعون الحلول بقدر ما يتعلمون من السوابق. وكانت التجربة الأمريكية هي السبب في ظهور سلسلة من الفلسفات أهمها قراءة الإشارات واستباق العواصف قبل حدوثها.

وعلمت إنجلترا في نهاية الـ ٢٠٠٦ أن خططها لإنهاء النظام الإيراني قد فشلت وأن بقاءها في العراق سيكون مكلفا ولهذا سعت إلى محاولة عقد صفقة مع الإيرانيين لتخفيف الأضرار قدر الإمكان والخروج من الأزمة.

وتكللت مساعي إنجلترا بصفقة مع المقاومة في البصرة وقامت إنجلترا على إثرها بالخروج من المدينة والتمركز خارجها. وبالطبع فقد ظهرت هذه الصفقة عندما قامت القوات الحكومية بمحاولة السيطرة على البصرة ولم تتدخل القوات الإنجليزية واضطرت القوات الحكومية للاستعانة بالقوات الأمريكية في بغداد. وكان هذا محرجا جدا للإنجليز. ولكن سياسة الإنجليز في ذلك الوقت كانت بالخروج من العراق ضمن أقل قدر ممكن من الأضرار.

وكذلك فقد أرسل الإنجليز أكثر من رسالة إلى طالبان وأكثر من تلميح برغبتهم بالخروج من أفغانستان ولكن حتى هذه اللحظة فإن جهودهم بالتملص لم تتكلل بالنجاح هناك.

وبالطبع فإن أمريكا تنظر إلى هذه التصرفات كطعنة من الخلف ولكن لا يظن المؤلف أن إنجلترا تكترث كثيرا لهذا الأمر. فإنجلترا عندها المهارات والأسبقيات في إرجاع علاقات الود والوئام بينها وبين أمريكا وعندها المرونة الكافية كي تقوم لاحقا بتقديم تلميحات الاعتذار وانتقادات الذات في سبيل إرجاع علاقات الود.

وكذلك فإن استباق العاصفة يفسر قيام إنجلترا الآن بفتح التحقيقات فى موضوع انتهاكات الجيش الإنجليزي للسجناء العراقيين في البصرة. والذي يغلب على تخمين المؤلف أن إنجلترا وجدت علاقتها مع العراق ليست جيدة، وبدلا من أن يقوم العراق بفتح هذا الموضوع فإن الإنجليز وجدوا أنه من الأكثر حكمة أن تستبق إنجلترا هذا الأمر وتقوم هي بنفسها بفتح هذا الموضوع. وعلى الأقل تكسب إنجلترا بعض المصداقية في هذا التصرف.

نقطة فرعية هنا في هذا الموضوع وهو أن مصطلح "الإحاطة بالأضرار" هو ترجمة غير حرفية لـ Startegy of Damage Limitation. وهذا المصطلح أخذه المؤلف من جيرالد جيمس (Gerald James) وهو رئيس مجلس إدارة شركة آسترا (Astra) وكانت إحدى الشركات الرئيسية في توريد السلاح إلى العراق قبل حرب الخليج الثانية (١٩٩٠). وبعد هذه الحرب قامت الحكومة الإنجليزية بمحاولة التخفيف

من حدة الفضائح المتعلقة بقيام إنجلترا بتزويد العراق بالسلاح. وكانت النتيجة لهذه الاستراتيجية هو إفلاس بنك الاعتماد والتجارة وانهيار شركة آسترا. وكان غضب جيرالد شديدا وقام بتأليف كتاب (In the Public Interest) يشرح فيه التكتيكات والاستراتيجيات التي مكنت حكومة المحافظين من الإطاحة بشركته.

❖ الحكم غير المباشر

هذه الفلسفة تعلمتها إنجلترا بعد استخلاص العبر من الثورة الأمريكية في ١٧٧٥م. وهذه الفلسفة تضع الآليات والاستراتيجيات التي يمكن فيها لدولة تابعة للإمبراطورية الإنجليزية من الاستقلال ولكن مع بقاء النفوذ الإنجليزي فيها.

والنقطة التي كانت واضحة في ذهن الإنجليز أن تزايد الشعور الوطني في العالم نتيجة للثورة الفرنسية والأمريكية سيؤدي إلى قيام الناس في المستعمرات بالعمل على استقلال بلادهم من الإنجليز. ولهذا السبب وعملا بفلسفة استباق العاصفة فإن الإنجليز وجدوا أنه من الأكثر حكمة أن يكون استقلال المستعمرات تحت رعايتهم. ولكنهم كانوا بحاجة إلى آليات واستراتيجيات واضحة كي تبقى هذه المستعمرات بعد استقلالها تحت نفوذهم، وهذا أدى إلى ظهور فلسفة الحكم غير المباشر.

❖ توجيه الموجة

توجيه الموجة هو مصطلح ميكانيكي. وعندما تكون قوة الموج أقوى من السد فإن الخيارات هى عمل ثغرات في السد تقوم بتوجيه الموج نحو أخاديد آمنة تقوم باستنزاف طاقة الموج والتخفيف من حدته. وهذا بالضبط إحدى الفلسفات الإنجليزية في إدارة الدولة والمستعمرات.

دعونا نضع بعض الأمثلة:

أ. في موضوع التقرير الإخباري لديفيد كيلي فقد كانت هناك تقارير صحفية أخرى أشد إحراجا للحكومة من تقرير ديفيد. فلماذا كان التركيز على تقرير ديفيد ؟؟

ب. في ٢٤-١١-٢٠٠٩ قامت صحيفة الإندبندنت (The Independent) بعرض صورة عن عدم إنسانية الجيش الإنجليزي في العراق. وكانت الصورة عبارة عن جندي إنجليزي واقف ويوجد أربعة رجال مقيدين ومستلقين على الأرض. وهذه الصورة غير مشرفة. ولكن هناك صورًا أشد إحراجا فلماذا اختيار هذه الصورة؟؟

ج. هناك الكثير من اتهامات التعذيب ضد العراقيين في البصرة وهناك الكثير من الاتهامات بتواطؤ الإنجليز في عمليات التعذيب في غوانتانامو بما فيهم سجناء من حاملي الجنسية البريطانية تم القبض عليهم في أفغانستان وباكستان. ومع هذا فإن التركيز الحكومي والإعلامي هو عن تواطؤ الإنجليز في تعذيب محمد بنيام وهو مسلم من أثيوبيا، وهو مقيم في بريطانيا ولكنه لا يحمل الجنسية البريطانية. فلماذا إهمال باقي الملفات والتركيز على بنيام؟؟

د. وهناك الكثير من الانتهاكات التي حصلت في إنجلترا بعد ضربات أبراج نيويورك ولكن التركيز الحكومي والإعلامي هو على قضية لطفي رايسي وهو طيار ذو أصول جزائرية تم احتجازه عدة أشهر دون أدلة في بريطانيا.

ما سبق هو أمثلة على فلسفة "توجيه الموجة". فعملية التركيز الشديد على جانب من الموضوع سيقوم (وبشكل غريزي) على إهمال الجوانب الأخرى. وعملية التركيز الشديد للإعلام على بنيام ولطفي معناه أن الجمهور (وبشكل غريزي) سيقوم بإهمال ملفات تعذيب العراقيين في البصرة واتهامات التواطؤ في تعذيب السجناء الآخرين في غوانتانامو. وكذلك فإن التركيز الشديد على ديفيد كيلي ونظرته إلى حرب العراق في تحقيقات هاتون معناه هو إهمال الجوانب الأخرى في غزو العراق.

❖ فن صياغة الأعذار

الشخص الذي عنده مرونة في المبدأ لا يعني أنه قد تخلى عن المبدأ. وإنما يعني أنه في كل موقف يكون فيه تعارض بين مصلحة حيوية له وبين المبدأ فإنه يقوم بتغليب المصلحة على المبدأ.

ولكن هذا الأمر ليس بالسهل؛ ولهذا السبب فإن هذا الشخص سيجتهد بالبحث (وبشكل غريزي) عن أي عذر يستطيع فيه أن يبرر لنفسه قبل الآخرين على قراره (أي تغليب المصلحة على المبدأ).

وهنا تكون مهارة النظام بخلق الأعذار الكافية لهؤلاء الأشخاص.

وأفضل الأمثلة هو ما فعله فرعون موسى:

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [غافر].

وعلى غلبة الظن فإن ما فعله فرعون من إعلانه للناس عن عزمه لبناء صرح كبير نحو السماء لينظر إلى من فيها، كان عذرا كافيًا للكثير من القوى السياسية في مصر أن يصمتوا وكأن حالهم يقول: دعونا ننتظر حتى يبني فرعون هذا الصرح ثم نرى ماذا نفعل.

وكذلك فإن تحقيقات هاتون كانت عذرا كافيًا للكثير من القوى السياسية في إنجلترا كي تصمت. وفي واقع الحال فإن مهارات إنجلترا في توجيه الموجة وتخفيف الأضرار تقوم وبشكل آلي بخلق الكثير من الأعذار للقوى السياسية في إنجلترا كي تصمت وتمتنع عن التدخل.

❖ مهارات التعامل مع الصحافة والإعلام

مهارات إنجلترا في التعامل مع الصحافة لا يتفوق عليها حتى هذه اللحظة أي دولة أخرى. والسبب هو تاريخهم الطويل والهادئ في العمل السياسي.

وضمن هذا التاريخ من العمل السياسي فقد تحرر الإنجليز من حساسية

الأخبار. فحقيقة الأمر أن الفضائح والأخبار المحرجة لا تسبب خطرا على الدولة وإنما الخطر يكون بقيام قوى المعارضة باستخدام هذه الأخبار في حملة إعلامية ضد النظام.

وأفضل مثال هو فضيحة إريكسون (Sven-Goran Eriksson) وهو مدرب المنتخب الإنجليزي بين عام ٢٠٠١ إلى ٢٠٠٦. وقد كشفت إحدى الصحف في عام ٢٠٠٤عن علاقة غرامية بينه وبين إحدى الموظفات. وقامت الصحافة بالتركيز على هذه الفضيحة ولكن في كل لقاء مع الصحافة فإن إريكسون كان يرفض الحديث عن حياته الخاصة. واستمر إريكسون بعدم الخوض في هذا الموضوع مع الصحافة وهذا ما زاد من انتقاد الصحافة له. ولكن بعد عدة أسابيع فقد ظهرت أخبار جديدة أخرى انشغلت بها الصحافة ولم تعد قصة إريكسون تثير الانتباه.

فالفضيحة بحد ذاتها لم تؤثر على إريكسون ولكن إذا صادف وجود قوى سياسية أرادت طرد إريكسون من منصبه فإنها كانت قادرة على استغلال هذه الفضيحة. وهنا النقطة: الفضيحة لا تؤثر في المجتمع الإنجليزي إلا بالدرجة التي يتم استغلالها من قبل القوى السياسية الموجودة في الدولة.

ولهذا السبب فإن النظام الحاكم في إنجلترا ليست عنده الحساسية تجاه أخبار الفضائح ما دامت عنده القدرة على الإحاطة بقوى المعارضة في البلاد.

وهذا هو السبب فى عدم تأثر الدولة بالأخبار المتعلقة بانتحار ديفيد كيلي واحتمالية أن موته كان بسبب جريمة قتل. كما أن الدولة لم تتأثر بالأخبار التي لمحت إلى أن الشرطة هي من كان وراء الأكاذيب التي انتشرت عن عملية قتل مينيزيز. ولم تتأثر الدولة بالأخبار التي كشفت أن المخابرات الإنجليزية كانت تتصنت على المكالمات الهاتفية لأعضاء البرلمان.

وهنا النقطة... وهي أن الأخبار المحرجة لا تشكل خطرًا على الدولة وإنما الخطر هو قيام قوى سياسية أو إعلامية بالخروج عن قواعد اللعبة في إنجلترا.

وهذا الخطر قد استطاع النظام أن يحيط به ومنذ زمن طويل. فقوى المعارضة قد تمت الإحاطة بها عن طريق انتخاب قياداتها وتليين مبادئها. وأما الصحافة والإعلام والقوى الإعلامية الأخرى فهم يعلمون تماما، وبسبب الخبرة الطويلة أن النظام قادر على إيذائهم إن هم خرجوا عن قواعد اللعبة.

ونتيجة للخبرة الطويلة في العمل السياسي والإعلامي فقد ظهرت قواعد واضحة تحدد طريقة التعامل بين النظام والإعلام في إنجلترا. فالنظام لا يمانع قيام الصحافة بنشر الأخبار المحرجة للنظام. وهذا بالنسبة إلى النظام ضروري لأنه إن شعر الناس بوجود رقابة على الإعلام فإنهم سيبحثون عن قنوات أخرى بديلة لنشر الأخبار، وهذا ليس من مصلحة النظام. وفي المقابل فإن الجرائد لا تقوم بالحملات الإعلامية خارج قواعد اللعبة إلا ضمن إشارات واضحة من النظام.

وهنا نرجع إلى الخبر الذي نشرته صحيفة الجارديان في ٢٠٠٧ أن السكين المزعوم أن ديفيد كيلي قد استخدمه في الانتحار ليست فيه أي بصمات. وهذا الخبر لم يتحول إلى حملة إعلامية في الجرائد والإعلام وإنما كان خبرا قصيرا مع بعض تعليقات القراء وانتهى.

وبالطبع فإن قواعد اللعبة بين الإعلام والنظام ليست محكمة وإنما هي قواعد عرفية. ولهذا السبب فمن الممكن في ظروف خاصة أن تخرج الأمور عن عقالها. ولكن ضمن الظروف العادية فإن هذه اللعبة ظاهرة وبوضوح بين الإعلام والنظام.

وهنا نقطة أخرى جديرة بالدراسة وهو مصداقية الإعلام في إنجلترا:

ضمن الأعراف الحالية في الغرب فإن مصداقية الصحافة تظهر إذا قامت الصحيفة بذكر الرأي والرأي الآخر. وبالطبع فإن الصحافة في إنجلترا تقوم بهذا الأمر مما يجعلها - ضمن الأعراف الغربية - ذات مصداقية. ولكن حسب النظرة العقلية المجردة فإن الصحافة والإعلام في إنجلترا أبعد ما تكون عن المصداقية.

ففي هذه الأيام ١-١-٢٠١٠ قامت جريدة التايمز (The Times) وهي إحدى الصحف العريقة في إنجلترا بالتركيز على مظاهرات المعارضة ضد الحكومة الإيرانية وقامت بوصف الحكومة الإيرانية بالوحشية والإجرام بسبب مقتل ثمانية في هذه المظاهرات. والسخرية في الأمر تكمن في أن معظم الصور في الصحيفة كانت لمتظاهرين يضربون رجال الشرطة ولآليات الشرطة المحترقة في الطريق.

وهذه الجريدة لم تصف الغارات التي يقوم بها الحلفاء على المدارس والمساجد ومنازل المدنيين في أفغانستان بأنها أعمال وحشية وإجرام. وهذه الجريدة لم تصف أعمال إسرائيل في حرب غزة بأنها وحشية وإجرام. وكذلك فقد تصرفت الشرطة الإنجليزية بوحشية حقيقية مع المتظاهرين في لندن في ١- أبريل - ٢٠٠٩ في قمة الـ G20 ولكن هذه الجريدة لم تتهم الحكومة الإنجليزية بالوحشية والإجرام. وضمن هذه المقارنة بين موقف الجريدة من إيران ومواقفها الأخرى فهل هذه الجريدة ذات مصداقية؟

وبالطبع فإن المؤلف لا يقوم هنا بالدفاع عن الحكومة الإيرانية، فمقتل ثمانية أشخاص هو أمر جلل. ولكن الأمر المؤكد هو أن جريدة التايمز ليست المصدر المناسب لاستسقاء الأخبار عن إيران لوضوح العداء بين هذه الجريدة وإيران.

وهناك ملاحظة وهي أن الجرائد العربية تقوم بالتركيز على مقالات روبرت فيسك (Robert Fisk) في صحيفة الإندبندنت. ولكن فيسك هو واحد من آلاف الإعلاميين، ومقالات فيسك هي واحدة من آلاف المقالات، وجريدة الإندبندنت هي واحدة من عشرات الجرائد في إنجلترا. وكلمة حق واحدة بين آلاف الكلمات الباطلة لا تصنع المصداقية.

ولهذا السبب فإنه من المناسب عند قراءة الجرائد الانتباه إلى التالي:

* ما هي الأخبار في الصفحة الأولى وما هي الأخبار في الصفحات الخلفية؟

* ما هي الأخبار في الخط العريض وما هي الأخبار في الخط الخفيف؟

* ما هي الأخبار التي يتم شحنها بعبارات عاطفية وما هي الأخبار التي يتم عرضها بصورة مجردة؟
* ما هي القصص التي يتم تكرارها ضمن فترة طويلة من الزمن وما هي القصص التي يتم تكرارها ضمن فترة قصيرة من الزمن؟
* ما هي القصة التي يتم المبالغة فيها وما هي القصة التي يتم تسطيحها؟
* ما هي القصص التي تعتمد على شهود عيان معروفين وما هي القصص التي تعتمد على شهود عيان مجهولين؟

قوة الديناميكية

هناك تساءل: هل مشكلة ديفيد كيلي وتحقيقات هاتون هي أمر تم تخطيطه من الألف إلى الياء؟ وهل التحقيقات التى حدثت بعد مقتل مينيزيز هي أمر تم تخطيطه من الألف إلى الياء؟

ضمن وجهة نظر المؤلف فإن هذا ممكن لكنه مستبعد. وإنما جاءت هذه الأعمال نتيجة لقوة الديناميكية في إنجلترا. ورجوعا إلى موضوع عقل الديناميكية فإن قوة ديناميكية الدولة يكون بمستوى فلسفات الحكم في الدولة. وفلسفات الحكم في إنجلترا في غاية الذكاء (مقارنة بدول أخرى). ولهذا السبب فإن مشكلة ديفيد كيلي وتحقيقات هاتون ليست بالضرورة أن تكون قد جاءت نتيجة خطة وإنما هو حُسن الحظ واستغلال الفرص وقوة الديناميكية في الدولة. وهذه الديناميكية (تشابكات وتقاطعات وتجاذبات وتنافرات القوى السياسية وغير السياسية في الدولة) هي التي أدت إلى إخراج تحقيقات هاتون بهذا الشكل.

إن إدارة الدولة ليست بقدرة عقل واحد ولا بقدرة لجنة واحدة ولا بقدرة جهة واحدة وإنما إدارة الدولة تعتمد تماما على فلسفات الحكم في الدولة. وبمعنى آخر فإن إدارة الدولة ونجاحها يعتمد تماما على ديناميكية الدولة.

❖ المخابرات في إنجلترا

الاسم المعروف لجهاز المخابرات الإنجليزي في القرن التاسع عشر كان "خدمة الذكاء السرية" (Secret Intelligence Service - SIS). وهكذا كانت نظرة الإنجليز إلى عالم السياسة أنها لعبة ذكاء. وكانت أهداف هذا الجهاز تتعلق بتشتيت جهود العدو وقدراته والتأثير عليه والسيطرة على اتجاهه. وأما التجسس فكان إحدى وسائل هذا الجهاز للقيام بأهدافه. ولهذا السبب فإن المهارات الدبلوماسية هي جزء أساسي من مهارات جهاز المخابرات في إنجلترا. في حين أن الهدف الأساسي للكثير من مخابرات الدول الأخرى هو التجسس وأما التأثير فهو هدف ثانوي.

وهذا هو السبب في تفوق المخابرات الإنجليزية في الدبلوماسية عن مثيلاتها في العالم. كما أنه يفسر الارتباط الوثيق بين جهاز المخابرات ووزارة الخارجية والتشابك بين ضباط المخابرات وموظفي وزارة الخارجية في حين أن أجهزة المخابرات في باقي الدول الأخرى مرتبطة برئاسة الدولة.

وقد تم تشكيل جهازين للمخابرات الإنجليزية في أوائل القرن العشرين:

المخابرات العسكرية – الفرع السادس (Military Intelligence 6 – MI6) وهو الجهاز الذي يهتم بالأعمال الخارجية. ويبدو أن جميع نشاطات SIS قد تم إعطاؤها إلى MI6 فأصبح MI6 هو البديل الرسمي لـ SIS.

المخابرات العسكرية – الفرع الخامس (Military Intelligence 5 – MI5) وهو الجهاز الذي يهتم بالجاسوسية المضادة والأمن الداخلي (مخابرات أمن الدولة).

وفي أوائل العشرينيات ومع انتشار التليفونات والراديو فقد تم إنشاء "المكتب الرئيسي للاتصالات الحكومية" (Government Communication Head Quarters – GCHQ) وهو جهاز التجسس الإلكتروني. وعلى غلبة تخمين المؤلف فإن كلمة مخابرات قد جاءت إلى اللغة العربية من كلمة Communication .

❖ المهارة في خلق الأحلاف والمهارة في التملص منها

لقد اشتهر قول لونستون تشرتشل في الحرب العالمية الثانية: سنقاتل ونقاتل حتى آخر جندي فرنسي. وهذا القول هو بحق شعار إنجلترا فقد تعلمت وبمهارة كيف تجعل الآخرين يقاتلون معها في معاركها. فقد استطاعت إنجلترا خلق حلف (فرنسا وأمريكا) لقتال ألمانيا معها في الحرب العالمية الأولى والثانية. وتقاتل إنجلترا الآن في العراق وأفغانستان بجنود أمريكا.

وعلى غلبة الظن فإن حرب أفغانستان قد خططها الإنجليز وبسند من البنتاجون وعلى مضض من وزارة الخارجية الأمريكية. كما أن طبول الحرب لغزو العراق كانت تدق في لندن قبل أن يستلم جورج بوش مقاليد الحكم. والدليل (كما تم تبيانه سابقا) هو قيام بعض أعضاء البرلمان الإنجليزي عام ١٩٩٩ باقتراح مشروع قانون يمنع إعلان الحرب على العراق قبل الحصول على تفويض من البرلمان وهو القانون الذي تم سحبه من الجدول لعدم حصوله على الموافقة الملكية.

وفي المقابل فإن لإنجلترا المهارة الحقيقية للتملص من الأحلاف عندما تريد ذلك، فقد استطاعت إنجلترا تخفيض التزاماتها العسكرية في العراق من ٤٥ ألف جندي وقت الغزو إلى ستة آلاف، في حين اضطرت أمريكا لزيادة التزاماتها العسكرية هناك. وكذلك فقد استطاعت إنجلترا عقد صفقة سرية مع المقاومة في البصرة سهلت عليها الخروج من المدينة، وتحاول الآن جاهدة لعمل صفقة مماثلة مع طالبان.

بالطبع فإن مهارة إنجلترا في خلق الأحلاف هى الآن مشكلة أمريكية صرفة. فبالنسبة إلى أوروبا فهم على غير استعداد لخوض حرب حقيقية من أجل إنجلترا. وأما أمريكا فالأمر مختلف، فإنجلترا تعرف تماما مواقع الأوتار في أمريكا وتعرف كيف تعزف عليها. وقد حاولت أمريكا في الماضي أن تقوم بقصقصة أجنحة إنجلترا ولكن يبدو أنها لم تكن محاولة جادة وإنما مكيدة لإشغال المخابرات الروسية. وعلى أغلب الظن فإن روسيا لن تنخدع بهذا الأمر مرة أخرى. ولهذا السبب فإن غلبة الظن أن تستمر مقولة تشرتشل ولكن بتعديل بسيط: سنقاتل ونقاتل حتى آخر جندي أمريكي.

❖ أخطاء إنجلترا في المكائد السياسية

توجد هناك أربعة أخطاء قاصمة لإنجلترا وكان سببها هو عدم الإدراك الكافي لديناميكية الإسلام وديناميكية المجتمعات وكانت نتيجة هذه الأخطاء أن نزلت إنجلترا من قمة العالم وما زالت مستمرة في نزولها.

وأول الأخطاء هو العمل على إنهاء دولة الخلافة العثمانية. ولو كان للإنجليز الإدراك لديناميكية الإسلام لوجدوا أن الأفضل لهم هو الإبقاء على الخلافة العثمانية وبشكل صوري كما فعل المماليك في مصر. والسبب أن دولة الخلافة الثانية ما كان لها أن تقوم إلا بعد إنهاء الدعائم للملك العاض.

والخطأ الثاني هو التساهل مع النازية. فقد أرادت إنجلترا قوة في أوروبا تواجه بها روسيا الشيوعية. ووجدت ضالتها في الحزب النازي فقامت بالضغط على فرنسا كي لا تتدخل وقامت كذلك بمحاولة إشباع رغبات هتلر في التوسع. وكان الأمر في ذهن إنجلترا هو أن تقوم باستخدام الشيطان (النازية) لمواجهة إبليس (الشيوعية). ولكن إنجلترا لم تفهم وقتها الخطورة الحقيقية من وجود قوة ساحقة بيد نظام ديكتاتورى شرس وذكي. وكان الذي حدث أن الشيطان قد بدأ بهم قبل أن يتجه نحو إبليس. وقد دفعت إنجلترا ثمن هذا الخطأ غاليا. وكانت النتيجة من هذه المخططات الإنجليزية هو الملايين والملايين من الموتى في أوروبا.

والخطأ الثالث هو تجميع اليهود في فلسطين. فقد كان هدف إنجلترا هو فصل العالم الإسلامي بين آسيا وأفريقيا كما كان هدفها كذلك هو خلق قوة تدخل سريع في المنطقة إذا احتاج الأمر إلى ذلك. ولكن لم تفهم إنجلترا طبيعة اليهود تماما ولم يكن عندها التصور أن تكون القيادات الإسرائيلية الحالية بهذه الحماقة. وإذا نظر القارئ إلى التاريخ فإن العالم الإسلامي قد عادت له الحياة واستيقظ من سبات طويل بعد قيام إسرائيل باحتلال القدس. وإذا انتبه القارئ فإن حماقات إسرائيل المتكررة هي أحد الأسباب الرئيسية لتزايد الصحوة الإسلامية وتزايد الرغبة في الوحدة.

وأما الخطأ الرابع فقد مكرت إنجلترا بإيران وحشدت الجيوش نحو العراق كمحاولة للضغط على النظام الإيراني لإسقاطه. ولكن الظاهر أن إيران استطاعت أن تخدع إنجلترا وأدى هذا إلى سقوط الإنجليز والأمريكان في المستنقع العراقي وليدخل الغرب الآن في دوامة من المشاكل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية.

وبسبب الأخطاء السابقة فإن الحجم الحقيقي لإنجلترا هو أصغر بكثير من حجمها الظاهري. فالإمكانيات الإنجليزية من موارد بشرية وصناعية ومواد خام هي أقل بكثير من روسيا وألمانيا وفرنسا ولكن قوة إنجلترا الحالية هي في مهاراتها الدبلوماسية والسياسية والاستخباراتية وقدرتها على الوجود في مركز العالم. وإذا حدثت خضة في العالم وخرجت إنجلترا من مركز العالم فإن موقفها الاقتصادي سيكون صعبا.

❖ إنجلترا ودولة الخلافة

إن العداء بين الإنجليز والعالم الإسلامي بدأ منذ الحروب الصليبية وبالأخص عندما قام ريتشارد قلب الأسد بقتل ثلاثة آلاف من المسلمين في عكا في ٢٠-٨-١١٩١.

واستطاعت إنجلترا في عام ١٦١٥ القيام بإقناع إمبراطور الدولة الإسلامية في الهند بإعطائها موقع قدم في القارة الهندية. ثم قامت إنجلترا باستغلال التسامح والكرم عند المسلمين والتغلغل إلى قلب العائلات والقبائل الهندية وشق صفوفهم. واستطاعت إنجلترا السيطرة على الهند تماما عام ١٧٥٧م بعد معركة بلاسي (Battle of Plassey). وفي عام ١٧٧٠ حدثت المجاعة الأولى تحت الحكم الإنجليزي في بنجلادش. وكان السبب الأساسي لهذه المجاعة هو سياسات إنجلترا الاحتكارية. وقد راح ضحية هذه المجاعة ١٥ مليون شخص. وفي عام ١٨٥٧ اشتعلت الثورة الهندية ولكن إنجلترا استطاعت القضاء عليها في ١٨٥٨ وعلى إثرها قامت بإنهاء الوجود الرسمي للإمبراطورية الإسلامية المغولية في الهند. وكان انتقامها من الهنود (مسلمين وهندوس) في غاية البشاعة وتم إبادة الكثير من القرى بدعوى مساندتها

للثورة. وهناك استنتاجات تؤكد أن حجم الإعدامات قد وصل إلى ١٠ ملايين شخص معظمهم من المسلمين (وإن كانت المصادر الإنجليزية ترى أن في هذا مبالغة وأن الإعدامات كانت بحدود المئات من الآلاف). وقامت القوات الإنجليزية باستخدام المدافع في حفلات الإعدام حيث كان يتم ربط المحكوم على فوهة المدفع ويتم إطلاق المدفع عليه ليتمزق إربا.

ثم قامت إنجلترا بالعمل على إنهاء وجود دولة الخلافة العثمانية ومحاولة إنهاء وجود الإسلام نفسه. وهناك عبارة منسوبة لجلاستون (William Gladstone, 1809-1898) رئيس الوزراء البريطاني: "ما دام هذا القرآن موجودا في أيدي المسلمين فلن تستطيع أوروبا السيطرة على الشرق". وهناك كلمة أخرى منسوبة لكرومر (Lord Cromer, 1841-1917) المندوب الإنجليزي في مصر: "إن المصريين لن يفلحوا أبدا طالما ظل هذا الكتاب (القرآن) بأيديهم". فالعلاقة بين إنجلترا ودولة الخلافة العثمانية كانت علاقة إنهاء وجود والعلاقة بين إنجلترا والإسلام كانت محاولة إنهاء وجود.

ثم قامت إنجلترا بجمع اليهود في فلسطين وحمايتهم وتسليحهم وغض الطرف عن جرائمهم في حين كان الإنجليز يقومون بإعدام كل فلسطيني يجدون في بيته فشكة (وهي بيت الرصاصة الفارغ). وينتهي مكرهم بقيام اليهود بإعلان الاستقلال وتشريد الآلاف والآلاف من الفلسطينيين ولتبدأ المعاناة الفلسطينية هناك. فالجرائم الإسرائيلية هي في واقعها مسئولية إنجليزية.

وقامت إنجلترا بدعم الكثير من الحكومات الديكتاتورية الشرسة في العالم الإسلامي والذي كان ضحيته الآلاف والآلاف من المسلمين. وقامت إنجلترا بحشد الجيوش والمشاركة في حرب العراق ١٩٩٠ وحرب العراق ٢٠٠٣ وحرب أفغانستان والتى راح ضحيتها الملايين من المسلمين بين قتيل وجريح ومشوه. وكذلك فقد ذكرت قناة الجزيرة في صفحاتها (٢٣-١-٢٠١٠) "أن العراق واقع تحت تأثير مستويات عالية من التلوث الكيماوي والنووي والمواد السمية الكارثية، وخاصة تلك المناطق في بلاد الرافدين التي تعرضت لقذائف اليورانيوم المنضب، في الحروب التي

شهدتها البلاد". وكذلك هناك اتهامات واضحة تجاه القوات الإنجليزية باستخدام التعذيب في البصرة. وكان أحد أسوأ الحوادث هي التي ذكرتها صحيفة الإندبندنت في ١١-١-٢٠١٠ عن تعذيب وإعدام جدة عراقية عمرها ٦٢ سنة (صبيحة خضر طالب) والتي ألقيت جثتها بعد ذلك إلى جانب الطريق.

ولهذا السبب فإن غلبة تخمين المؤلف أنه إذا قامت دولة الخلافة فإن علاقتها مع إنجلترا ستكون علاقة عدائية وذلك لحاجة دولة الخلافة لنشر الرسالة إلى العالم والمستقبل.

الفصل السابع والعشرون

أمريكا... تحليل صفات

كما تم ذكره في مقالة سابقة فإن تشكيلة نظام الحكم في أمريكا وعدم وجود طبقة النبلاء قد ساعد على سرعة تعلم هائلة في المجتمع الأمريكي. ولكن النمو في أمريكا من الاستقلال وحتى ١٩٤٥ كان طبيعيا. وقد حدث منعطف حاد في التاريخ الأمريكي عام ١٩٤٥ وهو المنعطف الذي سيذكره التاريخ كبداية النهاية للمارد الأمريكي. وفي هذا العام ظهرت أمريكا كقوة أحادية ليس لها مكافئ. فالعالم القديم قد تحطم بسبب الحرب العالمية الثانية والخسائر كانت ضخمة والاقتصاد كان منهارا في معظم أنحاء الأرض إلا في أمريكا. فالثروة والقوة والمهارة والصناعة والتقدم كان في أمريكا.

انتبه الآن ... ما زالت أمريكا القوة الأولى وما زالت أغنى دولة ولكن الفجوة في القوة والغنى بينها وبين الآخرين قد ضاقت. وإذا نظرنا بواقعية فإن أمريكا أغنى من ألمانيا ولكن الاتحاد الأوروبي أغنى من أمريكا كما أنه إذا حدث اتحاد استراتيجي بين روسيا والصين فإن هذا الاتحاد يكاد يتفوق على أمريكا. وللمقارنة فإن إحدى المشكلات التي كانت تواجه أجهزة الاستخبارات الأمريكية في ١٩٥٠ هي كيفية صرف الأموال المخصصة لها في حين أن الأجهزة الإدارية الأمريكية الآن تشتكي من عدم وجود مخصصات كافية لمشاريعها. فالفجوة في القوة والثروة كانت ضخمة تلك الأيام بين أمريكا والآخرين، ولكن تلك الأيام قد ذهبت أدراج الرياح.

وهذا المنعطف في أمريكا عام ١٩٤٥ قد أدى إلى اتساع في النفوذ واتساع في التوجه الرأسمالي من أمريكا تجاه العالم. وهذا أدى إلى صفة لم تكن موجودة سابقا ولكنها واضحة الآن ومن الصعب محوها وهي الغطرسة والغرور.

وهناك أمر عجيب في أمريكا. فالمؤلف لم يقم بزيارة أمريكا وكل ما يعرفه عن أمريكا هو من برامج الأخبار ومشاهدة المقابلات التليفزيونية مع المسئولين

الأمريكان. وقد لاحظ المؤلف نظرة الغطرسة والغرور عند هؤلاء المسئولين. ولكن هناك أصدقاء للمؤلف قد عاشوا في أمريكا ويمدحونهم، بل إن كثيراً من هؤلاء الأصدقاء من يرى أن أخلاق الأمريكيين أعلى بكثير من أخلاق الأوروبيين.

وهذا التعارض بين نظرة المؤلف ونظرة أصدقائه له تفسير واحد وهو وجود فجوة أخلاقية بين المجتمع وبين الرأسماليين وكذلك بين المجتمع وبين الأجهزة الإدارية الخارجية (كوزارة الخارجية والاستخبارات والجيش).

وهذه نتيجة منطقية. فالتوسع الشديد في أمريكا تجاه العالم قد كان تحت قيادة الجيش والاستخبارات والخارجية والرأسمالية. وقد ظهر لهؤلاء أن العالم كله بين أيديهم وأنهم سادة الأرض ومن عليها وأنهم وأنهم. فكان من الطبيعي لهذه الأجهزة والمؤسسات أن تتصف بالغطرسة والغرور.

ولكن التوسع الشديد دون استراتيجية واضحة قد أدى إلى عواقب وخيمة ويمكن تلخيصها كما يلي:

• ثقافة النجاح بأسرع طريقة وبأي وسيلة

فقد كانت الأجهزة الخارجية والمؤسسة الرأسمالية في أمريكا تبحث عن الانتصار السريع والسهل وبأي وسيلة. وهذا معناه أن هذه الأجهزة لم تعد تعبأ بالمصداقية وإنما استخدمت الكذب والخيانة والوعود الزائفة للوصول إلى أهدافها.

وهذه الثقافة قد تسربت ودون انتباه إلى الأجهزة الإدارية في أمريكا (الغطرسة والغرور وعدم الاهتمام بالمصداقية). وهذه هي في الحقيقة أشواك قد زرعتها أمريكا وتحاول الآن خلعها ولكن خلع الأشواك أصعب بكثير من زراعتها.

• ثقافة الاستمتاع الرخيص ورفاهية الإسراف

بسبب التوسع الرأسمالي الشديد وبسبب الصراع الرأسمالي ضد أفكار الشيوعية فقد تم إشغال الناس بثقافة الاستمتاع الرخيص ورفاهية الإسراف. وقد تمددت هذه

الثقافة إلى مستويات لم تكن مسبوقة أبدا. فالمؤلف لا يستطيع أن يستوعب كيف يسمح المجتمع الأمريكي لأفلام وألعاب العنف. والذي يحدث الآن في أمريكا هو تضخم ثقافة العنف في البلاد. ولكن هذه الثقافة هي ثقافة تضاعفية، بمعنى أن شدة العنف من جهة (كالمجتمع) ستؤدي إلى عنف الجهة المقابلة (كالشرطة) والذي سيزيد من عنف الجهة الأولى وهكذا. وهذا سيؤدي إلى استنزاف حقيقي في الدولة وشعور عالٍ بفقدان الثقة بالنظام الحاكم.

والإسراف كذلك قد وصل إلى مراحل غير مسبوقة. فبعد أن كانت أمريكا هي مصنع العالم فإن واردات أمريكا الآن هي أكبر بكثير من صادراتها. والطريقة التي استطاعت بها أمريكا تمويل هذا العجز التجاري كانت بسبب عالمية الدولار. وإذا نظرنا نظرة شاملة فإن أمريكا في الحقيقة تقوم باستيراد البضائع وتصدير الدولارات.

ولكن الوضع الآن قد اختلف عما كان عليه عام ١٩٤٥. فاليورو أصبح الآن في وضع يستطيع أن ينافس الدولار كما أن معظم اقتصاديات الدول أصبحت ضمن اكتفاء ذاتي. وهذا معناه أنه سيأتي اليوم الذي تجد فيه أمريكا أنها لا تستطيع استيراد البضائع بالدولار. وهنا ستكون مشكلة حقيقية في المجتمع الأمريكي. فمن السهل جدا خلق ثقافة الإسراف في المجتمع ولكنه من الصعب جدا تخليص المجتمع منها.

وأحد القطاعات الرأسمالية الأساسية في أمريكا الآن هو قطاع الترفيه (أفلام وألعاب ومسرحيات..إلخ). ولكن إذا لاحظ القارئ فإن ثقافة الترفيه قد تسربت إلى المؤسسة السياسية في البلاد (مجلس الشيوخ ومجلس الشعب ومجالس الولايات وحكامها..إلخ). فالمهارات الأساسية التي يحتاجها السياسي للنجاح الآن في الانتخابات ليست المهارات الإدارية وإنما مهارات الترفيه. وهذا قد خفض وبشكل كبير من مستوى الإدراك والمهارات الإدارية للمؤسسة السياسية. وأفضل طريقة للقارئ كي يتحقق (أو ينفي) هذا الادعاء هو بالانتباه إلى لقاءات ومقابلات السياسيين في أمريكا.

ويجب هنا الانتباه إلى نوعين من القيادات في أمريكا: الأول وهم القيادات الإدارية وهؤلاء يتم اختيارهم من الأجهزة الإدارية نفسها ويتم ترفيعهم بناءً على مهاراتهم، وهؤلاء ما زالوا على درجة عالية من ذكاء التخطيط وسعة الاطلاع. وأما النوع الثاني فهم القيادات السياسية وهؤلاء يتم انتخابهم من الشعب. ولكن إذا أصبحت ثقافة الشعب تتمحور حول الترفيه فإن النتيجة هى سيطرة سياسيين مهاراتهم الأساسية هي مهارات الترفيه. وهذا معناه أن الأجهزة الإدارية يقودها سياسيون حمقى (بالضبط كما حصل في حالة جورج بوش الابن). وهناك مقولة لنابليون وهي أن الأسود الذين يقودهم غزال ليس جيشا من أسود. وكذلك فإن العباقرة الذين يقودهم سعدان ليسوا مؤسسة عبقرية.

❖ أحادية الخطاب السياسي

إن سرعة التوسع أدت إلى الأحادية في الخطاب السياسي. والأحادية معناها هو إما أن يكون الشيء حقاً أو باطلاً، صديقاً أو عدواً، خيراً أو شراً. والأحادية هي مسك العصا من الطرف. والحكمة هي في مسك العصا من الوسط ولكن هذا يحتاج إلى صبر ووقت وترويض. ولكن كثرة الغنائم والتي كانت متاحة للأجهزة الإدارية والمؤسسات الرأسمالية بعد عام ١٩٤٥ جعلتهم في عجلة وتسرع وسرعة انجراف. وهذا ما جعل خطاب الدولة للأمة هو خطاب أحادي.

الآن... عندما تقوم القيادة بالخديعة والكذب والمبالغة في خطابها السياسي للأمة فإن هذه القيادة على الأقل تعلم حدود الكذب والصدق والمبالغة في هذا الخطاب.

ولكن الجيل التالي من القيادة سيكون مرتبكا ولا يعلم بالضبط أين الكذب وأين الصدق في الخطاب السياسي للقيادة السابقة.

وأما الجيل الثالث في القيادة فإن الوهم والأكاذيب التي سمعوها وحفظوها منذ أكثر من ثلاثين سنة سيكون هو الغالب على عقولهم.

وهذه نقطة جوهرية. فالموظفون في الأجهزة الإدارية هم من الشعب. وإذا كان الخطاب السياسي الموجه للشعب يرتكز وبشكل كبير ومتكرر ومستمر على المبالغة الشديدة والأكاذيب فإن الذي يحدث هو أن الجيل الثالث والرابع والذي سيترفع إلى المناصب الإدارية سيكون ذا نظرات سياسية واستراتيجية مشوهة. وهذا في نظر المؤلف هو أحد أسباب الانهيار في أي دولة.

وأحادية الخطاب السياسي هي أحد أهم الأسباب التي تقوم بتقييد الإدارة الأمريكية في مهارات الكر والفر والإقدام والانسحاب. وعندما استسلم النظام الليبي للمطالب الغربية فإن توني بلير وعلى الفور قام بزيارة ليبيا وعقد الصفقات معها ولكن هذا الأمر لم يكن سهلا لأمريكا. فأمريكا قد وصفت القذافي والنظام الليبي وعلى مدى عشرات السنوات السابقة بأنه نظام الشر وبسبب ترسخ ثقافة الأحادية في المجتمع الأمريكي فإن الإدارة الأمريكية بحاجة إلى الوقت كي تستطيع تعديل النظرة نحو القذافي.

وكذلك فإن أحادية الخطاب السياسي في أمريكا هي أحد الأسباب التي تمنع أمريكا من الحزم مع إسرائيل. فقد قام الأمريكان بوصف إسرائيل وعلى مدى عشرات السنوات السابقة بأنها الحمل الوديع في غابة الذئاب. ولا تستطيع الإدارة الأمريكية الآن أن تقوم فجأة بتغيير هذه النظرة وإنما هي كذلك بحاجة إلى الوقت.

وهذا التوسع الشديد في العالم قد أدى إلى ظهور الفجوات بين المؤسسة الرأسمالية والأجهزة الإدارية العليا من جهة والمجتمع الأمريكي من جهة أخرى. وهذه الفجوات تتسع باطراد. ولكن إذا قام القارئ بالنظر بعمق فإن الفجوات ليست فقط موجودة بين المؤسسة الرأسمالية والأجهزة الإدارية والمجتمع وإنما توجد الفجوات كذلك في داخل هؤلاء الثلاث :

❖ الصراع في المؤسسات الرأسمالية:

توجد هناك نظرة أن الرأسمالية هي التي تحكم أمريكا. وهذا صحيح لو أنهم اتحدوا. ولكن الواقع أن المؤسسات الرأسمالية ليست متحدة وإنما هي متصارعة.

فهناك انشقاق واضح بين رأسمالية الشرق الأمريكي (الصناعات التقليدية الثقيلة) ورأسمالية الغرب الأمريكي (صناعات النفط والسلاح).

وإذا انتبه القارئ فقد وصلت الأزمة المالية إلى جنرال موتورز (إحدى المؤسسات العملاقة في الشرق الأمريكي) وقد طالبت هذه المؤسسة بمعونة حكومية عاجلة ولكن جورج بوش لم يُبدِ أي اهتمام بعكس أوباما الذي كان يطالب (وقبل استلامه لمنصب الرئاسة) بسرعة إنقاذ هذه المؤسسة.

❖ الصراع في المجتمع:

وكذلك هناك انشقاق واضح في صفوف المجتمع الأمريكي وعلى الأخص بين الليبراليين (ذوي النظرة التحررية) والمحافظين. ويتزعم الليبراليون الحزب الديموقراطي في حين يتزعم المحافظون الحزب الجمهوري. وإذا انتبه القارئ فإن موضوع الدين والإجهاض يكاد يشق المجتمع الأمريكي نصفين.

❖ الصراع في الأجهزة الإدارية:

وبالنسبة للأجهزة الإدارية فإنه يوجد خلاف جوهري وحقيقي بين الجيش من جهة وبين وزارة الخارجية والمخابرات من جهة أخرى. وقد كان هذا الخلاف واضحا بينهم في حرب أفغانستان والعراق. وقد وصلت الأمور إلى أن يقوم البنتاجون بخلق جهاز مخابرات خاص به كي يستغني عن خدمات الـ CIA.

وعلى غلبة الظن فإن هذه الفجوات في أمريكا هي نتيجة للتوسع السريع دون استراتيجية حكيمة ودون اهتمام بالمصداقية. والذي يمنع انهيار الدولة الآن هو قوة القانون وقوة مؤسسة الرئاسة وقوة الانضباط في الأجهزة الإدارية. ولكن إذا استمر هذا الاتساع في الفجوات فإن قوى الإحاطة لن تكون كافية لربط الدولة وعندها يكون الانهيار محققا وسريعا.

وهناك نقطة أخرى جديرة بالانتباه:

إحدى النظريات التي قامت بتفسير أسباب انهيار الإمبراطورية الرومانية كانت نظرية تسارع التكنولوجيا بدرجة أكبر من سرعة تأقلم النظام الحاكم:

فقد كان أحد الاهتمامات الرئيسية عند الرومان هو بناء شبكة الطرق بين الولايات وبناء مراكز الاستراحة فيها. وقامت هذه الطرق بتسهيل انتقال وتجوال الناس عبر الولايات الرومانية، وهذا أدى إلى سرعة انتشار الأفكار من ولاية إلى أخرى. وهناك نظرية تقول إن سرعة انتشار الأفكار وتطور التفكير عند الناس كان أسرع بكثير من سرعة تأقلم الدولة مع هذه الأفكار فكان الانهيار.

بالطبع فإن هذه النظرية ليست دقيقة (ضمن وجهة نظر المؤلف) في تحليل انهيار الإمبراطورية الرومانية ولكن هذه النظرية لها مصداقية كبيرة في تفسير ما يحدث الآن في أمريكا:

إن التقدم الكبير في تكنولوجيا المعلومات أدى إلى سرعة انتشار الأخبار وسرعة تبادل التعليقات والآراء. ولكن وحتى هذه اللحظة فإن الإدارة الأمريكية والأجهزة الإدارية تستخدم الكذب والمبالغة والتأويل الأحمق وتقوم بثني الحقائق والمبادئ الأخلاقية كي تتفق مع مصالحها. وهذا هو السبب في شدة سوء الظن عند الشعب الأمريكي والعالم بمواقف الإدارة الأمريكية والمؤسسات الرأسمالية فيها.

وكذلك فإن الساسة الأمريكيين في القرون الماضية كانت ألسنتهم تتحدث كالقديسين عن المحبة والوئام وحقوق الإنسان والسلام ولكن كانت أيديهم ملطخة بدماء الأطفال والنساء والرجال من الهنود الحمر. ولكن الأخبار تلك الأيام كانت تنتشر ببطء ولم يكن من السهولة توثيق الأحداث.

ولكن الوضع اختلف الآن، فإن أفلام القتل والتشريد وصور التعذيب في العراق وأفغانستان وفلسطين ستبقى منقوشة أبد الدهر في التاريخ. وهؤلاء الضحايا في هذه الأفلام والصور لهم عائلات يعرفونهم بأسمائهم. وسوف يبقى الأخ بعد

أربعين سنة يُشير إلى الصورة ويقول عن الطفل القتيل "هذا أخي" وسوف تبقى الابنة تقول: هذه التي في الصورة أمي.

وقد قام الصليبيون بقتل الرجال والنساء والأطفال في القدس وغيرها من المدن. ولكن هذه الأحداث غير مسجلة بتفاصيلها وإنما هي بضع كلمات. وهذه الكلمات القليلة قد لا تثير الغضب عند قراءتها. ولكن حرب العراق وأفغانستان وفلسطين قد تم تسجيلها بالأفلام والصور وبالوقت والتاريخ وبالأمكنة والأسماء.

وهذه هي النقطة هنا... فإن أمريكا في عصر المعلومات والإنترنت والأخبار ما زالت تتصرف بعنجهية القرن التاسع عشر.

وضمن وجهة نظر المؤلف فإن المشكلة في أمريكا ليست مشكلة سياسية أو اقتصادية أو إدارية وإنما هو تشوه فكري وفلسفي وثقافي قد نخر إلى أعماق الأجهزة الإدارية. وهذا هو السبب في اقتناع المؤلف بأن أمريكا الآن هي الرجل المريض في هذا العالم.

❖ نظرية المؤامرة

انتشر في الآونة الأخيرة مصطلح "نظرية المؤامرة". وفي هذا المصطلح فإن بعض الناس متهمون بإعطاء الأخبار حجما أكبر من حجمها الطبيعي وأن هذه العادة أصبحت داءً في المجتمع.

وضمن وجهة نظر المؤلف فإنه لا يوجد شيء اسمه "نظرية المؤامرة" وإنما ما تم تسميته بنظرية المؤامرة إنما هو أحد العوارض المتوقعة لحالة عدم الثقة بين الشعب والنظام. وبالتالي فإن الاسم الحقيقي لنظرية المؤامرة هو "الريبة".

والذي يحدث الآن أن هناك كثيراً من الناس من لم يعد يثق بالنظام الحاكم في أمريكا. ولهذا السبب فإنه من الطبيعي أن ينظر هؤلاء الناس بريبة وسوء ظن لكل تصرف يقوم به هذا النظام.

وفي المقابل فإن الثقة عالية بين النظام الحاكم والشعب في سويسرا. ولهذا السبب فإن نظرة الريبة غير موجودة عند السويسريين تجاه حكوماتهم.

وبالطبع فإن الثقة في العالم الإسلامي قد انتهت بينها وبين الأنظمة الحاكمة كما أن الثقة قد انتهت تماما بينها وبين الحلفاء (إنجلترا وأمريكا). وقد وصلت درجة الريبة من أمريكا إلى الدرجة التي اقتنع فيها الكثير في العالم الإسلامي بأن التسونامي الذي ضرب جنوب آسيا إنما هو انفجار نووي لغواصة أمريكية في قاع المحيط الهندي. وهذا يعطي الدلالة على مدى حماقة أمريكا في سياساتها في العالم إلى درجة أن ما من شيء تقوم به الآن إلا ويتم تفسيره بنظرات الريبة. والذي يزرع الشوك في الماضي لا يأكل العنب الآن.

❖ أمريكا ودولة الخلافة

العداوة بين أمريكا والعالم الإسلامي قريبة العهد. ومن الممكن اعتبار بداية العداوة في اليوم الذي ساندت فيه المخابرات الأمريكية نظام عبد الناصر في تعذيب وإعدام الإخوان المسلمين عام ١٩٥٤.

ولكن منذ ذلك التاريخ (١٩٥٤) وحتى الآن فإن فظائع أمريكا تجاه المسلمين كانت ضخمة وخارج دائرة المنطق. فالتواطؤ الوقح مع الجرائم الإسرائيلية في فلسطين وغزة ولبنان كان خارج نطاق الأعراف والمنطق. كما أن اعتداءات أمريكا في العراق وأفغانستان تزيد عن المليونين من القتلى والجرحى والمفقودين بينهم ما يزيد عن الألوف والألوف والألوف من أطفال العراق الذين ماتوا بسبب الحصار على العراق أو ولدوا مشوهين بسبب اليورانيوم المنضب. يضاف إلى ذلك الأطفال والنساء والمدنيون الذين ماتوا نتيجة الهجمات العشوائية للصواريخ والقنابل الجوية والتي دكت المساجد والمدارس والبيوت في أفغانستان. وكذلك يجب التنويه إلى السقوط الأخلاقي الكامل لأمريكا في أبو غريب وغوانتانامو والسجون السرية الأمريكية.

وهذه أمور جائزة وكبيرة ويستبعد المؤلف أن تقوم دولة الخلافة والمسلمون بنسيانها أو غفرانها. ولكن ما زالت لأمريكا القوة الضخمة، والعدو العملاق عندما يسقط فإنه لا يسقط فجأة وإنما يسقط في مراحل متعددة. ولهذا السبب فإن غلبة ظن المؤلف أن الصراع بين دولة الخلافة وأمريكا سيكون واضحا ولكنه هادئ ولوقت طويل، وتعتمد نتائج هذا الصراع على مهارة كل منهم في التخطيط الاستراتيجي.

الفصل الثامن والعشرون

المسلمون والمستقبل

كثير من المسلمين من ينظر بيأس للمستقبل وهذا على عكس وجهة نظر المؤلف:

إن إحدى الأدوات التي يستعملها مدراء التسويق في التنبؤ هي المقاييس الإحصائية واستقراء البيانات. ومن الممكن التنبؤ وبشكل جيد بحجم المبيعات في السنة الحالية والسنة التالية من خلال استقراء الجداول البيانية لمبيعات الشركة في السنوات السابقة. وكذلك فإن استقراء البيانات والمقاييس الإحصائية قادر على التنبؤ وبشكل مقبول بحجم العجز التجاري ومستوى البطالة وعجز الميزانية وغيره من المعلومات.

دعونا نستخدم منطق الاستقراء للنظر إلى مستقبل المسلمين وذلك بوضع إنجازات المسلمين في السنوات الماضية على خط الزمن:

❖ ١٩٦٧ – ١٩٧٧:

في ١٩٦٧ استطاعت إسرائيل أن تنتصر على ثلاث دول عربية وأن تحتل مساحة أكبر من مساحة الأرض المحتلة عام ١٩٤٨. وقد وصلت المهانة للدول العربية ذروتها بالقصة التي حدثت مع وفد وزراء الخارجية العرب مع ليندون جونسون (رئيس أمريكا) فقد كان يتناول الطعام معهم وكان كلبه معه فقال له وهو يعطيه قطعة من اللحم الموجود في صحنه: كل ما شئت يا عزيزي فأنت أفضل مدعو على هذه الطاولة.

ولكن يمكننا أن نقول بحق أن عام ١٩٦٧ كان عام الصحوة. فقد استيقظ المسلمون ذلك العام من سبات طويل جدا. ونستطيع أن نقول كذلك إن الصحوة الإسلامية في الفترة بين ١٩٦٧ إلى ١٩٧٧ كانت أكبر بأضعاف من الصحوة الإسلامية من ١٩٢٣ (عام سقوط الخلافة العثمانية) إلى ١٩٦٧.

❖ ١٩٧٧ – ١٩٨٧:

وكانت الفترة بين ١٩٧٧ إلى ١٩٨٧ حافلة بالمنجزات. فقد ظهرت الجماعات الإسلامية من المحيط إلى المحيط وسقطت في هذه الفترة جميع المبادئ غير الإسلامية كالمبدأ الشيوعي وأفكار البعث والنظرة القومية والنظرة الوطنية..إلخ. وفي هذه الفترة كذلك بدأت الانتفاضة في فلسطين وانتشرت حركة الجهاد وتأسست حركة حماس واستطاع حزب التحرير نشر فكرة الخلافة عند المسلمين. وفي هذه الفترة كذلك قامت الثورة الإسلامية في إيران عام ١٩٧٩. ومع أن مذهب الدولة في إيران هو المذهب الشيعي وهو مذهب له مخالفات مع مذهب الأكثرية من المسلمين إلا أن نجاح الثورة الإسلامية في إيران قد وضع السابقة والمثال وخلق صورة واضحة في الذهن عن المعنى لمفهوم الدولة الإسلامية. وفي هذه الفترة كذلك ظهر حزب الله في لبنان في عام ١٩٨٢.

وخلاصة الكلام أن الصحوة الإسلامية من ١٩٧٧ إلى ١٩٨٧ كانت أضعاف أضعاف الصحوة ما بين ١٩٦٧ إلى ١٩٧٧.

❖ ١٩٨٧ – ١٩٩٧:

وكانت الفترة بين ١٩٨٧ إلى ١٩٩٧ منعطفا واضحا في تاريخ المسلمين. ففي هذه الفترة انتصر المسلمون أول انتصار حقيقي لهم وهو الانتصار على روسيا الشيوعية في أفغانستان. وبالطبع فإن أول انتصار مشهور للمسلمين بعد ٦٧ كان في معركة الكرامة في الأردن عام ١٩٦٨ ولكن هذه كانت معركة واحدة وليست حرباً. وثاني انتصار مشهور للمسلمين هو حرب ١٩٧٣ ولكنه لم يكن انتصارا كاملا أو حقيقيا فقد توقف اندفاع جيش السادات في الضفة الشرقية من قناة السويس مما سمح لإسرائيل أن تتفرغ لسوريا ثم الرجوع إلى سيناء واختراق جيش السادات والالتفاف عليه من ثغرة الدفرسوار والإحاطة بالجيش الثالث. ولكن معركة الكرامة وحرب ١٩٧٣ كانت مفيدة في تحطيم أسطورة الجيش الذي لا يقهر. وأما أول انتصار حقيقي للمسلمين فقد كان في أفغانستان عام ١٩٨٨ ضد أحد الدول العظمى وهو الاتحاد

السوفييتي. وهذا ما رفع معنويات المسلمين وشحن نفوسهم، وكانت إحدى أهم المشاكل في الأنظمة العربية هي كيفية الإحاطة بالأفغان العرب وهم أولئك العرب الذين قاتلوا مع الأفغان ثم رجعوا إلى بلادهم بأحلام وعزائم. والقاعدة وطالبان اليوم هم في الواقع نتاج الانتصار الأفغاني على روسيا الشيوعية.

وفي هذه الفترة كذلك قامت أول حرب علنية بين المسلمين وأمريكا وهي حرب العراق ١٩٩٠. ومع أن الانتصار كان حاسما للحلفاء في هذه الحرب إلا أنها قد فتحت أعين المسلمين. فقد أظهرت الحرب أن قوة أمريكا ضخمة ولكنها محدودة. كما كانت هذه الحرب أول فرصة للعالم الإسلامي أن ينتبه لهويته الإسلامية وأن يشعر الناس فيه بالوحدة مع الآخرين كمسلمين. وفي هذه الحرب ظهرت الفجوة بين الأنظمة العربية وشعوبها وكانت هذه الحرب هي السبب في انشقاق الحركة السلفية الجهادية عن الحركة السلفية السعودية.

وفي ١٩٩٦ استطاع نجم الدين أربكان أن يستلم رئاسة الوزراء في تركيا ليكون أول رجل ذي توجهات إسلامية واضحة يستلم هذا المنصب.

وباختصار فقد كانت الفترة بين ١٩٨٧إلى ١٩٩٧ هي فترة وعي وإدراك وكانت النهضة فيها أضعاف أضعاف النهضة بين ١٩٧٧إلى١٩٨٧.

❖ ١٩٩٧ - ٢٠٠٧:

والفترة بين ١٩٩٧إلى٢٠٠٧ كانت حافلة بالإنجازات. فقد قامت باكستان بأول تجربة نووية عام ١٩٩٨. وقام حزب الله بإجبار الجيش الإسرائيلي على الانسحاب الأحادي من لبنان عام ٢٠٠٠. وتصدى بنجاح ومهارة للجيش الإسرائيلي عام ٢٠٠٦ وألحق في قواته خسائر واضحة مما أحرج إسرائيل وشحن في النفوس أفكار المقاومة. وفي هذه الفترة قام الحلفاء (إنجلترا وأمريكا) بغزو العراق عام ٢٠٠٣ ليكتشفوا أنهم وقعوا في مستنقع حقيقي. وقد أدت عمليات المقاومة في العراق إلى إفلاس حضاري حقيقي للحلفاء وأزمة مالية وانهيار مصداقية هذه

الدول وانهيار مصداقية التهديد (فقد قام الحلفاء وبشكل واضح بالتهديد بضرب إيران بأسلحة نووية تكتيكية وإعلان الحرب عليها ولكن إيران استخفت بهذه التهديدات ولم يقم الحلفاء بتنفيذ هذه التهديدات وهذا في الحقيقة هو ضربة لمصداقية التهديدات). وكذلك فقد فرضت إيران أجندتها ورغباتها على المجتمع الدولي فيما يتعلق ببرامجها النووية. وفي هذه الفترة قام الحلفاء بغزو أفغانستان عام ٢٠٠١ وقد اكتشف الحلفاء أن غزوهم لأفغانستان قد أدى إلى زيادة مهارة طالبان والقاعدة وأن الحرب هناك هي في الواقع حرب استنزاف وهم الآن في موقف حرج فهم لا يستطيعون الاستمرار في القتال دون التسبب بأزمة مالية كبيرة لهم ولكن في الوقت نفسه لا يستطيعون الخروج من هناك خوفا من تشجيع القاعدة لنقل الحرب إلى بلادهم. فالغرب في أفغانستان قد وقع في مستنقع الاستنزاف.

وفي هذه الفترة كذلك استطاعت حماس السيطرة على مقاليد الحكم في غزة. وفي ٢٠٠٧ فاز عبد الله جول برئاسة الجمهورية في تركيا ليكون أول رجل ذي توجهات إسلامية واضحة يقوم هو وزوجته المحجبة بالإقامة في القصر الجمهوري في تركيا.

إن ما تحقق للمسلمين في الفترة بين ١٩٩٧ إلى ٢٠٠٧ هو أضعاف أضعاف ما تحقق للمسلمين بين ١٩٨٧ إلى ١٩٩٧.

❖ ٢٠٠٧ – ٢٠١٧:

ونحن الآن في الفترة الخامسة (٢٠٠٧ إلى ٢٠١٧) وقد ظهر فيها شيء جديرٌ بالانتباه. ففي عام ١٩٦٧ استطاعت إسرائيل أن تدمر ثلاثة جيوش عربية وأن تفرض عليهم إرادتها. ولكن في عام ٢٠٠٩ لم تستطع أن تفرض إرادتها على غزة واستطاعت غزة المحاصرة الصمود وبنجاح في وجه إسرائيل.

وهنا يأتي السؤال والذي يعتمد على منطق الاستقراء: فضمن النظر إلى الإنجازات التي حققها المسلمون في الأربعين سنة الماضية (١٩٦٧ إلى ٢٠١٠) فما هو المتوقع منهم في الأربعين سنة القادمة؟؟

ولكن هذا السؤال غير دقيق وذلك لأن ما تحقق في الـ ١٠ سنوات الماضية يفوق بأضعاف ما تحقق خلال السنوات التي سبقته. فالسؤال الصحيح هو: ما هي الإنجازات المتوقع حدوثها للمسلمين خلال العشر سنوات القادمة؟

وهذا كذلك دلالة على غباء الحلفاء (إنجلترا وأمريكا). فلم يكن الحلفاء بحاجة إلى القتل العشوائي والتعذيب وانتهاك الأعراض ولكنهم فعلوا وتم تسجيل ما فعلوه في أفلام وصور وتقارير تفصيلية. وإذا استمر التضاعف في قوة المسلمين في الأربعين سنة القادمة وبنفس الوتيرة السابقة التي تتضاعف فيها خلال الأربعين سنة الماضية فإن موقف الحلفاء سيكون غير مريح.

الفصل التاسع والعشرون

إيران والمستقبل

عندما تريد أن تنظر إلى المستقبل البعيد للمجتمع والدولة فعليك أن تحاول قراءة الديناميكية في هذه الدولة. وخط المستقبل لديناميكية الدولة قد يكون مخالفا تماما لرغبة القادة اليوم وبعيدا تماما عن تصوراتهم. وأفضل مثال على ذلك هو التوسع الروماني الشديد بعد الانتصار على هانيبال. فقد قام الرومان بالتعلم من هانيبال وقاموا بتطوير استراتيجياتهم وتكتيكاتهم كي يتصدوا له. وهذا أدى إلى أن يصبحوا أمة وجيشا ذا انضباط عالٍ وانسجام وذكاء خارق. وبالتالي فإن انتشار الرومان في مشارق الأرض ومغاربها هو أمر طبيعي من إدراك الديناميكية عندهم وبغض النظر عما إذا كان القادة الرومان وقتها قد أدركوا ذلك أو لم يدركوه.

وكذلك بالنسبة للمسلمين. فقد كانوا على درجة عالية من الانضباط والانسجام وبقيادة ذات ذكاء ورغبة عالية لنشر المبدأ الذي يحملونه، فكان من الطبيعي والمنطقي قيام المسلمين بهذا الانتشار الواسع والسريع في فترة الخلافة الإسلامية الأولى.

وهنا نأتي إلى السؤال التالي: ما هو المستقبل البعيد لإيران؟

وللإجابة على هذا السؤال فيجب الانتباه إلى الصفات التالية في القيادة والناس في إيران:

* التدين حقيقي عند القيادة والناس في إيران وليس اصطناعا. فالصلاة والصوم والزكاة هي حقيقية وليست من أجل الكاميرا.

* هناك نظرة براغماتية (عملية) عالية عند القيادات الإيرانية.

* رجالات القيادة في إيران ليسوا رجالات دولة وإنما رجالات إمبراطورية. فنظرتهم لإيران ليست نظرة إقليمية وإنما هي أحلام كورش وعلى خطاه.

وبالتالي يكون السؤال هو: ما هو الامتداد الطبيعي لهذه الصفات في القيادة الإيرانية؟

ضمن وجهة نظر المؤلف فإن الديناميكية الناتجة عن الصفات السابقة ستؤدي إلى قيام إيران بمد نفوذها إلى العالم الإسلامي وبشكل غريزي وليس تخطيطا. ولكنهم سيأتون إلى مفترق طرق تجبرهم على الوقوف واتخاذ القرار في أمر مصيري إذ لا يمكن لإيران أن تقيم إمبراطورية إسلامية على أساس المذهب الجعفري. فمهما كان احترام المسلمين لإيران إلا أن هناك اجتهادات وأصوليات في المذهب الجعفري لا يمكن للأغلبية من المسلمين الموافقة عليها أو التساهل فيها. وهنا يأتي مفترق الطرق:

١- التخلي عن أحلام الإمبراطورية من أجل المذهب الجعفري.

٢- التخلي عن المذهب الجعفري من أجل الإمبراطورية.

وهنا نأتي إلى السؤال الفصل: عندما تصل إيران إلى هذا المفترق في طريقها فما هو القرار الذي ستتخذه إيران؟؟

وضمن غلبة الظن عند المؤلف فإن البراغماتية وأحلام الإمبراطورية هي أعلى بكثير عند القيادة الإيرانية من نقاط الخلاف في المذهب الجعفري. وكما (في نظرهم) قد تنازل علي بن أبي طالب عن الخلافة كي لا تتشقق صفوف المسلمين فإنهم سيصلون إلى نفس الاستنتاج وخصوصا عندما تتعطل جهودهم في خلق الإمبراطورية بسبب نقاط الخلاف في المذهب الجعفري.

وهناك دلالة على نظرة الأمل السابقة وهو الحديث التالي:

"قال ناس من أصحاب رسول الله ﷺ يا رسول الله من هؤلاء الذين ذكر الله إن تولينا استبدلوا بنا ثم لم يكونوا أمثالنا؟ قال: وكان سلمان بجنب رسول الله ﷺ قال فضرب رسول الله ﷺ فخذ سلمان وقال: هذا وأصحابه والذي نفسي بيده لو كان الإيمان منوطا بالثريا لتناوله رجال من فارس". رواه الترمذي.

ولهذا فإن نظرة المؤلف هنا أنه توجد الآن فرصة حقيقية لتحقيق أكثر من هدف بمسيرة واحدة:

وإذا انتبهت للتاريخ وتمازج الحضارات فإنه يمكن القول إنه لا يوجد أحد في إيران من ليس في عروقه دماء عربية. وخامنئي والخميني لا يستطيعون الادعاء بنسبهم لرسول الله عليه السلام من غير الاعتراف أنهم عرب. وفي الوقت نفسه فإنه لا يوجد شخص في بلاد الشام والجزيرة العربية من ليس في عروقه دماء فارسية أو تركية.

ولهذا السبب فإن إقامة دولة الخلافة في إيران سيحقق ثلاثة أحلام هي: حلم المسلمين للرجوع إلى المجد والعلا. والثاني وهو الحلم القديم لأهل فارس للرجوع إلى منصة التاريخ. والثالث وهو وجود الفرصة لردم الفجوة تماما بين السنة والشيعة.

النقطة هنا أنه لكي تنجح إيران في خلق الإمبراطورية فعليهم القيام بالتخلي عن نقاط الخلاف في المذهب الجعفري. وإذا حدث ذلك فإن الطريق ستكون مفتوحة تماما لهم لإقامة خلافة إسلامية في إيران يبايعها الجميع.

ولكن هناك خطأ في التعبير السابق، فإيران ليست بحاجة لأن تتخلى عن نقاط الخلاف في المذهب الشيعي. وإنما هي بحاجة لعمل جلسات نقاش علنية يتم بثها وبشكل حي ومباشر بين علماء جهابذة من السنة والشيعة والزيدية. ويكون الهدف من هذه الجلسات هو البحث عن الصحيح أياً كان هذا الصحيح.

انتبه هنا... فالموضوع هو جلسات وليست جلسة وذلك لأنك لا تستطيع أن تقوم بإنهاء مشكلة عمرها أكثر من ١٤٠٠ سنة بجلسة نقاش واحدة. ولهذا السبب فليس الهدف من هذه الجلسات الإفحام وإنما عرض الآراء ومن لم يستطع أن يجيب على أحد التساؤلات فإنه قادر على تأجيل الإجابة عليها إلى الجلسة التالية. فالحاجة هنا هي عمل جلسات حوار لعدة أيام ويتم بثها بشكل حي ومباشر ويتم تكرار هذه الجلسات كل عدة أشهر (ثلاث أشهر) وعلى مدى سنوات. وهذه هي النقطة هنا

وهي أن الجلسات لا تهدف لإفحام أو إحراج المشاركين وإنما تهدف إلى التوصل إلى الصحيح أياً كان هذا الصحيح.

وضمن وجهة النظر الغالبة عند المؤلف فإنه إذا كان التدين حقيقيا عند المشاركين في هذه الجلسات فإن إيمانهم مع تكرار الحوار سيؤدي بهم جميعا إلى الاتفاق على الصحيح أيا كان هذا الصحيح. وهذا هو الذي تحتاج إيران عمله وهو تبني الصحيح أيا كان هذا الصحيح.

يجب تنبيه الإخوة في إيران أن عندهم الآن فرصة حقيقية لإقامة الخلافة الإسلامية ولكنها فرصة محدودة. فإيران الآن هي أكثر الدول الإسلامية استقرارا ومهارة وذكاءً ودهاءً. ولكن العالم الإسلامي الآن قد دخل إلى مرحلة تعلم متسارعة، وإذا انتبه القارئ فإن الذكاء الجماعي والمهارات تتضاعف في تركيا وبشكل ضخم. ولهذا السبب فإن وجهة نظر المؤلف أن لإيران فرصة تمتد إلى ١٠ سنوات فقط لإقامة الخلافة ودون أي اعتراض حقيقي من الآخرين. ولكن بعد ١٠ سنوات من الآن فإن إيران ستفقد هذه الفرصة إذ سيكون هناك دول إسلامية أخرى غيرها جديرة وقادرة على إقامة الخلافة.

المقال التالي هو عرض لمجموعة من الأفكار في موضوع الخلاف بين السنة والشيعة قد تكون مفيدة كنقطة ابتداء في ردم الفجوة بينهما.

الفصل الثلاثون

الشيعة والسنة ... كفاية

كما تم تبيانه في المقالة السابقة فإنه توجد فرصة حقيقية الآن لإقامة الخلافة وردم الفجوة تماما بين الشيعة والسنة. وستكون أحد أعاجيب الأقدار أن ينشق المُسلمون مع انهيار دولة الخلافة الأولى ويجتمع شملهم مع بداية الخلافة الثانية.

وفي هذه المقالة فإن المؤلف يضع بعض الأفكار والخطوط العريضة والاقتراحات في موضوع ردم الفجوة بين السنة والشيعة. وهذه الأفكار موضوعة ضمن النقاط التالية:

* احترام الأنصار.
* الكارت الأخضر.
* تحري الصدق.
* فارس والوقت الناقص
* النظرة الشمولية وأخطاء الإدارة.
* نظرات واقعية.
* لماذا لم يقم الرسول عليه السلام بوضع نظام استخلاف؟
* أفضلية الصحابة.
* مفهوم أهل البيت.
* العمامة الزرقاء.
* تقبيل الأيادي.

* الأسماء.

* الكف عن رفع صور الزعماء.

* الناس تبع لقريش.

* جدال المشككين والمتشددين.

* نظرة إلى الاستنكارات.

احترام الأنصار

لا يوجد أحد من السنة أو الشيعة الجعفرية أو الشيعة الزيدية يتهم الأنصار أو يذكرهم بالسوء. وهنا نقطة الاتحاد التي يراها المؤلف بين جموع المسلمين. فالأنصار كانوا أعمدة دولة الرسول عندما كفرت قريش به وهم الذين قال الله عنهم: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحشر].

وفي الحديث: "قالت الأنصار يوم فتح مكة وأعطى قريشا والله إن هذا لهو العجب إن سيوفنا تقطر من قريش وغنائمنا ترد عليهم. فبلغ ذلك النبي ﷺ فدعا الأنصار فقال: ما الذي بلغني عنكم وكانوا لا يكذبون فقالوا هو الذي بلغك قال أولا ترضون أن يرجع الناس بالغنائم إلى بيوتهم وترجعون برسول الله ﷺ إلى بيوتكم. لو سلكت الأنصار واديا أو شعبا لسلكت وادي الأنصار أو شعبهم" رواه البخاري.

وبالطبع فإن للمهاجرين فضلا حقيقيا وقد قال الله عنهم: ﴿...أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾﴾ [الحشر]. ولكن هناك تبريرًا عند الإخوة الشيعة أن سيف على بن أبي طالب كان شديدا على قريش ففضل المسلمون شخصا غير على بن أبي طالب للخلافة. ولكن علاقة الأنصار بعلي بن أبي طالب كانت طيبة لا يشوبها أي ضغينة. ولكنها رضيت ببيعة أبي بكر الصديق إلا سعد بن عبادة وهو صحابي جليل وسيد

الخزرج وشهد بيعة العقبة وشهد غزوة بدر ومعظم الغزوات بعدها وعندما توفي الرسول عليه السلام وجد سعد أن الأنصار أولى من قريش وأنه هو أولى من أبي بكر في خلافة الرسول ولم يبايع أبا بكر ولا عمر حتى توفي في الشام.

فالقول إن الصحابة قد عصوا الرسول عليه السلام وأخفوا وصيته فهذه تهمة تصل إلى أعناق الصحابة كلهم بمن فيهم الأنصار. والأنصار لم تبايع أبا بكر خوفا وهلعا وإنما بايعته بالرضا وكانوا في سقيفة بني ساعدة أكثر من أربعين رجلا وكانت قريش في تلك السقيفة ثلاثة رجال: أبو بكر وعمر وأبو عبيدة. وتركت الأنصار سيدها وبايعت أبا بكر. فالنقطة هنا أن المدينة كانت مدينتهم والعدة عدتهم وكان الأمر بيدهم وبايعوا بالتراضي لا بالإكراه. وهذه هي النقطة وهي أن الأنصار بايعت أبا بكر. ولا يظن المؤلف أبدا أن تقوم الأنصار بأعمال الكفر أو الفسوق أو الفجور.

وهذه هي النقطة التي يراها المؤلف بذرة إعادة اللحمة بين المسلمين. وأمل المؤلف أنه كما كان الأنصار الدعامة لدولة الرسول عليه السلام بعد أن خذله الناس، أن يكونوا كذلك الدعامة التي تجمع هذه الأمة الآن.

دعونا نتعمق أكثر في التفاصيل:

عندما بايع الأنصار أبا بكر فإن علي بن أبي طالب كان يظن أنه أحق بالخلافة من أبي بكر. وقد قام علي بنقاش أبي بكر والأنصار في ذلك. وكان نقاشه يدور على نفس النقطة التي ناقش فيها أبو بكر الأنصار. فقد كان نقاش أبي بكر مع الأنصار أن قريشا أقرب إلى رسول الله وهم أهله، وكان رأي علي بن أبي طالب أنه أقرب إلى رسول الله وأنه أحق بهذا الأمر من أبي بكر.

على أية حال فإن موقف الأنصار يقوم بإعطاء الشرعية الاجتهادية لفكرتين:

* لقد بايعت الأنصار أبا بكر ورضيت به وهذا معناه أن بيعة أبي بكر صحيحة وأنه لا توجد وصية أو تصريح من الرسول عليه السلام لعلي بن أبي طالب. ومن

أراد أن يتهم أبا بكر الصديق بالكفر والفسوق والعصيان فعليه أن يتهم معه الأنصار. فسواعد الأنصار كانت مع أبي بكر وأياديها بايعت يده.

* والظاهر من التاريخ أن على بن أبي طالب لم يبايع أبا بكر إلا بعد ستة أشهر (بعد وفاة فاطمة الزهراء). والظاهر أن على بن أبي طالب كان على اقتناع حقيقي أنه الأولى بالخلافة ولم تقم الأنصار بالتعنيف عليه. ولهذا السبب فإن اجتهاد على بن أبي طالب هو اجتهاد جائز. ولكن هذه هي النقطة وهي أن رأي على بن أبي طالب هو اجتهاد منه وقيام الأنصار بمخالفة هذا الاجتهاد معناه أن اجتهاده لم يكن ملزما للمسلمين.

وبالتالي يوجد هناك اجتهادان شرعيان أولهما أن الخلافة للمسلمين يختارون من يشاءون لها والاجتهاد الثاني أن أهل البيت هم أولى بالخلافة من غيرهم.

وهنا صلب الموضوع وهو وجود اجتهادين شرعيين. وقيام المسلمين بمخالفة اجتهاد على بن أبي طالب ليس كفرا ولا فسقا ولا عصياناً وإلا فلنقم جميعا بشتيمة الأنصار واتهامهم.

دعونا نتعمق قليلا في الفقرة السابقة:

غلبة الظن عند المؤلف أن سيدنا على بن أبي طالب كان على اقتناع حقيقي أنه أولى بالخلافة من غيره وهناك أدلة على ذلك:

قال رسول الله عليه السلام لعلي بن أبي طالب: "أنت مني بمنزلة هارون من موسى ولكن لا نبي بعدي" رواه مسلم.

وقال زيد بن الأرقم: "قام رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما فينا خطيباً بماء يدعى خما بين مكة والمدينة فحمد الله وأثنى عليه ووعظ وذكر ثم قال أما بعد ألا أيها الناس فإنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب وأنا تارك فيكم ثقلين أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به فحث على

كتاب الله ورغب فيه ثم قال وأهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي فقال له حصين ومن أهل بيته يا زيد؟ أليس نساؤه من أهل بيته، قال نساؤه من أهل بيته؟ ولكن أهل بيته من حرم الصدقة من بعده قال ومن هم قال هم آل علي وآل عقيل وآل جعفر وآل عباس قال كل هؤلاء حرم عليهم الصدقة قال نعم" رواه مسلم.

وبالنسبة إلى حديث المنزلة (الحديث الأول) فإنه لا يوجد في النص تصريح واضح بالاستخلاف. فالنص يتحدث عن منزلة بين الرسول عليه السلام وعلي. وليس من المستبعد أبدا أن يكون سيدنا علي بن أبي طالب هو أقرب الرجال إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم كما ليس من المستبعد أن يكون هارون عليه السلام هو أقرب الرجال إلى موسى عليه السلام. كما أنه ليس مستبعدا أن يكون سيدنا علي بن أبي طالب هو أكثر الصحابة علما. ولكن إذا ترك الرسول عليه السلام الأولى في العمل فإن جبريل يأتيه وينبهه وهذه الميزة ليست موجودة عند سيدنا علي. وبالتالي فأن يكون سيدنا علي أعلم الناس بعد الرسول عليه السلام لا يعني أنه معصوم عن الخطأ.

وأفضل دليل أن اجتهاد علي بن أبي طالب غير ملزم للمسلمين هو تصرف الأنصار وقد قال الله عنهم: ﴿... فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٩﴾ [الحشر]. وقال الرسول عليه السلام لهم "لو سلكت الأنصار واديا أو شعبا لسلكت وادي الأنصار أو شعبهم" رواه البخاري.

وكذلك بالنسبة إلى الحديث الثاني فلا يوجد كذلك أي تصريح بالاستخلاف وإنما هو توصية وإرشاد. وإذا نظرنا فإن ما حدث في سقيفة بني ساعدة وما بعدها لم يكن معاداة من الصحابة لعلي بن أبي طالب وإنما اختلاف معه ولكن ما حدث بين بني أمية وأهل البيت كان معاداة وظلماً.

يجب التنويه هنا لوجود أحاديث أخرى ولكنها ضعيفة في السند: فهناك أحاديث كثيرة مروية عن عطية العوفي (عطية بن سعد بن جنادة) عن أبي سعيد

الخدري عن الرسول عليه السلام قال: "إني تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا أبدا أحدهما أكبر من الآخر كتاب الله حبل ممدود بين السماء إلى الأرض وعترتي أهل بيتي إلا إنهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض" رواه أحمد. ورتبة عطية عند ابن حجر: صدوق يخطئ كثيرا.

وهناك حديث غريب (أي ذو سلسلة واحدة من الرواة) أن الرسول عليه السلام قال: "إن عليا مني وأنا منه وهو ولي كل مؤمن بعدي" رواه الترمذي وأحمد. ولكن في سند الرواية يزيد الرشك بن أبي يزيد ورتبته عند ابن حجر: ثقة عابد وهم من لينه.

وهناك أحاديث كثيرة وبروايات عدة عن قول الرسول عليه السلام عن علي: "اللهم وال من والاه وعاد من عاداه" ولكن جميع هذه الروايات فيها ضعف في السند إلا رواية واحدة وجدها المؤلف عند أحمد وهي:

"حدثنا عبد الله حدثني أبي حدثنا حسين بن محمد وأبو نعيم المعنى قالا حدثنا فطر عن أبي الطفيل قال: جمع علي رضي الله تعالى عنه الناس في الرحبة ثم قال لهم أنشد الله كل امرئ مسلم سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يوم غدير خم ما سمع لما قام فقام ثلاثون من الناس وقال أبو نعيم فقام ناس كثير فشهدوا حين أخذ بيده فقال للناس أتعلمون أني أولى بالمؤمنين من أنفسهم قالوا نعم يا رسول الله قال من كنت مولاه فهذا مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه قال فخرجت وكأن في نفسي شيئا فلقيت زيد بن أرقم فقلت له إني سمعت عليا رضي الله تعالى عنه يقول كذا وكذا قال فما تنكر قد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ذلك له" رواه أحمد. وجميع الرواة في السند ثقة إلا فطر (بن خليفة) فرتبته عند ابن حجر: صدوق.

ولكن هذا الحديث كذلك ليس فيه أي تصريح بالاستخلاف.

وبالتأكيد هناك أحاديث أخرى لم يستطع المؤلف الإحاطة بها وهناك أحاديث عند الإخوة الشيعة قد لا نرضى بسندها. ولكن القول الفصل هنا أن ما فعله الأنصار وما اختاروه لا يمكن أن يكون كفرا أو فسوقا أو عصيانا.

ولهذا السبب فإن المؤلف لا ينكر أبدا الشرعية في نظرة الشيعة الزيدية: فهم يرون أن بيعة أبي بكر صحيحة وأنه تجوز بيعة المفضول ولكن عليا أولى بالخلافة من أبي بكر وأن بني هاشم أولى بالخلافة من غيرهم. وهذا الرأي هو اجتهاد شرعي له شبهة دليل قوية ولكن المؤلف وجد ضمن اطلاعه على التاريخ أن الحكم الوراثي آفة في نظام الحكم ولهذا فهو يخالفه وله في ذلك حجة وهو اختيار الأنصار ووجهتهم.

من المناسب هنا الانتباه إلى البعض من قصص بني إسرائيل، ومع إدراك المؤلف أن قصص بني إسرائيل ليست حجة شرعية وأن الكثير من قصصهم ليست صادقة إلا أن بعض القصص قد تساعد على الانتباه:

لم يكن خليفة موسى عليه السلام أحدًا من أبنائه ولا أحدًا من أبناء أخيه هارون وإنما رجل بعيد اسمه يوشع بن نون. وكذلك فقد أخذت سلالة هارون عليه السلام الإمامة الدينية(Priesthood) والتي كانت مستقلة تماما عن القيادة السياسية. وكذلك فإن هناك الكثير من أنبياء بني إسرائيل لم يكونوا ملوكا.

نقطة أخيرة هنا عن مفهوم مصطلح الشيعة:

كان معظم الأنصار مع على بن أبي طالب في صفين والنهروان وكان أول رجل بايع الحسن بن على بن أبي طالب هو من الأنصار وهو قيس بن سعد بن عبادة. وبايع أبو حنيفة النعمان الإمام زيد وكذلك بايع أبو حنيفة النعمان الإمام محمد النفس الزكية. وهناك الكثير والكثير من المسلمين الذي بايعوا وقاتلوا مع أئمة بني هاشم.

والأنصار الذين قاتلوا مع على في صفين لم يقاتلوا معه لأنه أولى بالخلافة من أبي بكر وإنما لأنه الخليفة الشرعي في ذلك الوقت وكان يقاتل الباغين. وهناك الكثير من المسلمين من قاتل مع أئمة بني هاشم وليس لأنهم أولى بالخلافة من غيرهم وإنما لأنهم قادة المعارضة ضد الطغيان. ولهذا السبب فإن الشيعة ينقسمون إلى ما يلي:

الشيعة ألفا. وهم المسلمون الذين قاتلوا وساندوا وكانوا مع الأعلام من بني هاشم (علي، الحسن، الحسين، زيد، محمد النفس الزكية، إبراهيم بن عبد الله، جعفر

الصادق، موسى الكاظم، الحسن الأطروش وغيرهم) وليس لأن بني هاشم أولى بالخلافة من غيرهم وإنما لأنهم كانوا ذلك الوقت قادة المعارضة ضد البغي والظلم والطغيان. والمؤلف ودون أي شك مع هؤلاء الأئمة.

الشيعة بيتا. وهم المسلمون الذين وجدوا أن بيعة أبى بكر صحيحة ولكن عليا كان أولى منه وأن بني هاشم أولى بالخلافة من غيرهم. وهؤلاء هم الإخوة الزيدية ولهم شبهة أدلة قوية تساند وجهة النظر عندهم.

الشيعة جاما. وهم المسلمون الذين وجدوا أن أبا بكر وعمر وغيرهم قد اغتصبوا الخلافة من على بن أبي طالب وهؤلاء هم الإخوة الجعفرية.

ومن المناسب هنا ذكر قصة من تاريخ المسيحيين: فعندما ارتفع المسيح عليه السلام فقد أخذ الإمامة من بعده رجل من أقربائه اسمه يعقوب الرشيد (James the Just) وتسمى أتباع المسيح بالنصارى نسبة إلى الاسم المعروف للمسيح وهو عيسى الناصري (نسبة إلى مدينة الناصرة). وبعد ثلاثين سنة قام شخص اسمه بطرس(Pual of Tarsus) بمخالفة يعقوب في موضوع الالتزام بقوانين موسى عليه السلام وقام بطرس بخلق ديانة جديدة سماها المسيحية (نسبة إلى المسيح). وبعد ٣٠٠سنة اعتنق قسطنطين (إمبراطور روما) الديانة المسيحية. ولكن كان هناك ثلاثة مذاهب متناقضة في المسيحية وهي المذهب الروماني (الكاثوليك) والمذهب اليوناني (الأرثوذكس) ومذهب آريوس. وتوافق الرومان واليونان على فلسفة الثالوث (وهي فلسفة الأب والابن والروح القدس أنهم ثلاث وواحد في الوقت نفسه) وتوافقوا كذلك على ألوهية المسيح. وأما آريوس فقد كان يقول إن المسيح هو مخلوق وعبد لله. ونحّى الرومان واليونان خلافاتهم جانبا واتحدوا ضد آريوس وقام قسطنطين بعمل مؤتمر نيقية (The Counceil of Nicaea) والذي تم فيه إشهار آريوس أنه كافر وهرطيق وزنديق. ولكن كان من سخريات القدر أن يُؤمن قسطنطين قبل سنتين من وفاته بالمذهب الآريوسي.

وهنا الاستخفاف بالعقول: فآريوس في المذاهب المسيحية هو كافر وهرطيق وزنديق ولكن قسطنطين هو مؤمن قديس ونبيل. وهذه سخرية لأن آريوس وقسطنطين هم في قارب واحد، فالقيام بشتيمة الأول يتطلب شتيمة الثاني.

وكذلك بالنسبة إلى اغتصاب الخلافة من على بن أبي طالب. فإنه إذا حدثت عملية اغتصاب للخلافة فإن جميع الصحابة متهمون فيها وكلهم (الأنصار والمهاجرون وعمر وأبو بكر) في قارب واحد. فلا يمكن اتهام عمر وأبى بكر بالفسق والعصيان ووصف الأنصار بالإيمان والعدالة. فإما جميعهم عدول أو جميعهم متهمون.

❖ **الكارت الأخضر**

أرسل حاطب بن أبي بلتعة بكتاب مع جارية إلى قريش يحذرهم فيها من نية الرسول عليه السلام لفتح مكة. وبعث رسول الله عليه السلام على بن أبي طالب والزبير بن العوام وأخذوا الكتاب واستدعى الرسول حاطبا وسأله عما فعل وعفا عنه. وفي رواية البخاري عن على بن أبي طالب: "فقال عمر: يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق فقال إنه قد شهد بدرا وما يدريك لعل الله اطلع على من شهد بدرا فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم".

إن الناس والمسلمين والصحابة هم بشر ولهم الظاهر وعليهم الظاهر. فإذا كان ظاهر أعمالهم الخير فالنظرة لهم هي نظرة تقدير أما إذا كان ظاهر أعمالهم الشر فالنظرة لهم هي نظرة اتهام. والدليل على ذلك هو قول الرسول عليه السلام: "يرد على يوم القيامة رهط من أصحابي فيجلون عن الحوض فأقول: يا رب أصحابي؟ فيقول: إنك لا علم لك بما أحدثوا بعدك، إنهم ارتدوا على أعقابهم القهقري" رواه البخاري.

ولكن هناك فئة خاصة من المسلمين عندهم الكارت الأخضر وهؤلاء هم أهل بدر. والظاهر الحسن من أعمال هؤلاء له نظرة التقدير والظاهر غير الحسن من أعمال هؤلاء له نظرة التبرير. وهذا معناه أن أبا بكر الصديق وعمر بن الخطاب وسعد بن عبادة وعبد الله بن مسعود والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف وثلاثمائة رجل

آخرين هم من أصحاب الكارت الأخضر. أما معاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص وغيرهم ليسوا من أصحاب الكارت الأخضر.

وهذا معناه أن قتال الزبير بن العوام لعلي بن أبي طالب يجب تبريره بنية خير وأما قتال معاوية بن أبي سفيان لعلي بن أبي طالب فيجب أخذه بالظاهر من أعماله.

وأما بالنسبة إلى عائشة بنت أبي بكر (وباقي أزواج الرسول عليه السلام) فقد قال الله تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفۡعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِكُم مَّعۡرُوفٗاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا ٦﴾ [الأحزاب].

وبالنسبة إلى المؤلف فهو لن يذكر أمه إلا بكل الخير حتى وإن جلدت ظهور المسلمين. وليقم كل مسلم بالحديث عن أمه بالشكل الذي يرضاه.

❖ تحري الصدق

يجب هنا التذكير بأمر قد تم تكراره في هذا الكتاب وهو ضرورة عمل مسافة بين النظرة العقلية المجردة واتخاذ الموقف. فالنظرة العقلية المجردة يجب ألا تتأثر بالمبادئ والمشاعر والعواطف وإنما هي نظرات مجردة. وبعدها يأتي اتخاذ الموقف وعندها يدخل موضوع المبادئ والمشاعر والعواطف.

بالطبع فإن ما سبق هو سهل التعبير ولكنه ليس سهل التطبيق:

ما هو الموقف من أبي لؤلؤة المجوسي قاتل عمر بن الخطاب؟

دعونا نبدأ من النظرة العقلية المجردة:

إن نظرة أبي لؤلؤة لعمر بن الخطاب هي النظرة إلى قائد جيش الاحتلال. فالمسلمون استطاعوا وبضربات سريعة احتلال فارس وتحطيم الدولة الساسانية. ولم تكن الدولة الساسانية في طور الانهيار وإنما كانت في عليائها ثم جاء المسلمون وقاموا بإنهائها.

ويجب الانتباه إلى أن فارس لم تكن كمصر وبلاد الشام. فالقبط في مصر والعرب في بلاد الشام كانوا ينظرون إلى الرومان نظرة النفور، أما في فارس فقد كانت العلاقة بين المحكوم (أهل فارس) والحاكم (كسرى) علاقة انسجام. وهنا كانت الصدمة لأهل فارس من انهيار دولتهم وهنا جاءت الكراهية الشديدة لعمر بن الخطاب.

وهنا النظرة العقلية وهي أن عملية أبي لؤلؤة هي عملية انتقام متعلقة بوطنه (فارس). وقد حدثت مثل هذه القصص مع المسلمين كعملية سليمان الحلبي في اغتيال كليبر (الحاكم الفرنسي في مصر - ١٤/ ٦/ ١٨٠٠) وعملية يوسف حافظ يوسف نزال في اغتيال الحاكم الإنجليزي في الجليل (٢٦/ ٩/ ١٩٣٧) وعملية على أحمد أبو الرُّب في اغتيال الحاكم الإنجليزي في جنين (٢٤/ ٨/ ١٩٣٨) وعمليات أخرى كثيرة.

وهنا تكون النظرة العقلية للأمور. فالنظرة العقلية يجب أن تكون متشابهة للقصص المتشابهة.

كانت تلك هي النظرة العقلية، وأما اتخاذ الموقف فإن أهل فارس وقتها قد نظروا إلى أبي لؤلؤة على أنه بطل في حين أن موقف المسلمين من أبي لؤلؤة هو موقف الكراهية والجريمة. وبالنسبة إلى موقف المؤلف فإن ما فعله أبو لؤلؤة كان جريمة سياسية وعقوبة هذا العمل بالطبع هى الإعدام.

ولكن هنا يجب أن تكون النظرة صادقة للأمور، فما فعله أبو لؤلؤة ليس نذالة ولا خسة ولا حقارة وإنما هو جريمة سياسية ضمن وجهة نظر أحد الأطراف (المسلمين)، وعمل بطولي ضمن وجهة نظر الطرف الآخر (فارس ذلك الوقت). وكذلك بالضبط ما فعله سليمان الحلبي. فهذا ليس خسة ولا نذالة ولا حقارة وإنما هو في نظر المسلمين بطولة وشرف وعزة وإباء.

وهنا فإن المؤلف يعيد ويكرر بضرورة عمل مسافة بين النظرة العقلية المجردة واتخاذ الموقف.

عودة إلى موضوع المقالة:

إن الهدف من من الحوار بين السنة والشيعة هو لردم الفجوة بينهما. والحوار سيتعرض لبحث الكثير من القصص والحكايات. وستكون المشكلة الكبرى عندما يبدأ فريق الحوار (الجعفرية والزيدية والسنة) بمحاولة الإفحام لأن محاولات الإفحام ستؤدي إلى تكوين فقاعات الهواء في اللحام وهذا سيؤدي إلى فك اللحام بعد فترة من الزمن.

وضمن وجهة نظر المؤلف فإن أعضاء الفريق بحاجة لأن يكونوا كأحمد بن حنبل وليس كأبي حنيفة النعمان والشافعي. وبالطبع فإذا كان الحوار مع الشيوعيين أو العلمانيين أو الكافرين فأنت بحاجة إلى رجال كأبي حنيفة النعمان والشافعي وليس كأحمد بن حنبل، ولكن عندما تريد أن تردم فجوة بين المسلمين فأنت بحاجة إلى رجال كأحمد بن حنبل وليس كأبي حنيفة النعمان.

والسبب أن الله قد أنعم على أبي حنيفة النعمان والشافعي بحضور الجواب وكانت أجوبتهم في غاية الإفحام في حين كان أحمد بن حنبل في غاية الذكاء ولكنه لم يكن يجيب إلا فيما يعلم. وهذه الصفة هي المطلوبة هنا.

فالهدف هو معرفة الصحيح أيا كان هذا الصحيح دون إفحام أو انتقاص. وإذا كان هناك سؤال لأحد الأعضاء ولم يكن بالاستطاعة الإجابة عليه فيجب تأجيل الجواب للجلسة التالية. وهنا ضرورة أن يكون الحوار علنياً ضمن بث حي ومباشر فهو الضمانة أن أعضاء الفريق يتصرفون بجدية وأنهم لا يأخذون الأمور ارتجالا ومداراة.

وضمن هذا الحوار فإنه سيتم التعرض للكثير من القصص والحكايات. والكثير منها من الصعب تفسيره بشكل مرضٍ ولكن الأولى هو سماعها وعدم إهمالها لأن سماعها أفضل بكثير من بقائها بذرة شقاق دفينة. وإحدى القصص التي سيتم نقاشها بالتأكيد هو دعوات فاطمة الزهراء على أبي بكر الصديق وشدة عمر بن الخطاب في فرض البيعة على علي بن أبي طالب.

ومن الضروري عدم اللجوء إلى تأويلات سطحية أو إنكار القصص ذات احتمالية ثبوت عالية. ودعوات فاطمة الزهراء وشدة عمر بن الخطاب لها احتمالية ثبوت عالية وموجودة في الكتب.

وبالنسبة إلى شدة عمر بن الخطاب فهو أمر غير مستبعد فعمر بن الخطاب لم تتأن طباعه إلا بعد أن استلم الخلافة. وله شواهد كثيرة في شدة التصرف، وإذا قام القارئ بالنظر إلى أكثر العبارات التي ذكرها عمر بن الخطاب في حياة الرسول عليه السلام فإنها (على غلبة تخمين المؤلف) ستكون "دعني أضرب عنقه".

وبالطبع فإن شدة عمر بن الخطاب كانت مفيدة جدا؛ فمن الضروري أن يتصف الوزير بصفات مختلفة عن صفات القائد كي تكون لجنة القيادة ذات مهارات متكاملة. فإذا كان القائد لينا فمن الضروري أن يكون الوزير شديدا، وإذا كان القائد شديدا فمن الضروري أن يكون الوزير لينا.

وأحد الشواهد الواضحة لشدة عمر هو الجرأة في نقاش الرسول عليه السلام في موضوع الصلاة على عبد الله بن أبي بن سلول: "فلما أراد أن يصلي عليه جذبه عمر رضي الله عنه فقال أليس الله نهاك أن تصلي على المنافقين؟ فقال أنا بين خيرتين قال (استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم). فصلى عليه فنزلت (ولا تصل على أحد منهم مات أبدا). رواه البخاري.

فشدة عمر بن الخطاب غير مستبعدة وخصوصا أنه ربما شعر أن امتناع على بن أبي طالب عن البيعة قد تؤدي إلى شق صفوف المسلمين. وبالنسبة إلى دعوات فاطمة الزهراء فهي قصة ممكنة؛ فالصدور كانت حامية ذلك الوقت.

الآن... ما هو موقف المؤلف من هذه القصص؟

كما سبق ذكره فإن بعض القصص السابقة (كالتي رواها ابن قتيبة في كتاب الإمامة والسياسة) لها احتمالية ثبوت عالية. ولكن كما يعلم المؤلف هذه القصص فكذلك علمتها الأنصار قبله. وكما سكتت الأنصار عنها فإن المؤلف سيسكت عنها كذلك. ويجب التنبيه هنا إلى أن أبا بكر الصديق وعمر بن الخطاب هم من أصحاب

الكارت الأخضر ولو كانت دعوات فاطمة الزهراء لرجال ليسوا من أصحاب الكارت الأخضر لكان للمؤلف موقف آخر. ولكن للمؤلف وجهة نظر واضحة لأصحاب الكارت الأخضر.

على أية حال فإنه من الضروري النظر إلى جميع الحكايات ومحاولة تحديد احتمالية ثبوتها وبكل تحرٍ للصدق والأمانة ومن ثم حوارها حتى وإن لم يكن بالإمكان إيجاد التفسير الكافي لَما. وهذا أفضل بكثير من القيام بترك الحكايات كبذور شقاق دفينة.

ويوجد نقطة فرعية هنا ومن المناسب التعرض لها وهو موضوع سليمان الحلبي:

لنفترض أن دولة الخلافة الإسلامية قد قامت وأنه قامت حرب بينها وبين كوريا.

الآن...لا يوجد عداء سابق بين كوريا والمسلمين كما لم تقم كوريا بأية أعمال إجرامية ضد المسلمين؛ ولهذا السبب فإن الحرب يجب أن تكون حربا نبيلة بين المسلمين وكوريا.

لنفترض أن كوريا استطاعت خداع الجيش الإسلامي بذكاء وجذبته إلى فخ وقامت بالانقضاض عليه وقتل الكثير من الجنود المسلمين. هذه الهزيمة والخسارة ليست سببا للحقد والكراهية؛ فالعدو استطاع خداع الجيش الإسلامي وأخذ الفرصة. ولهذا السبب فإن الحرب يجب أن تبقى نبيلة، وإذا أراد المسلمون الانتقام فيجب أن يكون الانتقام في حدود المعركة وليس خارجها.

ولنفترض كذلك أن كوريا قامت بإعدام الأسرى المسلمين بعد المعركة. هذا كذلك ليس سببا للحقد والكراهية فقد قام خالد بن الوليد بعد معركة أليس بجمع الأسرى الفرس وأعدمهم. وعمل خالد بن الوليد كان ضمن حدود بطش ألفا وهو ضمن حدود المعركة. ولهذا السبب فإن الحرب بين المسلمين وكوريا يجب أن تبقى حربًا نبيلة. وإذا أراد المسلمون الانتقام فيجب أن يكون الانتقام كذلك ضمن حدود المعركة وليس خارجها.

ولكن الحرب النبيلة تنتهي تماما بين المسلمين وكوريا وتتحول إلى حرب غير نبيلة في اللحظة التي تقوم فيها كوريا بالتعذيب والانتهاك والإهانة وقتل المدنيين العزل وقتل الأطفال. وهنا تكون قواعد الحرب مختلفة تماما.

وهنا نرجع إلى موضوع سليمان الحلبي. فقد احتل الفرنسيون مصر وقامت الحرب بين الفرنسيين والعثمانيين وقام سليمان الحلبي باغتيال كليبر الحاكم الفرنسي في مصر.

الآن... قيام الفرنسيين بإعدام سليمان الحلبي يجب ألا يثير الحقد والكراهية. فالموضوع هو حرب، وسليمان الحلبي كان يتصرف كجندي في المعركة وقام بقتل العدو وأمسك العدو به وحكموا عليه بالإعدام. فلا يوجد عند المؤلف أية نظرة حقد لموضوع الإعدام. ولكن الجريمة البشعة التي فعلها الفرنسيون مع سليمان الحلبي ورفاقه هي التعذيب والحرق والإهانة وتشويه الجثة. وهذه جرائم حقيقية وهي أحد الأمور التي يجب على دولة الخلافة أن تقوم بتصفية حساباتها مع فرنسا وخصوصا عندما نعلم أن الفرنسيين قد أخذوا جثمان سليمان الحلبي معهم إلى فرنسا، وهو معروض الآن وبكل وقاحة في متحف التاريخ الطبيعي بباريس.

❖ فارس والوقت الناقص

كما تم الحديث فيه فإن فارس لم تكن حضارة آيلة للسقوط وإنما كانت في ريعان العمر. وهنا كانت الصدمة لأهل فارس في سرعة سقوط الدولة واحتلالها. وهنا كانت الكراهية الشديدة من أهل فارس لعمر بن الخطاب.

وهذه المشكلة ليست ضخمة ويمكن تجاوزها. وضمن وجهة نظر المؤلف فإن مدة ٨٠ سنة من العدل النسبي كافية تماما لدمج الأمة المغلوبة في الأمة الغالبة.

لنتعمق قليلا في موضوع مدة الـ ٨٠ سنة:

لنفترض أنه حدث انهيار اقتصادي واجتماعي وسياسي شديد القسوة في المجتمع.

* بعد ١٠ سنوات (عقد) من هذا الحدث سيكون هناك إزاحة في الأجيال والإدارة. فمساعد المدير سيصبح مديرا وصبي المعلم سيصبح مساعد المعلم وهكذا.

* بعد ٢٠ سنة (عقدان) سيكون هناك تبديل للأجيال والإدارة. فالمدراء الكبار اليوم سيحالون إلى التقاعد بعد عشرين سنة ويحل محلهم مدراء من الأجيال التالية.

* بعد ٤٠ سنة (قلبة) سيكون المدراء والأجيال الفاعلة في المجتمع هم أناس لم يشهدوا الانهيار الاقتصادي ولكن ما زال يوجد في المجتمع أناس قد شهدوا ذلك الانهيار.

* بعد ٨٠ سنة (قلبتان) فإن المدراء والأجيال الفاعلة في المجتمع هم أناس لم يشهدوا الانهيار الاقتصادي ولا يوجد في المجتمع أي شخص شهد هذا الانهيار.

ولهذا السبب فإن ٨٠ سنة (على الأكثر) من العدل النسبي كافية لازالة الآلام وتجاوز المشكلات في المجتمع.

وهذا التحليل منطقي ولكن فكرتها جاءت من تحليل تاريخي. فقد كانت خيبة الأمل لهانيبال كبيرة جدا لعدم تمرد الولايات الإيطالية ضد روما. فقد قامت روما بفرض وجودها وثقافتها على الولايات الرومانية وكانت خطة هانيبال الأساسية هي تحرير الولايات الإيطالية واستخدامهم في حلف ضد روما. ولكن الذي حدث أن معظم الولايات الإيطالية قد بقيت على ولائها مع روما ضد هانيبال.

وهنا السؤال: فلماذا لم تقم الولايات الإيطالية باغتنام الفرصة والانقلاب على روما؟؟

والجواب (على غلبة ظن المؤلف) أن مستوى العدل النسبي لروما كان مرتفعا وكان لروما الاهتمام الواضح لإثبات مصداقيتها. واستطاعت روما فرض سيطرتها على إيطاليا في عام ٢٧٣ ق.م، وقام هانيبال بغزو إيطاليا في عام ٢١٨ ق.م. وهذا معناه أن ٥٥ سنة من العدل النسبي والمصداقية كانت كافية لدمج الولايات الإيطالية مع بعضها البعض.

ومن هذه الملاحظة جاءت الفكرة الفلسفية السابقة. و٨٠ سنة هي الحد الأعلى فقد تم دمج بلاد الشام ومصر بأقل من٣٠سنة ولكن موضوع فارس موضوعاً مختلفاً حيث إن فارس كانت حضارة عظمى ومركزا أساسيا في الخريطة الدولية ذلك الوقت. ووجهة النظر هنا أن فارس كانت بحاجة إلى ٨٠ سنة من العدل والمصداقية كي تلتحم تماما مع جسم الأمة الإسلامية وتتجاوز الآلام السابقة.

وقد كان من حسن الطالع والذكاء الحقيقي لعلي بن أبي طالب هو التصرف الذي قام به مع بنات يزدجرد (كسرى فارس). فقد تم أسر ثلاث بنات ليزدجرد وكان عمر بن الخطاب يريد بيعهن كغيرهن ولكن على بن أبي طالب اعترض وأخذهن وأعتقهن وزوج إحداهن لابنه الحسين والأخرى لعبد الله بن عمر بن الخطاب والثالثة لمحمد بن أبي بكر الصديق. وكأن وجهة النظر عند على بن أبي طالب أن بنات الكرام يتزوجن أبناء السادة.

دعونا الآن نضع نموذجا للذي حصل في فارس:

* هناك صدمة من سقوط الدولة ووقوعها تحت الاحتلال.

* هناك كراهية شديدة من الفرس تجاه المسلمين (قوات الاحتلال) ولعمر بن الخطاب (ملك الجيوش المحتلة).

* تزوجت إحدى بنات يزدجرد من حفيد نبي العرب وتزوجت باقي بناته من أبناء ملوك العرب. وهذا بالطبع أثلج صدور أهل فارس فبنات ملوكهم لم يتعرضن للإهانة.

* عدالة المسلمين وحسن أخلاقهم قد دفعت الكثير من أهل فارس إلى الدخول فى الإسلام . وهنا أصبح في المجتمع فكرتان. فمن الجهة الأولى فهناك كراهية للاحتلال ولقيادة الاحتلال ومن الجهة الأخرى فهناك اهتمام وتسامح من أهل فارس للمسلمين. وهذا تطور إيجابي. فقبل هذا التطور كان يوجد فقط فكرة واحدة وهو كراهية الاحتلال.

* للأسف فإن عدالة المسلمين لم تستمر وقتا طويلا وإنما استمرت مدة ٢٤ سنة وبعدها جاء بنو أمية وبدأت تعاملات الظلم وكانت معركة كربلاء (بعد ٤٥ سنة من احتلال المدائن) صدمة لأهل فارس فالحسين هو حفيد نبي هذا الدين الجديد لهم، كما أنه زوج ابنة ملكهم. واستفحل الظلم تماما في أهل فارس بحكم الحجاج بن يوسف بعد ٥٩ سنة من سقوط المدائن.

وهناك نظرة فلسفية عن مواقف الإنسان وهي أن الإنسان يتخذ القرار بقلبه ويبرره بعقله. وهذا ما حدث مع أهل فارس. فقد كان هناك كراهية لعمر بن الخطاب بسبب مسئوليته عن احتلال بلادهم وفي الوقت نفسه بدأ الكثير من أهل فارس بالدخول إلى الإسلام . وكان من الطبيعي جدا للمسلمين الجدد من أهل فارس النظر بمحبة إلى على بن أبي طالب وابنه الحسين حيث إن ابنة ملكهم هي زوجة الحسين. ولكن عدالة المسلمين تغيرت بعد ٢٤ سنة وهذه لم تكن مدة كافية لدمج أهل فارس دمجا كاملا مع العرب. وجاءت معركة كربلاء لتقوم بشق صفوف المسلمين إلى نصفين.

وحيث إنه لم تتمتع فارس بمدة كافية من العدل النسبي لتجاوز الآلام والاندماج مع العرب فإن هذا أدى إلى استمرارية الكراهية لعمر بن الخطاب ولكن تغيرت أسباب الكراهية. فلم تعد الكراهية بسبب الاحتلال وإنما بسبب اغتصابه للخلافة من على بن أبي طالب. وكان هذا التبرير ضرورياً للتوفيق بين الإسلام وبين هذه الكراهية.

وهذا أمر منطقي وضمن قوانين ديناميكيات المجتمع. وهذا هو المقصود بالفلسفة السابقة أن الناس تقرر بقلبها وتبرر بعقلها. والمجتمعات لا تتصرف غريزيا حسب الحق وإنما تتصرف حسب الحركة الديناميكية.

*** النظرة الشمولية وأخطاء الادارة**

لا يوجد عند المؤلف أي شك في صدق فاطمة الزهراء في موضوع فدك خيبر. وفي الوقت نفسه فإنه لا يوجد أي شك عند المؤلف في صحة قضاء أبي بكر الصديق. فالنقطة هنا أنه توجد مسافة واضحة بين الاقتناع والمنهج القضائي. وأفضل مثال على ذلك هو القصة المشهورة بتحاكم على بن أبي طالب (وهو خليفة المسلمين) مع

أحد اليهود في درع كانت لعلي وافتقدها ووجدها عند ذلك اليهودي واحتكما إلى شريح القاضي. ولم يكن عند شريح أي شك بصدق على بن أبي طالب ولكن القضاء له منهج وآليات واضحة ومنعزلة عن القناعات الشخصية ولهذا السبب فقد حكم شريح لليهودي.

وهذا هو موقف المؤلف من موضوع فدك خيبر من وجهة نظر قضائية. ولكن ضمن نظرة شمولية فإن وجهة نظر المؤلف أن سيدنا أبا بكر الصديق قد أخطأ في التصرف. فالأمور كانت حامية والصدور كانت متوترة وذلك بسبب موضوع الخلافة. وكان الأولى لأبي بكر أن يتصرف بها يخفف فيه الاحتقان. ووجهة نظر المؤلف أن التصرف الأولى كان أحد الخيارات التالية:

* أن يقضي أبو بكر بالحق وعندما تذهب فاطمة الزهراء يقوم باستدعائها ويهبها فدك خيبر. وهذا ضمن صلاحياته كخليفة. وقد فرض الله في الزكاة بابا لتأليف القلوب، والأولى هو تأليف قلب ابنة الرسول عليه السلام.
* أن يطلب أبو بكر من على بن أبي طالب أن يقضي لفاطمة بها يراه حقا.
* أن يختار أبو بكر عشرة من كبار الأنصار وأن ينظروا في طلب فاطمة الزهراء ويعمل برأيهم.

فالنقطة هنا أنه لم يكن من الأولى (والأفكار مرتبكة والصدور متوترة) أن يقوم سيدنا أبو بكر الصديق (وهو طرف في مشكلة الخلافة) بتفشيل فاطمة الزهراء (وهي طرف آخر في مشكلة الخلافة).

وكذلك فإن الأنصار والمهاجرين هم أفضل المسلمين بعد الرسول عليه السلام وقد وصل لهم الشرف الجزيل بقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَـٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة]. ولكن التقوى العالية لا تمنع الصحابة من القيام بأخطاء الإدارة. فالإدارة

تتعلق بالخبرة والتجربة والمهارة. وعندما كان الرسول عليه السلام يقوم بالخطأ في الإدارة فإن جبريل كان يأتيه وينبهه، وهذه الميزة ليست موجودة عند الصحابة. ولهذا السبب فإنه من الضروري النظر بصدق وأمانة إلى قصص الخلاف وفي الوقت نفسه فإنه من الضروري النظر بصورة شاملة للموضوع والانتباه لأخطاء الإدارة. وبالطبع كانت هناك أخطاء كثيرة في الإدارة ولولا هذه الأخطاء لما استطاع معاوية أو ابنه يزيد أو عبد الملك بن مروان أو الحجاج بن يوسف استلام السلطة والتسلط على رقاب الناس.

وهنا سيتم ذكر البعض من هذه الأخطاء في الإدارة والتي انتبه لها المؤلف:

* لقد أعطى الرسول عليه السلام إمارة الجيش لأسامة بن زيد للتوجه إلى الشام وجاء في الحديث "عن ابن عمر رضي الله عنهما قال أمّر رسول الله ﷺ أسامة على قوم فطعنوا في إمارته فقال إن تطعنوا في إمارته فقد طعنتم في إمارة أبيه من قبله وايم الله لقد كان خليقا للإمارة وإن كان أحب الناس إلى وإن هذا لمن أحب الناس إلى من بعده" رواه البخاري.

وبعد هذه الغزوة فإنه لم يقم أحد من الخلفاء الراشدين باستعمال أسامة بن زيد أو إعطائه أية مسئوليات إدارية. وبالنسبة للمؤلف فهذا أمر يثير التعجب والاستفهام.

* كما تم ذكره سابقا فقد كان الأولى لأبي بكر الصديق أن يقوم بتخفيف الاحتقان مع فاطمة الزهراء أو على الأقل ألا يكون طرفا في القضاء في موضوع فدك خيبر.

* أول عمل قام به عمر بن الخطاب كان عزله لخالد بن الوليد وقد وصل كتاب العزل إلى أبي عبيدة في منتصف المعركة. وهذا خطأ إداري حقيقي ولكن قام أبو عبيدة بإخفاء الكتاب حتى انتهت المعركة. والنقطة هنا أن التغيير الجذري للقيادة في منتصف المعركة ليس بالأمر السهل.

* وكذلك فقد أخطأ عمر بن الخطاب بإهمال المثنى بن حارثة وتعيين أبو عبيدة الثقفي لقيادة الجيش في العراق. وأبو عبيدة كان شديد التقوى وشديد الشجاعة ولكن هذه ليست صفات كافية للقيادة العسكرية. والذي حدث أنه في معركة الجسر قد أصر على عبور الجسر نحو الفرس كي لا يتم اتهام المسلمين بالجبن وقد رد التوصيات التي نصحها له كبار القوم وتقدم الجيش عبر الجسر وكانت الهزيمة عليهم. ولكن الأمر الواضح عند عمر بن الخطاب أنه سريع التعلم وقد أصبح عمر بعد معركة الجسر حريصا في اختياراته للقيادات.

يجب الانتباه هنا لمهارات عمر بن الخطاب القيادية. فعمر كانت له مهارة غريزية في التخطيط الاستراتيجي والنظرة الشاملة للأمور. ولكن في كثير من الأحيان فإن الشخص الذي له مهارة ضخمة في اتجاه يكون عنده ضعف في الاتجاه المقابل. وهذا الضعف يحتاج إلى المراس والخبرة والتدريب كي يتم الإحاطة به. وعبقرية عمر الحقيقية كانت في النظرة الشاملة للأمور والتخطيط الاستراتيجي وأما الضعف فكان في التعمق في التفاصيل الدقيقة. وهناك قصص مشهورة عن عمر بن الخطاب تدل على ما سبق:

فعندما قام الحطيئة بهجاء الزبرقان بقوله: "دع المكارم لا ترحل لبغيتها - واقعد فأنت الطاعم الكاسي"، فإن عمر بن الخطاب لما سمعها قال ما أسمع هجاء ولكنه معاتبة ولكن الزبرقان وصفه بأنه أشد الهجاء، واستشار عمر حسان بن ثابت فأقر أنها هجاء فقام عمر بن الخطاب بسجن الحطيئة.

ولقي عمر بن الخطاب حذيفة بن اليمان فقال له كيف أصبحت فقال أصبحت أحب الفتنة وأكره الحق وأصلي بغير وضوء ولي في الأرض ما ليس لله في السماء. فغضب عمر ودخل على بن أبي طالب فقال يا أمير المؤمنين على وجهك أثر الغضب فأخبره عمر بما كان له مع حذيفة فقال له علي: صدق يا عمر. يحب الفتنة يعني المال والبنون ويكره الحق يعني الموت ويصلي بغير وضوء يعني الصلاة على الرسول ﷺ وله في الأرض ما ليس لله في السماء يعني له الزوجة والولد.

•وقالت امرأة لعمر بن الخطاب: إن زوجي صوام قوام. فقال عمر: بارك الله لك بزوجك. فقال علي: إنها تشكو زوجها.

وفي المقابل فإن على بن أبي طالب كان شديد الانتباه للتفاصيل حتى قال عمر بن الخطاب: على أقضانا (رواه البخاري). والانتباه للتفاصيل هو أمر ضروري جدا في عملية القضاء ولكن في المقابل فقد أخطأ سيدنا على بن أبي طالب في التخطيط الاستراتيجي كما سيأتي ذكره لاحقا.

إن التفاصيل الدقيقة كانت نقطة الضعف عند عمر ولهذا السبب فقد وقع عمر بن الخطاب في بعض الأخطاء المتعلقة باختيار القيادات العسكرية ولكنه تعلم من هذه الأخطاء وبسرعة شديدة. وفي المقابل فقد كانت نظرته الشاملة هي التي جعلته يقوم بوضع القوانين الإدارية المتعلقة بإدارة الدولة والقدرة على السيطرة على فارس والشام معا.

ولكن هناك خطأ حقيقي من عمر بن الخطاب (والصحابة) أنه لم يقم بخلق نظام استخلاف. وقد تم فتح موضوع الاستخلاف وخطب عمر بن الخطاب في الناس وكان آخر الخطبة: "فمن بايع أميرا من غير مشورة المسلمين فلا بيعة له ولا بيعة للذي بايعه" رواه أحمد. ولكن هذا لم يدفعه للتفكير بخلق نظام للاستخلاف.

* وعندما طعن أبو لؤلؤة عمر بن الخطاب وجاءه الناس يطلبون أن يستخلف فيهم فرفض وقال لا أحملكم حيا وميتا. ومع كثرة الطلب جعلها عمر بن الخطاب شورى في الستة وهم على بن أبي طالب وعبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان وسعد بن أبي وقاص وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام ووضع لهم مدة ثلاثة أيام ليختاروا الخليفة.

ووجهة نظر المؤلف أن هذا الأسلوب لم يكن الأولى، والأسباب كما يلي:

أ. من الستة المختارين يوجد اثنان فقط لهم خبرات إدارية عميقة وهم على بن أبي طالب وسعد بن أبي وقاص. فعلي قد اختاره الرسول عليه السلام في أكثر من

مهمة كما كان قاضي القضاة في عهد عمر بن الخطاب. وأما سعد بن أبي وقاص فقد كان قائد الجيش في القادسية كما كان والي العراق. أما باقي الستة فليست لهم خبرات إدارية عميقة. وهذا معناه أن عملية الشورى قد تتمخض عن قيام واحد من هؤلاء الأربعة بأخذ الخلافة. وهذا الذي حدث فقد أخذ الخلافة سيدنا عثمان بن عفان.

ب. سيدنا عثمان بن عفان من أقرب الناس إلى رسول الله وقد تزوج من ابنتين لرسول الله عليه السلام. ولكن اختيار القيادة يكون للأقدر عليها وليس للأقرب إلى رسول الله عليه السلام. فأبو ذر الغفاري من أقرب الصحابة إلى الرسول عليه السلام وعندما طلب من الرسول عليه السلام أن يتولى بعض الأمر قال له الرسول عليه السلام: "يا أبا ذر إنك ضعيف وإنها أمانة وإنها يوم القيامة خزي وندامة إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها" رواه مسلم. والنقطة في موضوع عثمان أنه رجل تستحي منه الملائكة من شدة حيائه وهي صفة ممدوحة إلا في إمارة الدولة. فإن إمارة الدولة تقتضي الحزم والشدة عند الضرورة وهي صفات صعبة لرجل شديد الحياء. بالإضافة إلى ذلك فقد كان عثمان بن عفان قد وصل إلى السبعين من عمره عندما استلم الخلافة، والعمر له أحكامه.

ج. هذا الأسلوب من الشورى فيه إحراج شديد. فالكل يرغب في الإمارة والكل يرى أنه أهل لها ولكن في الوقت نفسه فإنه ليس من السهل أبدا مدح النفس وانتقاص الآخرين. ولهذا السبب فقد اقترح عبد الرحمن بن عوف أن يخرج منها ويختار ورضي الجميع باقتراحه. وتحولت الشورى بين الستة إلى قرار يتم فرضه من شخص واحد.

على أية حال فإنه يجب الانتباه أن هذا التشكيل قد جاء على عجل مع وجع الطعنات على فراش الموت. وضمن وجهة نظر المؤلف فإن الأولى كان أن يقوم عمر بن الخطاب باختيار عشرة من كبار الأنصار وأن يطلب إليهم أن يتشاوروا

ويختاروا واحدا من المهاجرين. وهذا الحل يتوافق مع قول الله عز وجل عن الأنصار: ﴿...فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٩﴾ [الحشر]. وقوله عن المهاجرين: ﴿...أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ۝٨﴾ [الحشر]، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝١١٩﴾ [التوبة].

والصادق هو من صدق في قوله وفعله والفالح هو من أفلح في اختياره. ولهذا السبب فإن غلبة ظن المؤلف أن الأنصار لو تشاوروا في الأمر لكان اختيارهم مفلحا. ولو فعلها عمر بن الخطاب لصارت سنة في عملية الاستخلاف.

* أما بالنسبة إلى سيدنا عثمان بن عفان فإن نقطة الضعف (والتي هي نقطة القوة في مواقف أخرى) هي شدة حيائه، وهذا ما جعله غير حازم مع أقربائه وهو ما تسبب بمشاكل كبيرة. ولكن هذه ليست مشكلة عثمان وحده وإنما هي مشكلة الصحابة كلهم. فقد تمت بيعة عثمان على العمل بكتاب الله وسنة رسوله وسنة الشيخين من بعده. ولهذا فقد كان يجب على الصحابة ومنذ أن رأوا الابتعاد عن سنة الشيخين أن يقفوا سدا واضحا أمام عثمان يطلبون منه الالتزام بشروط البيعة. ولكن كان هذا أول سابقة للمسلمين فيما يتعلق بمحاسبة الحكام ولم تكن هناك أي آلية موجودة تسمح بهذه المحاسبة فكان الارتباك والتردد حتى حكمت الفتنة بين الصحابة.

* وبالنسبة إلى سيدنا علي بن أبي طالب فإن أول خطأ قام به هو تركه لنصيحة عبد الله بن عباس والمغيرة بن شعبة في الإبقاء على معاوية حتى تهدأ الأمور. وقد صبر رسول الله ﷺ على عبد الله بن أبي بن سلول وصبر على خيبر حتى تمكن منهم.

* وكان سيدنا علي بن أبي طالب حازما في قراراته ولكنه كان لينا في تنفيذها. وهذا يتطلب بعض الشرح:

إن حكم الدولة وخصوصا في أوقات الفتنة يتطلب حزما وشدة. ولكن الحزم والشدة يؤديان في كثير من الأحيان إلى الظلم. وليس في هذا مشكلة كبيرة إذا لم يكن

الظلم جريمة أو كبيرة أو انتهاكاً وكان هناك آلية للمظلوم أن يشتكي. ومثال ذلك قصة عمر بن الخطاب في منعه الناس من الطواف في خط النساء ووجد رجلا يطوف مع النساء فضربه وعندما علم عمر بن الخطاب أن هذا الرجل لم يسمع بتعليمات عمر المتعلقة بالطواف أعطاه الدرة ليقتص. فقيام عمر بضرب الرجل قبل السؤال هو ظلم. ولكن هذا الظلم لم يصل إلى الجريمة والكبيرة والانتهاك وكان هناك آلية للشكوى. وكذلك فقد عزل عمر بن الخطاب خالد بن الوليد وقد يرى بعض الناس أن هذا العمل هو ظلم لخالد وكان خالد يرى ذلك بالتأكيد. ولكن هذا الظلم (إن ثبتت صحته) لم يصل إلى درجة الجريمة أو الكبيرة أو الانتهاك. ولكن في المقابل فإن حزم عمر بن الخطاب كان ضروريا لربط الدولة وتنظيم أمورها. وأما سيدنا على فكان لينا في التنفيذ خشية أن يظلم أحداً. ولكن عدم القيام بالحزم والشدة في مواقف الاضطراب قد أدى إلى خروج الناس من دائرة الانضباط إلى دائرة الفوضى.

* اختار على بن أبي طالب العراق لتكون نقطة انطلاق لمحاربة معاوية بن أبي سفيان. وضمن وجهة نظر المؤلف فإن اختيار العراق كنقطة تمركز لم يكن مناسبا. وضمن جميع السوابق التي حدثت مع الولاة السابقين فإن أهل العراق وقتها كانوا صداعا لكل حاكم جاءها. وضمن وجهة نظر المؤلف فإن العراق كانت بحاجة إلى رجل داهية وكان الأولى أن يذهب على بن أبي طالب إلى مصر وهي أكثر طوعا ويجعل المغيرة بن شعبة على العراق. ولا يوجد أي خوف من استقلال المغيرة بالعراق لأن أهل العراق لن يقبلوا بذلك.

* عندما قام عبد الرحمن بن ملجم بطعن على بن أبي طالب فقد طلب منه المسلمون أن يستخلف وأبى. وبعد موته قام الناس بمبايعة ابنه الحسن بن على بن أبي طالب. ولا يوجد شك عند المؤلف بقرابة وصلاح وذكاء سيدنا الحسن عليه السلام. ولكن المهارات المناسبة تختلف باختلاف الظروف فمن الناس من تكون مهاراته مناسبة وقت السلم والصفاء وغير مناسبة وقت الفتنة والارتباك. ومن الناس من تكون مهاراته مناسبة وقت الفتنة والارتباك وغير مناسبة وقت السلم والصفاء. وفي نظر المؤلف فإن أولى الناس بالخلافة بعد على بن أبي طالب

في هذه الظروف هو سعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عباس. وكان لسعد الحزم والمهارة الإدارية وكان لعبد الله بن عباس المهارة السياسية والدهاء والقدرة على جمع الحشود.

* بالنسبة لسيدنا الحسن فإن الخطأ الذي قام به هو تركه الأولى في قول الله تعالى: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحجرات]. والذي حدث هو أن الحسن تصالح مع معاوية قبل أن يفيء معاوية إلى الحق وكان الأولى هو أن يقاتل الحسن معاوية حتى يفيء معاوية إلى الحق.

بالطبع يوجد هناك حديث المصالحة: عن أبي بكرة يقول: "رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر والحسن بن على إلى جنبه وهو يقبل على الناس مرة وعليه أخرى ويقول إن ابني هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين". رواه البخاري والترمذي والنسائي وأبو داود وأحمد. ولكن هناك إشارات استفهام حقيقية في سند هذا الحديث:

أحد القواعد التي تعلمها المؤلف من عالم ثقة هي قاعدة أصولية لأبي حنيفة النعمان وهي أنه كان يرد (يرفض) أخبارالآحاد في الأمور التي تعم فيها البلوى. مثال ذلك هو الحديث: "من مس ذكره فليتوضأ" وهو خبر آحاد. ووجهة النظر هنا أن لمس الذكر قد يحدث بشكل طبيعي عند تغيير الملابس ولهذا فالمنطق يقول إن هذا الحديث يجب أن يكون مشهورا بين الصحابة. ولكن أن يأتي هذا الحديث على خبر آحاد فهو أمر غير منطقي. وعليه فقد قام أبو حنيفة (حسب علم العالم) برد هذا الحديث. وقد حاول المؤلف البحث عن هذه القاعدة في المصادر المتوفرة ولم يجدها. ولكن مفهوم هذه القاعدة له منطقية.

دعونا نتحدث قليلا عن مجال العقل في النصوص الشرعية:

العقل لا يقوم بالتحليل والتحريم وإنما يقوم بما يلي:

١. يقوم العقل بتحليل النص باستخدام أدوات تحليل (أدوات لغوية وقياسية ومقارنة..إلخ) للوقوف على المعنى في هذا النص.

٢. يقوم العقل بتحديد مستوى ثبوت النص باستخدام قواعد الجرح والتعديل.

ومستوى الثبوت هو درجة صحة انتساب الحديث للرسول عليه السلام. وصحة انتساب القرآن تامة بسبب التواتر، ولكن صحة انتساب الأحاديث متباينة فمنها المتواتر ومنها الصحيح ومنها الحسن ومنها الضعيف ومنها المنكر.

وكما تم ذكره فإن الطريقة التي يقوم فيها العقل بتحديد مستوى الثبوت للأحاديث يكون باستخدام قواعد الجرح والتعديل. وإذا انتبه القارئ لهذه القواعد فسيجد أنها قواعد عقلية جاءت من النظر إلى الواقع. فعندما يأتي نص بسلسلة من الرواة من ثقة حافظ عن ثقة حافظ عن ثقة حافظ عن المصدر فإن احتمالية ثبوت النص للمصدر تكون عالية. وهذا ليس تخمينا ولا افتراضا وإنما هو أمر منطقي جاء من النظرة إلى الواقع ويمكن إثباته بالتجربة. وعندما تأتي سلسلتان مستقلتان من الرواة فإن احتمالية ثبوت النص تتضاعف. وعندما تأتي أكثر من تسعة سلاسل مستقلة من الرواة فإن احتمالية الثبوت تكاد تصل إلى درجة التواتر. وهذه القواعد ليست تخمينية وإنما هي منطقية جاءت من النظر إلى واقع الأمور. وكذلك قاعدة أبي حنيفة فهي قاعدة منطقية يمكن إثباتها من النظرة إلى الواقع.

دعونا نرجع الآن إلى حديث المصالحة:

الحديث رواه البخاري والنسائي وأبو داود وأحمد. ولكن جميع الروايات مصدرها هو الحسن البصري عن أبى بكرة عن الرسول عليه السلام. ففي رواية البخاري فإن الرواة هم: عبدالله بن محمد عن يحيى بن آدم عن حسين الجعفي عن الحسن البصري عن أبي بكرة عن الرسول عليه السلام.

وفي رواية أبى داود هم: مسدد ومسلم عن حماد عن على عن الحسن البصري عن أبى بكرة عن الرسول عليه السلام.

والمشكلة هو أن أبا بكرة توفى عام ٥٢هـ في حين أن الصلح بين الحسن ومعاوية كان في ٤٠هـ. وهنا المشكلة إذ إن المنطق يقول إن هذا الحديث يجب أن ينتشر بين المسلمين كالنار في الحطب ومن صحابة مختلفين ولكن الذي حدث أن انتشار هذا الحديث جاء من الحسن البصري فقط عن أبى بكرة.

وكذلك فإن مرتبة الحسن البصري في الرواية عند ابن حجر (أحد المحققين) هو: ثقة فقيه فاضل مشهور وكان يرسل كثيرا ويدلس. والإرسال هو أن تسمع القصة من زيد عن المصدر فتقول قال المصدر دون أن تذكر زيداً. والتدليس له تعريفات مختلفة وأبسطها هو خلط القصص في قصة واحدة فعندما تسمع قصة من زيد وعمرو وجرير فتقوم بخلط القصة دون أن تحدد بالضبط من قال ماذا. والإرسال والتدليس لا تجرح عدالة الشخص ولكنها قد تجرح السند.

واعتمادا على ما سبق فإن حديث المصالحة عليه التالي:

١- الحديث يخالف مفهوم آية البغي.

٢- الحديث يخالف المنطق في قاعدة أبي حنيفة.

انتبه هنا... المؤلف لا يقوم بتكذيب الحسن البصري ولا أبى بكرة (نفيع بن الحارث الثقفي). وعدم التصديق لا يعني التكذيب فقد روى عمار بن ياسر حديث التيمم ولم يقتنع به عمر بن الخطاب وهذا لا يعني أن عمر بن الخطاب قد قام بتكذيب عمار بن ياسر. وكذلك ذكرت فاطمة بنت قيس خبرا عن الرسول عليه السلام فقال عمر بن الخطاب "لا نترك كتاب الله وسنة نبينا صلى الله عليه وسلم لقول امرأة لا ندري لعلها حفظت أو نسيت" رواه مسلم. فعمر بن الخطاب لم يقم بتكذيب فاطمة ولكنه كذلك لم يصدقها.

فالمؤلف لا يقوم بالتكذيب وإنما هناك استشارات استفهام تجاه حديث المصالحة مما يتطلب دراسة هذا الحديث بتعمق أكبر.

وعلى غلبة الظن فإن سيدنا الحسن بن علي لم يخالف الحكم الشرعي في الآية ولكنه ترك الأولى، إذ إن هناك مدرستين في الأصول الشرعية أولهما أن الطلب (افعل كذا ولا تفعل كذا) هو للجزم ما لم تظهر قرينة تدل على أن الطلب غير جازم، والمدرسة الثانية أن الطلب غير جازم ما لم ترد قرينة تدل على أنه جازم. والمؤلف مع المدرسة الثانية، فقول الله تعالى: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [الجمعة]، فإن الانتشار كان طلبا غير جازم وهو هنا للتخيير. وعلى غلبة ظن المؤلف فإن آية البغي هي توجيه ولهذا فما فعله الحسن ليس مخالفا ولكنه بالتأكيد قد قام بترك الأولى. وكانت عواقب ترك هذا الأولى قاسية جدا على ذرية الحسن وذرية الحسين عليهما السلام وعلى المسلمين عامة. ولو أن معركة كربلاء قد حدثت بين الحسن ومعاوية لما استطاع معاوية أن يبقى في مكانه يومين، إذ إن المسلمين وقتها قد كانوا على درجة عالية من الحمية والإباء ولكن كربلاء حدثت بعد ذلك بعشرين سنة وكان لمعاوية الوقت الكافي لاستخدام تكتيكات سلامي وسلق الضفدعة مع المسلمين وأن يشتري الذمم وأن يمد جذور ملكه إلى الأرض.

* عندما قرر سيدنا الحسين بن علي بن أبي طالب الثورة على طغيان يزيد بن معاوية نصحه عبد الله بن عباس بالتوجه إلى اليمن حيث إن له فيها شيعة. ولكن الحسين قد وجد في العراق القوة والعدد وقرر الذهاب إلى هناك وهذا خطأ استراتيجي. وضمن نظرة التاريخ فإن أهل العراق وقتها كانوا صداعا حقيقيا للولاة السابقين ولوالده علي بن أبي طالب ولأخيه الحسن. فكان الأولى ألا يثق بهم. وكانت نصيحة ابن عباس هي الأولى وعلى غلبة تخمين المؤلف فإن الحسين لو ذهب إلى اليمن فإن ليزيد الحماقة الكافية أن يبعث بأفضل جنوده إلى اليمن. وشعاب اليمن ليست سهلة لأعدائها.

وقد يتم اتهام المؤلف أنه تجرأ على الصحابة الكرام. وقد يكون هذا الاتهام صادقا. ولكن المؤلف لم يتجرأ على الهوى والارتجال وإنما وضع وجهة النظر بناءً على

منهج ومقاييس واضحة. وللمؤلف سابقة يحتج بها وهي قصة صلاة الرسول عليه السلام مع عبد الله بن أبي بن سلول: "فلما أراد أن يصلي عليه جذبه عمر رضي الله عنه فقال أليس الله نهاك أن تصلي على المنافقين؟ فقال أنا بين خيرتين قال (استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم). فصلى عليه فنزلت (ولا تصل على أحد منهم مات أبدا). رواه البخاري. فجرأة عمر بن الخطاب على الرسول عليه السلام لم تكن على الهوى والارتجال وإنما جاءت بناءً على منهج ومقاييس واضحة. بالإضافة إلى ذلك فإن الصحابة قد تعرضوا إلى مواقف جديدة لم يخبروها من قبل وخاضوا تجربتها وأخذوا القرارات فيها وظهرت بعدها نتائج وعواقب هذه القرارات. ولهذا فإنه من السهل لمن يأتي بعد الصحابة أن يقارن المواقف التي تم اتخاذها مع هذه النتائج لاستخلاص العبر والدروس. وقد قيل إن الأقزام فوق أكتاف العمالقة ينظرون أبعد منهم.

❖ نظرات واقعية

كما تم تبيانه من قبل فإن الزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله هم من أصحاب الكارت الأخضر وأما معاوية فهو ليس من أصحاب الكارت الأخضر. وهذا معناه أنه لا توجد مقارنة بين الفتنة التي حدثت بين الزبير وعلي والفتنة التي حدثت بين معاوية وعلي. فالظاهر الحسن من أعمال الزبير وطلحة له نظرة الحسن والظاهر غير الحسن من أعمالهم له نظرة التبرير وحسن النية. وأما المسلمون الذين ليسوا من أصحاب الكارت الأخضر فإن الظاهر الحسن من أعمالهم له نظرة الحسن والظاهر الشر من أعمالهم له نظرة السوء والاتهام.

والظاهر من أعمال معاوية هو ما يلي:

* قام برفض أوامر الخليفة الشرعي.
* قام بالتمرد على أوامر الخليفة الشرعي.
* قام بشحن الناس ضد الخلافة.

* قام بحشد الجيوش ضد الخلافة.

* رفع السيف في وجه الخلافة.

* كان أول أمير يقوم بالتأويل السيئ للنصوص الشرعية (وهو حديث قتل الفئة الباغية لعمار).

* تسبب بمقتلة كبيرة بين المسلمين في صفين.

* قام (وبمساعدة عمرو بن العاص) بخلع الخليفة مكرا.

* قام بادّعاء الخلافة

* قام بإرسال الغارات على ثغور الخلافة وتسبب بمقتل بعض المسلمين فيها.

* قام بإلحاق زياد بن أبيه.

* قام بإعدام حجر بن عدي الكندي وستة من أصحابه دون حق. وحجر كان ضمن وفد كندة الذي قدم إلى المدينة وبايع الرسول عليه السلام. وكانت شهادة الناس عن حجر بن عدي أنه صوام قوام وكان ذنبه هو معاندته للوالي (زياد بن أبيه) ومطالبته بحقوق الناس. ومهما كان الإزعاج في تصرفات حجر بن عدي فإن هذا لا يعطي لمعاوية أي حق في إعدامه. وكما كان هابيل أول رجل يتم قتله ظلما في تاريخ البشرية فإن حجر وأصحابه كانوا أول رجال تم إعدامهم ظلما في تاريخ الإسلام .

* نقض العهد بينه وبين الحسن. فقد كان الاتفاق أن يكون الحسن بعد معاوية، فإن مات الحسن تكون الخلافة شورى بين المسلمين.

* قام بفرض ابنه يزيد على المسلمين. ولهذا فهو أول من سن النظام الملكي في العالم الإسلامي.

وهناك من يضع الأعذار لمعاوية وحسن النية ولكن المطالبة بدم عثمان لا تبرر شحن الناس وحشد الجيوش من أطراف بلاد الشام ضد الخلافة. وكذلك فإن قتل

حجر بن عدي وأصحابه لا يوجد له أي عذر بأي حال من الأحوال. وما حدث لحجر هو جريمة قتل آثمة إذ لم يقم حجر بأي عمل يستدعي إعدامه.

وبالنسبة إلى المؤلف فإن الظاهر في جميع الأعمال السابقة أنها كبيرة في حق علي بن أبي طالب وحق الإسلام والمسلمين. وللمؤلف حجة في اتهام معاوية وهو قول الرسول عليه السلام: "ويح عمار تقتله الفئة الباغية يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار"رواه البخاري في الصلاة.

وكان رد معاوية : "فقام عمرو بن العاص فزعا يُرَجِّعُ حتى دخل على معاوية فقال له معاوية: ما شأنك قال: قتل عمَّار فقال معاوية: قد قتل عمار، فماذا قال عمرو سمعت رسول الله ﷺ يقول: "تقتله الفئة الباغية" فقال له معاوية دُحضت في بولك أو نحن قتلناه إنما قتله علي وأصحابه جاءوا به حتى ألقوه بين رماحنا أو قال بين سيوفنا" رواه أحمد.

وهناك حجة أخرى في اتهام معاوية وهو حديث غدير خم:

"حدثنا عبد الله حدثني أبي حدثنا حسين بن محمد وأبو نعيم المعنى قالا: حدثنا فطر عن أبي الطفيل قال: جمع علي رضي الله تعالى عنه الناس في الرحبة ثم قال لهم أنشد الله كل امرئ مسلم سمع رسول الله ﷺ يقول يوم غدير خم ما سمع لما قام فقام ثلاثون من الناس - وقال أبو نعيم فقام ناس كثير - فشهدوا حين أخذ بيده فقال للناس أتعلمون أني أولى بالمؤمنين من أنفسهم قالوا نعم يا رسول الله قال من كنت مولاه فهذا مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه قال فخرجت وكأن في نفسي شيئا فلقيت زيد بن أرقم فقلت له إني سمعت عليا رضي الله تعالى عنه يقول كذا وكذا قال فما تنكر قد سمعت رسول الله ﷺ يقول ذلك له" رواه أحمد.

ولهذا فلا يوجد شك عند المؤلف في خطورة أعمال معاوية. ولكن السؤال هنا هو: هل من الحكمة القيام بلعنه على المنابر؟؟

المؤلف على اقتناع بأن ما فعله معاوية هو كبيرة في حق الإسلام والمسلمين بالضبط كما أن المؤلف على اقتناع بأن ما فعله جمال عبد الناصر هو كبيرة في حق الإسلام والمسلمين. ولكن المؤلف لا يقوم باللعنة على عبد الناصر وذلك لوجود الكثير من الناس ممن يحب عبد الناصر وهؤلاء هم أناس عاديون ليس لهم علاقة بالسياسة أو الأحزاب.

وأحد الطباع الموجودة في البشرية هو عشق القوة والنجاح. وهذه صفة غريزية وموجودة في كثير من أفراد المجتمع. ولهذا السبب فكثير من الناس عندما يطالعون تاريخ عبد الناصر فإنهم ينظرون إليه باعجاب خفي. وهذه الصفة لاحظها المؤلف عند الكثير من الناس وهي ليست نفاقا منهم.

وما لاحظه المؤلف كذلك أنه يستطيع أن يصف أعمال وتصرفات عبد الناصر بأنها اعتداءات في حق الإسلام والمسلمين، وهذا لا يسبب أي مشكلة كبيرة. ولكن تبدأ الضغينة والضيق في اللحظة التي يقوم فيها المؤلف بشتم عبد الناصر ولعنه. فالملاحظة كانت أن اتهام عبد الناصر بالاعتداء ليس فيه مشكلة كبيرة ولكن القيام بشتمه ستسبب شق الصفوف وهو أمر ليس له داعٍ.

وكذلك فإن هناك الكثير من المسلمين من ينظر بإعجاب لمعاوية (بسبب العشق للقوة والنجاح) وهؤلاء ليسوا منافقين. ونظرة المؤلف أنه ليس من الحكمة شق الصفوف من أجل اللعنة أو الشتيمة، فتوضيح المواقف ونظرات الاتهام لا تحتاج للشتائم واللعنات.

وهناك حجة للمؤلف في ذلك وهو قول الرسول عليه السلام: "يأتيكم عكرمة بن أبي جهل مؤمنا مهاجرا فلا تسبوا أباه فإن سب الميت يؤذي الحي ولا يبلغ الميت" رواه مالك في الموطأ.

وهناك نقطة أخرى جديرة بالانتباه:

سابقا عندما كان المؤلف يقرأ قصص العرب ويقرأ عن أفعال معاوية ويزيد وعبيد الله بن زياد ومروان بن الحكم وعبد الملك والوليد وهشام والحجاج بن

يوسف فقد كان القلب يكاد يخرج من شدة الغيظ. ولكن بعدها تم الانتباه إلى موضوع الديناميكية في المجتمعات واتضحت للمؤلف أمور كثيرة.

وإذا نظر القارئ إلى التاريخ نظرة شمولية فسيجد أن الأقدار قد انتقمت شر انتقام لكربلاء وموقعة الحرة ومقتل زيد بن علي. فشدة الظلم الذي قام به بنو أمية قد وصل إلى حد الانفجار في الأمة وكانت النتيجة انتقامًا ما كان ليرضاه الرسول عليه السلام ولا الصحابة ولا الكرام من الناس.

وهناك ميزة يجب أن نذكرها لبني أمية: فمع شدة ظلمهم للأمة فقد كان قتلهم رحيما. فهم إن غضبوا على الشخص قاموا بقطع عنقه وانتهى. وكذلك لم يقوموا بإعدام الأطفال والقصر وإنما إعدامهم كان للبالغين. ولكن ما فعله بنو العباس كان أشد ظلما وقد خرجت أعمالهم تماما عن دائرة المنطق والمعقول. فقد قاموا بملاحقة جميع الرجال والأطفال الذكور من بني أمية في المدن والقرى والبيوت وقتلهم واحدا تلو الآخر. وفي حين كان بنو أمية سريعين في القتل فقد كان بنو العباس أشد ظلما فقد تلذذوا بالقتل والتعذيب، والقصة مشهورة عندما كان بعض رجال بني أمية عند أبي العباس السفاح فأنشده أحد الناس القصيدة التي مطلعها:

أصبح الملك ثابت الأساس ... بالبهاليل من بني العباس

وكان منها قوله:

لا تقيلن عبد شمس عثارا ... واقطعن كل رقلة وغراس

ولقد ساءني وساء سوائي ... قربهم من منابر وكراسي

فاذكروا مصرع الحسين ... وزيد وقتيلا بجانب المهراس

والقتيل الذي بحران أضحى ... رهن رمس وغربة وتناسي

فقام بنو العباس بضرب بني أمية بالسياط ثم وضعوا بساط الطعام فوقهم وأكل الناس وهم يتلذذون بآهات بني أمية. وقد كانت لعنة ثم لعنة ثم ألف لعنة

ذلك اليوم الذي يضطر فيه عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز إلى الركوع على ركبتيه باكيا يتوسل الرحمة من الضرب والموت، وقام بنو العباس بإطلاقه بعد تردد.

وهذا الانتقام ما كان ليرضاه الرسول عليه السلام ولا الصحابة. ولو كان بنو أمية رجالا غير مسلمين لكان من الممكن القول إن ما فعله بنو العباس هو تصفية حسابات. ولكن بنى أمية كانوا مسلمين وينطبق على الباغين منهم أحكام البغاة وينطبق على الظالمين والمجرمين منهم أحكام القضاء ولا يجوز أبدا التعرض لشخص لم يكن باغيا ولا ظالما ولا مجرما. فما فعله بنو العباس كان إجراما حقيقيا.

والذي حدث أن مستوى الأخلاق في الدولة الإسلامية قد بدأ يتساقط وباطّراد. فقد بدأ بنو أمية بالإعدام دون حق ولكن لم يقوموا بالتعذيب ولا بإعدام الأطفال والقصر ولم يتعرضوا للنساء. أما بنو العباس فقد قاموا بأعمال بني أمية وزادوا فيها التعذيب والتلذذ في القتل وإعدام القصر ولكن لم يتعرضوا للنساء. وجاءت بعدهم أجيال قاموا بانتهاك جميع الحرمات.

والذي لا يذكره التاريخ جيدا أن هناك ملحمة أخرى تساوي ملحمة كربلاء ومقتلة زيد وهي ملحمة محمد النفس الزكية بينه وبين أبي جعفر المنصور والتي تسببت بمقتل النفس الزكية ومقتل أخيه وإعدام الكثير من أقاربه في سجن المنصور ومنهم والده عبد الله بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن على بن أبي طالب.

والفرق بين ملوك بني العباس وبني أمية أن بني العباس كانوا أشد ظلما إذا غضبوا وأكثر عدلا في الصفاء. ولكن الأقدار لم تنس كذلك جرائم بني العباس فما هو إلا زمن قليل حتى أصبح أحفاد أبي جعفر المنصور ألعوبة ودمى في أيدي الجيش وقد قال الشاعر وقتها:

خليفة في قفص ... بين وصيف وبغا
يقول ما قيل له ... كما يقول الببغا

ثم جاءت مذابح المغول والتي قامت بتدمير بغداد من جذورها. وإذا نظر القارئ إلى تاريخ بغداد فإن هناك فجوة حقيقية في التاريخ بين بغداد قبل المغول وبين بغداد الحديثة. فبغداد كمدينة لم يرجع إليها الصيت بعد ضربة المغول إلا في العصر الحديث.

النقطة التي يريد المؤلف أن يشرحها هنا أن الأقدار قد انتقمت لكربلاء وموقعة الحرة ومقتلة زيد ومقتلة محمد النفس الزكية وموقعة فخ. ومن يشعر بالغيظ الشديد لأعمال يزيد بن معاوية وعبد الملك فليتذكر أن أحفادهم قد ماتوا ضربا بالسياط وهو انتقام ما كان ليرضاه الرسول عليه السلام ولا الصحابة، ولكن الأقدار إذا حكمت فإنها لا تستأذن أحدا.

ومن المناسب هنا الانتباه لبعض تقلبات الأقدار: ففي بداية القرن العشرين كان آل عائض يحكمون عسيرًا. و إلى الجنوب الغربي من عسير كانت جيزان وكان يحكمها الإدريسي وهو من بني هاشم. و إلى الشمال من عسير كانت الحجاز وكان يحكمها الأشراف وهم كذلك من بني هاشم. و إلى الشرق من عسير كانت نجد وكان يحكمها آل سعود. وأما آل سعود فقد كان لهم علاقة واضحة والتزامات مع الإنجليز. وأما الأشراف فقد تحالفوا مع الإنجليز لضرب الخلافة العثمانية، وأما الإدريسي فقد كان تابعا للطليان وعندما وجد أن الذهب الإنجليزي أثقل تبعهم. وأما آل عائض فقد بقوا على الولاء للخلافة ورفضوا التعامل مع الطليان والإنجليز حتى قام فيصل بن عبد العزيز وجيشه بمحاصرة أبها عاصمة عسير عام ١٩٢١. وآل عائض هم أحفاد خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان. وقد نفذ أبوهم بجلده من بني العباس ولجأ إلى أخواله في عسير عام ١٣٣هـ. فهل هذه هي إحدى سخريات القدر؟!

ونظرة المؤلف هنا أنه من الضروري القيام بقراءة التاريخ الإسلامي وخصوصا تاريخ الفتنة ولكن ببرودة الأعصاب وهدوء النفس. والسبب هو أنه إذا قامت

الخلافة الثانية فستكون المصيبة كل المصيبة إذا استطاع معاوية آخر جديد الاستحواذ على السلطة المطلقة. وهنا القيمة الحقيقية من قراءة هذا التاريخ، لأن الإدراك الحقيقي لما حدث في الفتنة سيقوم بترسيخ مفاهيم واضحة في الوجدان عن خطورة التنازل عن الحق وخطورة السماح لمعاوية آخر جديد بأخذ السلطة المطلقة، لأن الذي سيحدث بعدها هو نفسه الذي حدث للمسلمين بعد ثلاثين سنة من وفاة الرسول عليه السلام. وهنا تأتي الضرورة الحقيقية للتعمق في هذا التاريخ ولكن ببرودة الأعصاب.

أما إذا رغب إخوتنا الشيعة بالاستمرار في لطم وجوههم وضرب صدورهم وخدش سواعدهم في ذكرى كربلاء فياحبذا لو يقوم إخوتنا الشيعة باختيار يوم آخر لذكرى وقعة الحرة. فذلك اليوم هو اليوم الذي تعرض فيه الأنصار إلى مذبحة وتمت استباحة المدينة المنورة ثلاثة أيام. وللذكرى فهناك حديث طويل للرسول عليه السلام في كنز العمال للهندي:

"... ولو شئتم لقلتم فصدقتم: ألم نجدك طريدا فآويناك ومكذبا فصدقناك وعائلا فآسيناك وخذولا فنصرناك؟ فجعلوا يبكون ويقولون الله ورسوله أمن وأفضل ثم قال أوجدتم من شيء من دنيا أعطيتها قوما أتألفهم على الإسلام ووكلتكم إلى إسلامكم؟ لو سلك الناس واديا أو شعبا لسلكت واديكم وشعبكم ..."

ألا يستحق هؤلاء الرجال الذين قام الإسلام على أكتافهم ثم بعد أن دانت الأرض للإسلام تأتي الأقدار بأحكامها وتقوم الدولة بقتالهم وقتلهم واستباحة مدينتهم. ألا يستحق هؤلاء الرجال أن يقوم إخوتنا الشيعة باختيار يوم لذكراهم كما يذكرون كربلاء؟؟

وياحبذا كذلك أن يقوم إخوتنا الشيعة في العراق باختيار يوم ثالث لذكرى الإمام زيد فقد خذله أهل العراق كما خذلوا جده من قبل. وكذلك يوم رابع لمحمد النفس الزكية ويوم آخر لأخيه إبراهيم بن عبد الله الذي تم قتله في العراق. وإذا نظر إخوتنا الشيعة إلى الويلات والمآسي التي حدثت للمسلمين فإن ٣٦٥ يوما في السنة لن تكون كافية.

الدعوة هنا من المؤلف إلى إخوتنا الشيعة الجعفرية .... كفاية.

ويوجد هنا نقطة فرعية لها مغزى وهي موضوع هارون الرشيد:

هناك من يصف هارون الرشيد بأنه سادس الخلفاء الراشدين وأنه كان يغزو عاما ويحج عاما. على أية حال فإن هناك أمورًا مبهمة وغامضة كثيرة في تاريخ هذا الرجل. ولكن هناك أمرين ثابتين واضحين عليه أولهما أن أول عمل قام به بعد توليه الخلافة أنه أمر بإعدام أبي عصمة القائد (أحد وزراء أخيه الهادي) لمناكفة حدثت بينهما سابقا. ومهما كانت هذه المناكفة فلا يوجد أي عذر شرعي يسمح لهارون بإعدام أبي عصمة. والأمر الثاني هو إعدام جعفر البرمكي دون حق. وقد قيل إن جعفر البرمكي زنديق ولكن الزنديق لا يتم إعدامه دون استبيان واستتابة. وضمن أحكام الشرع فلا يجوز أبدا قتل المسلم أو المعاهد إلا بالحق.

وهذان الأمران (إعدام أبى عصمة وجعفر) هما جريمتان واضحتان في عنق هارون الرشيد.

ويجب هنا التنبيه لأمر جوهري:

عندما يقوم الفقير الضعيف بالجريمة فمن الطبيعي أن يقوم المسلمون باتهامه بالسوء ومعاقبته. ولكن عندما يقوم السيد أو الحاكم أو الملك بالجريمة ويقوم المسلمون (لإعجابهم بإنجازاته وحبهم لذكراه) بالتغاضي عن هذه الجريمة، فما هو الفرق بيننا نحن المسلمين وبين بني إسرائيل؟؟؟

وهنا دعوة من المؤلف إلى تحري الصدق والأمانة عند النظر إلى التاريخ. وليس من الصدق والأمانة الكيل بمكيالين. فإن ثبت أن هارون الرشيد قد قام بإعدام أبي عصمة القائد ظلما فإن الأمانة تقتضي استنكار هذه الجريمة وعدم غض الطرف عنها.

وهنا نقطة فرعية أخرى متعلقة بمعاوية أنه من كتبة الوحي. وهنا يجب الانتباه إلى ما يلي:

كان عبد الله بن أبي السرح أحد كتبة الوحي ولكنه ارتد وهرب إلى مكة. وفي فتح مكة كان هو أحد الذين طلب الرسول عليه السلام قتلهم وإن كانوا متعلقين بأستار الكعبة. ولكن جاء به عثمان بن عفان يستشفع له عند الرسول. وسكت الرسول مليا ثم عفا عنه ولكن الرسول بعد ذهاب عبد الله بن أبي السرح قال لأصحابه: "أما كان فيكم رجل رشيد يقوم إلى هذا حيث رآني كففت يدي عن بيعته فيقتله فقالوا: ما ندري يا رسول الله ما في نفسك ألا أومأت إلينا بعينك قال لا ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين" رواه أبو داوود.

انتبه الآن... إن غزوة بدر قد شفعت لحاطب ابن أبي بلتعة ولكن كتابة الوحي لم تشفع لعبد الله بن أبي السرح وإنما الذي شفع له هو عثمان بن عفان. والعبرة هنا أن غزوة بدر تشفع لأصحابها إن هم أخطأوا ولكن كتابة الوحي لا تشفع لأصحابها إن هم أخطأوا.

❖ لماذا لم يقم الرسول عليه السلام بوضع نظام استخلاف؟

هذه ملاحظة حقيقية وهذا ما يذكره الكثير من المستشرقين. فهم يقولون إن محمدا (رسول الله) قد أخطأ بعدم الاستخلاف وتسبب هذا الخطأ بمشكلة أهلية بعد وفاته ثم ليتسبب هذا الأمر لاحقا إلى حرب أهلية بين المسلمين. وهذا كذلك ما ينتقده علماء التاريخ للإسكندر المقدوني وأتيلا وذلك لأنهما لم يقوما بالاستخلاف لأحد من بعدهما وتسبب هذا الأمر بحروب أهلية بعد وفاتهما.

وملاحظات المستشرقين دقيقة وذكية ويتفق المؤلف مع علماء التاريخ في موضوع الإسكندر وأتيلا ولكن بالنسبة إلى محمد (رسول الله) فالأمر مختلف. فللمستشرقين نظرة ذكية لكنها تعتمد على عدم إيمانهم أن محمدا هو رسول الله. ولكن نظرة المؤلف هو أن محمدا هو رسول الله وعليه فيجب أن تختلف نظرة المؤلف عن نظرة المستشرقين. فالمؤلف يعترف تماما أن نظرة المستشرقين هي نظرة ذكية ولكنها اعتمدت على قاعدة مختلفة تماما عن عقيدة المسلمين وهي التسليم والإيمان بأن محمدا هو عبد الله ورسوله وأنه لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى.

وهذا معناه أن المؤلف يتفق مع المستشرقين في جزء من نظرتهم العقلية وهي أن محمدا (رسول الله) لم يستخلف وأن هذا قد تسبب بمشاكل لاحقة، ويختلف معهم في أن هذا الفعل كان خطئا منه.

وإذا نظرنا نظرة عقلية مجردة للأمور فسنجد أن هناك ثلاثة احتمالات وهي:

١- محمد (رسول الله) قد أخطأ بعدم الاستخلاف. وهذا هو رأي المستشرقين وهو يخالف عقيدة المسلمين أن رسول الله لا ينطق عن الهوى.

٢- لقد قام الرسول عليه السلام بالاستخلاف ولكن المسلمين قد عصوا أمره ورفضوا خليفته. وهذا معناه اتهام كبار الصحابة من الأنصار والمهاجرين بالكفر والفسوق والعصيان. وهو أمر قد تم نقاشه سابقا ولا يوافق عليه المؤلف.

٣- محمد (رسول الله) قد تعمد ألا يستخلف.

وموقف المؤلف هو الأمر الثالث وهو أن الرسول عليه السلام تعمد ألا يستخلف وأن هذا التعمد هو أمر من الله وليس من نفسه.

ولكن إذا انتبه القارئ فإن المشكلة ليست في الاستخلاف وإنما الأمر أعمق من ذلك. فإن الإسلام قد وضع أنظمة لأمور كثيرة من كيفية الدخول إلى بيت الخلاء وكيفية الاستنجاء إلى نظام العقوبات والنظام الاقتصادي للدولة. ولكن لا يوجد نظام واضح في الاستخلاف كما لا يوجد نظام تفصيلي للحكم وهو أهم نظام لأي دولة. والمقصود بنظام تفصيلي للحكم هو القواعد والآليات التي تحدد بوضوح علاقة الحاكم والمحكوم وكيفية التعامل مع الحاكم وكيفية محاسبة الحاكم وآليات صناعة القرار السياسي وآليات تجديد وتبديل القيادات السياسية في الدولة. وهذا التفصيل غير موجود في الإسلام . وبالطبع يوجد هناك خطوط عريضة ونصوص إرشادية ولكن لا يوجد تفصيل واضح لها كالتفصيلات الأخرى في الإسلام .

بالطبع فإن عدم وجود نظام حكم تفصيلي في الإسلام لا يعني أن الإسلام ناقص وإنما الإسلام كامل. والمعنى من كلمة كامل هو أن الله قد أنزل في الكتاب

الأحكام الشرعية الكاملة المتعلقة بأفعال العباد من حيث كونها فرضا أو مستحبا أو مباحا أو مكروها أو حراما.

ولكن أمور الفرض محدودة وأمور الحرام محدودة وبينهما مسافة ضخمة وهي الحلال. وفي هذا الحلال توجد أنظمة الإدارة والجودة وقواعد التحليل السياسي ومبادئ الاستراتيجية وغيرها. وهذا كله قد استطاع الإنسان التوصل إليه بسبب الانتباه لنجاحات وفشل الآخرين ومن تجربة الخطأ والصواب.

وهنا يجب الانتباه لقول الله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ﴾ [البقرة]. وهذا معناه أن القرآن فيه هدى ولكن ليس كل الهدى محصورًا في القرآن. فالقرآن هو الكتاب المهيمن على جميع الكتب وأحكام الله فوق جميع الأحكام وهي كاملة من حيث الحلال والحرام ولكن القرآن ليس فيه كل الهدى. فالطالب الذي يريد ممارسة الطب بحاجة إلى قراءة مراجع علوم الطب ولن يستطيع أن يمارس الطب بقراءة القرآن. كما أن الرجل الذي يريد المهارات الاستراتيجية فعليه قراءة كتب التاريخ ولن يستطيع أن يتعلم فن الاستراتيجية من قراءة القرآن فقط.

وهنا نعود إلى السؤال السابق. لماذا لم يقم الإسلام بوضع نظام تفصيلي للحكم يحدد فيه آلية الاستخلاف؟

وهناك جواب وهو أن أنظمة الحكم هي من أكثر الأنظمة تعقيدا، وهي تعتمد تماما على ظروف الدولة. ونظام حكم القبيلة ليس مناسبًا للمدينة كما أن نظام حكم المدينة ليس مناسبًا للقبيلة. كما أن نظام القبيلة هو أبسط من نظام حكم المدينة والذي هو أبسط من نظام حكم الدولة والذي هو أبسط بكثير من نظام حكم الإمبراطورية مترامية الأطراف ومتعددة الألسن والثقافات. ولهذا فإن الإسلام لم يقم بوضع نظام تفصيلي للحكم بسبب تعقيدات هذا النظام.

وبالطبع فإن هناك اعتراضًا على التحليل السابق وهو أن الله لا يعجزه شيء وأن القرآن نفسه هو كتاب معجز وأن الله لا يعجزه أن يقوم بوضع نظام حكم تفصيلي وكافٍ في كتابه الكريم.

وهذا طبعا كلام صحيح. فالله لا يعجزه وضع نظام حكم مفصل وكافٍ في القرآن الكريم ولكن ما هو المقابل؟

وهذا هو لب الموضوع، فهناك أمران واضحان ثابتان عند النظر إلى الديانات السماوية وديناميكية المجتمعات:

السماء لا تقدم الهدى مجانا. وبالعامي: "مافيش هداية ببلاش".

الأقدار ستبقى تمكر بالمجتمعات وتمتحنها بالفتن.

دعونا ندخل إلى التفاصيل:

❖ لا توجد هداية دون مقابل:

إن التوراة كانت هدى ورحمة لبني إسرائيل فقد قال الله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗاۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٤٤ ﴾ [المائدة].

ولكن مستوى الهداية التي تم إعطاؤها لليهود كانت أقل بكثير من مستوى الهداية التي أعطيت للمسلمين. وفي المقابل فإن مستوى العبادات التي فُرضت على اليهود هي أقل بكثير من مستوى العبادات التي فُرضت على المسلمين. فالصلاة عند اليهود هي ثلاث مرات في اليوم وقوفا أو جلوسا وهي عبارة عن أدعية. أما عند المسلمين فهي خمس صلوات في اليوم. وكذلك فرضت التوراة يومًا واحدًا للصيام وهو صيام يوم الغفران (عاشوراء). وأما المسلمين فالصيام عندهم يمتد لشهر كامل.

وتبدأ الحكاية عند المسلمين في الإسراء والمعراج عندما فرض الله على المسلمين ٥٠ صلاة في اليوم والليلة. وضمن غلبة تخمين المؤلف فإن الهداية التي قدمها الله للمسلمين تكافئ الـ ٥٠ صلاة. وبسبب جهود موسى عليه السلام فقد استطاع الرسول عليه السلام تخفيض الـ ٥٠ صلاة إلى خمسة. ولكن هناك أمورًا كثيرة قامت

بتعويض الـ ٤٥ صلاة: مثل صيام رمضان والحج وتحريم الخمر والقمار وتحريم الذهب والحرير على الرجال وأمور أخرى يغلب على تخمين المؤلف أنها لتعويض الـ ٤٥ صلاة.

وإذا انتبه القارئ فإن أحكام سيدنا نوح عليه السلام كانت أخف بمراحل كبيرة من أحكام التوراة. فحسب أخبار اليهود فإنه عندما نجا نوح عليه السلام من الطوفان واستقر على الأرض أوصاهم بسبعة قوانين فقط (Noahide Laws) وهي تحريم عبادة الأوثان وتحريم القتل وتحريم السرقة وتحريم الزنا وتحريم التجديف بإسم الله وتحريم القسوة على الحيوانات وإقامة العدل بين الناس.

ولكن النجاة والأمان اللذين قدمهما الله لبني إسرائيل والهداية التي وهبها الله تعالى لهم كان لها مقابل وهي العبادات والأحكام الموجودة في التوراة.

وهنا نرجع مرة أخرى إلى السؤال السابق: ماذا كان سيكون المقابل لقيام الله تعالى بوضع نظام تفصيلي كامل لنظام الحكم وحل المعضلة الكبرى في تاريخ الحضارات البشرية كلها؟

والسؤال السابق ليس مجازا وبلاغة، فنظام الحكم هو المعضلة الكبرى في تاريخ الحضارات السابقة والحالية. وجميع إنجازات الحضارات السابقة كانت تعود إلى طبيعة نظام الحكم، وانهيار هذه الحضارات كانت بسبب أخطاء وخلل في هذا النظام. فما هو المقابل لقيام الله عز وجل بحل هذه المعضلة الكبرى للمسلمين؟

والجواب على غلبة التخمين هو أضعاف أضعاف الخمسين صلاة في اليوم والليلة.

ولهذا السبب فإن غلبة ظن المؤلف أن الإسلام قد وضع الكثير من الأنظمة ووضع الكثير من نصوص الإرشادات بما يكافئ العبادات التي فرضها الله على المسلمين. وأما نظام الحكم فقد تركه الله ورسوله لعقول المسلمين. وبالطبع فهناك إرشادات في النصوص عن أنظمة الحكم وهي إرشادات قد نبه لها المؤلف في كتاب

سابق (فلسفات الحكم والدستور) ولكن هذه النصوص تبقى إرشادية وليست تفصيلية.

وهذا هو السبب (ضمن وجهة نظر المؤلف) في تعمد الرسول عليه السلام لعدم الإشارة الصريحة أو التوصية لأحد بخلافته.

وهناك حديث شريف رواه أحمد:

" ... قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ثم تكون خلافة على منهاج النبوة فتكون ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ثم تكون ملكا عاضًا فيكون ما شاء الله أن يكون ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ثم تكون ملكا جبريًا فتكون ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ثم تكون خلافة على منهاج النبوة ثم سكت قال حبيب فلما قام عمر بن عبد العزيز وكان يزيد بن النعمان بن بشير في صحابته فكتبت إليه بهذا الحديث أذكره إياه فقلت له إني أرجو أن يكون أمير المؤمنين يعني عمر بعد الملك العاض والجبرية فأدخل كتابي على عمر بن عبد العزيز فسر به وأعجبه" رواه أحمد في مسند الكوفيين من حديث حذيفة بن اليمان.

وسكت الرسول عليه السلام بعد الخلافة الثانية وهذا معناه (ضمن وجهة نظر المؤلف) أن الخلافة الثانية ستبقى حتى مشارف يوم القيامة. وهذا معناه أن الحضارة الإسلامية الحقيقية لم تبدأ بعد. وكل الألف وأربعمائة سنة الماضية كانت تسخين (Warming Up) بالضبط كانفجار البركان والأعاصير. فالبركان يبدأ بفرقعة يتبعها هدوء ثم يبدأ الانفجار الحقيقي والأعاصير تبدأ بزوبعة يتبعها هدوء ثم تبدأ العاصفة. وكذلك الحضارة الإسلامية، وما سبق من تاريخ ما هو إلا دراسة وخبرات وتجارب الخطأ والصواب. وأما الحضارة الإسلامية الحقيقية فقد حان أوانها مع قيام دولة الخلافة الثانية.

❖ **الأقدار ستبقى تمكر بالمجتمعات وتمتحنها بالفتن:**

وهذا قانون ثابت في ديناميكية المجتمعات. فديناميكية المجتمع هي من تقوم برفع الحضارة إلى العلياء ولكنها في نفس الوقت تحمل بذور الانهيار. وهذا موضوع تم شرحه بالتفصيل في الكتاب السابق "أفكار منهجية في البحث والتحليل والإدارة". والطريقة الوحيدة لعلاج هذه المشكلة يكون بالانتباه وببرودة الأعصاب والجدية.

وللتذكير فإن ديناميكية المجتمع لها أسماء أخرى فهي عجلة التاريخ وهي لعبة الأقدار وهي كذلك سنة الله في الكون والطبيعة. وضمن وجهة نظر المؤلف فإن مكر الأقدار يكون من خلال ديناميكية المجتمعات. وقد قال الله تعالى: ﴿ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ [الأعراف]. والخسارة قد تحدث للمؤمن التقي الورع الكريم كما تحدث للظالم الفاسق الفاجر اللئيم. والذي يغلب على وجهة نظر المؤلف أن الصحابة الكرام قد خسروا الخلافة لأنهم أمنوا مكر الله، فقد كان عليهم أن ينظروا بحذر لمكر الله ويقوموا بخلق الأنظمة الكافية لتقويم أي اعوجاج يحدث.

وهنا نأتي للسؤال التالي: لماذا لم يقم الصحابة بالتفكير بجدية لعمل نظام للاستخلاف؟

والجواب ضمن غلبة ظن المؤلف أنهم ظنوا حُسن العاقبة وأن الله لن يُضيعهم. وهذا معناه أنهم أمنوا مكر الله.

وهناك آيات أخرى تتحدث عن الفتن:

قال الله تعالى: ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [العنكبوت].

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ ﴾ [محمد].

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةًۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾[الأنبياء].

وهنا نعود إلى التذكير بضرورة قراءة تاريخ الفتنة ببرودة الأعصاب وهدوء النفس، وذلك لأنه من الضروري ترسيخ العِبَر من هذا التاريخ في وجدان المسلمين. والعبرة واضحة: فأفضل الناس بعد الأنبياء هم الصحابة الكرام وأفضل مجتمع بعد الأنبياء هو مجتمع الصحابة. ومجتمع كمجتمع الصحابة بلا نظام حكم واضح سيكون عمره ثلاثين سنة فقط ثم ملكا وظلما وانتهاكا وقهرا بعد ذلك. ومن الضروري ترسيخ هذه الفكرة في الوجدان لأنه من الضروري ألا نعيد أخطاء الماضي.

على أية حال فإن النظرة إلى النصوص توحي بأن دولة الخلافة الثانية ستبقى منيعة إلى مشارف يوم القيامة. وذلك بسبب حديث حذيفة بن اليمان السابق ذكره وبسبب الحديثين التاليين:

قال رسول الله عليه السلام: " وإني لأنذركموه، وما من نبي إلا وقد أنذر قومه ولكني سأقول لكم فيه قولا لم يقله نبي لقومه إنه أعور وإن الله ليس بأعور" رواه البخاري في الفتن.

وقال رسول الله: " ما بين خلق آدم إلى قيام الساعة خلق أكبر من الدجال"رواه مسلم في الفتن.

والرجال الضِّعاف الذين يسقطون في الامتحانات الخفيفة لا تُعْرَضُ عليهم الامتحانات القاسية، لأنه في هذه الحالة لا يكون امتحانا لهم بل تعجيزا عليهم. وأما الامتحانات القاسية فهي لا تعرض إلا للرجال أولى العزم والبأس والشدة، وقمة الامتحان لا يتعرض لها إلاّ من اجتاز تلك الامتحانات القاسية. أمّا وأن يُبتلى المسلمون بالأعور الدجال فهذا يعني أنهم قد أثبتوا البلاء الحسن أمام الفتن السابقة وحان رَفْعُ درجة الامتحان لهم. وضمن إيحاءات النصوص فإن المسلمين سيثبتون أمام الدجال ثباتا حسنا ونزول عيسى عليه السلام ليس لإنقاذ المسلمين من الدجال وإنما للإمساك به وقتله.

❖ أفضلية الصحابة:

يوجد عند الشيعة الزيدية والشيعة الجعفرية رأي واضح بأن علي بن أبي طالب هو أفضل الصحابة. والمؤلف يتفق مع المعنى لهذا الرأي ولكن ليس مع اللفظ:

عندما تقول إن زيدا أطول من جرير فهذه عبارة واضحة وكاملة. ولكن عندما تقول إن زيدا أفضل من جرير فهذه عبارة ناقصة؛ وذلك لأنه لا يوجد وضوح لكلمة أفضل. ولهذا السبب فعندما تقول إن زيدا هو أفضل من جرير فإن السؤال الطبيعي لهذه العبارة هو: أفضل بماذا؟ هل هو الأفضل بالحساب أم بالتجويد أم بالكرم أم بالحدادة..إلخ.

وهنا نرجع إلى السؤال التالي: عندما نقول: إن عليا هو أفضل الصحابة فما هو المقصود بأفضل؟

وبالطبع فإن علي بشهادة عمر بن الخطاب هو أفضل الصحابة بالقضاء لقوله علي أقضانا. وأما أكثر من تم تشريفه في الإسلام فهو زيد بن حارثة فهو الوحيد من الصحابة الذي تم ذكره ومدحه في القرآن صراحة في قول الله تعالى: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ ﴾ [الأحزاب].

ولهذا السبب فإن كلمة أفضل غير مناسبة لأنها غامضة وغير محددة.

على أية حال فإن مصطلح "صحابة" هو مصطلح عام لمن عاشر الرسول عليه السلام. ولكن بالنسبة إلى زيد بن حارثة وعلي بن أبي طالب فعندهم صفة أخرى وهي أنهم أبناء الرسول من غير صلبه. فزيد بن حارثة كان اسمه زيد بن محمد فقد ألحقه الرسول عليه السلام به قبل الإسلام ومكث فترة طويلة في الإسلام يناديه الناس بزيد بن محمد حتى نزل قول الله تعالى: ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ

وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾ [الأحزاب]. وعندها قال زيد أنا زيد بن حارثة. ولكن القرآن اعترف ببنوة زيد للرسول عليه السلام من غير صلبه وذلك لقول الله تعالى: ﴿...وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ ...﴿٢٣﴾﴾ [النساء]، هو اعتراف بالأبناء من غير الأصلاب.

انتبه... عندما يقوم شخص بتبني طفل فإن نسب الطفل يبقى لأبيه ولكن تبقى العلاقة بين الشخص والطفل هي علاقة تبني.

وكذلك يوجد في الحديث: "عن ابن عمر رضي الله عنهما قال أمّر رسول الله ﷺ أسامة على قوم فطعنوا في إمارته فقال إن تطعنوا في إمارته فقد طعنتم في إمارة أبيه من قبله وايم الله لقد كان خليقا للإمارة وإن كان أحب الناس إلي وإن هذا لمن أحب الناس إلي من بعده" رواه البخاري.

وأما بالنسبة إلى علي بن أبي طالب فقد أخذه الرسول عليه السلام قبل الإسلام وهو صغير ليخفف من أعباء عمه أبي طالب ورباه في بيته. وكذلك قال رسول الله ﷺ لعلي بن أبي طالب: "أنت مني بمنزلة هارون من موسى ولكن لا نبي بعدي" رواه مسلم. وعلى غلبة ظن المؤلف فإن أقرب رجل لموسى عليه السلام هو هارون.

ولهذا السبب فإن وجهة نظر المؤلف أن أقرب الرجال إلى الرسول عليه السلام هما زيد بن حارثة وعلي بن أبي طالب.

ولكن ما من شك عند المؤلف أن أقرب أصدقاء الرسول عليه السلام إليه هما أبو بكر الصديق وعثمان بن عفان. فأما أبو بكر فهو صاحبه في الهجرة وأما عثمان بن عفان فقد زوجه الرسول عليه السلام ابنتيه، فلما ماتت ابنته الأولى زوجه ابنته الثانية وقام الرسول عليه السلام بضرب يده اليسرى بيده اليمنى عن عثمان بن عفان في بيعة الرضوان في غزوة الحديبية.

ووزراء الدولة كانوا أبا بكر الصديق وعمر بن الخطاب. وسواعد الدولة (كبار الموظفين) كانوا سعد بن معاذ وسعد بن عبادة وعلي بن أبي طالب ومحمد بن مسلمة الأنصاري.

ومع أن المؤلف على اقتناع بأن أقرب الرجال إلى الرسول عليه السلام هما زيد بن حارثة وعلي بن أبي طالب إلا أن القرابة ليست سببا لأخذ الخلافة بعد الرسول. فالخلافة لها أولوياتها منها السن والخبرة. وكما تم شرحه سابقا فإن الطريق الذي يختاره المؤلف هو الطريق الذي اختارته الأنصار.

❖ مفهوم أهل البيت

من ملاحظة ديناميكية المجتمعات فإن المؤلف على اقتناع بأن وجود طبقة أشراف (نبلاء) في المجتمع هو أحد بذور الانهيار. ولهذا السبب فإن المؤلف ينظر نظرة الحذر والنفور من فصل المجتمع إلى طبقة أشراف وطبقة عموم (غير أشراف) حتى وإن كان هذا الفصل مجازيا.

وهذه النظرة مؤيدة بنصوص شرعية فقد قال الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [الحجرات].

وفي الحديث: "سئل رسول الله ﷺ أي الناس أكرم؟ قال: أكرمهم عند الله أتقاهم. قالوا ليس عن هذا نسألك. قال: فأكرم الناس يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله. قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال فعن معادن العرب تسألوني. قالوا: نعم. قال: خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا" رواه البخاري.

وهنا وجهة نظر وهي أن يوسف عليه السلام في حقيقة الأمر كان أكثر الناس شرفا كما سبق تبيانه ولكن لا يوجد أي نصوص تعطي للمسلمين من بني يوسف ويعقوب أي امتيازات دستورية أو قضائية أو اجتماعية خاصة من دون الناس.

وضمن ما سبق فإن وجهة نظر المؤلف أن القيام بوضع آل البيت (وبعد ١٤٠٠ سنة من وفاة الرسول عليه السلام) كطبقة أشراف في دولة الإسلام هو

تصرف خاطئ (بالنظر إلى ديناميكية المجتمع) كما أنه يخالف مفهوم الآية السابقة. ولهذا السبب فإن وجهة نظر المؤلف أن آل البيت (الآن) ليست لهم امتيازات دستورية خاصة من دون الناس، كما أنهم ليست لهم امتيازات قضائية ولا امتيازات اجتماعية وإنما توجد ناحية شرعية في موضوع الصدقة وتوجد ناحية معنوية يمكن الاستفادة منها في خدمة دولة الإسلام .

للتعمق في هذا الموضوع فعلينا أن ندرس الاختلاف في المصطلحات التالية:

بنو الرجل وذرية الرجل وأهل الرجل وآل الرجل وأهل بيت الرجل.

١. بنو الرجل:

بنو الرجل هم أولاده وأولاد الأولاد عبر الزمن. ودليله حديث الأشعث بن قيس: "أتيت رسول الله ﷺ في وفد لا يرون أني أفضلهم فقلت: يا رسول الله إنا نزعم أنكم منا قال: نحن بنو النضر بن كنانة لا نقفوا أمنا ولا نتتفي من أبينا قال: فكان الأشعث يقول: لا أوتى برجل نفى قريشا من النضر بن كنانة إلا جلدته الحد" رواه أحمد.

ولا يوجد أناس يمكن وصفهم أنهم من بني الرسول عليه السلام.

٢. ذرية الرجل:

غلبة الظن أن ذرية الرجل هم أولاده وبناته وكل من جاء منهم عبر الزمن. والدليل على ذلك قول الله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [الانعام].

فكون عيسى عليه السلام من ذرية نوح وهو ابن مريم يجعل أولاد البنات من الذرية. وإحدى قصص العرب أن الحجاج بن يوسف الثقفي قد قبض على رجل

يقول إن الحسن والحسين من ذرية الرسول ﷺ وهدده إن لم يأت بدليل من القرآن ليقتله فأعطاه الآية السابقة.

وذرية الرسول عليه السلام هي:

ذرية فاطمة الزهراء وهم ذرية الحسن والحسين وزينب الكبرى وزينب الصغرى (أم كلثوم).

وذرية أمامة بنت أبي العاص بن الربيع وهي بنت زينب بنت الرسول عليه السلام ولها ذرية.

٣. أهل الرجل:

أهل الرجل لها معانٍ كثيرة فهي تعني الورثة كقوله تعالى: ﴿...وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ ...﴿١٢﴾﴾ [النساء].

وكذلك تتضمن الإخوة كقول الله تعالى: ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾﴾ [طه].

وتتضمن الزوجات كقول الله تعالى: ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الأعراف].

وتتضمن الآباء والأمهات كقول الله تعالى: ﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾﴾[يوسف].

وهي تعني الأقارب كقول الله تعالى: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾﴾ [النساء].

دعونا الآن ندخل إلى عالم الانتباه والتساؤل:

لنفترض أن هناك رجلا اسمه أرشيد ويعيش في الأرجنتين في أبعد نقطة في أمريكا الجنوبية وأنه من سلالة كورش الفارسي والذي عاش قبل حوالي ٢٥٠٠ سنة.

الآن... إن أرشيد هو من ذرية كورش وهو كذلك من بني كورش ولكن هل نستطيع أن نقول أن أرشيد من أهل كورش؟

غلبة الظن أن هذا غير صحيح، إذ إن كلمة أهل لها معنى واضح في الذهن ولها معنى واضح في الاستعمال.

السؤال التالي: ابن كورش هو من أهل كورش ولكن أرشيد ليس من أهل كورش. فأين ينقطع الخط بينهما؟

الجواب: على غلبة الظن فإن أهل تعني الحاضر من الأقارب وبالتالي فإن الحفيد (وربما ابن الحفيد) هو من أهل فلان ولكن حفيد الحفيد لا يكون لأن أغلب الظن أن الرجل لن يعيش إلى حفيد الحفيد.

٤. آل الرجل:

آل في العصر الحالي تعني بني، فآل عائض هم بنو عائض وآل سعيد هم بنو سعيد. ولكن آل عند العرب الأولين تعني أهل. ويقول ابن منظور صاحب كتاب لسان العرب إن أصل آل هي أهل أبدلت الهاء همزة فصارت أأل وتوالت همزتان فأبدلت الثانية ألفا (أي أصبحت أأل وهي آل).

ولكن هناك رأيًا آخر لآل وهو يتعلق في تفسير قول الله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [آل عمران].

والرأي هو أن آل الرجل هم أتباعه وقومه ومن هو على دينه، وهذا الرأي يرويه المفسرون عن عبدالله بن عباس في تفسير الآية السابقة أنهم المؤمنون من آل إبراهيم وآل عمران وآل ياسين وآل محمد. وقرينة عبد الله بن عباس هي قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [آل عمران] وهم المؤمنون.

وهناك رأي في تفسير الطبري عن قتادة أن آل تعني أهل بيت: "ذكر الله أهل بيتين صالحين ورجلين صالحين ففضلهم فكان محمد من آل إبراهيم".

وهناك رأي في تفسير القرطبي أن آل إبراهيم تعني إبراهيم نفسه وآل عمران تعني عمران نفسه. وقد أحضر القرطبي شواهد من اللغة على ذلك.

ولكن هناك آيات أخرى في موضوع آل:

قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾﴾ [يوسف].

وقال الله تعالى: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ۖ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾﴾ [مريم].

وقال الله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾﴾ [البقرة].

وعلى غلبة ظن المؤلف فإن الآية الأخيرة هي التي تحمل حدود المعنى لكلمة آل، فجميع التفاسير لكلمة آل تتراوح بين الأتباع والأقارب (أي آل الرجل هم أتباعه وأقاربه) وبين أن تكون آل تعني الشخص نفسه (أي أن آل يعقوب تعني يعقوب نفسه).

ولكن من المستبعد أن تكون آل إبراهيم تعني إبراهيم نفسه لأن آية آل عمران-٣٣ تحدثت عن آدم ونوح ثم آل إبراهيم وآل عمران. والاختلاف في الوصف يتضمن الاختلاف في المعنى. أي أن هناك اختلافاً بين نوح وآل نوح.

وفي المقابل فإنه من المستبعد أن يكون آل هنا تعني الأقارب والأتباع لأنه إن كان ذلك صحيحا فلا يوجد داع لذكر آل موسى وآل هارون معا إذ تكفي عبارة آل موسي لتعني أقارب موسى وهارون معا.

وبالاعتماد على أن أصل آل هي أهل فإن غلبة ظن المؤلف أن آل هي مجموعة أخص من الأهل وأعم من الشخص نفسه. وهذا معناه أن آل تعني أهل بيت الرجل (أي عائلته) وهم الرجل نفسه وزوجاته وأبناؤه وبناته وأحفاده.

ولهذا السبب فإن مريم وعيسى وزوجة عمران وعمران هم من آل عمران، كما أن إبراهيم وسارة وهاجر وإسحاق وإسماعيل وأولادهم وبناتهم هم من آل إبراهيم.

ولأن آل هي كلمة خاصة من أهل فإن ما ينطبق على أهل ينطبق عليها. فأرشيد الذي تحدثنا عنه سابقا هو من بني كورش ولكنه ليس من أهل كورش ولا من آل كورش.

ومن الضروري هنا أن نذكر أن المعاني الثلاثة لآل (الأتباع والأهل والعائلة) قد تم تضمينها في عبارة آل فرعون في ١١ آية في القرآن: فقد جاءت آل فرعون لتعني أتباعه في قول الله تعالى: ﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ۝٥٠ ﴾ [البقرة]. وجاءت آل فرعون لتعني أهله في قول الله تعالى: ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ۝٢٨ ﴾ [غافر]. وجاءت آل فرعون لتعنى (على غلبة الظن) العائلة في قول الله تعالى: ﴿ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ۝٨ ﴾ [القصص].

ويوجد هنا نقطتان:

كان الحسن والحسين يلعبان فأخذ أحدهما من تمر الصدقة فجعله في فيه فنظر إليه الرسول عليه السلام وأخرجها من فيه وقال: "أما علمت أن آل محمد صلى الله عليه وسلم لا يأكلون الصدقة" رواه البخاري.

الآن ... الحسن والحسين وأولادهما هم من آل محمد حسب التحليل السابق ولكن ماذا عن أحفادهم بعد ١٤٠٠ سنة من وفاة الرسول عليه السلام؟

ضمن وجهة نظر المؤلف فإن آل تعني أهل بيت الرجل وأن بني الرجل بعد ١٠٠ سنة من وفاته ليسوا من آل الرجل.

ولكن انتبه إلى أن هذا التحليل ظني وليس يقينياً، ولهذا السبب فإنه من الأولى لبني الحسن والحسين أن يتعففوا من أموال الصدقة.

الأمر الثاني وهو في قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [آل عمران].

وإنه لمن طبيعة العرب التفاخر وهذا أمر لا يدري المؤلف إن كان سيختفي يوما أم سيبقى التفاخر عند العرب إلى يوم القيامة. والمشكلة هنا أن الله لم يذكر الرسول عليه السلام في الآية. وإذا انتبه القارئ إلى التفاسير فإنهم يجعلون محمدًا رسول الله وآل محمد من آل إبراهيم. وفي تفسير ابن كثير: "واصطفى آل إبراهيم ومنهم سيد البشر وخاتم الأنبياء على الإطلاق محمد ﷺ".

ويستبعد المؤلف هذه المعاني وذلك للتحليل السابق عن آل. وبالإضافة إلى ذلك فإنه لا يوجد أي شك في أن محمدًا رسول الله هو من بني إبراهيم عليه السلام ولكن لو كان محمد رسول الله وآل محمد هم من آل إبراهيم لما كان هناك داعٍ لذكر آل عمران في الآية الكريمة السابقة وذلك لأن عمران وآل عمران هم من آلَ إبراهيم. أي أن القرآن فرق بين آل إبراهيم وبين آل عمران مع أن عمران هو من بني إبراهيم عليه السلام. وهذا دلالة على أن بني الرجل وآل الرجل هما عباراتان مختلفتان.

ودلالة أخرى هي الدعوة الإبراهيمية قبل الانتهاء من الصلاة وهي الدعوة بالبركة والصلاة على محمد وآل محمد كما بارك الله وصلى على إبراهيم وآل إبراهيم. وهذا دلالة أن آل محمد وآل إبراهيم هما أمران مختلفان.

وهنا نأتي لموضوع الفخر:

لقد قال الله تعالى اصطفي آدم ونوحًا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين. ولكن لا يوجد تفسير واضح للمعنى المقصود بكلمة "اصطفى"، واصطفاء الله

لآدم ونوح وإبراهيم وعمران لا ينقص من قدر هود وصالح ولوط وموسى عليهم السلام. ولهذا السبب فإن محاولة إدخال الرسول عليه السلام وآل الرسول في هذه الآية هو تأويل ليس له داعٍ. فقد حدد الله أربعة أسماء واضحة وترك الباقي وكان ممن ترك موسى عليه السلام وهو الوحيد (ضمن علم المؤلف) الذي كلمه الله تكليما.

٥. أهل بيت الرجل:

ذكر القرآن كلمة أهل البيت في المواضع التالية:

قال الله تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ ٧٣ ﴾" [هود].

قال الله تعالى: ﴿ وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ٣٣ ﴾[الأحزاب].

قال الله تعالى: ﴿ ۞ وَحَرَّمۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَرَاضِعَ مِن قَبۡلُ فَقَالَتۡ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰٓ أَهۡلِ بَيۡتٖ يَكۡفُلُونَهُۥ لَكُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ١٢ ﴾ [القصص].

وأهل البيت بمعناه الحرفي هم ساكنوه مثال ذلك قول الرسول عليه السلام: "خمروا الآنية وأجيفوا الأبواب وأطفئوا المصابيح فإن الفوسيقة ربما جرت الفتيلة فأحرقت أهل البيت" رواه البخاري.

وكذلك فإن أهل البيت تعني الناس الذين في البيت وقت الحديث. مثال ذلك حديث عن ثابت عن أنس بن مالك قال: "دخل النبي ﷺ علينا وما هو إلا أنا وأمي وأم حرام خالتي فقال قوموا لأصلي بكم في غير وقت صلاة فصلى بنا فقال رجل لثابت: أين جعل أنسا منه؟ قال: جعله عن يمينه ثم دعا لنا أهل البيت بكل خير من خير الدنيا والآخرة فقالت أمي: يا رسول الله خويدمك ادع الله له فقال فدعا لي بكل خير وكان في آخر ما دعى لي به أن قال: اللهم أكثر ماله وولده وبارك له فيه" رواه مسلم.

وكذلك فإن أزواج الرجل هم من أهل بيته كما في قول الله تعالى لزوجة إبراهيم في الآية السابقة من سورة هود وكما في قول الله لنساء النبي في الآية السابقة من سورة الأحزاب.

ولهذا فإن غلبة الظن أن آل الرجل وأهل بيت الرجل لهم نفس المعنى وهو الرجل نفسه وأزواجه وأولاده وبناته وأحفاده.

وعليه فإن أهل بيت الرسول عليه السلام هو الرسول عليه السلام نفسه وأزواج الرسول وبنات الرسول عليه السلام وأحفاد الرسول عليه السلام وهم الحسن والحسين وزينب الكبرى وزينب الصغرى وأمامة بنت أبي العاص.

وكذلك علي بن أبي طالب هو من أهل البيت للحديث الشريف عن عائشة: "خرج النبي ﷺ غداة وعليه مرط مرحل من شعر أسود فجاء الحسن بن علي فأدخله ثم جاء الحسين فدخل معه ثم جاءت فاطمة فأدخلها ثم جاء علي فأدخله ثم قال: إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا" رواه مسلم. ولحديث الكساء عن أم سلمة أن رسول الله ﷺ دعا فاطمة وحسنا وحسينا فجللهم بكساء وعلي خلف ظهره فجلله بكساء ثم قال هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا قالت أم سلمة: وأنا معهم يا نبي الله قال: أنت على مكانك وأنت على خير" رواه الترمذي.

طبعا هناك نقطة يجب إيضاحها في هذين الحديثين وهو أن الواضح من نصوص الآيات الكريمة أن أزواج الرسول عليه السلام هن من أهل البيت كما أن سارة هي من أهل بيت إبراهيم. ولهذا السبب فإن الحديثين السابقين لا ينسخان الآيات وإنما يمكن اعتبارهما دعوة خاصة للحسن والحسين وفاطمة وعلي. وكذلك إذا انتبه القارئ فإن أمامة حفيدة الرسول هي من أهل بيته ولم تكن ضمن حديث الكساء. وكذلك زينب الكبرى وزينب الصغرى بنات فاطمة الزهراء هن كذلك من أهل بيت الرسول ولم يكونا ضمن حديث الكساء. ولهذا السبب فحديث الكساء وحديث عائشة هما دعوات خاصة وليس نسخا لآيات القرآن.

وكذلك فإن زيد بن حارثة وأسامة بن زيد هما من أهل بيت الرسول عليه السلام حيث إن الإسلام قد أقر زيدا ابنا ليس من صلب للرسول عليه السلام.

ويوجد حديث شريف من الضروري الانتباه له وهو حديث زيد بن الأرقم:

قال زيد بن الأرقم: "قام رسول الله ﷺ يوما فينا خطيباً بماء يدعى خما بين مكة والمدينة فحمد الله وأثنى عليه ووعظ وذكر ثم قال أما بعد ألا أيها الناس فإنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب وأنا تارك فيكم ثقلين أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به فحث على كتاب الله ورغب فيه ثم قال وأهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي فقال له حصين: ومن أهل بيته يا زيد؟ أليس نساؤه من أهل بيته؟ قال: نساؤه من أهل بيته ولكن أهل بيته من حرم الصدقة من بعده قال: ومن هم؟ قال: هم آل علي وآل عقيل وآل جعفر وآل عباس قال: كل هؤلاء حرم عليهم الصدقة؟ قال: نعم" رواه مسلم. وفي نفس الرواية لمسلم هناك رواية أخرى عن زيد بن الأرقم: "فقلنا من أهل بيته نساؤه؟ قال: لا وايم الله إن المرأة تكون مع الرجل العصر من الدهر ثم يطلقها فترجع إلى بيت أبيها وقومها أهل بيته أصله وعصبته الذين حرموا الصدقة بعده" رواه مسلم

وحديث زيد بن الأرقم فيه نص للرسول ﷺ وفيه رأي. وأما النص فكان واضحا وأما الرأي فإن وجهة نظر سيدنا زيد أن أزواج الرسول ليسوا من أهل بيته وأن الذين حرموا الصدقة هم آل علي وآل عقيل وآل جعفر وآل عباس. والمدرسة التي يتبعها المؤلف في الأصول تتضمن أن رأي الصحابي ليس حجة لأن نصوص الحجة هي كتاب الله وسنة الرسول ﷺ. وقد دلت آيات القرآن أن أزواج الرسول ﷺ هن من أهل البيت كما أن سارة هي من أهل بيت إبراهيم عليه السلام. وبالنسبة لتحريم الصدقة فأفضل المعلومات عند المؤلف أن التحريم جاء من حديث الرسول السابق ذكره أن آل محمد لا يأكلون الصدقة. وعليه فهناك الحاجة لنص صريح آخر للآخرين.

وهناك أحاديث تضع معنى مجازياً لأهل البيت كقول الرسول عليه السلام: "لا تقوم الساعة حتى تمتلئ الأرض ظلما وعدوانا ثم يخرج رجل من عترتي أو من أهل بيتي يملؤها قسطا وعدلا كما ملئت ظلما وعدوانا" رواه أحمد. وهذا يدل على معنى مجازي لأهل البيت وهم على الأخص بني الحسن والحسين وعلى الأعم ذرية الرسول عليه السلام.

الخلاصة:

التحليل السابق كله كان بهدف التبيان أنه لا توجد أدلة تعطي امتيازات خاصة لبني الحسن وبني الحسين من دون الناس. وهناك نصوص لفضل فاطمة الزهراء وعلي والحسن والحسين وزيد بن حارثة وأسامة وزوجات الرسول عليه السلام ولكن كانت هذه الامتيازات خاصة لهم ولا يرثها أحد من بعدهم.

والخلاصة هنا أن بني الحسن وبني الحسين الآن بعد ١٤٠٠ سنة من وفاة الرسول عليه السلام ليست لهم امتيازات خاصة من دون المسلمين فلا يوجد لهم امتيازات دستورية في الدولة ولا يوجد لهم امتيازات قضائية ولا يوجد لهم امتيازات اجتماعية من دون المسلمين. وأفضل دليل على ذلك هو آية الإكرام ﴿...إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ...﴿١٣﴾﴾ [الحجرات]. بالإضافة إلى المنطق السابق ذكره وهو أن المسلمين من بني يوسف عليه السلام والمسلمين من بني هارون عليه السلام والمسلمين من بني موسى عليه السلام ليست لهم امتيازات خاصة من دون الناس مع أن شرف النسب لهم عالٍ فهم أبناء أنبياء أبناء أنبياء أبناء أنبياء أبناء خليل الله.

وهذه نقطة جديرة بتكرارها فهناك من يقول: إن المحبة الخاصة لأحفاد الحسن والحسين الآن إنما هي في الواقع محبة للرسول عليه السلام. ولكن هذا المنطق لا يتوافق مع مواقف أخرى: فالمسلمون من بني موسى وبني هارون وبني يوسف وبني يعقوب لم يتلقوا محبة خاصة مع كونهم أحفاد الأنبياء أحفاد الأنبياء أحفاد خليل الله.

وبالطبع توجد هناك ناحية شرعية متعلقة بالصدقة وقد تم بحثها في فقرة سابقة.

وهناك كذلك ناحية معنوية: فأرشيد السابق ذكره هو بالتأكيد فخور بالانتماء إلى كورش وبالتأكيد سيكون له الاهتمام للاطلاع على تاريخ أسلافه. وهذا أمر طبيعي جدا. وكذلك بنو عمر بن الخطاب فسيكون عندهم الشعور بالفخر وسيكون عندهم حب الاطلاع على تاريخه.

وكذلك بنو الحسن وبنو الحسين فالانتماء إليهما مصدر افتخار ويؤدي إلى اهتمام أكبر لدراسة الإسلام . ولكن هذه الناحية المعنوية هي داخلية خاصة. فأرشيد لا يستطيع أن يتفاخر على الناس بأنه من بني كورش وكذلك بنو الحسن وبنو الحسين فهم لا يستطيعون أن يتفاخروا على الناس أنهم أحفاد الرسول عليه السلام. وإذا انتبه المتفاخرون من بني الحسن والحسين فإن الرسول عليه السلام عمه أبو لهب في النار وأن نوح عليه السلام (وأحد الأربعة الذين اصطفاهم الله) ابنه في النار. وإذا انتبه المتفاخرون من بني الحسن والحسين أن أكثر الناس مجدا هو يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام ويوجد الآن الكثير من أحفاد يوسف عليه السلام وأحفاد يعقوب عليه السلام من أخلاقهم أرخص من الأنعلة التي يلبسونها.

النقطة هنا أنه لا يوجد بعد ١٤٠٠ سنة من وفاة الرسول تفاخر وإنما هو افتخار داخلي وناحية معنوية داخلية.

ولكن إذا أراد بنو الحسن وبنو الحسين التفاخر وأخذ أية امتيازات فعليهم بتحويل الناحية المعنوية (الشعور بالفخر للانتساب إلى الرسول عليه السلام) إلى ناحية عملية وذلك باختيار النوابغ من أبنائهم وتفريغهم لدراسة هذا الدين وكذلك القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والوقوف في وجه الظالمين.

وهنا فقط يمكن لبني الحسن وبني الحسين أن يكون لهم امتيازات وهذه الامتيازات لم تأت بشكل مباشر من الانتساب إلى الرسول وإنما جاءت نتيجة لسلسلة العلماء الجهابذة عندهم ولوقوفهم في وجه الظلم والطغيان. وهنا يحق لبني الحسن والحسين أن يقف الناس لهم، ولكن وقوف الناس لهم ليس لأن أبوهم قبل ١٤٠٠ سنة كان حفيد الرسول عليه السلام، وإنما يقف الناس لهم لوقوفهم هم أمام الظلم والطغيان وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر.

وهذه هي الناحية المعنوية والتي يمكن أن تكون مفيدة في خدمة الدولة والمجتمع. فهذه الناحية المعنوية تقوم بدفع بني الحسن وبني الحسين لتفريغ النوابغ من أبنائهم لدراسة هذا الدين وكذلك قيام بني الحسن والحسين بالوقوف في وجه الظالمين. وإذا انتبه القارئ فهذه الناحية المعنوية ليست خاصة ببني الحسن وبني الحسين فأبناء الصحابة عندهم هذه الناحية المعنوية وكذلك أبناء المسلمين عامة. ولكن الملاحم التي حدثت لبني الحسن وبني الحسين قد تجعل الناحية المعنوية عندهم أكثر وضوحا.

وأما إذا لم يقف بنو الحسن وبنو الحسين في وجه الظالمين ولم يقوموا بتفريغ النوابغ من أبنائهم لدراسة هذا الدين فليست لهم أي امتيازات اجتماعية خاصة وهم والعموم من الناس سواء.

وهناك من سيقول إن المؤلف ما هو إلا حاسد للنعمة التي أنعمها الله على أهل البيت بانتسابهم وانتمائهم إلى الدوحة النبوية العطرة وأنه يريد حرمانهم من هذه النعمة الكريمة التي أنعمها الله عليهم، ويريد الآن أن يجعل أنساب أهل البيت الكرام متساوية مع أنساب الناس الآخرين ظلما وعدوانا.

وهذا الادعاء غير صحيح فالمؤلف ينتهي نسبه إلى عبد القادر الجيلاني والذي ينتهي نسبه إلى الحسن بن على بن أبي طالب، كما أن جدة المؤلف ينتهي نسبها إلى الحسين بن على بن أبي طالب. فلا يوجد هنا حسد ولا غيرة ولا حرمان ولا ظلم ولا عدوان، وإنما توجد عند المؤلف وجهة نظر واضحة وهو أن وجود طبقة أشراف في المجتمع وطبقة عموم (غير أشراف) سيؤدي إلى انهيار هذا المجتمع. واعتمادا على آية الإكرام فإن المؤلف على اقتناع بالتحليلات والآراء التي وضعها هنا.

❖ العمامة الزرقاء

أحد الأمور التي يراها المؤلف خاطئة عند الإخوة الشيعة الجعفرية هو التمييز بين علماء بني الحسن والحسين وبين علماء الناس. فعلماء بني الحسن والحسين يلبسون

العمامة السوداء في حين أن علماء الناس يلبسون العمامة البيضاء. وهذا التمييز ليس له أصل عند الرسول عليه السلام ولا عند أهل بيته فلم يتميز الرسول ولا علي ولا الحسن ولا الحسين ولا زيد ولا أسامة باللباس من دون الناس. وهذا الأمر سيسبب خلق طبقة أشراف وطبقات أخرى. ودعوة المؤلف هنا هي إنهاء لبس العمامة السوداء والبيضاء واختيار ألوان أخرى مختلفة دون تمييز بين العلماء.

وكذلك الدعوة هنا للتركيز قليلا على اللون الأزرق:

يوجد بعض الناس من تتحقق المنامات عنده وهناك من عنده فراسة النظر إلى المستقبل. وهذا يدل على أن الإحساس بالمستقبل هو موهبة تزيد عند البعض وتنقص عند البعض الآخر.

وكانت مشيئة الأقدار أن تكون هذه الموهبة عالية عند شخص اسمه نوسترا (نوستراداموس ١٥٠٣-١٥٦٦م، Nostradamus). ولكنه قام بما كان يقوم به كهان العرب فقد كانوا يخلطون الصدق بمئات الكذب. وكان أحد مؤلفاته كتاب التنبؤات وهو كتاب شعر وضع فيه نوسترا تنبؤاته عن المستقبل. وقد حاول الكثير أن يفهم المستقبل من هذا الكتاب ولكن دون جدوى. فطريقة الكتابة غامضة ومبهمة وكأنها ألغاز وأحاجي. وحقيقة الأمر فإن النظر إلى الكتاب لاستنباط المستقبل هو عبث ومضيعة جهد ووقت. والذي حدث عند محبي نوسترا هو انتباههم للأحداث التي وقعت وربط هذه الأحداث بكتاب نوسترا و الاستنتاج أن هذا ما قصده نوسترا في كتابه. ولكن لم يستطع أحد حتى الآن أن يستنتج أحداثاً مستقبلية من كتاب نوسترا. وضمن وجهة نظر المؤلف فإن نوسترا ومحبيه كما قال المتنبي:

أنام ملء جفوني عن شواردها ويسهر الخلق جراها ويختصم

ولكن دراسة كتاب نوسترا قد تكون مفيدة للدعاية والدعاية المضادة. فهناك الكثير والكثير من أهل أوروبا من يؤمن بهذا الكتاب. وهنا نأتي إلى اللون الأزرق ففي أحد أبيات الشعر فإنه يتحدث عن عدو لهم يلبس العمامة الزرقاء.

فدعوة المؤلف هنا هو لإنهاء التمييز بين العلماء وكذلك الدعوة إلى لبس العمامة الزرقاء (أو التركيز عليها). وهذا ليس تصديقا لنوسترا فهو كاذب وإن صدق، وإنما الدعوة إلى العمامة الزرقاء هو "جكارة" ومناكفة لأهل أوروبا. والجكارة لها مفعولها إن تم استخدامها بمهارة.

❖ تقبيل الأيادي

هناك صفة ينفر منها المؤلف وهي منتشرة في كثير من الأماكن في العالم الإسلامي وهي تقبيل أيادي العلماء والقادة والكبار. وهناك ثلاثة أسباب لهذا النفور هو أن هذه العادة لم تكن منتشرة في عهد الرسول عليه السلام. وهناك روايات عن تقبيل الأيادي ولكنها كانت أحداثاً عابرة ولم يتحول تقبيل الأيادي إلى عادة عامة. والسبب الثاني أن تقبيل الأيادي مدعاة إلى التقديس. والسبب الثالث وهو أن تقبيل الأيادي يتطلب الركوع وهو أمر (ضمن وجهة نظر المؤلف) شديد الخطأ لأن الركوع يجب ألا يكون إلا لله.

والدعوة هنا إلى الأخوة السنة والشيعة أنهم إذا أرادوا أن يستمروا في هذه العادة (تقبيل الأيادي) فياحبذا لو يقوموا بها وهم واقفون.

❖ الأسماء

هذا الموضوع له حساسية عندي وأقدم الاعتذار إلى الإخوة الشيعة لشدة الخطاب هنا:

إنه لمن العجب من قوم يحبون الرجل ويظهرون حبهم له في كل مناسبة ويعلنون الولاء والطاعة له ولا يقتدون به. وإن أفضل الأمثلة على ذلك هم النصارى فهم على شدة تقديسهم للمسيح عليه السلام فإنهم كذلك شديدو الابتعاد عن تعاليمه.

وهذا الأمر يحدث كذلك مع الإخوة الشيعة في إعلانهم المحبة والولاء لعلي بن أبي طالب وأهل بيته الكرام:

إن ذرية على بن أبي طالب كبيرة ولكن أريد أن أذكر بعض الأسماء هنا:

عمر الأطرف بن على بن أبي طالب.

عمر الأصغر بن على بن أبي طالب

عمر بن الحسن بن على بن أبي طالب (أحد شهداء كربلاء).

عمر الأشرف بن على بن الحسين بن على بن أبي طالب.

والمشكلة هنا أنه لا يوجد أحد من الشيعة الجعفرية الآن من يسمي أولاده عمر وإنما الظاهر أن اسم عمر عندهم كاسم معاوية. وهذا ليس اقتداءً بعلي بن أبي طالب ولا اقتداءً بأهل بيته في تسمية الأولاد.

والحساسية عندي هو أنني ومنذ أوائل التسعينيات وأنا أذكر حزب الله بالخير ولكن كان بعض معارفي وقتها ينتقدونني في ذلك. وفي أي نقاش يحدث في هذا الموضوع فإن أحد وجبات النقاش هي عبارات السخرية التالية:

❊ كيف بدّافع (تدافع) عن الشيعة واسمك عمر.

❊ كيف بدّافع عن الشيعة وهم إذا لقوك بيذبحوك عشان اسمك.

❊ أنت ما بتقدر اتكون شيعي واسمك عمر.

❊ قبل ما ادّافع عن الشيعة روح غيَّر اسمك.

وحقيقة أنه لا توجد مشكلة في اسمي وإنما المشكلة الحقيقية هي أن الإخوة الشيعة لا يتقيدون بأهل البيت في تسمية أولادهم.

❖ الكف عن رفع صور الزعماء

هناك صفة موجودة في ثقافة الشرق الأوسط ومنذ قرون طويلة وهي تقديس الزعماء. وإن خروج الناس في المظاهرات بصور زعمائهم (كالخميني وخامئني وحسن

نصر الله وعبد الناصر وغيرهم) هو مظهر من الممكن وصفه بالتقديس وهو مظهر يجب التوقف عنده.

تم تعريف التقديس أنه منتهى الاحترام القلبي. وهذا التعريف ليس واضحا تماما حيث إنه لا يقدم حدودا واضحة بين الاحترام والتقديس. والحق فإن التقديس مثله مثل الكثير من المشاعر ليس من السهل تعريفه ولكن من السهل وضع الأصبع عليه.

فنظرة المسلمين إلى عمر بن عبد العزيز هي نظرة احترام، ونظرة المسلمين إلى خالد بن الوليد هي نظرة احترام، ونظرة الصحابة إلى عمر بن الخطاب هي نظرة احترام، ونظرة الأتراك الإسلاميين الآن لنجم الدين أربكان هي نظرة احترام. ولكن نظرة الإخوة الشيعة إلى الخميني هي نظرة تقديس، ونظرة بعض الناس إلى جمال عبد الناصر هي نظرة تقديس، ونظرة الشيوعيين إلى لينين وماركس هي نظرة تقديس، ونظرة السنة إلى أئمة المذاهب الأربعة هي نظرة تقديس. ونظرة السلفية إلى ابن تيمية هي نظرة تقديس. ونظرة الأتراك العلمانيين لأتاتورك هي نظرة تقديس.

ويمكن وضع إطار لتقديس الزعماء فهو النظر إلى الزعيم (أو القائد أو عالم الدين) بهالة تجعله فريدا من نوعه وتضع عنه الأخطاء وتضع له المكارم، ويتم الحديث عنه وكأنه منحة من السماء وأنه لولاه لما كان الخير والانتصار، ويتم التنكيل بكل من يتجرأ على انتقاد الزعيم ويتم المدح لكل من ذكر هذا الزعيم بالدعاء والتبجيل، ولا يتم ذكر الزعيم إلا بكل مظاهر الفخامة والتكريم والتبجيل والولاء،..إلخ.

دعونا ننظر إلى هذا الأمر بتفصيل. لا أحد يستطيع نكران الفضل لحسن نصر الله (على سبيل المثال) ولكن حزب الله لم ينتصر في المعارك بسواعد حسن نصرالله فقط وإنما كانت هناك سواعد أخرى كثيرة ساهمت في الانتصار. ولهذا فإما أن يتم رفع صور جميع القيادات أو ألا يكون هناك صورة لأي قائد.

وإذا نظرنا إلى حقيقة الأمر فإن الانتصارات والإنجازات عند حزب الله وفي إيران جاءت من قوة المؤسسات. وحسن نصرالله وخامئني هما رجال ضمن هذه

المؤسسات وليسوا هما المؤسسات. والانتصار دائما ممكن للمؤسسات القوية بغض النظر عن قائدها. وأما إذا جاء النصر والإنجاز بقوة القائد وحده فإن هذه المؤسسة لا تستحق العلياء وسوف تزول هذه المؤسسة بمجرد زوال القائد.

لقد عاشت الأمة الإسلامية قرونا طويلة تحت قيادات ديكتاتورية فردية مطلقة وحان الوقت كي تنتهي هذه العادة تماما و إلى الأبد والاستعاضة عنها بقيادة المؤسسات. ولكي يصبح للمؤسسات الاحترام الأكبر في وجدان الناس فمن الضروري الابتعاد عن أي مظهر من مظاهر تمجيد الفرد. ولقد كانت إحدى القرارات الأولى لعمر بن الخطاب أن أخرج خالد بن الوليد عن قيادة الجيش وذلك لأن الناس قد افتتنوا به. وهذه نقطة مهمة وهي أن المسلمين قد انتصروا بغير خالد، وإن جاء انتصارهم أقل سرعة، ولكنهم انتصروا.

يجب هنا التنبيه لقوة ديناميكة موجودة في المجتمعات الإنسانية وهو أن أي تطرف في اتجاه سيؤدي وبشكل غريزي إلى ظهور تطرف في الجهة المقابلة. فعلى سبيل المثال فإن شدة الاستهزاء بأحكام الإسلام سيؤدي إلى قيام جماعة يكون لها شدة التطرف في تطبيق الإسلام . وكذلك الحال في موضوع التقديس فإن شدة التبجيل (وهو أحد مظاهر التقديس) لشخص سيؤدي إلى قيام الكثير من الناس بالنفور من ذلك الشخص.

وقد قال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾ ﴾ [النجم].

وقال رسول الله عليه السلام : "لا تطروني، كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبده، فقولوا: عبد الله ورسوله" رواه البخاري.

وكذلك قال رسول الله عليه السلام: "من كان منكم مادحا أخاه لا محالة، فليقل: أحسب فلانا، والله حسيبه، ولا أزكي على الله أحدا، أحسبه كذا وكذا، إن كان يعلم ذلك منه" رواه البخاري.

❖ **الناس تبع لقريش**

عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: (الناس تبع لقريش في هذا الشأن، مسلمهم تبع لمسلمهم، وكافرهم تبع لكافرهم) رواه البخاري ومسلم وأحمد والنص للبخاري.

ولقد تردد المؤلف كثيرا في مناقشة هذا الحديث حذرا من أي جدل أو اتهام قد يوجه إليه ولكنه في النهاية قد عزم آملا أن ينتبه القارئ (أيا كانت قناعاته) إلى محاولة تحري الصدق في عرض هذا الموضوع.

هناك الأمور التالية والتي تضع علامات استفهام في أحاديث الخلافة في قريش:

❋ هناك ثلاث آيات (آيات الاستبدال) يتعارض مفهومها مع أحاديث الخلافة في القريش:

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ [المائدة].

وقال تعالى: ﴿إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [التوبة].

وقال تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تُدۡعَوۡنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبۡخَلُۖ وَمَن يَبۡخَلۡ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦۚ وَٱللَّهُ ٱلۡغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُۚ وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾﴾ [محمد].

❋ لقد تم شرح قاعدة أبي حنيفة الأصولية في حديث المصالحة وهذه القاعدة تتعارض مع الأحاديث المتعلقة بخلافة قريش. والسبب هو أن هذه الأحاديث لم يتم طرحها أثناء الخلاف الذي صار بين الأنصار وأبي بكر في سقيفة بني ساعدة. ولم يتم طرحها في الخلاف والنقاش الذي حدث بين علي بن أبي طالب وأبي بكر الصديق بأولوية الخلافة (إذ إن حديث "الناس تبع لقريش" هو دليل على أن الخلافة ليست

خاصة لبني هاشم) كما أن خطبة عمر بن الخطاب المشهورة والتي وصف فيها بيعة أبي بكر بالفلتة لم تتضمن أي إشارة إلى هذا الحديث.

فالنقطة هنا أن هناك اختلافات عميقة متعلقة بهذا الموضوع والمنطق يقتضي أن تشتهر هذه الأحاديث ذلك الوقت. ولكن الذي حدث هو ظهور هذه الأحاديث في الكتب بأخبار آحاد أو أحاديث مشهورة من شخص واحد فقط (كحديث أبى هريرة وحديث جابر بن سمرة).

* هناك مخالفات تاريخية واضحة لكثير من أحاديث الخلافة في قريش. وهذا سيتم تبيانه هنا.

يجب التنبيه إلى أن حديث أبي هريرة وحديث جابر بن سمرة مشهورة ومتكررة في الكتب وبرواة مختلفين ولهذا السبب فإن المؤلف قد وضع هنا بعض الروايات لحديث أبى هريرة وحديث جابر بن سمرة.

والأحاديث التالية هي ما استطاع المؤلف الإحاطة بها وربما يكون هناك أحاديث أخرى لم يتمكن المؤلف من إدراكها ولكن نظرة المؤلف واستنتاجاته متعلقة بالأحاديث التالية:

أ. المجموعة الأولى:

حدثنا عبد الله قال حدثني أبي قال حدثنا عفان قال حدثنا أبو عوانة عن داود بن عبد الله الأودي عن حميد بن عبد الرحمن قال: توفي رسول الله ﷺ وأبو بكر في طائفة المدينة قال فجاء فكشف عن وجهه فقبله وقال: فداك أبي وأمي ما أطيبك حيا وميتا مات محمد ﷺ ورب الكعبة فذكر الحديث قال: فانطلق أبو بكر وعمر يتقاودان حتى أتوهم فتكلم أبو بكر ولم يترك شيئا أنزل في الأنصار ولا ذكره رسول الله ﷺ من شأنهم إلا وذكره وقال: ولقد علمتم أن رسول الله ﷺ قال: لو سلك الناس واديا وسلكت الأنصار واديا سلكت وادي الأنصار ولقد علمت يا سعد أن رسول الله ﷺ قال: وأنت قاعد قريش ولاة هذا الأمر فبر الناس تبع

لبرهم وفاجرهم تبع لفاجرهم قال: فقال له سعد: صدقت نحن الوزراء وأنتم الأمراء. رواه أحمد

التعليق:

حميد بن عبد الرحمن (كما ذكر ابن المنذر النيسابوري) لم يدرك أبا بكر الصديق ولهذا السبب فالحديث فيه انقطاع. كما أن المعروف أن سعد بن عبادة لم يقم بمبايعة أبى بكر ولا عمر. وكلمة الوزراء والأمراء هي كلمة لأبي بكر.

ب. المجموعة الثانية:

عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (الناس تبع لقريش في هذا الشأن، مسلمهم تبع لمسلمهم، وكافرهم تبع لكافرهم. رواه البخاري ومسلم وأحمد والنص للبخاري. وهذا الحديث مشهور ومتكرر في الكتب وبرواة مختلفين.

التعليق:

إذا أخذنا المقارنة بشكلها الحرفي في عبارة "مسلمهم تبع لمسلمهم وكافرهم تبع لكافرهم) فإن مشركي العرب ومشركي يثرب لم يكونوا تبعًا لمشركي قريش. فقد كانت قريش إحدى سادات العرب ولم يكونوا ملوكهم.

ولكن من الممكن جدا أن تكون المقارنة مجازية وبالتالي فإن نقطة الاستفهام في هذه المجموعة هي مخالفتها لمفهوم آيات الاستبدال وكذلك لمخالفتها لمنطق قاعدة أبي حنيفة.

وكذلك فإن المسلمين منذ أكثر من ١٠٠٠ سنة ليسوا تبعا لقريش فقد جاءت أقوام وأقوام غير قريش وحكموا العالم الإسلامي.

وكذلك فإن قريشاً ككيان قد انتهى منذ زمن طويل. وبالطبع فهناك سلالات تنتسب إلى أبناء قريش كبني الحسن وبني الحسين وبني عمر وبني العباس.

ولكن قريشًا كقبيلة قد انتهت بالضبط كقبيلة بني عبس، فهناك من ينتسب إلى عنترة بن شداد ولكن كيان عبس نفسه قد انتهي وكذلك قبيلة نمير وأسد.

وبالنسبة إلى قريش فهناك إشارات تدل على أن كيان قريش كان موجودا في عهد أبي العباس السفاح وهناك قصة مشهورة له أنه لقي أعرابياً فسأله الأعرابي ممن الرجل؟ فأجاب من كنانة فقال الأعرابي: من أي كنانة فقال من أبغض كنانة إلى كنانة فقال: أنت من قريش قال: نعم قال: من أي قريش؟ قال: من أبغض قريش إلى قريش فقال أنت من ولد عبد المطلب قال: نعم قال: من أي ولد عبد المطلب؟ قال: من أبغض ولد عبد المطلب إلى ولد عبد المطلب قال: فأنت إذن أمير المؤمنين. وإذا صحت هذه القصة فهذا معناه أن قريشًا كان لا يزال لها كيان في عهد أبي العباس السفاح ولكن على أغلب تخمين المؤلف فإن قريشًا قد انتهت ككيان وقبيلة في أواخر العهد العباسي.

ج. المجموعة الثالثة:

حدثنا عبد الله حدثني محمد بن سليمان لوين حدثنا محمد بن جابر عن عبد الملك بن عمير عن عمارة بن رويبة عن على بن أبي طالب رضي الله عنه قال: سمعت أذناي ووعاه قلبي عن رسول الله ﷺ: "الناس تبع لقريش صالحهم تبع لصالحهم وشرارهم تبع لشرارهم". رواه أحمد

التعليق:

التعليق في المجموعة الثانية مكرر هنا. وكذلك فإن هناك بعض الملاحظات في سند هذه الرواية:

محمد بن جابر بن سيار:

عند ابن حجر: صدوق ذهبت كتبه فساء حفظه وخلط كثيرا.

عند الذهبي: سيئ الحفظ، قال أبو حاتم: هو أحب إلى من ابن لهيعة.

عبد الملك بن عمير بن سويد:

عند ابن حجر: ثقة فصيح عالم تغير حفظه وربما دلس.

عند الذهبي: قال أبو حاتم: صالح الحديث، ليس بالحافظ، وقال النسائي وغيره: ليس به بأس.

د. المجموعة الرابعة:

١. حدثني يحيى بن حبيب الحارثي حدثنا روح. حدثنا ابن جريج. حدثني أبو الزبير؛ أنه سمع جابر بن عبدالله يقول: قال النبي ﷺ: "الناس تبع لقريش في الخير والشر". رواه مسلم

٢. حدثنا عبد الله حدثني أبي حدثنا أبو أحمد حدثنا سفيان عن الأعمش عن أبي سفيان عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: "الناس تبع لقريش في الخير والشر". رواه أحمد

٣. حدثنا عبد الله حدثني أبي حدثنا وكيع عن الأعمش عن أبي سفيان [طلحة بن نافع] أن النبي ﷺ قال: "الناس تبع لقريش في الخير والشر". رواه أحمد

٤. حدثنا عبد الله حدثني أبي حدثنا روح حدثنا ابن جريج أخبرني أبو الزبير أنه سمع جابر بن عبد الله يقول: قال النبي ﷺ: "الناس تبع لقريش في الخير والشر". رواه أحمد

التعليق:

التعليق في المجموعة الثانية مكرر هنا. وهناك بعض الملاحظات في سند هذه الرواية:

* حديث جابر (رواية مسلم وأحمد،د.١ ود.٤):

ابن جريج (عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج):

عند ابن حجر: ثقة فقيه فاضل وكان يدلس ويرسل.

عند الذهبي: أحد الأعلام.

أبو الزبير (محمد بن مسلم بن تدرس):

عند ابن حجر: صدوق إلا أنه يدلس.

عند الذهبي: حافظ ثقة، وكان مدلسا واسع العلم، قال أبو حاتم: لا يحتج به.

* حديث جابر (رواية أحمد - د.٢ ود.٣):

الأعمش (سليمان بن مهران):

عند ابن حجر: ثقة حافظ عارف بالقراءات ورع لكنه يدلس.

عند الذهبي: الحافظ، أحد الأعلام.

أبو سفيان (طلحة بن نافع):

عند ابن حجر: صدوق.

عند الذهبي: قال جماعة: ليس به بأس.

هـ. المجموعة الخامسة:

١. حدثني محمد بن المثَنَّى: حدثناغندر: حدثنا شعبة، عن عبد الملك: سمعت جابر بن سمرة قال: سمعت النبي ﷺ يقول: (يكون اثنا عشر أميراً) فقال كلمة لم أسمعها، فقال أبي: إنه قال: (كلهم من قريش). رواه البخاري.

٢. حدثنا قتيبة بن سعيد. حدثنا جرير عن حصين، عن جابر ابن سمرة. قال: سمعت النبي ﷺ يقول. وحدثنا رفاعة بن الهيثم الواسطي (واللفظ له). حدثنا خالد (يعني ابن عبدالله الطحان) عن حصين، عن جابر بن سمرة. قال: دخلت مع أبي على النبي ﷺ. فسمعته يقول (إن هذا الأمر لا ينقضي حتى يمضي فيهم

اثنا عشر خليفة). قال: ثم تكلم بكلام خفي علي. قال فقلت لأبي: ما قال؟ قال (كلهم من قريش). رواه مسلم.

٣. حدثنا ابن أبي عمر. حدثنا سفيان عن عبدالملك بن عمير، عن جابر بن سمرة. قال: سمعت النبي ﷺ يقول (لا يزال أمر الناس ماضيا ما وليهم اثنا عشر رجلا). ثم تكلم النبي ﷺ بكلمة خفيت علي. فسألت أبي: ماذا قال رسول الله ﷺ؟ فقال (كلهم من قريش). رواه مسلم.

٤. حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة. حدثنا أبو معاوية عن داود، عن الشعبي، عن جابر بن سمرة. قال: قال النبي ﷺ (لا يزال هذا الأمر عزيزا إلى اثني عشر خليفة). قال: ثم تكلم بشيء لم أفهمه. فقلت لأبي: ما قال؟ فقال (كلهم من قريش). رواه مسلم

٥. حدثنا قتيبة بن سعيد وأبو بكر بن أبي شيبة. قالا: حدثنا حاتم (وهو ابن إسماعيل) عن المهاجر بن مسمار، عن عامر بن سعد بن أبي وقاص. قال: كتبت إلى جابر بن سمرة، مع غلامي نافع: أن أخبرني بشيء سمعته من رسول الله ﷺ. قال: فكتب لي: سمعت رسول الله ﷺ، يوم جمعة، عشية رجم الأسلمي، يقول (لا يزال الدين قائما حتى تقوم الساعة. أو يكون عليكم اثنا عشر خليفة. كلهم من قريش) وسمعته يقول (عصيبة من المسلمين يفتتحون البيت الأبيض. بيت كسرى. أو آل كسرى). وسمعته يقول (إن بين يدي الساعة كذابين فاحذروهم). وسمعته يقول (إذا أعطى الله أحدكم خيرا فليبدأ بنفسه وأهل بيته). وسمعته يقول (أنا الفرط على الحوض). رواه مسلم.

٦. حَدَّثَنَا أبو كُريب أخبرنا عمرُ بنُ عُبيدٍ عن سماكِ بن حربٍ عن جابرِ بنِ سَمُرةَ قال:قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَليهِ وسَلَّم (يكونُ من بَعدِي اثنا عشرَ أميراً قال: ثُمَّ تكلَّمَ بشيءٍ لم أفهمْهُ فسألتُ الَّذي يَليني فقال قال كلُّهُم من قُريشٍ) رواه الترمذي.

٧. حدثنا عَمْرُو بنُ عُثْمَانَ أخبرنا مَرْوَانُ بنُ مُعَاوِيَةَ عن إِسْمَاعِيلَ - يَعني ابنَ أبي خَالد - عن أبِيهِ عن جَابِر بن سَمُرَةَ قالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: "لاَ يَزَالُ هَذَا الدِّينُ قَائِماً حَتّى يَكُونَ عَلَيْكُم اثْنَا عَشَرَ خَلِيفَةً كُلّهُمْ تَجْتَمِعُ عَلَيْهِ الأُمّةُ فَسَمِعْتُ كَلاَماً مِنَ النّبيّ ﷺ لَمْ أفْهَمْهُ، فقُلْتُ لأبِي: مَا يَقُولُ؟ قالَ: كُلّهُمْ مِنْ قُرَيْشٍ". رواه أبو داود.

٨. حدثنا عبد الله حدثني سريج بن يونس عن عمر بن عبيد عن سماك بن حرب عن جابر بن سمرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: يكون من بعدي اثنا عشر أميرا فتكلم فخفي علي فسألت الذي يليني أو إلى جنبي فقال: كلهم من قريش. رواه أحمد

التعليق:

انتبه... الأحاديث المروية عن جابر بن سمرة كثيرة ومن رواة عدة وقد اختار المؤلف بعضها وترك المتكرر فيها.

هذا الحديث لم ينتشر إلا عن جابر بن سمرة وهو بهذا يخالف قاعدة أبي حنيفة لأن منطق الأمور يتطلب أن ينتشر هذا الحديث بعد سقيفة بني ساعدة وخلاف علي مع أبي بكر.

وكذلك النص "لا يزال هذا الدين قائما حتى ....." ليس له واقع واضح، فالخلافة بقيت ذات هيبة حتى موت الواثق العباسي وبعدها استفرد الجيش بالسلطة وأصبح خلفاء بني العباس دمية بأيديهم واستقلت الولايات عن العاصمة. والخلفاء ذوو البيعة الشرعية حتى الواثق هم: أبو بكر، عمر، عثمان، علي، الحسن، معاوية، عبد الله بن الزبير، عبد الملك، الوليد، سليمان، عمر، يزيد، هشام، الوليد بن يزيد، يزيد بن الوليد، إبراهيم بن الوليد، مروان بن محمد، السفاح، المنصور، المهدي بن منصور، الهادي بن مهدي، هارون بن مهدي، الأمين، المأمون، المعتصم بن هارون، الواثق بن معتصم. والخلافة بقيت لها الهيبة حتى الخليفة السادس والعشرين. أما الخليفة الثاني عشر فهو يزيد بن عبد الملك.

و. المجموعة السادسة:

١. حَدَّثَنَا حسينُ بنُ مُحَمَّدٍ البصريُّ أخبرنا خالدُ بنُ الحارثِ أخبرنا شُعبةُ عن حبيبِ بنِ الزُّبيرِ قال سمعتُ عبدَ اللهِ بنَ أبي الهُزيلِ يقول: كانَ ناسٌ من ربيعةَ عندَ عمرِو بنِ العاصِ فقال رجلٌ من بكرِ ابنِ وائلٍ لتَنتَهينَّ قريشٌ أو ليَجعلَنَّ اللهُ هذا الأمرَ في جمهورٍ منِ العربِ غيرِهِم فقالَ عمرو بنُ العاصِ كَذَبْتَ: سمعتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ يقول: (قريشٌ ولاةُ النَّاسِ في الخيرِ والشَّرِّ إلى يومِ القيامةِ). رواه الترمذي

٢. حدثنا عبد الله حدثني أبي حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن حبيب بن الزبير قال: سمعت عبد الله بن أبي الهذيل قال: كان عمرو بن العاص يتخولنا فقال رجل من بكر بن وائل لئن لم تنته قريش ليضعن هذا الأمر في جمهور من جماهير العرب وسواهم فقال عمرو بن العاص: كذبت سمعت رسول الله ﷺ يقول قريش ولاة الناس في الخير والشر إلى يوم القيامة. رواه أحمد

التعليق:

التعليق في المجموعة الثانية مكرر هنا وفيه إضافة:

لو أن الرواية كانت "قريش ولاة الناس" وفقط لكان بالإمكان تفسيرها على أنها طلب بصيغة الوصف، أي يكون المعنى أن قريشا هم من يجب أن يكونوا ولاة هذا الأمر. ولكن إضافة عبارة " إلى يوم القيامة" جعل النص أقرب إلى الوصف منه إلى الطلب. وهو وصف لم يتحقق منذ أن استلم العثمانيون الخلافة قبل ٥٠٠ سنة. وكذلك فإن هذه الرواية مخالفة لمفهوم آيات الاستبدال.

ز. المجموعة السابعة:

١. حدثنا أبو الوليد: حدثنا عاصم بن محمد قال: سمعت أبي، عن ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: (لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي منهم اثنان). رواه البخاري.

٢. حدثنا أحمد بن عبدالله بن يونس. حدثنا عاصم بن محمد ابن زيد عن أبيه. قال: قال عبدالله: قال رسول الله ﷺ (لا يزال هذا الأمر في قريش، ما بقي من الناس اثنان). رواه مسلم.

التعليق:

الحديث غريب وله سلسلة رواة واحدة وكل الرواة في هذا الحديث ثقات وعدول. ولكن تبقى مشكلة قاعدة أبي حنيفة فهذا النص كان يجب أن يشتهر بعد سقيفة بني ساعدة وخلاف علي مع أبي بكر. وكذلك فهي مخالفة لمفهوم آيات الاستبدال ومخالفة للواقع بعد استلام العثمانيين الخلافة.

ولكن هذا الحديث يمكن التوفيق بينه وبين نصوص الاستبدال وبينه وبين الواقع إذا أخذنا بعين الاعتبار أن الخلافة استمرت في قريش حتى تلاشى كيان قريش نفسه في السنوات الأخيرة من الخلافة العباسية.

ولكن يبقى هذا الحديث مخالفاً لقاعدة أبي حنيفة.

ح. **المجموعة الثامنة:**

١. حدثنا عبد الله حدثني أبي حدثنا أبو نعيم قال حدثنا عبد الله بن مبشر مولى أم حبيبة عن زيد بن أبي عتاب عن معاوية قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: أيما امرأة أدخلت في شعرها من شعر غيرها فإنما تدخله زورا. قال وقال رسول الله ﷺ: الناس تبع لقريش في هذا الأمر خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا والله لولا أن تبطر قريش لأخبرتها ما لخيارها عند الله عز وجل. قال وسمعت رسول الله ﷺ يقول: اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين وخير نسوة ركبن الإبل صالح نساء قريش أرعاه على زوج في ذات يده وأحناه على ولد في صغره. رواه أحمد

٢. حدثنا أبو اليمان: أخبرنا شعيب، عن الزهري قال: كان محمد بن جبير بن مطعم يحدث: أنه بلغ معاوية، وهو عنده في وفد من قريش: أن عبد الله بن عمرو بن العاص يحدث: أنه سيكون ملك من قحطان، فغضب معاوية، فقام فأثنى على الله بما هو أهله، ثم قال: أما بعد، فإنه بلغني أن رجالا منكم يتحدثون أحاديث ليست في كتاب الله تعالى ، ولا تؤثر عن رسول الله ﷺ، فأولئك جهالكم، فإياكم والأماني التي تضل أهلها، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إن هذا الأمر في قريش، لا يعاديهم أحد إلا كبه الله على وجهه، ما أقاموا الدين). رواه البخاري.

التعليق:

هناك من يقدح معاوية في عدالته بسبب حديث المعاداة (" اللهم وال من والاه عاد من عاداه" رواه أحمد) وحديث البغي ("ويح عمار تقتله الفئة الباغية يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار" رواه البخاري)، وهناك من لا يقدح بعدالته. ولا يريد المؤلف الجدال في هذه النقطة ولكن يبقى عبد الله بن عمرو بن العاص أعلى وأجل من معاوية فالأول من المهاجرين والثاني من الطلقاء.

ومهما كان الأمر فإن هذه الرواية تتعارض مع قاعدة أبي حنيفة وآيات الاستبدال.

من المناسب هنا ذكر فقرة من كتاب فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني والمتعلقة بهذا الموضوع:

بداية الاقتباس:

الحديث: حَدَّثَنَا أَبُو الْوَلِيدِ حَدَّثَنَا عَاصِمُ بْنُ مُحَمَّدٍ قَالَ سَمِعْتُ أَبِي عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: لَا يَزَالُ هَذَا الْأَمْرُ فِي قُرَيْشٍ مَا بَقِيَ مِنْهُمْ اثْنَانِ.

الشرح: حديث ابن عمر " لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي منهم اثنان " قال الكرماني: ليست الحكومة في زمننا لقريش فكيف الحديث؟ وأجاب عن ذلك بأن في بلاد الغرب خليفة من قريش وكذا في مصر، وتعقب بأن الذي في الغرب هو الحفصي صاحب تونس وغيرها وهو منسوب إلى أبي حفص رقيق عبد المؤمن صاحب ابن تومرت الذي كان على رأس المائة السادسة ادعى أنه المهدي ثم غلب أتباعه على معظم الغرب وسموا بالخلافة وهم عبد المؤمن وذريته، ثم انتقل ذلك إلى ذرية أبي حفص ولم يكن عبد المؤمن من قريش؛ وقد تسمى بالخلافة هو وأهل بيته.

وأما أبو حفص فلم يكن يدعي أنه من قريش في زمانه، وإنما ادعاه بعض ولده لما غلبوا على الأمر فزعموا أنهم من ذرية أبي حفص عمر بن الخطاب، وليس بيدهم الآن إلا المغرب الأدنى، وأما الأقصى فمع بني الأحمر وهم منسوبون إلى الأنصار، وأما الأوسط فمع بني مريم وهم من البربر.

وأما قوله: " فخليفة من مصر " فصحيح ولكنه لا حل بيده ولا ربط وإنما له من الخلافة الاسم فقط، وحينئذ هو خبر بمعنى الأمر وإلا فقد خرج هذا الأمر عن قريش في أكثر البلاد، ويحتمل حمله على ظاهره وأن المتغلبين على النظر في أمر الرعية في معظم الأقطار وإن كانوا من غير قريش لكنهم معترفون أن الخلافة في قريش ويكون المراد بالأمر مجرد التسمية بالخلافة لا الاستقلال بالحكم، والأول أظهر، والله أعلم.

انتهي الاقتباس.

❖ جدال المشككين والمتشددين

المقالة السابقة (الناس تبع لقريش) قد تسبب في ظهور الجدال خصوصا بين المشككين والمتشددين:

جدال المشككين:

إذا ثبت أن أحاديث خلافة قريش عليها علامات الاستفهام وهي الأحاديث التي رواها الجهابذة الأعلام فلماذا نثق بباقي الأحاديث النبوية؟

والجواب هو أن الإنسان ملزم في هذه الدنيا ضمن حدود علمه وإمكانياته، وخارج هذه الحدود فهو غير ملام. وضمن حدود العلم والإمكانيات فإن الرواية التي يتم توثيقها من ثقة حافظ عن ثقة حافظ عن ثقة حافظ عن ثقة حافظ عن كبار الصحابة عن الرسول عليه السلام هي رواية ذات مصداقية وذات صحة عالية والأصل فيها أخذها. ولكن يبقى الخطأ ممكناً بسبب النسيان أو الارتباك أو المرض أو العمر..إلخ. فالأصل في الرواة الثقات هو الثقة والقبول إلا إذا ظهرت قرائن تفيد عكس ذلك. وبالنسبة إلى حديث المصالحة وأحاديث خلافة قريش فإن المؤلف قد وضع الأسباب التي تجعله يرى ضرورة النظر بعمق إلى هذه الأحاديث وبحثها بجدية. ولكن هذه الأسباب تبقى متعلقة بهذه الأحاديث فقط ولا تتعداها إلى أحاديث أخرى.

وأفضل مثال على ذلك هو الرجل العالم المتمكن في علم النباتات ويقوم بوضع كتاب تصنيف في هذا العلم فإن هذا العمل سيتم اعتماده كمرجع. ولكن هذا المرجع لن يكون معصوما من الخطأ. فالعالم وكتابه ثقة ولكن ليس مستبعدا أن يتم اكتشاف بعض الأخطاء فيه. وهذه الأخطاء لا تقوم بنسف الثقة بهذا المرجع وإنما يبقى المرجع ثقة ويتم تعديل الأخطاء فيه.

ومع وضوح المنطق السابق فإن هذا لا يمنع رجل (وليكن اسمه جرير) إذا لم يعجبه الحديث في صحيح البخاري أن يقول إنه ثبت بعض الأخطاء في صحيح البخاري وربما يكون هذا الحديث منهم. وهذا المنطق من جرير هو "منطق السوبرجلو" (Superglue). ومنطق السوبرجلو هو المنطق الذي يستطيع أن يستعمله أي شخص مهما كان علمه أو جهله وفي أي وقت يريد وفي أي مكان. مثال ذلك هو العبارة المشهورة في فض النزاع: "امسحها بهاللحية" (امسحها بهذه اللحية). فهذه عبارة سوبرجلو إذ يستطيع أن يستخدمها أي الشخص وفي أي موقف يريد. وحتى الأولاد الصغار الذين ليس لديهم أي شعر على وجوههم تراهم يستخدمونها.

والمؤلف هنا لا ينتقد استعمال العبارة السابقة ولا ينتقد مستخدميها ولكن أراد المؤلف هنا شرح المقصود بالسوبرجلو. وكذلك جرير السابق ذكره فالمنطق

الذي يستخدمه يستطيع أن يستخدمه أي شخص دون أي جهد للتشكيك بأي قضية بما فيها القوى العقلية لجرير نفسه.

والحقيقة أن الأمور التي يمكن إثباتها بشكل قطعي محدودة جدا في هذه الحياة وأما باقي الأمور فهي مبنية على غلبة الظن. فالعلوم والمهارات الإدارية والسياسة والاستراتيجية وعلوم الطب وعلوم السلوك كلها علوم ومهارات مبنية على غلبة الظن. وعندما نأتي بحديث عن ثقة حافظ عن ثقة حافظ عن ثقة حافظ فإن هناك غلبة ظن على صحة هذا الحديث.

وقد اعتمد المؤلف في هذا الكتاب على الكثير من أحاديث الكتب الستة وأحمد دون تحقيق. ويكفي للمؤلف أن الستة وأحمد قد اجتهدوا قدر استطاعتهم على جمع الأحاديث الصحيحة. وإذا جاء جرير ولم يعجبه حديث في البخاري فعليه أن يسهر الليالي ويبحث السند والرواة وينظر إلى القرائن. فإن وجد القرينة التي تدعم وجهة نظره فكان به. ولكن إن لم يجد القرينة أو لم يجد الدافع لسهر الليالي فالأولى أن يسكت. فأنت لا تستطيع رد الثقة إلا بأدلة ثقة.

جدال المتشددين:

أما جدل المتشددين فهو أنه إذا نحن سمحنا لأي مناقشة تتعلق بالأحاديث التي رواها الجهابذة فإن هذا قد يؤدي إلى قيام الناس بالشك بجميع الأحاديث الأخرى. ولهذا فمن الخطأ والخطر الشديدين السماح بمثل هذه المناقشات.

والحرص هو أمر طبيعي عند الإنسان. وتجد الكثير من الفقراء من يكون كريما معطاءً ولكن عندما تبدأ الأموال تأتي إليه فستجد الكثير منهم يزداد حرصا.

وكذلك كان الحرص عند هاجر عليها السلام على ماء زمزم فقد قال الرسول عليه السلام: "رحم الله أم إسماعيل لولا أنها عجلت لكانت زمزم عيناً معيناً" رواه أحمد.

وكذلك حدث هذا الحرص لعبد الله بن مسعود:

عن شقيق بن سلمة قال: "كنت عند عبد الله وأبي موسى، فقال له أبو موسى: أرأيت يا أبا عبد الرحمن، إذا أجنب فلم يجد ماء، كيف يصنع؟ فقال عبد الله: لا يصلي حتى يجد الماء. فقال أبو موسى: فكيف تصنع بقول عمار، حين قال له النبي ﷺ: (كان يكفيك). قال: ألم تر عمر لم يقنع بذلك؟ فقال أبو موسى: فدعنا من قول عمار، كيف تصنع بهذه الآية؟ فما درى عبد الله ما يقول، فقال: إنا لو رخصنا لهم في هذا، لأوشك إذا برد على أحدهم الماء أن يدعه ويتيمم. فقلت لشقيق: فإنما كره عبد الله لهذا؟ قال: نعم" رواه البخاري.

وبالنسبة لوجهة نظر المؤلف فقد ترك سيدنا عبدالله بن مسعود الأولى في هذه النقطة ولكن الحرص هو أمر طبيعي عند البشر. وفي واقع الحال فإن الحرص هو أحد الأمور التي تمكر فيها الديناميكية بالمجتمعات، فكثرة الأموال في المجتمع سيجعل المجتمع أكثر حرصا للمحافظة عليها وشهرة الأعلام ستجعلهم أكثر حرصا للمحافظة على هذه الشهرة. وكانت إحدى كلمات نابليون (والتي لم يتقيد بها): من يحرص على المجد يفقده. وهذا ما حدث مع عبد الله بن مسعود وهو حرصه على الدين جعله يتشدد في الأمور.

وهناك وجهة نظر واضحة للمؤلف وهي أن الإسلام ليس كباقي العلوم والثقافات. فالإسلام جاء من رب العباد وضع الله أحكامه وجعل في هذه الأحكام ما يحافظ عليها.

وهنا نقطة جوهرية يجب الانتباه لها وهي أنه هناك فرق واضح بين أحكام الشرع وأحكام القانون. فهناك مصطلح مرتبط بأحكام القانون وهو "روح النص". والمقصود بهذا المصطلح هو المعنى الذي أراده واضع القانون عندما كتبه. وقد يحدث الخلاف بين الناس فيما يتعلق بالتعارض بين نص القانون وروح النص وتقوم محكمة التمييز بفض هذا الخلاف.

ولكن لا يوجد روح للنص في الإسلام . وإنما يوجد ظاهر النص ومفهوم النص. ويأتي ظاهر النص من المعنى اللغوي الحرفي للنص ويأتي مفهوم النص من القرائن وربط الأحاديث والنصوص بعضها ببعض.

ولهذا السبب فإن قيام البعض بالنظر إلى الأحاديث المتعلقة بتحريم الذهب والحرير على الرجال و الاستنتاج أن روح النص في هذه الأحاديث هو الزهد عن متع الدنيا ويقومون بتحريم الألماس والبلاتين والأحجار الكريمة هو خطأ شديد.

وكذلك فإن قيام الناس بمط الأحكام الشرعية أو خلق قواعد وفلسفات بهدف حماية "روح الإسلام " هو مضرة ليس فيها خير. وعند المؤلف الحجة في ذلك فقد قال الرسول عليه السلام: "عليكم هديا قاصدا فإنه من يشاد هذا الدين يغلبه" رواه أحمد في باقي مسند الأنصار. وقال عليه السلام: "إن هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق" رواه أحمد في باقي مسند المكثرين.

ولهذا السبب فإن حرص هاجر عليها السلام هو أمر مقبول لأنها حرصت على أمر من أمور الدنيا وهو المحافظة على الماء. ولكن تصرف سيدنا عبد الله بن مسعود لم يكن مناسبا؛ وذلك لأن أحكام الإسلام هي أمر الله وليست للمسلمين. فمسئولية المسلمين هي الحرص على تطبيق الأحكام والحرص على نشر الدين ولكن من الخطأ قيامهم بالحرص على روح الإسلام لأن الإسلام ليس فيه روح وجسد وإنما هو كل لا يتجزأ.

واعتمادا على ما سبق فإن قيام المتشددين بالحرص على روح الإسلام ومحاولة حمايته من التشكيك هو أمر خاطئ تماما؛ فقد أكمل الله هذا الدين ولا يحق لأحد أن يقوم بوضع التقييد فيه على هواه. فالعلماء مسئولون عن تطبيق الدين وشرحه وتعليمه ولكن هذا الدين ليس ملكهم يفعلون فيه ما يريدون.

ولهذا السبب فإن وجهة نظر المؤلف أن "تحري الصدق" هو الأولى اتباعه وقد قال الله تعالى ﴿...وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [التوبة]. ولهذا السبب فلا يحق لأحد أبدا منع أو تقييد الأبحاث ذات النية الصادقة.

❖ نظرة إلى الاستنكارات

انتبه لهذه العبارات:

* هل معقول أن يكون أبو بكر أرحم على المسلمين من الرسول عليه السلام؟ وهل معقول أن يقوم أبو بكر بالاستخلاف رحمة بالمسلمين ولا يفعلها الرسول عليه السلام؟

* هل معقول أن يكون الرسول عليه السلام في الجنة والنعيم وأن يكون جيرانه (أبو بكر وعمر) في النار والجحيم؟

* هل يمكن لرجل (عثمان بن عفان) أن يعطيه الرسول ابنتيه، بعد أن توفيت الأولى أعطاه الثانية. هل يمكن لهذا الرجل أن يكون من أهل النار؟

* لو أن الإسلام هو الدين الحق فهل معقول أن يسمح الرب الجبار العزيز لأحفاد رسوله وأهل بيت رسوله أن يتم ذبحهم واحدا تلو الآخر ظلما وعدوانا؟

الهدف من هذه المقالة هو التنبيه على أن الاستنكار ليس حجة وإنما قد يكون تنبيها. وعدم القدرة على إجابة الاستنكار لا يعني أبدا أن رأي الشخص خطأ وإنما يعني، وبكل بساطة، أن الجواب غير حاضر للرجل. وأما خطأ أو صواب الرأي فيعتمد على الأدلة التي يستند إليها الرأي. فإن كانت الأدلة راسخة فالرأي راسخ وإن كانت الأدلة ظنية فالرأي ظني وإن كانت الأدلة واهية فالرأي واهٍ.

وأما الاستنكار نفسه فقد يتم استخدامه للتنبيه والتثبيت. ومثال ذلك حديث عن أبي أمامة قال "أن فتى شابا أتي النبي ﷺ فقال يا رسول الله ائذن لي بالزنا فأقبل القوم عليه فزجروه وقالوا: مه مه فقال: أدنه فدنا منه قريبا قال: فجلس قال: أتحبه لأمك؟ قال: لا والله جعلني الله فداءك قال: ولا الناس يحبونه لأمهاتهم. قال: أتحبه لابنتك؟ قال: لا والله يا رسول الله جعلني الله فداءك قال: ولا الناس يحبونه لبناتهم قال: أتحبه لأختك؟ قال: لا والله جعلني الله فداءك قال: ولا الناس يحبونه لأخواتهم قال: أتحبه لعمتك؟ قال: لا والله جعلني الله فداءك قال: ولا الناس يحبونه لعماتهم قال: أتحبه لخالتك؟ قال: لا والله جعلني الله فداءك قال: ولا الناس يحبونه لخالاتهم قال: فوضع يده عليه وقال: اللهم اغفر ذنبه وطهر قلبه وحصن فرجه فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء" رواه أحمد عن أبي أمامة الباهلي.

فأسلوب الاستنكار هنا جاء للتنبيه والتثبيت ولكنك لا تستطيع أن تستخدم هذا الأسلوب لاستخراج الأحكام الشرعية؛ وذلك لأن الأحكام الشرعية لا تستنبط من بغض أو رغبة الناس بها وإنما يتم استنباطها من النصوص الشرعية.

والنقطة الرئيسية هنا أن عدم قدرتنا على الإجابة على الاستنكارات لا يعني أن رأينا خاطئ وقدرتنا على الإجابة على هذه الاستنكارات لا يعني أن رأينا صحيح. وإنما خطأ أو صواب الرأي يعتمد تماما على الأدلة التي يستند عليها هذا الرأي.

وأما بالنسبة إلى الاستنكارات السابقة فإن الاستنكار الأول قد تمت الإجابة عنه سابقا. وأما الثاني والثالث فإن أبا بكر وعمر وعثمان هم من أصحاب الجنة لأحاديث واضحة تتحدث عن ذلك. وأما الرابع فلا يوجد للمؤلف إجابة واضحة له ولكن أحد العِبَر من هذه القصة هي ضرورة الانتباه لمكر الأقدار لأنه إن كان لأحد من غير المرسلين أن ينجو من مكر الأقدار لكان الأولى هو سيدنا الحسين.

ولكن انتبه هنا... إن أحد أكثر السهام استعمالا في الدعاية السوداء هو الاستنكارات. فعندما مات عمار بن ياسر قال معاوية مستنكرا: " أو نحن قتلناه إنما قتله علي وأصحابه جاءوا به حتى ألقوه بين رماحنا أو قال بين سيوفنا" رواه أحمد.

وقال الأمريكان والإنجليز في تبريرهم للقتلى المدنيين في العراق وأفغانستان إن هذا هو ذنب الإرهابيين إذ إنهم يستخدمون المدنيين دروعا بشرية.

وعندما قتلت الشرطة الإنجليزية منيزيز البرازيلي (Jean Charles De Menezes) فإنه جاءت تعليقات في الصحافة بأن المسئولين الحقيقيين لهذه الجريمة إنما هم الإرهابيون وليس الشرطة الإنجليزية.

وقد تعرض حزب الله وحماس في عدوان ٢٠٠٦ وحرب غزة لاستنكارات شنيعة كان من بينها السخرية التي قالها أحدهم بأن حزب الله ربما نجح في أسر جنديين وربما يستطيع أن يفك أسراه ولكنه تسبب بمقتل ١٠٠٠ مدني وخسائر بمئات الملايين من الدولارات. وهذا هو استنكار غير مباشر وحاله يقول: أليس هذا جنوناً!

وهناك أسلوبان لمواجهة هذا النوع من الاستنكارات:

* أسلوب حزب الله وهو ترك هذه الاستنكارات تموت لوحدها وتنقلب بقوة الظروف إلى مدح وتقدير للحزب وانتقاد للظالمين.

* رد الاستنكار اللاذع بالجواب اللاذع.

لنقم بدراسة الأسلوب الثاني وليكن عن الاستنكار الذي تعرض له حزب الله:

هل ما فعله حزب الله حق أم باطل؟

إن الضعيف لا يمكنه أن يقوى وينتصر في خطوة واحدة، كما أنه لا يستطيع أن يقوى وسط الظروف المعادية دون أن يتعرض للخدوش والجروح. وقد حاربت روما هانيبال مدة ١٦ سنة وانهزمت منه في عشرات المعارك ومات منها مئات الألوف من الرجال ولكنها في النهاية تعلمت منه الأسرار واستطاعت في النهاية الانتصار عليه وتدمير دولته. وكذلك فقد مات أكثر من مليون مقاوم في الجزائر من أجل الاستقلال. وكذلك مات أكثر من ثلاثة ملايين مقاوم في فيتنام من أجل الاستقلال. وقد كانت إنجلترا وأمريكا تساند المقاومة ضد ألمانيا النازية وكان النازيون يقومون بإبادة قرى بأكملها انتقاما من المقاومة ولم يتم اتهام الإنجليز والأمريكان بأنهم السبب في إبادة هذه القرى.

ولكن انتبه هنا... الأسلوب السابق هو أسلوب نقاش فلسفي للرد على استنكارات لاذعة. وهذا الأسلوب لن ينجح لأن الذين يقومون بالاستنكار لا يهتمون بالحق ولا بالفلسفة وإنما يهتمون بتشتيت جهود أعدائهم والمناكفة بهم. وكذلك فإن الذي سيبقى في ذاكرة الناس ليس الجواب الفلسفي الطويل وإنما الاستنكار اللاذع القصير.

ولهذا السبب فإن الحوار الفلسفي لا ينجح في الرد على خبيث الاستنكارات وإنما خبيث الاستنكارات بحاجة إلى لاذع الأجوبة. وفي كثير من الأحيان فإن العلاج يأتي من جنس المشكلة ولاذع الأجوبة يأتي من الاستنكار نفسه.

مثال ذلك هو الرد المشهور لعلي بن أبي طالب على استنكار معاوية: "إذاً رسول الله هو الذي قتل حمزة وألقاه بين رماح المشركين".

وبالإمكان استخدام مثل هذا الرد ضد الاستنكارات التي قيلت ضد حزب الله وحماس:

* هل الرسول هو السبب في قتل أهل عمار بن ياسر في مكة؟
* هل الرسول هو السبب في عذاب الكثير من الصحابة في مكة؟
* هل موسى عليه السلام هو السبب في صلب وقطع وقتل السحرة أم فرعون؟
* وهل المقاومة الجزائرية هي السبب في موت المليون شهيد أم فرنسا؟

وكذلك قول الأمريكان والإنجليز إن طالبان مذنبة باستخدام المدنيين دروعا بشرية. والجواب هو: هل كان هتلر مصيبا في مسح القرى بأكملها لضرب المقاومة الفرنسية؟

وبالنسبة إلى قول باراك أوباما في دعوته لفتح صفحة جديدة من الاحترام المتبادل فإن الجواب هو: لنتساوى ونستد وبعدها نفتح تلك الصفحة.

وبالنسبة لقول أحدهم إن الخير والحق هو في المسامحة والمغفرة ونسيان الماضي. فإن الجواب هو: دعونا نتساوى ونستد وبعدها قوموا أنتم بمسامحتنا.

وبالنسبة إلى ساركوزي في قوله إن الأبناء لا يمكنهم أن يعتذروا عما فعله الآباء فإن الجواب هو: وكذلك أحفادنا فهم لا يمكنهم أن يعتذروا عما سيفعله أبناؤنا.

وكذلك عندما قامت إنجلترا وأمريكا باتهام إيران أنها محور الشر فإنه كان على إيران أن تصف إنجلترا وأمريكا بأنهم أكتاف الشر، نسبة إلى قول توني بلير أنهم سيقاتلون كتفا إلى كتف مع أمريكا.

على أية حال فإنه حتى وإن لم يكن بالاستطاعة الرد على الاستنكارات فإن عدم جوابها لا يعني أن رأينا صحيح أو أن رأينا خطأ وإنما يعني أنه لا يحضرنا الجواب. وأما الرأي فإنه يعتمد تماما على الأدلة التي يستند عليها ذلك الرأي.

وللأمانة فإن أحد أفكار هذه المقالة قد جاءت من تعليق ساخن لعبد الباري عطوان في قناة الجزيرة في رده على الاستنكارات الموجهة إلى حماس في حرب غزة. وكان أحد أجوبته هو التذكير بالمقاومة الجزائرية.

الفصل الحادي والثلاثون

فلسفات في دولة الخلافة

تهدف هذه المقالة إلى وضع مقترحات تتعلق ببعض الفلسفات لدولة الخلافة. وبالطبع فليس من الضروري أن تكون جميع الأفكار هنا صحيحة ولكنها ستكون مفيدة كبداية بحث.

وهذه الأفكار مبوبة كما يلي:

❊ نظام الانتخاب والشورى.

❊ القاعدة الفكرية السلوكية.

❊ اسم الدولة.

❊ البهائيون والخلافة.

❊ مسك العصا من المنتصف.

❊ الدرجات في أنظمة الحكم.

❊ اللغة العربية وأطراف الخلافة.

❊ الراية هي قطعة قماش.

❊ الخلافة الثانية هي ضرورة بشرية وهذا بمعناه الحرفي وليس المجازي.

❖ نظام الانتخاب والشورى

هناك تعريف واضح للنظام الديمقراطي (Democratic System) في الأدبيات السياسية والإدارية فهو "قيام المحكومين باختيار الحاكمين بانتخابات دورية حرة وصحيحة". وبالطبع فإن هذا التعريف هو تعريف مجازي وليس جامعا مانعا. ويمكن تعديل التعريف ليكون قريبا من الواقع بأنه قيام ممثلي المحكومين باختيار الحاكمين بانتخابات دورية حرة وصحيحة.

وأما المبدأ الديمقراطي (Democracy) فهو مصطلح مطاط له مفهوم في الوجدان ولكن ليس له تعريف واضح. ولكن هناك أمورًا واضحة يتضمنها هذا المبدأ منها:

* السماح للشعب باختيار قوانينه كما يريد.

* السماح للأفراد بممارسة حرياتهم كما يريدون ولكن دون أن يتعرضوا لحرية الآخرين.

الآن... النظام الديمقراطي لا يخالف الإسلام . واختيار عثمان بن عثمان للخلافة جاء بأسلوب الانتخاب غير المباشر. ولكن المبدأ الديمقراطي يخالف الإسلام وبشكل واضح وصريح.

وضمن غلبة ظن المؤلف فإنه من الضروري عدم القيام بخلق مصطلحات في الفكر الإسلامي ذات جذور مبهمة أو مخالفة وذلك لجعل الفكر الإسلامي ذا نقاء ودون شوائب. وأول من انتبه إلى هذه النقطة هو تقي الدين النبهاني في فهمه لقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [البقرة]. وعليه فقد اعترض تقي الدين على استخدام مصطلح "العدالة الاجتماعية" في الفكر الإسلامي حتى وإن تم تعريفه بشكل إسلامي لأن هذا المصطلح مأخوذ من المبدأ الديمقراطي وله جذور مخالفة للإسلام .

وكذلك في موضوع النظام الديمقراطي فإن الأولى عدم استخدامه في الفكر الإسلامي واختيار مصطلح آخر يحمل نفس التعريف. ولهذا السبب فإن المؤلف سيستخدم مصطلح "نظام الانتخاب والشورى" بديلا لمصطلح "النظام الديمقراطي".

وضمن النظر إلى التاريخ فإن نظام الانتخاب والشورى كان أثبت بكثير من النظام الوراثي. ولكن هذا يحتاج إلى توضيح:

استمرت الجمهورية الرومانية حوالي ٥٠٠ سنة ولكن الإمبراطورية الرومانية استمرت بعدها ١٠٠٠ سنة فكيف يكون النظام الجمهوري أثبت من النظام الوراثي؟

والجواب هو أن الإمبراطورية الرومانية قد تضمنت الكثير من السلالات. فقد كانت تقوم سلالة ثم تضعف ثم تنقلب عليها سلالة أخرى وهكذا. وكل عملية انقلاب كانت تؤدي إلى حرب أهلية وهذا أدى إلى ضعف مستمر في الدولة. وكان معدل عمر السلالة حوالي ٣٠ سنة. ولهذا السبب فإن المقارنة بين النظام الوراثي والنظام الجمهوري (الانتخاب والشورى) يجب أن تكون بين مدة الجمهورية ومدة السلالة.

ولكن نظام الانتخاب والشورى له نقطة ضعف حقيقية وهي أن التجار والأغنياء سينفذون (مع الوقت) إلى ثنايا النظام الحاكم. وستكون المشكلة كل المشكلة إذا حكم التجار الدولة. وهذا بالضبط الآفة التي أدت إلى انهيار قرطاجة (دولة هانيبال). وكذلك فإن نفوذ التجار (القوة الرأسمالية) المتحكم الآن في ثنايا النظام في إنجلترا وأمريكا هو أحد أهم الأسباب لترنح النظام عندهما.

انتبه هنا... المؤلف لا ينظر بسوء إلى التجار وإنما العكس تماما فالتجار لهم وظيفة حيوية في اقتصاد الدولة. والمصانع والخدمات لا يمكنها أن تنجح وتتطور ما لم يقم بإدارتها التجار. ولكن تبقى نظرة التجار قصيرة المدى ويبقى انتباه التجار (وبشكل غريزي) نحو الأرباح وليس نحو المجد والعلا. ولهذا السبب فمن الضروري قيام الدولة برعاية التجار (فمنهم يأتي الخبز والملح) ولكن يجب ألا يتحكم التجار في صناعة القرارات السياسية والاستراتيجية.

وهذه هي المشكلة الحقيقية لنظام الانتخاب والشورى. فالنظام يبدأ بطاقات استراتيجية ورغبات وطنية وأهداف عالية نحو المجد والعلا. ثم يبدأ التجار بالنفوذ شيئا فشيئا (وبشكل طبيعي وعبر عقود من الزمن) إلى ثنايا النظام الحاكم وليصبح

النظام بعدها بيد التجار ولخدمة أهداف ورغبات التجار. وحيث إن نظرة التجار قصيرة فإن إدارة التجار للدولة ستؤدي للانهيار.

انتبه... نفوذ التجارإلى ثنايا الدولة يكون بشكل طبيعي ودون أية نية سيئة. فالتجار عندهم القوة المالية والسياسيون عندهم القوة السياسية وكبار الموظفين في الدولة عندهم القوة التنظيمية ومن الطبيعي قيام هذه القوى بالتشاور والتعاون لتحقيق أهداف الدولة، ومن هنا يبدأ نفوذ التجار بالدخول إلى ثنايا النظام. وضمن تخمين المؤلف فإن دخول التجارإلى ثنايا النظام في روما قد بدأ حوالي ٣٠٠ ق.م وذلك عندما بدأت روما بالسيطرة الحقيقية على جميع إيطاليا. ولكن آفة الرشوة بدأت تظهر في روما منذ حوالي ١٥٠ ق.م وذلك بعد أن فرضت روما هيبتها على العالم وبدأت الخيرات تهب من كل صوب إلى روما.

وخلاصة القول هو أن نظام الانتخاب والشورى هو أفضل بكثير من الأنظمة التي سبقته ولكنه بحاجة إلى تطوير.

وفي كتاب سابق للمؤلف (فلسفات الحكم والدستور - ١٩٩٧) قام المؤلف بوضع نموذج مقترح لدستور دولة الخلافة وكانت أعمدة هذا النموذج تقوم على ما يلي:

* جواز بيعة الخليفة إلى أجل (أي أن تكون الانتخابات دورية للخلافة). وكان الحجة في ذلك أن الأجل شرط مقبول في العقود إلا باستثناء صريح. والبيعة عقد ينطبق عليها أحكام العقود. وأما إجماع الصحابة على ديمومة البيعة فهذا يدل على جواز الديمومة ولا يعني حرمة البيعة لأجل. فإجماع الصحابة على لقب أمير المؤمنين للخليفة لا يعني أن اختيار لقب آخر حرام. وحيث إن الأجل شرط مقبول في العقود إلا باستناء صريح، وحيث إنه لا يوجد أي دليل صريح يقوم بتحريم الأجل في عقد البيعة، فإن وضع الأجل في البيعة يكون جائزا.

* مجلس الفقهاء. وهو المجلس الذي يقوم بمراجعة قرارات واجتهادات الخليفة (والسلطة التنفيذية) والتأكد أنها لا تخالف أحكام الشرع. وحجة المؤلف لهذا المجلس هو حديث عن علي كرم الله وجهه أنه قال : "قلت يا رسول الله إن نزل بنا أمر ليس فيه بيان أمر ولا نهي فما تأمرنا ؟ قال: شاوروا الفقهاء والعابدين ولا تمضوا فيه خاصة" . ذكره الهندي في كتابه كنز العمال(٤١٨٨)وقال عنه حسن صحيح .

* المجلس العالي. وهو المجلس الذي يراقب تصرفات الخليفة (والسلطة التنفيذية) وذلك لضمان أن سياسات الخليفة وقراراته ومخططاته لا تؤدي إلى دمار الدولة. وحجة المؤلف في هذا المجلس هو:

١. حديث السفينة: قال رسول الله عليه السلام: "مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها فكان الذين في أسفلها إذا استسقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا" رواه البخاري. والخليفة غير مستثنى من هذا الحديث فهو قد يقوم بأعمال جائزة لكنها قد تؤدي إلى هلاك الدولة (بالضبط كما حدث في معركة الجسر بين المسلمين والفرس). ولهذا فمن الضروري وجود مجلس يقوم بالنظر في سياسات الخليفة وقراراته.

٢. لقد وصف الرسول عليه السلام أبا عبيدة بن الجراح بأنه أمين هذه الأمة. والسؤال هنا إذا كان هذا منصباً سياسياً أم هو وصف ومدح؟. ونظرة المؤلف هنا أنه كان منصباً سياسياً.

٣. لقد بشر الرسول عليه السلام وبشكل خاص ١٠ من المهاجرين بالجنة. ونظرة المؤلف أن هذا التبشير قد أعطى لهؤلاء الصحابة مركزاً سياسياً. وهو ما استأنس فيه المؤلف كدليل على مشروعية المجلس العالي.

وبعد أن نشر المؤلف ذلك الكتاب سأله صديق إن كان قد اطلع على الدستور الإيراني وأجابه المؤلف أنه لم يفعل، فأخبره ذلك الصديق أن الكتاب قريب جدا من الدستور الإيراني .

ولم يهتم المؤلف وقتها بمراجعة الدستور الإيراني حيث إنه كان في ذلك الوقت يرى أن الخط السياسي لإيران هو نفسه الخط السياسي لعبد الناصر أي أن إيران متجهة نحو الارتباط الكامل مع أمريكا كما ارتبطت مصر مع أمريكا. وقد تبين الآن خطأ هذه النظرة والمؤلف معذور في هذا الخطأ فإن خدعة خاتمي لم تَنْطلِ على المؤلف فقط وإنما انطلت على الكثير من الناس. ولم يهتم المؤلف بمطالعة الدستور الإيراني إلا بعد عام ٢٠٠٦ عندما كشرت إيران عن أنيابها وأظهرت مخالبها.

وظهر أن تعليق الصديق كان صادقا فهناك تشابه بين دستور الكتاب والدستور الإيراني وخصوصا في مجلس الخبراء والذي يقابل المجلس العالي عند المؤلف. ومن اطلاع المؤلف على صلاحيات مجلس الخبراء فقد انتبه إلى اقتراح يضمن التوازن بين التجار والدولة.

والاقتراح هو عمل المجلس العالي (مجلس الخبراء) بحيث يكون أعضاؤه من العلماء ذوي المهارة والمعرفة والإدراك. وألا يكون لأعضاء المجلس أي علاقة لهم بالمؤسسات التجارية والصناعية والاقتصادية في البلاد. وأن يتضمن المجلس آليات واضحة تضمن التزام أعضاء المجلس بالنزاهة ومكارم الأخلاق، فالشتيمة وسرعة الاتهام غير لائقة بالعلماء وهي كذلك غير لائقة بأعضاء المجلس العالي.

وضمن هذا الاقتراح فإن المجلس العالي لا يتدخل بصناعة الخطط والسياسات واتخاذ القرارات وإنما هو جهاز إشراف على النظام ويتحقق من نزاهة الإدارات العليا في سلطات الدولة والجيش ويتحقق من توازنات القوى في الدولة ويكون المرجعية إذا شعرت الأجهزة الإدارية أن قرارات الخليفة (والسلطة التنفيذية) ستؤدي إلى هلاك الدولة.

والنقطة الأساسية في هذا الاقتراح هو الابتعاد التام من أعضاء المجلس العالي عن النشاطات التجارية والاقتصادية. وهذا الترتيب من الممكن تحقيقه في المبدأ الإسلامي وله سوابق واضحة في التاريخ إذ من الممكن جمع العلماء من المسلمين ذوي الذكاء العالي والاطلاع الواسع وتكون أنفسهم عفيفة عن النشاطات التجارية.

وإذا تم تحقيق هذا الترتيب فإنه سيشكل ضمانة لتوازن القوى في الدولة بين التجار من جهة وبين الإداريين من الجهة الأخرى.

❖ القاعدة الفكرية السلوكية

كما تم تبيانه في مقالة سابقة (القوة الدافعة المبدئية) فإن القاعدة الفكرية تقوم بربط الجماعة وتحويلها إلى كتلة صلبة. ولكن عواقب هذا الأمر أنه كلما زادت صلابة الجماعة كلما زاد النفور بينها وبين الجمهور. وهذه هي العقدة في القاعدة الفكرية للجماعات.

انتبه هنا... المؤلف هنا لا يتحدث عن العقيدة ومحكم الأحكام وإنما يتحدث عن القواعد الفلسفية التي اختارتها الجماعة والتي تحدد وجهة نظرها في المجتمع والحياة.

وضمن انتباه المؤلف للتاريخ فهناك جماعة واحدة استطاعت تجاوز هذه العقدة بنجاح وهذه الجماعة هي الزيدية. وهؤلاء هم أتباع الإمام زيد بن على زين العابدين.

ونقطة الملاحظة في الزيدية أن الفكرة الوحيدة التي اتفقت عليها أجيال الزيدية هي أن على بن أبي طالب هو أولى بالخلافة من أبي بكر ولكن بيعة أبي بكر صحيحة وأنه تجوز بيعة المفضول عن الأفضل. وأما الأفكار الفقهية والأصولية فقد اختلفت عليها الزيدية عبر تاريخهم. ولهذا فلا يمكن اعتبار الزيدية مذهباً فقهياً حيث إن القواعد الفقهية والأصولية عند الزيدية ليست متطابقة عبر الأجيال.

وهنا يأتي السؤال: كيف استطاعت الزيدية البقاء كتلة صلبة عبر التاريخ مع عدم وجود قواعد فقهية وفلسفية مشتركة عندهم؟؟

والجواب هو أن الزيدية قد استطاعت (وبتأثير الإمام زيد ومسنده) من خلق قواعد فكرية سلوكية تم نقلها من جيل إلى جيل. وهذه القواعد السلوكية ليست واضحة في كتاباتهم ولكنها واضحة في تعليقاتهم وسلوكياتهم ومتشابهة عبر أجيالهم. وإحدى النظرات السلوكية الواضحة تعتمد على نص في مسند الإمام زيد أن رجلا سأل علي بن أبي طالب: "يا أمير المؤمنين أكفر أهل الجمل وصفين وأهل النهروان؟ قال: لا، هم إخواننا بغوا علينا فقاتلناهم حتى يفيئوا إلى أمر الله عز وجل". ويبدو أن هذا النص هو ما جعلهم يتعاملون بقدر عالٍ جدا من التسامح مع باقي المذاهب الإسلامية. وهناك قاعدة سلوكية أخرى واضحة عند الزيدية فقد اعتبرت الزيدية أن التقليد عيب شديد على العلماء، ويبدو أن هذا هو السبب في اختلاف الأفكار الفقهية عبر الأجيال عند الزيدية.

ولكن ما الفرق بين القواعد الفكرية السلوكية والدعوة إلى الأخلاق؟

الدعوة إلى الأخلاق مصطلح تستخدمه بعض الجماعات كالإخوان المسلمين وشهود يهوه(Jehova's Witnesses) . وهذا المصطلح يتعلق بنشر الأخلاق عن طريق الوعظ والإرشاد. وأما القواعد الفكرية السلوكية (كالذكاء الجماعي) فهي فلسفة يتم نشرها بالنقاش الفلسفي.

وهنا النقطة......... فالقاعدة الفكرية السلوكية هي قاعدة فلسفية تصلح أن تكون صمغا يربط أطراف الجماعة (أو الدولة) ولا يؤدي بالضرورة إلى نفور الجمهور.

وهذه الفكرة تفتح مواضيع جديرة بالدراسة:

إن دولة الخلافة الثانية ستمتد إلى مشارق الأرض ومغاربها. وفي هذه الحالة فإنه من الممكن أن يكون غير المسلمين في الدولة أكثر عددا من المسلمين. وفي دولة

الخلافة فإن العامود الفقاري هم المسلمون ولكن في الجسم عظام أخرى غير العامود الفقاري.

وإنها ستكون مشكلة كبيرة إذا نظر غير المسلمين إلى المسلمين أنهم قوة احتلال. وهنا يأتي السؤال: كيف يمكن خلق ولاء من غير المسلمين تجاه دولة الخلافة؟؟

والجواب بسيط وهو نشر مفاهيم الذكاء الجماعي (القواعد الفكرية السلوكية) ومفاهيم الرعاية والعدالة (رعاية وعدالة المجتمع للناس).

وبالتالي فهناك ثلاثة أمور تربط المسلمين بدولة الخلافة وهي الإسلام والقاعدة الفكرية السلوكية ومفاهيم الرعاية والعدالة. وهناك أمران يربطان غير المسلمين بدولة الخلافة وهما القاعدة الفكرية السلوكية ومفاهيم الرعاية والعدالة. وكما تم تبيانه فإن القاعدة الفكرية السلوكية هي فلسفة وتصلح أن تكون صمغا كافيًا لربط الجماعة والدولة.

والسؤال التالي: هل هذه الفكرة واقعية أم وهم؟ بمعنى هل من الممكن خلق ولاء من غير المسلمين تجاه دولة الخلافة؟

هناك أمثلة تاريخية تسمح بالاستنتاج بأن الفكرة السابقة فكرة واقعية. وأحد هذه الأمثلة هو الإمبراطورية الإنجليزية. فقد استطاعت هذه الإمبراطورية خلق ولاء حقيقي لها من غير الإنجليز لنظام الحكم الإنجليزي. واستمر هذا الولاء فترة طويلة من الزمن. وكذلك الحال مع الإمبراطورية الرومانية.

وهذه الفكرة تدفع إلى بحث موضوع أهل الذمة:

أهل الذمة (أهل العهد) هو الاسم الذي أطلقه المسلمون لوصف غير المسلمين في الدولة. وهناك نظرة عند المسلمين أن أهل الذمة هم مواطنون درجة ثانية. وهذه النظرة ربما كانت مفيدة في بداية نشوء الدولة ولكنها غير مفيدة الآن. وبالطبع فإنه في أوقات الشدة والخوف والخطر فإن المسلمين هم أمة واحدة من دون الناس ولكن هذا لا يعني أن يكون هناك مواطنون درجة أولى ومواطنون درجة ثانية.

وضمن وجهة نظر المؤلف فإن المسلمين وأهل العهد هم مواطنون درجة أولى ولكن توجد دائرة خاصة بأهل العهد لهم فيها حقوق وواجبات خاصة وهناك دائرة خاصة للمسلمين لهم فيها حقوق وواجبات خاصة.

وأحد الحقوق الخاصة لأهل العهد أن الخمر هي مال مقوم عندهم ويحق لهم بيعها وشراؤها أما المسلمين فالخمر ليست مالاً مقوماً لهم ولا يحق لهم اقتناؤه وشراؤه وبيعه. وكذلك فإن الجندية إلزامية لكل مسلم وقت الحرب وهي اختيارية لأهل العهد. وبالنسبة للحقوق الخاصة للمسلمين فإن المناصب السيادية في الخلافة هي للمسلمين (خليفة وكبار الوزراء وكبار قادة الجيش والأجهزة الإدارية..إلخ). وهذا هو المعنى بأن المسلمين هم العامود الفقاري للدولة.

وخارج الدائرة الخاصة فإن الجميع متساوون في الحقوق المدنية ولا يجب أن يكون هناك فرق في هذه الحقوق بين أهل الذمة وأهل الملة. وهناك سابقة في هذا الأمر وهو تصرف ابن تيمية مع المغول عندما فاوضهم على الأسرى فقد حاولوا الاتفاق معه على تسليم الأسرى المسلمين والإبقاء على الأسرى غير المسلمين فقال: أهل الذمة قبل أهل الملة.

ويوجد هنا نقطة فرعية عن الزيدية والسنة:

إن مصطلح أهل السنة لم يأت كوصف مضاد للشيعة ولم تكن السنة مذهباً بل كانت مبدأً أصولياً. وحسب أفضل المعلومات عند المؤلف فإن قصة أهل السنة بدأت كما يلي:

وصلت مرحلة في منتصف القرن الثاني الهجري لم يعد الناس تعرف الحديث النبوي الحق من الحديث الكذب وأصبح كل من يريد جدالاً يقوم بتأليف حديث يساند رأيه. وأصبحت الأحاديث الملفقة كثيرة ومتوفرة لكل من يريد. وظهرت فرقتان أولاهما رفضت الحديث برمته وبدأت تأخذ بالقرآن فقط، والثانية وهم الشيعة الاثنا عشرية فقد أقرت بعصمة الأئمة، فكل ما أقره الإمام يكون حقًا. وأما

غالب علماء المسلمين فكانوا في حيرة حقيقية إلى أن تقدم أحدهم بفكرة كانت كجمرة لامست الحطب. والفكرة هي اعتماد الحديث الذي يتم أخذه عن ثقة حافظ عن ثقة حافظ عن ثقة حافظ عن الصحابة الكرام عن الرسول عليه السلام. والثقة والحفظ لهما شروط واضحة ومن اتفقت صفاته مع هذه الشروط تم اعتماده ومن خالفها تم تركه. ومن هذه الفكرة نشأ علم الجرح والتعديل وسمي العلماء الذين تبنوا هذا المبدأ بأهل السنة والحديث، ثم غلبت عليهم عبارة أهل السنة.

وإن صدقت هذه القصة فإن الزيدية مذهب رئيسي من مذاهب أهل السنة. ومن الجدير بالذكر أن أشهر علماء الزيدية المعتمدين لكثير من أهل السنة الآن هما محمد الشوكاني صاحب كتاب نيل الأوطار، ومحمد بن الأمير صاحب كتاب سبل السلام.

❖ اسم الدولة

اسم الدولة الإسلامية هو دولة الخلافة. وهذا الاسم جاء ذكره بأحاديث عدة للرسول عليه السلام.

ولكن هناك قصة مشهورة ومنسوبة إلى عمر بن الخطاب أنه غير اسم الجزية إلى صدقة وزاد عليها لبني تغلب. وهذه القصة ليست مروية في الصحاح الستة وأحمد ولكنها مروية في كتب التاريخ المختلفة وقد رواها الشافعي واستند إليها في كتاب الأم في موضوع الصدقة تحت باب "الحكم في قتال المشركين ومسألة مال الحربي" وهي كذلك مذكورة في كتب فقهية أخرى.

واستئناساً بهذه القصة فإن غلبة ظن المؤلف أنه يُمكن تسمية دولة الخلافة بأسماء مختلفة أخرى كافية لإرضاء جميع الرعايا. فاسم الدولة للمسلمين هو الخلافة واسمها لغير المسلمين هو أي اسم معقول يرضونه. فيمكن أن يقوم غير المسلمين بتسمية الدولة كونفيدرالية أو اتحاد أو إمبراطورية أو أي اسم آخر.

والنقطة هنا أن العامود الفقاري للدولة هو المسلمون واسم الدولة عند المسلمين هو الخلافة الإسلامية ولكن لا يجد المؤلف أي مشكلة في قيام غير المسلمين بتسمية

الدولة اسماً آخر مقبولاً. ففي كثير من الأحيان تكون الحكمة في عدم الاختلاف والتنافر من أجل الألفاظ.

وللأمانة فإن المؤلف انتبه لهذه النقطة في أحد حلقات قناة الجزيرة مع يوسف القرضاوي.

❖ البهائيون والخلافة

البهائيون وغيرهم هم أخطاء ارتكبها العالم الإسلامي، وعلى المسلمين اليوم تحمل هذه الأخطاء. فلو أن الدولة الإسلامية قد قبضت على ميرزا حسين (الملقب ببهاء الله) واستتابته وحكمت عليه بأحكام الإسلام لما انتشرت الديانة البهائية، ولكن تراخت يد المسلمين وانتشرت هذه الديانة وأصبح أعدادهم بالآلاف.

وهنا يأتي السؤال: ما هو موقف الخلافة من البهائيين وغيرهم؟

ووجهة نظر المؤلف أن معاملتهم يجب أن تكون كمعاملة أهل الذمة. أي أنهم غير مسلمين ولكنهم مواطنون درجة أولى في الحقوق المدنية كباقي أهل الذمة.

نحن الآن بحاجة إلى النظر إلى تاريخ الديانة المسيحية لوجود تشابه بين نشأة المسيحية والبهائية:

عندما ارتفع المسيح عليه السلام استلم قيادة أتباعه أحد أقاربه واسمه يعقوب الرشيد (James the Just). والسبب في تحوير اسم يعقوب إلى جيمز هو أن قصة يعقوب قد تم ترجمتها إلى اليونانية ثم الأسبانية ثم الإنجليزية ومن خلال هذه الترجمات تحول اسم يعقوب إلى جيمز.

واختار أتباع المسيح اسم "النصارى" لهم (Nazarates) وذلك نسبة إلى اسم الشهرة للمسيح عليه السلام فقد كان اسمه عيسى الناصري (Jesus of Nazareth) نسبة إلى مدينة الناصرة.

وهنا نقطة اعتراض:

اسم عيسى عليه السلام هو يهوسو (Yehosua) ومعناه نجدة الله (God Rescues) وبالتالي فالاسم الذي كان المسيح مشهورا به هو يهوسو الناصري. وبالطبع فإن الاسم "يسوع" المتداول في بلاد الشام هو تعريب صحيح للاسم "يهوسو". ولكن القرآن قام بقلب الاسم من يسوع إلى عيسى ولأسباب غير واضحة. ولكن تخمين المؤلف هو أن الاسم "يسوع" هو صيغة للفعل على وزن يضوع ويجوع ويدور ويصول ويبور..الخ وربما أن هذه الصيغة غير مناسبة لتسمية الأنبياء فتم قلب الاسم. وقد حاول المؤلف البحث عن أمثلة أخرى شبيهة ولكنه لم يجد إلا مثالا واحدا. وللأسف فإن هذا المثال ليس جديرا بالمقارنة فشتان بين الثريا والثرى ولكنه المثال الوحيد الذي انتبه له المؤلف: فحركة التحرير الفلسطينية كان اسمها المختصر هو "حتف" ولكن الاسم لم يكن مناسبا فتم قلب الاسم فصار "فتح".

والنصرانية لم تكن ديانة جديدة وإنما كانت مذهبا يهوديا. ويجب أن ينتبه القارئ إلى أن المسيح عليه السلام لم يتمم دعوته وإنما رفعه الله إليه إلى حين. وقد قال الله تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ﴿٢١﴾﴾ [المجادلة]. والمسيح قد رفعه الله إليه مغلوبا وليس غالبا، وهذا معناه هو حتمية رجوعه لإتمام الدعوة.

ولهذا السبب فإن النصارى كانوا وقتها ملتزمين بقوانين موسى عليه السلام (التوراة).

وبعد سنوات قليلة من ارتفاع المسيح آمن بطرس (Paul of Tarsus) به وأصبح يدعو للنصرانية. ولكنه وجد آذانا صاغية عند غير اليهود (Gentile) كاليونانيين والآراميين والرومان في فلسطين والشام. ولكن كانت هناك مشكلة وهي أن هؤلاء الناس لم يقبلوا بالختان (وخصوصا الكبار) ولم يقبلوا بالتخلي عن لحم الخنزير أو التخلي عن طقوس الأعياد. واستشير يعقوب فأفتى للمؤمنين الجدد بعدم الاختتان (وهذا ليس مستغربا فإن الاختتان لم يكن من قوانين موسى وإنما هو من عادات إبراهيم) ولكن يعقوب رفض المساس بقوانين موسى.

واستمر بطرس بدعوة غير اليهود ولكن دون أن يفرض عليهم قوانين موسى. وهنا بدأت الفجوة تظهر بين يعقوب وبطرس. ومع الوقت فقد واجه بطرس مشكلة وهي أنه كان يتحدث باسم يعقوب دون أن يلتزم بتعليماته وهذا أدى إلى تساؤلات في مصداقيته أمام المؤمنين الجدد. وجاء بطرس إلى القدس ومعه الصدقات من المؤمنين الجدد في محاولة منه لردم الفجوة بينه وبين يعقوب ولكن يعقوب رفض الصدقات وتبرأ منه وتم تسليم بطرس إلى المحكمة اليهودية والتي حكمت عليه بالكفر والإعدام. وهنا أظهر بطرس (وبشكل مفاجئ وغير مفهوم حتى هذه اللحظة) أنه يحمل الجنسية الرومانية. وكانت الجنسية الرومانية وقتها خاصة لأهل روما وبعض الولايات الأخرى. وكان القانون الروماني أن أي حكم بالإعدام لأي مواطن روماني يجب أن يتم تصديقه في روما.

وتم ترحيل بطرس إلى روما (وكان ذلك حوالي ٦٠ م) وهناك قام بكتابة رسائله المشهورة وقام بتكوين ديانة جديدة سماها المسيحية (نسبة إلى المسيح) ووضع نظريته التي تقول إن المسيح قد تم صلبه تكفيرا لذنوب المؤمنين وعليه فإن قوانين موسى لم تعد ملزمة. ولكنه احتفظ بالوصايا العشر من قوانين موسى عليه السلام.

وتم إعدام بطرس في روما في حوالي ٦٤م وذلك بأوامر من الإمبراطور نيرو وليس بسبب معتقداته وإنما ككبش فداء للحريق الذي حدث في روما وقتها.

وضمن وجهة نظر منطقية فإن دعوة بطرس لم يكن لها أي أمل في الاستمرار بالضبط كدعوة فاراخان (Farrakhan) في أمريكا. فقد أقام فاراخان حزبا سماه أمة الإسلام ليس فيه من الإسلام إلا الاسم فقط. وقد انتشر فترة من الوقت وأصبح له أتباع كثيرون. ولكن مع الزمن ومع الزيارات التي كان أتباع فاراخان يقومون بها إلى العالم الإسلامي فقد انتبه الأتباع إلى ضلال فاراخان (بمن فيهم ابنه) وتلاشت دعوته. وكذلك كان سيحدث مع الديانة المسيحية لولا ظهور منعطف مصيرى في تاريخ اليهودية هو الثورة اليهودية ضد الرومان عام ٦٦م والتي انتهت عام ٧٣م بتدمير القدس وتهجير الكثير من اليهود خارجها بمن فيهم النصارى (حيث كان

النصارى يعتبرون أنفسهم يهودا). وهنا أصبحت المسيحية هي الصوت الوحيد المسموع للمسيح عليه السلام.

وهذا هو السبب (ضمن غلبة ظن المؤلف) أن القرآن لا يعترف بالمسيحية كديانة سماوية وإنما اعتبرهم انشقاقا من المذهب النصراني. ولم يقم القرآن ولا الرسول بذكر المسيحية وإنما وصفوا المسيحيين بالنصارى وهي لفظة كانت في طور الاختفاء من التداول وقت الإسلام.

وأما الإنجيل الذي أنزله الله تعالى فإنه ما زال لغزا لأن الأناجيل الأربعة المشهورة ليست أناجيل سماوية وإنما هي كتابات إنسانية. فإنجيل متى هو في الحقيقة قصة حياة المسيح تأليف متى، وإنجيل مرقس هو قصة حياة المسيح تأليف مرقس، وكذلك إنجيل لوقا وإنجيل يوحنا.

دعونا نرجع الآن إلى البهائية:

نقطة التشابه بين البهائية والمسيحية أن كليهما انشقاق. فالمسيحية هي انشقاق عن النصرانية كما أن البهائية هي انشقاق عن الإسلام . ومع هذا فإن الإسلام قد أقر المسيحية بأنهم أهل ذمة وعهد. ومهما كانت أفكار البهائية فإن أفكارهم أخف من قول الله تعالى: ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ۝٩٠ أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا ۝٩١ ﴾ [مريم].

وخلاصة القول هنا أن البهائية خطأ كان يجب أن يتداركه المسلمون قبل وقت طويل. أما وقد وصل أعضاؤه إلى الآلاف فإن الأمر اختلف ونظرة المؤلف أنه كما تم اعتبار المسيحية من أهل الذمة والعهد (وهي حركة انشقاق عن النصرانية) فيجب كذلك اعتبار البهائية من أهل الذمة والعهد.

وهناك نظرة أخرى يجب الانتباه لها:

لنفترض أن الخلافة الإسلامية قد رفضت البهائية تماما. فماذا يجب عليها أن تفعل؟

هل تقوم الخلافة بحفر أخدود وتجمع البهائية وترميهم فيه؟

هل تقوم الخلافة بحرمان البهائية من الحقوق المدنية؟ وهل سيأخذ البهائي ابنه المريض إلى المستشفى ليقول له الحارس: أنت بهائي. ولا يحق لك العلاج في هذا المستنفى فاذهب إلى مستشفى آخر؟

هل سيتم طرد التلاميذ البهائيين من المدارس بحجة أنهم مواطنون درجة ثانية؟؟

وإذا قامت الخلافة بما سبق فهذا معناه أنها تقوم بنفس أعمال الظالمين سابقا وبنفس أعمال الظالمين الآن.

وهنا نظرة المؤلف وهو اعتبار البهائية وغيرهم غير مسلمين ومن أهل الذمة والعهد.

ولكن إذا جاء أحد البهائيين وصرخ في السوق أنه مسلم وأن الدولة تعتبره غير مسلم فإن جواب الدولة يجب أن يكون: يا مرحبا بك. وتطلب منه إحضار علمائه لنقاش علني مفتوح.

وهنا ملاحظة أخرى: وهي أن البهائية والإسماعيلية لهما جذور إسلامية. ولهذا السبب فإنه بالإمكان إنهاء البهائية والإسماعيلية وبأسلوب الخطوة - خطوة ودون عنف أو اضطهاد ولكن هذا يحتاج إلى برودة أعصاب وسماحة أخلاق ووقت.

وهنا يأتي سؤال طبيعي: من هو المسلم؟

إن أثقل شيء في الذرة هو النواة ولكنها في نفس الوقت لا تأخذ من الذرة إلا الحجم الضئيل. وكذلك الإسلام فإن أثقل شيء فيه هو النواة ولكن حجم النواة فيه صغير. والنواة في الإسلام هي النصوص الشرعية الصريحة في المعنى (أي أنه لا معنى لها إلا معنى واحدا فقط) والمتواترة في السند.

والدليل على ذلك قول عبادة بن الصامت: "دعانا النبي ﷺ فبايعناه فقال: فيما أخذ علينا أن بايعنا على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا وعسرنا ويسرنا وأثرة علينا وألا ننازع الأمر أهله إلا أن تروا كفرا بواحا عندكم من الله فيه برهان" رواه البخاري ومسلم.

فالتكفير بحاجة إلى برهان. والبرهان في لسان العرب هو "الحجة الفاصلة البينة، يقال برهن يبرهن برهنة إذا جاء بحجة قاطعة للدد الخصم".

وأما المنكرات خارج النواة فهي ضلال وليست كفراً. فقيام الشخص بشتم كبار الصحابة ليس كفرا وإنما ضلال والدليل على ذلك هو قيام الخوارج بشتم عثمان بن عفان وعائشة أم المؤمنين وعلي بن أبي طالب ومع هذا فقد وصفهم على أنهم "إخوان لنا بغوا علينا".

وهناك نقطة أخرى وهو وجود فرق بين الكفر والتكفير. فالكفر هو أمر بين الشخص وربه أما التكفير فهو الاتهام بالكفر:

لنفترض أن التكنولوجيا قد وصلت إلى درجة عالية من الدقة وأصبحت تقرأ ما في صدر الإنسان. ولنفترض بالصدفة أننا ربطنا هذا الجهاز إلى شخص وأظهر الجهاز أن هذا الشخص يكفر ويسخر ويستهزئ بكل شيء في القرآن. هل نستطيع أن نقوم بتكفيره؟؟

غلبة الظن أنه لا يمكن القيام بتكفيره إلا إذا صرح بما في صدره. فربما يتم التعامل مع هذا الشخص يوم القيامة أنه كافر، ولكن التكفير لا يكون إلا على ما تم التصريح به.

وكذلك الأمر في التفسيق (الاتهام بالفسق). فالشخص عندما يقترف الفسق بالسر دون أن يعلم أحد فإن هذا أمر بينه وبين الخالق. ولكن يأتي التفسيق عندما تظهر هذه الأعمال للناس.

نقطة أخيرة في هذه المقالة:

إذا اعترض إخوتنا المسيحيون في العالم الإسلامي على مقولة المؤلف "إن الإسلام لا يعترف بالمسيحية ديانة سماوية وإنما يعتبرها انشقاقاً عن المذهب النصراني" فيجب عليهم أن ينتبهوا أن المسيحية كذلك لا تعترف بالإسلام ديانة سماوية. وواحدة بواحدة. ولكن المؤلف لم يقل هذه العبارة كنوع من الجكارة والمناكفة للأخوة المسيحيين وإنما لأنها الحقيقة فإن القرآن والرسول لم يذكرا المسيحية أبدا مع أنها المصطلح الذي غلب على أتباع المسيح منذ حوالي ٨٠م وحتى بعثة الرسول عليه السلام عام ٦١٠م.

❖ الدرجات في أنظمة الحكم

أحد أهم مفاهيم علم التحكم والسيطرة (Cybernetics –Control systems) هو موضوع الفلتر (Filter) والمضخم (Amplifier). وقامت العلوم الإدارية بتطبيق هذه المفاهيم في الأمور الإدارية والاستراتيجية.

لنفترض أن هناك لجنة قيادة عليا في الدولة: هذه اللجنة بحاجة إلى حجم كافٍ من المعلومات والتقارير للقيام بمداولة الأمور واتخاذ القرارات اللازمة.

الآن... إذا تم إعطاء هذه اللجنة كافة المعلومات المتوفرة عند الأجهزة الإدارية فإن الذي يحدث هو حالة إغراق (Overload). وفي هذه الحالة فإن لجنة القيادة لن تكون قادرة على التميز بين الغث والسمين من المعلومات وسيتم استنزاف الوقت بالتحليل وهذا في النهاية سيؤدى إلى جمود كامل في الدولة. وهذا الذي حدث في الخلافة العثمانية والاتحاد السوفييتي. فقد كانت الأمور تسير بشكل مركزي في هذه الدول. وعندما تضخمت المشاكل في الدولة إلى الحدود العليا فإن هذا أدى إلى إغراق مراكز القرار بالمعلومات والطلبات والاستفسارات والأخبار ولم يكن عند القيادة الوقت الكافي للتحليل واتخاذ القرار المناسب.

في المقابل فإذا لم تحصل لجنة القيادة على المعلومات الكافية عن الواقع فإن الذي يحدث هو حالة إفقار. وفي هذه الحالة فإن الدولة لن تتصرف مع الوقائع بدرجة عالية من المرونة.

ولهذا السبب فإن لجنة القيادة بحاجة إلى جهاز فلترة. ووظيفة هذا الجهاز هو جمع المعلومات واستخلاص المفيد منها واختصارها بشكل كافٍ وتقديمها إلى لجنة القيادة. وجهاز الفلترة هو في الواقع الأجهزة الإدارية المساندة كأجهزة التحليل والاستخبارات..إلخ.

وأما المضخم فهو الذي يقوم بتحويل أوامر القيادة إلى عمل. ومثال ذلك إذا قررت القيادة تحريك الجيش مسافة ٧٠ كم إلى الإمام. وهذا القرار هو في حقيقته سطر واحد ولكن تنفيذه يتطلب جهوداً ضخمة وتفاصيل كثيرة. فعملية تحريك الجيش يتطلب تنسيقًا ويتطلب عمليات تموين واستطلاع ..إلخ. ولكن الذي يحدث هو أن القيادة تتخذ هذا القرار (سطرًا واحدًا) وتقوم الأجهزة الإدارية بالاهتمام بالتفاصيل وتنفيذ القرار. وضمن وجهة نظر فلسفية فإن هذه الأجهزة الإدارية قد قامت بتضخيم الإشارة (القرار بتحريك الجيش) وتحويله إلى عمل.

والمشكلة الكبرى تحدث عندما لا يكون هناك انسجام بين الفلتر والمضخم. وأفضل مثال على ذلك هو هتلر في أواخر الحرب العالمية الثانية فقد كان يقوم بتحريك فرق عسكرية كاملة ليس لها وجود من مكان إلى آخر على الخارطة. ومفاهيم الفلتر والمضخم واضحة في كل جهاز عصبي كدماغ الإنسان وأجهزة التحكم الإلكترونية ولجان القيادة.

دعونا الآن ندخل إلى موضوع المقالة:

عندما تكون الدولة صغيرة فإنه لا توجد أي مشكلة من قيام الخليفة بإدارة السلطة التنفيذية في البلاد. وفي هذه الحالة فإنه من المناسب أن تكون الانتخابات للخلافة كل سبع سنوات.

ولكن عندما تتضخم الدولة فإن النظام السابق لن ينجح لأن مركز الخلافة سيتعرض إلى حالة إغراق بالمعلومات والأخبار والاستفسارات. وأحد أفضل الخيارات هو النموذج الإنجليزي والإيراني . وفي هذا النموذج فإن الخليفة يأخذ

الإدارة الاستراتيجية والإشراف على النظام وقيادة الجيش في حين يتولى آخر إدارة السلطة التنفيذية.

وبالطبع فإن هذا النظام سيقوم بإبعاد مركز الخلافة عن الإدارة اليومية والتفرغ للأمور الاستراتيجية. وقد كان الخميني ذكيا بتسمية رئيس السلطة التنفيذية باسم "رئيس الجمهورية" لأن هذا الوصف يسمح لرئيس السلطة التنفيذية (بروتوكوليا) للقيام بكل الواجبات المتعلقة برئاسة الدولة كاستقبال الرؤساء واعتماد السفراء ..إلخ.وهي واجبات روتينية ليس لها قيمة سوى مراعاة البروتوكول. وكان تصرفا حكيما منه إبعادها عن دائرة "المرشد الأعلى".

وضمن هذا النظام فليس هناك حاجة لأن يكون انتخاب الخليفة كل سبع سنوات وإنما ربما كل ١٤ سنة. وأما رئيس السلطة التنفيذية فالأولى القيام بانتخابه كل سبع سنوات. والهدف من الانتخابات هو غربلة الدماء في القيادة وإعطاء القوى المختلفة حق تغيير القيادة دون مواجهة غير لائقة. بمعنى أنه إذا لم ترضَ القوى المختلفة عن القيادة الحالية وكان هناك نظام انتخابات فهي قادرة على الصبر حتى يوم الانتخابات ثم تقوم بتغييره. ولكن إذا لم يكن هناك نظام انتخابات فإن الذي سيحدث هو بداية الانشقاق الداخلي وهذا يؤدي (ضمن النظرة إلى التاريخ) إلى صراعات ليس لها ضوابط أو حدود. فالنقطة هنا أن نظام الانتخابات يساعد على جعل التنافس والاختلافات ضمن حدود المقبول وضمن دائرة المتابعة.

ويجب الانتباه أن هذا النظام لا يعني قيام الخليفة بالتنازل عن سلطاته وإنما هو توكيل من الخليفة لرئيس السلطة التنفيذية. ويستطيع الخليفة وضمن ضوابط خاصة وموافقة المجلس العالي وفي أوقات الطوارئ أخذ السلطة في يده وإعطاؤها لرجل قادر على تجاوز مرحلة الطوارئ.

انتبه هنا... هذا النظام لا يعني أن الخليفة أصبح وجوده رمزيا. وإنما يعني أن قرارات الخليفة وصلاحياته قد أصبحت مخفية خلف الستارة. فوظيفة الخليفة تبقى

أساسية في التنسيق ومراقبة الانسجام بين القوى الخمسة الرئيسية في الدولة (السلطة التنفيذية والسلطة التشريعية والسلطة القضائية والأجهزة الأمنية والجيش). ولكن واجهة الدولة وعلاقاتها الخارجية تكون من خلال السلطة التنفيذية، أما الخليفة فتكون أعماله خلف الستارة.

وبالطبع سيظهر في هذا النظام مشكلة تداخل الصلاحيات بين منصب الخليفة ومنصب رئيس السلطة التنفيذية. وحل هذا التداخل لن يتم إلا بوجود مستوى مرتفع من الذكاء الجماعي والالتزام من الجميع بقواعد البروتوكول (قواعد السلوك والتصرف) في الدولة.

الآن... عندما تتوسع دولة الخلافة وتصبح ذات أقاليم شاسعة وثقافات مختلفة وأطراف ممتدة فإن النظام السابق لن ينجح في إدارة الدولة لأن السلطة التنفيذية في العاصمة ستتعرض إلى حالة إغراق من المعلومات والأخبار والاستفسارات. وهنا فنحن بحاجة إلى نظام آخر جديد وهو نظام الخلايا.

ونظام الخلايا هو تقسيم الدولة إلى ولايات (أو جمهوريات) ويكون لكل ولاية حاكم يتم انتخابه بنظام الانتخاب والشورى. وتكون السلطات الثلاثة في الولاية مستقلة عن بعضها البعض (السلطة التنفيذية والسلطة التشريعية والسلطة القضائية). وتقوم الدولة بخلق مجلس عالٍ في كل ولاية يقوم بمراقبة النظام العام فيها.

ويكون لكل ولاية الحق في إبرام المعاهدات وإدارة المصالح مع الولايات الأخرى ومع العالم. وتكون العلاقة الإدارية بين عاصمة الخلافة (العاصمة) والولاية هي إشراف العاصمة المباشر لأجهزة الاستخبارات في الولاية وإشراف العاصمة العام على الأجهزة الأمنية في الولاية وتكون المحكمة العليا في العاصمة فوق السلطات القضائية في الولايات.

وتقوم الدولة بخلق مجلس الولايات (ومجالس أخرى) لفض النزاع أو تسهيل الإجراءات بين ولايات الدولة ويكون للخلافة حق الفيتو في هذه المجالس. وتقوم العاصمة بإرسال مندوب سَامٍ لها إلى كل ولاية.

وتقوم الدولة بفصل إدارة الجيش تماما عن إدارة الولايات. أي أن الجيش ليس له أي علاقة مع الولاية وتكون مرجعيته الأولى والوحيدة هي العاصمة.

الآن... ما هي مميزات وعواقب هذا التشكيل؟

مميزات هذا التشكيل أن معظم المشاكل اليومية والإدارة الروتينية ستكون بعيدة عن دماغ العاصمة وتقوم الولايات نفسها بحل مشاكلها مع الولايات الأخرى ومع العالم الخارجي ضمن ضوابط وأنظمة واضحة ولا تتدخل العاصمة إلا إذا استدعت الضرورة تدخلها. وعندها فإن العاصمة قادرة على التفرغ للأمور الجوهرية وهي التخطيط الاستراتيجي والاقتصادي للدولة.

أما العواقب فهو إمكانية حدوث انشقاقات وخلافات جوهرية بين الولايات في الدولة.

قبل الخوض في عواقب هذا النظام دعونا نسأل التالي: هل هناك سوابق ناجحة لمثل هذا النظام؟

والجواب هو نعم. فالإمبراطورية الإنجليزية كانت تقوم على نظام شبيه بهذا النظام. كما أن إنجلترا عندما حاصرتها الضغوط قامت بخلق مجموعة دول الكومنولث وربطت مستعمراتها بهذه المجموعة ثم أعطت مستعمراتها الاستقلال. ولكن (وحتى هذه اللحظة) فإن إنجلترا ما زالت مسيطرة على مستعمراتها السابقة.

وهذا دليل على أن هذا النظام له إمكانية النجاح. وفي واقع الحال فإن فكرة هذا النظام جاءت من دراسة التجّربة الإنجليزية.

وقد استطاعت إنجلترا السيطرة على مستعمراتها السابقة عن طريق مهارة الأجهزة الدبلوماسية ونفوذها إلى ثنايا النظام الحاكم في المستعمرات. وارتباط أجهزة الاستخبارات في المستعمرات مع أجهزة الاستخبارات في إنجلترا، وربط رجالات المستعمرات بالثقافة الإنجليزية وربط اقتصاد المستعمرات باقتصاد لإنجلترا.

ولهذا فإن مفتاح السيطرة في هذا النظام هو الدبلوماسية والمخابرات والثقافة والاقتصاد.

وهذه هي الخلطة التي نحتاجها كي ينجح نظام الخلايا. ولكن بالإمكان اختصار الثقافة والدبلوماسية في أمر واحد وهو الذكاء الجماعي (القاعدة الفكرية السلوكية). وهنا يكون الحل في ضمان فعالية وتطور نظام الخلايا في الخلافة وهو حماية وترسيخ مفاهيم الذكاء الجماعي في أجهزة الدولة والولايات والمجتمع (سعة الصدر وطول البال وحسن الاستماع وبرودة الأعصاب والجدية..إلخ). وإذا تم هذا الأمر فإن تحقيق المهارات الدبلوماسية والاستخباراتية والتكامل الاقتصادي يكون في غاية السهولة.

وإذا حدث أن ترسخ الذكاء الجماعي في الدولة وأصبح ولاء المسلمين للدولة يعتمد على الإسلام والذكاء الجماعي (القاعدة الفكرية السلوكية) ومفاهيم الرعاية والعدالة. وأصبح ولاء غير المسلمين للدولة يعتمد على الذكاء الجماعي ومفاهيم الرعاية والعدالة فإنه من المستبعد تماما حدوث الانشقاقات.

وبالطبع فإن سلطة الولاية ليست تنازلا عن الخليفة وإنما هو توكيل. وهذا معناه أن العاصمة قادرة وبضوابط خاصة على أخذ زمام الأمور في الولاية (أو الولايات) دون الرجوع إلى الولاية نفسها. وهذا الأمر مفيد عند الطوارئ والضرورات.

وميزات نظام الخلايا ليس فقط إبعاد المشاكل اليومية والإدارة الروتينية عن دماغ العاصمة وإنما هناك فوائد أخرى كثيرة: فوجود ولايات شبه مستقلة سيدفع إلى التنافس والظهور بين الولايات. والدليل على ذلك أن وجود ولايات شبة مستقلة في أمريكا ساعد على خلق تنافس (غير دموي) بين هذه الولايات. كما أن الدولة سيكون لها ٧٠ وزير خارجية (أو أكثر) وهذا معناه أن كثيراً من مشاريع الدولة يمكن توزيعه على هؤلاء الوزراء.

إن نظام الخلايا سيكون بالضبط كالليجون الروماني الذي تم الحديث عنه في مقالة سابقة. وللتذكير فإن نظام الليجون الروماني كان يقوم على وحدات شبه

مستقلة. وبهذه المرونة فقد كان بقدرة الجيش الروماني الانتشار على جبهة عريضة (بالمقارنة مع حجمه) كما أنه كان قادرا على القيام بمسرحيات معقدة. وقد كان السر الحقيقي لنجاح الليجون هو مهارة التنسيق بين وحدات الجيش. وأما بالنسبة إلى العدو فقد كان له خياران: فهو إما أن يقوم بتقليد الرومان وعندها سينهزم لأن مهارات التنسيق ليست سهلة التعلم والتقليد. وإما أن يلتزم العدو بتكتيكاته السابقة وعندها فإن الجيش الروماني قادر على الإحاطة به وتدميره. ولهذا السبب فقد كان العدو في الحالتين مهزوماً.

وكذلك الحال في نظام الخلايا. فالعدو لن يكون قادرا على تقليده لأنه بحاجة إلى ترسيخ مفاهيم الذكاء الجماعي ولن يستطيع العدو ترسيخ الذكاء الجماعي بشكل كافٍ إلا إذا كان النظام الحاكم يتضمن مفاهيم حقيقية للرعاية والعدالة. وهذا أمر لا تستطيع الرأسمالية توفيره بشكل كافٍ. وهكذا سيكون موقف العدو فهو لا يستطيع مداراة أنظمة الحكم في الخلافة ولا هو قادر على تقليدها. وهذا سيؤدي إلى سرعة الانشقاقات في كيانه.

وبالطبع فيمكن تطوير نظام الخلايا بحيث يختفي رئيس السلطة التنفيذية في الخلافة خلف الستارة (كما الخليفة) وتصبح واجهة الخلافة هي مجلس الولايات.

وهنا توجد نقطة فرعية وهي موضوع الحكم الذاتي لغير المسلمين. فالرسول عليه السلام قام بفتح خيبر والسيطرة عليها وتركهم هناك مع احتفاظ الدولة بحق إخراجهم. ووجود خيبر ضمن هذا التشكيل هو حكم ذاتي أو ولاية خاصة. فقد كانت خيبر بعد الفتح كياناً شبه مستقل داخل كيان الدولة حتى قرر عمر بن الخطاب إخراجهم.

ولهذا السبب فلا يوجد (ضمن وجهة نظر المؤلف) أي مشكلة في أن تقوم الخلافة (لمصلحة تجدها) بإعطاء غير المسلمين الحكم الذاتي لأقاليمهم ضمن حدود القانون العام.

وهنا تبرز نقطة أخرى جوهرية في نظام الولايات. فإذا ظهر بشكل جلي قوة مفاهيم الخلافة في الرعاية والعدالة والمهارة فليس مستبعدا قيام الكثير من الدول غير الإسلامية بطلب الانضمام إلى دولة الخلافة. وهذا معناه أن كثيرا من دول العالم سينضم إلى دولة الخلافة دون الحاجة للحرب والقتال.

وهناك نقطة فرعية أخرى تتعلق بالمجلس العالي في كل ولاية:

وجود المجلس العالي في العاصمة هو أمر ضروري لضمان توازن القوى في الخلافة وعمل صمام أمان في حالة حدوث نزاع شديد بين الأجهزة الإدارية في العمل الأولى. ومن الضروري خلق مثيل لهذا المجلس في كل ولاية بحيث يقوم هذا المجلس بضمان توازنات القوى في الولاية. ولكن هناك فائدة أخرى للمجالس العليا في الولايات:

لنفترض أن الأقدار قد مكرت بالخلافة وحدث زلزال ضخم قام بتدمير العاصمة تماما. والسؤال الآن هو: كيف يمكن المحافظة على كيان الخلافة دون مشاكل حتى عندما تقوم الظروف بتدمير العاصمة؟؟

والجواب هو في المجالس العليا في الولايات. فوجود مجالس ذات معرفة وإيمان ومهارات إدارية عالية وذكاء فإنها قادرة على الاجتماع والتنسيق لتدارك الأزمات والطوارئ في حالة أن العاصمة نفسها قد زالت عن الوجود. وبالطبع فإن المثال السابق هو مثال متطرف ولكنه ممكن.

❖ مسك العصا من المنتصف

هناك مبدأ واضح في نظام الجودة (Quality System) وهو أنك لا تستطيع أن تقوم بتثبيت مستوى الجودة وإنما تستطيع أن تضع مستوى الجودة بين حدين مقبولين. وأما مستوى الجودة فإنه سيتأرجح بين هذين الحدين.

لنضع المثال:

لنفترض أن هناك مصنعا للسكر. وأن المصنع يقوم بتعبئة الأكياس بـ ١ كلغ من السكر.

الآن... عندما تقوم بوزن هذه الأكياس فمن النادر أن تجدها ١ كلغ وإنما في الحقيقة هي أقل أو أكثر بنسبة معينة (نسبة الجودة).

ولنفترض أن نسبة الجودة لهذا المصنع هو ٥٪ فهذا معناه أن وزن الأكياس يتراوح ما بين ٠,٩٥ إلى ١,٠٥ كلغ. وإذا تجاوز وزن الأكياس هذه النسبة فهذا معناه فشل في إدارة الجودة لهذا المصنع.

السؤال الآن: لماذا هو أمر صعب أن يتم تعبئة الأكياس بـ ١ كلغ فقط؟

والجواب هو وجود متغيرات كثيرة من الصعب توقعها أو التحكم فيها كدرجة الحرارة ودرجة الرطوبة واختلافات طفيفة في نوعية السكر..إلخ.

والذي يحدث أن هناك أجهزة تقوم بقياس وزن الأكياس وفي اللحظة التي يتم فيها الانتباه أن وزن الكيس بدأ يقترب من الحد الأعلى فإنه (وبشكل آلي) يتم تخفيض بسيط لمعدل تعبئة السكر وعندما يتم الانتباه إلى أن وزن الكيس بدأ يقترب من الحد الأدنى فإنه يتم زيادة معدل التعبئة. ولكن إذا ظهر أن الوزن قد خرج تماما عن الحدين فإنه يتم إيقاف خط الإنتاج وبحث أسباب المشكلة.

وهذه الظاهرة (تأرجح المستوى بين الحد الأدنى والحد الأعلى) موجودة كذلك في المجتمع. فالمجتمع يتضمن العديد من القوى التي ليست بالضرورة متصارعة ولكنها مختلفة في الاتجاه. فهناك من يهتم بمعرفة أسرار الكون حتى وإن لم يكن لها فائدة واضحة (علماء الطبيعة) وهناك من يهتم بالبحث عن تطبيقات عملية للعلوم (المهندسون) وهناك الزهاد الذين يستمتعون بقضاء الوقت في الذكر والتسبيح والعبادة.

ومن الطبيعي أن يتأرجح مسار المجتمع عبر التاريخ بسبب قوة أو ضعف القوى في المجتمع. والقوى في المجتمع لا تكون مشدودة دائما ولا تكون ضعيفة دائما وإنما هي كذلك تتأرجح عبر التاريخ. وأفضل مثال هو العائلة: فإذا كان الشخص

شديد الزهد والعبادة فربما تجد الحفيد يتصرف بمادية، وإذا كان الشخص يتصرف بمادية فربما تجد الحفيد شديد العبادة.

وكذلك فإن المجتمع يتأرجح بسبب الظروف المحيطة: ففي أوقات الشدة والخوف فإن المجتمع بطبيعته سيتجه نحو شدة العبادة وإذا كان المجتمع في حالة سلم وازدهار فإنه من الطبيعي أن يتجه نحو اللهو والمظاهر.

الآن... لا توجد أي مشكلة في تأرجح المجتمع ما دام التأرجح هو ضمن حدود المعقول. ولكن المشكلة كل المشكلة عندما تسيطر قوة على المجتمع وتجر المجتمع وراءها.

وهذا ما حدث في كثير من المجتمعات. ولنضرب المثال في المجتمع الإسلامي ولقوتين فيه وهي الصوفية (شدة الزهد والعبادة) والاستنارة (الرغبة في معرفة أسرار الكون والتي قادها علماء الطبيعة):

بدأت الصوفية بالظهور وبشكلها المعتدل منذ بداية الـ ٥٠٠هـ وكان من روادها عبد القادر الجيلاني. وكانت الصوفية هي ردة فعل تجاه حالة اللهو والإسراف التي طغت في أواخر العصر العباسي. ثم ازدادت قوة الصوفية مع هجمات الصليبيين والمغول. وقد كان انتشار الصوفية ذا فائدة للعالم الإسلامي، فقد ساعدت في تثبيت المسلمين وقت الخوف كما استطاعت نشر الإسلام عبر القارات دون سلاح.

ولكن المشكلة التي جاءت مع الصوفية هي نظرتها إلى علماء الطبيعة. فقد كانت نظرتهم إلى أن أعمال هؤلاء إنما هي عبث لا فائدة منه ومضيعة وقت. وهذا أدى مع الوقت إلى انحسار الاهتمام بعلوم الطبيعة. ولكن المؤسف أن علوم الهندسة لا يمكنها التطور دون وجود علماء الطبيعة.

وهناك أمر آخر تسببت فيه الصوفية إذ إن شدة التوجه نحو الزهد والعبادة والذكر قد خففت رغبة التنافس عند الناس، وهذا يؤدي مع الوقت إلى جمود

المجتمع. وقد قال الله تعالى: ﴿...وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾ [البقرة].

انتبه هنا... المؤلف لا ينتقد قيام الناس بشدة الذكر والزهد والعبادة. وإنما ينتقد سيطرة قوة على أخرى وجر المجتمع وراءها. والمطلوب من المسلم هو الفرائض واجتناب المعاصي وغير ذلك فهو من النفل. وقيام شخص بالدراسة أو القراءة بدلا من صلاة التراويح هو أمر يجب ألا يتم النظر إليه كجريمة؛ لأن التراويح من النفل وليست من الفرائض ولا يحق لأحد انتقاد غيره في النفل. وكذلك قيام الناس بالاعتكاف في المساجد فهو نفل ذو أدلة مؤكدة ولا يحق لأحد انتقاده.

ووجهة نظر المؤلف هنا هو ضرورة وجود آلية في المجتمع والدولة تسمح بتوازن القوى في المجتمع وتمنع إحدى القوى من السيطرة على الأخرى وتمنع إحدى القوى من جر المجتمع وراءها. فقيام الفلاسفة بجر المجتمع وراءهم هو المضرة كل المضرة للمجتمع وكذلك يحصل الضرر إذا قام التجار بجر المجتمع وراءهم وكذلك يحصل الضرر إذا جر الزهاد المجتمع وراءهم.

ما المقصود هنا بآلية؟

الآلية هي خطوات عمل يتم تنفيذها بشكل آلي دون الرجوع إلى المركز. وهذا المصطلح قد استعارته الأدبيات الإدارية من العلوم الهندسية. وأفضل مثال له هو ذيل الطائرة الورقية. فعندما ترتفع الطائرة فإن الذيل يقوم بتخفيف حدة الارتفاع وعندما تنخفض الطائرة فإن الذيل يقوم بتخفيف حدة الانخفاض. وهو بهذا يقوم بالمحافظة على استقرار الطائرة. وكذلك الآليات في مجال الإدارة فهي خطوات يتم تعليمها وترسيخها في الأجهزة الإدارية ويتم تنفيذها عند الحاجة ودون استئذان.

والسؤال هنا: ما هي الآلية التي يمكن ترسيخها في المجتمع والدولة بطريقة تسمح بعمل التوازن في المجتمع وتمنع قوة من السيطرة عليه؟

من النظرة إلى التاريخ فإن مسك العصا من المنتصف (الفلسفة الإنجليزية) تبدو أفضل الفلسفات. وبالطبع فإن الإنجليز قد استخدموا هذه الفلسفة كحق أريد به باطل ولكن نظرة المؤلف هي أن استخدامها في المجتمع الإسلامي يجب أن يكون كحق أريد به الحق.

والآلية المطلوبة في الدولة هي القيام بحماية الأقليات والمعارضة والمنتديات ما دامت لا تخالف النصوص الصريحة في الشرع أو القانون وما دامت غير مؤذية للمجتمع. وما دامت هذه الشروط الثلاثة متوفرة فعلى الدولة حماية هذه المعارضة مهما كانت أجندتها. وليس بالضرورة أن تكون هذه المنتديات سياسية وإنما يمكن أن تكون علمية واجتماعية وفلسفية وروحية..إلخ.

وأما الآلية في المجتمع فهي ترسيخ النفور لثقافة السخرية والازدراء والاستخفاف لأي عمل مشروع (أي العمل الذي لا يخالف الشرع ولا القانون ولا يؤذي الناس). وضمن وجهة نظر المؤلف فإن ثقافة السخرية من الأعمال المشروعة هي أحد الثقافات المهلكة لأي مجتمع.

هذه النقطة بحاجة إلى الأمثلة:

هناك قصة مشهورة عن أحد ملوك بني العباس أن جاءه أحدهم وأسقط خاتما في البئر ثم رما سهما إلى الخاتم فمسكه ثم رما سهما إلى السهم وآخر وآخر إلى أن وصلت سلسلة الأسهم إليه وتناول الخاتم.

وهنا قام الملك بإعطاء الجائزة لهذا الرجل وجلده. وعندما اشتكى الرجل أجابه الملك أن الجائزة للمهارة والجلد لأن هذه المهارة عبث لا فائدة منها.

وقد قوبلت هذه القصة بالثناء والإعجاب والتقدير من الكثير وأصبحت مضرب المثل. ولكن وجهة نظر المؤلف هو أن ما فعله الملك كان حماقة كل الحماقة:

كيف علم الملك أن هذه المهارة غير مفيدة؟؟ فهناك الكثير ممن كان ينظر إلى رمي الكرات (balls Juggling) على أنها عبث ولكن ظهر الآن أنها مفيدة جدا في تقوية التوصيلات بين المخ الأيمن والأيسر.

والسؤال الأهم هو أن كثيراً من ملوك بني العباس كان يستنزف أوقاته في لهو لا يؤدي إلى أية مهارة على الإطلاق. في حين أن ذلك الرجل قد استنزف وقته في أمر نتج عنه مهارة ولم يكن يؤذي أحدا. فمن هو الأولى بالتقريع؟؟

وهناك مثال آخر: فقد قام أحد الباحثين بتأليف كتاب عن أنعلة الرسول عليه السلام. وأخذ بعض الناس بالسخرية من الكتاب وصاحبه. ولكن لا أحد منهم يستطيع أن يضمن أن هذا العمل لن تكون له فائدة.

ثم إن كثيراً من هؤلاء المنتقدين يقضى وقته في المقاهي وشرب الشيشة (الأرجيلة) ولعب الورق (الشّدة) ولعب الطاولة وهي ألعاب لا تؤدي إلى مهارات واضحة (يعني لو كانت اللعبة شطرنج لقلنا برضه فيها مهارة تفكير ومهارة تخطيط ولكن طاولة!!!). والكثير يقضي وقته في مشاهدة مباريات كرة القدم ومنهم من يقضي الساعات في حل الكلمات المتقاطعة وياليتها معلومات مفيدة وإنما أغلبها أسماء أفلام وفنانين وفنانات.

الآن... من استطاع أن يستنزف وقته بشكل أكثر فائدة؟ هل هو ذلك الباحث الذي استنزف الساعات في البحث والتحليل والكتابة وإنتاج ذلك الكتاب أم أولئك الذين استنزفوا وقتهم في الورق والطاولة ومباريات كرة القدم والكلمات المتقاطعة.

الآلية التي يراها المؤلف ضرورية في المجتمع هي ترسيخ نظرة السماحة والمداراة للأشخاص الذين يقضون وقتهم فيما لا يخالف أحكام الشرع ولا يؤذي الآخرين مهما كانت أعمالهم غريبة أو ظهرت أنها غير مفيدة. وهذا معناه أنه إذا قام أحد بالسخرية والانتقاص من هؤلاء الأشخاص فالمطلوب هو قيام الحاضرين بالوقوف في وجهه وتذكيره أنه ربما يقوم بكثير من أعمال اللهو والتي ليس فيها أي فائدة.

انتبه هنا... المؤلف لا ينتقد الناس الذين يلعبون الورق والطاولة ويتابعون المباريات وإنما انتقد المؤلف الناس الذين يمارسون هذه الأشياء ثم ينتقدون الآخرين بتضييع الوقت. وأما بالنسبة إلى ألعاب الورق والطاولة ومتابعة المباريات فقد كانت

والدتي تقول: "نوم الظالمين عبادة". وعلى نفس الوزن فإن انشغال الكثير من الناس بالورق والطاولة والمباريات هو أفضل من انشغالهم في أمور أخرى كالقيل والقال.

وهذه نقطة تستحق الانتباه:

ليس كل الناس فلاسفة ولا شديدي العبادة ولا علماء طبيعة ولا أصحاب هوايات. ولهذا فإنه من الحكمة للمجتمع أن يقوم بالسماحة والرعاية لكل اتجاه مقبول وكافٍ لإشغال وقت الناس. وهذا معناه أندية علمية واجتماعية وفلسفية ومباريات ورياضات ومسابقات..إلخ.

وفي واقع الحال فإن المجتمع إذا لم يقم بنفسه بفتح منافذ مقبولة لتفريغ طاقة الناس واستنزاف أوقات الفراغ عندهم فإن الذي سيحدث هو أن الناس أنفسهم سيخلقون هذه المنافذ. وغالب الأحيان فإن هذه المنافذ تكون مضرة. وأحد أول المنافذ التي سيقوم الناس بفتحها (إن لم يجدوا منافذ أخرى) هو استنزاف الوقت في القيل والقال والاستغابات والهمس واللمز والهمز.

وهناك مثال يضع فائدة واضحة في قيام الدولة والمجتمع بحماية المعارضة:

أحد أكثر الأمور استنزافا للوقت في العالم الإسلامي اليوم هو كثرة الالتزامات الاجتماعية. فالالتزامات الاجتماعية المتعلقة بالأفراح والأتراح والأعياد والمناسبات كثيرة جدا، ومن يعتذر عنها أو لا يلتزم بها فإنه يواجه بالسخرية والانتقاد. ولكن الالتزام بجميع المناسبات الاجتماعية معناه عدم وجود الطاقة والوقت للمطالعة وتطوير المهارات.

الآن... ضمن دولة ومجتمع يتمتع بسماحة ورعاية للمعارضة فإنه من السهولة لبعض الناس الانتباه لعواقب الالتزامات الاجتماعية وهذا سيؤدي إلى خلق أحزاب ومنتديات تدعو إلى التخفيف من هذه الالتزامات وتحض الناس على الاعتذار عن الكثير منها. وهذا سيقوم بإعطاء النافذة الأدبية للكثير من الناس (والذين يرغبون بوقت إضافي للمطالعة والدراسة وتطوير المهارات) للاعتذار دون خوف أو حرج.

وهذا هو بالضبط المقصود بالآلية. وهذه الآلية هي التي تقوم بعمل التوازن في قوى المجتمع ومنع قوة من السيطرة على كل المجتمع. فالالتزامات الاجتماعية أصبحت قوة حقيقية تجر المجتمع وراءها. وأصبحت تسبب الكثير من الصداع واستنزاف الوقت والمال. ومن المناسب جدا ظهور قوة أخرى توازنها وتعيدها إلى حجمها الطبيعي.

وتوجد نقطة فرعية هنا متعلقة ببطش الدولة:

من الطبيعي أن تكون الدولة حازمة فيما يتعلق بالأحكام الواضحة من الشرع وأحكام القانون. ولكن فيما عدا ذلك فالأولى (ضمن وجهة نظر المؤلف) هو التعامل بالحكمة.

دعونا نضرب المثل:

لنفترض أن المراهقين قد بدأوا بتصرفات أو موضات غير مريحة في المجتمع. أو لنفترض أن هناك جماعة تدعو إلى أمور ليست مخالفة للأحكام الواضحة في الشرع ولكنها (هذه الأمور) لا يقبلها المجتمع. فما هو موقف الدولة؟

ضمن وجهة نظر المؤلف فإنه من الخطأ الشديد أن تقوم الدولة ابتداءً بالحزم أو البطش، وإنما يجب أن تعالج الأمر بالحكمة والموعظة وذلك للأسباب التالية:

١ – الدولة لا تعلم يقينا أن ما يتصرفه المراهقون أو ما تدعو اليه الجماعة هو أمر غير مفيد؟ ولهذا فإنه من المفيد النظر إلى الموضوع ببرودة أعصاب وحكمة.

٢ – قد تكون أعمال المراهقين أو دعوة الجماعة هي عوارض لأسباب أخرى غير واضحة. والمشكلة في حل العوارض قبل الانتباه للأسباب أن الأسباب قد تؤدي إلى خلق عوارض أخرى أشد ضررا من العوارض السابقة. وهذا أمر واضح في الطب فإن محاولة حل عوارض المرض قد تسبب نشوء عوارض أخرى أشد خطراً.

٢- من الخطأ الشديد للدولة أن تقوم بترسيخ ثقافة الشاكوش (المطرقة) في المجتمع. وثقافة الشاكوش تحدث عندما ينتبه شخص إلى نجاح الشاكوش في حل مشكلة ويقتنع في وجدانه أن أي مشكلة يمكن حلها بالشاكوش. وهذا الشخص بالتأكيد سيكون نجارا فاشلا. وهذا كذلك ينطبق على الدولة، فإذا قامت الدولة بحل جميع مشاكلها بالحزم والبطش فهذا سيؤدي إلى ترسيخ ثقافة الشاكوش في المجتمع وعواقب هذه الثقافة وخيمة.

٤- هناك إمكانيات عند الدولة ليست موجودة عند المراهقين والجماعات وهي ماكينة الإعلام والخبراء والأموال والقدرة على التخطيط طويل المدى.

وبالطبع فإذا استفحلت الأمور خارج دائرة المعقول فإن الدولة بحاجة إلى أن تتصرف بحزم وبطش ولكن هذا معناه أن الدولة فشلت تماما في الانتباه والتخطيط. وهذا معناه ضرورة بحث أسباب هذا الفشل والمسئولين عنه.

والنقطة هنا أن الدولة بحاجة إلى أن تتصرف بالحزم في الأمور المخالفة للأمور الواضحة من أحكام الشرع والقانون. ولكن في أي أمر له شبهة من الشرع فإن الدولة عليها أن تنظر إليه بطول البال وبرودة الأعصاب والحكمة.

وأحد أهم دروس التاريخ أنه لا الدولة ولا المجتمع ولا العلماء ولا الخبراء ولا القادة قادرين على التمييز اليقيني بين الأمور المفيدة والأمور غير المفيدة. وهناك الكثير من الأمور ظنها الناس عبثاً ومضيعة وقت ولكن ظهر لاحقا (وربما بعد قرون) شدة الفائدة منها.

ولهذا السبب فهذه دعوة من المؤلف لمسح وإلغاء العبارة التي يرددها الكثير من الناس: "هذا علم لا ينفع وجهل لا يضر". فهذه العبارة خاطئة تماما والذي يقولها لا يعلم يقينا صدقها.

وبالطبع فهذه ليست دعوة إلى الناس أن يقوموا بالبحث والدراسة في كل أمر وإنما هي دعوة ألا يقوموا بالانتقاد والسخرية من الذين تطوعوا للبحث والتحليل.

فإن ثبت أن أبحاثهم مفيدة فهو خير للجميع وإن لم يظهر منها الفائدة فالمجتمع لم يخسر أي شيء.

❖ اللغة العربية وأطراف الخلافة

هناك ثلاثة أمور أساسية تتعلق بموضوع اللغة:

١- اللغة العربية هي من أصعب اللغات في العالم من حيث القواعد والنطق. وقد اعتاد العرب الأقدمون إرسال أطفالهم وهم في المهد إلى الأعراب كي يتعلموا السليقة في اللغة. وهناك عبرة في التاريخ عن الوليد بن عبد الملك فلم يرسله والده إلى الأعراب فكانت النتيجة أنه أول الخلفاء الذين كانوا يلحنون في الحديث.

٢- الأحكام الشرعية تعتمد تماما على اللغة العربية.

٣- من الضروري وجود لغة مشتركة تربط أطراف الخلافة وتجمع الناس عبر مختلف الثقافات والألسن والقوميات.

وضمن وجهة نظر المؤلف فإن التوفيق بين هذه الأمور الثلاثة يتطلب السياسة التالية:

المحافظة على اللغة العربية في العالم العربي والتشجيع عليها (دون إلزام) في أطراف الخلافة. ولكن من الضروري تبني لغة أخرى رسمية للخلافة (اللغة الرابطة) تقوم بربط أطراف الخلافة. وتكون اللغة الرسمية في كل ولاية هي اللغة المحلية واللغة الرابطة. أي أن المدارس في الولايات تقوم بتدريس اللغة المحلية واللغة الرابطة بشكل إلزامي للطلاب. ويتم تشجيع تدريس اللغة العربية كلغة أساسية للإسلام.

وهذا معناه أن اللغة الرسمية في عاصمة الخلافة والعالم العربي هي اللغة العربية واللغة الرابطة وأما اللغة الرسمية في تركيا فهي اللغة التركية واللغة الرابطة. وأما اللغة الرسمية في إيران فهي اللغة الفارسية واللغة الرابطة.

والنقطة الرئيسية في هذا الحل أن اللغة العربية هي في غاية الصعوبة وتعلمها ليس سهلا حتى لأبنائها ولكن وجودها ضروري لفهم الأحكام الشرعية. وكذلك هناك ضرورة حقيقية لوجود لغة مشتركة تجمع أطراف الخلافة. وميزة الحل السابق أنه لا يهمل اللغة العربية ولكنه لا يهمل الحاجة لوجود لغة أخرى مشتركة.

ما هي شروط اللغة الرابطة؟

١- من الضروري ألا تسبب اللغة الرابطة مشاكل قومية. وهذا معناه أن اللغة التركية والفارسية والأوردية لا تصلح لغات رابطة لأنها قد تؤدي إلى حزازات وتنافرات قومية. في حين أن اللغة السواحلية لا تسبب مشاكل قومية في الخلافة.

٢- يجب أن تكون اللغة ذات موسيقية مقبولة. لأن الموسيقية في اللغة تسمح بسرعة حفظها وممارستها.

٣- يجب ألا تحتوي اللغة على أحرف حلقية. وذلك لأن الأحرف الحلقية تجعل اللغة ثقيلة على اللسان. وهذا معناه أن اللغة الألمانية واللغة الويلزية لا تصلح لغات رابطة.

٤- يجب ألا تكون اللغة سريعة. وذلك لأنه توجد علاقة بين سرعة اللغة (السرعة في المحادثة) والتوتر والعصبية. وهذا واضح في إسبانيا وإيطاليا والمغرب العربي. وهذا معناه أن اللغة الإيطالية والإسبانية لا تصلح لغات رابطة.

٥- أن تكون قواعد اللغة سهلة وواضحة. وهذا معناه أن اللغة الإنجليزية (بشكلها الحالي) لا تصلح لغة رابطة حيث إن قواعد اللغة الإنجليزية غير واضحة ولا هي ثابتة فالاستثناءات في هذه اللغة أكثر من القاعدة نفسها.

ولا يوجد عند المؤلف اقتراح عن اللغات التي تجمع هذه الشروط كلها وإنما اللغة الإنجليزية تجمع أربعة من الشروط السابقة.

وفي حالة اختيار لغة رابطة للخلافة غير اللغة الإنجليزية فإنه من المفيد تعليم اللغة الإنجليزية إلى مستوى القراءة على الأقل (أي التركيز على القراءة وليس القواعد

أو المحادثة) ولمدة ١٠٠ سنة من قيام الخلافة. وبهذه السياسة فإنه لا يوجد داعٍ للقيام بعمليات الترجمة للكتب العلمية والتاريخية والأدبية الإنجليزية.

❖ الراية هي قطعة قماش

هناك الكثير من أعلام الدول الإسلامية والمذكور فيها اسم الله تعالى كأعلام السعودية وإيران والعراق. وكذلك هناك الكثير من الجماعات الإسلامية والتى تتبنى أعلاما فيها اسم الله كحزب التحرير والقاعدة وحركة الجهاد.

وضمن وجهة نظر المؤلف فإنه من الخطأ الشديد وضع اسم الله تعالى على الأعلام.

وكما أن العالم الإسلامي الآن يقوم بالدوس على أعلام الغرب ويحرقها فيجب التوقع عندما تنقلب موازين القوى أن يقوم الغرب بالدوس على أعلام الخلافة وحرقها. ولهذا فليس من الحكمة وضع اسم الله على هذه الأعلام. وكذلك فإن نظرة المؤلف أنه ليس من شدة الذكاء اختيار المواقف التي تزيدك قوة في جهة ولكنها تقيد حركتك في الجهة الأخرى. وإنما شدة الذكاء هي أن تختار المواقف التي تزيدك قوة في جهة ولا تقوم بتقييدك في الجهات الأخرى.

والأعلام إنما هي رمز للدولة ولكنها ليست الدولة نفسها. وأقرب تشبيه لها هي القارمة (Signpost) والتي توضع على الطريق لتدل المسافرين على الاتجاهات. وإذا كانت هناك قارمة تدل على الكعبة أو المسجد النبوي فإن الناس لا تقف تقديرا واحتراما لهذه القارمة وإذا سقطت هذه القارمة فإن الناس لا تهرع لالتقاطها. وإذا فسدت القارمة فإن عمال الصيانة يقذفونها في القمامة ويأتون بقارمة جديدة. فالقارمة ترمز للمكان ولكنها ليست المكان نفسه.

وكذلك الخرائط: فخارطة مكة ترمز لمكة ولكنها ليست هي مكة. والناس لا تقف تقديرا واحتراما لخارطة مكة ولا يغضب أحد إذا جاء أحد ووضع الخارطة على الأرض يريد أن ينظر إليها من أعلى.

وكذلك أعلام الدول فهي ترمز إلى الدولة؛ ولكنها ليست الدولة ولهذا السبب فلا يجب أن يكون لهذه الأعلام أي قدسية. وهذا معناه أن يكون هناك الحرية الكاملة في استخدام الأعلام للأغراض الدنيوية المختلفة.

وعلى سبيل المثال فإن صناعة الأحذية تتطلب تضمين اسم بلد المنشأ في الحذاء. وبدلا من أن يتم الكتابة على الحذاء "صنع في دولة الخلافة" فإنه الأولى أن يتم وضع علم الدولة. ولكن هذا لا يمكن أن يتم إذا كان اسم الله موجوداً في العلم أو كان العلم مقدساً في المجتمع.

وكذلك هناك من يرغب برسم أعلام الدولة على الأرض أو البلاط أو الرخام كنوع من الزينة أو نوعٍ من بروتوكولات الاحتفال ولكن هذا كذلك يتطلب ألا يكون اسم الله موجوداً على هذه الأعلام.

بالإضافة إلى ذلك فإن هناك نقطة جوهرية أخرى:

لنفترض أن هناك مجموعة في دولة الخلافة معارضة لنظام الحكم في الدولة. وأنهم خرجوا في مظاهرة وقاموا بالدوس على أعلام الدولة وحرقها.

الآن... إذا كان اسم الله موجوداً على الأعلام فهذا يتطلب بطشاً سريعاً من الدولة لهؤلاء المتظاهرين. ولكن إذا لم يكن اسم الله موجوداً على هذه الأعلام فربما يقوم قائد الشرطة بإحضار أعلام إضافية من المخازن بالإضافة إلى صور الخليفة وكبار الموظفين ويعطيها إلى هؤلاء المتظاهرين كي يستمروا في مظاهرتهم.

المقصود هنا أنه ما دامت الأوتار والأزرار والأمور بيد دولة الخلافة فماذا يضر الخلافة إذا قامت مجموعة بحرق الأعلام والدوس على الصور. بل ربما تكون هناك فائدة إذ إنه من الحكمة تفريغ غضب الناس ونقمتهم بأمور ليس فيها الضرر على الدولة أو الناس.

وهناك قصة لفريدريك الأكبر أنه كان في زيارة إلى إحدى المدن ووجد في أحد طرقها الجانبية يافطة تنتقده. فأمر بإنزال اليافطة ووضعها في الطريق الرئيسي وقال: لقد وصلت أنا وشعبي إلى تفاهم عادل: هم يقولون ما يريدون وأنا أفعل ما أريد.

وقد لا تكون جميع أفكار هذه المقالة موافقة للقارئ ولكن النقطة الرئيسية هنا أن وجود اسم الله تعالى على أعلام الدولة سيؤدي إلى تقييد حرية استخدام الأعلام في الكثير من الأمور الدنيوية وهذا (ضمن وجهة نظر المؤلف) أمر غير حكيم.

واقتراح المؤلف لراية دولة الخلافة هو قطعة سوداء (أو أي لون آخر) فيها قلمي ريشة وسيف قصير اسبارطي.

والقلمان (الريشة) والسيف هي رمز ومعناه:

- العلم والعلم والقوة.
- الشورى قبل العزم.
- العزم قبل التوكل.
- النظرة قبل الإقدام.
- المكيدة قبل الحرب.
- الخدعة قبل المعركة.
- الرأي والرأي والشجاعة.
- إلخ.

وأما السيف القصير فله قصة:

كانت السيوف التي تستخدمها سبارطة قصيرة لأن السيوف الطويلة بحاجة إلى مجال واسع كي يستطيع المقاتل أن يستخدمها. والمجال الواسع قد يؤدى إلى فتح الثغرات في الجبهة. فكان الحل هو استخدام السيوف القصيرة.

ونظر أحد الغلمان في سبارطة إلى السيف فاشتكى لأمه أن السيف قصير فقالت له: إن تتقدم خطوتين فسيطول. وهنا الرمز في السيف القصير فهو يدل على الشجاعة.

وكذلك فإن السيف القصير يرمز إلى الذكاء الجماعي والانضباط، إذ إن السيف الطويل هو أكثر فعالية من السيف القصير في المواجهة الفردية ولكن فعالية السيف القصير تظهر مع العمل الجماعي.

وأما كون السيف سبارطياً فهذا يرمز إلى النظرة العملية (البرغماتية) بمعنى أننا كمسلمين لا يوجد عندنا الغضاضة والحرج في أن ننظر إلى تجارب الأقوام الأخرى ونتبنى الصالح فيها وإن كانت مخالفة لأعرافنا ما دامت لا تخالف نصوص الشرع.

❖ الخلافة ضرورية الآن لإنقاذ البشرية وهذا بمعناه الحرفي

لقد وصل تعداد العالم الآن إلى حوالي ٦ مليارات نسمة. وهذا العدد أصبح مصدر قلق للكثير من دوائر الحكم لأن الناس أصبحت تستنزف الموارد في الأرض كما أن كثرة التعداد أصبحت تؤثر على توازن الطبيعة.

ولكن ضمن وجهة نظر المؤلف فإن الأرض قادرة على استيعاب أضعاف أضعاف أضعاف التعداد الحالي. وهذا ليس خيالا أو وهما فقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [يونس].

والأرض لم تتزخرف بعد وحجم المنطقة المعمورة من الأرض يكاد يكون كالنقطة السوداء في الثوب الأبيض. وإذا انتبه القارئ فإن ثلاثة أرباع الأرض هي بحار والتكنولوجيا الآن قد أصبحت قادرة على خلق الجزر الاصطناعية.

وأما سبب المشكلة الحالية فهو أن ٩٨٪ من ثروة أهل الأرض تتركز مع ٢٪ من أهلها. وضمن هذه الحالة فإن توزيع الثروة بشكل عادل هو أمر مستحيل. وبالتالي فلا يمكن للمبدأ المسيطر على هذه الأرض (الرأسمالية) أن يساهم بالقدر الكافي لتسهيل حياة البشرية.

والمشكلة الثانية أنه لا يمكن ترقيع النظام الرأسمالي لأن طبيعته وفلسفته تجعل مساره ينتهي بتركيز الثروة في يد الأقلية من البشرية.

والعلاجان الوحيدان أمام الرأسمالية لتضخم التعداد البشري هو النقاش والإقناع (كعمل الندوات والمؤتمرات للتحكم والتخفيف من النسل) أو الخبث. وقد تم تقديم اتهامات صريحة مؤخرا إلى منظمة الصحة العالمية أنها بالغت في مخاطر أنفلونزا الخنازير. وكذلك اتهمت وزيرة الصحة الفنلندية أمريكا علنا "أنها تهدف إلى تقليص سكان العالم بنسبة الثلثين دون أن يتكبدوا بل يجنون المليارات وأجبروا منظمة الصحة العالمية على تصنيف أنفلونزا الخنازير بدرجة وباء مهلك كي يجعلوا التلقيح إجباريا لا خياريا وخاصة للشرائح المستهدفة أولا من الجيل القادم وهم الحوامل والأطفال" (www.alarabonline.org 13-1-2010).

ومع أنه لا يوجد أدلة على الاتهامات السابقة إلا أن ظهور هذه الأخبار على العلن يعني أن هذا الموضوع حامي. وضمن وجهة نظر المؤلف فإنه يوجد الآن خطر حقيقي على وجود البشرية من الرأسمالية؛ وذلك لأنه لا توجد عند الرأسمالية المقدرة لتسهيل حياة الناس ولا توجد عندهم القدرة على توزيع الثروات بينهم بالعدل. ولهذا فإن العلاج الوحيد المتوفر عند الرأسمالية لإنهاء التضخم في التعداد البشري هو استخدام الخبث في تنقيصه.

ولهذا السبب فإن وجهة نظر المؤلف أن الحل الوحيد المتوفر الآن هو دولة خلافة إسلامية؛ لأن النظام الإسلامي هو الوحيد القادر على لجم الرأسمالية وهو الوحيد القادر على التوزيع العادل للثروة كما أنه النظام الوحيد القادر على القيام بالمشاريع العملاقة والتي ليس فيها أرباح سريعة.

وهناك أمر آخر:

قال رسول الله عليه السلام: "يا ابن حوالة إذا رأيت الخلافة قد نزلت الأرض المقدسة فقد دنت الزلازل والبلابل والأمور العظام والساعة يومئذ أقرب من الناس

من يدي هذه من رأسك" رواه أحمد. وقد نزلت الخلافة الأولى إلى الأرض المقدسة ولم تحدث الزلازل والبلابل والأمور العظام. ولهذا فإن غلبة ظن المؤلف أن الخلافة هنا هي الخلافة الثانية.

وإذا ظهر علميا احتمالية دنو الزلازل والبلابل والأمور العظام فإن الرأسمالية غير قادرة على التصرف حيالها بشكل كافٍ لأن المشاريع العملاقة في الرأسمالية تبقى مقيدة بالفوائد الواضحة والأرباح السريعة. ولهذا السبب فإن الرأسمالية لن تكون قادرة على إنقاذ البشرية من هذه الأمور العظام.

وإذا ظهرت هذه الزلازل والبلابل والأمور العظام فإنه سيكون للخلافة التحدي الحقيقي وهو الإبقاء على تعداد البشرية دون خسائر. وإذا كان بالإمكان تحقيق هذا التحدي فإنه لا يمكن تحقيقه بالرأسمالية وإنما بالنظام الإسلامي.

الفصل الثاني والثلاثون

المنهج العلمي والإسلام

تم بحث موضوع "المنهج العلمي في البحث والتحليل" في كتاب سابق (أفكار منهجية). وتم كذلك التعرض لحدود وعلاقة المنهج العلمي مع نصوص القرآن. وهذه المقالة هي في الواقع تتمة لذلك الموضوع.

هذه المقالة لها العناوين التالية:

* المنهج العلمي وإثبات وجود الخالق.
* المنهج العلمي وإثبات الرسالة المحمدية.
* المسافة بين المنهج العلمي والقرآن.
* نظرية داروين.. ذكاء واعتراض.
* علاج الشك.
* مدائن صالح.. أم هي مدائن شعيب؟

❖ المنهج العلمي وإثبات وجود الخالق

هناك أمور قليلة في هذه الحياة والتي يمكن إثباتها بشكل قطعي. وأما باقي الأمور، كمجالات الإدارة والاستراتيجية والتخطيط والعمل والتنفيذ، فإنه يتم التعامل معها ضمن غلبة الظن أو غلبة الظن العالية.

وفي هذه المجالات يكون الإنسان مسئولا فقط بحدود علمه وإمكانياته. وأما خارج هذه الحدود فهو غير مسئول، وهذا الأمر واضح في مجالات الإدارة والأعمال والمجتمع والدولة. والموظف الذي يتم معاقبته بسبب الإهمال فإن هذه العقوبة جاءت بسبب قيام الموظف باختيار تصرف مخالف لحدود علمه وإمكانياته.

ولتوضيح الفكرة السابقة لنفترض أن هناك مادة غلب الظن أنها سامة وقام الرجل بتناولها.

الآن... إذا تسببت هذه المادة بالضرر على الرجل فلا يلومن إلا نفسه. وإذا لم يتضرر فهو محظوظ ولكنه بالتأكيد غير ممدوح. في المقابل فإن القارئ قد يقوم بشراء الفواكه والخضار والسمك ويتناولها. وضمن غلبة الظن فإن هذه المواد لا تضره ولكن في حقيقة الأمر فإن القارئ لا يعرف بالضبط كيف تم صيد السمك وكيف تم رش الفواكه والخضار. ولهذا السبب فإن هو تضرر منها فهو غير ملام ولا يقوم أحد بانتقاده. وهذا هو المقصود أن الإنسان مسئول بحدود علمه وإمكانياته.

وبالنسبة إلى الإثباتات القطعية فإن أكثر مجالاتها هو الرياضيات. ولكن هذا المجال يعتمد على البديهيات التي لا إثبات لها. وإذا تم الاتفاق على البديهيات فمن الممكن إثبات أي شيء وأما إذا كان الخلاف في البديهيات فإن الإثبات نفسه لا يتحقق.

وكذلك في موضوع الخالق: فإذا تم الاتفاق على البديهيات فإن الإثبات القطعي لوجود الخالق موجود. ولكن إذا كان هناك نقاش وخلاف في البديهيات فإن هذا يؤثر في الإثباتات القطعية.

ولهذا السبب فإن المؤلف يفضل الإثباتات العلمية وذلك لأنها لا تعتمد على البديهيات وإنما على الاختبارات. ولكن انتبه هنا أن الإثباتات العلمية لا تضع إفحاما وإنما تضع غلبة الظن.

والاختبارات العلمية متعددة فمنها التجارب المخبرية ومنها الاختبارات الإحصائية وهذه الأخيرة هي التي سيتم استخدامها في هذه المقالة.

ولكن من الضروري قبل استخدام الاختبارات الإحصائية الإلمام بنظرية الاحتمالات ومفهوم الاحتمالية:

عندما يكون عندك عملة وتقوم بفنها (أي رميها عشوائيا) وتسقط إلى الأرض فإن الاحتمالات هي أن يكون ظاهر العملة صورة أو كتابة. وهذا معناه أن احتمالية ظهور الصورة هي (٠,٥). في المقابل إذا كانت العملة مغشوشة وكان وجهاها صورة فإن احتمالية ظهور الصورة هي (١). أي أن ظهور الصورة هو أمر قطعي.

الآن ما المعنى العملي من أن احتمالية ظهور الصورة في العملة هي ٠,٥؟

المعنى هو أنك إذا قمت بفن العملة ١٠٠٠ مرة فستجد أن هناك عدداً قريباً من ٥٠٠ من المرات والتي كان ظاهر العملة صورة.

دعونا الآن نشرح المقصود بغلبة الظن العالية:

عندما يقول لك شخص إن فلاناً قد قام بفن العملة ٢٠ مرة وفي كل مرة ظهرت صورة، وأنه قد قام بهذا الأمر دون غش وإنما كان هو الحظ فما هو موقف القارئ من هذه القصة؟

بالنسبة إلى المؤلف فإنه على يقين أن الأمر كان غشا وأنه لا يمكن أن يكون للحظ أي علاقة بالموضوع.

لماذا؟

لأن احتمالية قيام شخص بفن العملة ٢٠ مرة ودون أي غش وأن تكون في كل مرة صورة هو ٠,٥ إلى القوة (٢٠) وتساوي ٠,٠٠٠٠٠٠٩٥ وهذا معناه أن الشخص إذا قام بالتجربة (فن العملة عشرين مرة) مليون مرة فإنه يمكن أن ينجح في مرة واحدة فقط.

وإذا انتبه القارئ فإنه ليس مستحيلا (ضمن النظرة الرياضية) قيام شخص بالعملية السابقة دون غش. ولكن من النظرة العملية للأمور فإن هذا مستحيل. وهذا هو المقصود بغلبة الظن العالية.

وهناك شواهد في القرآن على ذلك. فقد جاءت كلمة ظن لتعني ثلاثة أمور:

* الشك: كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ... ﴿١٢﴾﴾ [الحجرات].

* غلبة الظن: كقوله تعالى: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۗ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾﴾ [البقرة].

* غلبة الظن العالية: كقوله تعالى: ﴿۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [الأعراف]. وقوله تعالى: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾﴾ [الكهف].

في حين قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ [النمل].

وهناك تفسير أن الظن في آية الأعراف والكهف معناه اليقين وغلبة ظن المؤلف أنها ليست كذلك؛ لأن المستقبل ليس فيه يقين. فعندما تسقط كرة الزجاج فإن غلبة الظن أنها ستصطدم بالأرض وتتحطم ولكن هذا ليس يقينا وإنما غلبة الظن لأنه من الممكن أن يأتي أحد وبشكل غير متوقع ويمسك بالكرة قبل سقوطها. وإذا انتبه القارئ إلى الآيات المتعلقة بالمستقبل فقد كانت اللفظة هي "ظنوا" كما في آية الأعراف والكهف. وأما الاستيقان فهو في النفس كما ذكره الله تعالى في آية النمل.

رجوعا إلى موضوع إثبات وجود الخالق:

الاقتراح في إثبات وجود الخالق يتضمن النظر إلى الفرضيات التالية:

١. الفرضية الأساسية: وهو أن هذا الكون تم تنظيمه عن طريق الصدفة.

٢. الفرضية البديلة: وهو أن هذا الكون تم تنظيمه بقوة خارجية.

والهدف الآن هو معرفة احتمالية الصدفة في تنظيم هذا الكون.

ولمعرفة هذه الاحتمالية في الكون فعلينا أن ندرسه:

والكون عبارة عن أنظمة مستقلة ولكنها متضافرة، فالحياة كي تتحقق في الأرض كان لا بد للأرض والنظام الشمسي من أن يتصف بمقادير معينة، فالأرض لو كانت أقرب إلى الشمس لما كان هناك حياة، ولو أنها كانت أبعد لما كان هناك حياة. ولو لم يكن هناك كوكب كبير كالمشترى يحرف المذنبات والنيازك عن الأرض لتعرضت الأرض لضربات كبيرة قاضية من النيازك. كما أن الحياة تعتمد على الأكسجين والماء، ولو لم يكن هناك نظام لتواجدهما باستمرار على الأرض لما كان هناك حياة. وكذلك الإنسان، فقد اقترن وجوده بتضافر أنظمة مستقلة فيه كالنظام الهضمي والعضلي والعصبي وغيرها.

وبالطبع فإنه ليس من السهل القيام بحساب الصدفة في تكوين هذا الكون ولكن من الممكن عمل اختبار مؤشر:

لنفترض أن هناك عشرة أشخاص يقومون بفن العملة كل خمسة دقائق ولمدة ساعة. وفي كل مرة يكون ظاهر العملات العشرة هو صورة. والسؤال هنا: ما هي احتمالية أن تكون الصدفة هي السبب في هذا النظام؟

النظام السابق يتكون من عشرة أنظمة مستقلة تتشارك فيما بينها لتحقيق نتيجة وهي ظهور العملة صورة في كل مرة. وبالطبع فإن تشابك الكون هو أضخم بكثير من هذا النظام. فالكون يتكون من ملايين الأنظمة المستقلة والتي تتشارك منذ بلايين السنين في تنظيم هذا الكون. ولهذا السبب فإن احتمالية الصدفة في نظام العملة يبقى أكبر بكثير جدا من احتمالية الصدفة في نظام الكون. وهذا هو السبب في تسمية الاختبار بالاختبار المؤشر.

واحتمالية الصدفة في نظام العملة هو ٧ ضرب (١٠ للقوة -٣٧). أي فاصلة ويمينها ٣٦ صفرا ثم سبعة. واحتمالية الصدفة في نظام الكون هي أقل من ذلك بكثير.

الآن... بالنسبة إلى المؤلف فإن الفرضية السابقة غير معقولة ولهذا السبب فإن المؤلف لا يقبل أن تكون الصدفة هي السبب في نظام الكون مما يجعله يؤمن بالفرضية البديلة. على أية حال فإن الرجل الذي يقبل احتمالية الصدفة لنظام الكون حر. وهنا نظرة المؤلف أن الإنسان في النهاية مسئول بحدود علمه وإمكانياته، فإذا ظهر أن هناك خالقاً لهذا الكون وأن هناك يوم القيامة فإن موقف هذا الرجل لن يكون مريحا.

وإذا انتبه القارئ إلى الاختبار السابق فهو يشبه كثيرا الأمثلة الفلسفية في إثبات الخالق. فإن أحد الأمثلة الفلسفية هو نظرة مقارنة: هل من المعقول أن يأتيك شخص بقطعة نثرية ذات حكمة ورونق وبلاغة وأخبرك أن هذه القطعة النثرية قد جاءت بمحض الصدفة والعشوائية من زلزال حدث في مصنع الحبر وتسبب بسقوط الحبر على الورق وكانت النتيجة هي هذه القطعة النثرية.

بالطبع فإن ما سبق هو أسلوب استنكار وما قام المؤلف به هو تحويل أسلوب الاستنكار إلى اختبار إحصائي واقعي بعيدا عن الاستنكار والإفحام وإنما أرقام ودلالات.

❖ المنهج العلمي وإثبات الرسالة المحمدية

الفرضيات:

١- الفرضية الأساسية: إنجازات محمد (عليه السلام) هي إنجازات متفوقة ولكنها ضمن قدرة وطبيعة الإنسان.

٢- الفرضية البديلة: إنجازات محمد (عليه السلام) هي إنجازات خارجة عن قدرة الإنسان وطبيعته.

الملاحظات:

هناك آلاف السنين من التاريخ المسجل. وخلال هذه المدة عاش في الأرض الملايين والملايين من البشر. وضمن ملاحظات التاريخ، فإنه ما من أحد تفوق في

مهارة أو عمل إلا وكان له شبيه في تفوقه ومهارته. وما من أحد عمل عملاً إلّا واستطاع أحد آخر أن يعمل شيئاً شبيهاً له أو يتفوق عليه.

مثال ذلك إذا نظرنا إلى الإنجازات العسكرية، فيمكن أن نقول إن الاسكندر هو أكثر القادة العسكريين إنجازاً ومهارة، ولكن هناك من يشبهوه في إنجازاته ومهاراته، فكورش، وجنكيزخان، وأتيلا، ويوليوس قيصر، وغيرهم يشبهون الإسكندر في مهاراته وإنجازاته، ويمكن القول إن الإسكندر يتفوق عليهم ولكن الآخرين قريبون منه. وكذلك إذا نظرت إلى العلوم، فيمكن أن تقول إن آنشتاين هو أكثر العلماء الفيزيائيين إنجازاً ومهارة، ولكن إذا نظرت لوجدت أن هناك الكثير يشبهه في إنجازاته ومهاراته، فأرشميدس، وفيثاغورث، وجاليليو، ونيوتن، وغيرهم إن لم يتفوقوا عليه فإنهم قريبون من درجة إنجازاته ومهاراته. وهذا ينطبق على كل الإنجازات الإنسانية كالموسيقى والأدب والرسم والإنشاء والهندسة وغيرها.

فالملاحظة هنا هو أن أي إنسان له مهارات ووصل إلى إنجازات فإن المجتمع الإنساني لا يمكنه إلا أن يأتي بانسان آخر تكون مهاراته وإنجازاته قريبة أو متفوقة من إنجازات ومهارات الأول.

ويمكن إثبات هذه الملاحظة باستعراض التاريخ وبأسلوب إحصائي.

وبالتالي فإن القول الفصل في الإثبات هنا هو إذا كان هناك شبيه لإنجازات محمد (عليه السلام) فإنجازاته تكون ضمن قدرة وطبيعة الإنسان. أما إذا ثبت أنه ليس لإنجازاته شبيه فعندها تكون إنجازاته ليست ضمن قدرة وطبيعة الإنسان، وأن إنجازاته هي حالة فردية في التاريخ المكتوب من البشرية.

الآن... ما هي إنجازات محمد (عليه السلام):

١. لقد أقام ديانة، وهذه الديانة ما زالت قائمة وتنمو باطّراد.

٢. لقد أقام مبدأً تنبني عليه الأنظمة والقوانين والأفكار. وفي العالم الآن ثلاثة مبادئ

واضحة: الرأسمالية، والشيوعية، والإسلام.

٣. لقد وضع الأنظمة والقوانين التي تعالج مشاكل الفرد والمجتمع والدولة.

٤. لقد أقام دولة وما زال أساسها قائماً.

٥. لقد أقام أمة وما زالت بكيانها ووجودها.

٦. لقد تحققت هذه الإنجازات في حياته.

٧. ولقد مات عزيزاً في قومه.

أما مهارات الرسول عليه السلام فقد مات الرسول وعنده مهارات عديدة قوية، ولكن هذه المهارات قد ظهرت فجأة ودون إنذار. فلقد عاش حياة هادئة مدة أربعين سنة، ولم يذهب إلى الجامعات ليدرس مهارات الإدارة والقيادة، ولم يقرأ عن تاريخ القادة ومهاراتهم وأخطائهم، بل كان أمياً لا يعرف القراءة ولا الكتابة، ولم يأخذ أية مسئولية قيادية أو إدارية كي يأخذ منها الخبرة، وإنما كانت حياته هادئة ولم يشتهر عنه إلا أنه صادق وأمين. ولو أنه مات قبل البعثة لما ذكره أحد في التاريخ. ثم جاءت البعثة وظهرت عليه المهارات فجأة ودون إنذار ولم تمر ثلاث وعشرين سنة إلا والعالم غير العالم والناس غير الناس.

الاختبار:

من في التاريخ يشبه محمداً (عليه السلام) في إنجازاته والتي تحددت بالديانة، المبدأ، الأنظمة والقوانين، الدولة، الأمة، تحقيق الإنجازات في حياته، والموت عزيزاً في قومه؟

إذا نظرت بعمق شديد في التاريخ فستجد النتيجة هي صفر. وإنما أقرب رجل لإنجازات الرسول عليه السلام هو موسى عليه السلام: فلقد أنشأ ديانة، وضع أنظمة وقوانين، وأنشأ أمة، ولكنه لم يتمكن من إقامة الدولة ومات وحيداً مفارقاً لقومه.

وهنا نأتي لنتيجة الاختبار وهي أنه ما من أحد أبداً في التاريخ قد أنشأ ديانة وأقام مبدأً ووضع الأنظمة والقوانين وأقام دولة وأقام أمة وتحققت إنجازاته في حياته ومات عزيزاً وما زالت إنجازاته قائمة إلّا محمداً (عليه السلام).

وكما تم ذكره سابقاً، فإن المنهج العلمي لا يفرض إفحاماً وإنما يقدم نتيجة الاختبار ويعطي المسئولية للإنسان. والإنسان في النهاية مسئول بحدود علمه وإمكانياته.

❖ المسافة بين المنهج العلمي والقرآن

من النظرة إلى تاريخ المنهج العلمي فإن هناك قانوناً واضحاً أساسياً فيه وهو أن العلم يجب أن يخطو إلى الخطأ كي يصل إلى الصحيح. فمعظم النظريات العلمية بدأت خاطئة ومع مرور الزمن تم تعديلها حتى وصلت إلى درجة عالية من الصحة.

وأفضل مثال على ذلك هو آية الشمس والقمر: ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [يس]. وقد كانت النظرة السائدة أن الشمس تدور حول الأرض. ولكن تغيرت هذه النظرة عندما وضع كوبرنيكوس (Copernicus) نظريته في عام ١٥٤٣. وفي هذه النظرة فإن الشمس ثابتة في الكون، والأرض تدور حولها. ولم تسبب هذه النظرة مشكلة في العالم الإسلامي وذلك لأن العالم الإسلامي وقتها كان في سبات في المجال العلمي. واستمرت نظرية ثبات الشمس مدة ٣٨١ سنة حتى قام هابل (Edwin Hubble) عام ١٩٢٤ بالإعلان عن تمدد الكون وسباحة المجرات فيه.

وهنا النقطة... وهي أنه من غير المستغرب ظهور التعارض بين آيات القرآن والنظرة العلمية وذلك لأن النظرة العلمية بحاجة إلى أن تخطو إلى الخطأ كي تصل إلى الصحيح.

وكذلك فإن هناك سببا آخر لتعارض آيات القرآن مع النظرة العلمية وهي

أنه ربما يكون فهمنا للآية القرآنية غير صحيح. مثال ذلك قول الله تعالى: ﴿... وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ... ﴿٣٤﴾﴾ [لقمان]، وقد أخذها الكثير من المفسرين أن الإنسان لا يمكنه معرفة نوع الجنين. وتبين لاحقا قدرة الإنسان على معرفة نوع الجنين. وإذا نظرنا بعمق فلا يوجد أي تصريح في الآية أن الإنسان لا يمكنه معرفة نوع الجنين والحقيقة هو أن فهمنا لهذه الآية لم يكن صحيحا.

وهنا تكمن أسباب التعارض بين المنهج العلمي وآيات القرآن:

١- أن يكون المنهج العلمي ما زال في خطواته الخطأ نحو الصحيح.

٢- أن يكون فهمنا للآية القرآنية غير صحيح.

وبالطبع فإنه لمن الخطأ الشديد (ضمن وجهة نظر المؤلف) من المسلمين عند ظهور التعارض بين النظرة العلمية وآيات القرآن أن يشعروا بالغضب ويقوموا بالشتيمة لهذه النظرة العلمية. وذلك للسبب السابق ذكره وهو أن العلم بحاجة أن يخطو إلى الخطأ كي يصل إلى الصحيح. وكذلك فإن نظرية ثبات الشمس كانت أفضل من سابقاتها ولكنها كانت مخالفة لآيات الله وهذا لا يعني أن يقوم المسلمون بشتيمة كوبيرنيكس وكبلر وجاليليو ونيوتن. ففي نهاية الأمر فإن المسلمين ليسوا مطالبين بإثبات آيات الله وإنما هذه الآيات هي أمر الله يظهرها متى شاء.

ولكن المفروض الآن وفي هذا الوقت أن يكون المسلمون قد حصلوا على مناعة كافية من تعارضات العلم مع آيات القرآن. فالمناعة الثانية جاءت من آيات الشمس والقمر. وأما المناعة الأولى فهي آية الجبال: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [النمل]. وقد قام العلماء الأقدمون بتفسير الآية كما هي. ولكن لم يقم الناس بالرحيل عن الجبال بسبب هذه الآية وإنما كان هناك موقفين: الموقف الأول وهو الموقف الواقعي وهي أن الجبال ثابتة. والموقف الثاني وهو أن الجبال تمر مر السحاب. ولم يؤثر أحد الموقفين على الآخر. وقد ظهر للعلماء (فيما بعد) التفسير الصحيح لهذه الآية وظهر التوفيق بين هذين الموقفين.

ولهذا فإن وجهة نظر المؤلف أن المسلمين يجب أن يكونوا قد وصلوا الآن إلى درجة عالية من المناعة للتعارضات بين النظرة العلمية وآيات القرآن وأن ينظروا إلى هذه التعارضات ببرودة الأعصاب وهدوء النفس.

❖ نظرية داروين.. ذكاء واعتراض

نظرية التطور هي إحدى النظريات التي لم تأتِ عن طريق التجارب وإنما جاءت نتيجة لصفاء الذهن ودقة الانتباه، فقد انتبه داروين في أحد رحلاته إلى وجود مجموعة كبيرة من الطيور المتشابهة ولكنها مختلفة بمناقيرها. فكان استنتاجه أن هذه الطيور لها أصل واحد. ثم قام داروين بتعميم هذه النظرية على جميع الكائنات الحية.

الآن... الإسلام لا يتعارض مع هذه النظرية إلا في جزئية واحدة فقط وهو أصل الإنسان. وهذا الاعتراض لم يأت بسبب ذكاء خارق وإنما جاء بسبب وجود نص صريح في القرآن يتحدث عن خلق الإنسان. أما في غير موضوع الإنسان فلا يوجد تعارض بين نظرية التطور والإسلام . فلا يوجد تعارض بين الإسلام وبين النظرة التي تقول إن الحمار والحصان هما من أصل واحد. ولا يوجد تعارض بين الإسلام وبين النظرة التي تقول إن القط والأسد هما من أصل واحد. ولا يوجد تعارض بين الإسلام وبين النظرة التي تقول إن الفيل والفأر هما من أصل واحد. وإنما التعارض الوحيد هو في الجزئية التي تتعلق بأصل الإنسان.

والمشهور في نظرية التطور في جزئية الإنسان أن أصله قرد ولكن الأمر أشد سوءاً من ذلك: فالجزئية تقول إن الإنسان والقرد لهما أصل واحد قبل كذا مليون سنة وأن الإنسان والفأر لهما أصل واحد قبل كذا وكذا مليون سنة وأن الإنسان والكوليرا لهما أصل واحد قبل كذا وكذا وكذا مليون سنة.

ولكن هذه هي الجزئية الوحيدة التي يتعارض فيها الإسلام مع نظرية التطور. وإذا أردنا الصدق فإن للعلمانيين العذر لهذه النظرة وذلك لسببين: أولهما أن العلمانيين ليسوا مؤمنين بالكتب السماوية. والثاني وهو أن أبسط تفسير لوجود هذا التشابه

العجيب بين القرد والإنسان هو القول أن الإنسان أصله قرد.

وهنا توجد نقطة انتباه... فعندما ننظر نظرة عقلية مجردة لهذا الأمر فإنه من الواضح أن ما قام به العلمانيون له أسبابه. والمؤلف لا يستطيع أن يقوم بإلزام الناس بالقرآن. والعلمانيون في هذه الحالة ينظرون إلى الواقع نظرة تختلف تماما عن نظرة المسلمين. وضمن نظرتهم هم إلى هذا الواقع فإن نظريتهم في أصل الإنسان لها أسبابها ولم تأت نتيجة غباء أو سوء أخلاق. وكما ذكر المؤلف سابقا فإن اعتراض المسلمين على نظرية أصل الإنسان لم تأت بسبب ذكاء خارق وإنما جاءت بسبب وجود نص صريح لا شك فيه في القرآن عن أصل الإنسان وهو نص يؤمن فيه جميع المسلمين.

وإذا انتبه القارئ فإن الادعاء بأن أصل الإنسان قرد هو أخف وطأة من قول الله، تعالى: ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ ﴾ [مريم]. ومع هذا فقد قام المسلمون بمداراة النصارى من أهل الذمة وتم النظر إليهم نظرة الرعاية والاحترام. ولهذا السبب فإن قيام المسلمين بالسخرية والازدراء لعلماء التطور هو أمر ليس له داع. ففي واقع الحال فإن هذا العلم ما زال يخطو إلى الخطأ في طريقه نحو الصحيح. والأولَوية هو النظر إلى هذا العلم بالضبط كالنظرة إلى نظرية ثبات الشمس (راجع الفصل السابق)، فكلاهما يتفقان بتعارضهما مع القرآن. وللتذكير فإن نظرية ثبات الشمس استمرت مدة ٣٨١ سنة.

وأفضل مثال لتوضيح العلاقة بين المنهج العلمي وآيات القرآن هو قيام الشخص بالسفر إلى مدينة في الشمال بطريق جبلية كثيرة التعاريج. وليس غريبا أبدا أن ينحرف الطريق فجأة باتجاه الجنوب مع أن المدينة في اتجاه الشمال. وكل ما في الأمر أن الطريق شديد التعاريج بسبب طبيعة الأرض. ولكن إذا صبر المسافر قليلا فسيجد أن الطريق سينحرف إلى الشمال باتجاه المدينة. وكذلك المنهج العلمي فطريقه شديد التعاريج وقد يظهر في مساره أنه متناقض تماما مع آيات القرآن ولكن هذا التناقض مؤقت. وللمسلمين الآن العبرة في موقفين وهما آية الجبال وآية الشمس

والقمر (راجع الفصل السابق).

ولكن تعارض هذا العلم مع آيات القرآن لا يعني ألا نقوم بدراسته ونهمله ونتركه للآخرين. كما أنه من الخطأ الشديد قيام المسافر بالتوقف في الطريق لأن الطريق بدأ ينحرف نحو الجنوب. كما أنه من الخطأ الشديد قيام رجل في القرن الثامن عشر برفض دراسة قوانين نيوتن بحجة أنها تتعارض مع آية الشمس والقمر.

وهذه هي النقطة هنا... فالمنهج العلمي له طريق شديد التعاريج ويجب عليه في هذا الطريق أن يخطو إلى الخطأ كي يصل إلى الصحيح. ومن هنا جاءت الضرورة إلى عمل مسافة بين المنهج العلمي وبين آيات القرآن وهي نفس المسافة التي اتخذها المفسرون في قول الله تعالى: ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ ... ﴿٨٨﴾ ﴾ [النمل]. وهي شبيهة بالمسافة التي يتخذها القاضي بين المنهج القضائي وقناعاته الشخصية.

نهاية الأمر فإن نظرية التطور هي عربة ما زالت تسير الآن في طريق الخطأ نحو الصحيح. وعندما تصل إلى الصحيح فإن الأولى أن يكون العلماء المسلمون في المقاعد الأمامية فيها بدلا من الخلفية.

إن الدعوة هنا هي لدراسة نظرية التطور وليس من وجهة نظر إسلامية وإنما من وجهة نظر عقلية مجردة. وذلك لأن النظرة العقلية المجردة ستنتهي إلى حيث ذِكر الله.

من المناسب هنا التعرض لمصطلح "مقامرة أبي بكر":

انتصر الفرس على الروم في ٦١٣م وقال المشركون وقتها للرسول عليه السلام: غلب إخواننا إخوانكم. ونزلت الآية: ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [الروم]. وعندها تراهن أبو بكر والمشركون أن الروم ستغلب في بضع سنين.

الآن... ضمن النظرة العقلية المجردة ذلك الوقت فإنه كان من المستبعد تماما انتصار الروم على الفرس بل بدأت الخطط عند القيادة الرومانية لنقل العاصمة إلى قرطاجة بدلا من القسطنطينية. ولهذا السبب فضمن النظرة العقلية المجردة ذلك الوقت أن رهان أبي بكر خاسر. ولكن الذي حدث أن الأمزجة والظروف تغيرت خلال السنوات وانتصر الروم على الفرس. وهذه هي مقامرة أبي بكر، ومقامرة أبي بكر دائما رابحة.

والمعنى هنا أن خط الأيام وخط النظرات العقلية سينتهي دائما حيث قال الله تعالى . وهذه هي المقامرة الآن بين المسلمين والعلمانيين في موضوع أصل الإنسان. ولهذا السبب فلا يوجد أي داع أبدا للنظر إلى نظرية التطور من خلال وجهة نظر إسلامية لأن مقامرة أبي بكر هناً أن النظرة العقلية المجردة ستنتهي إلى حيث قال الله تعالى . فالموضوع هو مقامرة أبي بكر ومقامرة أبي بكر دائما رابحة.

وهناك نقطة أخرى جديرة بالانتباه: وهو أن دراسة نظرية التطور يجب ألا تكون بهدف نصرة الإسلام وإنما بهدف الرغبة في معرفة أسرار الكون:

١- الإسلام ليس ضعيفا الآن بسبب نظرية داروين ولن يزداد الإسلام قوة إن ثبت بطلان نظرية داروين. فقوة الإسلام من ذاته وليس من غيره.

٢- لنأخذ التشبيه السابق عن الشخص الذي يسافر إلى مدينة في الشمال ثم لاحظ أن الطريق قد انحرف نحو الجنوب. الآن إذا استمر المسافر بالنظر باتجاه الشمال مع أن سيارته تتجه نحو الجنوب فإن الذي سيحدث هو انحراف السيارة وسقوطها نحو الهاوية. وأما من يريد الوصول إلى هدفه فإن عينه وانتباهه على الطريق. وكذلك في البحث العلمي فإن الارتقاء في العلم من مستوى إلى آخر يتطلب رغبة حقيقية في معرفة أسرار هذا الكون وأما من عنده أجندة أخرى فإن نجاحه سيكون أقل درجة.

ولكن هناك مشكلة: كيف يمكننا دراسة نظرية التطور بوجهة نظر عقلية مجردة

ومتابعة ومناقشة العلمانيين فيها دون الانغماس في الكفر؟

والجـواب هو: عمل مسـافة بـين المنهـج العلمـي والعقيـدة. دعونا نضرب الأمثال:

لنفترض أنك تدرس هذا العلم في جامعة غربية وكان مطلوبا منك كتابة بحث عن نظرية أصل الإنسان. فماذا تفعل؟

إذا قمت بالكتابة بالأسلوب التالي: إن الإنسان أصله قرد، فأنت قد وقعت في إثم. ولكن الأمر يختلف إذا قمت بالكتابة كما يلي:

* وجهة النظر العلمية السائدة في الغرب أن الإنسان أصله قرد.

* فلان الفلاني يقول إن الإنسان أصله قرد وذلك للأسباب أ ، ب ، ج.

* وجهة نظر علماء الغرب هو أن أصل الإنسان قرد.

فجميع العبارات السابقة هي وصف وليست اقتناعاً. وهذا بالضبط المقصود بعمل مسافة بين المنهج العلمي والعقيدة. فعندما تدرس التاريخ وكان مطلوبا منك كتابة بحث عن آلهة اليونان فإن كتاباتك ستكون وصفا لهذه الآلهة ولا يعني ذلك تصديقها.

وبالطبع فأنت قادر في الهامش أن تذكر أنك غير مصدق لنظرية أصل الإنسان لأسباب اعتقادية ولكنك تسعى لفهم هذا العلم وتريد أن تعلم "آخرتها إيه".

لنضع مثالا آخر:

لنفترض أنك متخصص في نظرية التطور وأنك وجدت دليلا مؤيدا لنظرية أن أصل الإنسان قرد. فماذا سيكون موقفك؟

الموقف الصحيح أن تكون صادقا. فالأولى أن تقوم بإظهار أبحاثك. ولكن

تستطيع أن تذكر في الهامش أنك غير مقتنع بنظرية أصل الإنسان لأنها مخالفة للعقيدة.

وهناك ثلاثة أسباب لاتخاذ موقف الصدق:

١- لأنك عندما تذهب إلى المدينة في الشمال في طريق جبلي شديد التعاريج فإنه سيكون هنالك الكثير من المقاطع التي تتجه نحو الجنوب. وكلما أسرعنا في هذه المقاطع كلما أسرعنا بالخروج منها. وكذلك في العلوم فكلما أسرعنا في خطواته كلما أسرعنا في الخروج من أخطائه.

٢- لأن المسلمين ليسوا مسئولين عن إثبات وتبرير آيات الله وإنما هم مسئولون عن تطبيق أحكام الله وشرحها. أما آيات الله فهي لله يظهرها متى شاء.

٣- لأن موضوع هذا العلم ضمن مقامرة أبي بكر. وفي هذه المقامرة يجب على العلماء المسلمين التقيد بالنظرة العقلية المجردة لعلمهم التام أنها ستنتهي حيث أخبرنا الله تعالى .

ويجب هنا الانتباه إلى أنه من النادر للمنهج العلمي أن يقوم بإثبات ذاتي للنظريات وإنما في الغالب الأعم فإن المنهج العلمي يقوم إما بالنفي أو الجمع. وأما النفي فهو إثبات أن النظرية غير صحيحة. وأما الجمع فهو جمع الأدلة والقرائن التي تكون في مصلحة النظرية. وعندما تتراكم الأدلة لمصلحة النظرية فإن العلماء يعتبرون هذا الأمر كافيًا لصحتها. -

وبالنسبة إلى نظرية أصل الإنسان فإنه لا يوجد إثبات صريح لها ولكن الصدق هو أن هناك تراكماً كبيراً من الأدلة والقرائن الجينية والبيولوجية والأثرية لمصلحتها، وهذا ما يجعل العلماء العلمانيين مطمئنين لصحة هذه النظرية. ولكن الأمر هنا بالنسبة إلى المؤلف هو مقامرة أبي بكر. وضمن وجهة نظر المؤلف التي تم ذكرها سابقا فإن على المسلمين الآن أن يكونوا قد حصلوا على المناعة من تعارض النظريات العلمية مع آيات القرآن.

وهنا دعوة من المؤلف إلى المهتمين بالقيام بدراسة نظرية التطور بعيدا عن الاستخفاف والسخرية وإنما بنظرة عقلية مجردة والانتباه إلى تصنيفات ومصطلحات هذا العلم ومتابعة ما وصل إليه العلماء العلمانيون. وعندما يصل العلماء المسلمون إلى درجة الاحتراف في هذا العلم فإن هناك الكثير من الأمور التي يمكن (وبنظرة عقلية مجردة) تعديلها:

فجزء كبير جدا من نظرية أصل الإنسان تخمين لا دليل له. مثال ذلك نظرة العلماء الغربيين أن الإنسان القديم قبل مليون سنة كان همجيا ووحشيا وأنه لم يكن قوي الإدراك. ولكن هذا تخمين جاء بسبب مبادئ نظرية التطور حيث إن هذه المبادئ تقول إن الإنسان الحالى هو نسخة متطورة عن الإنسان القديم. ولكن هذه النظرة يمكن دحضها بطريقة عقلية مجردة:

فالإنسان القديم قبل مليون سنة كان ماهرا جدا في صناعة الأدوات الحجرية كما أنه كان ماهرا في صناعة القوارب (والنظرية الحالية والتي جاءت من جزيرة في أندونيسيا أن الإنسان قد صنع القوارب قبل مليوني سنة). وبالتالي فعندما ننظر إلى الإنسان قبل مليون سنة فإن علينا أن ننظر إليه (ضمن نظرة عقلية مجردة) ككائن ذكي وليس ككائن ضعيف الإدراك. وواقع الحال فإن المجتمعات الإنسانية قبل مليون سنة تشبه المجتمعات الإنسانية في أدغال أفريقيا وأمريكا الجنوبية، وكثير من هذه المجتمعات لا تعرف صناعة المعادن. وهؤلاء الناس في أدغال أفريقيا وأمريكا الجنوبية بالتأكيد متخلفون تماما في التكنولوجيا ولكن أدمغتهم لا تختلف أبدا عن أدمغة نيوتن وجاليليو وآنشتاين بل إن أدمغتهم هي بالتأكيد أفضل ألف ألف مرة من دماغ جورج بوش الابن.

وخلاصة القول هنا أن العلماء المسلمين عندما يصلون درجة الاحتراف في هذا العلم فإن هناك الكثير من التخمينات والتي يمكن دحضها بطريقة عقلية وعلمية مجردة.

❖ علاج الشك

عندما يقوم الإنسان بقراءة عميقة للمقالات والكتب فإنه لا ينظر نظرة شاملة وإنما في كثير من الأحيان فإنه ينظر بعين الكاتب. ولهذا السبب فإنه من الممكن جدا أن يأتي إليه الشك. وهذا الأمر ليس غريبا ولا هو غير منطقي وإنما هو طبيعي.

وعلاج هذا الشك سهل ويسير، وهو أن يتذكر المسلم لماذا آمن بالخالق ولماذا آمن بالرسالة المحمدية.

دعونا نضرب المثال:

لنفترض أن القارئ كان يطالع الإنترنت وخلال هذه المطالعة وجد مقالا لرجل اسمه جورج وأن مقالته هي عبارة عن تحليل علمي لشخصية محمد (رسول الله).

ولنفترض أن نظرية جورج هو أن محمدا (عليه السلام) كان مصابا بالصرع والهلوسة. وأن القرآن هو نتاج هذه الهلوسة. ثم قام جورج بإثبات نظريته بالأدلة والقرائن وقام بإعطاء الأمثلة عن أناس كانوا مصابين بالصرع والهلوسة وعن إنجازاتهم العبقرية كجين (Joan of Arc) والتي كانت السبب في استقلال فرنسا عن إنجلترا والفنان الألماني فان جوخ (Van Gogh).

الآن... ماذا سيكون موقف القارئ؟

إذا كان القارئ رجلاً متخصصاً في أمراض الصرع والهلوسة فربما يأتيه الضحك لأخطاء جورج وخروجه عن الصحيح. ولكن إذا كان القارئ ذا إلمام بسيط بأمراض الصرع والهلوسة فهناك الاحتمالات التالية لموقفه:

١- أن يصل الشك إلى قلبه والشعور بأن هذه المقالة ربما تكون صادقة.

٢- أن يشتد به الغضب ويبدأ بالشتيمة على جورج وأبو جورج وأم جورج وأهل جورج وطائفة جورج على هذه الأكاذيب التي أوردها لسيد هذه البشرية. وواقع الحال فإن الغضب لم يأت بسبب الأكاذيب فهناك أمور أشد منها (كعبادة

التماثيل والقول إن الله له صاحبة وولد) ولكنها لم تسبب هذا الغضب. ولكن السبب الحقيقي لهذا الغضب هو الشعور بالعجز.

٣- الشعور بالعجز لعدم القدرة على دحض مزاعم جورج.

وهنا تكون الفائدة من إثباتات وجود الخالق وإثباتات الرسالة المحمدية:

إن عدم قدرة القارئ على الرد لا يعني أن رأي القارئ خطأ ولا يعني أن رأي الخصم صحيح. وإنما يعني أن القارئ غير قادر على الإجابة. وأما صحة أو خطأ الرأي فيعتمد في النهاية على الأدلة التي يستند إليها هذا الرأي. فإن كانت الأدلة راسخة فالرأي راسخ، وإن كانت الأدلة ظنية فالرأي ظني، وإن كانت الأدلة محتملة فالرأي محتمل، وإن كانت الأدلة واهية فالرأي واهٍ.

وهذه هي النقطة هنا... فإن أدلة وجود الخالق راسخة وأدلة صحة الرسالة راسخة ولهذا السبب فإن مقالة جورج يجب ألا تثير الشك ولا الغضب ولا الشعور بالعجز.

وأما إذا أثارت مقالة جورج (أو أي مقالة أخرى) الشك أو الغضب أو الشعور بالعجز فكل ما يجب أن يفعله القارئ هو أن يقرأ (أو يتذكر) الإثباتات المتعلقة بوجود الخالق والرسالة المحمدية.

وأما القدرة على الإجابة أو عدم القدرة على الإجابة فهي لا تعني أن الرأي صحيح أو خطأ إنما تعني القدرة على الإجابة أو عدمها فقط. وأما صحة أو خطأ الرأي فلا يعتمد إلا على أدلته.

وهنا نقطة أخرى: إن الوجهة نحو الشمال هي وجهة واحدة فقط ولكن الوجهة نحو غير الشمال هي ألف ألف وجهة. وكذلك فإن الحق له وجهة واحدة ولكن غير الحق له ألف ألف وجهة. وهذا معناه أن المقالات الشبيهة بمقالة جورج ستكون كثيرة جدا وأن الناس لن تعجز عن خلق السيناريو تلو السيناريو لدحض أساسات الإسلام. وإذا قام القارئ بمحاولة الرد على كل مقالة "فيعني مش رح نخلص".

ولهذا السبب فإن الأولى هو الرد على المقالات المشهورة أما ما عداها فالأولى تركها. وإذا ظهر الشك في القلب نتيجة لمقالة هنا أو هناك فليتذكر القارئ لماذا آمن هو بوجود الخالق ولماذا آمن هو بالرسالة المحمدية.

إن التمهيد السابق كان ضروريا لمناقشة السؤال التالي:

هناك تشابه عجيب وحقيقي بين الإنسان والقرد. وإذا لم يكن أصل الإنسان قرداً فكيف يمكن تفسير هذا التشابه؟

بالطبع فإن وجهة النظر العلمانية واضحة وجازمة وشبه يقينية وهي أن هذا التشابه سببه هو أن أصل الإنسان قرد.

والمؤلف يرى هذه النظرة ذكية ولكنها خاطئة. أما ذكية فلأنها جاءت بعد تحليل، وأما خاطئة فلأنها مخالفة لعقيدة المؤلف (والتي لا يؤمن بها العلمانيون).

ولكن هذا هو جواب العلمانيين. فما هو جواب العلماء المسلمين؟

والحق فإن العلماء المسلمين ليس لديهم جواب.

والسؤال الآن: هل عدم وجود جواب للسؤال السابق سيؤدي إلى التشكيك بالرسالة المحمدية؟

بالطبع لا. فكما تم شرحه سابقا فإن عدم القدرة على الإجابة لا يعني أن رأي الشخص خاطئ أو صحيح وإنما يعني فقط عدم القدرة على الإجابة. بالإضافة إلى ذلك فهناك أسئلة كثيرة جدا في العلم ما زالت بلا أجوبة ولن يكون هناك ضرر إن زادت تلك الأسئلة سؤالاً إضافيًا.

بالطبع فإن بعض المسلمين عندهم إجابة للسؤال السابق وهو أن التشابه بين الإنسان والقرد جاء لمشيئة الله. وبالطبع فإن هذا الجواب كامل الصحة ولكنه غير مفيد لأن كل شيء إنما جاء بمشيئة الله. وهذه العبارة يستطيع أن يستخدمها أي شخص وفي أي موضوع وفي أي وقت. فالرجل الرافض لنظرية تزحزح القارات يستطيع أن يقول إن النظرية خاطئة وأن تطابق القارة الأفريقية وقارة أمريكا الجنوبية

إنما حدث بمشيئة الله. وكذلك عندما تظهر أدلة تدين جرير بقتل زيد فإن لمحامي جرير القدرة أن يقول إن هذه الأدلة غير صحيحة وأن ما يظهر من علاقة بين هذه الأدلة وجرير إنما حدثت لمشيئة الله.

انتبه هنا... المؤلف لا ينتقد استعمال عبارة "حدث هذا لمشيئة الله" في المجال الأدبي أو الفقهي أو المواساة وإنما ينتقد المؤلف استخدامها في السياسة والعلوم والقضاء. وذلك لأن السياسة والعلوم والقضاء هي مجالات تحاول التعمق في باطن الأنظمة والكشف عن أسرارها. ولا يوجد داع لذكر العبارة السابقة لأن كل أمر وكل شيء وكل علاقة وكل نظام إنما حدث بمشيّئة الله.

على أية حال فإن هناك نظرية فلسفية للمؤلف لشرح هذا التشابه العجيب بين الإنسان والقرد. ولكن على القارئ الانتباه إلى أن هذه النظرية هي أقرب إلى الخيال والجنون منها إلى المنطق ولكن هذا هو أفضل الموجود عند المؤلف الآن:

انتبه إلى الآيات التالية:

١- ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١﴾ [القدر].

٢- ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾ [الفرقان].

٣- ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٣٠﴾ [البقرة].

وقد فسر بعض العلماء (كالقرطبي) الآية الأولى والثانية أن الله قد أنزل القرآن إلى السماء الدنيا ثم نزّله تباعا إلى الرسول عليه السلام. ولكن السؤال هو: أين نزل في السماء الدنيا و إلى من؟

وبالنسبة إلى الآية الثالثة فإن التساؤل هو: لماذا قام الله تعالى بإخبار الملائكة بما يريد فعله؟ وما هو الداعي لأن يقوم الله تعالى بإخبار الملائكة بأنه جاعل في الأرض خليفة؟

إن غلبة تخمين المؤلف أن هناك دوراً غير واضح للملائكة في إدارة شئون الأرض. وضمن هذه النظرة فإن الله قد أنزل القرآن إلى الملائكة في السماء الدنيا وأن الملائكة قد نزلته تباعا (بأمر الله) إلى الرسول عليه السلام.

والنظرية الفلسفية هي أن الله تعالى قد طلب من الملائكة تصميما للخليفة على الأرض فوجدت الملائكة أن القرد هو أفضل الكائنات وأذكاها وأقدرها للتكيف مع الطبيعة فاختارته تصميما للخليفة فخلق الله الإنسان بأفضل مما اقترحوا.

بالطبع فإن العلمانيين سيقعون من الضحك لهذه النظرية ولهم كل العذر في ذلك. فهم لا يؤمنون بالقرآن ولسان حالهم سيقول: لماذا التعقيد؟ وخلي الأمور ببساطة..إلخ.

وأما المؤلف فهو يؤمن بالقرآن ولهذا السبب فعنده ثلاثة أمور بحاجة لأن يتم التوفيق بينها:

١. هناك تشابه عجيب بين الإنسان والقرد.
٢. من الناحية العقائدية فإنه لا يمكن أن يكون أصل الإنسان قرداً.
٣. من الناحية العلمية فإنه لا يمكن أن يكون أصل القرد إنساناً.

فكانت النظرية السابقة هي أفضل الموجود عند المؤلف.

آخر نقطة في هذه المقالة نموذج طريف قد سمعه المؤلف من أحد أساتذته وسيقوم المؤلف بعرضه هنا بتصرف:

هناك احتمالان بالنسبة إلى الكون:

١. الكون له خالق.
٢. الكون ليس له خالق.

وهناك احتمالان بالنسبة إلى تصرفات الإنسان:

١. الالتزام بتعاليم الخالق.
٢. عدم الالتزام بتعاليم الخالق.

وبالتالي فهناك أربعة من مربعات الاحتمالات:

١. الكون له خالق وأنت تلتزم بتعاليمه.

٢. الكون له خالق وأنت لا تلتزم بتعاليمه.

٣. الكون ليس له خالق وأنت تلتزم بتعاليمه.

٤. الكون ليس له خالق وأنت لا تلتزم بتعاليمه.

الآن... بالنسبة إلى المربع الأول والرابع فأنت محظوظ.

بالنسبة إلى المربع الثاني فهذه مصيبة المصائب.

وبالنسبة إلى المربع الثالث فهذه ليست مشكلة كبيرة إذا كانت التعاليم تدعو إلى الخير والحكمة.

ولهذا السبب، وبتحليل فلسفي مجرد وقبل الدخول في تحليل الواقع وتحديد نسبة الصدفة في خلق الكون، فإن هناك ثلاثة مربعات احتمالات تدعو إلى الالتزام بتعاليم الخالق واحتمال واحد يدعو إلى عدم الالتزام بها.

❖ مدائن صالح ... أم هي مدائن شعيب؟

تم الشرح في المقالة السابقة أن التعارضات بين النظرة العلمية وآيات القرآن تكون لأمرين:

١- أن يكون المنهج العلمي ما زال في خطواته الخطأ نحو الصحيح.

٢- أن يكون فهمنا للآية غير صحيح.

وبالنسبة للأمر الأول فإن أفضل الأمثلة هو آية الشمس والقمر وآيات خلق الإنسان. وأما بالنسبة إلى الأمر الثاني فقد ذكر المؤلف مثالين في كتاب سابق (أفكار منهجية):

• قال الله تعالى: ﴿ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ ﴾ (الشعراء).

وقد كانت نظرة التعارض أن بني إسرائيل لم يرجعوا إلى مصر بعد خروجهم منها. وبعد التحليل فإن غلبة الظن أن المقصود بهذه المدائن هم أتباع فرعون في جنوب فلسطين. ومن هذا التحليل فإن غلبة الظن كذلك أن العبور كان في البحر الأحمر وليس في منطقة السويس.

• قال الله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ ﴾ (الكهف). وقال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ ﴾ (الكهف).

وكانت نقطة التعارض أن كل نقطة في الأرض هي مغرب ومطلع للشمس. ولكن جاء الانتباه أن مكة (مكان نزول القرآن) لها مغرب ومطلع للشمس. ومن متابعة هذا التحليل فإن غلبة التخمين أن العين الحمئة هي في مدينة الداخلة (أو مدينة قريبة منها) في الصحراء الغربية شمال موريتانيا وأن مطلع الشمس هو جبل Yushan في تايوان.

وفي هذه المقالة فإن المؤلف سيبحث مثال آخر بالتفصيل وهو يتعلق بالمدينة المسماة بمدائن صالح:

لقد اكتشف العلماء أن مدائن صالح كانت عامرة في القرن الأول الميلادي. وهذا أمر ليس تخمينا وإنما غلبة ظن عالية فهذه الغرف المنحوتة في مدائن صالح إنما هي أضرحة وفي كثير من هذه الأضرحة توجد كتابات ونصوص تحدد صاحب الضريح وزمن الوفاة. وهذه الكتابات هي نبطية مثلها مثل كتابات البتراء، وكذلك أضرحتها فهي شبيهة جدا بأضرحة البتراء.

وهنا تأتي نقطة تعارض: فالمشهور في الأحاديث أن مدائن صالح هي مدينة ثمود ولكن ثمود وبنص واضح قد تم تدميرها قبل موسى عليه السلام لقول الله تعالى على لسان المؤمن من آل فرعون: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾﴾ (غافر). وغلبة الظن بعد تحليل النصوص أن المدينة المسماة الآن بمدائن صالح هي في الواقع "مدين" مدائن شعيب.

دعونا نبدأ التحليل:

الآيات القرآنية:

١- قال الله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾﴾ (الحجر).

وهذا النص هو الدليل الأقوى أن مدائن صالح هي في الواقع مدينة "مدين":

فقد ذكرت هذه الآيات أن مدينة لوط موجودة في طريق واضح (وإنها لبسبيل مقيم) وأن مدينة لوط ومدينة شعيب هما في طريق رئيسي (إمام مبين). ولكن لم يذكر هذا الأمر لمدينة ثمود.

بمعنى أنه لو كانت مدينة ثمود على طريق رئيسي وقت نزول القرآن لكان المتوقع أن يذكر الله تعالى ذلك كما ذكرها عن مدينة لوط وشعيب. ولكن قيام القرآن بالتنبيه أن مدينة لوط ومدينة شعيب هما على طريق رئيسي يضع دلالة ظنية عالية أن المدن الأخرى (كمدينة ثمود ومدينة عاد) ليسوا على طريق رئيسي وقت نزول القرآن.

وحيث إن المدينة الوحيدة التي نبه الرسول عليه السلام أنها من المعذبين هي ما تسمى الآن بمدائن صالح. وهذه المدينة موجودة في الطريق الرئيسي ذلك الوقت

والذي الذي يربط بين الحجاز و الشام فإن غلبة الظن هي أن تكون هذه المدائن إما مدينة لوط أو مدينة شعيب.

وحيث إن غلبة الأخبار تقول إن مدينة لوط موجودة في بلاد الشام فإن غلبة الظن أن تكون ما يسمى الآن بمدائن صالح هي في الواقع مدينة شعيب.

٢- قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾﴾ (غافر).

وهذا معناه أن مدينة ثمود قد تم تدميرها قبل زمن موسى عليه السلام. ولكن هناك أدلة أثرية واضحة تماما أن مدائن صالح كانت عامرة في القرن الأول الميلادي وذلك من خلال النصوص والكتابات المحفورة في الأضرحة في تلك المدينة وهذه قرينة جيدة للدلالة أن مدائن صالح ليست ثمود.

٣- قال الله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾﴾ (الأعراف).

وقال تعالى: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ (الشعراء).

والبيوت على الغالب تعني المساكن ولكن البيوت الموجودة في مدائن صالح هي أضرحة وليست مساكن. وكذلك فإن الأضرحة في مدائن صالح ليست محفورة في الجبال وإنما هي محفورة في الصخور. فمدائن صالح هي سهل يتناثر حولها صخور ضخمة. ولكن هذه الصخور ليست جبال.

ولكن من الممكن (كما في لسان العرب لابن منظور) أن يعني البيت القبر. وبالتالي فيمكن وصف الأضرحة بالبيوت كما يمكن استخدام كلمة الجبال للتعبير مجازا عن الصخور الضخمة. ولكن إذا أخذنا حرفية النص فإن الأضرحة في مدائن صالح ليست محفورة في الجبال كما أن هذه الأضرحة ليست بيوتا.

وهناك بعض النصوص القرآنية والتي يمكن استخدامها كقرينة أن مدائن صالح هي ثمود ولهذا وجب نقاش هذه الأدلة:

٤- قال الله تعالى عن ثمود: ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ (النمل).

وهذا قد يدل على أن بيوت ثمود ظاهرة للعيان وهذا قد يتم استخدامه دليلا أن مدائن صالح هي مدينة ثمود ولكن هذه الصيغة قد تكون مجازا كقول الله تعالى: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾ (القصص).

وقوله تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ (العنكبوت).

ومدينة عاد حتى هذه اللحظة غير معلوم مكانها.

٥- قال الله تعالى عن قوم ثمود: ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ (الحجر).

وهناك الكثير من أقوال الصحابة ما يصف مدائن صالح أنها الحجر (كما سيتم بحثها) وهناك احتمالان:

أ- هو أن يكون الحجر في الآية هو مكان معلوم للعرب ذلك الوقت وهذا معناه أن مدائن صالح هي مدينة ثمود.

ب-أن يكون الحجر هو مكان لا تعرفه العرب ذلك الوقت، وأن الصحابة اعتبروا أن مدائن صالح هي ثمود وأخذوا يذكرونها بالحجر. وهذا غير مستبعد فقد قال

الله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ﴿١٢﴾﴾ (طه). وطوى هو اسم الوادي وهو مكان غير معروف للعرب. وكذلك فقد قال الله تعالى عن سفينة نوح: ﴿... وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ ... ﴿٤٤﴾﴾ (هود). والجودي لم يكن مكانا معروفا عند العرب ذلك الوقت.

على أية حال فإن الآية الأولى هي أكثر الآيات وضوحا فقد ذكر القرآن أن مدينة لوط ومدينة شعيب موجودة على طريق رئيسي ولم يذكر ذلك لمدينة ثمود.

الأحاديث النبوية:

أ- المجموعة الأولى - أحاديث "لا تدخلوا":

أ - ١- رواية عبد الله بن دينار عن عبد الله بن عمر أن الرسول عليه السلام قال لأصحاب الحجر: "لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم أن يصيبكم مثل ما أصابهم" رواه البخاري ومسلم وأحمد والنص للبخاري.

٢- رواية عبد الله بن دينار عن عبد الله بن عمر "أن رسول الله ﷺ، لما نزل الحجر في غزوة تبوك، أمرهم أن لا يشربوا من بئرها، ولا يستقوا منها، فقالوا قد عجنا منها واستقينا، فأمرهم أن يطرحوا ذلك العجين، ويهريقوا ذلك الماء". رواه البخاري

٣- رواية سالم بن عبد الله عن أبيه (عبد الله بن عمر) "أن الرسول عليه السلام قال: لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا إلا أن تكونوا باكين، أن يصيبكم ما أصابهم. ثم تقنع بردائه وهو على الرحل". رواه البخاري ومسلم وأحمد والنص للبخاري. وفي رواية مسلم: "ثم زجر فأسرع حتى خلفها".

والرواة في هذه الأحاديث ثقات.

ب- المجموعة الثانية - أحاديث الناقة:

رواية نافع (مولى ابن عمر) عن عبد الله بن عمر "أن الناس نزلوا مع رسول الله ﷺ أرض ثمود، الحجر، فاستقوا من بئرها واعتجنوا به، فأمرهم رسول الله ﷺ أن

يهريقوا ما استقوا من بئرها، وأن يعلفوا الإبل العجين، وأمرهم أن يستقوا من البئر التي كانت تردها الناقة" رواه البخاري ومسلم والنص للبخاري. والرواة في هذا الحديث ثقات.

جـ- المجموعة الثالثة - حديث "هذا الفج"

عن عبد الرزاق حدثنا معمر عن عبد الله بن عثمان بن خثيم عن أبي الزبير عن جابر قال: لما مر رسول الله ﷺ بالحجر قال لا تسألوا الآيات وقد سألها قوم صالح فكانت ترد من هذا الفج وتصدر من هذا الفج فعتوا عن أمر ربهم فعقروها فكانت تشرب ماءهم يوما ويشربون لبنها يوما فعقروها فأخذتهم صيحة أهمد الله عز وجل من تحت أديم السماء منهم إلا رجلا واحدا كان في حرم الله عز وجل قيل من هو يا رسول الله قال هو أبو رغال فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه. رواه أحمد.

ورتبة الرواة للحديث السابق: عند ابن حجر:

عبد الرزاق بن همام:

عند ابن حجر: ثقة حافظ عمي آخر عمره فتغير وكان يتشيع.

عند الذهبي: أحد الأعلام، صنف التصانيف.

عبد الله بن عثمان بن خثيم:

عند ابن حجر: صدوق.

عند الذهبي: قال أبو حاتم: صالح الحديث.

محمد بن مسلم (أبو الزبير):

عند ابن حجر: صدوق إلا أنه يدلس.

عند الذهبي: "حافظ ثقة وكان مدلسا واسع العلم، قال أبو حاتم: لا يحتج به".

الآن... المجموعة الأولى ليس فيها مشكلة فإن وصف "أصحاب الحجر" جاء من الصحابة ولم يأت من الرسول عليه السلام. وأما المجموعة الثالثة فيمكن ردها.

وأما المجموعة الثانية فإن الرواة ثقات. وللقيام برد حديث للثقات يتطلب أدلة وقرائن كافية.

وهنا نأتي إلى هذه المجموعة من الاحتمالات التالية:

١- أن تكون مدائن صالح هي مدينة ثمود.

وهذا معناه وجود تناقض بين الاستكشافات الأثرية وهذا الاحتمال. وكذلك فإن هذا يعني أن مدينة شعيب ومدينة لوط هي بعد تبوك لأنه إذا كانت مدينة شعيب قبل تبوك لأشار الرسول إليها. ومعظم التخمينات تقول أن مدين (مدينة شعيب) هي في الجزيرة العربية.

٢- أن تكون مدائن صالح هي مدين (مدينة شعيب).

وهذا معناه أن وصف "أصحاب الحجر" في أحاديث المجموعة الأولى وهو رأي الصحابة في اسم ذلك المكان. وكذلك فإن هذا يتطلب رد حديث "هذا الفج" لضعفه في السند. ورد حديث نافع على ذريعة أن نافع ربما أخطأ وربما نسي.

٣- أن لا تكون مدائن صالح هي مدينة ثمود ولا هي مدينة شعيب. وهذا مستبعد.

وضمن النظرة إلى الاحتمالات السابقة فإن المؤلف يرجح الاحتمال الثاني وأن المدينة المسماة بمدائن صالح هي في الواقع مدين مدائن شعيب.

ولكن هنا يأتي سؤال: أين هي مدينة ثمود؟

من الممكن القول أن مدينة ثمود قد تم دمارها في حوالي ١٥٠٠ ق.م. والسبب أن دمارها كان بعد بناء الكعبة وقبل موسى عليه السلام. وموسى على غلبة الظن

كان في حوالي ١٢٠٠ ق.م. وكذلك فإن الله قد وصف حاكم مصر أيام موسى عليه السلام بفرعون ولكنه وصف حاكم مصر أيام يوسف عليه السلام بالملك. وهذا يؤدى إلى الترجيح أن حاكم مصر أيام يوسف هم الهكسوس. وقد بدأ الهكسوس في حكم مصر حوالي ١٦٥٠ ق.م إلى ١٥٣٠ ق.م. وإذا افترضنا أن المدة بين إبراهيم ويوسف هي ١٠٠ سنة فهذا يعني أن إبراهيم عليه السلام كان في الفترة بين ١٧٥٠ ق.م إلى ١٦٥٠ ق.م.

وإذا أخذنا السنة ١٧٥٠ ق.م كأحوط الاحتمالات فإن هذا يعني أن دمار ثمود كان بين ١٧٥٠ ق.م و١٢٠٠ ق.م. وهذا يؤدي الي التخمين أن دمار ثمود كان في حوالي ١٥٠٠ ق.م.

والدليل أن دمار ثمود كان بعد بناء الكعبة هو الحديث التالي:

عن عبد الله بن عمرو يقول: "سمعت رسول الله ﷺ يقول حين خرجنا معه إلى الطائف فمررنا بقبر فقال رسول الله ﷺ هذا قبر أبي رغال، وكان بهذا الحرم يدفع عنه فلما خرج أصابته النقمة التي أصابت قومه بهذا المكان فدفن فيه وآية ذلك أنه دفن معه غصن من ذهب إن أنتم نبشتم عنه أصبتموه معه فابتدره الناس فاستخرجوا الغصن" رواه أبو داوود.

الآن... لقد نحتت ثمود بيوتها في الجبال وهذه الآثار لا تختفي بسهولة عبر الزمن فهناك الكثير من الآثار ما هو أقدم من آثار ثمود وما زالت ظاهر للعيان. ولهذا السبب فإن غلبة التخمين أن مدينة ثمود مدفونة في الرمال. وهذا يتطلب التخمين أنها مدفونة في الربع الخالي في الجزيرة العربية.

وهناك دليل على ذلك وهو الحديث السابق عن أبي رغال فإن قبره موجود في الطائف. وهناك احتمالان لوجود قبره في الطائف: الأول أنه ذهب إلى الحرم ثم رجع إلى مدينته وكانت الطائف في اتجاهه. والثاني أنه خرج من مدينته إلى الطائف وعرج على الحرم. وضمن عدم وجود أي معلومات أخرى فإن الاحتمال الأول أولى من الثاني. وهذا معناه أن مدينة ثمود هي في الجنوب.

ويجب التنبيه أن اسم ثمود قد استمر إلى حوالي ١٠٠م. فحسب بعض المصادر فإن ثمود (Tamudi) قد تم ذكرها في مخطوطة لأحد الملوك الآشوريين (سرجون الثاني) عام ٧٥٠ ق.م وفيه تم ذكر ثمود كأحد الأقوام الخاضعة لحكمه. وكذلك تم ذكر اسم ثمود (Tamudaei) في كتابات أرسطو (Aristo) وبطليموس (Ptolemy).

وكذلك فقد ذكر بليني الأول (Pliny the Elder) في كتابه "التاريخ العام" (Natural History) عن قوم ثمود ومدينة الحجر عام ٧٧م:

The rest of its inland places also must now be stated. Adjoining the Nabataei the old authorities put the Timanei, but now there are the Taveni, Suelleni, Araceni, Arreni (with a town which is a centre for all mercantile business), Hemnatae, Avalitae (with the towns of Domata and Haegra), Tamudaei (town Baclanaza), Cariati, Acitoali (town Phoda), and the Minaei, who derive their origin, as they believe, from King Minos of Crete; part of them are the Carmei. Fourteen miles further is the town of Maribba, then Paramalacun, also a considerable place, and Canon, to which the same applies.

وهو هنا يضع مدينة الحجر وقوم ثمود بين تيماء ومأرب. وغلبة تخمين المؤلف أن قوم ثمود استمروا بعد النبي صالح عليه السلام عن طريق الذين آمنوا به. واستمر اسمهم معهم. وأما مدينة الحجر وثمود فإما أن يكون أحفاد الناجين قد سموها الحجر أو أن بليني قد سمع قصة الحجر وثمود وأخطأ فهمها.

وقد ذكر ديودورس (Diodorus Siculus) قوم ثمود في كتابه "مكتبة التاريخ" (The Library of History) في القرن الأول قبل الميلاد. وقد قام المؤلف باقتطاع جزء من ترجمة هذا الكتاب وذلك لأنها تعطي دلالة على مكان ثمود:

42 But we shall now take up the other side, namely, the opposite shore which forms the coast of Arabia, and shall describe it, beginning with the innermost recess. ....

43 ....

4 After one has sailed past this country the Laeanites Gulf [خليج العقبة] comes next, about which are many inhabited villages of Arabs who are known as Nabataeans. This tribe occupies a large part of the coast and not a p215little of the country which stretches inland, and it has a people numerous beyond telling and flocks and herds in multitude beyond belief. 5 Now in ancient times these men observed justice and were content with the food which they received from their flocks, but later, after the kings in Alexandria had made the ways of the sea navigable for the merchants, these Arabs not only attacked the shipwrecked, but fitting out pirate ships preyed upon the voyagers, imitating in their practices the savage and lawless ways of the Tauri of the Pontus; some time afterward, however, they were caught on the high seas by some quadriremes and punished as they deserved.

44 Next after these plains as one skirts the coast comes a gulf of extraordinary nature [ربما يكون خور جدة ولكن بالطبع الوصف هنا مبالغ فيه] . It runs, namely, to a point deep into the land, extends in length a distance of some five hundred stades, and p217shut in as it is by crags which are of wondrous size, its mouth is winding and hard to get out of; for a rock which extends into the sea obstructs its entrance and so it is impossible for a ship either to sail into or out of the gulf. 2 Furthermore, at times when the current rushes in and there are frequent shiftings of the winds, the surf, beating upon the rocky beach, roars and rages all about the projecting rock. The inhabitants of the land about the gulf, who are known as Banizomenes, find their food by hunting the land animals and eating their meat. And a temple has been

set up there, which is very holy and exceedingly revered by all Arabians [ربما يكون المقصود هنا هو الكعبة].

3 Next there are three islands which lie off the coast just described and provide numerous harbours [هذه الجزر غير واضحة]. The first of these, history relates, is sacred to Isis and is uninhabited, and on it are stone foundations of ancient dwellings and stelae which are inscribed with letters in a barbarian tongue; the other two islands are likewise uninhabited and all three are covered thick with olive trees which differ from those we have.....

6 This coast, then, is inhabited by Arabs who are called Thamudeni; but the coast next to it is bounded by a very large gulf, off which lie scattered islands which are in appearance very much like the islands called the Echinades [Gulf of Corinth هذه تسمى الآن خليج كورينث وربما يكون المقصود هنا هو الجزر المقابلة لجيزان]. After this coast there come sand dunes, of infinite extent in both length and width and black in colour. 7 Beyond them a neck of land is to be seen and a harbour, the fairest of any which have come to be included in history, called Charmuthas........

45 After these places, as a man skirts the coast, five mountains rise on high separated one from another, and their peaks taper into breast-shaped tips of stone which give them an appearance like that of the pyramids of Egypt. 2 Then comes a circular gulf guarded on every side by great promontories, and midway on a line drawn across it rises a trapezium-shaped hill on which three temples, remarkable for their height, have been erected to gods, which indeed are unknown to the Greeks, but are accorded

unusual honour by the natives. 3 After this there is a stretch of dank coast, traversed at intervals by streams of sweet water from springs; on it there is a mountain which bears the name Chabinus and is heavily covered with thickets of every kind of tree. The land which adjoins the mountainous country is inhabited by the Arabs known as Debae.

4 ....

5 :........

6 The land which comes next is inhabited by Alilaei and Gasandi, Arab peoples, and is not fiery hot, like the neighbouring territories, but is often overspread by mild and thick clouds, from which come heavy showers and timely storms that make the summer season temperate. The land produces everything and is exceptionally fertile, but it does not receive the cultivation of which it would admit because of the lack of experience of the folk.

7 ....

8 ....

46 Beyond this people are the Carbae, as they are called, and beyond these the Sabaeans, who are the most numerous of the tribes of the Arabians. They inhabit that part of the country known as Arabia the Blest, which produces most of the things which are held dear among us and nurtures flocks and herds of every kind in multitude beyond telling.

وهذا الوصف غير دقيق لساحل الجزيرة العربية ولكن فيها دلالة أن قوم ثمود كانت بين سبأ ومكة.

ولكن يبدو أنه بعد حوالي ١٠٠م فإن لفظة ثمود قد اختفت تماما من التداول حتى جاء القرآن وذكرها. ولهذا السبب فإن تاريخ ثمود ما زال غامضا وبحاجة إلى المتابعة والبحث.

يجب هنا التنبيه لوجود احتمال آخر عن ثمود. فقد كان الدافع للمؤلف لبحث هذا الموضوع هو تعارض الاستكشافات الأثرية في مدائن صالح مع النص القرآني حيث إن دمار ثمود كان قبل موسى عليه السلام وذلك في قول الله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴿٣٢﴾﴾ (غافر).

ولكن بعد كتابة هذه المقالة فقد انتبه المؤلف لاحتمال آخر في هذه الآية وهي أن الآية ٣١ قد تكون جملة اعتراضية. وهي أشبه بالراوي يذكر القصة ثم يأتي بجملة اعتراضية لشرح جزئية في هذه القصة.

وأفضل مثال على ذلك هو قول الله تعالى: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٤﴾﴾ (نوح).

وعلى غلبة ظن المؤلف فإن الآية ٢٣ هي جملة اعتراضية جاءت لتشبيه ما فعله قوم نوح بما يفعله العرب. والدليل على ذلك أن ود وسواع ويغوث ويعوق ونسرا هي أصنام عربية والقول أن هذه الأصنام أخذها العرب من قوم نوح هو أمر مستبعد جدا لأن قوم نوح قد بادوا بعد الطوفان.

ويجب الانتباه أن القرآن هو كتاب جامع لمجالات مختلفة ففيه الأحكام الشرعية وفيه القصص وفيه التحذير وفيه الترغيب. ولهذا السبب فإن النظرة إلى آيات الأحكام هي أخذها بصورة قانونية (أي أخذها بحرفية النص ما لم يكن هناك قرينة) وأما في القصص والروايات والتحذير والترغيب فإن النظرة هي أخذها بالمجاز والتشبيه ضمن حدود اللغة وطبيعة العرب.

وأفضل مثال على ذلك هو قول الله تعالى: ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ (البقرة).

الآن... لنفترض أنه جاء شخص وقال إن الناس الأقدمين كانت أصابعهم دقيقة أو آذانهم كبيرة لأن الله قد قال إنهم يضعون أصابعهم في آذانهم. فما هو موقف القارئ؟

هذا مستبعد حيث إن غلبة الظن أن هذا اللفظ في الآية قد جاء مجازا لتشبيه شدة ضغط الأصابع على الآذان.

الآن...إذا كانت الآية ٣١ في سورة غافر هي جملة اعتراضية فإن هذا قد يعطي احتمالية أن يكون دمار ثمود قد جاء حوالي ١٠٠م، وهذا يتوافق مع الوثائق التاريخية.

ولكن هذا لا يؤثر على وجهة نظر المؤلف في أن مدائن صالح هي في الواقع مدائن شعيب وذلك للآيات ٧٤ إلى ٨٤ من سورة الحجر. فقد ذكر القرآن أن مدينة شعيب ومدينة لوط هما في طريق رئيسي ولم يذكر ذلك لمدينة ثمود. وكذلك فإن البيوت المحفورة في مدائن صالح هي أضرحة وليست مساكن وهي محفورة في صخور متناثرة وليست في جبال.

هناك بعض التساؤلات في هذه المقالة ومن المناسب التعرض لها:

١ – لقد وصف الله أهل مدين بأصحاب الأيكة؟ والأيكة هي الشجر الكثيف الملتف. ولكن مدائن صالح اليوم هي صحراء قاحلة. فهل هناك تناقض؟

قال الله تعالى عن سبأ: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ۖ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ ﴾ (سبأ).

وحسب التفاسير فإن الطريق بين اليمن وبلاد الشام كان فيه الكثير من القرى إلى الدرجة التي لم يكن هناك داعي للناس أن يأخذوا معهم الزاد إذا أرادوا السفر من اليمن إلى الشام. وهذا يتطلب أن يكون هناك أنظمة ذات عدل وأمان تسمح للناس بالسفر دون خوف. ولهذا السبب فإن وصف ديودورس عن الأنباط هو دقيق جدا فهو يصف الأنباط أنهم شعب كانوا يلتزمون بالعدل والأمان حتى تغيرت الظروف. وكذلك فإن كثرة القرى يتطلب كثرة الأمطار لتسقيهم حيث لا وجود للأنهار هناك. ولهذا السبب فإن مناخ الجزيرة العربية تلك الأيام يختلف تماما عن مناخها اليوم.

٢- قال الله تعالى عن مدينة لوط أنها في طريق رئيسي. فأين هي؟

مكان المدينة غير واضح ولكن النص يقول إنها في طريق رئيسي وهذا يجعل مدينة لوط بعيدة عن ساحل البحر الميت، حيث إن الطرق الرئيسية وقت القرآن لم تكن تمر على الساحل. وأقرب طريق رئيسي للساحل هو الطريق الذي يربط بين الكرك والخليل. وهذا الطريق هو الآن تحت الاحتلال ولهذا فإن استكشافه لا يمكن أن يتم إلا بعد التحرير.

وهناك دلالة أخرى فقد قال الله تعالى عن مدينة لوط: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ (الصافات). وقال كذلك: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾ (الحجر). وعليه فإنه توجد الاحتمالات التالية:

١- أن منطقة مدينة لوط هي منطقة سهلة ويسرة إلى الدرجة أن القوافل كانت تسير فيها وقت الليل ودون مشكلة

٢- أن منطقة مدينة لوط كان تبيت فيها القوافل في الليل.

الخاتمة

الآيات القرآنية التالية هي أفضل تلخيص لمحتوى هذا الكتاب.

قال الله تعالى:

﴿... وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال].

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [العصر].

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨﴾﴾ [الصف].

الملحق الأول - تحليلات سياسية ٢٠٠٦

هذا البحث قد وضعه المؤلف في عام ٢٠٠٦. ويجب التنبيه على أن بعض التحليلات في هذا البحث قد ظهر عدم دقتها وأن ترتيب الاحتمالات في بعض التحليلات قد تغير إلا أن البحث مفيد لهذا الكتاب حيث إنه يعطي الدلالة على المبدأ: "من الأفضل أن تكون مخطئاً ولكن في الطريق الصحيح من أن تكون مصيباً ولكن في الطريق الخطأ وذلك لأن الطريق الصحيح سيقوم مع الزمن بتعديل الرأي نحو الصحيح أيا كان هذا الصحيح".

هذا الملحق يتضمن العناوين التالية:

* الأزمة الإيرانية - الغربية.
* ما هي أهداف روسيا من تقوية إيران؟
* تنبؤات المستقبل لإيران.
* مؤسسة الحكم في إيران.
* الموقف المطلوب من المسلمين تجاه إيران.
* القصة السياسية لأحداث الخليج.
* حماس وتولي الحكومة الفلسطينية.
* اغتيال رفيق الحريري.
* قناة الجزيرة والضربة الأمريكية.

- العلم والعلم والقوة.

❖ الأزمة الإيرانية - الغربية

بدأت باكستان برنامجها النووي بمساعدة صينية. والظاهر أن باكستان نظرت إلى الواقع حولها بذكاء فوجدت أن إيران هي حليف طبيعي لها. ومع وجود التعارض في المذهب والثقافة، فإنه لا توجد أطماع إيرانية في باكستان كما لا توجد أطماع باكستانية في إيران. وإيران لن ترضى بغزو هندي لباكستان. فوجدت باكستان أن تقوية إيران

هو مصلحة باكستانية بعيدة المدى وسيشكل عمقاً لباكستان إن وصلت الأمور إلى حد الحرب مع الهند.

ضمن هذه الإستراتيجية فقد سربت باكستان أسرار التكنولوجيا النووية لإيران.

يجب التوقف هنا قليلاً للتحدث عن الخلاف الفلسفي الكبير بين وزارة الخارجية الأمريكية من جهة والجيش ووزارة الدفاع الأمريكية من جهة أخرى: عند وزارة الدفاع الأمريكية حساسية أمنية عالية ولا ترغب أبداً بأية قوة خارجية في المنطقة غيرها، في حين أن وزارة الخارجية الأمريكية لها بعد نظر كبير وتعودت النجاح بخطط جريئة. كمثال لما سبق هو طريقة تعامل أمريكا مع الشيوعية، فقد سهلت أمريكا للشيوعية استلام الحكم في الصين. ولقد أدركت أمريكا التعارض الشديد بين الثقافة الصينية والروسية وأدركت أنه مهما اتفق الصينيون والروس في العقيدة فإن خلاف الثقافة سيشق الشيوعية نصفين. وما أن حدث هذا الأمر حتى يسرت أمريكا نقل التكنولوجيا إلى الصين، فكانت الصين أثناء الحرب الباردة شوكة مؤلمة في حلق الروس. ولكن الجيش الأمريكي لم يكن راضياً عن هذا المخطط بل لقد حاول الجيش تحطيم هذا المخطط بمحاولة جر الصين وضربها بحرب شاملة أثناء الحرب الكورية وكان رد الرئاسة الأمريكية في شدة الحزم وقامت بإقالة ماك آرثر رئيس الأركان وأحد كبار قادة الحرب أثناء الحرب العالمية الثانية.

إن هذه المداخلة ضرورية لفهم ما حدث مع باكستان وإيران، ففي عهد كلينتون تسارعت وتيرة البرنامج النووي الباكستاني وبدأ البرنامج النووي الإيراني . وعهد كلينتون كان العهد الذهبي للخارجية الأمريكية ويبدو أن نظرة الخارجية الأمريكية للبرنامج النووي الباكستاني والإيراني بسيطة وبراغماتية. الخارجية الأمريكية لا ترغب في وجود برامج نووية في الشرق الأوسط ولكن نجاح هذه البرامج لا يشكل خطراً مباشراً على أمريكا نفسها وذلك لأن حصول باكستان وإيران لتكنولوجيا الصواريخ العابرة للقارات يحتاج لوقت طويل، كما أنه مهما بلغت قدرة التكنولوجيا الباكستانية

و الإيرانية فإنها ستكون أقل بكثير جداً من مستوى التكنولوجيا الأمريكية، ولذا فإن لعبة الردع التي استخدمتها أمريكا مع السوفييت ستكون ناجحة بل أرخص تكلفة من سياسة التهديد والضرب والحرب.

ولهذا فقد كان رد أمريكا هو مجرد انتقادات لنجاح باكستان في تفجير القنبلة النووية، ويبدو أن هذه الانتقادات كانت للاستهلاك المحلي. ويبدو كذلك أن هذا هو نفس موقف الخارجية الأمريكية من سعي إيران لإمتلاك التكنولوجيا النووية. بل يكاد المؤلف يجزم أن رجال الخارجية الأمريكية عندما أدركوا سعي إيران لامتلاك هذه التكنولوجيا قد ابتسموا وقالوا "تعقدت اللعبة". إن أحد الأساليب السياسية التي برع فيها الأمريكان هو تعكير البركة على الآخرين وخلط الأوراق مما يعطيها الوقت الكافي للاستئثار بالغنيمة كلها. وحصول إيران على التكنولوجيا النووية سوف يخلط أوراقا كثيرة في الشرق الأوسط.

لم تهتم أمريكا كثيرا بمحاولات إيران لامتلاك التكنولوجيا النووية ولكن هذا قد أزعج جداً الإنجليز والجيش الأمريكي. فبالنسبة للإنجليز فإنه لن يمضي وقت طويل كي تتمكن إيران من صنع صواريخ قادرة للوصول إلى لندن، كما أن إنجلترا تدرك تماما خطر اللعب مع الإسلام . إن جرأة أمريكا ونجاحاتها قد جعلتها تظن أنها قادرة على شق صفوف المسلمين كما استطاعت شق صفوف الشيوعية. والإنجليز مختلفون تماما في وجهة النظر هذه. ونتيجة لقرون من الصراع بينها وبين المسلمين، فإنها تدرك تماما خطورة اللعب مع الإسلام بغض النظر إن كان هذا اللعب مع مذهب الغالبية (السنة) أو مذهب الأقلية (الشيعة).

ولهذا الإدراك فقد كانت إنجلترا في غاية الانزعاج من امتلاك باكستان للتكنولوجيا النووية ومن محاولات إيران لامتلاك هذه التكنولوجيا.

أما الجيش الأمريكي ووزارة الدفاع، فنتيجة لحساسيتهم الأمنية فقد كانوا في غاية الانزعاج من امتلاك دول معادية لتكنولوجيا نووية قد تؤثر على قواعدهم العسكرية في الشرق الأوسط.

قد يكون هناك لاعب آخر في هذا الموضوع وهم شركات النفط الأمريكية، فلا يُظَن أن ترضى هذه الشركات بوجود إيران كقوة إقليمية حقيقية، إذ إن حدوث هذا سيؤدي بعد زمن إلى قدرة إيران على التأثير على سياسات دول الخليج بما لا يكون من مصلحة هذه الشركات.

من منطلق الفرضيات السابقة فإنه يمكن الاستنتاج بأن الحزب الجمهوري الأمريكي قد تحالف مع الجيش ووزارة الدفاع وشركات النفط والإنجليز لأخذ الرئاسة. وكان ملاحظا أن الإدارة الأمريكية الجديدة كانت إدارة ذات توجهات عسكرية، بل لقد اختاروا عسكرياً (كولن باول) لإدارة وزارة الخارجية.

إن هذه الفرضيات تعيد إلى دائرة الضوء أحداث ١١/٩ في أمريكا. فغلبة الظن كانت في بحث سابق للمؤلف أن أمريكا قد تفاجأت بهذه العملية، ولكن ضمن الأحداث التي تلت هذه العملية وضمن الفرضيات السابق ذكرها فإن غلبة الظن الآن أن فريقاً من الجهاز الأمني الأمريكي قد تعمد الإهمال مما سهل حدوث هذه العملية وساعد الإدارة الأمريكية والإنجليز لتنفيذ أجندتهم السياسية.

❖ ما هي أهداف روسيا من تقوية إيران؟

يمكن تحليل وجهة نظر روسيا من خلال ثلاثة احتمالات:

الاحتمال الأول:

وهو أن علاقة روسيا مع إيران مبنية على وجهة نظر استراتيجية. ضمن هذا الاحتمال فيبدو أن روسيا كمؤسسة رئاسة وأجهزة إدارية قد أصبحت أكثر انسجاماً وواقعية وأنهم أدركوا أنهم ليسوا قطباً لأمريكا وأن الطريقة لمواجهة أمريكا تكون بخلق وصناعة الأحلاف.

ضمن هذه الفرضية فإن روسيا نظرت إلى وضعها ووضع الدول المحيطة بها فوجدت أن ظهور قوة حقيقية على الخليج العربي سيكون عازلاً جيداً بينها وبين

أمريكا في منطقة الخليج. وأدركت روسيا كذلك أن أي قوة حقيقية في الشرق الأوسط ستلتصق بالروس وذلك للغطرسة الأمريكية المتنامية.

إن هذه النظرة الاستراتيجية محفوفة بالمخاطر، فوجود دولة إسلامية ذات قوة حقيقية وجارة لروسيا هو أمر لن يكون مريحاً لروسيا ولكن لروسيا صمام أمان فإن أصبحت إيران خطرا على روسيا فليس أقل لروسيا من أن تجمد علاقاتها مع إيران وتتركها وحيدة أمام الغرب الذي لن يتوانى من إضعاف إيران إن سنحت له الفرصة.

على أية حال فإن روسيا تدرك أنه إن أصبحت إيران قوة حقيقية في المنطقة وإن استمرت الغطرسة الأمريكية متنامية وإن حافظت روسيا على دبلوماسية لبقة مع إيران فإن إيران وروسيا سيشتركان معاً ولمدة طويلة في بغض أمريكا، وهذا يمثل نقطة تقاطع جيدة وطبيعية لإقامة تحالف مثمر.

لقد حاولت روسيا تطبيق هذه النظرة مع العراق، إلا أن العراق كان تحت نظام قيادة فردية حمقاء مما جعل الروس يطبقون هذه النظرة بحذر مع العراق، في حين أن الظاهر أن إيران يحكمها نظام قيادة مؤسسية مما يجعل روسيا أكثر ارتياحاً في التعامل مع إيران.

الاحتمال الثاني:

وهو أن علاقة روسيا مع إيران مبنية على وجهة تكتيكية ومفاد هذا الاحتمال أن تقوية إيران هي وسيلة ضغط روسية تجاه الغرب وأن روسيا في النهاية مستعدة لتوقيف الدعم الروسي لإيران مقابل تنازلات من الغرب لمصلحة روسيا.

هناك مواقف تدعم هذا الاحتمال، منها مماطلة الروس في تنفيذ صفقة يتم فيها تزويد إيران بصواريخ أرض-جو متقدمة. وكذلك فقد ظهر أن الروس لم يكونوا المصدر الذي زود إيران بأسرار التكنولوجيا وإنما كانت باكستان.

ومما يزيد قوة هذا الاحتمال هو أن التقريع والانتقاد الغربي لروسيا خفيف كما لو أن الغرب ما زال يحتفظ بشعرة معاوية مع الروس على ظن وأمل منهم أن تتفاهم روسيا معهم بإيجابية.

الاحتمال الثالث:

وهو أن تصرف روسيا مع إيران إنما هو نظرة استراتيجية مخفية بقناع تكتيكي. أي أن روسيا تريد من إيران أن تكون قوية وحليفاً ولكنها ترسل في نفس الوقت إشارات تمويه متعددة ومتكررة إلى الغرب بأنها مستعدة للتوصل إلى حل يرضي جميع الأطراف.

ضمن هذا الاحتمال فإن مماطلة روسيا وعدم تزويدها لإيران بأسرار التكنولوجيا النووية جاء لجعل روسيا أكثر مصداقية مما يعطي روسيا قدرة أكبر لمراوغة ومجابهة أمريكا.

ويغلب على الظن أن الاحتمال الثالث هو الأقرب للحقيقة مع ضرورة النظر بجدية للاحتمال الثاني.

❖ تنبؤات المستقبل لإيران:

حيث إن التفاصيل المتعلقة بمستوى قوة إيران الحالية غير واضحة، فإنه لا بد من استخدام أسلوب الاحتمالات للتوصل إلى إدراك ما يمكن أن يحدث.

الاحتمال الأول:

وهو أن قوة إيران الحالية تشبه قوة العراق عام ١٩٩٢. أي أن الصواريخ الإيرانية غير دقيقة وغير فاعلة في ضرب الأهداف وأن هذه الصواريخ شبه مكشوفة. ولإدراك إيران هذا الأمر فإن إيران سترضخ للغرب في النهاية مقابل تنازلات ممكنة من قبل الغرب لمصلحة إيران.

الاحتمال الثاني:

وهو أن قوة إيران الحالية تشبه قوة العراق عام ١٩٩٢. ولكن تقرر إيران المضي في تحديها للغرب على أمل أنها تستطيع المقاومة. إذا صح هذا الاحتمال فإن ضربات جوية أمريكية مركزة للمنشآت التكنولوجية الإيرانية هو أمر محقق، في المقابل فإن بعض منشآت النفط في الخليج وإسرائيل قد تتعرضا للضرب من قبل إيران وكذلك فإن أسعار النفط ستصل إلى السماء والغرب على استعداد لتحمل كل هذا مقابل إرضاخ إيران.

الاحتمال الثالث:

وفي هذا الاحتمال فإن إيران أكثر تنظيماً وقوة من قوة العراق عام ١٩٩٢، وهذا معناه أن صواريخ إيران دقيقة في الضرب كما أنها مخفية بشكل جيد. ضمن هذا الاحتمال فإن أمريكا ستكون حذرة جداً من الدخول في حرب مكشوفة مع إيران حيث إن قوة إيران في هذه الحالة كافية لها بضرب كافة منشآت النفط في الخليج والمنشآت الاستراتيجية في إسرائيل بالإضافة إلى القواعد والأساطيل الأمريكية في العراق والخليج. والخسائر الغربية ستكون أكبر بكثير من قدرة الإدارة الأمريكية لتبرير الحرب مما قد يؤدي إلى اضطرابات حقيقية ليس فقط للشعب الأمريكي بل وبين الأجهزة الإدارية المتعارضة في أمريكا.

إن صح هذا الاحتمال فإن أمريكا ستضع نفسها في مأزق سياسي كبير حيث إن غطرستها ستمنعها من مرونة الكر والفر في التصرف. ولهذا فأغلب الظن أن أمريكا في هذه الحالة ستقوم بتركيز قواتها في الخليج والعراق لجعل الشعب الإيراني في حالة توتر مستمر، وفي نفس الوقت ستقوم بإشعال حرب باردة مباشرة تهدف لقلب نظام الحكم في إيران وستحاول جر جميع الدول في المنطقة لخدمة هذه الحرب الباردة. في المقابل فإن تركيز القوات الأمريكية في العراق والخليج وإشعال الحرب الباردة سيكون استنزافاً مكلفاً لأمريكا حيث ستكون هذه القوات معرضة على الدوام للضرب من الحركات الإسلامية المختلفة.

الاحتمال الرابع:

وفي هذا الاحتمال فإن إيران أكثر تنظيماً وقوة من قوة العراق عام ١٩٩٢، وتقرر أمريكا أن حرباً باردة مباشرة ستكون مكلفة جداً لها. وفي هذه الحالة فإن أمريكا ستحاول كظم غيظها من إيران والدخول معها في مفاوضات مباشرة تخرج منها باتفاقيات لا قيمة لها سوى حفظ ماء وجه أمريكا وتسمح لأمريكا بالخروج من هذه المواجهة المباشرة مع إيران. وإن صح هذا الاحتمال فإن المنتصر في هذه الجولة هم إيران وروسيا والصين ضد أمريكا وإنجلترا. على أية حال فإن أمريكا لن تقف مكتوفة اليدين وإنما ستشعل حرب استخبارات غير مباشرة بينها وبين إيران تهدف لإثارة القلاقل في إيران وقلب نظام الحكم فيها.

الاحتمال الخامس:

وهو أن قوة إيران أقل مما هو ظاهر ولكنها أكثر من قوة العراق عام ١٩٩٢. وفي هذه الحالة فإن أمريكا قد تقوم بجس النبض وذلك بضرب إيران بضربات خفية تكون أمريكا قادرة على نفي مسئوليتها عن هذه الضربات. وجس النبض يكون محاولة من أمريكا لتحديد حجم القوة الحقيقية لإيران وحجم كلفة المجابهة بينها وبين إيران، كما يمكن أن يكشف ما إذا كان التصلب الإيراني حقيقياً وجدياً أم هو تظاهر وخدعة لاعب البوكر.

كل الاحتمالات ممكنة ولكن المؤلف يرجح الاحتمال الرابع والخامس.

[هذه السطور قد تمت كتابتها في ٢٠٠٦ وقد ثبت الآن أن الاحتمال الثالث هو الذي كان صحيحا]

❖ مؤسسة الحكم في إيران:

هناك دلائل ظنية تشير إلى وجود علاقة تاريخية بين أمريكا والثورة الإيرانية. هذه الأدلة تشير إلى حماية أمريكا لبعض رموز الثورة كما تشير إلى أن أمريكا ساعدت على نجاح الثورة عن طريق تحييد الجيش، كما تشير بعض الأدلة إلى مساعدة أمريكا لإيران في بدايات الحرب العراقية الإيرانية. هذه الدلائل ليست يقينية ولكن المؤلف

يعطيها درجة عالية من الاهتمام. وبناءً على هذه الدلائل فإن المؤلف يتبنى بعض الفلسفات التي تساعده في التحليل أهمها الفلسفة التالية:

الضعيف الهاوي عندما يلاعب ويصانع ويماكر القوي المحترف فإن الغالب الأعم في النهاية أن يذوب الضعيف في إرادة القوي وأن يسير الضعيف في فلك القوي.

ضمن هذه الفلسفة فإن المؤلف ينظر بارتياب لتاريخ إيران مع أمريكا، إلا أن هناك شواهد تدل على أن إيران قد تكون استثناءً. هذه الشواهد لم تصل بعد إلى درجة عالية من الوضوح ولكنها تعطي دفعة عالية لإعادة النظر وبصورة تفصيلية للوضع في إيران.

الظاهر أن نظام الحكم في إيران هو قيادة مؤسسية وليست قيادة فردية. ضمن هذه القيادة فإن للمرشد العام صلاحيات إشراف واسعة ولرئيس الجمهورية صلاحيات تنفيذ واسعة ولكن كليهما مرتبطين بمجالس حكم ذات صلاحيات حقيقية تمنع أي فرد من التسلط برأيه.

وكذلك فإن المؤلف يميل إلى أن ما ظهر من مراوغة إيرانية للغرب ومرونة في التصرف ما كان يمكن أن يتم دون وجود قدر جيد من الاحتراف والنظرة العملية في الأجهزة الإدارية الإيرانية.

كما ذُكر سابقاً، فإن هذه الشواهد لم تصل بعد إلى أدلة واضحة ولكن إن ثبت حقاً أن نظام الحكم في إيران هو نظام ذو قيادة مؤسسية وأن الأجهزة الإدارية في إيران تمتلك قدراً جيداً من الاحتراف والنظرة العملية فإن المؤلف سيكون على قناعة تامة بأن إيران هي استثناء من الفلسفة السابق ذكرها.

❖ الموقف المطلوب من المسلمين تجاه إيران:

للمؤلف أفكار تمنٍ متعلقة بإيران . وقبل ذكرها لا بد من التنبيه على أن أفكار التمني لا تصلح لأن تكوّن أساساً لاتخاذ القرار أو أساساً للتحليل السياسي. أفكار التمني تكون مناسبة فقط للانتباه أو توسعة مجال الإدراك.

أفكار التمني مبنية على قول الرسول عليه السلام:

"قال ناس من أصحاب رسول الله ﷺ يا رسول الله من هؤلاء الذين ذكر الله إن تولينا استبدلوا بنا ثم لم يكونوا أمثالنا قال وكان سلمان بجنب رسول الله ﷺ قال فضرب رسول الله ﷺ فخذ سلمان وقال هذا وأصحابه والذي نفسي بيده لو كان الإيمان منوطا بالثريا لتناوله رجال من فارس". رواه الترمذي.

أفكار التمني عند المؤلف أن إيران ستكون قادرة يوماً على إقامة الخلافة الإسلامية. ولن تضطر إيران للقيام بالكثير من التعديلات لإقامة الخلافة، فقط سيتم تغيير اسم الدولة من الجمهورية إلى الخلافة، وتغيير لقب المرشد إلى الخليفة وتغيير لقب رئيس الجمهورية إلى رئيس الوزراء. أما باقي تنظيماتها الإدارية فالظاهر أنها مناسبة جداً لدولة الخلافة.

هناك مشكلة.

لا تستطيع إيران إقامة خلافة إسلامية حيث إن إقامتها يعني ضمناً اعترافها بدولة الخلافة الأولى، وهذا يتعارض مع المذهب الاثنى عشري الرسمي للدولة. الطريقة الوحيدة التي يمكن لإيران إقامة الخلافة وبحد أدنى من الاضطرابات هو أن تُعلن إيران المذهب الزيدي[١] مذهباً رسمياً للدولة.

---

(١) المذهب الزيدي سمي مجازاً باسم مذهب. المذهب الزيدي كان أقرب إلى كتلة سياسية منه إلى مذهب ديني. كانت مبادئ المذهب الزيدي ثلاثة: الإمام على أولى بالخلافة ولكن بيعة أبي بكر وعمر صحيحتان، والإمام يكون إماما إن خرج على الظلم، والاجتهاد واجب والتقليد عيب على العلماء. ولهذا السبب فلم يتحرج علماء الزيدية أبداً من أن يخالف أحدهم الآخر أو أن يخالف آخرهم أولهم. وحتى عندما تحولت الزيدية من كتلة سياسية للأمة إلى دويلة ملكية في اليمن وفقدت زخمها وطاقتها تجاه الأمة فإن علماء الزيدية قد حافظوا على المبدأ الثالث من مبادئ الزيدية وهو أن الاجتهاد واجب والتقليد عيب على العلماء. وفي العهد الإسلامي المظلم في القرن الثامن عشر والتاسع عشر عندما كان أصحاب كل مذهب يتهمون المذاهب الأخرى فإن علماء الزيدية قد حافظوا وبصورة تثير التقدير على التسامح بينهم وبين المذاهب الأخرى.

أما لفظة السنة فهي لم تأت كوصف مضاد للشيعة ولم تكن السنة مذهباً بل كانت مبدأ أصولياً. وحسب أفضل المعلومات عند المؤلف فإن قصة أهل السنة بدأت كما يلي:

وصلت مرحلة في منتصف القرن الثاني الهجري لم يعد فيها يعرف الحديث النبوي الحق من الحديث الكذب وأصبح كل من يريد جدالاً يقوم بتأليف حديث يساند رأيه أو أن يبحث عن أي حديث ينفع. والأحاديث الملفقة كانت كثيرة=

الزيدية هي مذهب شيعي من حيث النظرة السياسية وهي كذلك أحد مذاهب أهل السنة من حيث الفقه. فأفكار التمني هنا أن إيران ستتوجه شيئاً فشيئاً نحو المذهب الزيدي وعلى إثره تقوم إيران بإقامة الخلافة. على أية حال فإنه إن قامت دولة الخلافة في مكان آخر فلا يظن المؤلف أبداً أن يكون هناك عداء حقيقي بينها وبين إيران. إذ لن تأخذ دولة الخلافة مشارق الأرض ومغاربها في يوم وليلة وعند قيامها فسيكون هناك أعداء أشد كراهية لنا وأولى لنا بمجابهتهم من أن نتصارع نحن والشيعة، وأما الشيعة فإن كان نظام حكمهم قيادة مؤسسية فسيكونون أعقل بكثير من أن يتركوا عداء الغرب ويعادوننا.

ما سبق هي أفكار تَمَنٍ وكما تم التنويه سابقاً فإن أفكار التمني تُستخدم للتنبيه وتوسعة الإدراك ولا تُستخدَم أبدا في التحليل أو اتخاذ القرار.

لتحليل الموقف المطلوب من المسلمين تجاه إيران الآن فلا بد من تجنب كل أفكار التمني أو أفكار الهلع، والنظر إلى الواقع بأعلى قدر من الموضوعية. من الواضح أن هناك خلافات جوهرية بين الشيعة الاثنى عشرية وبين غالبية المسلمين. ولكن مهما كانت هذه الخلافات فإن الشيعة الاثنى عشرية يشهدون بالوحدانية ويشهدون بالرسالة المحمدية ويقرون أعمدة الإسلام الخمسة ويقرون باجتناب الموبقات العشرة والكبائر. وعليه فلا أتوقع أن يتجرأ أحدهم ويقوم بإخراج الشيعة الاثنى عشرية من الملة الإسلامية. إن إقرار الشيعة بالوحدانية وبالرسالة المحمدية وبأعمدة الإسلام الخمسة وباجتناب الموبقات يجعل بيننا وبينهم قاعدة مشتركة وإذا قامت

=ومتوفرة لكل من يريد. وظهرت فرقتان أولاهما رفضت الحديث برمته وبدأت تأخذ بالقرآن فقط، والثانية وهم الشيعة الاثنا عشرية فقد أقرت بعصمة الأئمة فكل ما أقره الإمام يكون حقًا. أما غالب علماء المسلمين فكانوا في حيرة حقيقية إلى أن تقدم أحدهم بفكرة كانت كالجمرة التي لمست حطباً جافاً. الفكرة كانت أن الحديث المعتمد هو من نقل عن عدل حافظ عن عدل حافظ عن ... عن الرسول عليه السلام، والعدل والحفظ لها شروط ومن اتفقت صفاته مع هذه الشروط تم اعتماده ومن خالفها تم تركه. من هذه الفكرة نشأ علم الجرح والتعديل وسمي العلماء الذين تبنوا هذا المبدأ بأهل السنة والحديث، ثم غلبت عليهم عبارة أهل السنة.

إن صدقت هذه القصة فإن الزيدية هي مذهب رئيسي من مذاهب أهل السنة.

ومن الجدير بالذكر أن أشهر علماء الزيدية المعتمدين لكثير من أهل السنة الآن هما محمد الشوكاني صاحب كتاب نيل الأوطار، ومحمد بن الأمير صاحب كتاب سبل السلام.

الخلافة فإن الخلافة قادرة باستخدام اللباقة لأن تجعل بين العلماء المسلمين الشيعة والسنة محاورات ونقاشات مباشرة وعلنية مما سيؤدي في النهاية إلى ظهور الحق أياً كان هذا الحق علناً وأمام الجميع.

النقطة الرئيسية هنا أن الشيعة جزء من الملة الإسلامية وهم يقرون بالوحدانية ولا يقرها الغرب، ويشهدون بالرسالة المحمدية وينكرها الغرب، ويقرون بأعمدة الإسلام الخمسة والغرب يسخر ويستهزئ منها، ويقرون باجتناب الموبقات والغرب منغمس فيها. وعليه فالمؤلف على قناعة كاملة أن من يساند الغرب على إيران فعليه أن يتوقع حساباً شديداً يوم القبر والساعة.

من المناسب ذكر قصة المعتمد بن عباد، فقد اجتمع عليه الأسبان في الأندلس فأرسل يستنجد بيوسف بن تاشفين أمير المغرب فقال له مستشاروه إن يوسف إذا حضر إلى الأندلس لن يخرج منها فقال كلمته المشهورة: "لأن أرعى إبل يوسف خير من أن أرعى خنازير ألفونش".

❖ القصة السياسية لأحداث الخليج:

لنضع نتائج ما سبق ضمن القصة السياسية لأحداث الخليج وما قبلها:

انتهت الحرب العالمية الثانية وخرج منها قطبان الاتحاد السوفييتي وأمريكا، أما بريطانيا فخرجت في غاية الضعف المالي والاقتصادي، فكان لا بد لها من أن تسمح لأمريكا بالدخول إلى مناطق نفوذها. في هذه الفترة وضعت أمريكا خطتين رئيسيتين تحدد وجهتها في العالم، الخطة الأولى كانت خطة عبقرية لتحطيم الشيوعية والخطة الثانية هي وراثة بريطانيا في مناطق نفوذها.

فهمت أمريكا تماماً نقاط القوة والضعف في المبدأ الشيوعي، فقد أدرك الأمريكان أن المبدأ الشيوعي أقوى بكثير من المبدأ الرأسمالي وقت التحدي والصراع المكشوف، وأن المبدأ الرأسمالي أقوى بكثير من المبدأ الشيوعي وقت الرخاء والاستقرار، وذلك

لأن القوى الشيوعية الداخلية تكون متحدة ومتوازية وقت التحدي والصراع مع العدو ولكن هذه القوى تبدأ بالبحث عن مصالحها وقت الاستقرار مما سيؤدي في النهاية إلى الصراع الداخلي بين هذه القوى. ولا يملك المبدأ الشيوعي الآليات والأنظمة التي تقوم بتنظيم التنافس بين القوى الداخلية بعضها ببعض، على النقيض من المبدأ الرأسمالي الذي يملك هذه الآليات.

فكان ما سبق أساساً لخطة آيزنهاور-كينيدي. وكانت خطواتها كالتالي:

١) بذل الوسع بالضغط والترغيب لوقف نمو المبدأ الشيوعي.

٢) الانتظار حتى تتنافر القوى الداخلية في الجسم الشيوعي.

٣) الضغط على الجسم الشيوعي والنفوذ إليه لتسريع انهياره قبل أن تتمكن الشيوعية من ترتيب أوراقها وتعديل مبدئها.

نجح كينيدي في تحقيق القسم الأول من الخطة فقد استطاع وبمناورات عدة أن يجتمع والروس على طاولة المفاوضات وأن يغري السوفييت بكثير من التنازلات مما أدى في النهاية إلى قبول السوفييت باقتسام العالم مع أمريكا والعيش مع أمريكا بوفاق. كان هذا نجاحاً حقيقياً لكينيدي وكان بداية الانهيار للاتحاد السوفييتي.

ويبدو (كما استنتج تقي الدين النبهاني) أن أحد ما اتفق عليه الروس والأمريكان هو إنهاء النفوذ البريطاني في العالم. وكانت أمريكا بهذا تحقق هدفين في آن معاً، الأول هو إلهاء الاتحاد السوفييتي بهدف فرعي والآخر هو وراثة بريطانيا في مناطق نفوذها.

لم تكن بريطانيا رافضة من حيث المبدأ لخطة آيزنهاور-كينيدي ولكنها لم تكن لترضى أن تكون الطُعم والضحية لهذه الخطة، ولهذا لم تعمل بشكل جدي لتخريب هذه الخطة ضد الاتحاد السوفييتي وإنما قامت بصراع شرس وحقيقي ضد أمريكا

دفاعاً عن مصالحها في العالم. بمعنى آخر فقد كان لبريطانيا خطان متوازيان، الأول هو مساندة أمريكا في خطتها ضد الروس مع بعض الضربات تحت الحزام لتخفيف الضغط عليها، والخط الثاني هو صراع حقيقي وشرس ضد أمريكا للحفاظ على المصالح البريطانية في العالم.

استطاعت بريطانيا الخروج سالمة، مع بعض الخدوش، من أعاصير الصراع في الحقبة الممتدة من الخمسينيات حتى أوائل الثمانينيات من القرن العشرين. وجاءت الثمانينيات واتفقت الأجهزة السيادية في أمريكا على أن الوقت مهيأ تماماً للبدء في القسم الثاني من خطة آيزنهاور-كينيدي.

ولكن كان هناك مشكلة وهي بريطانيا.

ما كان يمكن لأمريكا أن تبدأ بحرب باردة حقيقية ضد الروس ويقوموا بصرف الأموال الطائلة لهذه الغاية دون أن يضمنوا عدم قيام بريطانيا بضربات تحت الحزام، إذ ستكون هذه الضربات مكلفة جداً لأمريكا.

وعليه كان لا بد لأمريكا من الاتفاق مع بريطانيا وعمل وفاق حقيقي بينهما.

والوفاق بين دولتين هو أن يعترف كل منهم بالمناطق الحيوية للآخر، وأن يتفق كل منهم على الاختلاف والتنافس المقبول في المناطق الأخرى، وألا يقوم أي منهم بضربات تحت الحزام للآخر. ويبدو أن هذا ما اتفقت عليه إدارة ريغان وإدارة تاتشر، فيبدو أنهم اتفقوا في كثير من الأمور واتفقوا على الاختلاف في الأمور الأخرى واقتسموا مناطق النفوذ بينهم، بعضها لبريطانيا وبعضها لأمريكا، وبعضها بالتنافس بينهما دون ضربات تحت الحزام. ويبدو أن مما اتفقوا عليه هو العمل الجاد لاستقرار الشرق الأوسط فكان أول هذا الوفاق هو إنهاء الحرب العراقية الإيرانية، بل إن أمريكا أسقطت طائرة مدنية إيرانية، ويبدو أنها كانت متعمدة، نكاية بإيران ولإشعارها أن أمريكا جادة حقاً في إنهاء الحرب. وكان ثاني نتائج هذا الوفاق هو فك الارتباط بين الأردن والضفة الغربية والبدء في تكوين الهيكلية السياسية لمنظمة التحرير للبدء في حل القضية الفلسطينية.

انتهت الحرب الإيرانية العراقية بصعود قوة العراق.

المشكلة في العراق أنها كانت تحت حكم عائلة حمقاء، وصدق القائل أن عدو عاقل خير من صديق أحمق. ووجود قوة ضخمة بيد مجموعة من الحمقى أمر لن يكون مريحاً للغرب. ويبدو أن الإنجليز والأمريكان وصلوا إلى نتيجة أنه من الصعب قلب نظام حكم صدام واستبداله بنظام حكم أقل حماقة. وكذلك فمن الصعب إقناع صدام بالتنازل عن قوته وتدميرها. فكانت النتيجة المنطقية هي عمل حرب محدودة مع العراق. ضمن هذا الهدف فقد نفخ الغرب غرور صدام حتى خرج صدام من محيط الذكاء إلى محيط الوهم، وظن صدام أن الغرب لن يعارض قيامه باحتلال الكويت خصوصاً بعد أن أخذ إشارات من سفيرة أمريكا في العراق أن أمريكا لن تتدخل ضده، فقام صدام باحتلال الكويت وأعلن ضمها للعراق، وهنا أخذت بريطانيا وأمريكا تدق طبول الحرب، وحيث إن التكبر والكبرياء عند صدام قد وصل حدود السماء فلم تكن عنده مرونة الكر والفر، فلم يكن رده ضد الحشود الغربية إلا الجمود ثم الانهزام.

لم تكن هناك أي نية لقلب نظام الحكم في العراق، النية كانت إرجاع العراق إلى قوته العادية وإرجاع التوازن في منطقة الشرق الأوسط. غير أن مخطط الغرب في العراق لم ينته. المشكلة عند الإنجليز كانت وما تزال إيران. إنجلترا لم تجد بداً من تغيير إيران إلى دولة معتدلة وإلاّ فسوف تصبح مصدر إلهام مستمر للعالم الإسلامي. وفي المقابل يبدو أن الخارجية الأمريكية وجدت مبالغة في هذا الهاجس الإنجليزي ضد إيران ولم تجد ضرورة للمواجهة المباشرة مع إيران. فكانت الخطة الوسط بينهما هي الخطة التي اشتهرت بالاحتواء المزدوج. السياسة الرسمية لهذه الخطة هي احتواء العراق وإيران. الخطة الفعلية هي تزويد الضغط الإعلامي والسياسي والعسكري على إيران مع إشعار إيران من آن لآخر بنية الغرب الجدية بضرب إيران بهجمات جوية ساحقة، فقد انتبه الغرب إلى أن إيران تقوم بأعمال الخطابة الثورية الفخمة ولكنها عندما يُضْغَطُ عليها فإنها تنحني. حدث هذا أثناء أزمة الناقلات النفطية وكذلك الاستفزازات الأمريكية لإيران لإنهاء الحرب العراقية الإيرانية.

خطة الاحتواء المزدوج شبيهة جداً بخطة عنترة، فقد سُئل عنترة عن هذه الشهرة التى حصل عليها في الحرب فقال إنه عند المعركة يبحث عن الضعيف الجبان فيضربه الضربة الهائلة التي ينخلع لها قلب الشجاع، وعندها يعطف على الشجاع فيقتله. وهذا ما حدث مع إيران، فقد تم توجيه تهمة الكثير من الأعمال الإرهابية نحو إيران بما فيها تفجيرات الخبر في السعودية، وتم الحديث علنا في وسط التسعينيات عن التخطيط الجدي لضرب إيران بسلاح الجو الأمريكي. وأثناء حرب الأعصاب هذه فإن الغرب كان بين الحين والآخر يقوم بحشد القوات وبشكل يثير التوتر في كل الخليج بحجة ضرب العراق. كان هذا كله عبارة عن ضرب العراق لتخويف وترويض الجار (إيران).

لم تفشل هذه الخطة فقد بدأ نظام الحكم في إيران يتحول من الجناح المتشدد إلى الجناح المعتدل، بل لقد ظهرت إشارات من نظام الحكم في إيران باستعداده للاعتراف بوجود إسرائيل.

على أية حال فيبدو أن الخلاف الحقيقي قد بدأ بين الإنجليز والعسكر الأمريكي من جهة وبين الخارجية الأمريكية من جهة أخرى عندما ظهرت نية إيران الحقيقية لتطوير برامجها النووية. ويبدو أن الإنجليز والعسكر الأمريكي وصناعات النفط الأمريكية قد اتفقوا على ضرورة سيطرة العسكر على مقاليد الرئاسة الأمريكية، وهذا ما حدث بتولي جورج بوش الابن رئاسة أمريكا، وظهرت إدارة العسكر في إدارته وبشكل واضح.

وجاءت أحداث الحادي عشر من أيلول وضُربت أبراج نيويورك ووزارة الدفاع. كان الاحتمال الذي غلب على نظرة المؤلف في بحث سابق أن منفذي هذه العملية هم مسلمون، وأن أمريكا تفاجأت منها، وأن ما ظهر من أعمال تجاه أفغانستان كان استغلالاً لفرصة سانحة ولم يكن نتيجة لمخطط استراتيجي سابق.

ولكن المعلومات والتحليلات التي ظهرت بعد كتابة ذلك البحث عدَّلت في توازن الاحتمالات. وما زال الاحتمال الأكبر هو أن منفذي هذه العملية مسلمون،

ولكن هناك إشارات قوية (بما فيها تحليلات هذا البحث) أن ما حدث في العراق لم يكن استغلالاً لفرصة سانحة بل كان نتيجة لمخطط أعد له بعناية. كما ظهر أن هناك إهمالاً شديداً في عمليات الاستخبارات الأمريكية إلى الدرجة التي يمكن فيها القول إن هذا الإهمال كان غباءً شديداً أو إن هذا الإهمال كان متعمداً. وعليه فإن الاحتمال الحالي الغالب أن الإدارة الأمريكية كانت تعلم أن أمراً ما كهذا سوف يحدث.

ضمن هذه النظرة فهناك الآن الاحتمالان التاليان:

الأول أن الإدارة الأمريكية كانت تعلم أن القاعدة ستقوم بضرب أبراج نيويورك والبنتاجون.

والثاني أن الإدارة الأمريكية سهلت دخول القاعدة وتوقعت قيامهم بعملية تشبه انفجار أكولاهوما وأنها تفاجأت بالضربات التي كيلت لأبراج نيويورك والبنتاجون. هذا معناه أن الإدارة الأمريكية تعمدت الإهمال في متابعة رجال القاعدة ولكن ضربات أبراج نيويورك كانت مفاجئة لهم.

دلائل الاحتمال الأول هو أن العسكر الأمريكي بطبيعته ذو حساسية أمنية عالية ولهذا السبب فمن المستغرب أن يسمح العسكر لمخطط كهذا يحدث لهم دون متابعة منهم.

دلائل الاحتمال الثاني أن أمريكا بسبب توزع السلطات فيها لا تستطيع القيام بعمل خطير ومخالف للدستور إلا إذا اتفقت على القيام به الأجهزة الإدارية التالية: الخارجية والدفاع ، والـCIA، والـFBI.

واتفاق هذه الأجهزة كفيل بتغطية وتخريب أي تحقيقات قد تحدث لذلك العمل. أما إذا لم يكن هناك اتفاق بين هذه الأجهزة فإن كشف الأسرار ممكن وتكون المسئولية ضخمة. وضمن هذا الاحتمال فإن الاتهام بالإهمال أمر يمكن ابتلاعه ولكن الاتهام بالخيانة أمر لا يمكن ابتلاعه. وحيث إن الظاهر هو وجود خلاف حقيقي بين العسكر من جهة وبين الـ CIA والخارجية من جهة أخرى فإنه أمر في غاية الخطورة للإدارة الأمريكية أن تكون على علم بأمر ضربات أبراج نيويورك قبل حدوثها.

ضمن ما سبق فإن غلبة الظن هي للاحتمال الثاني مع عدم الإهمال للاحتمال الأول.

كانت ضربات أبراج نيويورك حجة قوية للرئيس والعسكر للسيطرة على كثير من الأجهزة الإدارية في أمريكا وخصوصاً وزارة الخارجية والـCIA.

ضُربت أفغانستان وبدأ التحضير للعراق، وهنا كانت المشكلة. يبدو أنه كانت هناك وجهات نظر متعارضة بين الأجهزة الإدارية في بريطانيا من جهة وبين بريطانيا وأمريكا من جهة أخرى في موضوع احتلال العراق. لم يكن العراق هدفاً رئيسياً لبريطانيا، وإنما كانت أجندتها منصبة لمنع إيران من التكنولوجيا النووية. ضمن هذه النظرة فإنه يغلب على الظن أن بريطانيا لم تكن تريد احتلال العراق وكانت تدرك تماماً مدى غلظة وتسيب الجنود الأمريكيين وتدرك أن احتلال العراق سيكون مستنقعاً. ويبدو أن كل ما كانت تريده بريطانيا هو حشد الجيش في الكويت، ومحاولة قلب نظام الحكم في العراق أو إقناع صدام حسين بالخروج من العراق إلى المنفى. وإذا لم ينجح ما سبق فالقيام بضربات كوماندوز وضربات جوية مركزة على صدام حسين ورموزه على أمل تمكين الجيش العراقي من قلب النظام. وإذا لم ينجح ما سبق فعندها يتم اللجوء إلى الجيش واحتلال العراق وبعملية جراحية سريعة لقلب النظام ثم الخروج.

نظرة بريطانيا أنه في حالة قلب نظام صدام حسين دون وجود للقوات الغربية في العراق فإن هذا سيحدث هزة إعلامية إيجابية ضخمة يمكن استغلالها للضغط الواضح والمباشر ضد إيران.

الأدلة على وجهة النظر هذه قيام مجموعات كبيرة في بريطانيا خاصة وأوروبا عامة بالتظاهر ضد ضرب العراق. وليس مستبعداً أن هذه المظاهرات قد تيسرت بمساندة حكومية خفية، إذ إن كثيرًا ممن دعوا وساندوا هذه المظاهرات هم مدراء سابقون للأجهزة الإدارية البريطانية وكان أهمهم وزير الخارجية الأسبق روبن كوك.

بالطبع فإن هذه المظاهرات قد أضعفت الحزب الحاكم في بريطانيا ولكنها أعطت للإدارة البريطانية أعذاراً وتبريرات ومرونة قوية في مفاوضاتها مع الإدارة الأمريكية.

أما أمريكا فيبدو أنها كانت مصرة على احتلال العراق ولأسباب ما زالت غير واضحة للمؤلف. وربما أن الإدراة الأمريكية وجدت أن احتلال العراق سيعطي قوة زخم أكبر للتفاوض مع إيران وربما لأن الإدارة الأمريكية أسكرتهم أحلامهم الوردية وظنوا أنهم باحتلالهم العراق فإن الشعب العراقي سيستقبلهم استقبال الأبطال.

لم تستطع بريطانيا أن تقنع الأمريكان بعدم احتلال العراق ولكنها استطاعت أن تجعل لقواتها الجزء الأسهل من هذه المهمة، فقد كانت مهمة الجيش البريطاني هي احتلال والسيطرة على جنوب العراق وهي منطقة يسيرة لهم، في المقابل أخذ الجيش الأمريكي مهمة السيطرة على وسط العراق وكان مستنقعاً لهم.

وتم احتلال العراق وقد استغل الإعلام الغربي فرحة الناس وتحطيمهم لأصنام صدام وتم بثه وتضخيمه لأنحاء المعمورة. وبدأ التلميح والتلويح بإيران وأخذت بريطانيا دور حمامة السلام وأخذت أمريكا دور الذئب المفترس. فبدأت المفاوضات بين بريطانيا وفرنسا وألمانيا من جهة وإيران من جهة أخرى وانتهت بفتح إيران لملفاتها ومنشآتها النووية للتدقيق والتفتيش الغربي وبتجميد جميع أبحاث تخصيب اليورانيوم. وكان ذلك اليوم نصراً مدوياً لبريطانيا وقد أغدقت الصحافة البريطانية ذاك الأسبوع ألوان المدح والتقدير لجهود جاك سترو وزير الخارجية البريطاني في الوصول لهذا الاتفاق مع إيران.

بدأ الغرب يغرق في المستنقع العراقي وبدأت أفواج الجرحى والقتلى ترجع لبلادها، وتوالت الانتقادات إثر الانتقادات للأكاذيب البريطانية والأمريكية لموضوع أسلحة الدمار الشامل في العراق. وهنا جاءت الصدمة الكبرى المرة لبريطانيا: فقد قالت إيران هذه المرة لا بالنسبة لوقف الأبحاث النووية ولا بالنسبة للتعاون مع الغرب في هذا الشأن.

يبدو أن هذا كان صدمة حقيقية لبريطانيا وأمريكا، فقد تعودت بريطانيا وأمريكا أنه كلما تم تهديد حقيقي لإيران فإن إيران سوف تنحني. هذه هي خبرة الغرب بإيران ، وهذا ما حدث مع إيران في اتفاقيات التدقيق والتفتيش على المنشآت النووية الإيرانية. وما فعلته إيران آخر مرة لا يتلاءم مع هذه الخبرة. ويبدو أن لهجة الانتقادات والتهديدات البريطانية الأمريكية المتتالية لإيران ومحاولاتها في الأسابيع الأخيرة الإمساك بدفة الأمور إنما كانت نتيجةً لهذه الصدمة.

أما ماذا سوف يحدث في الأسابيع والأشهر القادمة فقد تم بحثه في صفحات سابقة.

❖ حماس وتولي الحكومة الفلسطينية:

يستبعد المؤلف تفاجؤ الغرب بنجاح حماس في الانتخابات، فللعالم الإسلامي الآن ميول حقيقية نحو الإسلام وضمن انتخابات نزيهة فإنه من الطبيعي التوقع بفوز الأحزاب الإسلامية.

إن الغرب توقع فوز حماس ولم يفعل شيئاً ذا قيمة لمنعها، وهنا السؤال: لماذا؟ وما هي الأجندة المخفية للغرب؟

هناك أكثر من احتمال:

١. أن يسمح الغرب لحماس بالفوز ثم يروضونها بإنهاكها بالعقبات حتى تستسلم وتقر بجميع المعاهدات السابقة بين السلطة الفلسطينية وإسرائيل.

كان هذا الاحتمال ممكنا قبل ظهور الحركات الجهادية إلى الساحة. كما أن حماس مع مرونتها في المبدأ السياسي والذي ورثته من فلسفة الإخوان المسلمين فإن لها حداً لا تستطيع الخروج منه وإلا سبب انشقاقاً حقيقياً فيها. إن أكثر ما تستطيع حماس تقديمه هو الاعتراف بوجود إسرائيل، وليس في حق إسرائيل في الوجود، وإقرار هدنة طويلة الأمد، وليس معاهدة سلام.

٢. هذا الاحتمال مبني على نظرة الإنجليز والأمريكان للحل الدائم. إن نظرة الإنجليز والأمريكان لإسرائيل هي نظرة واقعية وهي أنه لا يمكن الوثوق بإسرائيل، إذ إن إسرائيل تنجر وراء مصالحها الآنية دون النظر للعواقب بعيدة المدى. والذي يزعج الإنجليز والأمريكان هو أن إسرائيل (بثقافاتها وفلسفات أجهزتها الإدارية) على استعداد لتخريب علاقات الغرب مع الشرق الأوسط إن كان هذا يؤدي لمصلحة آنية لها. ولهذا فإن نظرة الإنجليز لإسرائيل ومنذ البداية (وتبعتها أمريكا لاحقاً في هذه النظرة) أن إسرائيل هي لاعبة حمقاء وابنة عاقة يجب عدم السماح لها بالنفوذ إلى الموارد والقوى السياسية في الشرق الأوسط. إن نظرة الغرب لإسرائيل هي أنها قاعدة عسكرية متقدمة في الشرق الأوسط وفقط. وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ۝١٤﴾ [الحشر].

هناك مداخلة يجب وضعها وهي موضوع اللوبي الصهيوني:

اللوبي الصهيوني متوسط القوة في القارة الأوروبية وقوي جداً في أمريكا وذلك للأسباب التالية:

أ. لم تكن نظرة الأمريكان لليهود نظرة ودية في الثلاثينيات والأربعينيات من القرن العشرين وتغيرت هذه النظرة بانتشار فكرة في أوساط الجناح المسيحي الأصولي في أمريكا بضرورة وجود اليهود في فلسطين كي يعود المسيح إلى الأرض. انتشار هذه الفكرة في الأوساط المسيحية قد عدلت النظرة لليهود وأنشأت ما يسمى بالحركة المسيحية الصهيونية. على أية حال فإن أي فكرة تنتشر في المجتمع فسيكون لها عزمها الذاتي الخاص بها إلى أن تنتشر فكرة أخرى مضادة توقفها. لهذا فالفكرة التي انتشرت في أوساط اليمين المسيحي بضرورة وجود اليهود في فلسطين قد توسعت إلى ضرورة مساعدة اليهود في فلسطين. ولهذا السبب فإن

قوة اليهود في أمريكا لم تأت من ذاتهم بل أتت بالمساندة المستمرة من الجناح اليميني الأصولي في أمريكا.

ب. نظرة الجيش الأمريكي لإسرائيل أنها حليف مهم لها في قلب الشرق الأوسط ضد الاتحاد السوفييتي سابقاً وضد الخطر الإسلامي حالياً. ولهذا فليس غريباً أن يسعى العسكر في أمريكا إلى علاقات متميزة ووثيقة مع إسرائيل.

ج. تدرك أمريكا هشاشة المجتمع الإسرائيلي. إن اليهود وإن اتفقوا في العقيدة فإنهم يختلفون في الثقافة والفلسفات، وكل فئة عندهم تصارع الأخرى من أجل أهدافها الآنية، وصدرهم شديد الضيق وآدابهم سيئة، وأفضل مثال على ذلك حجم الشتائم التي تحدث عند الانتخابات.

ولهذا فإن أمريكا تدرك أن أي عملية ضغط وشدة على إسرائيل قد تُحدث اضطراباً في المجتمع الإسرائيلي، وهذا ما لا تحبذه أمريكا. وهذا هو أحد الأسباب الرئيسية التي تجعل أمريكا تتصرف بهدوء مع إسرائيل وتستخدم معها أسلوب الخطوة-خطوة. وصدق الله تعالى إذ يقول ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾[آل عمران]. وأما حبل الله فقد كانت الأنبياء ترعاهم فما مات نبي لهم إلا وجاء نبي بعده. وأما حبل من الناس فهو ما يحدث الآن وكأن الناس ربطوهم بحبل حتى لا يتشققوا.

وعليه فضمن سياسة الغرب بعزل إسرائيل فقد تحقق عزل مصر عن إسرائيل مع وجود معاهدة السلام، فقد استطاعت مصر وبهدوء من تجميد التطبيع مع إسرائيل خصوصاً بعد اغتيال السادات. بل إن مصر كانت شديدة الانتقاد للأردن وقطر ووصفت تصرفاتهم بالعبارة المشهورة: "الهرولة نحو التطبيع". وكذلك فإن قوة حزب الله في جنوب لبنان كافية لمنع المارونيين من إقامة أي علاقة مع إسرائيل وحزب الله في جنوب لبنان يشكل حاجزاً حقيقياً بين لبنان وإسرائيل.

ولهذا فضمن الاحتمال الثاني في هذا الموضوع فإن وجود قوة حقيقية لحماس في الضفة الغربية لن يشكل حاجزاً جغرافياً بين الأردن وإسرائيل فقط بل سيشكل حاجزاً معنوياً كبيراً بين إسرائيل والعالم العربي أهمها دول الخليج.

هناك أمر آخر في نظرة الغرب إلى الحل الدائم. فقد نظر الغرب إلى العالم الإسلامي فوجد أنه قد قَنعَ بانسلاخ كثير من أراضيه عنه، على سبيل المثال الأندلس، وسبتة ومليلة في المغرب العربي. ولكن الأمر الذي يبدو أنه كان مفاجئاً للغرب هو الصدمة العنيفة التي أحدثها احتلال اليهود للقدس والمسجد الأقصى. هذه الصدمة التي كانت سبباً في استيقاظ العالم الإسلامي من سبات طويل جداً، ويبدو أن نظرة الغرب الآن أنه ما دام المسجد الأقصى تحت علم غريب فإنه لن يكون هناك استقرار حقيقي في الشرق الأوسط. وعليه فيبدو أن الغرب (إنجلترا وأمريكا) في نظرته إلى الحل الدائم يريد أن يضع حلاً لموضوع المسجد الأقصى يكون كافيًا لتخدير العالم الإسلامي.

وضمن هذا الاحتمال وضمن ملاحظة التصرفات والسياسات الإنجليزية والأمريكية فالذي يبدو أن إنجلترا وأمريكا متفقتان تماماً على الحل الدائم لفلسطين ولكنهما مختلفتان في الطريقة.

فالظاهر أن بريطانيا تعي تماماً أن القضية الفلسطينية هي سبب رئيسي لتأجج المشاعر الدينية في العالم الإسلامي كله، وتعي بريطانيا تماماً خطورة الإسلام وخطورة اللعب معه. ولهذا السبب فبريطانيا تريد حلًا سريعاً للقضية الفلسطينية يكون كافيًا لتخدير العالم الإسلامي وهذا يتطلب حزماً شديداً مع إسرائيل. وعليه فيبدو أن بريطانيا لا تهتم كثيراً لهشاشة المجتمع الإسرائيلي وتعي أن كثيراً من اليهود في إسرائيل هم علمانيون ذوو مصالح آنية ومن السهل شراؤهم. بمعنى آخر فإن بريطانيا تضع خطورة اللعب مع الإسلام فوق هشاشة المجتمع الإسرائيلي. وعليه يمكن ملاحظة السياسة البريطانية تجاه القضية الفلسطينية فالإعلام الرسمي البريطاني مع إسرائيل ولكن تقوم بريطانيا بتسهيل أعمال الكثير من الجمعيات (البريطانية وغير البريطانية) التي تنتقد حماقة اليهود في إسرائيل.

أما أمريكا فيبدو أنها لا تعبأ حقًّا بالإسلام ولا يظهر أنها مهتمة بخطورته. إن أمريكا دولة حديثة في هذا العالم ولم يكن لهم الخبرة مع العالم الإسلامي يوم كان للمسلمين السيادة، كما أن نجاحاتهم الباهرة والسريعة قد ولدت لديهم ثقة ضخمة وكبيرة بالنفس جعلتهم يظنون أنهم قادرون على التغلب على أية مشكلة يواجهونها. وعليه فإن أمريكا تتفق مع بريطانيا في تفاصيل الحل الدائم إلا أنها لا تتفق مع بريطانيا في خطورة الإسلام . ولهذا السبب فأمريكا لا ترى ضرورة الاستعجال للوصول للحل الدائم ولا تحبذ الاضطرابات في المجتمع الإسرائيلي ولا ترى ضرورة في تعديل النظرة المسيحية الأصولية لليهود. ولهذا السبب فإن أمريكا تستخدم أسلوب الخطوة-خطوة والنفس الطويل في تحقيق أهدافها في فلسطين.

الخطوات التي اتبعتها أمريكا لتحقيق أهدافها في فلسطين باختصار كانت كالتالي:

أ. وضعت أمريكا وبحزم على إسرائيل ومنذ البداية قاعدة غير مكتوبة وهي أن يد إسرائيل حرة في ضرب واغتيال من تريد ولكن عليها أن تتوقع عقاباً حازماً وحقيقياً من أمريكا إن قامت إسرائيل باغتيال القادة الكبار للمنظمات الفلسطينية.

وحسب أفضل المعلومات عند المؤلف فإن إسرائيل لم تقم بعملية اغتيال للقادة الكبار للمنظمات الفلسطينية إلا أبو جهاد وأحمد ياسين وعبد العزيز الرنتيسي. ويغلب على ظن المؤلف أن اغتيال هؤلاء الثلاثة تم بضوء أخضر من أمريكا.

لا يوجد عند المؤلف صورة واضحة عن السبب الذي قبلت فيه أمريكا اغتيال أبو جهاد. أما اغتيال أحمد ياسين وعبد العزيز الرنتيسي فيبدو أنه جاء لمكافأة شارون وإشباع غروره ورفع شعبيته نتيجة لقراره بالانسحاب الكامل من قطاع غزة.

ب. أعطت أمريكا لإسرائيل الضوء الأخضر لغزو لبنان. أدى هذا الغزو لتحول منظمة التحرير الفلسطينية من منظمة عسكرية إلى منظمة سياسية. كما أدى هذا

الغزو إلى بداية الاختناق الاقتصادي في إسرائيل.

ج. أدت الانتفاضة الأولى والثانية بالإضافة إلى الضغط الغربي غير المباشر إلى زيادة الضغط الاقتصادي والسياسي على إسرائيل مما أدى في النهاية إلى اعتراف إسرائيل بالمنظمة الفلسطينية والمفاوضة معها.

د. أدى استمرار المقاومة الإسلامية في جنوب لبنان إلى قيام إسرائيل بانسحاب أحادي الجانب من لبنان.

هـ. أدت الانتفاضة الثالثة والعمليات الجهادية والضغط الغربي غير المباشر إلى مشاكل اقتصادية وسياسية واجتماعية حادة في إسرائيل أدت في النهاية إلى انسحاب إسرائيلي أحادي الجانب من قطاع غزة.

الباقي من أهداف أمريكا في فلسطين هو كالتالي:

أ) انسحاب إسرائيل من الضفة الغربية.

ب) إقامة الدولة الفلسطينية.

ج) الوصول إلى حل دائم للوضع في المسجد الأقصى يكون كافياً لتخدير العالم الإسلامي.

د) إما عمل معاهدة سلام بين إسرائيل والعالم الإسلامي مع وقف التطبيع (كما هو حاصل بين مصر وإسرائيل) وإما عمل هدنة طويلة الأمد بينهما.

الطريقة التي يمكن لأمريكا بها تحقيق هذه الأهداف وبأسلوب الخطوة-خطوة هو استخدام نفس المخطط الذي وضعته في لبنان والذي أدى في النهاية إلى رضوخ إسرائيل للنصائح الأمريكية. ضمن هذا المخطط فإن السيناريو المتوقع هو نفس السيناريو الذي حدث حتى هذه اللحظة ثلاث مرات: تزداد وتيرة العمليات الجهادية ضد إسرائيل وبمساعدة من حزب الله وسوريا في المقابل تقوم إسرائيل بعملياتها الانتقامية تجاه الجميع من أطفال وشيوخ ونساء وشبان مما يؤدي إلى زيادة

الحنق الفلسطيني تجاه اليهود وتزداد العمليات الجهادية وهكذا. ومع التهديد الواضح المبطن والحقيقي من أمريكا لإسرائيل بعدم المساس بهيكلية السلطة الفلسطينية فإن إسرائيل ستقتنع في النهاية بضرورة القبول بالنصائح الأمريكية.

ضمن هذا الاحتمال وهذه الرؤية فيمكن الخروج بالاحتمالات التالية لموقع حماس في المخطط الأمريكي:

١. أن تقود حماس المقاومة الرسمية والجهادية تجاه إسرائيل كما فعلت حركة حزب الله.

٢. أن تتعرض حماس للعقبات والخذلان مما يجبرها في النهاية للاستقالة من الحكومة والسقوط. وهذا سيزيد من مشاعر الإحباط عند الشعب الفلسطيني مما سيزيد من قوة وحماسة الحركات الجهادية في فلسطين.

والاحتمال الأخير هو الاحتمال الغالب على الظن.

[هذه السطور قد تمت كتابتها قبل قيام حماس بالانقلاب على فتح. وهذا معناه أن الاحتمال الأول هو الذي كان صحيحا]

❖ اغتيال رفيق الحريري:

إن تغيير طبيعة الحكم في سوريا هو أمر أساسي في أجندة الدول الغربية، ولكن هناك حذرًا من التغيير العنيف المباشر، إذ إن تداعيات التغيير المفاجئ قد لا تكون حميدة للغرب. وبالطبع فإذا كانت هناك ضرورة ملحة للتغيير فإن الغرب لن يتردد في القيام بعمل مباشر، ولكن إذا لم تكن هناك ضرورة، فالغرب يُفضل التغيير المتدرج. والأسلوب الذي يستخدمه الغرب تجاه سوريا ومنذ سنوات هو الضغط الهادئ والمتواصل.

في المقابل فإن سوريا ومنذ زمن بعيد تواجه الآخرين بحذر شديد، يشهد على ذلك أسلوبها في التعامل مع تركيا أثناء أزمة عبدالله أوجلان وأسلوبها في التعاطي مع الانتهاكات الأمريكية أثناء الحرب اللبنانية الإسرائيلية.

والسؤال الآن هو: هل أصبح للغرب ضرورة ملحة للتغيير في سوريا أم أن سوريا بدأت تتصرف بحماقة خارجة عن أسلوبها في التصرف.

لنقم بترتيب الأحداث على خط الزمن:

١. قام الغرب وبشكل مفاجئ وتصاعدي بوضع العلاقة اللبنانية والسورية في مركز الضوء. وبدأت الانتقادات الغربية تتوالى على سورية ولبنان وبالأخص بعد التجديد لولاية أخرى لرئيس لبنان.

٢. تم اغتيال الحريري.

٣. بدأ التصعيد العنيف والتهديد الواضح ضد سوريا في لبنان والذي انتهى بخروج سوريا من لبنان.

٤. تم تقليص النفوذ السوري وبصورة كبيرة في لبنان وبخاصة في الجيش اللبناني.

٥. بدأت تتباطأ لهجة التصعيد والتهديد لسوريا.

أما الاحتمالات فهي كالتالي:

١. أن يكون اغتيال الحريري من قِبَلِ جماعة جهادية.

وهذا الاحتمال ضعيف إذ أظهرت التحقيقات أن اغتيال الحريري قد تم بمهارات استخباراتية.

٢. أن يكون اغتيال الحريري تم من قبل سوريا حماقة وغباء.

وهذا الاحتمال ضعيف، حيث إنه يخالف الطريقة التي تعودت عليها سوريا. فسوريا تعودت أسلوب الحذر مع أمريكا بشكل خاص والغرب بشكل عام، والاغتيالات ليست غريبة على سوريا، ولكنها لم تكن لتستخدم هذا الأسلوب نكاية في الغرب.

على أية حال فإن التحقيقات أظهرت وجود احتقان حقيقي بين سوريا والحريري كما أظهرت التحقيقات وجود إهمال حقيقي من قبل الأجهزة الأمنية اللبنانية في أسلوب معاينتها لمشهد الجريمة. وهذا يزيد من قوة هذا الاحتمال.

٣. أن يكون الاغتيال قد تم من قبل مخابرات غربية وتم تلبيسه لسوريا. وهذا الاحتمال غير مستحيل وقد استخدم الغرب هذا الأسلوب في كثير من الأحداث. على أية حال لا يوجد الآن دليل واضح يقوي هذا الاحتمال. ولكن ترتيب الأحداث على خط الزمن يضع لهذا الاحتمال قوة.

٤. أن يكون الغرب قد أرسل إشارات عدة خادعة وغادرة لسوريا أنها لن تتدخل لقيام سوريا باغتيال الحريري. أي أن الغرب قد خدع سوريا وعندما قامت سوريا بالاغتيال، قامت الدول الغربية بالإمساك بسوريا.

هذا الاحتمال يجمع بين الاحتمال الثاني والثالث، ومعناه أن سوريا هي التي اغتالت الحريري ولكن مخابرات الدول الغربية كانت تعلم بخطة الاغتيال وكان الاغتيال جزءاً من مخطط الغرب. وهذا الاحتمال هو الذي يغلب على الظن.

ولكن ما هو مخطط الغرب؟

ولماذا يريد الغرب الآن إخراج سوريا من لبنان وتقليم أظافره؟

الذي يغلب على الظن أن ما حدث في لبنان لم يكن ضمن مخطط استراتيجي من الغرب، وإنما كان مخططاً تكتيكياً. أي أن ما حدث في لبنان وخروج سوريا منها لم يكن هدفاً رئيسياً وإنما كان هدفاً فرعياً.

الذي يغلب على الظن أن إخراج سوريا من لبنان كان رشوة أمريكية لفرنسا. فأمريكا بعد أن ظهر لها أن اختياراتها مريرة مع إيران فإنها أدركت أنها بحاجة لكل حليف تستطيع الوصول إليه. فكان لا بد لها من إزالة آثار الاحتقان بينها وبين فرنسا وتطييب خاطرها وإرجاع الود بينهما. في المقابل فإن فرنسا تتذكر تماماً خروجها الذليل من لبنان من قِبَل سوريا. ورجوع بعض النفوذ الفرنسي للبنان كفيل بإشباع الغرور الفرنسي. فيبدو أن هذا ما تم الاتفاق عليه وكان اغتيال الحريري هو الفرصة التي خدمت تقديم هذه الرشوة الأمريكية لفرنسا.

[هذه السطور قد تمت كتابتها في ٢٠٠٦. وضمن القرائن التي قدمها حزب الله في ٢٠١٠ عن احتمالية عالية لقيام إسرائيل بارتكاب هذه الجريمة فإن ترتيب الاحتمالات لهذه المقالة أصبح غير دقيق].

❖ قناة الجزيرة والضربة الأمريكية:

كان أمراً عجيباً حقاً أن يقوم الرئيس الأمريكي ورئيس الوزراء البريطاني بالنقاش ساعتين في اقتراح قيام سلاح الجو الأمريكي بضرب قناة الجزيرة في قطر.

هذا النقاش في غاية السخافة، ولكن حيث إن القائمين عليه رجال سياسة محترفون، إذاً لا بد من الافتراض بوجود الجدية في موضوع النقاش.

لنبدأ أولاً بتحليل قناة الجزيرة:

هناك قصة تقول إن القناة البريطانية الـBBC قد أقامت لها قناة ناطقة باللغة العربية وبدأت ببثها عن طريق القمر العربي "عربسات". وحيث إن لهجة هذه القناة كانت صريحة فقد أظهرت بعض الدول العربية المالكة لعربسات الضيق لبريطانيا، فكان أن ألغت الـBBC خططها لإقامة قناة عربية لها وانسحبت من عربسات.

وبعدها بأسابيع أسست قطر قناة الجزيرة في أراضيها وانتقل الكادر الفني والإعلامي العربي من قناة الـBBC إلى قناة الجزيرة. وحيث إن قطر إحدى الدول المالكة لعربسات فلم يستطع أحد الاعتراض.

ولهذا السبب فإن المؤلف يشم رائحة الإنجليز في قناة الجزيرة ويرى بصمات أصابعهم في نشأتها. والطريف هو شعار قناة الجزيرة: فقد كان شعارهم كوكب الأرض يغوص في البحر وتخرج منه الجزيرة. وكوكب الأرض هو شعار الـBBC، وكأن الشعار يقول: أخرجتمونا ورجعنا إليكم بالجزيرة.

والسؤال هنا: ما هي مخططات بريطانيا لقناة الجزيرة؟

من السهولة استنتاج هذه المخططات وذلك بالانتباه إلى استراتيجياتها وأهدافها العليا في الشرق الأوسط.

تدرك بريطانيا تماماً ديناميكية المجتمع العربي الإسلامي، وتدرك أن الأمور فيه تسير إلى حالة الانفجار، ولهذا فيمكن استنتاج مخططها كالتالي:

١. حل القضية الفلسطينية وبالأخص موضوع القدس بشكل يكون كافياً لتخدير العالم الإسلامي. إذ أدركت بريطانيا أن القدس هي أحد الحوافز والمثيرات الرئيسية لجهادية الجماعات الإسلامية وأنه من غير حل هذه المشكلة فإن الجهادية سوف تستمر في النمو وبأشكال شتى.

٢. العمل على استقرار منطقة الشرق الأوسط وذلك بتغليف أنظمة الحكم فيها بشيء من الديمقراطية وتوزيع بعض من ثروة الدولة للمجتمع.

إن الطريقة التي بنيت عليها أنظمة الحكم في الشرق الأوسط تجعل كل السلطة وكل الثروة في يد الحاكم وعائلته. ولم يكن هذا الأمر مهماً لبريطانيا قبل ثلاثين عاماً، ولكنه أصبح الآن مشكلة كبيرة، إذ إن استمرار هذه الطبيعة في الحكم سيؤدي إلى اضطرابات وثورات هم (الغرب) في غنى عنها.

كانت الدول ذات الأوضاع الحرجة عام ١٩٩٨ هي السعودية والبحرين والمغرب ومصر. وكان الانتباه مركزاً على السعودية بشكل خاص حيث كانت المؤشرات تدل على أن السعودية تمشي في نفس الطريق الذي مشت عليه فرنسا قبل الثورة الفرنسية، وأن إشارات الانفجار أصبحت مقلقة.

قناة الجزيرة جاءت لخدمة المخطط الثاني وهو إحراج وإجبار زعماء الأنظمة العربية على التنازل عن بعض سلطتهم وثروتهم للمجتمع. وقد أحرزت الجزيرة بعض النجاح وخصوصا في السعودية والبحرين.

الآن نرجع إلى قناة الجزيرة وأمريكا والاقتراح الأمريكي بضرب قناة الجزيرة.

يجب ملاحظة ما يلي:

١. إن حالة الوفاق بين بريطانيا وأمريكا تمنع الضرب تحت الحزام، وإنه إذا قامت أمريكا بضربات خفية لقناة الجزيرة فإن بريطانيا تملك مهارات أكبر في الضرب تحت الحزام.

٢. النقاش بين زعماء الدول الديموقراطية يكون بالاستراتيجيات والخطط العامة. أما التفاصيل الدقيقة فإن زعماء الدول يكونون حذرين فيها، ويتم نقاشها بين موظفين من رتب مختلفة بينهم.

السبب في ذلك هو المسئولية. إن جلسات زعماء الدول تكون مكتوبة في محاضر. وليس من الصعب كشف هذه المحاضر وإن حدث أن كان في المحضر تفاصيل محرجة فإن انكشاف هذا المحضر سيؤدي إلى وضع محرج للغاية للدولة أو لرئيسها. وبالطبع فإن الإنجليز ولخبرتهم الطويلة هم أكثر حذراً من غيرهم في هذا الأمر.

ولهذا السبب فإنه من غير المتوقع أن يقوم رؤساء الدول بمناقشة التفاصيل الدقيقة بينهم كاغتيال شخصية ما أو عمل مجزرة ما في دولة ما. وكذلك فإنه من غير المتوقع أن يقوم رئيس الوزراء البريطاني بالاعتراف لدى أي رئيس أجنبي بأعمال وتصرفات ونفوذ المخابرات البريطانية.

ضمن ما سبق، فإن الغالب على الظن هو أن العسكر في أمريكا قد ضاق صدرهم من تحقيقات وأخبار قناة الجزيرة وأنها قد أرسلت الإشارات تلو الإشارات لبريطانيا أن كَيْلَهم قد طفح، ولكن يبدو أن بريطانيا لم تعبأ بهذه الإشارات، فكان نقاش بوش مع بلير هو رسالة واضحة مباشرة وأخيرة أنه إما أن تقوم بريطانيا بتقليم أظافر قناة الجزيرة أو أن تقوم أمريكا بهذا العمل نيابة عن بريطانيا.

الملحق الثاني - منهج التحليل السياسي

هذه المقالة قد قام المؤلف باقتطاعها من كتاب سابق (أفكار منهجية في البحث والتحليل والإدارة) وذلك لعلاقة هذه المقالة بموضوع الكتاب الحالي.

منهج التحليل السياسي

لو أن كل المعلومات عن الأحداث السياسية متوفرة لما كان هناك حاجة للتحليل السياسي. وإنما جاءت الحاجة للتحليل السياسي بسبب عدم توفر المعلومات الكافية. أي أن منهج التحليل السياسي يقوم بتحويل المعلومات غير الكافية إلى تصور سياسي واضح.

ومنهج التحليل السياسي هو أحد فروع المنهج العلمي. ومراحل منهج التحليل السياسي هي: الملاحظة والإحاطة، وضع الاحتمالات، التقييم، والاختبار.

وبالطبع يمكنك الابتداء من أي مرحلة من مراحل التحليل السياسي ولكن عليك أن تدور على جميع المراحل قدر الإمكان.

والاختبار في التحليل السياسي هو التنبؤ الكامل. بمعنى: هل الأحداث التالية والمعلومات الجديدة عن الأحداث السابقة تنطبق مع التحليلات والاحتمالات السياسية المتبناة. وإذا لم تنطبق تماماً فلماذا وأين كان الخطأ في التحليل، وكيف يمكن التعلم من هذه الأخطاء، وهكذا.

وهناك أربعة أمور ضرورية لنجاح التحليل السياسي:

١- فهم عام لطبيعة وكيفية الصراع الذي يحدث بين الدول قديمها وحديثها.

٢- فهم عميق للفلسفات التي تحدد طريقة تفكير الدول المتورطة بالحدث، وهذا يتطلب دراسة لمبدئهم وعقيدتهم ومميزاتهم ومنعطفات تاريخهم ومعرفة لمشاكلهم السابقة وكيفية الحلول التي وضعوها، والمصالح الحيوية وغير الحيوية لهم.

٣- العمل الصحفي الذي يُمَكِّنُ من جمع فتات المعلومات التي تشرح طبيعة الأشخاص المؤثرين في الأحداث والصراعات بينهم.

٤- تطبيق مبدأ الاحتمالات في التحليل السياسي.

١- فهم عام لطبيعة وكيفية الصراع الذي يحدث بين الدول قديمها وحديثها:

إن الإنسان لا يتغير عبر التاريخ فغرائزه ورغبته في حيازة المصالح هي نفسها منذ خلق الله الإنسان، وطبيعة الصراع لم تتغير كثيراً بين الدول. ولهذا ففهم التاريخ فهماً سياسيا صحيحاً سيسمح بتخمين الكيفية التي يحدث فيها الصراع الآن. بالطبع فإن التاريخ لا يعيد نفسه، ولكن تطبيق التاريخ على الأحداث الحالية سيقدم نقطة بداية جيدة لتحليل الأحداث الحالية.

هناك فلسفات أخذها المؤلف من دراسة التاريخ وهي وإن كانت افتراضية إلا أنها مناسبة كنقطة بداية للتحليل السياسي:

أ- من الأفضل أن تكون مخطئاً ولكن في الطريق الصحيح من أن تكون مصيباً ولكن في الطريق الخطأ.

المغزى فيما سبق هو أن الإنسان لا يمكن أن يكون مصيباً دائماً أو مخطئاً دائماً، ولكن إن كان الشخص على المنهج والتفكير الصحيحين فستأتيه الفرصة لاحقاً لاستدراك أخطائه وتزداد وتيرة الصحة في أحكامه مع تعمقه في البحث. أما إن كان منهج الشخص في البحث والتفكير خاطئاً وبدأ مصيباً في أفكاره فإنه سيخطئ فيها لاحقاً وتزداد وتيرة الأخطاء بازدياد انغماسه في منهج التفكير الخاطئ.

ب- الهاوي عندما يصارع المحترف فإن الهاوي قد يفوز في بعض الجولات ولكن النصر في النهاية للمحترف.

هذه فرضية بنيت على النظرة إلى التاريخ. حتى إن جوزيفوس المؤرخ اليهودي الروماني قال في معرض تسجيله لأحداث الثورة اليهودية في فلسطين عام ٦٦ ميلادية إن الثورة محسومة بالفشل لأن قادة الثورة هم مجموعة من الهواة يقاتلون جيشاً محترفاً.

الفرضية السابقة ليست قانوناً بل فلسفة، أي من الممكن أن يظهر لها استثناءات. ولكن التبني بأن جماعة ما أو دولة ما هي استثناء للفلسفة يجب أن يكون مؤيداً بأدلة واضحة. أي أنه من الخطأ الشديد استخدام الأمل وأفكار التمني لاستثناء دولة أو جماعة ما من هذه الفلسفة. وعليه فإن لم يكن هناك أدلة واضحة تجعل دولة ما مستثناة من الفلسفة السابقة فإنه من الأفضل أن تكون مخطئاً ولكن على المنهج الصحيح من أن تكون مصيباً على منهج الهوى والتمني.

إن هذه الفرضية تصلح لأن تكون أساساً لفرضية أخرى في الانتصار: لكي تنتصر على المحترف يجب أن تقوم بتطوير مهاراتك ومهارات فريقك إلى درجة الاحتراف.

جـ- الضعيف الهاوي عندما يلاعب ويصانع ويماكر القوي المحترف فإن الغالب الأعم في النهاية أن يذوب الضعيف في إرادة القوي وأن يسير الضعيف في فَلَكِ القوي.

بنيت هذه الفلسفة على النظرة إلى التاريخ. والمؤلف لا يعرف يقيناً ماذا كان يفكر جمال عبد الناصر أو الملك فيصل ولكن حتى وإن فرضنا جدلاً بنيتهم بمراوغة الغرب لكسب الوقت للنمو، إلا أن ضعف مهاراتهم وضعف مهارات أجهزتهم الإدارية قد جعلت من دولهم في النهاية قاعدة للغرب.

من الطبيعي أن يكون هناك استثناءات ولكن كما ذُكر سابقاً فإن تبني الاستثناء يتطلب أدلة موضوعية وواضحة. وإن لم تكن هذه الأدلة فإنه من الأفضل أن تكون مخطئاً في الطريق الصحيح من أن تكون مصيباً في الطريق الخطأ.

د- الصراع هو صفة طبيعية للبشر ولا يمكن تجميدها أو إلغاؤها وإنما يمكن حرفها أو تحييدها أو توجيهها.

ويمكن تقسيم الصراع بين الدول إلى ثلاثة أنواع رئيسية: التنافس، الصراع البارد، والحرب.

التنافس يكون بين الدول المتحالفة أو المتصادقة، والصراع البارد يكون بين الدول التي تتعارض مصالحها الحيوية ولكن دون أن يؤدي هذا التعارض إلى الحرب، والحرب تكون بين الدول التي وصل التعارض بينها إلى الدرجة التي لا يمكن السكوت عليها. من السهولة تمييز الصراع البارد والحرب إذا حدث بين الدول، أما التنافس فإن تحليله ليس بالأمر السهل. ومن النظرة إلى التاريخ فإن طريقة التنافس بين الأصدقاء تكون بقيام كل طرف (حسب مهاراته) بتقسيم أهدافه إلى مراحل، بحيث لا تسبب كسب كل مرحلة عداء الأطراف الأخرى. وبسبب التشابك بين الأصدقاء، فإن كسب كل مرحلة يتطلب عمليات معقدة من التفاوض والدبلوماسية والتنازلات المتداولة حتى الوصول إلى حالة مقبولة بينهم. وبعدها يتم الدخول في المرحلة التالية من الخطة وهكذا. والنصر الحقيقي بينهم يكون للطرف الذي تتراكم معه نقاط النجاح على مدى الأيام والسنوات. والطريقة التي يمكن بها من تحليل التنافس بين الأصدقاء تكون بفهم مهارات الأصدقاء كلهم وفهم الأهداف الاستراتيجية لكل واحد منهم ثم متابعة سلوكياتهم.

٢- فهم عميق للفلسفات التي تحدد طريقة تفكير الدول المتورطة بالحدث:

هناك مثل عن التحليل السياسي يقول: إن الشخص لا يستطيع أن يرى الطائرة أو يعرف اتجاهها بعد أن أصبحت في السماء بحجم الذبابة إلا للذي راقبها وهي تقلع من المدرج ولم تغب عن ناظريه.

والطريقة التي يمكن بها استنتاج اتجاه المستقبل للدول المتورطة بالأحداث هي فهم الماضي ورسم خط البيان لأحداثه ثم استنتاج خط المستقبل منه. وهذا ما قالته العرب عن العقل: الإصابة بالظنون ومعرفة ما يكون بما قد كان.

الفهم العميق للفلسفات التي تحدد تفكير الدول المتورطة بالأحداث هو دراسة للتاريخ من زاوية خاصة وعميقة لهذه الدول. فالنقطة السابقة كانت دراسة عامة للتاريخ لإدراك طبيعة الصراع عند الدول بشكل عام. النقطة الحالية هي دراسة عميقة لتاريخ الدول المتورطة بالأحداث السياسية الحالية. ودراسة التاريخ تتعلق

بمعرفة مبادئهم وعقائدهم وصفاتهم العامة ومميزاتهم ومنعطفات تاريخهم والكيفية التي قاموا بحل مشاكلهم السابقة بها.

و قد يكون قائد الدولة عبقرياً متميزاً ولكن صناعة السياسة وتنفيذها يتطلب أجهزة إدارية مختلفة، وإذا لم تكن فلسفات وصفات الأجهزة الإدارية مناسبة لعبقرية القائد، فإن النتيجة الحتمية هي فشل القائد. ورجال الأجهزة الإدارية من المجتمع، ويؤثرون في المجتمع كما يؤثر فيهم المجتمع. فمعرفة صفات ومميزات المجتمع ستقدم صورة قريبة (وليست قطعية) لصفات الأجهزة الإدارية وتكون نقطة بداية جيدة للبحث. كما أن فرع الشجرة لا ينمو من الفراغ وإنما يرتبط بشكل أو بآخر مع الجذع، فكذلك أسلوب التفكير وحل المشاكل عند الدولة فهو بشكل عام مرتبط بشكل أو بآخر بتاريخ هذه الدولة.

ما الحاجة لفهم فلسفات الدول المتورطة بالأحداث؟

لأن هذه الفلسفات هي جهاز الفلترة والتي تمكننا من فلترة المعلومات وتمييزها وتصنيفها. إن المعلومات المتوفرة والتي تحدث من الدول لا تعبر بالضرورة عن الحقيقة وإنما هناك أهداف أخرى لهذه المعلومات أهمها: تحديد السياسة الحقيقية للدولة، التعبير عن السياسة الرسمية للدولة، جس النبض، الرسائل غير المباشرة بين الدول، التمنية والترغيب، التخويف وحرب الأعصاب، الترضية، تسجيل المواقف، الإشاعة.. إلخ.

لضرب المثال: هناك قصة تقول إن تشرتشل عندما قابل الملك عبد العزيز فإنه طلب منه وبشكل واضح وشديد عمل علاقات دبلوماسية مع إسرائيل. وبالطبع فقد رفض عبد العزيز هذا الطلب تماماً، وعندها لانت لهجة تشرتشل.

السؤال هنا: هل كان تشرتشل يريد حقاً أن يقيم الملك عبد العزيز علاقات دبلوماسية مع إسرائيل.

مستبعدٌ جداً. إن الظروف في ذلك الوقت لم تكن تسمح لأي دولة عربية حتى مجرد التفكير في هذه الخطوة. فماذا كان هدف تشرتشل من هذا الطلب؟

يغلب على الظن أن تشرتشل كان فقط يريد تسجيل موقف له. ولذا فهذه القصة لا تتعلق بالسياسة الحقيقية لإنجلترا وإنما تتعلق بتسجيل موقف.

وبالطبع فإن أهم المعلومات المصنفة هي المعلومات المتعلقة بالسياسة الحقيقية للدولة. ولكن يجب عدم إهمال باقي أصناف المعلومات لأنها هي المؤشر على صحة المنهج الذي نأخذه في التحليل. من الممكن لظروف أو فرص أن تقوم الدول بتغيير أساسي في استراتيجيتها وأهدافها العليا. والطريقة التي يمكننا بها استنتاج التغيير هي مراقبة باقي أصناف المعلومات فإذا ظهر هناك تضخم غير عادي في أحد الأصناف فعندها يجب بحث الموضوع بعقل متفتح لأن هذا التضخم قد يكون مؤشراً أن إحدى هذه الدول قد غيرت من فلسفاتها واستراتيجياتها.

وهذا هو السبب كذلك في ضرورة الإبقاء على أي أسئلة أو تعارضات ليس لها أجوبة. فإذا كانت هناك تعارضات بين الاحتمالات فلا بد من الإبقاء عليها في الذهن حتى يتم الإجابة عليها بشكل مرضٍ، لأنها قد تكون مؤشراً هاماً عن تغيير قد حدث عند إحدى هذه الدول.

٣- العمل الصحفي الذي يُمَكِّنُ من جمع فتات المعلومات:

هذه النقطة هي إدراك لتفصيلات الواقع الحالي.

رجوعاً إلى المثال السابق عن الطائرة التي أصبحت في السماء بحجم الذبابة، فإن فهم الفلسفات قد يمكن من تحديد اتجاه الطائرة. ولكن هذه الفلسفات لا تمكن من معرفة ماذا يحدث الآن داخل الطائرة وما هي الصراعات الداخلية فيها. العمل الصحفي هو الذي يسمح بمعرفة الصراعات الداخلية لدى الدول المتورطة بالأحداث.

٤- تطبيق مبدأ الاحتمالات في التحليل السياسي:

وهذا هو أهم المبادئ في التحليل السياسي. فإذا لم يكن للشخص إلاّ هذا المبدأ فإن المهارات الأخرى ستأتي مع الزمن، أما إذا كان للشخص كل المهارات إلاّ هذا

المبدأ فإن تحليلاته ستكون خاطئة وإن أصاب بعضها.

المعلومات المتعلقة بالأحداث السياسية غير كاملة وغير دقيقة والكثير منها للتمويه. ولهذا فإن التحليلات السياسية هي غلبة الظن لأحد احتمالاتها. ونسبة الخطأ في هذا الاحتمال تعتمد على حجم المعلومات الأساسية غير المتوفرة. ولهذا السبب فالتحليل السياسي يقدم عدة احتمالات لتفسير الأحداث والتنبؤ بالمستقبل. ويجب أن تبقى في الذهن أنها احتمالات لأن الذهن يجب أن يكون متنبهاً لأي معلومات تظهر، لأن هذه المعلومات قد تقوم بتعديل الاحتمالات، أو تقوية أحدها، أو إضعافه، أو إلغائه، أو إضافة احتمال آخر جديد. كما يجب على الذهن الاعتراف بخطأ التحليل إذا ظهر، وبحث أسباب هذا الخطأ والتعلم منه. وإذا لم يحدث هذا فإن الذهن لا يمكنه استمرارية التعلم.

إن مبدأ الاحتمالات في التحليل السياسي هو أهم مبدأ ولهذا فإن تعريف المؤلف للتحليل السياسي هو فن الغوص في عالم الاحتمالات.

الملحق الثالث – إضافة لمنهج التحليل السياسي

هذه المقالة هي إضافة للملحق السابق. وجاءت هذه المقالة نتيجة لعدة نقاشات حدثت بعد كتابة الملحق السابق.

إضافة لمنهج التحليل السياسي

إن الهدف من منهج التحليل السياسي هو القيام بتحليل المعلومات المتوفرة والتي غالبا ما تكون ضحلة ومتضاربة للوصول إلى إدراك مقبول للواقع السياسي المحيط، إذ إنه لو كانت جميع المعلومات متوفرة لما كان هناك حاجة لخلق منهج التحليل السياسي. ولكن واقع الحال أن المعلومات المتوفرة كثيرة وضحلة وغير كافية ومتضاربة. والهدف الذي يسعى إليه المحلل السياسي هو استخدام تلك المعلومات للخروج باستنتاج ذكي ومقبول للواقع السياسي المحيط به.

وإن أفضل تشبيه لما يقوم به المحلل السياسي هو الشخص الذي يتم إعطاؤه مجموعة من الأجزاء لصورة وكانت هذه المجموعة ناقصة وكان هناك في هذه المجموعة بعض الأجزاء لصور أخرى مختلفة. وكانت المهمة المناطة لذلك الشخص هي استخلاص الصورة وتحليل تفاصيلها. فماذا يفعل؟؟

الطريقة الأسهل لإنجاز هذه المهمة هي أن يقوم بتحديد الإطار العام للصورة الأولى (عن طريق معرفته السابقة عن الصورة) ومن ثم يقوم بتصنيف الأجزاء لمعرفة الناشز عن الإطار، ثم يقوم بترتيب الصور من حيث الوضوح ثم يقوم بوضع الصور في مكانها ثم تبقى مساحة بيضاء (بسبب النقص في الأجزاء) فيقوم بالتخمين بناء على الإطار والأجزاء المتوفرة. وكلما استطاع جمع أجزاء أكثر كلما زادت الدقة في التخمين.

وكذلك التحليل السياسي:

١. فأنت تبدأ بدراسة التاريخ العام والخاص للخروج بإدراك واضح للقوى الديناميكية في الدولة ودوافعها. ومن تعاضد وتضارب القوى الديناميكية في

الدولة فإنه يمكن الخروج بإدراك جيد للاتجاهات السياسية العامة (Trends) في الدولة. وهذه الاتجاهات تحدد بشكل مقبول الإطار العام للأحداث السياسية قيد الدراسة.

باختصار: دراسة التاريخ تؤدي إلى إدراك للقوى الديناميكية يؤدي إلى إدراك للاتجاهات السياسية يؤدي إلى وضع إطار عام.

٢. ثم تبدأ بترتيب المعلومات المتوفرة عن الأحداث حسب ثباتها وتصنيفها لمعرفة المعلومات الموافقة للاتجاه العام والمعلومات الناشزة عنها. ثم تبدأ باستقراء المعلومات الموافقة للاتجاه العام للخروج باستنتاج "مبدئي" للواقع السياسي الحالي.

٣. ولكن المعلومات الناشزة لا يجوز إهمالها وإنما من الضروري تفسير دلالاتها (قدر الإمكان) للخروج بصورة أكثر عمقا للواقع السياسي (هناك مثال على ذلك في السطور القادمة).

٤. وخلال عملية التحليل فأنت تنتبه إلى حجم المعلومات الناشزة لأنه إذا ثبت أن حجم المعلومات الناشزة أكبر من المعقول فهذا دلالة على أن الاتجاه العام للسياسة الحقيقية للدولة ربما قد تغير وأن استراتيجيات الدول ربما قد تعدلت وأنه ربما مفاهيمنا ومقاييسنا السياسية خاطئة وبحاجة إلى تعديل لمواكبة الاتجاهات الجديدة. وهذه النقطة في غاية الأهمية:

فأنت تقوم بدراسة التاريخ لاستنتاج الاتجاهات السياسية والتي تستخدمها لاستنتاج التحليل السياسي. ولكن من الممكن جدا أن تقوم الدول بتغيير نوعي في اتجاهاتها السياسية، ولهذا فإن السؤال هو: كيف يمكن لنا أن ننتبه لهذا التغيير؟

وهذا السؤال له جوابان:

* عندما يكون حجم المعلومات الناشزة أكبر من المعقول.

* عندما لا تتفق التحاليل السياسية السابقة مع الأحداث الحالية.

وعندما يحدث أي الأمرين فعندها يجب أن يقوم المحلل السياسي بتدقيق النظر والانتباه إلى التفاصيل الدقيقة فربما كانت الاتجاهات قد تغيرت.

يجب هنا الانتباه لأسلوبين في التحليل: الأول وهو الاستقراء وهو الانتباه للعلاقات بين التفاصيل لاستنتاج القاعدة العامة. والثاني هو الاستنباط وهو القيام بتحليل القواعد العامة لاستنتاج التفاصيل.

وفي التحليل السياسي فأنت تستخدم الأسلوبين: ففي حالة الاستقراء فأنت تقوم بوضع المعلومات على خط الزمن وتنتبه للاتجاه الذي تشكله هذه المعلومات. ثم تقوم بمد هذا الاتجاه لاستنتاج المستقبل. وهذا بالضبط ما حدث في الفصل ٢٨ (المسلمون والمستقبل). فقد تم وضع الإنجازات في العالم الإسلامي على خط الزمن وتم الانتباه إلى أن هناك تصاعدا تعاظميا في الوعي والنهضة عند المسلمين.

وكذلك فأنت تستخدم الأسلوب الثاني فأنت تقوم بالانتباه إلى القوى الديناميكية في الدولة وتضاربها لاستنباط الأحداث السياسية القادمة.

وحيث إن المعلومات التفصيلية في عالم السياسة كثيرة وضحلة ومتضاربة فإنه قد يكون من الأسهل الابتداء بالاستنباط لتحديد الإطار العام ثم ترتيب المعلومات لاستقرائها.

دعونا نضع المثال التالي:

من دراسة تاريخ حركة فتح خلال العشرين سنة الماضية فإننا نستطيع أن نستنتج أن الاتجاه العام للاستراتيجية عندهم هو المسالمة والتعاون والتواصل مع العدو الإسرائيلي للخروج بأفضل الصفقات السياسية الممكنة.

[انتبه هنا.... النية الطيبة (إن كانت صادقة!!!) فإنها لم ولا ولن تبرر الوسيلة الآثمة.]

هذه الاستراتيجية قد تم استنتاجها بعد وضع تصرفات قادة حركة فتح على خط الزمن خلال السنوات الماضية والانتباه إلى اتجاهات هذا الخط.

ولكن انتبه..... ليست جميع تصرفات قادة فتح منسجمة مع هذه الاستراتيجية وإنما توجد بعض التصرفات الناشزة عن هذه الاستراتيجية. فهناك بعض المواقف والتي يخرج فيها قادة فتح بتصريحات نارية شديدة اللهجة تجاه إسرائيل.

الآن.... هذه التصرفات الناشزة لا يتم اعتمادها لتفسير الواقع السياسي الحقيقي لحركة فتح. وإنما يتم النظر إليها لمعرفة دلالاتها قدر الإمكان. فصدور تصريحات نارية ربما بسبب تنفيس بعض الاحتقان الداخلي في حركة فتح، أو ربما يكون هناك تنافس في الانتخابات فتكون التصريحات النارية أسلوب جذب للأصوات.. إلخ.

النقطة هنا أن المعلومات الناشزة لا يجوز إهمالها وإنما من الضروري تصنيفها والنظر في دلالاتها قدر الإمكان. ولكن هذه المعلومات الناشزة لا تؤثر في البحث المتعلق بالسياسة الحقيقية لحركة فتح.

ولكن إذا ظهرت عن حركة فتح معلومات ناشزة متكررة بشكل خارج عن المعقول فإن هذا قد يكون إشارة إلى أنه ربما يكون هناك تغيير نوعي في استراتيجية الحركة. وعندها فإن المحلل السياسي يجب أن يراقب بدقة الأحداث ليتأكد إن كان هناك تغيير في الاتجاه أو أن الاتجاه لم يتغير.

الفقرات السابقة كانت تتعلق بتصنيف المعلومات. ولكن ما المقصود بترتيب المعلومات حسب ثباتها؟؟

المعلومات الثابتة هي المعلومات التي لا يوجد خلاف في حدوثها وإن كان هناك خلاف في تفسير دلالاتها. وفي عالم السياسة توجد معلومات ثابتة ومعلومات ظنية ومعلومات مشكوك فيها ومعلومات كاذبة ..إلخ.

ما هي أثبت المعلومات في عالم السياسة؟

أثبت المعلومات في عالم السياسة هي المواقف الفعلية والرسمية للدولة.

ولكن انتبه...... المواقف الفعلية والرسمية للدولة لا تعبر بالضرورة عن السياسة الحقيقية للدولة ولكنها معلومات ثابتة بمعنى أنه لا يوجد خلاف في حدوثها ولكن ربما يوجد خلاف في تفسير دلالاتها.

ما المقصود بالمواقف الفعلية والرسمية؟

المواقف الفعلية كقيام الدولة بحشد الجيش وتحريك البارجات وإعلان الحرب وقطع العلاقات..إلخ.

والمواقف الرسمية هي التصريحات المأذون بها في الدولة أو التي أعلنها أحد كبار المسئولين ولم يتم انكارها من الدولة. ومثال المواقف الرسمية هو تصريحات رئيس الدولة أو الوزراء أو المتحدثين الرسميين أو كبار ضباط الجيش..إلخ.

هذه نقطة مهمة فقيام وزير الخارجية بتصريح للإعلام هو موقف رسمي ولكن قيام بعض الجرائد بذكر عبارة قالها هذا الوزير في حفلة هو موقف غير رسمي. وكذلك فعندما يخرج هذا الوزير من منصبه فإن مقولاته للإعلام هي مواقف غير رسمية.

وضمن ترتيب ثبات المعلومات فإن المواقف الفعلية هي أثبت من المواقف الرسمية. والمواقف الرسمية أثبت من المواقف غير الرسمية. وأقوال رؤساء دول سابقين أثبت من أقوال معاونين سابقين وهكذا.

لماذا هو مهم ترتيب المعلومات حسب ثباتها؟؟؟

انتبه للمثال التالي:

جرير: س (مسئول سابق في الدولة) قال في الجريدةالفلانية: كذا وكذا وهذا إثبات أن هذا التحليل السياسي صحيح.

زيد: ولكن ص (مسئول سابق في نفس الدولة) قال في جريدة أخرى: كذا وكذا وهذا إثبات أن هذا التحليل خاطئ.

المثال السابق هو وصف لكثير من النقاشات السياسية التي تحدث بين الناس. فالأول عنده فكرة ويقوم بإثباتها بتصريحات وأقوال لخبراء ويقوم الثاني بدحضها بتصريحات وأقوال لخبراء آخرين مكافئين.

وهذه فوضى في النقاشات والتحليلات. فقيام البعض بإثبات أفكارهم بتصريحات بعض المسئولين يكون غير مجدٍ إذا كانت هناك تصريحات مضادة ومكافئة لمسئولين آخرين.

والقيام بترتيب المعلومات حسب ثباتها ثم تصنيفها من حيث موافقتها للإطار العام أو نشوزها قد يساعد على الخروج من هذه الفوضى في النقاش.

الملحق الرابع - تحليلات سياسية ٢٠١١

تم الانتهاء من تأليف هذا الكتاب في ١٥-٢-٢٠١٠. وتم الاتفاق على طباعته في ٢٠-٣-٢٠١١. وبين الزمنين ظهرت أحداث كان أهمها انتفاضات تونس ومصر. فكان من المناسب وضع ملحق إضافي يتحدث عن ديناميكية هذه الانتفاضات وعن بعض الأمور الأخرى التي انتبه لها المؤلف.

هذا الملحق يتضمن العناوين التالية:

* الأحداث في تونس ومصر
* الجيش في تونس ومصر
* قناة الجزيرة وأحداث تونس ومصر
* إيران وأمريكا
* إيران وخطر الانتفاضة
* إسرائيل وأمريكا
* أمريكا وأوروبا وكيد الإنجليز
* ثورة ليبيا - هنا دعوة إلى الاحتراف في العمل الاستراتيجي
* إيران وأحداث مصر والمستقبل

❊ الأحداث في تونس ومصر

رجوعا إلى الفصل ٢٨ من هذا الكتاب (المسلمون والمستقبل) فإن المؤلف لم يتوقع أبدا ما حدث في تونس ومصر ولم يكن أحد ليتوقع ما حدث في تونس ومصر. ولكن الذي كان المؤلف يتوقعه وبشكل واضح هو أن نهضة الأمة ووعيها في الفترة الخامسة (٢٠٠٧-٢٠١٧) سيتضاعف مقارنة بالفترة الرابعة (١٩٩٧-٢٠٠٧).

دعونا نسترجع الموضوع مرة أخرى. ما الذي جعل المؤلف يستنتج أن الفترة الخامسة ستكون أضعاف أضعاف الفترة الرابعة. هذا الاستنتاج جاء نتيجة لعملية آلية في التحليل. فتحليل واقع المسلمين من عام ١٩٦٧ إلى الآن ووضع الخط البياني لهذا الواقع سمح بمد هذا الخط إلى المستقبل ومعرفة الاتجاهات (Trends) المتوقعة له. ودل التحليل منذ عام ١٩٦٧ إلى الآن إلى تعاظم الوعي والنهوض عند المسلمين وبشكل تعاظمي وليس حسابياً.

ويمد الخط البياني لهذا التحليل فإن الاستنتاج سيكون أن النهضة في الفترة الخامسة عند المسلمين ستكون أضعاف أضعاف ما حصل في الفترة الرابعة.

إن ما سبق هو تحليل ديناميكي يقوم بالنظر إلى القوى المختلفة في المجتمع ويستنتج اتجاه التطورات فيه. وأما التفاصيل المتعلقة بهذا الاتجاه فهي تعتمد بشكل كبير على الظروف. مثال ذلك هو سد الماء، فعندما تحدث ثغرة في السد فإن الاستنتاج الطبيعي هو أن الماء سينهمر إلى الوادي ولكن المسار الذي سيتخذه الماء في النزول يعتمد وبشكل كبير على تضاريس الأرض.

وكذلك دراسة الديناميكية، فهي تعطيك فكرة عن الاتجاه الممكن ولكنها لا تعطيك فكرة كافية عن الكيفية التي سيتحقق فيها هذا الاتجاه.

ما الذي حدث في تونس ومصر؟؟

باختصار فإنه كان هناك احتقان شديد نتيجة لتصرفات وسلوكيات الأنظمة الحاكمة بالإضافة إلى تطور تكنولوجيا الاتصال مما سهل عمليات التنسيق بين الاتجاهات المعارضة. وساعدت الظروف السياسية الحالية والتي أصبح فيها الغرب يتزايد ويتفاخر بحقوق الإنسان على عدم قدرته (الغرب) على مساندة العنف ضد المتظاهرين.

وما فعله محمد بوعزيزي في تونس كان شرارة كافية لإشعال الثورة في تونس. وكان النجاح غير المتوقع في تونس كافيًا لإشعال الثورة في مصر. وكان النجاح في مصر كافيًا لإشعال الثورات في بقية الدول الأخرى ذات الاحتقان الكبير.

الآن..... أين موقع أمريكا وأوروبا مما حدث في تونس ومصر؟ وهل تنبأ الغرب بهذه الأحداث؟

من النادر القدرة على خلق الديناميكية وإنما من المكن التنبؤ بوجود هذه الديناميكية ويكون الذكاء بالقدرة على تنفيس هذه الديناميكية أو استغلالها أو توجيهها.

وعلى غلبة الظن فإن إنجلترا وأمريكا كانتا على علم بأن العالم العربي على درجة عالية من الاحتقان. وعلى غلبة الظن فإن الإنجليز قد ساهموا وبشكل فعال في إنشاء قناة الجزيرة. وكان أحد أهدافهم هو إجبار الأنظمة العربية على التنازل قليلا عن سطوتهم لمصلحة الشعوب استدراكا للانفجار المتوقع (راجع الملحق الأول).

ولكن هذه المخططات الغربية قد تلاشت فعاليتها بسبب حرب العراق وأفغانستان وحماقات أمريكا وإنجلترا الاستراتيجية. فشدة الغطرسة و الظلم الذي حاق بالعراق وأفغانستان وفلسطين قد أدى إلى امتعاض حقيقي في العالم العربي مما أدى إلى قيام الغرب بغض الطرف عن الأنظمة العربية الحليفة لاستخدام البطش وهذا أدى إلى زيادة الاحتقان عند الأمة.

وعلى أية حال فإن الظاهر أن أمريكا كان عندها مخططها الخاص بمصر. والظاهر أن أمريكا لم تستطع أن تفرض التغيير على نظام حسني مبارك. ومن الممكن الاستنتاج أن أمريكا وجدت أنه لا مصلحة لها بمعاداة حسني مبارك وهو على مسافة خطوتين من القبر (مبارك كان في الثمانين من العمر ومصاب بالكثير من الأمراض) فكان أفضل الحلول المتوفرة هو دعم الأحزاب المعارضة بشكل غير رسمي والانتظار حتى وفاة حسني مبارك. وعندها فإن المتوقع أن يقوم الحزب الحاكم ورجال الأعمال المتنفذين بتعيين جمال مبارك والذي هو غير مرغوب فيه من الجيش. ولهذا فإنه من الممكن الاستنتاج أن تحالف الأحزاب المعارضة مع الجيش سيؤدي إلى ثورة هادئة يتم فيها خلع جمال مبارك ووضع شخصية أخرى مقبولة من أحزاب المعارضة ومن الجيش. وتستطيع أمريكا أن تضمن اتجاه هذه الشخصية بسبب علاقاتها الجيدة مع أحزاب المعارضة وعلاقاتها الجيدة مع الجيش.

ولكن الذي ضرب مخططات أمريكا في الصميم هو أن الثورة في مصر قد حدثت قبل وفاة حسني مبارك. وأنه لا توجد قيادة مركزية لهذه الثورة وأن هذه الثورة خارجة تماما عن إطار أحزاب المعارضة في مصر.

وقد قال الله تعالى: ﴿...وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال].

إن ما حدث في تونس كان مفاجأة لأوروبا وأمريكا. واستمرت المظاهرات في تونس مدة ثلاثة وعشرين يوما وقامت أمريكا بتأييد مطالب الناس فقط في الساعات الأخيرة من هروب بن على من تونس. وقامت فرنسا بخطأ دبلوماسي فاحش بقيامها بالإعلان عن استعدادها لمساندة نظام بن على بالمعدات والأنظمة الأمنية لمواجهة المظاهرات. وهذا يعطي الدلالة على أن الثورة في تونس لم تكن متوقعة وأن عواقب الثورة لم تكن محسوبة.

إن الانتفاضة التي حدثت في تونس وتسارع أحداثها كانت أكبر وأسرع من قدرة العقول على فهمها ومحاولة استدراكها. وعندما أدى النجاح غير المسبوق في تونس إلى الثورة في مصر فإن موقف أمريكا كان واضحا ومنطقيا: وقف الاشتعال وإطفاء الحريق وإنقاذ ما يمكن إنقاذه من نفوذ سياسي في هذا البلد. ولقد أدركت أمريكا أن العنف في تونس قد أدى إلى زيادة الاشتعال فكان هدف أمريكا في مصر هو منع العنف وإطفاء الحريق بأقل قدر ممكن من الخسائر السياسية.

ولهذا السبب فإن أمريكا منذ الساعات الأولى من الثورة قد طلبت وبشكل واضح من النظام بضرورة قيام حسني مبارك بتسليم سلطاته إلى عمر سليمان وأن يتوارى إلى الظل.

ولكن حماقات حسني مبارك ومعاونيه والإفلاس الإداري للمؤسسات قد زاد من اشتعال الثورة والذي أدى إلى زيادة سقف المطالبات الشعبية.

وهذا أدى في النهاية إلى سقوط حسني مبارك وعمر سليمان معا وأعوانهما من السلطة وهذا (على غلبة ظن المؤلف) سيؤدي إلى فقدان أمريكا للكثير من نفوذها في هذا البلد.

الآن..... إن ما حدث في تونس ومصر وغيرها من البلاد الإسلامية ليس هو النهاية ولا هو بداية النهاية نحو العلياء وإنما هي خطوة في ذلك الاتجاه. ومهما كانت نتائج الثورة من إيجابيات وسلبيات ومهما كانت قدرة القوى المختلفة لسرقة منجزات الثورة أو تغيير لاتجاهها فإن هذه السرقة وهذا التغيير لن يؤثر (بل ربما يحفز) الأمة الإسلامية على المثابرة للوصول إلى العلياء. والعالم الإسلامي منذ احتلال القدس عام ١٩٦٧ يتحرك بخطوات متلاحقة نحو العلياء وما حدث في تونس ومصر هو أحد هذه الخطوات ولكنها هذه المرة كانت خطوة نوعية وبامتياز.

توجد هنا نقطة من الضروري الانتباه لها:

لو أن شباب الثورة المصرية استسهلوا الأمر وقاموا بالحوار مع نظام حسني مبارك فإن الذي كان سيحدث هو نفسه الذي حدث قبل حوالي ستين عاما. ففي ٢٨-٢-١٩٥٤ قام الإخوان المسلمون والشعب المصري بالانتفاضة لإنهاء الحكم العسكري والمطالبة بالحياة المدنية. وكانت تلك الانتفاضة ضخمة وبكل ما تحمله كلمة ضخمة من معنى. وكاد قادة الحكم العسكري أن يتنحوا وذلك لأن شدة المظاهرات وقتها كانت كافية لجذب قطاعات ضخمة من الجيش لها. ولكن استطاع عبد الناصر بدماثة الحديث وجزالة الوعود إقناع محمد نجيب وقادة الإخوان بالهدوء. وما هي إلا ستة أشهر حتى سقط محمد نجيب وسقطت قيادات الإخوان ودخلت مصر إلى دوامة الحكم العسكري المطلق.

النقطة هنا أنه إذا تحددت معالم الطريق الاستراتيجي فإنه من الخطأ الفاحش والشديد القيام بالخروج عن هذا الطريق من أجل قسوة الظروف أو مشقات الطريق أو من أجل مصلحة آنية ظهرت في طريق آخر.

وأما التحدي والمهارة والذكاء فيكون بمحاولة تجاوز قسوة الظروف ومعالجة مشقات الطريق ولكن دون الخروج عن الطريق الاستراتيجي.

إن هذا العناد الشديد الذي تحلى به شباب الثورة المصرية هو نفسه متطلبات العمل الاستراتيجي وهو نفسه الأساس للذكاء الاستراتيجي. أما من ليس له طريق استراتيجي أو من كانت عادته الخروج عن الطريق الاستراتيجي بسبب المشقات أو المصالح الآنية فإن عمله هذا ليس عملا استراتيجيا وإنما عمل فوضوي ولن يكون عواقبه إلا الندم.

وهذه النقطة سيتم بحثها مجددا في مقالة لاحقة (ثورة ليبيا).

❖ الجيش في تونس ومصر

لماذا لم يقم الجيش في تونس ومصر بإطلاق النار على المتظاهرين؟

وهل كان من الممكن أن يقوم الجيش في تونس ومصر بإطلاق النار على المتظاهرين؟

كما تم تبيانه في مقالة سابقة فإن الأنظمة الحاكمة (وإن كانت فاسدة) تبني جيشها على نظافة اليد. وذلك لأنه لو انغمس الجيش في الفساد فإنه من السهل على بعض الجهات القيام بشراء الجيش لحسابها والانقلاب على النظام.

ولهذا السبب فإن الجيش في معظم الأنظمة الحاكمة يتربى على نظافة اليد. وأما الفساد فهو يتعلق بجهاز الشرطة ومباحث أمن الدولة.

وكذلك فإن التربية والإعداد في الجيش تقوم على بث روح التضحية في الجنود وضرورة المحافظة على الوطن بعكس التربية في الشرطة والمخابرات والتي يتم فيها الحث على ضرورة المحافظة على النظام.

وللاختلاف في التربية والإعداد فإنه كان من السهل على أجهزة الشرطة القيام بإطلاق النار على المتظاهرين بعكس الجيش.

ولكن لنفترض جدلا أن قادة الجيش قد أمروا الجنود بإطلاق النار على المتظاهرين. ما الذي كان سيحدث؟؟

إن الذي كان سيحدث هو خلق بيئة خصبة وذريعة أدبية ووطنية لضباط الجيش ذوي الرتب المتوسطة للقيام بالانقلاب على النظام وإحالة الضباط ذوي الرتب العالية إلى التقاعد والمحاكمة.

وقد قيل إن أحد الأسباب التي فرضت على كنعان إفيرين القيام بالانقلاب في تركيا عام ١٩٨٠ هو خوفه من قيام الضباط الصغار في تركيا بهذا الانقلاب بعد أن تردت الأوضاع في تركيا إلى حد الفوضى والانهيار.

وبالطبع فإن التحليل السابق ينطبق على الأنظمة الدستورية ولا ينطبق على الأنظمة العقائدية (كنظام حزب البعث سابقا في العراق). وضمن أنظمة الحكم العقائدية فإن الجيش يتم تربيته ليس لحماية الوطن وإنما لحماية عقيدة النظام. ولهذا فإنه من المتوقع في مثل هذه الأنظمة أن تقوم بعض وحدات الجيش بإطلاق النار على المتظاهرين. وهذا ما حدث في ليبيا. ولكن قسوة وحماقة القذافي واستمرار المظاهرات وسهولة نقل الأخبار وشدة الاستنكارات العالمية قد أدت لقيام الكثير من وحدات الجيش بالتخلي عن القذافي وتأييد الثورة في ليبيا.

❖ قناة الجزيرة وأحداث تونس ومصر

في تحليل سابق عن الجزيرة (الملحق الأول من هذا الكتاب) فقد تم الادعاء أن إنشاء قناة الجزيرة كان بإشراف الإنجليز لأهداف متعددة أهمها هو إجبار الأنظمة العربية على التنازل قليلا عن ثروتهم وصلاحياتهم لمصلحة الشعوب وذلك لاستدراك انفجار هذه الشعوب.

والسؤال الآن: هل التغطية التي قامت بها الجزيرة لأحداث تونس ومصر هو من مصلحة الإنجليز وضمن مخططاتهم؟

والجواب هو بالطبع لا. فضمن تخمين المؤلف فإن التغطية التي قامت بها الجزيرة لأحداث تونس ومصر ما كان ليرضى عنها الإنجليز أو الأمريكان. فهذه التغطية قد أدت إلى شحن النفوس وساعدت على نشر بذور الثورة إلى الكثير من بلاد العرب والمسلمين. بل إن هناك إمكانية أن يستلهم الأوروبيون والأمريكيون الثورة المصرية لعمل ثورة مشابهة لها في سبيل تحسين ظروف المعيشة لهم.

هل يوجد هنا تناقض في الآراء؟؟

لا يوجد تناقض. فهذه ليست المرة الأولى التي تمشي فيها السفن بعكس رغبة مالكيها.

دعونا نبدأ من البداية. ما هي علاقة دولة قطر مع الإنجليز؟؟

العلاقة بين قطر والإنجليز هي علاقة متميزة منذ إعلان الاستقلال عن الإنجليز وحتى الآن. ولا توجد أي اشارة إلى أن العلاقة بين قطر وإنجلترا قد تغيرت أو تكدرت. ولكن هناك أمرين يجب الانتباه لهما: تصاعد المهارة والنفوذ القطري في المجال الدبلوماسي، والثاني هو بداية الانكفاء الإنجليزي في المجال الدبلوماسي.

لندخل إلى التفاصيل:

شعرت قطر في أواسط التسعينيات بتهديد لوجودها من جهة السعودية والبحرين. وكانت الطريقة التي واجهت بها قطر هذه التهديدات هو بالخروج عن إطار الخجل. فقد قامت قطر (وهي دولة في الجزيرة العربية) بعمل علاقات دبلوماسية واضحة مع العدو الإسرائيلي. كما أنها قامت بعمل تسهيلات واسعة للجيش الأمريكي انتهت بعمل قاعدة عسكرية أمريكية في قطر.

وكذلك فقد تم خلق قناة الجزيرة وجاء الكثير من الإداريين والإعلاميين من الـ BBC لإدارة هذه القناة. وكانت هذه القناة ذات جرأة لم يعهدها العالم العربي. وهذا أدى إلى شدة الانتقادات الحكومية العربية للنظام الحاكم في قطر ولكن النظام الحاكم في قطر لم يعبأ بهذه الانتقادات.

ولقد قيل إن الحاجة أم الاختراع. وما حدث في قطر يتماشى مع هذا القول. فإن الشعور بالتهديد من الجيران، والرغبة في إثبات الوجود، ووجود قناة تلفزيونية محترفة وجريئة في الدولة، كل هذا أدى إلى تصاعد في المهارات الدبلوماسية في وزارة الخارجية القطرية وصل إلى مستويات عالية. وإن قدرة وزارة الخارجية على عمل وساطات معقدة ذات تفاصيل دقيقة هو أفضل القرائن على مستوى هذه المهارات.

وهنا ملاحظة مهمة: وهي أن دولة قطر ونظام الحكم فيها وثقافة الأعمال والتجارة لم تتجدد ولم تتغير وإنما الذي حدث هو أن وزارة الخارجية قد تملكت مهارات عالية. وأما باقي الدوائر في قطر فهي لم تتغير. وضمن ملاحظات المؤلف فإن سلوكيات التجارة وثقافة الأعمال وخدمات المعاملات في قطر أضعف بكثير مما هو عليه في جارتها دبي.

الآن.... إن المهارات العالية التي ملكتها قطر في المجال الدبلوماسي قد سمح لقطر بالدخول إلى المنطقة الرمادية بين الأقطاب المتصارعة في المنطقة. فهذه المهارات قد سمح لقطر أن يكون لها علاقات متميزة مع إيران دون أن يؤثر ذلك على علاقاتها مع أمريكا وإنجلترا.

وليس من السهل أبدا المناورة في داخل المنطقة الرمادية ولكن الذي عنده مهارة المناورة في هذه المنطقة فسوف يجد جميع الأقطاب المتصارعة تسعى لكسب حياده.

وهذا معناه أن دولة قطر قد استطاعت الوصول إلى درجة من التوازن في علاقاتها مع الأقطاب المتصارعة بحيث لا تستطيع أي دولة أن تقوم بالضغط عليها. وأفضل مثال على ذلك هو الزيارة التي قام بها أمير قطر إلى إيران في ٢٠-١٢-٢٠١٠ وتم الإعلان يومها عن توجه ٣ بارجات حربية إيرانية إلى قطرلتفقد المنشآت العسكرية فيها. وكأن ما حدث هو تأكيد وضع قطر في المنطقة الرمادية بين الأقطاب المتصارعة.

وأما النقطة الثاني وهي بداية انكفاء الدبلوماسية الإنجليزية فهذه قصة أخرى. فكما تم الحديث عنه في مقالات سابقة فقد كان هناك تنافس شديد بين إنجلترا وأمريكا

في الموارد والنفوذ في الشرق الأوسط منذ أول الخمسينيات من القرن الماضي. وفي أول الثمانينيات تم الوصول إلى توافق بين الإنجليز والأمريكان في هذه المنطقة. وكان من نتائج هذا التوافق تضافر الجهود لإنهاء الاتحاد السوفييتي والانتصار في الحرب الباردة.

وكانت إنجلترا وقتها تعيش في عصرها الذهبي الثاني وقد وصلت إنجلترا إلى قمة المجد عام ٢٠٠٠ حيث إنه لم يكن يحدث شيء في العالم إلا وكان لإنجلترا رأي فيه ولم تكن تحدث صفقة في العالم إلا وكان لإنجلترا حصة فيها.

وعلى أية حال فإنه من بداية عام ٢٠٠٦ وإنجلترا في انحدار مستمر. وسبب ذلك هو الفشل الذريع لها في العراق وأفغانستان وما تسبب إليه هذا الفشل في انحدار لمصداقيتها أمام شعبها وأمام العالم، وما ظهر إلى العيان من اخفاقات أخلاقية وحضارية وما تلاه من أزمة اقتصادية خانقة، ونفور الأقطاب المختلفة (أمريكا وروسيا وإيران والصين وألمانيا و ....) منها.

ولهذا السبب فإن إنجلترا الآن منشغلة بتضميد جراحها وإرجاع المصداقية الأخلاقية لها أمام العالم.

وفي هذه الحالة فإن إنجلترا ليست في وضع يسمح لها أن تقوم بالضغط الشديد على قطر في أي أمر خصوصا وأن قطر قد استطاعت التمركز داخل المنطقة الرمادية.

وبناء على التحليل السابق فإنه ما زالت لإنجلترا الكلمة المسموعة داخل قطر ولكنها لم تعد الكلمة الوحيدة.

ما سبق كان يتحدث عن العلاقة بين قطر وإنجلترا. وأما العلاقة بين حكومة قطر وقناة الجزيرة فهي بحاجة إلى توضيح:

هناك ثلاث قوى ديناميكية تؤثر على قناة الجزيرة:

١- دافعية الاحتراف.

٢- ديناميكية الإسلام .

٣- دافعية المصداقية.

دافعية الاحتراف:

كما تم الحديث عنه في مقالة سابقة فإن الجماعة عندما يصل أعضاؤها إلى درجة الاحتراف فإن هذا يدفع الجماعة وبشكل غريزي ودون وعي إلى السعي نحو الإتقان.

ولكن دعونا نضع النقطة السابقة بواقعية: من الممكن شراء المحترفين والضغط عليهم كي يتنازلوا أو يغضوا الطرف. ولكن هذا التنازل يبقى ضمن حدود معينة وضمن تبريرات كافية. وخارج هذه الحدود فإن دافعية الاحتراف ستدفع هؤلاء المحترفين إلى التمرد.

وكذلك الأمر في موضوع قناة الجزيرة. فإن الأجهزة الإدارية والإعلامية في هذه القناة قد وصلت إلى درجة عالية من الاحتراف. وليس من السهل على إدارة الجزيرة أن تفرض على إدارييها وإعلامييها أمرا خارجا تماما عن حدود الاحتراف. أي أنه إذا طلبت إدارة الجزيرة من إعلامييها غض الطرف عن الأحداث في تونس ومصر فإنه على غالب الظن سيؤدي هذا الأمر إلى تمرد واستقالات في القناة.

في المقابل فإن دافعية الاحتراف قد تم تقليصها ضمن حدود معقولة في بعض الأحداث. ففي يوم الجمعة ١٨-٢-٢٠١١ قامت القوات المسلحة البحرينية بإطلاق الذخيرة الحية على المتظاهرين في دوار اللؤلؤة. وقد قامت قناة العالم الإيرانية والمنار اللبنانية وقناة Press TV الإيرانية بتغطية كاملة لهذه الأحداث في حين لم تقم الجزيرة بتغطية هذه الأحداث إلا بكلمات قصيرة أسفل الشاشة.

وهذه نقطة الانتباه وهي أن دافعية الاحتراف معرضة للتمدد أو التقلص ولكن ضمن حدود معينة وأما خارج هذه الحدود فإن دافعية الاحتراف ستدفع إلى التمرد.

ديناميكية الإسلام:

كان هناك توجه في إدارة الجزيرة بتقوية الجناح الإسلامي المعتدل عنده. وهناك أسباب كثيرة لهذا التوجه أحدها أن الكثير من الناس في المجتمعات العربية يتجهون نحو الإسلام فكان من المنطق وضع شخصيات إسلامية وبرامج إسلامية في قناة الجزيرة لكسب هؤلاء الناس.

وفي المقابل فإن إدارة الجزيرة استنتجت (أو ظنت) أن الإسلاميين المعتدلين قابلون للترويض. وهذا الاستنتاج ليس مستغربا إذا نظرنا إلى مبادئ وسلوكيات وتصرفات الإسلاميين المعتدلين مع أنظمة الحكم المختلفة في العالم العربي. فكان القرار الاستراتيجي في إدارة الجزيرة القيام بتقوية الجناح الإسلامي المعتدل عندها.

ولكن للإسلام ديناميكية خاصة، وأي مجموعة إسلامية (أصولية أو معتدلة) فإنه سيكون عندهم مطالبات مستمرة (وبشكل علني أو ضمني) بضرورة أسلمة الواقع المحيط بهم.

وهذا الذي يحدث في الجزيرة الآن. فإن أسلمة الأجهزة الإدارية والإعلامية في الجزيرة تتقدم على قدم وساق، وهذا ليس بسبب خطط واستراتيجيات متعمدة أو واعية وإنما بسبب ديناميكية الإسلام .

دافعية المصداقية:

توجد هذه المعادلة البسيطة والواضحة: لكي يبقى نفوذ قطر الدبلوماسي عاليا فيجب أن تبقى قناة الجزيرة ذات مصداقية مقبولة. ولهذا السبب فإن المحافظة على الحد الأدنى من المصداقية هو هدف استراتيجي لدولة قطر، إذ إنه من السهل أن تبنى المصداقية ولكن إذا سقطت هذه المصداقية فإنه من الصعب جدا إعادة بنائها مرة أخرى.

وبسبب هذه القوى الديناميكية وبسبب تمركز قطر في المنطقة الرمادية فلم يكن باستطاعة إنجلترا أوغيرها الضغط على قطر أو على قناة الجزيرة في طريقة تغطيتها لأحداث تونس ومصر.

ولكن هنا يجب التنبيه لأمر وهو أن المصداقية عند الجزيرة ليست هي الغاية وإنما الوسيلة. وأما الغاية في الجزيرة فهي الوصول إلى قلوب الملايين من الأمة. وهناك فرق شاسع لمن تكون المصداقية عنده هي إحدى الغايات ومن تكون المصداقية عنده هي إحدى الوسائل. وبالإضافة إلى المصداقية (كوسيلة) فقد قامت الجزيرة باستخدام استراتيجيات تسويقية مبدعة للوصول إلى قلوب الملايين بما فيها بعض السلوكيات والتصرفات غير اللبقة والتي درج الإعلاميون على استخدامها مع الضيوف بطريقة تجعل المشاهد والمستمع راضيا ومسرورا عن البرامج الإعلامية في القناة. وضمن وجهة نظر المؤلف فإن هذه الاستراتيجية هي غير مهنية على الإطلاق.

ومع الإقرار بالمستوى العالي من الاحتراف عند الجزيرة إلا أنه يجب النظر إليها بحذر، ووجود بصمات الإنجليز في نشأتها كافيًا تماما لتبرير هذا الحذر.

❖ إيران وأمريكا

لنتنبه إلى الأمور التالية:

١- لم يعد باستطاعة أمريكا وإنجلترا فرض إرادتهما على الآخرين باستخدام القوة المسلحة. وذلك لأن القوة المسلحة عند إيران (وغيرها من البلدان) قد تضاعفت. كما أن الأزمة الاقتصادية الحالية في الغرب تمنعهما من القيام بالمغامرات العسكرية.

٢- لم يعد باستطاعة أمريكا وإنجلترا فرض إرادتهما على الآخرين باستخدام المخابرات والقوات الخاصة. وذلك لأن أجهزة المخابرات في إيران (وغيرها من البلدان) قد ازدادت مهاراتها. وربما نقول إن المخابرات الإنجليزية ما زالت متفوقة على غيرها ولكن الفجوة في المهارة والإمكانيات بينها وبين غيرها في تناقص مستمر.

٣- لم يعد باستطاعة أمريكا وإنجلترا فرض إرادتهما على الآخرين باستخدام الرشوة والتسهيلات المالية والدعم الاقتصادي حيث إن الأزمة الاقتصادية الخانقة الحالية قد جففت الكثير من الموارد المالية عندهما.

ولهذا السبب فإن المواجهة الآن بين إيران (ومعها روسيا والصين) وبين أمريكا وإنجلترا هي مواجهة دبلوماسية. وفي الميدان الدبلوماسي فإن أدوات المواجهة هي الأخلاق والقانون والمصداقية. وفي هذه المواجهة فإن أمريكا وإنجلترا تخسر.

دعونا نتعمق في هذا الموضوع:

عندما تحدث مواجهة دبلوماسية بين طرفين فما الذي يريده كل منهم؟

الغاية من المواجهة الدبلوماسية هو جمع الأحلاف والأصدقاء نحو طرف وفض الأحلاف والأصدقاء عن الطرف الآخر. والطريقة التي يتم استخدامها في هذه المواجهة هي التدليل والتذكير بأخلاقية وشرعية ومصداقية وسلوكيات الطرف الأول وعدم أخلاقية وعدم شرعية وعدم مصداقية وسوء سلوكيات الطرف الثاني.

وفي هذه المواجهة فإن أمريكا وإنجلترا تخسران. فأمريكا وإنجلترا ومنذ عشرات السنين تقوم بازدواجية في المعايير وتزييف للحقائق. وليس من السهل أبدا على أي دولة أن تقوم بإعادة بناء المصداقية الأخلاقية لها أمام العالم بعد أن سقطت، إذ إن إعادة البناء بحاجة إلى جهود متواصلة وسنوات عدة.

وهنا الملاحظة: فالمواجهة بين إيران والغرب هي مواجهة دبلوماسية. حيث تقوم إيران بإثارة ملفات أخلاقية وشرعية واضحة تماما ولكنها تعلم كذلك أن أمريكا (والغرب) غير قادرين على معالجتها الآن. فملف القضية الفلسطينية، وملف القدس، وملف الأسلحة النووية عند إسرائيل، وملف الأسلحة النووية في الغرب، وملف الاقتصاد العالمي وملفات أخرى كثيرة هي ملفات ومطالبات أخلاقية وذات شرعية دولية لا شك فيها ولكن إيران تعلم تماما أن أمريكا غير قادرة على المجاراة في هذه الملفات.

وهنا نأتي إلى الاستراتيجية الإيرانية. فإيران تريد ودون شك التهدئة ولكنها لا تريد عمل اتفاق مع أمريكا. والهدف واضح وهو الاستمرارية في استنزاف أمريكا.

بمعنى آخر فإن إيران تريد أن يبقى مركز انتباه أمريكا مصروفا لحل مشاكلها

الخارجية بعيدا عن مشاكلها الداخلية. وهذا يؤدي إلى تفاقم مشاكل أمريكا الداخلية وتفاقم الشقاقات الداخلية وتفاقم الصراعات الداخلية. وهذا سيؤدي إلى استنزاف مستمر للموارد والطاقات الأمريكية.

وهذه هي استراتيجية إيران تجاه أمريكا. فإيران لا تريد عمل مواجهة بينها وبين أمريكا تؤدي إلى قيام أمريكا برد حازم وشديد تجاه إيران. وفي المقابل فإن إيران لا تريد وقف النزيف والصداع الأمريكي.

وأحد القرائن لهذه الاستراتيجية هي عدم رضوخ إيران لمطالبات أوروبا في قمة إسطنبول (يناير ٢٠١١) لعقد اجتماع منفرد مع المسئول الأمريكي:

"وأوضح ظهروند أن المفاوض الإيراني سعيد جليلي أمين عام المجلس الأعلى للأمن القومي الإيراني تحفظ على اقتراح تقدمت به اشتون لعقد لقاء بينه وبين رئيس الوفد الأمريكي ويليام بيرنز على هامش اجتماعات إسطنبول، وقال: إن جليلي أبلغ اشتون أنه إذا كان لدى بيرنز مقترح أو مشروع فبإمكانه نقله عبر مجموعة ٥+١" (جريدة الخليج ٢٣-١-٢٠١١).

وباختصار فإن إستراتيجية إيران مع أمريكا هي: نريد تهدئة وليس اتفاقا.

❖ إيران وخطر الانتفاضة

لقد قال كثيرون إن إيران مهددة بانتفاضة شبيهة بانتفاضة تونس ومصر. ولكن في هذا القول علامات استفهام.

دعونا ننظر بتفصيل إلى القوى الديناميكية والتي أدت إلى الثورة في مصر:

١- الكبت الوجداني: وهو قيام النظام الحاكم بأمور وتصرفات خارجة تماما عن وجدان ومبادئ الشعب. ومثال ذلك هو اتفاقيات كامب ديفيد، والسلام مع إسرائيل، والتواطؤ في حرب تموز ٢٠٠٦، والتواطؤ في حرب غزة ٢٠٠٩، وبيع الغاز إلى إسرائيل..إلخ.

٢- الكبت المعنوي. وهو شعور الشعب أنه ليس له قيمة أمام النظام، وأن قيمة الأجنبي الغريب أعلى من قيمته في وطنه، وأنه ليس له قيمة أمام العالم وهذا كله بسبب ممارسات النظام اليومية. وللتدليل على هذا الكبت فإن أحد أهم الشعارات التي تم ترديدها بكثرة بعد نجاح الثورة هو: ارفع رأسك فوق ..... أنت مصري.

٣- الكبت السياسي. وهو شعور الشعب بعدم القدرة على إبداء الرأي أمام النظام بحرية ودون خوف.

٤- الاتهامات بالفساد لرءوس النظام الحاكم.

٥- أزمة اقتصادية خانقة وبطالة عالية.

الآن..... إذا قمنا بعمل مقارنة بين مصر وإيران فسنجد أن ثلاثة من الأسباب السابقة غير متحققة في إيران وسببان فقط متحققان واحد منهم بشكل جزئي:

فإيران ليست مصابة بالكبت الوجداني. فما تقوم به إيران من تطوير للبنية التحتية وعمل البرامج النووية ومناكفة الغرب والدعوة إلى المقاومة تصب في خانة الفخر للكثير من الشعب الإيراني .

وإيران ليست مصابة بالكبت المعنوي. فلا يوجد أية إشارات أن النظام يتعامل مع الأجانب بدرجة أعلى وأفضل من أهل الوطن. كما لا توجد أية إشارات أن العالم ينظر بفوقية إلى الإيراني .

ولا يوجد في إيران أية اتهامات بالفساد للنظام وأركانه. فلا يوجد أي اتهامات بالفساد المالي لأحمدي نجاد أو لخامنئي. كما لا يوجد اتهامات بالتكسب غير المشروع لأقرباء أحمدي نجاد أو أقرباء خامنئي. وكل الاتهامات الموجهة إلى أحمدي نجاد أنه ديكتاتور. في حين أن الاتهامات الموجهة إلى حسني مبارك كانت أنه ديكتاتور ومجرم وفاسد..إلخ.

ولكن من الواضح أنه توجد في إيران أزمة اقتصادية وبطالة عالية ولكنه من الواضح كذلك أن سبب هذه الأزمة هو المواجهة التي بين إيران والغرب وكذلك الحصار المفروض على إيران من الأمم المتحدة. والبطالة وحدها لا تكفي للقيام بالثورة.

ويوجد في إيران كبت سياسي ظاهر وهذا مرده لطبيعة النظام الحاكم، ولكن ممارسات هذا الكبت هي أقل بكثير مما كان يحدث في تونس ومصر.

ولهذا السبب فإنه توجد الاحتمالات التالية في ذهن المؤلف:

١- أن تكون هناك أمور في إيران خارجة عن إدراك المؤلف وتسبب احتقانا كبيرا في إيران ضد النظام الحاكم.

٢- أن تكون الحركة الإصلاحية في إيران والمظاهرات التي تنتج عنها إنما هي بتدبير من النظام الحاكم لمكائد ومناورات محددة. وهذا الاحتمال قد تم تفصيله في مقالة سابقة (الفصل ٧: إيران ومظاهرات عام ٢٠٠٩).

❖ إسرائيل وأمريكا

جميع الأقطاب المتصارعة في أزمة الخليج (أمريكا وإنجلترا وإيران وروسيا والصين) تريد التهدئة. فمن جهة إيران وروسيا والصين فإنهم قد ابتلعوا مصالحا لا يستطيعون هضمها إلا ببعض الوقت:

فإيران قد استطاعت الخروج من هذه الأزمة وقد أصبحت دولة إقليمية مرهوبة الجانب وذات تأثير عالمي بعد أن تم وصفها في القرن الماضي أنها الرجل المريض في الخليج.

وروسيا استطاعت إعادة فرد عضلاتها في أنحاء المعمورة واستطاعت الخروج سالمة من مخاضات تغيير النظام من الشيوعية إلى الرأسمالية.

والصين استطاعت أن تستفيد من انشغال الآخرين لتتربع على صناعة العالم.

في حين أن إنجلترا وأمريكا قد خرجتا من هذه الأزمة بإفلاس أخلاقي وحضاري وغموض الهوية في الداخل وأزمة اقتصادية خانقة. ولهذا السبب فإن إنجلترا وأمريكا بحاجة كذلك إلى التهدئة لتضميد الجروح وإرجاع المصداقية وحل الانشقاقات الداخلية.

وأما أوروبا فإن الأزمة الاقتصادية قد ألحقت بهم الكثير من الأضرار، ووجود تهدئة هو أمر ضروري كي تلتقط أوروبا أنفاسها وتعالج مشاكلها. وكذلك الأمر لباقي بلدان العالم.

ولهذا السبب فإن التهدئة الآن هي مطلب الجميع وإنما الاختلاف هو في شكل التهدئة ومداها وطريقة تعامل الآخرين معها.

ولكن العائق الأساسي أمام المناقشات المتعلقة بهذه التهدئة هو حماقات إسرائيل واستفزازاتها الغبية والمتكررة للمحيط حولها وشدة استخفافها بالقوانين الدولية واللباقة الدبلوماسية. وحيث إن أمريكا قد ارتبطت سياساتها وإعلامها مع إسرائيل فإن حماقات إسرائيل تنعكس سلبا على أمريكا وتؤثر هذه الانعكاسات على مصداقية أمريكا نفسها أثناء الحوار والنقاش في سبيل الوصول إلى التهدئة.

وقد حاولت أمريكا أن تضغط وبشكل حقيقي على إسرائيل كي تتوقف عن حماقاتها ولكن ما أن شعر البيت الأبيض أن الحزب الديمقراطي مهدد بالخسارة في المجالس التشريعية حتى اضطر إلى مجاراة إسرائيل في حماقاتها المتعددة مع ما فيها من انعكاسات سلبية وخيبات أمل وإهانات للبيت الأبيض من إسرائيل.

دعونا الآن ننظر إلى المنطق التالي:

* الجميع يريد التهدئة وأولهم أمريكا.

* إسرائيل تهدد الوصول إلى هذه التهدئة بسبب حماقاتها.

* أمريكا غير قادرة الآن على لجم إسرائيل ووقفها عن غيها.

فما هو الحل؟؟

الحل المحتمل هو أن تقوم أمريكا بتوريط إسرائيل في حرب محدودة (وليست إقليمية) مع حزب الله يكون كافيًا للطمها على وجهها وإشعارها بحجمها الحقيقي ودفعها إلى أحضان أمريكا مرة أخرى.

وهذا الحل سيقبل به (ضمنا) جميع الأقطاب المتصارعة الآن لحاجة الجميع إلى التهدئة.

ومع أن هذا الحل سيرفع أسهم إيران وحزب الله إلى السماء فإنه حل لا خيار لأمريكا عنه وذلك لحاجتها الماسة إلى التهدئة وعدم وجود أية خيارات أخرى تفرض على إسرائيل حسن التصرف.

انتبه هنا..... إن قيام أمريكا وإنجلترا بلطم إسرائيل لا يعني أنهم قد تخلوا عنها. فإسرائيل هي الابنة العاقة لأمريكا وإنجلترا. وفي بعض الأحيان فإن الأهل قد يلطمون أبناءهم إذا لم يحسنوا التصرف. إن العلاقة بين إنجلترا وأمريكا وبين إسرائيل ما زالت علاقة استراتيجية وطيدة.

الآن.... التحليل السابق ليس تحليلا سياسيا كافيًا وإنما هو تحليل تخميني جاء نتيجة ملاحظة الدوافع والظروف المحيطة. ولكن المعلومات التفصيلية ناقصة في هذا التحليل. ولكن من الممكن اعتبار هذا التحليل نقطة بداية للبحث، ومنه يمكن الانتباه للمعلومات التفصيلية المؤيدة أو المخالفة لهذه البداية.

إن هذه المقالة لا تهدف إلى تقديم تحليلات سياسية تفصيلية للأحداث وإنما الهدف من هذه المقالة (وهذا الكتاب) هو تقديم طريقة تفكير ومنهج تحليل. وأما التحليلات السياسية فجاءت لتوضيح هذه الطريقة.

وربما تقوم الأيام بإثبات صحة التحليل السابق (توريط إسرائيل في حرب محدودة) أو تثبت الأيام خطأ هذا التحليل. وهذا ليس أمرا أساسيا في هذا الكتاب.

فربما تكون طريقة التفكير صحيحة والتحليل خاطئ وربما تكون طريقة التفكير خاطئة والتحليل صحيح. فالتحليل السياسي هو لعبة ترجيح في عالم الاحتمالات. والقارئ هنا مدعو إلى النظر إلى طريقة التفكير والحكم فيما إذا كانت هذه الطريقة مفيدة أو بحاجة إلى التطوير أو غير مفيدة.

❖ امريكا وأوروبا وكيد الإنجليز

كما تم ذكره في مقالات سابقة فإن إنجلترا قد فشلت في الكثير من مكائدها خلال المئة سنة السابقة وكان أثر هذه المكائد على العالم كارثيا.

وكأمثلة لما سبق فإن إنجلترا هي التي خلقت الثورة الصناعية وهي التي أسست الفكر الرأسمالي. ولكن هذا الفكر كان غاية في الظلم إذ أدى إلى استعباد الطبقة العاملة لرفاهية الطبقة الأرستقراطية. وهذا أدى في النهاية إلى نشوء الفكر الشيوعي.

وعندما وجدت إنجلترا أن ألمانيا تزاحمها في المصالح في بداية القرن العشرين فإنها بدأت بتأليف الأحلاف وتأزيم المواقف. وهذا أدى إلى أول حرب عالمية راح فيها الكثير من القتلى والخسائر. وكانت أول نتيجة لهذه الحرب هو نجاح الشيوعيين بإقامة الدولة في روسيا.

وقامت إنجلترا بسلب أرض فلسطين من أهلها وتجميع اليهود من شتى أقطار الأرض إليها. وإذا نظر القارئ بدقة إلى المواقف المتأزمة في العالم فإن مشكلة فلسطين هي في مركزها، وإن حماقة إسرائيل ووقاحتها هي التي سهلت النمو لبذور الوحدة في العالم الإسلامي.

وقامت إنجلترا بغض الطرف عن النازية لضرب الشيوعية ولكن هذا أدى إلى قيام الحرب العالمية الثانية والتي كانت كارثة على أوروبا بكل ما في هذه الكلمة من معنى.

وقامت إنجلترا بإغراء صدام حسين للانقضاض على إيران في أول الثورة الإيرانية على أمل أن يتم إنهاء هذه الثورة. وقامت إنجلترا بتعزيز نفوذ صدام داخليا

وخارجيا. وأعلن صدام الحرب على إيران، ولكن إيران صمدت. وكان من نتائج الحرب الإيرانية العراقية أن تطورت المؤسسات الإيرانية إلى درجة الاحتراف وبسرعة كبيرة بسبب ضرورات الحرب.

وعندما انتهت الحرب الإيرانية العراقية فإن إنجلترا وجدت أن صدام قد خرج من هذه الحرب بقوة عسكرية طاغية. ووجدت إنجلترا أنه لا يمكن الوثوق بحماقة صدام وطموحه الذي لا ينتهي. ووضعت إنجلترا المكيدة "لتشليح" صدام من أسلحته وأدى هذا إلى حرب أطلسية عراقية في الخليج. وانتصر الإنجليز والأمريكان، ولكن النتائج غير المنظورة كانت كارثية على أوروبا وأمريكا، إذ إن ضرب العراق وتدمير أسلحة صدام المؤثرة قد أثر على ميزان القوى في الشرق الأوسط لمصلحة إيران. وإن الدولة الوحيدة في الشرق الأوسط والتي كانت قادرة على لجم إيران هي العراق.

وقامت إنجلترا بحشد الجيوش تجاه العراق مرة أخرى وذلك (على غلبة الظن) للضغط على النظام الإيراني وإجباره على التنازل. ولكن الظاهر أن إيران قد استطاعت أن تخدع الإنجليز والأمريكان. وهذا أدى إلى سقوطهم في المستنقع العراقي وليدخل الغرب الآن في دوامة من المشاكل الاقتصادية والمالية والاجتماعية والسياسية بسبب هذه الحرب.

لقد تضرر العالم الشرقي (روسيا والصين وإيران وباكستان و...) من المكائد المتواصلة من إنجلترا إلا أن هذه المكائد ساعدت على تكاتف الشرق وتفاهمه. وأما أثر المكائد الإنجليزية على أوروبا وأمريكا فإنه كان كارثيا.

ولهذا السبب فإن المكائد الإنجليزية الآن هي مشكلة أوروبية أمريكية قبل أن تكون مشكلة عالمية كما في المنطق التالي:

لقد تغير مركز الثقل العالمي مرات عديدة في التاريخ بين الشرق والغرب. وقبل حوالي ٣٠٠ سنة توجه مركز الثقل العالمي نحو الغرب. ولكن مركز الثقل الآن يتوجه وبشكل متسارع نحو الشرق (روسيا والصين وتركيا وإيران).

وحيث إن نفوذ واقتصاد إنجلترا يعتمد تماما على وجود مركز الثقل في الغرب ويعتمد على أن تكون هي في مركز هذا الثقل فإن إنجلترا ستكيد وتكيد كي تمنع تزحزح هذا المركز نحو الشرق.

إن تزحزح مركز الثقل نحو الشرق سيؤدي إلى الصراع. وهذا التزحزح قد يكون بطيئا أو سريعا، وهذا الصراع قد يكون هادئا أو شرسا. وهذا كله يعتمد تماما على استراتيجية أوروبا وأمريكا في التعامل مع الأحداث.

وحيث إن القوانين الكونية المتعلقة بالذكاء والانضباط والإرادة والانسجام الداخلي ودرجة الإسراف تجعل انتقال مركز الثقل من الغرب إلى الشرق أمرا شبه مؤكد فإنه لمن مصلحة أوروبا وأمريكا والعالم اتخاذ استراتيجيات تسمح لهذا التزحزح أن يكون بطيئا وهادئا. وحيث إن هذه الاستراتيجيات قد تنحرف بسبب قدرة إنجلترا على أخذ زمام المبادرة والقيام بمكائد لا تحظى بمعرفة واتفاق الآخرين، فلهذا فإن التزحزح قد يصبح، فجأة ودون إنذار، سريعا وشرسا. وهذا كله سيؤدي إلى خسائر أوروبية وأمريكية بالدرجة الأولى.

إنه لمن الطبيعي أن تقوم الدول بالصراع للمحافظة على مصالحها والتوجه نحو أهدافها. ولكنه من غير الطبيعي الآن ولا المنطقي أن تقوم الدول بالصراع من أجل مكيدة دبرتها إنجلترا في ليلة مظلمة دون علم من أحد.

وإن أحد الحلول المتوفرة لأوروبا وأمريكا للتخفيف من حدة المكائد الإنجليزية هو الدعوة لإنهاء الملكية و الأرستقراطية في إنجلترا وإعلان النظام الجمهوري وعمل دستور واضح وشفاف يحدد العلاقة بين الشعب ومؤسسة الحكم ويضع حدودا واضحة بين السلطات الثلاث (التشريعية والتنفيذية والقضائية) بحيث لا تستطيع أي سلطة من التحكم بالسلطة الأخرى.

إن خبث المكائد الإنجليزية يأتي بسبب طبيعة الحكم في إنجلترا وبسبب المهارة الدبلوماسية:

فنظام الحكم في إنجلترا قد تطور خلال عشرات السنين السابقة وتعلم خلالها النظام كيف يقوم بدفن الفضائح وكيف يتملص من التبعات. وكما تم الحديث عنه في مقالة سابقة فإن الأرستقراطية ما زالت هي القوة المؤثرة في إنجلترا (ضمن مثلث الحكم هناك) وأما البرلمان (مجلس اللوردات ومجلس العموم) فهو واجهة فقط بعكس البرلمان في أمريكا (مجلس الشعب ومجلس الشيوخ) وفرنسا. وإن طبيعة فصل السلطات الثلاث (التشريعية والتنفيذية والقضائية) في كل من أمريكا وفرنسا تجعل سلطة البرلمان عندهم حقيقية. وحيث إنها حقيقية فإن هذه السلطة قادرة على لجم الكثير من توجهات وأحلام رجالات السلطة التنفيذية وذلك للقدرة على ملاحقة المتورطين ومحاكمتهم. أما في إنجلترا فإنه لا يوجد فصل واضح بين السلطات الثلاث ، فالبرلمان هو سلطة تنفيذية وتشريعية وقضائية. والذي يحكم البرلمان يحكم هذه السلطات الثلاث .

وهذا هو السبب في القدرة الواضحة للحكومة الإنجليزية على تشكيل لجان تحقيق لا يخرج منها إلا الحشو الذي لا ينفع.

إن عدم وجود حدود واضحة للسلطات الثلاثة معناه بالعامي "أن الطاسة ضائعة". ولهذا فإن المسئولين الحقيقيين عن المكائد الإنجليزية في المؤسسة الأرستقراطية ووزارة الخارجية والمخابرات قادرون (بعد افتضاح الأمر أو حدوث الكارثة) على استخدام طبيعة النظام للتملص من تبعيات الفضيحة وتقديم أكباش الفداء ودفن الفضيحة والمعاودة مرة أخرى. وهذه القدرة ضعيفة في أمريكا وفرنسا مقارنة بإنجلترا بسبب اختلاف طبيعة النظام عندهم.

ومع أن مكائد إنجلترا قد سببت الإزعاج الكبير للعالم الشرقي (إيران وروسيا والصين) إلا أن هذه المكائد قد ساعدت على تلاقي وتفاهم هذه الدول. وأما أثر المكائد الإنجليزية على الغرب (أوروبا وأمريكا) فكان كارثيا. ولهذا السبب فإن هذه المكائد هي مشكلة أوروبية أمريكية خاصة قبل أن تكون مشكلة عالمية وعليهم (أوروبا وأمريكا) تحمل تكاليف معالجتها.

إن لجم المكائد الإنجليزية يتطلب خلق دستور واضح في إنجلترا يقوم بفصل حقيقي بين السلطات الثلاثة وتكون هذه السلطات مستمدة وبشكل حقيقي من الشعب وليس الأرستقراطية. وحيث إن النظام الإنجليزي قد تعلم عبر عشرات السنين الشابقة فن الواجهات (أي خلق الواجهة الأمامية أمام الناس والعالم والتي هي مخالفة تماما للمضمون) فإنه لا حل (ضمن غلبة ظن المؤلف) سوى بعمل أوفرهول(Overhaul) كامل للنظام بالدعوة إلى نظام جمهوري وإلغاء الأرستقراطية وامتيازاتها تماما.

تم الذكر سابقا أن مكائد إنجلترا تعتمد على طبيعة الحكم والمهارة الدبلوماسية. فأما الدبلوماسية فكما تم ذكره سابقا في الفصل ٢٠ فإن الإنجليز قد تمكنوا من مهارة التأثير (Charming Skills). وباستخدام هذه المهارة فهم قادرون على الدخول إلى القوى المختلفة في المجتمعات الدولية. وهذا يعطيهم القدرة الضخمة للقيام بالمناورات الدبلوماسية والسياسية.

ولكن إذا تم قطع أو تحديد أو رسملة (من رسمية) العلاقات الدبلوماسية مع إنجلترا فإن هذا سيؤدي إلى إضعاف القدرة الإنجليزية للقيام بالمناورات الدبلوماسية. وأفضل مثال على ذلك هو ما يحدث الآن: فإن الكارثة التي حدثت في العراق وأفغانستان والمواجهات الباردة التي حدثت بين الغرب وبين روسيا والصين ومحاولات إنجلترا التملص من تبعية الكارثة وتحميلها إلى أمريكا، كل هذا أدى إلى فتور في العلاقات الدبلوماسية بين إنجلترا وبين أمريكا وروسيا والصين وألمانيا. وهذا أدى إلى أن تكون المناورات الدبلوماسية الحالية لإنجلترا أقل تأثيرا وفعالية من مناوراتها قبل عشرة سنوات.

❖ ثورة ليبيا.. هنا دعوة إلى الاحتراف في العمل الاستراتيجي

أثناء كتابة هذه السطور (٢١-٣-٢٠١١) فإن القوات الأطلسية تقوم الآن بقصف قوات القذافي في ليبيا بالصواريخ امتثالا لقرار مجلس الأمن بعمل حظر جوي في ليبيا وتلبية لطلب قيادات الثورة في ليبيا.

وكما اغتبط المؤلف لقيام الثورة في ليبيا ضد القذافي كما أساءه قيام القوى الأطلسية بالتدخل في هذه الثورة.

هذه المقالة هي امتداد للمقالة السابقة "التفكير الطفولي والمنهج الاستراتيجي" (فصل ٢٠). والمقالة هنا هي دعوة إلى الاحتراف في العمل الاستراتيجي.

هناك فرق بين الاستراتيجية والتكتيك. فالاستراتيجية تتعلق باختيار الطريق إلى الهدف ووضع الخطوط العريضة المتعلقة بالمطلوب والمقبول وغير المقبول..إلخ. وأما التكتيك فهو يتعلق بكيفية معالجة العقبات والمشاكل التي تعترض المسير في هذا الطريق.

ولهذا السبب فإن التكتيك يجب ألا يخرج عن حدود الاستراتيجية وإلا لما كان هناك معنى من القيام بالتخطيط الاستراتيجي من الأساس.

الاستراتيجية هي الأولى والتكتيك يكون ضمنها وليس خارجا عنها.

وإنه لمن عدم الحكمة تماما القيام بتغيير الاستراتيجية بسبب وجود عقبة أو مشكلة أو أشواك مؤلمة في الطريق. وإنه لمن عدم الحكمة تماما القيام بشطب المخططات الاستراتيجية والتي تم استنزاف الساعات والأيام والسنوات من البحث والتفكير فيها بسبب وجود بعض المشقات في الطريق.

وعندما يتم تحديد الهدف الحيوي فإنه من الضروري القيام بالبحث عن الطريق (الاستراتيجية) الأمثل للوصول إليه. ولكن الطريق الأمثل لا يعني أبدا أنه طريق مصفوف بالورود. إن كل استراتيجية لها محاسنها ولها عواقبها. وتكون الاستراتيجية صحيحة إذا كانت محاسنها أعلى من عواقبها وكانت نتائجها أعلى من التضحيات والمشقات التي تتطلبها.

وهناك أمثلة عديدة لما سبق، فروما قد رفضت تماما دعوة هانيبال للهدنة والصلح مدة ١٦ سنة. وقد تكلفت روما في هذه المدة حوالي نصف مليون قتيل من

الجنود غير الخسائر المدنية والاقتصادية. ولكن النتيجة من هذه الاستراتيجية هي سيطرة عالمية استمرت مدة طويلة.

وحديثنا هنا عن الثورة الليبية. ولهذا دعونا نذكر شهيد المقاومة عمر المختار:

فلو أننا نظرنا إلى المختار كمثال منفرد ومنفصل عن خط الزمن فإنه قد يقال إن عناد المختار وامتناعه عن الصلح مع الطليان قد أدى في النهاية إلى إعدامه وإعدام الكثير من أصحابه وأهلهم وخراب الكثير من البيوت. وفي النهاية فإن عمر المختار لم يستطع أن يمنع سيطرة الطليان على ليبيا. بمعنى آخر فإنه يمكن أن يأتي رجال المسالمة ويقولون إن ما فعله عمر المختار كان عبثا، وأنه لو استسلم فربما استطاع أن يضع شروطا للصلح تسمح لليبيا بمعيشة أفضل.

ولكن لو نظرنا إلى عمر المختار كمرحلة متصلة من مراحل المقاومة عبر الزمن فإن ما فعله عمر المختار (وعلى كثير الخسائر) هو عمل نوعي وامتياز عظيم للمقاومة.

هذه هي النقطة الأساسية في هذه المقالة:

الصعود إلى قمة الهرم لا يكون بخطوة واحدة وإنما بخطوات مثابرة ومتكررة، والعدو العملاق لا يسقط فجأة وإنما الأمر يحتاج إلى مراحل متكررة، والصغير لا يصير عملاقا في مرحلة واحدة وإنما الأمر بحاجة إلى مراحل متكررة.

وما حدث مع عمر المختار هو مرحلة من مراحل المقاومة عبر التاريخ. وكما قال حسن نصرالله (بتصرف): المقاومة لا تتوقف، كلما يسقط فيها مقاوم يتلقف الراية مقاوم آخر ويمضي في الطريق.

ومع أن عمر المختار قد خسر المرحلة التي كان فيها إلا أن أفعاله الآن تبث روح المقاومة في أحفاده في ليبيا. وأصبح قوله الشهير: "نحن لا نستسلم، ننتصر أو نموت" شعارا حيا تردده المقاومة في ليبيا وخارجها.

وهذا مصداق لقول عمر المختار: "إن حياتي ستكون أطول من حياة شانقي". فالمستسلم لا يتذكره أحد والمقاوم (حتى وإن سقط في إحدى مراحل المقاومة) سيبقى علما خالدا في سطور التاريخ.

هنا نرجع مرة أخرى لنفس العبارات السابقة: أنت عندما تحدد الهدف وتستنزف الساعات الطويلة بوضع الاستراتيجية والخطوط العريضة، فإنك لا تقوم بالخروج عن هذه الاستراتيجية بسبب المشقات في الطريق. وأنت لا تقوم بتغيير هذه الاستراتيجية إلا إذا تبين خطؤها وهذا يتطلب ساعات طويلة من المداولة والتفكير لاتخاذ ذلك القرار. وأما القيام بتغيير الاستراتيجية بسبب المزاج أو بسبب بعض الأشواك في الطريق فهذا ليس عملا استراتيجيا وإنما عملا فوضويا.

وأما الأشواك في الطريق فيتم معالجتها بشدة الذكاء والمهارة والعزم والإرادة والانضباط، ولكن ضمن حدود الاستراتيجية والخطوط العريضة وضمن حدود الطريق.

ولقد أخذت الثورة في ليبيا قول عمر المختار (نحن لا نستسلم، ننتصر أو نموت) شعارا لها ولكن للأسف فقد أخذ الثوار أقوال عمر المختار ولم يأخذوا بأفعاله:

إن قيام ثوار ليبيا بالاستنجاد بالقوات الأطلسية لمحاربة القذافي هو استنجاد بإبليس لمحاربة الشيطان. والذين يستنجدون بإبليس فإنهم يفتحون له الثغرة للتدخل. وهذه ستكون علامة غير مضيئة أبدا في تاريخ المقاومة في ليبيا.

ما الذي تريده إنجلترا وفرنسا في ليبيا؟؟

بالطبع فإن الفرنسيين والإنجليز مهتمون بخلق نفوذ سياسي لهم عند ثوار ليبيا ولكن هذا الآن هو هدف ثانوي وليس جوهريًا، وأما الهدف الجوهري والمصيري فهو ضمان استمرارية الإمدادات النفطية من ليبيا إلى أوروبا. حيث إن استمرار حالة التمرد والتوتر في ليبيا مدة طويلة ستؤدي إلى ارتفاع أسعار النفط إلى مستويات قياسية وهذا له عواقب اقتصادية وخيمة على فرنسا وإنجلترا خصوصا في ظل الأزمة الاقتصادية الحالية.

انتبه هنا إن الأزمة الاقتصادية في فرنسا وإنجلترا هي أعمق بكثير من الأزمة الاقتصادية في ألمانيا. وانتبه كذلك إن الدعوة إلى الحظر الجوي فوق ليبيا قد جاءت من لندن وفي الأيام الأولى من الثورة على لسان ولي العهد السابق لليبيا.

ولهذا السبب فإن اهتمام فرنسا وإنجلترا منصب الآن على ضرورة إطفاء الحريق في ليبيا وضمان استمرارية النفط وليس بسبب المجازر التي يتم ارتكابها ضد المدنيين في ليبيا.

وأفضل مثال على ذلك هو أن مجزرة رواندا والتي حدثت قبل سنوات قليلة والتي ذهب ضحيتها قرابة المليون مدني لم تتأثر بها أوروبا ولم يتحرك لها جفن. بل إن هناك اتهامات رواندية بوجود أطراف أوروبية متورطة في هذه المجازر.

ما هي عواقب الاستنجاد بالقوات الأطلسية؟

هناك الكثير مما يخطر على الذهن ولكن أهمها هو أن هذا الاستنجاد سيضع صفة أخلاقية عالية لنظام الاستعمار الغربي، إذ إن أمريكا وإنجلترا وفرنسا ستقول للعالم الإسلامي إنهم (الغرب) وليس العالم الإسلامي من تقدم وأنقذ المدنيين في ليبيا. وأن نظام الاستعمار الغربي ليس شرا وإنما هو الخير مع بعض الأخطاء غير المقصودة!!.

وهذا سيكون محاولة دبلوماسية وإعلامية منهم للتملص من الجرائم التي حدثت في العراق وفلسطين وأفغانستان وباكستان وغيرها.

انتبه هنا إلى قول الله تعالى: ﴿ ... وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَـٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ ﴾ [النساء].

وكذلك فإن قرار الحظر الجوي (في هذه الظروف السياسية) سيضع سابقة للتدخل يمكن أن يستغلها الغرب في مناطق أخرى.

كما أن نجدة الغرب للثوار في ليبيا سيضع ضغطا أدبيا على الثوار تجاه طريقة التعامل مع الغرب.

وهناك عواقب أخرى سنعلمها تباعا. ولكن مهما كانت المحاسن والعواقب فإنه ضمن وجهة نظر المؤلف فإن استنجاد الثوار في ليبيا بالقوات الأطلسية سيبقى نقطة غير مضيئة أبدا في تاريخهم.

وهنا نأتي إلى السؤال التالي: ما الذي كان يجب على الثوار أن يفعلوه؟

فالناس كانت تتعرض للمجازر التي يقوم بها جيش القذافي فماذا كان يجب على الثوار أن يفعلوه؟

كما تم ذكره فإن التكتيك يجب أن يكون ضمن الاستراتيجية. وإنه لمن عدم الحكمة تماما القيام بالاستنجاد بإبليس لمحاربة الشيطان لأن هذا سيفتح نافذة لإبليس للدخول إلى مواقع النفوذ في المجتمع.

ولهذا السبب فإن التكتيك كان يجب ألا يتضمن أي تدخل من القوات الأطلسية مهما كان السبب.

وأما الإجابة على السؤال السابق فهو بالنظر بذكاء إلى الواقع. وضمن غلبة ظن المؤلف فقد كانت هناك فرصة سانحة لمعالجة هذه المشكلة في ليبيا: فإنه بدلا من القيام ومن اليوم الأول بالدعوة في المحطات الفضائية إلى فرض الحظر الجوي فإنه كان الأولى من الثوار في ليبيا إلى الدعوة ومن اليوم الأول لمصر وتركيا بالتدخل في ليبيا. وهذه الدعوة المتكررة إن استمرت فإنها ستسبب الإحراج الحقيقي لمصر وتركيا حيث إن كليهما يسعى لدور اعلامي في المنطقة. وإهمالهم المتكرر لهذه الدعوة سيكون غاية في الإحراج.

وعلى أية حال فإن الثوار يمسكون أوروبا من اليد المؤلمة لهم (النفط) وإذا كان الثوار في غاية الوضوح برفضهم التام لأي تدخل أطلسي واستطاعوا الصمود قليلا أمام القذافي فلن يجد الأوروبيون أي حل (بسبب خطورة الوضع الاقتصادي عندهم) سوى الضغط على الدول العربية بضرورة التدخل في ليبيا. بل ربما اضطر الأوروبيون إلى إرسال الأسلحة إلى الدول العربية ليتم نقلها إلى الثوار في ليبيا.

ويعترف المؤلف أنه غير مضطلع على الأحداث في ليبيا إلا ما ظهر في المحطات الفضائية، ولكن نظرة المؤلف للأمور هي من الصورة العامة إلى التفاصيل ومن الاستراتيجية إلى العمليات. ومن النظرة إلى الاستراتيجية فإن الاستنجاد بالغرب هو خطيئة استراتيجية ومن النظرة إلى الصورة العامة للأوضاع فإن أوروبا بحاجة ماسة لإنهاء التوتر في ليبيا. وضمن هاتين النظرتين فإنه كان للثوار في ليبيا الفرصة للخروج من المشكلة التي عندهم دون تدخل القوات الأطلسية إلى جانبهم. وهناك الكثير من الناس من يموت في الصحراء عطشا وهو يجهل أن الماء تحت قدميه.

دعونا الآن نتحدث قليلا عن الاستراتيجية:

إن هناك تشابها بين الاستراتيجية في الحرب والسياسة وبين الاستراتيجية في التجارة والأعمال. وفي عالم التجارة والأعمال فإن هناك ثلاثة مدراء:

* مدير جاهل بالاستراتيجية.
* مدير نصف (half) استراتيجي.
* مدير محترف في الاستراتيجية.

وإذا انتبه القارئ إلى الأمثلة التي حوله فسيستغرب من أن النجاح في المجال الإداري والتجاري هو للمدير المحترف في الاستراتيجية والمدير الجاهل فيها. وأما نصف الاستراتيجي فهو خاسر دائما. وقد قيل في الأمثال إن النصف طبيب هو أخطر من جاهل، وهذا المثل ينطبق كذلك على الاستراتيجية في التجارة، إذ إن النصف استراتيجي هو أسوأ من جاهل.

كيف تستطيع تمييز النصف استراتيجي؟؟؟

تستطيع تمييز النصف استراتيجي من عاملين اثنين:

* النصف استراتيجي لا توجد عنده أدوات موضوعية تساعده في تمييز المبالغة والتسخيف في تحليله للواقع. بمعنى أن النصف استراتيجي قد يقوم بتحليل

للواقع بشكل مبالغ فيه أو بشكل شديد السطحية ويقوم باتخاذ قرارات استراتيجية نتيجة لهذا التحليل.

* تنفيذ الخطة الاستراتيجية عند النصف استراتيجي تعتمد على المزاج. أي أن النصف استراتيجي قد يقوم بتغيير الطريق الاستراتيجي بسبب مشقة آنية في الطريق أو بسبب منفعة آنية ظهرت له في طريق آخر.

وسأترك للقارئ أن يلاحظ الأمثلة التي أمامه في محيطه كي يقتنع أو يرفض الادعاء السابق.

وأما الاستراتيجية في الحرب والسياسة فإن النصف استراتيجي والجاهل ليس لهما أي انتصار، وإنما الانتصار هو للمحترف فيها. ولكن هناك ثغرة في هذا المنطق خاصة للمسلمين. فكما تم الحديث عنه في المقالة السابقة (٢٠-التفكير الطفولي والمنهج الاستراتيجي) فإن القرآن والسنة فيهما الكثير من نصوص الاستئناس والتي تنفع في وضع استراتيجية ابتدائية للعمل. وبالطبع فإن الأولى هو الاحتراف ولكن الجماعات الإسلامية غير المحترفة في العمل الاستراتيجي يمكن أن تبقى ناجحة وصامدة حتى تتمكن من المهارات اللازمة.

وهنا الدعوة في هذه المقالة:

* إما القيام بنظرة محترفة وذكية لوضع استراتيجية واضحة للعمل (كما فعل حزب الله في لبنان).

* وإما الاستعانة بنصوص الاستئناس الموجودة في الكتاب والسنة لوضع استراتيجية ابتدائية واضحة للعمل (كما فعل حزب التحرير).

وبالنسبة لنصوص الاستئناس والثورة الليبية فقد قال الرسول عليه السلام: "لا تستضيئوا بنار المشركين" (رواه النسائي)، وواقع هذا الحديث قد تم بحثه في المقالة السابقة في الفصل ٢٠.

❖ **إيران وأحداث مصر والمستقبل**

سنعيد سرد المنطق الذي تم وضعه في الفصل ٢٩ (إيران والمستقبل) من هذا الكتاب.

هناك أربعة قوى ديناميكية واضحة في إيران:

١. التدين عند الشعب ورجالات النظام في إيران هو حقيقي وليس تمثيلا وليس رياءً للكاميرات.

٢. المؤسسات الإيرانية قد وصلت إلى درجة الاحتراف في الإدارة والسياسة والاستراتيجية والحرب والعلوم.

٣. الشعب والقيادة في إيران عندهم براغماتية عالية تسمح لهم بسهولة التأقلم مع الظروف.

٤. رجالات إيران ليسوا رجالات دولة وإنما رجالات إمبراطورية. ونظرتهم هي أن إيران ليست قوة إقليمية وإنما قوة عالمية. فرجالات إيران هم أبناء كورش وعلى خطاه.

والسؤال الآن... ما هو نتاج تضافر وتضارب هذه القوى الديناميكية خلال العشر سنوات القادمة؟

انتبه هنا...الحديث لا يتعلق أبدا بمخططات الإدارة الإيرانية، وذلك لأن الخطط قد تكون واقعية وقد لا تكون، وقد تنجح وقد تفشل، وقد يتم تنفيذها وقد يتم إهمالها. ولهذا السبب فالحديث لا يتعلق بمخططات أو توقعات أو آمال أو أحلام القيادات الإيرانية. وإنما الحديث هو عن امتداد القوى الديناميكية ونتائجها في إيران.

وضمن وجهة نظر المؤلف فإن القيادات الإيرانية في سعيها نحو العالمية ستتوقف يوما أمام نقطة تحتاج فيها إلى اتخاذ قرار مصيري. فإنه مهما كان احترام المسلمين لإيران ومهما كان وفاء وامتنان المسلمين لإيران فإن المسلمين الأغلبية لن

يرضوا أن يقودهم رجالات من المذهب الجعفري لوجود أفكار فلسفية في المذهب الجعفري تتعارض تماما مع مشاعر الأغلبية من المسلمين.

وعليه فستجد القيادات الإيرانية أنهم أمام مفترق طريق وأن عليهم تحديد وجهتهم وبشكل حاسم واستراتيجي:

١. إما بالتخلي عن أحلام الإمبراطورية في سبيل المحافظة على المذهب الجعفري.

٢. وإما بالتخلي عن المذهب الجعفري في سبيل تحقيق الحلم الإمبراطوري.

الآن .... الأحداث في مصر ستقوم بتعجيل ضرورة اتخاذ ذلك القرار الاستراتيجي. فمنذ ٢٠ سنة مضت فإن إيران هي الدولة الأقوى في العالم الإسلامي من حيث استقلالية اتخاذ القرار والاستقرار في مؤسسات الحكم ومن حيث الكفاءة الإدارية والسياسية والعلمية والتصنيع وغيرها.

ولكن الظروف تتغير، فإن تركيا تتوجه بأقدام ثابتة نحو تلك الاستقلالية والاستقرار والكفاءات. ومن المرجح أن تبدأ مصر بالتحرك نحو تلك الوجهة خلال السنوات القليلة القادمة.

وعليه فإن إيران مقبلة على تنافس في تمثيل مصالح المسلمين من جهة تركيا ومصر. ومن الممكن توقع قيام تحالف تركي مصري في المنطقة وذلك للقواسم المشتركة الكثيرة بينهما.

ومن الآن وحتى عشر سنوات (على الأقل) فإن إيران هي أقوى دولة إسلامية من حيث الاستقلالية والاستقرار والمهارات. وللمقارنة بين إيران وتركيا فإن الحرب الباردة بين إيران والغرب والحصار الغربي على إيران قد أعطى لإيران الفرصة لتعلم فنون المواجهة وإدارة الصراع. كما أنه أجبر إيران على الاكتفاء الذاتي. وأما تركيا فهي لم تتعرض لمثل هذه التجربة. كما أن الاستقرار والاستقلالية في تركيا ما زالت مهددة من القوى العلمانية (وإن كانت هذه القوى في انحدار

مستمر). وهذا هو السبب في القول إن إيران هي الأقوى في العالم الإسلامي وذلك بسبب التجارب والخبرات التي تعرضت لها. ولكن بعد عشر السنوات فإن هذا الادعاء قد لا يكون صحيحا.

كما تم ذكره سابقا فإن إيران مقبلة على أمرين: إما التخلي عن أحلام الإمبراطورية من أجل المذهب الجعفري وإما التخلي عن المذهب الجعفري من أجل الإمبراطورية.

ولكن في حقيقة الأمر فإن إيران ليست بحاجة للإعلان عن تخليها عن المذهب الجعفري. فالأمر أسهل من ذلك بكثير. إن كل ما تحتاج أن تفعله إيران هو جمع الجهابذة من علماء الجعفرية وعلماء السنة وعلماء الزيدية على سعة علم ولباقة حديث ودماثة خلق ودعوتهم للنقاش بهدف معرفة الحق أيا كان هذا الحق (أي أن الهدف ليس التقارب والمسامحة وإنما معرفة الحق). ويكون هذا النقاش عاما علنيا أمام جميع محطات التلفزة وأمام العالم الإسلامي كله. ويتم متابعة وتكرار هذه المناقشات لعدة مرات بهدف الوصول إلى الحق. ويكون العالم الإسلامي حكما على هذه النقاشات. وما دام هناك خالق لهذا الكون وما دام محمد بن عبد الله هو رسول هذا الخالق وما دام القرآن هو كتاب هذا الخالق فإنه لا يوجد أدنى شك عند المؤلف أن الحق سيظهر واضحا جليا أمام العالم الإسلامي نتيجة لهذه النقاشات العامة.

وما تفعله إيران بعدها هو اتباع هذا الحق أيا كان هذا الحق.

توجد هنا الآن فرصة تاريخية عظيمة لتحقيق التالي:

١. تحقيق الأحلام الإسلامية.

٢. ردم الفجوة وبشكل نهائي بين الجعفرية والسنة.

٣. جبر المشاعر التركية. حيث إن إيران لا يمكنها الإعلان عن قيادة العالم الإسلامي دون الاتفاق بينها وبين تركيا.

٤. جبر المشاعر العربية.

٥. إلخ.

وهذه الفرصة يجب ألا تفلت من اليد. وعليه يجب الضغط على إيران بشكل خاص وعلى علماء الجعفرية بشكل عام لترتيب نقاشات علنية بهدف الوصول إلى الحق أيا كان هذا الحق.

انتبه هنا..... الضغط هنا لا يتعلق بالذهاب إلى علماء الشيعة ومناقشتهم. فقد حدثت هذه المناقشات على مدى قرون طويلة ولم يكن لها أي تأثير. وإنما الضغط هنا هو لجمع الجهابذة من العلماء إلى طاولة نقاش علنية أمام العالم الإسلامي بأجمعه. وتكون هناك أنظمة واضحة للنقاش وتحديد زمن واضح للرد والرد المقابل بحيث يتم منع المقاطعة والإزعاج. وألا يكون هدف النقاش الأسئلة والأسئلة المضادة وإنما هو عرض للأفكار ووضع للحجج. وهذه النقاشات لا تهدف إلى الإحراج فمن لم يستطع الإجابة أو الرد فإنه قادر على تأجيل الرد إلى اليوم التالي. وطاولة النقاش ليست مرة واحدة وإنما يجب تكرارها مرات عدة لبحث الموضوع مرة وأخرى وأخرى. فجلسة واحدة لا تكفي لردم فجوة بين المسلمين قد حدثت منذ مئات السنين. ومن الضروري جدا أن يكون هذا النقاش أمام العالم لفرض الجدية والمسئولية أمام العلماء.

وإذا حدثت مثل هذه النقاشات وظهر الحق وقامت إيران بتبني هذا الحق فعندها يكون الطريق مفتوحا لها لتمثيل مصالح المسلمين وتحقيق أهدافهم.

وأما إذا لم تقم إيران بمثل هذه النقاشات فإن هذا لا يعني نهاية الأحلام الإسلامية وإنما يعني أننا يجب أن نصبر حتى تتمكن تركيا من اكتساب الاستقلالية والمهارات الكافية التي تسمح لها بإعلان عودة الخلافة مرة أخرى إلى اسطنبول. وأحلام الخلافة وأمجادها ما زالت تلهب عواطف الأتراك. وتستطيع تركيا أن تصل إلى المستوى الكافي من الاستقلالية والمهارات خلال السنوات القليلة القادمة.

وإذا لم تقم تركيا بقيادة الخلافة فإن هناك لاعبا جديدا قد دخل مؤخرا (ومتأخرا) إلى الساحة وهو مصر.

وهذه هي النقطة: فإن قيادة العالم كانت مطلبا وحلما ألهب كثيرا من الحضارات ومات لأجله الكثير من العظماء. وهذه الفرصة متاحة الآن لإيران ولمدة عشر سنوات فقط. فإيران تبحث عن العالمية والعالم الإسلامي يبحث عن القيادة الشرعية. فإن اقتنصت إيران هذه الفرصة كان هذا فوزا لها وخيرا للجميع وان أهملت إيران هذه الفرصة فهي الخاسرة. وأما العالم الإسلامي فإنه لن يخسر سوى بعض السنوات القلائل، إذ إن تركيا هي على الطريق وبخطوات حثيثة وتتبعها (وربما تسابقها) مصر.

❖ مواقف إيران وحزب الله من الانتفاضة السورية

في أثناء كتابة هذه السطور فقد سقط العشرات والعشرات من المتظاهرين في سوريا بأيدي رجال الأمن. وقد كان موقف قناة المنار التابعة لحزب الله وموقف قناة العالم وال Press TV التابعة لإيران في غاية السوء. فقد قامت هذه القنوات بتبرئة النظام الحاكم في سوريا من دماء الشهداء بل وقامت بالترويج لتبريرات النظام المتعلقة بسقوط هؤلاء الشهداء.

ولكن نظرة المؤلف تجاه إيران وحزب الله (والتي تمت مناقشتها في ثنايا هذا الكتاب) لم تتغير بسبب هذه المواقف. إن نظرة المؤلف لدولة (أي دولة) لا تتشكل بسبب المواقف الناشزة (ذكية كانت أو حمقاء، شهمة كانت أو رعناء). وإنما تتشكل هذه النظرة عن طريق دراسة القوى الديناميكية في هذه الدولة وعن طريق الانتباه للاتجاه العام لسياسات هذه الدولة.

وضمن نظرة المؤلف فإن موقف إيران وحزب الله من دماء الشهداء في سوريا هو موقف ناشز. ويتطلب الأمر أكثر من موقف ناشز كي يتم الانتباه أن الاتجاه العام للدولة (أو الجماعة) قد تغير (راجع الملحق الثالث).

دعونا نبدأ من البداية، ونسأل التالي:

لماذا ساندت سوريا (وهي دولة علمانية بعثية) خط المقاومة تجاه إسرائيل؟

والجواب هو التالي:

١- الشعور الحقيقي عند القيادة السورية أنهم مستهدفون من إسرائيل.

٢- الحاجة الماسة لغلاف أخلاقي يحيط بالنظام الحاكم في سوريا. إذ إنه ليس من السهل أبدا على الأقلية النصيرية في سوريا أن تبقى مسيطرة على البلاد دون وجود الحد الأدنى من الشرعية الأخلاقية. وقد أدت مساندة النظام الحاكم في سوريا لخط المقاومة تجاه إسرائيل إلى إعطاء هذا النظام الحد الأدنى من الشرعية وطنيا وقوميا.

ونتيجة لتراكمات السببين السابقين عبر الزمن فقد توثقت العلاقة بين إيران وسوريا والذي أدى كذلك إلى انحياز سوري أكثر وأكثر تجاه خط المقاومة.

يجب الانتباه أن الأولويات في سوريا كانت وما زالت التالي:

١- سيطرة العائلة الحاكمة على مقاليد الأمور في سوريا.

٢- سيطرة الأقلية النصيرية على الدولة.

٣- مساندة خط المقاومة كخط دفاعي استراتيجي تجاه أطماع إسرائيل في سوريا.

السؤال التالي الآن: لماذا تبكي إيران بحرارة الدماء البريئة في البحرين ولا تبكي الدماء البريئة في سوريا ؟

هناك أكثر من احتمال:

١- إن متانة العلاقات السورية الايرانية والتي ترسخت عبر الزمن قد منع إيران من انتقاد العنف والقمع والقتل والذي يقوم به النظام السوري تجاه المتظاهرين في سوريا. وهذا هو الموقف نفسه والذي اتخذه شافيز (حاكم فنزويلا) من الثورة الليبية.

٢- ربما تفائلت إيران بقدرة بشار الأسد على تدارك الموقف ولكنها تفاجأت لاحقا بتصرفات الجيش السوري ولم يكن بقدرتها سوى المضي بتأييده (تأييد بشار الأسد) مهما كانت العواقب.

٣- ربما وجدت إيران أن اللعبة الدولية يتطلب منها التمسك بنظام بشار الأسد بغض النظر عن المآسي التي يتسبب بها هذا النظام لشعبه.

ولكن تصرفات القنوات الايرانية وقناة المنار كان أحمقا. لقد استغرق الأمر وقتا طويلا حتى أصبح لقناة العالم وقناة المنار وقناة الـ Press TV مصداقية مشابهة لمصداقية قناة الجزيرة وربما مصداقية أكبر. ولكن صمت هذه القنوات لدماء الشهداء في سوريا وقيام هذه القنوات بالتصرف كبوق للنظام الحاكم في سوريا قد ضرب مصداقية هذه القنوات إلى الحضيض. وليس من السهل أبدا أن تبني المصداقية من جديد بعد أن سقطت. وقد قامت هذه القنوات بالتخلي عن مصداقيتها من أجل مصلحة آنية، وهذه هي حماقة كبرى.

إن قوة الذكاء ومهارة العمل الاستراتيجي هي في القدرة على تنفيذ المخططات والوصول إلى الأهداف دون التأثير على المصداقية. لأن المصداقية في الحقيقة هي أثمن ما يمكن أن تمتلكه أي دولة تسعى نحو القمة.

وكان يمكن لإيران أن تفعل على الأقل ما فعله أوردوغان (رئيس الوزراء التركي). ومع أن تصرف أوردغان هو أقل بكثير من المطلوب لكنه أفضل بكثير من تصرف إيران. فقد شدد أوردغان على العلاقة المتميزة بين تركيا والنظام السوري ولكنه انتقد بشدة استخدام العنف ضد المتظاهرين وشدد على ضرورة قيام النظام بإصلاحات سياسية.

وفي كثير من الأحيان فإن التصرف الاستراتيجي الصحيح قد ينتج عنه المتاعب والتضحيات. فالعمل الاستراتيجي الصحيح ليس دائما مفروشا بالورود وإنما قد يتطلب العمل الاستراتيجي الصحيح المضي في طريق المشقة. وبالطبع فإن

إيران إذا أخذت موقفا حازما تجاه العنف مع المتظاهرين في سوريا فإن هذا قد يهدد نفوذها عند النظام الحاكم في سوريا ولكن على المدى الطويل فإن مصداقية إيران في العالم الإسلامي ستصل إلى عنان السماء وهذه مصلحة أهم بكثير لإيران من نفوذها في سوريا.

إن القدرة على الوصول إلى الأهداف دون المساس بالمصداقية الأخلاقية يتطلب مهارة التعامل مع المتناقضات. وإن أفضل دولة استطاعت التمكن من هذه المهارة هي إنجلترا. وإذا انتبه القارئ فإن بداية السقوط الإنجليزي من مركز العالم قد بدأ يوم تجاهلت إنجلترا المصداقية الأخلاقية والقانونية أثناء الحرب الأطلسية الأخيرة على العراق.

وكمثال على مهارة إنجلترا في التعامل مع المتناقضات هي علاقتها مع المجلس الانتقالي الليبي (مجلس الثورة) فقد طالب هذا المجلس الاعتراف به ممثلا وحيدا عن الشعب الليبي وقامت فرنسا بالاعتراف به ولكن إنجلترا أعلنت "أنها لا تعترف إلا بدول" ولكنها ترى أن المجلس الانتقالي هو محاور جيد وتأمل التعامل معه بشكل وثيق. وبهذا الأسلوب استطاعت إنجلترا التعامل مع المجلس الانتقالي دون أن تعترف به رسميا وبالتالي فإن هذا مكنها من عدم حرق جميع أوراقها مع نظام القذافي. وهذا أحد أساليب التعامل مع المتناقضات.

ولكي يتم التمكن من هذه المهارة فلا بد من القدرة على مسك العصا من المنتصف (وهذا أمر تم بحثه في مقالة سابقة في هذا الكتاب) ومهارة التعامل مع المعارضة. ومن خلال التعامل مع المعارضة فسيكون هناك العذر الحقيقي والدافع الكافي للتمسك بالمصداقية وهذا هو أول الخطوات للوصول إلى الأهداف دون المساس بالمصداقية.

وهنا يجب التأكيد أن أهم شيء تمتلكه أي دولة تسعى نحو القمة هي مصداقيتها، لأنها بهذه المصداقية تستطيع أن تنسج الأحلاف وترتب القوى وتصل إلى المركز دون الحاجة لإعطاء أي ضمانات. وهذا ما أدركته روما وهذا ما أدركته إنجلترا. ومن

هنا فإن قوة الذكاء وشدة المهارة الاستراتيجية تكمن في القدرة على خداع العدو والإحاطة به والوصول إلى الأهداف دون المساس بالمصداقية. وهذا الأمر قد تم الحديث عنه بتفصيل في سطور هذا الكتاب.

ومن الواضح تماما من طريقة تعامل إيران مع دماء الشهداء في سوريا أن مهارة إيران في الوصول إلى الأهداف دون المساس بالمصداقية ما زالت أقل بكثير من مهارة إنجلترا.

السؤال الآن...... ما الذي يحدث في سوريا؟؟

هناك أكثر من زاوية في هذا الموضوع:

١- نتيجة للسنوات الطويلة من البطش والقمع فإن المستوى المهني في المؤسسات الإدارية قد تدنى. وأصبحت الوسيلة الوحيدة التي يعرفها النظام للتعامل مع الاعتراضات هي البطش.

٢- نتيجة للنجاحات في تونس ومصر واليمن وليبيا، ونتيجة لسنوات القمع والبطش في سوريا فقد تجرأ البعض في التظاهر مطالبين باصلاح النظام. وبسبب حماقات العسكر فقد ازداد الغضب الشعبي تجاه النظام حتى انكسر حاجز الخوف وأصبحت المطالبة الشعبية واضحة وحازمة بضرورة اسقاط النظام.

٣- هناك قرائن على وجود تعارض حقيقي بين السياسيين (ويقودهم بشار الأسد) وبين العسكريين (ويقودهم ماهر الأسد) في طريقة التعاطي مع المظاهرات الشعبية. فالسياسيون يريدون معالجة الأمور بهدوء والعسكريون يريدون معالجة الأمور بالبطش. ويبدو أن بشار الأسد غير ممسك تماما بمقاليد الأمور في سوريا.

وهنا نأتي إلى السؤال الأهم...... ما المتوقع حدوثه في سوريا؟؟

تشابك القوى في سوريا وتشابك المصالح بين سوريا والعالم الخارجي يجعل الأمور في غاية التعقيد ويجعل عملية الاستنتاج غامضة.

وبسبب موجة التغييرات الفجائية التي عمت العالم العربي فإن العالم الغربي يهدف وبشكل حقيقي على الإبقاء على الوضع القائم قدر الإمكان (لأن التغييرات الثورية ستؤدي إلى ثقافات وتطلعات هي مخالفة تماما لرغبات العالم الغربي). ولكن في الوقت نفسه فإن العالم الغربي لا يستطيع أن يقف ساكتا أمام المجازر التي يتعرض لها المدنيون. وهنا تظهر المعضلة الكبرى أمام القادة الغربيين.

وكذلك فهناك نقطة أخرى جديرة بالانتباه وهي أن الجيش في سوريا ليس جيشا دستوريا وإنما جيشا عقائديا (ضمن عقيدة حزب البعث وضمن الولاء للأقلية النصيرية) وهذا معناه أن الجيش بهيكلية القيادة فيه لن تقوم بحماية الشعب من الأجهزة الأمنية ولن تكون على الحياد وإنما ستكون بيد النظام الحاكم (كما حدث في ليبيا).

وهنا ندخل إلى دوامة من الاحتمالات لتحديد الأحداث المستقبلية لسوريا:

١- ينجح الجيش السوري بقمع المظاهرات في البلاد وبنفس الأسلوب الذي تم استخدامه في حماه قبل ثلاثين سنة. وهذا معناه سقوط الكثير والكثير من القتلى في صفوف المدنيين. ولكن هذا الاحتمال ضعيف حيث إن تماسك النظام الآن هو أضعف بكثير من تماسكه قبل ثلاثين سنة كما أن حالة الاحتقان من النظام الآن منتشرة في كثير من الأقاليم السورية.

٢- يبدأ الجيش بقمع المظاهرات وبشكل خارج عن المعقول (كما فعل النظام الليبي) وعندها تبدأ الثورة المسلحة وتبدأ قطاعات من الجيش بالتمرد لصالح الثورة وتقوم الحرب الأهلية في سوريا.

٣- يستطيع بشار الأسد من مسك مقاليد الحكم بشكل حقيقي وكامل قبل استفحال الأمور ويعزل الجهات الأمنية الداعية للبطش ويحاكمها ويقوم بإصلاحات دستورية كافية لتهدئة الشعب السوري. وهذا ما يتمناه الغرب وتدعو له تركيا.

وبسبب حماقة الأجهزة الإدارية في سوريا فإن الاحتمال الغالب على ظن المؤلف هو الاحتمال الثاني وهو أن تؤدي الأمور إلى حرب أهلية في سوريا.

ولكن هناك نقطة جوهرية هنا وهو أنه لا أحد في العالم يريد أن يرى حرب أهلية في سوريا حيث إن لا أحد يستطيع أن يستنتج تداعيات هذه الحرب على منطقة الشرق الأوسط وخصوصا في هذه الظروف الملتهبة في العالم العربي.

وأكثر دولة معنية بمنع حدوث حرب أهلية في سوريا هي تركيا بسبب التأثير السلبي لهذه الحرب على الوضع في تركيا. ولهذا السبب فمن الممكن الاستنتاج أنه إذا تداعت الأمور إلى حرب أهلية في سوريا فإن تركيا معنية وبشكل مباشر إلى إنهائها وبشكل سريع وحاسم لمصلحة الشعب السوري.

المراجع

المراجع الرئيسية

❖ المراجع العربية:

- أسد الأشقر، الخطوط الكبرى في تاريخ سوريا ونشوء العالم العربي (الجزء الأول – القسم الثاني): الحضارة الكنعانية السورية في حوض المتوسط. (١٩٨٠) بيروت: دار الفكر.
- أدولف هتلر، كفاحي. ترجمة: لويس الحاج (١٩٨٦) دمشق: طلاس للدراسات.
- إيريك موريز، مدخل إلى التاريخ العسكري. ترجمة: أكرم ديرى والهيثم الأيوبي (١٩٧٩) بيروت: المؤسسة العربية للنشر.
- تقي الدين النبهاني، مفاهيم سياسية لحزب التحرير. (١٩٥٣) منشورات حزب التحرير.
- تقي الدين النبهاني، نظرات سياسية لحزب التحرير. (١٩٧٣) منشورات حزب التحرير.
- فرونتينيوس، خدع حربية. ترجمة عبد الله كحيل (١٩٨٦) لبنان: دار الفارابي.
- ليدل هارت، الإستراتيجية وتاريخها في العالم. ترجمة: أكرم ديرى والهيثم الأيوبي (١٩٦٧) بيروت: دار الطليعة.
- مايلز كوبلاند، اللعبة واللاعب. (مترجم – ١٩٩٠) بيروت: دار الحمراء.
- محمد أرشيد العقيلي، الشيعة نشأتها وتطورها حتى أواسط القرن الثالث الهجري. (١٩٨٠) عمان: المطبعة الأردنية.
- محمد جلال كشك، ثورة يوليو الأمريكية. (١٩٨٨) مصر: الزهراء للإعلام العربي.
- محمد حسنين هيكل، زيارة جديدة للتاريخ. (ط٦ – ١٩٨٧) مصر: دار الشروق.

- هاي روتشليس، التفكير الواضح. ترجمة لطيف دوس (١٩٦٨) مصر: نهضة مصر.

❖ **مراكز البحث في الإنترنت:**

- الباحث العربي قاموس عربي عربي: http: //www.baheth.info/index.jsp
- المعاجم: http: //lexicons.sakhr.com
- مشروع المحدّث - محرّك البحث: http: //www.muhaddith.org/cgi-bin/a_Optns.exe
- المكتبة الإسلامية - نداء الايمان: http: //www.al-eman.com
- موقع الإسلام : http: //www.al-islam.com/arb
- وكيبيديا: http: //www.wikipedia.org
- ويكي - المكتبة الحرة: http: //ar.wikisource.org/wiki

❖ **برامج بحث:**

- القرآن الكريم مع التفسير. (الإصدار الخامس) http: //www.islamspirit.com
- موسوعة الحديث الشريف. (الإصدار الأول) صخر لبرامج الحاسب.
- موسوعة رواة الحديث. (الإصدار الثاني) مركز نور الإسلام لأبحاث القرآن والسنة.

❖ **المراجع الأجنبية:**

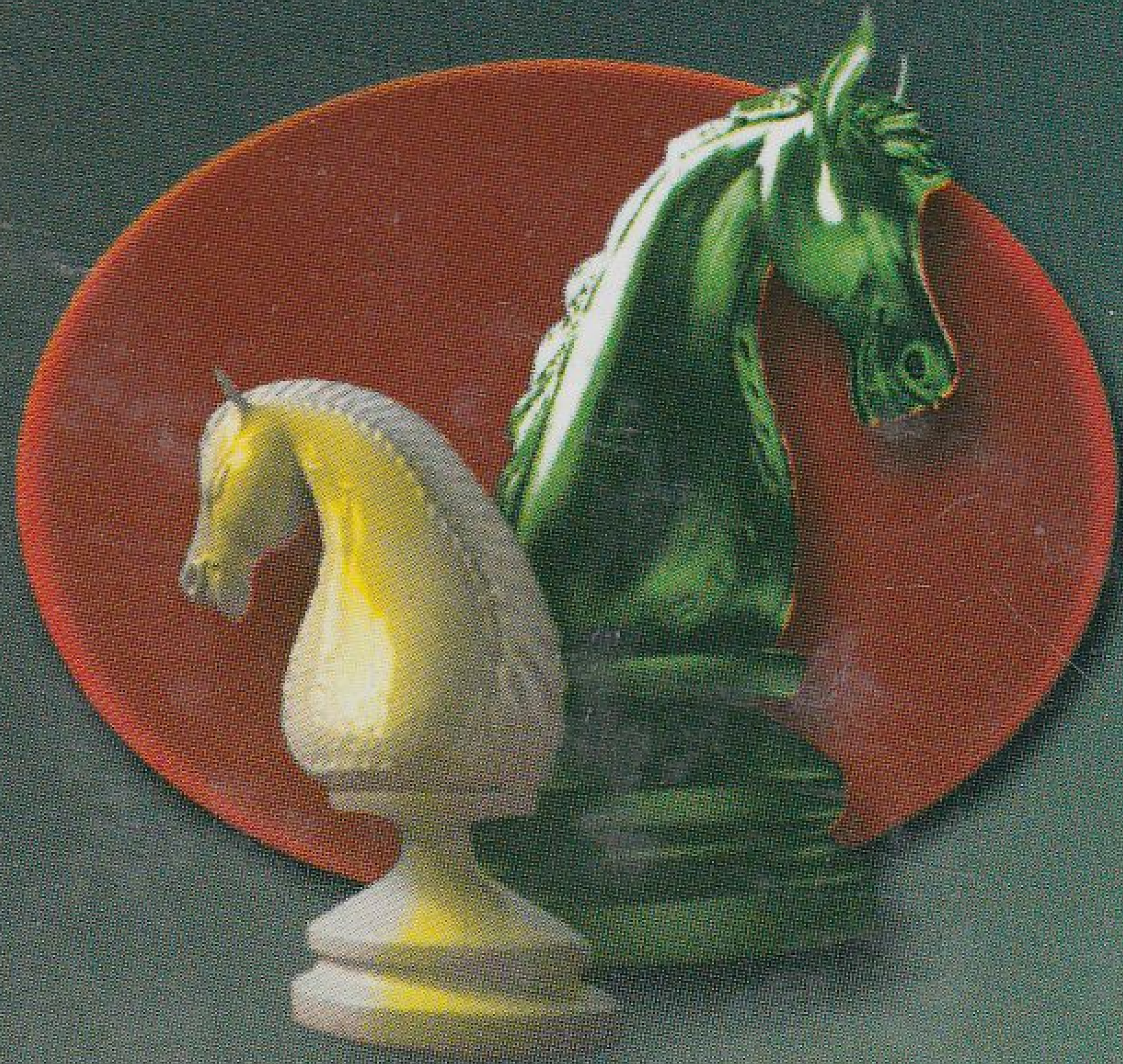
- Andreas, Steve. (2002) Transforming Your Self: Becoming Who You Want to Be US: Real People Press.
- D'Herbemont, Olivier. and Cesar, Bruno (1998) Managing sensitive projects : a lateral approach UK: Macmillan.
- Diodorus Siculus, (about 100 BC) The Library of History, Translated Copy at : http: //penelope.uchicago.edu/Thayer/E/Roman/Texts/Diodorus_Siculus/home.html
- Gerald James. (1995) In The Public Interest UK: Little, Brown and Company

- John Gall. (1986) Systemantics: The Underground Text of Systems Lore US: General Systemantics Press.
- Miles Copeland. (1989) The Game Player UK: Aurum Press.
- Peter Wright. (1987) Spy Catcher US: R.R Donnelley & Sons.
- Phil Hanford, "Developing director and executive competencies in strategic thinking" (in) Developing Strategic Thought edited by Bob Garratt, (1995) UK: HarperCollins Publishers.
- Pliny the Elder, (79 AD) Natural History Translated by H. Rackham, W.H.S. Jones, D.E. Eichholz. US: Harvard University Press.
- Frontinus (Sextus Julius Frontinus), Stratagems (About 100 AD) Translated Copy at: http: //penelope.uchicago.edu/Thayer/E/Roman/ Texts/Frontinus/Strategemata/

❖ مؤلفات سابقة للمؤلف:

- عمر محمد، فلسفات الحكم والدستور (١٩٩٩) لبنان: دار النهضة الإسلامية.
- عمر محمد، بذور الهلاك: التربية التي زرعت فينا منذ ١٣٧٩ سنة (٢٠٠٠) لبنان: دار البيارق.
- عمر محمد، أفكار منهجية في البحث والتحليل والإدارة (٢٠٠٦) نسخة إلكترونية في: http: //omr-mhmd.yolasite.com

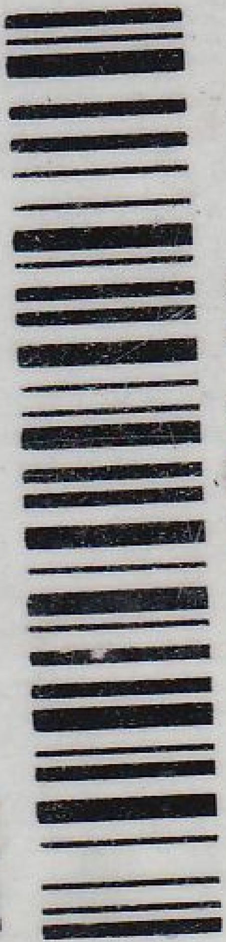
٢٠١١/٨٣٠٧	رقم الإيداع
977-10-2700-X	I.S.B.N



..... جميع المعارك الفاصلة في التاريخ تم
حسمها بسبب توافق ثلاثة عوامل فقط:
الذكاء والانضباط والإرادة.

أما التكنولوجيا ونوعية العتاد فهي لم تكن أبدا
السبب في الهزيمة أو الإنتصار وإنما كانت
مؤثرة في سرعة أو بطأ، سهولة أو صعوبة
الانتصار.

أي أن من يتفوق على عدوه بالذكاء والانضباط
والارادة فهو المنتصر في النهاية ولا محالة وإنما
قد يحتاج هذا الانتصار إلى بعض الوقت و
من التضحية .....




I.S.B.N. 977-10-2700-X
تطلب جميع منشوراتنا من وكيلنا الوحيد بالكويت والجزائر
دار الكتاب الحديث